

**غارسوا الفسائل
وأصحاب الأعين الصفراء**

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: غارسوا الفسائل وأصحاب الأعين الصفراء

التأليف: فاطمة نصار

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 856 صفحة

عدد الملازم: 53.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

الترقيم الدولي: 978-9921-815-535

القاهرة - جمهورية مصر العربية



٠١٠١٢٣٥٥٧١٤

٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار الشريعة



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة
محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم .
حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا
يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة
نشر أية معلومات أو صور من هذا
الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

غارسوا الفسائل وأصحاب الأعين الصفراء

رواية

فاطمة نصار



ما بعد البداية

(١)

كانت لقرية المروج صورة ثابتة في ذهن كل من رآها، صورة نقلوها إلى غيرهم فكانت سبباً لجعلهم يتوقون إلى رؤيتها بدورهم، تمثل كل تلك السهول الخضراء، والمساحات المعشوشبة الممتدة، وضوء الشمس الذي يمتد على مختلف أنواع الزروع فيسقط في الصدر ليشرحه قبل أن يسقط على الزرع ليغذيه.

في منتصف القرية بالضبط كانت دار المنارة المخصصة للتعليم، حيث يجلس الشيخ في صدارة أحد فصولها مهيباً وقوراً تبعث هيأته الطمأنينة والراحة؛ فتجد بذور كلماته في الأنفس أرضاً ممهدة تستقبلها بحفاوة وتمتص نفعها بشغف. وقد خصصت ثلاث جلسات أسبوعية في الدار لتدريس الأطفال الأصغر سناً، خلالها يمنحهم الشيخ برحابة صدر رقيقة من جميع العلوم، لتشكل درجة يرتقون عليها حين تعترضهم مسائل أكبر وخطوب أشد، وحالما ينتهي من درسه، يهب الأطفال بحماسة ليسألوه نفس السؤال كل مرة:

- «يا شيخ مدرار، أحقاً كان غارسوا الفسائل أبطالاً أقوياء لا يشق لهم غبار؟»

فيبتسم الشيخ ويحجب بصبر بنفس الإجابة كل مرة:

- «كانوا ولا يزالون، وهذا مما لا شك فيه يا أبنائي.»

توزع طفلة صغيرة بعينين ناهيتين نظراتها على أقرانها، قبل أن توجه إليهم كلماتها المعتادة بابتسامة واثقة وفخر طفولي ظريف:

- «إني محظوظة لأنني ابنة أبي؛ فالقصص التي تنتظرون أيامًا لتسمعوها حول غارسي الفسائل وأمجادهم وعجائب ما أنجزوه، أسمعها أنا كل يوم قبل أن أنام، ودون أن أطلب!»

يقهقه الشيخ برزانة، في حين يرمقها بقية الأطفال في غيرة، وينطلق كل منهم -في محاولة لرفع مستوى المنافسة- يعدد محاسن أبيه وما الذي يعود عليه من كونه ابن أبيه بالذات. من ثم يتحدث طفل يبدو جليًا من تعابيره وطريقة كلامه أنه يتمتع بشخصية قيادية لا شك فيها، ولعنيه المتسعيتين بريق يوحى أحيانًا بالذكاء وأحيانًا بالحماس لشيء غير معروف الكنه، كان هذا الطفل أنور الذي كانت بينه وبين غيم ابنة الشيخ مدارار معاهدة غير منطوقة بالألّا يترك أحدهما كلمة ينطقها الآخر تمر بسلام، ويقول:

- «يمكنك أن تنعمي بوقتكَ أثناء الاستماع إلى الحكايا إذن، وفي غضون ذلك؛ سأجعل أنا أبي -حاكم قرية المروج- يأخذني وأصدقائي إلى ما وراء البحيرة، عند منطقة الجبال الوعرة حيث تعيش اليتيمة صدى، وثقي أنني لن أسمح لك بالذهاب.»

كانت أسطورة اليتيمة صدى من أشهر الأساطير في قرية المروج، إذ يُقال أن أي شخص يزور منطقة الجبال وحده في أي وقت، أو مع جماعة في وقت متأخر من الليل؛ فإنه يسمع ما يشبه بكاء طفل رضيع. وهناك من شاء تفسير هذه الظاهرة بقول أن القصة في الأصل ترجع لزمان غابر تعرضت فيه قرية المروج لغزو، ولينجوا بحياتهم فرزوجان مع طفلتها الرضيعة سالكين الطريق الموحد في منطقة الجبال، ولوعورة الطريق وجهل الزوجين بها؛ لم يكن من الصعب على العدو أن يدرکہما، وفي خضم المحاولات اليائسة

للإفلات، انزلت الرضيعة من بين ذراعي أمها واستقرت في أخدود خفي بين الصخور، لم يكرث الجند بالبحث عن الرضيعة المفقودة، واقتادا الأم المكلومة وجثمان الأب الذي كان يقاوم بمفرده كتيبة كاملة، عائدين بهما إلى القرية المحتلة، ومن بعدهما ظلت الرضيعة قليلة الحيلة تعوي وتبكي بلا محجب، واستمرت الجبال بتناقل صدى بكائها إلى اليوم. وقد كانت منطقة الجبال تلك مكاناً أشبه بالجنة المفقودة في خيالات الصغار؛ فقد كانوا يتوقون إلى مغامرة حقيقية تعدهم بها تلك الدرب الغامضة، ويأملون في سماع ذلك الصوت الباكي الوارد في الأسطورة، والذي لا يستطيع حي أن يؤكد على حقيقة سماعه له.

تنظر غيم إلى والدها محتجة وهي تقول:

- «أبي سيتحدث إلى الحاكم وسأذهب إلى حيث شئت، لا أهتم إن كنت تسمح أم لا!»

في كل لقاء كانت تدور نفس تلك المحادثات، ودائماً ما كانت تنتهي مشاكسات الأطفال في هذا الصدد حين يلحظ الشيخ مدرار انكماش الطفل ساري وعزوفه عن الخوض في الحديث، وفي تلك الحالة كان يلجأ مباشرة لترك ناصية الحديث بيد الطفل وادع؛ إذ كانت أحاديثه محور اهتمام دائم لبقية الصغار.

في وقت لاحق وفي طرقات القرية، كانت الصغيرة غيم تتمشى بسرور تاركة شعرها الثائر المنتفش بلا تدخلات من جدائل أو شرائط، وهي تدندن بعض الأناشيد بصوت مرتفع.

جوار غيم تسير فتاة تكبرها بسنوات قليلة، ليلة ابنة الحاكم وأخت أنور الكبرى، وبرغم العلاقات المضطربة بين أنور وغيم كانت ليلة صديقة لتلك

الأخيرة، وصديقة لكل أطفال القرية على وجه العموم، وكانت مضرب مثل في الأدب والرزانة، ومحط إعجاب الجميع بنبرة صوتها المتزنة وعقلها الراجح، وكانت من أكثر التلاميذ نبوغاً وفهماً في دار المنارة.

نرى جوار غيم من الجهة الأخرى طفلة تُعرف في القرية باسم (تبر) نسبة للون خصلات شعرها البرّاقة الشبيه بلون الذهب الخالص، كانت وشقيقتها التوأم وادع مختلفين اختلافاً جلياً عن بقية أطفال القرية؛ فمع شعريهما المطليين بأشعة الشمس كانت أعينهما تحتلسان عيّنة من زرقة السماء في بؤبؤيهما الخلابين، وكذلك كانا شديدي بياض البشرة شديدي حمرة الوجنات. كانا قادمين وعائلتهما من مكان بعيد بعيد، من مكان لا يسكن فيه أناس ذوو أعين صفراء كما هي طبيعة الناس في قرية المروج، بل كانوا بأعين زرقاء، وأرجوانية، وربما قرمزية، وكان أطفال القرية على استعداد للتسامح مع الشعر الذهبي والوجنات المتوهجة، لكن أن يكون للأعين لون غير الأصفر؛ فهذا هو التجديد الحق! لهذا كانوا ينصتون باهتمام حين يبدأ وادع وتبر بالحديث عن بلادهما، وإن كانت الحقيقة التي يتجاهلونها جميعاً هي أن أيّاً من التوأمين لا يعرف شيئاً فعلياً عن البلاد التي ينتميان إليها؛ إذ أتى بهما أبوهما إلى هنا منذ كانا رضيعين دون عامهما الأول، ووقتها عقدا العزم على اتخاذ هذه القرية وطناً لهما، حيث يتاح لهما غرس الفسائل بحرية لا تتوافر في بلادهما، وقررا أن هذا المكان هو الأفضل لنشأة توأميها العزيزين.

كانت رؤوم والدة غيم هي أول من كسر الحاجز، وفي حين كانت والدة تبر ووادع منكمشة في دارها لا تعرف عن ثقافة القوم الذين حلت ضيفة على قريتهم حرفاً، قررت والدة غيم أن تبادر وتعرّفها إلى هذه الأرض الحفّية التي سترحب بأسرتها لا ريب، ومنذ ذلك الوقت انعقدت صداقتهما الوثيقة ولم تحل، وغدا التزاور مرة أسبوعياً على الأقل، وتبادل الأطعمة والهدايا،

ضرورة ملحة شأنها في ذلك شأن الأكل والنوم. ومن ثمّ تشعبت علاقات أم التوأم -التي عرفت فيما بعد باسم (حسناء)؛ لسبب واضح- مع بقية النساء، وكانت رؤوم همزة الوصل بينهما، وسرعان ما انسجمت حسناء في عادات نساء القرية وطبائعهن فأصبحت لا يكاد يفرّق بينها وبينهن فارق.. اللهم إلا لون الشعر والأعين!

ولأن القرية صغيرة، كان لا بد أن يتقاطع طريق الفتيات الشاديات مع طريق الفتیان الراكضين، وكان لا بد أن يحتك أنور وغيم ببعضهما من جديد. ولربما كان على أي منهما أن يجد سبباً للمناوشة كل مرة، لكن ليس هذه المرة؛ فالسبب كان موجوداً من تلقاء نفسه.

هناك كان يقف أنور ووداع وعدة صبية، يتحلّقون حول ساري الذي انكمش على نفسه ولم يبدُ قادراً على المقاومة، وقد انقبضت يمناه على حزمة صغيرة من النعناع الذي زرعه بنفسه، والتي انسحقت بقوة تحت ضغط يده. كان من النادر أن يتمكن طفل من زراعة نبتة بالكامل وحده في سن كهذه، وكان من المحتمّ أن يثير ذلك غيرة الأطفال الآخرين الذين كانوا بالكاد يستطيعون كفل مسؤولية سقاية النباتات ومراقبتها وهي تترعرع وتنمو، صحيح أن النعناع لم يكن نباتاً صعب الزراعة، لكنه كان نباتاً زرعه ساري بمفرده وكفى.

- «أعطني هذه النعناعات.»

قالها أنور منتظراً الإجابة التي يعرفها جيداً، وقد كان يتحين الفرص ليزعج ساري ويتسلّى بإخافته.

- «لقد بذلت فيها مجهوداً كبيراً!»

- «عن أي مجهود تتكلم؟ كم يوماً يستغرق النعناع حتى ينمو أصلاً؟»

- «ما دام الأمر بهذه السهولة؛ فلم لا تزرع واحدة بنفسك؟»

أمسك أنور بتلابيبه وجذبه بعنف وهو يجيب:

- «لأنني أريد هذه، هذه بالذات، أتفهم؟»

مرت لحظات كان ساري يحاول الحفاظ على ثبات تعابيرهِ خلالها وهو ينظر إلى عيني أنور المثبتين عليه، عندما صدر الصوت الرقيق المفعم بالقوة:

- «هيه أنت! اترك أخي وشأنه!»

التفت أنور بلهفة وقد سره تدخلها، دفع ساري بعيداً فاختل توازنه لتسقط حزمة النعناع من يده ويسقط فوقها محيلاً إياها إلى عصير، اتجه أنور نحو غيم بكل كيانه قائلاً باستهزاء:

- «أوه، منذ متى كان لساري إخوة؟ إنه مجرد يتيم كان لأبيه تاريخ مخز، ولا أهل له غير أمه السقيمة، وليس على أحد أن يحشر أنفه بيني وبينه!»

اقتربت غيم خطوتين وقالت بإصرار:

- «بل هو أخي وأنت تعرف ذلك جيداً! ثم إنه زرع زرماً بيده، أنت تدرك معنى ذلك، صحيح؟ إنه غارس فسائل حقيقي، بغض النظر عن أي شيء آخر، لقد قرر ساري أن يفعل شيئاً مشرفاً، وكما يقول أبي دائماً: (لا أحد مسؤول عما يعترضه من ظروف ومصائب، لكن الناس مسؤولون دائماً عن طريقتهن في مواجهة تلك الظروف والمصائب!). أظن أنه من الأفضل لك أن تحاول تقليد ما فعله، بدلاً من أن تتقوى عليه وتؤذيه، من يدري؟ لربما تمكنت بعد ألف سنة من جعل بذرة تشق الأرض!»

ابتسم أنور باستخفاف وقال:

- «محاضرة رائعة، لكنني لا زلت أتساءل: من سيمنعني من إيذاؤه؟»

- «أنا، وسأطلب من أبي أن يعاقبك عند الدرس المقبل!»

اندفع أنور في همجية موشكاً على نقل المشكلة إلى مستوى آخر، لكن تبر -التي كانت على خلاف أخيها الوداع، قوية لا تقبل السكوت- حالت دون وصوله إلى غيم، دفعته من صدره بقوة وهي تطالبه بالتوقف والابتعاد، حينها صرخ أنور بغضب:

- «أيتها المشوّهة، إليك عني! ألا يكفي أن أبي سمح لكم بالبقاء في قريتنا؟ أهذا ما تردين به المعروف أيتها المسخ؟»

كان وادع -كما يخبر الاسم الذي أطلق عليه- وادعاً يحبذ السلامة ويتجنب المشاركة في أي عراك، لكن هناك لحظة فارقة ينتهي عندها التجنب وتبدأ فيها الحميّة، إن أنور -وإن كان صديقه- أهان أخته وسخر من عائلته كلها، وهو ما لا يمكن السكوت عنه.

هكذا تحوّلت المناوشة اللفظية إلى معركة بمعنى الكلمة، وأصبح الموقف كافيّاً كي يتوقف المارّة ليراقبوا المعركة في انزعاج، يقدّمون قدماً ويؤخرون أخرى، متسائلين عن اللحظة التي يجب أن يتدخلوا فيها. ومن وسط الأطفال المتحاربين وقف طفلان خارج الحرب يراقبان بصمت، الأول كان ساري الذي ظل يرمق العراك من بعد بحيادية مستفزة كأنه وصل لتوّه، وكأنه ليس سبب كل ما يجري، والثانية كانت ليلة التي كانت أعقل من الدخول في شجار، وأكثر حكمة من أن تنحاز لجانب أنور أو غيم فتخسر أحدهما.

أخيراً اتخذ وسم الأبكم صانع المربي موقفه، ورأى أن العراك لن ينتهي على خيرٍ ما لم يتدخل أحد ليفضّه، هكذا مد ذراعيه الطويلين بين غيم وأنور ودفع كلاّ منهما إلى جهة بصعوبة بالغة؛ فليس أصعب من صد طفل نوى القتال بكل ما فيه من عزم، عندها يتحوّل هذا الطفل إلى عفريت حقيقي لا يمكن إيقافه بسهولة.

ومع انفصال أنور وغيم انفك تلاحم الباقيين من الأطفال، وبدأ الجمع ينفض ويذهب كل إلى حال سبيله، لكن تراشق السباب والتهديدات بين النذنين لم يتوقف، في غمرة انفعاله صاح أنور:

- «لنر ما بوسع أبيك فعله أيتها الحمقاء حين يعرف أبي بما فعلته ويعاقبك أمام القرية كلها! ابقي على تباهيك بكونك ابنة الشيخ مدرار.» قالها بسخرية مقلداً طريقة غيم في الكلام. «حتى تحين اللحظة التي تدرकिन فيها أن أبي هو من يمسك بزمام كل الأمور!»

لم تتمالك غيم نفسها، وكان لا بد من الدفاع عن كرامة والدها؛ لذا صاحت باندفاع:

- «وما الذي يعرفه أبوك حتى؟ إن أبي يحفظ منهاج الغارسين كاملاً عن ظهر قلب، ويعرف كل شيء عن كل شيء! والدك مجرد شخص جاهل يحتاج إلى أبي وبقية الشيوخ حتى يعلموه ما لا يمكنه هو فهمه!»

خرست كل الأصوات بعد عبارتها، إلا صوت الريح تهب بحماس حاملة حبيبات الرمل التي تخز الجلود، منذرة بقدوم عاصفة وشيكة.

تبادل الواقفون النظرات، وكان ذلك في اللحظة التي وصل فيها التاجر جواد، والد وادع وتبر، الذي كان يبيع أندر أنواع البذور والنباتات، ويملك علماً واسعاً بوظائف تلك النباتات واستخداماتها، وعلى الرغم من قدومه من بلاد كانت الزراعة محرمة فيها، إلا أن ذلك لم يحل دون تعلمه لأساسيات ما كان ينتمي إليه بكل كيانه، ويدرك أنه الشيء الصحيح. وقد أظهر جواد من كرم أخلاقه وجوده ما دفع أهل القرية لتسميته بهذا الاسم، واختيار أسماء ملائمة لبقية أفراد أسرته، وبالتالي نسيان الأسماء الأصلية التي يحملونها بما أنها كانت غريبة الوقع على ألسنتهم.

أدرك جواد مما سمعه أن المشكلة توشك على الخروج من نطاق مشاكسات الأطفال، ولربما خرجت بالفعل. وفي محاولة لإيقاف الحرب -ولو مؤقتًا- أمسك يدي توأميه بإحدى يديه، ويد غيم بالأخرى، وهو يعنفهم بطريقة صورية ويتوعدهم بالعقاب. نظر وسم إلى أنور في مطالبة صامتة له بالذهاب هو الآخر؛ إذ لا داعي لإعادة المشكلة، لكن أنور الذي كان الشرر يطق من عينيه صرخ بعنفوان:

- «لم تنتهِ المشكلة بعد، وستدفعين ثمن ما نطقت به غاليًا جدًا أيتها المتعجرفة!»

لم تلتفت له غيم التي كانت تغيب عن ناظره في منعطف الطريق الآن، وحين أنهى تهديده، أمسكت أخته ليلة بيده في صمت وسارا جنبًا إلى جنب باتجاه دار الحاكم.

- «شكرًا لأنك دافعت عني.»

نظرت له بضيق ولم تعلق، كانت لا تزال منزوعة من القرار الذي أصدرته والدتها بأن يذهبوا جميعًا بعد الغروب في زيارة لدار الحاكم. كان الغضب ينهش قلب غيم، وبرغم إضرابها عن تناول الطعام -على سبيل الاعتراض- هي لم تستطع الامتناع عن شرب كأس الشاي بالحليب الذي تحبه. كانت غاضبة لأن الزيارة المزمعة تحمل طابع اعتذار لا شك فيه، وإن لم يُقل ذلك بالصريح، وهي ترى أن أنور هو من يجدر به أن يعتذر لأنه البادئ، وكل ما فعلته كان أن أوقفته عند حده وسقته من نفس الكأس التي سقاها وأصدقاءها منها. ربما كان خطأً منها أن تذكر الحاكم بسوء في حين أنه لم يتعرض لها أو لأبيها من قبل، لكن.. أليس ما ذكرته صحيحًا على أي حال؟

وحين وصلت خالتها وابنها ساري بعدما أخبر الأخير والدته بما حدث، كانت غيم قد وصلت حالة من الاشمئزاز تجعلها لا تكاد تطيق النظر إلى وجه ساري؛ فهي قادرة على تقبل أي عيب.. أي عيب، إلا الجبن والخنوع! ظل الفتى يتبعها في كل جهة من المنزل آملاً الظفر ولو بنظرة عارضة منها؛ فهي ابنة خالته وأخته بالرضاعة، الوحيدة التي تقف في صفه وتدافع عنه حين يختار بقية الصبية وقوف موقف الحياد، ربما كان وادع وليلة لطيفين أيضاً معه، لكن ليلة تعامله بغير اكتراث كأنه مجرد شيء موجود هناك وحسب، بلا مشاعر ولا شخصية ولا كيان، أما وادع فهو يظل يعامله بطريقة جيدة حتى يظهر أنور، عندها ينقلب وادع ليقف جوار أنور، دون أن يجرؤ على التفكير في معارضة تصرفاته.

كان يكرر شكره لها على مساعدته بإصرار لا يمل، لكنه لم يحاول أن يعتذر مرة واحدة، وهذا ما أثار حفيظة غيم وجعل الدماء تغلي في عروقها، التفت له أخيراً وفي عينيها نظرة ازدرأ قاسية، وبدا أن ساري كان مستعداً تماماً لها؛ إذ تصدى لها بوقفة ثابتة ونظرة واثقة وهو يقول ببساطة:

- «أنا لست جباناً، ولست ضعيفاً، كل ما هنالك أنني لا أهتم، حقاً، ولست مستعداً للتعرض للضرب والهزيمة من أجل حزمة من النعناع يمكنني زراعة غيرها بسهولة.»

أجابت غيم بغيظ:

- «المسألة لا تتعلق بمجرد حزمة من النعناع، المسألة أنك بذلت جهدك لزراعتها، وأنها تعود لك في الأساس؛ فكيف تسمح له بتهديدك وأخذها منك بهذه البساطة؟ لو أنك قاومته ورفضت إعطاءها له بقوة؛ فإن موقفك سيصبح أكثر إثارة للاهتمام ولو فاز في النهاية وأخذها منك، على الأقل ستكسب شرف المحاولة، وسيذكر ذلك المغرور في المرة المقبلة أنه ليس من

السهل الاعتداء على حقك!»

- «شرف المحاولة لن يشفي آلامي حين يضربني خمسة من الأولاد-على الأقل- في وقت واحد، إنها مجرد كلمات لا فائدة منها يا غيم، لكن منقوع البابونج سيفي بالغرض، تقول أُمي إنه مهدئ ممتاز للأعصاب، هل تشرين بعض البابونج؟»

قالها وعلى شفتيه ابتسامة هازئة؛ فنظرت له غيم شذراً ولم تجد ما تقوله. لم يكن ساري طفلاً ضعيفاً ولا جباناً، كان فتى قوياً وذكياً لكنه -كما قال- لا يأبه بشيء، دائماً تجد تلك الابتسامة الجانبية الساخرة على ثغره، وحتى في الأوقات التي كان يزعجه فيها أنور لم يكن يرسم على وجهه أي تعبير خائف أو قلق، كأن ما يجري لا يخصه بأي شكل. لكن رغم عدم مبالاته ومرحه الدائمين، كنت تستطيع أن تلمح مسحة الانكسار التي تعلق عينيه في اللحظات التي ينسى فيها الابتسام، أو يعتقد أن أحداً لا يراه.

كان والده (حيّان) رجلاً سكّيراً، ولما كان بارعاً في الزراعة إلى أقصى حد، رأى أن بإمكانه استغلال كل شبر من مزرعته -التي ورثها عن أبيه- ب زراعة كروم العنب، كان يبيع نسبة من ثمارها ليعتاش بثمرها ويوسع تجارتها. لكن النسبة الأكبر كانت دائماً ما تذهب إلى المعصرة المصغرة -التي أنشأها داخل مزرعته- ليُستخلص من الحبات ماؤها، من ثم يعتقه حيّان ويخزن كميات مهولة منه في المخزين اللذين شيّدهما على أطراف مزرعته خصيصاً لهذا الغرض، وكان شديد الولع بذلك الشراب حتى أنه لم يفكر في بيع أي من تلك الكميات التي تعبى مخزين شاهقين وتزيد عن استعماله أيّا كانت الدرجة التي بلغها إدمانه، لكنه كان يراها أثمن من أن تباع؛ فكان من الممكن أن يظل البرميل منها بالسنوات في المخزن دون أن يُمس. أحياناً كان يهدي

منها، وحين يُهدى أحدهم من شراب حيان كان يدرك -دون حاجة إلى كثير ذكاء- أنه بلغ في قلب هذا الأخير مبلغًا خاصًا، مبلغًا يكاد يساوي ما بلغه الشراب في قلبه، وكان يعد رفض هديته الغالية ضربًا من الإهانة؛ لذا كان متلقيها يقبلها بامتنان، ثم يلقيها في أقرب فرصة ما إن يتعد عن مجال رؤيته.

غير أن قلب حيان قد خفق لـ (ودود)؛ فأصبح لا يرى من النساء سواها، وأقسم أنه إن تزوج فستكون ودود هي زوجته وإلا فليمت عازبًا، وذاق الأمرين في محاولات إقناع أبيها بقبوله زوجًا لابنته؛ إذ لم يكن الأب -بطبيعة الحال- ليوافق على تزويج ابنته من سكير لا تفارق الكأس يده، ثم طرده من بيته وهدّده بأشنع عاقبة إن هو فكر بإعادة الكرة. لكن حيان لم ييأس، وأصبح يعترض سبيل ودود في رحلتها شبه اليومية إلى دار المنارة، يتوسل إليها لسماعه، ويقسم بأغلظ الأيمان أنه سيتوقف عن الشرب إن هي وافقت على الزواج منه، ورققت قلب والدها. وبعد ما رآه الأب من ميل ابنته نحو حيان، وكثير الوعود والأقسام والشروط التي قطعها الأخير على نفسه؛ لانت شوكتة أخيرًا، وزفت ودود عروسًا إلى بيت حيان.

وقبل إتمام الزواج، باحت له ودود بسرّها الأليم، وأخبرته أنها تعاني مرضًا عضالًا يجعلها تلازم الفراش أكثر الأيام، وأنها ستفهم بسهولة رغبته إن هو امتنع عن إتمام هذا الزواج، غير أن ذلك لم يغيّر في ما يضمّره قلب حيان لها شيئًا، بل إنه أصر على أن يتم زواجه منها وليكن ما يكون، ولو كُتب لها أن تموت في أي ساعة فليكن ذلك بعد أن يجمعهما بيت واحد. وبعد العرس أحضر لها الخادومات والطهاة ليقوموا بكل شيء عنها، وهاب بها ألا تبذل أدنى جهد من شأنه أن يشعرها بالإرهاق، لم يكن يريد منها شيئًا إلا أن تكون معه، وتبقى بخير. وللوفاء بعهده، ظل محتبًا الشراب لفترة لا بأس بها، وكان كلما اشتاق إلى الكأس، تذكر وعده للأب الشيخ الذي أعطاه فلذة

كبدته مقابل هذا الشرط الهين أمام ابتسامة من ثغرها؛ من ثم يقاوم رغبته ويشغل نفسه في العمل حتى ينسى.

لكن سقمها تفاقم، وازدادت أمورها سوءاً؛ فجعله حالها كثير الشroud غزير التفكير، دائماً ما يجيل خواطره في عوالم سوداء ملئت شؤماً وأسى؛ فكان في كل وقت يتمثل نفسه عائداً من السوق، يلج البيت لينادي بصفاء نية على زوجته العزيزة فلا يتلقى إجابة، يندفع -في خياله- إلى الحجرة حيث كانت ترقد قبل ذهابه، ليجدها وقد أسلمت الروح دون وداع أخير. هكذا كان يعيش أيامه يتغذى على القلق، ويتغذى القلق عليه، وفي كل مرة يلج منزله كان يثبت قلبه في مكانه ييمناه، ويتمنى أن يمهل القدر أياماً أوفر مع مهجة قلبه.

أحضر لها حكماء من عدة بلاد، وكانت العلاجات تؤثر في حالة زوجته إيجاباً لا شك، لكن المرض لا يزول، وإن حدث وأهملت ودود يوماً تعاطي العلاج أو نسيته أو نفذ ما عندها قبل توافر المزيد؛ فإن الرقود في الفراش لأيام كان الجزاء المباشر. هكذا ملأت عقله هواجس من نوع جديد؛ فأصبح يمضي صباحاته كلها متفكراً فيما إن كانت زوجته قد تناولت علاجها أم أن خللاً ما قد حال دون ذلك، ويمضي ليلاته جميعها في الكوابيس أو الأرق أو النوم المتقطع الذي يهلك أكثر مما يريح، فيستيقظ بين فينة وأخرى ليضع يده على صدر زوجته مطمئناً إلى أنها لا تزال تنفّس، أو على جبهتها ليتأكد من اعتدال حرارة جسدها. وفي ظل حياة مفعمة بالقلق والتوجس وارتقاب الأسوأ كالتي يحياها حيان؛ ندرك دون كثير تفكير أن الحاجز انكسر، وأنه أصبح أضعف من الحفاظ على الوعد الذي قطعه لأبي ودود. وبعدما قضى بعيداً عن الشراب مدة بالغة الطول لمن في مثل درجة إدمانه؛ سنجد أنه بلغ مرحلة من الظمأ تجعله مقبلاً على الشرب بكل جوارحه، وبعد أن كان يكتفي -في السابق- بشرب كأس كل عدة أيام، أصبح لا يمر يوم دون شرب كأس

على الأقل، ثم أصبح الكأس يجز كؤوسًا، حتى أنه -في بعض مرات- كان ينهي برميلا أو ما يقاربه من الشراب خلال يوم واحد!

أصبح يمقت نومه الممزق الكئيب؛ فيفضل السهر عليه، من ثم يخلد للنوم حين تبزغ الشمس وبعد أن تصحو زوجته؛ فأهمل الذهاب لدكانه معتمداً على صبيانه المتواجدين فيه، وأصبحت ودود لا تكاد تراه بالأيام، وإن رآته فإنه يكون سكراناً أو محتاجاً إلى الشرب فلا يكون مجرد النظر إليه ممكناً، وخلال أسابيع قليلة، أصبح حيان التاجر النشيط المفعم بالحوية، والمزارع الفذ الذي لم تفلت نبتة من النباتات دون أن ينجح في زراعتها ولو مرة - أصبح ظلاً شاحباً لما كان عليه، لا يكاد يتكلم أو يأكل أو ينام، ولا تكاد أشعة الشمس تعرف طريقاً إلى بدنه. ثم اكتمل النصاب حين وصله الخبر الذي ينتظره أي زوج، أي زوج عداه، إن ودود حبلى!

حسنًا، لا داعي لإطالة شرح ما آلت إليه أحوال حيان، كان عازفًا عن إجبار ودود على إسقاط حملها؛ فهو كان أكثر من يعلم مقدار فرحتها به وترقبها له، لكن إن أضفنا خوفه من تأثير الحمل سلبيًا على صحة زوجته، أو أن يولد الطفل فلا يجد له أمًا، أو أن... لعرفنا أن حيان قد فقد عقله تقريبًا.

كانت زوجته تهدئ من روعه، تخبره أنها بخير، وأن طفلها سيكون بخير، وأنه سيخرج إلى العالم بالبساطة التي تشرق بها الشمس كل صباح، وأنه ابنها، أي أنه لن يؤذيها ولو عن غير قصد! كانت تتكلم وتثرثر، تحاول أن تجعله أهدأ بالاً، أن تقنعه بأخذ قسط يسير من الراحة فقط، بإنزال الكأس من يده لبضع دقائق ليس إلا، لكنها عبثًا حاولت، وكانت تعرف أنها كمن يسأل صورته في المرأة عما يثير حيرته منتظرًا منها أن تجيبه.

استمر الحال على ما هو عليه حتى شهور الحمل الأخيرة، في تلك الفترة حدثت تغييرات عديدة في أسلوب حياة حيان وما اعتاد عليه، أخيرًا وجدت

كلمات ودود من يسمعها ويستجيب لها، وقد أثبتت له الأيام صحة ما قالتها زوجته، وأن سوءاً لم يحدث، وأن خيالات عقله لم تكن إلا خيالات في عقله. أصبح يباعد بين أوقات شربه حتى انقطع عن الشراب تقريباً، ويتردد على السوق، وبدأ يعود لوجهه ما كان فيه من نضارة، كان يبدو عليه التحسن بما لا يقاس، لكن ما لم يعرفه أحد أن ذلك العضو من جسده قد تدمر تماماً، كانت صلبة عينيه تفقد ببطء لونها الأبيض؛ ليزحف لونها تدريجياً نحو الأصفر، لا يفرق بين صفار صلبته و صفار بؤبؤيه إلا اللمعة والحياة في الأخيرين، والوهن والإرهاق في الأولى، كان يحس بتلك الطعنات النافذة في صدره وينقطع تنفسه لثوان، تدور به الأرض ويكاد يفرغ ما في جوفه، ولربما حدث هذا بالفعل مرة أو مرتين، قبل أن يسرى عنه ويعود لما كان يفعل قبل النوبة، وقد ظنها مجرد أعراض بلا سبب وستزول، ما أكثر الأشياء التي تأتي بلا سبب وتذهب بلا سبب، وما أقل ما ينكشف لنا سببه منها فيما بعد.

وفي الليلة التي داهمت زوجته فيها آلام المخاض، صحا مفاجئاً على أنات تجاهد للخروج من بين الشفتين المطبقتين بإحكام، لم تكن ودود ممن يملؤون الدنيا صخباً حين يتألمون ليخبروا الكون كله عن آلامهم، مهما بلغت قوة تلك الآلام، كانت تفضل اجتراع الألم في صمت وعلى جانب الطريق، دون أن يخطر ببال من يرى السكينة على ملامحها أنها تقاسي أي ألم، ثم تلملم شتاتها بمفردها كما احتوت آلامها بمفردها، وتستمر في العيش كأن شيئاً لم يكن. ربما لأسباب مشابهة أثرت ألا تنقل لأبويها العجوزين وأختها شيئاً مما يدور في بيتها من عودة حيان للشرب وما رافق ذلك من عناء.

قفز حيان من فراشه جزعاً وفي لحظات كان يقف أمام الدار بلباس نومه وهو يتلفت بذعر، وينظر إلى ما حوله ومن حوله وهو مذهول عنه، يردد بتعاقب لا يتوقف عبارة واحدة:

- «ودود تلد، ودود تلد.»

سرعان ما التم من كان خارج داره في تلك الساعة من أهل القرية حول حيان، وتكفل أحدهم باستدعاء القابلة من دارها، مضى حيان بخطوات مرتجفة إلى الطريق الذي ألفتة قدماه، وبدا أنه لا يسير إليها عن قصد وإنما يُسير إليها، كان عقله يضج بالأفكار حتى غدت مسموعة كألف صوت يصرخ في فوهة أذنه، هل تصاب زوجته بأذى؟ هل يكون ذراعها أول موطن يستقبل الطفل القادم، أم أنه سيتشرد من اللحظة الأولى دون أن يجد حضناً حانياً يحويه؟

فتح أكبر المخزنين بالمفتاح الذي كان يخبئه أسفل مقبض قناة الريّ، ولم يشعر بنفسه حين كانت كفه تغوص في البرميل ثم ترتفع إلى فمه محملة بما تستطيع احتواءه من شراب، يرشف منه القليل ويسيل الباقي على ذقنه وذراعه وملابسه، استمر في فعل ذلك بلا وعي حتى أفاق على صوت عُقلة مجنون القرية وهو يمر من أمام المخزن، ويصيح في بلاهة من بين فقههاته:

- «ماتت، لقد ماتت، أجل! كانت سقيمة على أي حال، لم يتوقع أحد أن تعيش طويلاً، كان لا بد من أن تموت (...) في نهاية المطاف!»

التبس الاسم المذكور على حيان، لكن قلبه أكمل الفراغ بما ناسبه من حروف، وقف عند الباب يرمق بعينين لا تريان عُقلة وهو يتعد في تودة مكرراً عباراته بابتسامة جذل لا ترتسم إلا على شفتي مجنون، ثم شعر بالألم، الألم الخارق الذي يمزق صدره ويعتصر الحياة من جوفه اعتصاراً، كان من نفس نوعية الألم الذي زاره طوال الفترة الماضية، لكنه من عيار أثقل وأشد، كأن ألف خنجر ماض يمزقون صدره بلا رحمة، وأحس بالأرض تميد به، وبأنفاسه تضيق حتى لكَأنه يتنفس من خلال مسام جلده، هوى على الأرض دفعة واحدة بلا إنذار، وأفرغ كل ما كان داخل جوفه من غذاء وعصارة معدة.

ولما أطلق الطفل صرخته الأولى، وامتدت يد أمه تضمه في حنان وتقرب وجهه من وجهها لتراه بوضوح وعلى شفيتها ابتسامة فخورٌ مرهقة، تعالت صيحات الفزع من عشرات الرجال خارج المنزل.

- «مخازن حيان تحترق، والمزرعة أيضًا، هلموا يا رجال، فلنخمد هذه النيران...»

استمر الصخب لوقت حسبته ودود عمرًا كاملاً، كان وليدها يلتقم ثديها ويرضع أولى رضعاته بنهم، في حين كانت أنفاسها محبوسة وأذنها ترهف السمع، والأمانى الحارة لا تبرح صدرها، صحيح أن زوجها كان قابلاً هناك بانتظار وصول طفله الأول، لكن هذا لا يعني أن الحريق طاله، ولو طاله فإنه سينجو بالتأكيد، لن يحترق بهذه البساطة، لن يموت ويتركها وطفلها في يوم كهذا!

وبعد أن سيطر الرجال أخيراً على الحريق، عادوا بجثان متفحم لشاب سكير كان يجب زوجته حد الجنون، لم يعرفوا ما قتله، هل أغشي عليه فانزلق مصباح الزيت من يده ليأتي على كل شيء؟ هل مات محترقاً؟ أم مختنقاً؟ هل تعتمد الانتحار أم لعب الشراب دوراً في اقتياده نحو مصيره؟ حتى ولو كان ذلك صحيحاً، لقد احترقت كرومه الآن، ولو كانت المذنبه فإنها لاقت جزاءها بالعدل.

وخلف الجنازة المهيبة التي سار فيها الرجال واجمين صامتين كأن على رؤوسهم الطير، يرثون بأسى صاحبهم الذي لم يمنح نفسه لحظة يترك فيها الكأس، ولم يعطه الأجل تنبيهاً ليتراجع عن خطئه ويتوب عما كان منه، شيعهم عقلة حاملاً هرته الجرباء، هرته التي كانت مريضة منذ مدة، وعاشت أطول مما حسبها ستعيش، وقد قرر أن يدفنها داخل المقبرة ويجعل لقبرها شاهداً يكتب عليه اسمها بماء عينيه؛ إذن سيكون عليه أن ينتقي لها

اسمًا، وأن يتعلم الكتابة.

- «وإن كان بوسعك إعادة زراعة النعناعات، فكيف سيكون بوسعك نسيان الإهانات التي وجهها أنور لك ولوالديك!»

رفع ساري كتفيه وأجاب بهدوء:

- «إنه لم يفتر ولم يكذب في نهاية الأمر، لم يقل إلا الحقيقة!»

- «يا لك من...!»

قالتها بنفاد صبر ولم ترد إكمال الجملة، من الواضح أنها نسيت استعمالها لنفس العذر قبل سويغات حين كانت تبرر لنفسها ذكر الحاكم بسوء. تركته وانطلقت إلى حيث تجلس والدتها وخالتها تتجاذبان أطراف الأحاديث، أمعنت غيم النظر إلى عيني خالتها ودود الذاويتين، كانت جميلة، هذا حق، إنها شديدة الشبه بأختها رؤوم التي تكبرها بعام واحد فقط، لكن لطالما بثت مسحة الحزن التي حطت رحالها في بؤبؤيها الأصفرين مشاعر الألم في نفس غيم دون أن تدري لذلك سببًا. إن روح المرأة الصبورة في داخلها لا تزال تقاوم بكل ما فيها من عزم، لكن بريق عينيها خانها في منتصف الطريق، ولم يعد يقوى على احتمال المزيد من الخيبات.

سُمع صوت صرير الباب ثم صياح ساري المستبشر بقدوم (العم مدرار)؛ فجاءه صوت أمه من المجلس يهيب به ألا يزعج الشيخ. ركضت غيم لتستقبل والدها كالعادة، وفي رأسها يدور ألف تخمين للطريقة التي سيعبر بها أبوها عن غضبه مما ارتكبته، لم يكن الشيخ مدرار يعنف ابنته إطلاقًا، ولا يميل إلى استعمال العقوبات غالبًا، وكان يفضل الحوار الهادئ وعلاج الأخطاء بتعقل على ذلك؛ لأنه يؤمن -كما يقول دائمًا- أن ما يعلمه

لطفلته بالإقناع سيبقى معها للأبد، وما يعلمها بالإجبار سيُنسى بمجرد أن تغفل رقابته عنها. برغم ذلك لم تكن غيم واثقة من رد فعله الآن، وعلى خطأ كبير بهذا الحجم، سيخرجه مع الحاكم الذي -قبل كل شيء- يكاد يكون صديقه، والذي يحمل له محبة واحترامًا شديدين.

لكن أيا من هواجس غيم لم يتحقق لدهشتها، وعوضًا عن ذلك استقبلها والدها بالبشاشة المعتادة، كان يجلس ساري على كتفه الأيسر وسط ضحكات الأخير الجذلة، من ثم امتدت يده لترفع غيم إلى الكتف الآخر، تجاهلت غيم هاجسها الأخير بأن ما حدث لم يصل لعلم والدها بعد، وانسجمت مع ساري في ضحكات طفولية مبتهجة، رافقتها قهقهات الأب الصافية.



في مجلس الحاكم، كان صوت ضحك الرجلين يرتفع، فيما كانت رؤوم والدة غيم برفقة (حلية) زوجة أبي أنور، التي تزوجها الحاكم بعدما طلق زوجته الأولى (محمل) أم أنور وليفة وابنة عم الحاكم، وبرغم أن رؤوم كانت تراتح وتأنس أكثر بمجالسة محمل إلا أن طبيعتها الودودة سهّلت عليها التعامل مع جميع صنوف البشر.

حقًا لم يند عن الحاكم ما يدل على غضبه مما حصل أو رغبته في سماع اعتذار أو إيقاع عقوبة، لكن غيم رفضت التنازل عن ضيقها من باب المبدأ، وقد رفضت ترك أمها تلم خصلات شعرها الثائرة أو تضفرها، وبقيت طوال الزيارة تشعر أنها كمجرم يساق إلى ساحة الإعدام قسرًا؛ إنها تمقت السبب المضمّر لهذه الزيارة، وتكره أنور بكل ذرة في كيائها، وتبغ لذلك فإنها تكره كل ما أو من يمت له، اللهم إلا ليلة. لم تكن ليلة تفضل البقاء في دار أبيها كثيرًا، وكانت تلازم والدتها في دارها أكثر الأيام، وكان هذا اليوم أحدها لحسن حظ غيم؛ إذ أن آخر ما أرادته أن تقابل صديقتها ليلة في سياق مشكلة

كهذه. أما عن موقف ليلة من هذه المعركة فالحق أنها كانت غاضبة جداً مما ذكرته غيم عن والدها، لكن رؤيتها الصائبة للأمر أكدت لها أن المخطئ الأول والأكبر كان شقيقها أنور، وأن ردة فعل غيم لم تكن أكثر من ردة فعل.

وفي لحظة بعينها أشار لها والدها الإشارة المتفق عليها؛ فرفعت العلبة الصغيرة المغلفة جوارها واتجهت بها إلى الحاكم وهي تعتذر بصوت لا يكاد يُسمع، وكبرياؤها يصرخ في داخلها بأعلى صوت. تناولها منها الحاكم باسمًا وهو يحاول ملاحظتها ويسألها عما بداخلها، ولما لم تُبدِ غيم نيتها للإجابة؛ تكفل الشيخ مدرار بذلك، فأوضح للحاكم أنها تحوي عددًا من حبات بذور الرطب المستورد من موطنه البعيد، وأن هذه الهدية كانت من اختيار غيم نفسها. والحق في ما قاله أن غيم اختارت هذه البذور فعلاً، لكن لزرعتها في مزرعة أبيها لا لإهدائها إلى الحاكم! عادت غيم إلى مجلسها جوار والدها وهي تعد الثواني متلهفة للرحيل الذي بات وشيكًا. نهض الحاكم ليرفع وعاءً زجاجيًا مملوءًا بتشكيلة من الحلوى المصنوعة من السكر ومساحيق الفواكه المختلفة، والتي بدأ وسم يُعدها في محل المربي خاصته، مد الحاكم يده بالوعاء مشيرًا لغيم كي تأخذ واحدة، نظرت غيم لأبيها فأومأ لها، على مضض أمسكت قطعة، ودستها في فمها، وبصعوبة منعت تعبير الإعجاب عن الظهور على وجهها. ومع طول وقت الزيارة، كان لسان غيم الزلق كان قد مل البقاء في موضعه.

- «أخبرني من فضلك يا حضرة الحاكم (جلال)، هل أفراد عائلة العم جواد ذوو الأعين الزرقاء سيئون؟ إن كانوا كذلك فلم سمحت لهم بالبقاء في قريتنا؟»

نظر إليها والدها، لكن نظراته لم تحمل أي نوع من العتاب، ثم نظر إلى الحاكم الذي تمهل في الإجابة وقد شعر بوجود غاية ملتفة خلف سؤال بهذه

الغرابية، أخيراً قال بابتسامة محايدة:

- «ولم تصفينهم بذلك يا ابنتي؟ هل رأيت منهم ما يسوء؟ إنها عائلة مسالمة وأفرادها على قدر عالٍ من الدين والخلق، كما أن التاجر جواد غارس فسائل بارع بما لا يقاس!»

على الفور توجهت أنظار غيم الحارقة إلى أنور الجالس جوار والده، كان حال أنور لا يقل سوءاً عن حال غيم من التملل والضيق والغضب؛ إذ كان ينتظر من والده غضبة عاتية وقراراً حاسماً بمعاقة غيم ووالديها بل وأصدقائها كذلك، لكن ردة الفعل التي وقعت كانت مخيبة لآماله بكل المقاييس، ولكم بقي يتخيل نفسه طوال الزيارة وهو يثب من مكانه فجأة ليوسع غيم ضرباً وركلاً، وظلّ ينظر إلى كتفه كل ثانية ليرى -بعين الخيال، وعبر ملابسه- آثار أسنان غيم التي أنشبتها فيه صباح اليوم.

- «إذن؛ المقياس الحقيقي هو الدين والخلق، وما إن كان المرء غارس فسائل أم لا، وليس لون العينين، صحيح؟»

قالتها كأنها تتابع حوارها مع الحاكم، لكن عينيها أبثا مفارقة عيني أنور الذي يركز على أسنانه بغيط ويكبح ثورته بصعوبة. وقف الشيخ مدرار فجأة ليعلم أن كثر الله خيركم، وأن عليهم الرحيل الآن؛ هكذا وثبت غيم من مقعدها ولولا الحياء لركضت نحو الخارج بأقصى سرعتها. اقترب الحاكم من غيم وابتسم لها، لكن عينيها حملتا ضيقاً شديداً يمكن فهمه؛ فهذه الصغيرة المشاغبة قد أهانتها على مسمع من أهل القرية كلهم صباح اليوم، ولولا مكانة الشيخ مدرار في قلبه، وما يكنّه له من بالغ احترام؛ لكان له معها تصرف آخر. مسح الحاكم على شعر غيم وهو يقول بود ظاهراً:

- «كم سعدنا بزيارتك أيتها الغيمة الرقيقة.»

أبعدت غيم رأسها عن يده بحركة منزعة وهي تجيب بشمم:
- «أنا لست غيمة، بل أنا غيم، بالجمع، غيمٌ كثيفٌ وقوي، يظهر الرقة
ويضمّر العواصف والبروق والرعود!»

قالت كلمتها الأخيرة وهي تثقب أنور بناظريها، ثم استدارت لتلحق
بأمها بينما يتبادل والدها كلمات الوداع مع الحاكم.

وفي اللحظة التي همّت غيم فيها بتخطي عتبة الدار - شعرت بقبضة
تمسك بعصدها ككلاية حديدية، التفتت لتصطدم بنظرات أنور الملتهبة،
ومن بين أسنانه قال لها بغل:

- «لا تغترّي كثيرًا بموقف أبي المتساهل، في الغد سيؤول الحكم إليّ،
وساعتها سأعزل والدك من التدريس، وسأخرجك أنت وعائلتك كلها من
هذه القرية! أسمعين؟»

حررت غيم ذراعها من قبضته القوية، وجاهدت كي تمنع نفسها من
ضرب رأسه في الجدار هنا والآن، والسبب الوحيد في محاولاتها هو أنها لا
ترغب في تعريض أبيها لموقف محرج آخر، سيكون بوسعها تأديبه فيها بعد.
هكذا ابتسمت بجفاف، وقالت بنبرة هادئة محاولة انتقاء ألفاظها:

- «جيد، عندما يأتي الغد إذن؛ سنرى.»

- «أبي، أنت لم تلمني حتى الآن، أتذكر؟»

كانا عائدين من منزل التاجر جواد، كان يطيب لوالدها قضاء الوقت مع
التاجر، وكانت غيم تحب مرافقته لتلهو مع تبر ووداع وتشرب عصير الخالة
حساء المميز.

لقد مرت بضعة أيام على زيارة الحاكم إياها، ولم يكلم الشيخ مدرار ابنته في الموضوع حتى اللحظة.

بدأت طرقات القرية الخالية والمظلمة أكثر بروداً من اللازم لغيم، وفكرت في أنها لا تحب قرية المروج كذات، لا تحبها كشوارع وحدائق وساحات ومبان، وإنما تحب من فيها، تحب السير ممسكة بكف والدها حين يقطعان طريقاً معاً، أي طريق! ويعجبها اللعب مع أصدقائها في الحدائق، سواءً أكانت هذه أم غيرها! وتأنس بمراقبة التجار والزبائن والدكاكين متباينة البضائع التي تزرعها الساحات؛ لأن هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم بالذات! وتسعد برؤية المباني والمنازل التي ألفتها وتعلمت أن تحبها؛ فهذه دار المنارة التي لطالما استمعت فيها إلى أعذب القصص وتعلمت فيها جل ما تعرفه، وهذا -الذي فارقه للتو- هو منزل العم جواد الحبيب، وهناك -من بعيد- تستطيع أن تلمح شبحاً كثيباً لبيت خالتها ودود، كئيب لكنها تحبه، أما ذلك الطريق فإنه يوصلها إلى منزل أم ليلة الذي اكتفت دائماً بتأمله عن بعد، ولو سارت في طريق مستقيم تماماً فستصل إلى دار الحاكم، الدار التي تحب بشدة أن تكرهها لوجود أعدى أعدائها فيها. وقد أدركت غيم بسهولة أنها كانت لتحب أي بقعة من الأرض تمنحها نفس هذا الدفء الحاني، وأنها كانت لتكره حتى قريبتها ذاتها إن هي خلت من كل تلك المباهج التي تؤنس قلبها. وبالعودة إلى ملاحظة غيم المتوجسة، نرى أن والدها قد نظر إليها بسماحة وابتسم، وقال برفق:

- «وعلامَ قد ألومك يا صغيرتي؟»

لاحظت غيم أنه يحيد بها عن الطريق المؤدية إلى منزلهم ليسيرا في أخرى تقود إلى مزرعتهم الغناء، كان والدها حريصاً على زراعة عدة أنواع من النباتات هناك دون الاقتصار على صنف بعينه، وكان يستزيد من دكان جواد

- كلما وافته الفرصة- ليطعم مزروعاته بأنواع نادرة قد لا يتمكن المرء من إيجاد بذورها كل يوم.

- «على.. ما فعلته، أعني مع أنور..»

أصبحت داخل المزرعة الآن، تجاوزا الكوخ الصغير الذي بُني خارج سور المزرعة لـ(سهل)، العامل المسؤول عن العناية بالمزرعة، كان بعينين برتقاليتين، ولم يكن من غارسي الفسائل ولا حارقي المحاصيل، والمعتقد الذي يتبعه غريب ومعقد، لكنه كان طيباً ومسالماً، يقوم بعمله ولا يزيد عن ذلك أو ينقص، وكان يكنّ محبة وولاء حقيقيين للشيخ مدرار.

اختار الشيخ مدرار جلوسه موضعاً مرتفعاً يمكنهما من رؤية جانب كبير من أرض القرية، أسفل شجرة الأراك التي يجبها، اقتطع منها عوداً وأخذ يفرك به أسنانه في شروء، كان الموضع الذي اختاره يشرف على صفحة السماء حتى يحيل إلى الواقف فيه أن بوسعه التقاط نجمة بيديه لو أنه مد أطرافه قليلاً فقط. جلست غيم جوار والدها وبقي كل منهما صامتاً للحظات يسبح في عوالم شروءه الخاصة. أخيراً قال الشيخ بعدما فرغ من التأمل في تلك اللوحة الداكنة المبهرة، والتسبيح انبهاراً من عجب صنع الله:

- «لم أضع يدي على خطأ محدد ارتكبتّه، سمعت القصة من التوأمين ومن وسم صانع المربى ومن أملك، وكل الروايات أجمعت على أنك كنت تدافعين عن إخوتك ليس إلا، وإن كنتِ تظنين أن هذا خطأ يستحق اللوم فإنك ستخيبين أملي بهذا!!»

وقبل أن تجد غيم ما تقوله أضاف والدها:

- «ثم كلامك عن غرس الفسائل، وأن المهم ما يختاره الإنسان لا ما وقع فيه من أقدار ليس له فيها اختيار، والمقياس الحقيقي لقيمة المرء، آه كم

أني أب فخور! الآن أتأكد من أن القصص التي قصصتها عليك كانت تفعل أكثر من جلب الأحلام السعيدة أثناء النوم!»

بهتت غيم من كلام والدها، إنه لم يمتنع عن توبيخها وحسب، بل إنه يظهر -بلا تحفظ- دعمه الكامل لموقفها، ويصارحها بأنه فخور بما فعلته علاوة على ذلك!

- «ربما كانت هناك ملاحظات على تفاصيل ما فعلته وقلته، لكنه كان رائعاً في المجمل، لو أنك لم تتخذي ذلك ذريعة لافتيال عراك مع أنور، ولم تسيئي -في معرض حديثك- إلى أناس لم تري منهم إلا كل خير.»

هو لا يلومها بالمعنى الفعلي، هو فقط يقوم تصرفها، نوعاً من تعديل الخير على عمل المبتدئ، وهذا لا يعني أن أداء المبتدئ كان رديئاً على كونه مبتدئاً.

- «لهذا دفعنتي للاعتذار من الحاكم، أعترف أنني شعرت بالسوء نوعاً حيال ما قلته.»

- «وظني فيك أن ما أبداه الحاكم من تسامح معك منحك درساً تفيدين منه؛ إذ اختبرت بنفسك مدى ما يحمله الحاكم من حلم ولين وترو، وكل هذا ينفي اتهاماتك عديمة الأساس.»

أو ماتت غيم مؤكدة، ثم قالت بعد لحظة تردد:

- «أبي.. هل لي بسؤال؟ لم يصبح الحاكم.. أعني.. لم يكون هو الحاكم؟ رغم أن هناك من هو أعلم منه، على غرارك مثلاً، ومن هو أذكى منه وأغنى و.. وأفضل في كل شيء!»

هز الشيخ مدرار رأسه مبدئياً اعتراضه على كلام غيم، أمسك عود الآراك بين أصابعه وهزه وهو يقول بتأن:

- «كلٌ ميسّر لما خُلِقَ له يا جميلتي، والله يضع كل إنسان في الموضع الذي سيكون بوسعه أن يكون نافعاً من خلاله، ولتعلمي أن الأدوار لو تبدلت بين الحاكم وأي أحد آخر، وليكن أنا؛ فإن اختلافاً فظيماً سيكون، ولن أصمد أسبوعاً واحداً أمام صغائر المسؤوليات التي يستطيع الحاكم تدبر أمرها وهو يتناول إفطاره، كما لن يصمد يوماً واحداً - في المقابل - أمام الدروس الدسمة التي أدرّسها وأسئلة الطلاب النهمّة، فلتعلمي يا ابنتي أن الإنسان - كل إنسان - يحمل في داخله ما لا يحمله غيره، ويسد ثغرة بحجمه تماماً، لا تزيد عنه ولا تنقص، ولو حاول غيره أن يحل محله في سدها فلن يفلح!»

بقيت غيم تتشرب كلمات والدها ببطء، وقد أيقنت منذ زمن أن ما يقوله والدها صحيح، إن لم ترَ تحقيقه اليوم فستراه غداً، وأنه لا يقول إلا ما هو متأكد - بها لا يدع مجالاً للشك - من صحته. ضمت ركبتيها إلى صدرها ومالت برأسها على ذراعه وهي تقول بضيق خفي:

- «لكن ما يفعله أنور خاطئ قطعاً يا أبتى؛ إذ ما الذي يبرر لإنسان أن ينتقص من آخر لمجرد أنه أقوى منه، أو أنه ولد لأبوين بعينين صفراوين، أو أن والده هو حاكم القرية؟ إن أنور فتى شرير بمعنى الكلمة، وأنا لا أتشاجر معه إلا لأنه يتباهى بأشياء ليس عليه أن يتباهى بها!»

- «أتعلمين؟ أعرف طفلة جميلة تتفاخر على أصحابها كل وقت لأنها ابنة الشيخ مدرار، ولأنها تملك مهرة صغيرة ستكون فرسها الخاصة عندما تكبر!»

اعتدلت بسرعة وهي تنظر لأبيها بدهشة وتصيح محتجة:

- «لكن.. هذه ليست كتلك يا أبي! أنا لست مثله!»

- «لا أحد يختار والديه يا غيم، وليس علي أن أذكركِ بأن هذا النوع من

الكلام يجرح مشاعر أخيك ساري وغيره من الصبية. وحين ينعم الله علينا بنعمة فإننا نشكره عليها باستخدامها في طاعته لا بإيلاام قلب من حرم منها عن طريق مباحاتنا بما لم نبذل جهداً في نيله ولم نختره!!

اقتنعت غيم بأن والدها محق في كلامه كالعادة؛ هكذا اعتذرت منه بصوت حيي ووعده بتكرار هذا الخطأ في القادم، وكعاداته حين تدرك ابنته خطأها، انتقل الشيخ مدرار إلى موضوع مختلف:

- «بالحديث عن ساري، أصحيح أنه زرع نبتة بمفرده؟»

- «أجل صحيح، وقد كان يُطلّعي على تفاصيل نموّها أولاً بأول، وبعدما بذل الكثير من الجهد كانت لديه حزمة رائعة من النعناع الأخضر!»

- «كذا كان أبوه فذاً في الزراعة، كان يزرع حتى النباتات التي يزرعها المحترفون وحدهم، في الوقت الذي كنا نتعثر فيه في زراعة نبتة صغيرة، رحمه الله وغفر له، لم يوفق في تسخير ما يحببه للنفع، غفر الله له! أما عن ساري؛ فإني سعيد حقاً بإنجازه، إنه لصبي رائع برغم كل شيء.»

- «رائع نعم، لكنه أجبني من فأر، تصوّر الموقف يا أبي أرجوك، شيرير وجبان في مواجهة بعضهما، ويلومونني أن انفلتت أعصابي!»

أطرق الشيخ مفكراً وهو يعايب أسنانه بالعود، ثم قال بتمهل:

- «أنور ليس شريراً، وساري ليس جباناً، وتبر ليست شرسة، ووادع ليس خنوعاً إلى هذا الحد! المواقف تضع الناس أحياناً في مواضع لا يحبونهم أنفسهم- رؤية أنفسهم فيها، والظروف والمعايير تختلف من زاوية لأخرى، لكن ما يحمله الإنسان حقاً بداخله لا بد وأن يطفو على السطح يوماً، والأيام تفعل بآدم ما تفعله النار والماء لكشف أصالة المعدن، ستذكرين كلام أبيك-الذي تجدينه الآن مشطاً في الخيال- يوماً يا غيم، وغداً

ترين أن أنور صار مثلاً للطيبة، وأن ساري أصبح مضرب مثل في الشجاعة، وأن تبر تنال المرتبة الأولى في الرقة، وأن وادع غدا الشاب الأقوى.»

كانت طاقة غيم قد ضعفت الآن؛ فافترشت العشب الندي وهي تستمع إلى والدها بجفنين ثقلين. كانت تدرك - كما قلنا - صحة ما يقوله أبوها ومدى بعد نظره؛ لذا شعرت بغيط شديد من فكرة أن يصبح أنور طيباً في يوم من الأيام، وأن تشهد هي نفسها على ذلك!

- «عندما يأتي الغد يا أبتى؛ سنرى.»

شعر الأب بالنعاس الذي بدأ يلف صغيرته بعباءته؛ فخبأ العود في جعبته واعتدل عازماً القيام للعودة إلى البيت، لكن غيم - التي كانت تستلذ بالجلسات المنفردة المشابهة مع والدها - أرادت إطالة عمر الجلسة؛ فوالدها لا يكون متفرغاً لأوقات طويلة بهذا القدر في غالبية الأيام، لذا أشارت إلى نبتة شذ شكلها عما حولها، وسألت بلهفة:

- «أبي، ما هذه النبتة بالضبط؟ ولم تبدو مختلفة؟»

دقق والدها النظر في النبتة المعنيّة، ثم مط شفته وقال بغير اهتمام:

- «إنها حشيشة، لا بد أنها انتقلت إلى هنا بطريقة ما ونمت مع بقية النباتات، لكن هذا ليس مكانها، لا أذكر أنني زرعت نبات الباذنجان القاتل في أي مكان من المزرعة!»

ركضت غيم تجاهها وهي تقول بحماس:

- «سأقتلعها إذن!»

أوقفها والدها بصوت ملتانع.

- «لا لا، لم تريدين فعل ذلك؟»

- «لأنها متطفلة، ولأنها نمت في مكان خاطئ!»

قالتها متعجبة من نبرته المعارضة وتصلبت يدها التي كانت على وشك اقتلاعها.

- «ليس ضروريًا أن تنمو في مكانها المخصص، وليس معنى أنها نمت في مكان غير مكانها أنها ضارة، أو أنها لن تفيد!»

تركت غيم النبتة وعادت أدراجها لتجلس جوار والدها وهي تطلب منه المتابعة، وقد سرها أن نجحت ملاحظتها الصغيرة في إبقائهما هنا لمزيد من الوقت.

- «النبات والإنسان يا غيم، كم هما متشابهان! هناك من يغادر أرضه إلى أخرى ملتمسًا فرصًا أفضل، والضابط في تحقق التماسه من عدمه هو الأرض التي قرر التوجه إليها؛ فإن هي كانت أرضًا فاسدة لا يُرجى منها نفع فإن الراحل إليها قد قضى على نفسه بالهلاك والخسران، وإن كانت أرضًا معطاء غنية بالخير فإن حظوظه ستنمو وتزداد، مثله في ذلك مثل النبات الذي يزرع في إحدى أرضين، الأولى خصبة تلائم ما يحتاج إليه من ضياء وغذاء وأمان وتربة، والثانية بور قاحلة لن تفعل أكثر من امتصاص حياة النبات وإماتة فرصه في النمو!»

- «أهذا ما فعله العم جواد وعائلته؟ تركوا الأرض البور ليعيشوا في أرض خصبة؟»

- «بالضبط، ولا عيب في الرحيل؛ فحالمًا يصلح الإنسان تصلح له الأرض، أي أرض! فالإنسان هو المستخلف في الأرض وهو سيدها، والناس هم من يختارون بيئتهم ويطوّعون إمكاناتها بما يناسبهم، والعكس لا يصح.»

وصمت للحظات مستجمعًا أفكاره، كانت لديه موهبة فذة تكمن في استطاعته تحويل أي موقف مهما بدا بالغ الصغر أو التفاهة إلى زاد قيم يمكن حامله من اجتياز وعورة الحياة بفكر سليم ووعي عالٍ.

- «وهذه الحشيشة الصغيرة التي وجدت نفسها خارج موضعها المفترض، نلاحظ أن هذا لم يمنعها من النمو مثلها مثل ما حولها من النباتات صاحبة المكان؛ إذ أن السر يكمن في النبتة نفسها، إن كانت صالحة للزراعة فإن الأرض الصالحة ستحييها، وكذلك الإنسان يا ابنتي، أيًا كانت الأعباء التي حاصرته، وحتى لو وجد نفسه في موضع غير الذي يفترض بمثله أن يكون فيه؛ فإن هذا لا يمنعه من الارتقاء والنجاح، تذكرني دائمًا، الصلاح ينبع من الداخل أولاً، بغض النظر عما يتربص بالخارج!»

تفكرت غيم في كلامه حينًا، ثم سألت باهتمام:

- «بما أن النبات والإنسان متشابهان إلى هذا الحد؟ هل توجد بين النباتات أنواع شريرة ومؤذية مثلما يوجد بين الناس؟»

- «بالتأكيد يا غيم؛ ومن سنّة الحياة أن يظل الصراع مستمرًا بين الحق والباطل، والنور والظلام، والخير والشر، والأبيض والأسود، ولولا وجود كل من النقيضين لما عرفنا لنقيضه معنى، ومثلما يعتدي الإنسان على حق أخيه الإنسان؛ فإن من النباتات أيضًا ما يتخذ من تدمير حياة النباتات الأخرى سببًا لوجوده، وفي كل شيء ستجدين الصالح والطالح، وما بينهما من درجات كثيرة رمادية لا هي بيضاء ولا سوداء. ذكريني حين نزور دكان عمك جواد أن أطلعك على أنواع من النباتات الشريرة.»

عاد النعاس -بعد استراحة المحارب القصيرة التي قضاها- ليغزو عيني غيم، أراحت رأسها في حجر أبيها وهي تراقب النجوم باسترخاء، واتخذ

جسدها وضعية شبيهة بالاستلقاء، بينما هي تقول:

- «لكن لم النباتات ضرورة جداً لنا كي نحى؟ لم يحتاج غارسوا الفسائل إلى وجود النباتات على الدوام؟»

- «معلومة خاطئة يا صغيرتي، حيثما وجدت الحياة فإن هناك نباتاً مزروعاً، تستدلين على وجودها بوجود البشر؛ فالبشر لا يحيون إلا بوجود النبات، جميع البشر، من غارسي الفسائل وغيرهم!»

- «حتى الذين يحاربون النباتات يا أبي؟ وحتى الذين يمنعون ممارسة الزراعة ويعاقبون من يقدم عليها كبلاد العم جواد؟»

أخذ الشيخ مدرار نفساً عميقاً وقال بنوع من الحسرة:

- «ليتهم يعلمون أنهم لولا هذه النباتات ما كانوا! لو أنهم فقط يدركون أن هذا الذي يحاربونه هو ما يشكل عماد حياتهم، وأن حياتهم من غيره خواء، بل أنهم لن يملكو حياة بالأصل لولا وجوده! ما أعجب أمر الإنسان يا غيم؛ فهو يحارب مباشرة ما يحييه، ويحسب أنه سيجد بديلاً أفضل، بل وأن بديله سينفعه بينما الأصل سيضره! يا له من جاهل مغرور!»

أغمضت غيم عينيها وثقل رأسها وهي تقول:

- «لا أصدق أن هناك من يكره النباتات، إنها لا تعطي إلا الخير، الثمار والنقاء والظل والأخشاب والعلاج...»

قطعت كلامها وتشاءبت بعمق، قهقهه والدها وقال:

- «أظن هذا يكفي لليوم، بنا لنعود إلى المنزل.»

- «لكن يا أبي، لا زالت لدي الكثير من الأسئلة!»

قالت غيم محتجة بحروف دون مخارج تقريباً، فأجاب الأب:

- «ولو عاش الإنسان ألف عام فإن آلاف الأسئلة ستبقى لديه، ولن يكفيه عمره وأضعافه لي طرح كل تلك الأسئلة، فضلاً عن أن يكفيه لإيجاد إجابات وافية لها!»

عاد بنظره إلى طفلته التي رفعت راية الاستسلام، وفاز النوم جولة أخرى في معركتهما اليومية، ابتسم بحنو ودثرها بجبته ليدفئها، ثم حملها بين ذراعيه ونهض. في طريقه نظر إلى تلك الحشيشة المتطفلة وقال كأنها يكمل حديثه السابق:

- «كم يبدو الشيء حقيراً قبل أن نعرف حقيقته، وكم ندرك مدى جهلنا بعد فوات الأوان غالباً. الحق أنه لا شيء حقير في عالمنا، وغداً تظهر القيمة الفعلية، فقط عندما يأتي الغد، سنرى!»

(٢)

حسنًا، لقد أتى الغد، وبأسرع من المتوقع، ربما ليس نفس الغد الذي وعدني أنور بالانتقام مني فيه، ولا الذي تنبأ أبي بأنني سأشهد على طيبة أنور فيه، لكن الأمل قد انتهى، بكل ما فيه من مشاكسات ومشاكل ولعب وتسلية، من كان ليصدق أن تلك الطفلة المشاغبة التي تبحث عن المعارك بالعدسة، وتتحدى حتى أكبر القامات والأعمار، ولا تكاد طرقات القرية تستريح من صرخاتها الحماسية وكلماتها اللاذعة، وشعرها الثائر المنفوش، من يصدق أنها أصبحت هذه الفتاة الرقيقة المسالمة، التي لا يكاد يرتفع صوتها ولا تنطق إلا بأعذب الحديث، والتي غدت ماهرة في الزراعة حتى أن معظم النباتات التي اكتظت بها مزرعتهم مؤخرًا من زراعتها هي، والتي نبغت في دار المنارة فتفوّقت وتحصّلت على الكثير من العلم، ووجدت لكثير من تساؤلاتها المحيرة إجابات منيرة، والتي تهتم بمظهرها وأناقتها وجمالها هيأتها، والتي هي - صدقوا أو لا - محدثكم الآن؟

تدهشني السرعة التي تمر بها الأيام، ويراودني إحساس مقبض حين أتفكر في كوني على وشك اختتام عقدي الثاني من السنوات، أبهذه السرعة؟ لم يبدو الأمل قريبًا إلى هذا الحد؟ أهذا ما أقوله وأنا بعد في العقد الثاني؟ فكيف بمن أنهى عقده الثامن أو التاسع؟ إنه ل يبدو رقمًا كبيرًا حين تكتبه على ورقة، لكن سرعته في المرور تجاوز أضعاف قيمته، يا لحسرة من يعيش كل

هذا العمر ثم يخرج منه عاريًا كما دخله!

اجتزت مع وادع وتبر باب المنزل، ونحن نتبادل الأحاديث والضحكات، وكلُّ منا يحاول إثارة دهشة الآخرين بما اكتسبه من معارف في دار المنارة هذا اليوم. وكانت الدار تنقسم -فيها لا يخصص الصغار- إلى قسمين؛ فالباب الأمامي يقود إلى قسم الرجال، وهناك يوجد الشيوخ والمعلمون والطلاب من مختلف الأعمار، ومن الجهة الأخرى كان مدخل قسم النساء. وفي تلك اللحظة التي يتحوّل فيها المرء -بغثة- من طفل إلى إنسان راشد، فوجئنا بأنفسنا نفترق، ولم تعد أقدامنا تتجاوز عتبة البوابة الواطئة التي تقود إلى قسم الصغار الأصغر عمرًا من سبع سنوات.

هكذا بدأت ملامح عالمي بالتبدل، مثلما بدأت ملامح وجهي تنضج وتتغيّر، وفي حين أن عالمي بالأمس -القريب- لم يكن إلا مربّعًا ذا زوايا أربع: البيت ودار المنارة واللعب مع الصغار والشجار مع أنور، أصبح عالمي الآن أرحب وأوسع، وأخذ يتشعب ويتمدد حتى صار أكبر من أن أحيط بجوانبه؛ فأصبحت أكثر اطلاعًا في مجالات العلوم المختلفة، وبدأت دروسي تأخذ طابعًا أكثر صرامة ودقة، وتطوّرت مهاراتي -كما أخبرتك- في الزراعة؛ فغدوت لا أكاد أطيق التنفس إن لم أضف إلى المزرعة نباتًا كل يوم أو أتابع نمو آخر أو أهتم بسقاية ثالث، أصبحت مسؤولة عن مهام منزلية أيضًا، وفي الوقت الذي يزداد عمري خلاله فإن عمر أُمّي يزداد بدوره، ومعه تزداد المهام صعوبة على أن يحملها كاهلها المتعبان وحدهما، فازداد إحساسي بالمسؤولية وبضرورة أن أحمل عنها كل ما بوسعي حمله، اللهم إلا الطبخ! فإن كل مرة أحاول فيها تدبر هذه المهمة العنيدة أجد نفسي أثقلت على كاهل أُمّي أكثر، وبدلًا من أن تتحمل عناء الطبخ وحده ستتحمل ساعتها عناء الطبخ واستنشاق رائحة الشياطين وإزالة ما التصق بالأواني من محروقات!

أما الرائعة الكبرى، تاج عالمي وأغلى مباهجه؛ الكتابة، في ذلك الدفتر ذي الغلاف الجلدي اللامع، كل يوم أجلس إلى الطاولة وأدوّن، غالبًا قبل النوم، وأحيانًا أشد عن ذلك إن استجد ما يستحق، أسجل نظراتي عن العالم، وما استنبطته -بالطريقة التي تعلمتها من أبي- من مجريات الحياة البسيطة وما قد يحدث إن نحن استخلصنا منها ما يجعلنا مؤهلين لطبي هذه الصفحة والانتقال إلى أخرى في كتاب الحياة. كانت الكتابة أكثر من فعل للتسلية؛ أن تجيد تطويع الكلمات، وتحويل مشاعر مبهمّة إلى ألفاظ رصينة، وأن تصير الحروف جنودك المخلصين الذين ترسلهم شرقًا وغربًا ليوصلوا رسالة أو يغيّروا مفهومًا أو يحلّوا مشكلة، وأن يقرأ كلماتك إنسان لا يعرفك ربه، ولا يعلم عن ظروفك حرفًا، فتلامس كلماتك قلبه وتشرح ما يلم به كأنك هو أو كأنك غزوت نفسه أو كشفت عنها الحجاب؛ فإن هذا هو السحر، السحر الذي من دون سحر!

وبالمقارنة بين الماضي والحاضر؛ فإن أنور -برغم صغر عالمي الأول وكبر الثاني- أصبح شيئًا باهتًا لا أكاد أتذكره إلا حين نستحضر الماضي وطرائفه، وأصبحت لا أكن له كل ذلك الكره الطفولي عديم السبب، وحين كنت أحاول استرجاع تلك المشاعر أجدني وقد غرقت في الضحك بدلًا من ذلك؛ فأني تصرف يمكن مؤاخذة الطفل الصغير عليه، بل والحكم عليه حتى بلوغه بسببه؟ لقد كنت طائشة ومزعجة أيضًا؛ فلم كان عليه أن يتحمل الوصف بالسخافة وحده؟ لو أن غيم الصغيرة سمعت ما أقوله فإنها كانت لتكرهني! لشد ما يتغيّر الإنسان، ولشد ما يشغل بالي هذا التغير السريع؛ فلرب شيء كنت لا أنفك أفكر فيه أمس، أصبحت اليوم وأنا لا أذكر عنه حرفًا، ولرب شيء كانت حياتي تتمحور حوله فيما مضى، فإذا به قد أصبح أشبه ببدايات الحساب التي ندرسها، واحد زائد واحد يساوي اثنين، شيء غاية في التفاهة، وقد تجاوزنا أضعاف أضعافه فلم يعد بتلك الأهمية!

بالعودة إلى حديثي مع وادع وتبر، كنت قد قررت أن أنقل إليهما ما سرده علي مسامعنا المدرّسة (رؤية)، كانت معلمتنا رؤية امرأة وهبت من العلم والحكمة ما يجعلني أسبح الله -الذي علم الإنسان ما لم يكن يعلم- في كل مرة تتكلم فيها، ولم يسبق أن حدث وسئلت سؤالاً وعجزت عن إجابته أو أجابته بشكل خاطئ، ولا يمكن أن تفتح فمها دون أن تضيف إلى حصيلتك المعرفية جديداً لم تعرفه قبلاً، أو تصحح فكرة علقته في ذهنك خطأ. ولشدة حبها للعلم، ورغبتها الدائمة في التزوّد منه؛ يزعم البعض أنها كانت تبيت بعض الليالي داخل مكتبة دار المنارة، وتقرأ وتثبت ما قرأته بالكتابة، حتى اشتهرت بلقب: (المرأة التي لا تنام)!

المهم أن درسها اليوم كان يحمل معلومات عن واحد من أهم المواضيع التي تطرأ على بالي، والتي أحببت أن ألم بتفاصيلها بكل شغف؛ ففتحت مسامعي وقلبي لكلماتها السهلة الممتعة، وأخذت أشرب ما تقول بلهفة.



قالت معلمتي رؤية:

- «في ظل الظروف الراهنة التي نحياها يا بناتي، أحببت أن تكون دروسكن طوال الشهر المقبل دائرة حول موضوع غاية في الأهمية، وقد شعرت بأهمية توضيحه نظراً لما يتداوله الكثير من أهالي قرية المروج والقرى المجاورة كلها، بل ازداد الأمر سوءاً حتى أنه يقال أن أهالي قرى غارسي الفسائل كلها يتداولون نفس الشبهات!

وستتخذ هذه الدروس هيئة أسئلة يومية تجاوب كل منا عليها، أمانا أو أمام أنفسها، وآمل أن تكون إجاباتكن شافية تؤكد لي أنكن بنياتي الواعيات بحق، وأن تعليمي لكن لم يذهب هباءً.

السؤال الأول أي بناتي: إذا حدث وغزا الغزاة قرية ما، يمكن أن تكون قريتنا هذه أو غيرها؛ فما القرية -أو القرى- التي ستشعرن بالتضامن مع أهلها، وتتألمن لمصابهم كأنه مصابكن، وتقدمن لهن أي مساعدة تقدرن عليها؟»

- «لن أذهب لبعيد على الأرجح، لن أتعاطف إلا مع من هو منا!»

انطلق صوت متبجح من الصفوف الخلفية بتلك العبارة؛ فالتفتنا جميعاً لننظر إليه برغم علمنا بصاحبته؛ لقد كانت (شهوة) ابنة (هتر)، واحد من أكبر تجار القرية، وهي الأخت الصغرى لـ (قاسط)، أسوأ شباب القرية خلقاً وأشدهم فساداً، وأما عن اسميهما العجيبين فلهما قصة، وسأقصها عليكم في وقت لاحق حتى لا أقطع تركيزكم مع الدرس. اقتربت منها المعلمة رؤية بتودة وقالت بهدوء:

- «ومن هم الذين تشيرين إليهم بلفظة (منا) يا ابنتي؟»

أجابت شهوة وهي تنظر إلي في تحدٍ سافر:

- «من له عينان صفراوان بالطبع، سواء أكان غارس فسائل أم لا؛ إذ ما الذي يدفني للدفاع أو التعاطف مع غريب بعينين مفزعتين لا يربطه بنا رابط!»

كانت تحاول افتعال مشكلة معي بأي وسيلة، وقد فطنت إلى غايتها باكراً فلم أعد أعيرها اهتماماً؛ فقد علمتني الحياة أن الجدال يشكل خسارة فادحة إذا ما بُذل لغير مستحقة، وشهوة لا تستحقه بالتأكيد! الجميع يعرف أن ما تقوله مجرد هراء، والمعلمة رؤية تحمل ردّاً مفحماً لكل كلمة مستفزة؛ فما الذي يدعوني للرد؟ فقط لتحمد الله أن كانت تبر متواجدة الآن في قاعة الحساب وإلا فإن الأمور لم تكن لتسير بهذه السلاسة.

- «ومن من أصحاب الأعين الصفراء ستتعاطفين معه تحديداً يا

شهوة؟»

- «م... مع من؟ مع أصحاب الأعين الصفراء!»
- «أجل، لكن منهم الأبيض والأسود والأصفر، وأنتِ تملكين بشرة حنطية اللون مبهرة؛ فما الذي يدفعكِ للتعاطف مع شخص لا يحمل نفس لونكِ الجذاب؟»
- «لكنه بعينين صفراوين، وهذا المهم!»
- «لأنه وافقكِ في اختيار اللون نفسه للعينين، في حين لم تكن له يد في اختيار لون بشرته؟»

صمتت شهوة وبدا أنها لم تستوعب ما تريد المعلمة قوله بالتحديد، لكنها فهمت، ولأتأكد مما فهمته أنا وغالبية الفتيات، وضعت المعلمة راحة يدها على شعر شهوة بطريقة حميمية، ودارت بناظريها على وجوه الجالسات، وقالت:

- «إن كنت سأختار الوقوف في صف أحد؛ فليكن الشخص الذي يشاركني الاعتقاد نفسه، الشخص الذي اختار بنفسه أن يعتقد هذا الاعتقاد؛ لأنه يؤمن بنفس الذي أؤمن به، ويحمل قضيتي وأفكاري وهمومي نفسها. أما الذي لم يختَر ما اخترته؛ فلن يفيدني لون عينيه، أو بشرته، أو أي شيء آخر لم يختَره وتشابه معي فيه دون يدٍ لأيِّ منا في حصول ذلك!»

ثم تركت رأس شهوة وعادت إلى مقعدها في صدر القاعة لتتابع:

- «والذي سيختار الانحياز لمن يشاركه نفس الصفات الخَلقية؛ فإنه لن يتوقف عند حد، وكما انحاز للون العين سينحاز -مستقبلاً- للون البشرة، ولمدى القوة والغنى والجاه، وأي هراء يمليه عليه هواه؛ إذ لن تكون له قاعدة

أساسية يسير عليها إلا ما تدفعه إليه نفسه الأمانة بالسوء، ولن يملك مقياساً ثابتاً يحدد به الحليف من العدو حين يتغير هواه وتفكيره كل لحظة!

تبادلت الفتيات النظرات في صمت، وكان كلام المعلمة أبسط وأعقل من أن تخالفه إحداهن؛ هكذا نطقت الأئمة الصغرى بالافتناع والتسليم، وقالت المعلمة رؤية وهي تلملم أوراقها:

- «كان حوارنا اليوم قصيراً يا فتاتي، لكنني ارتأيت أنه من الأفضل جعل البداية على هذا النحو؛ فما أنا واثقة منه هو أن كل واحدة منكن ستعود إلى منزلها وهذا الموضوع يشغل ذهنها، وستفند أفكارها وقناعاتها جيداً حتى تحدد موقفها وتجمع الأسئلة التي تحيرها، ومن تعارضني منكن ستجد وقتاً لشحن حججها لسردها علي في الدرس المقبل.

وقبل أن أغادر كن مستودعة إياكن الله، أحب أن أخبركن بسؤال الدرس القادم حتى تنال عقولكن قسطاً كافياً من الوقت للتفكير في إجابته؛ إذ سيخيب أمني كثيراً سماع إجابات مشابهة لإجابات اليوم في المرة القادمة.»

وثقت شهوة بعينها اللامعتين فأشاحت الأخيرة ببصرها كأنها لا تبالي، لكنها كانت تحترق من داخلها وكان بوسعي الإحساس بذلك، لكن فرحتي بإسكاتهما وعدم اضطراري للمناوشة كان انتصاراً لطيفاً شرح صدرى. وكانت بقية الفتيات ينظرن إلى شهوة بنظرات متباينة من الشجاعة أو الحسرة لكونها غدت مثلاً سيئاً تستعمله المعلمة رؤية.

- «والسؤال التالي يا بنياتي هو: لماذا نغضب عندما يغير علينا الغزاة، في حين أن غارسي الفضائل أنفسهم قد قاموا بهجمات مماثلة على غيرهم؟ وهل لتصرفهم مبرر مختلف؟ من تعمقت منكن في معتقدات غارسي الفضائل الذين ننتمي إليهم- ورسائلهم وأهدافهم، ستأينني بالإجابة المثالية التي

أنظرها، ورجائي فيكن أن تكن جميعاً تلك الفتاة الرشيدة!»

أنهيت حديثي ونظرت إلى وادع وتبر منتظرة تأثيره عليهما؛ فتركت تبر كلامي كله وتشبثت باعتراض شهوة السخيف، وأخذت تكيل لها الخطط والعقوبات، وتقسم أنها لو كانت حاضرة في تلك اللحظة لما تركت أنفها في موضعه، وأنا كنت أصدقها دون قسم.

تناهت إلى مسامعنا أصوات الرجال القادمة من ديوان أبي، ففارقنا وادع لينضم إليهم، كان أكثر رجال القرية مجتمعين في دارنا هذا الصباح للتخطيط للمناسبة الضخمة التي توشك القرية على استقبالها، وتأكيداً على ما قلته عن سرعة مرور الزمن، وعن الأعمار التي لا يشعر المرء بانقضائها، يسرني إعلامكم بالنبا السعيد؛ فصديقتي وابنة الحاكم ليلة، تستعد لتزف في غضون أيام عروساً إلى خاطبها (قُصي) ابن حاكم قرية (الربوة) القرية، وقد قرر الرجال أن يدخلوا السرور على قلب الحاكم وابنته بإقامة حفل بهيج يدعى إليه جميع أهل القرية، ومن أراد الحضور من أهالي قرية الربوة والقرى المجاورة الأخرى، وقد فرحت لفرحة ليلة برغم الشعور الغامض الذي انتابني بأن العقد بدأ بالانفراط، وأن ليلة هي القطرة الأولى في غيث تفرقنا.

دلفت وتبر إلى المجلس الداخلي حيث اجتمعت أمني مع خالتي ودود والخاله حسناء، وقد تعالت أصواتهن في حماس مرح، لست واثقة تماماً لكن خيل إلي أن زفاف ليلة ليس موضوع حديثهن؛ إذ ما علاقة الزفاف بأقمشة التاجر ناصر التي تتميزق بسرعة والتي ضعفت جودتها، برغم أنه كان مقصد النساء من كل القرى لجودة منتجاته وحسن بضاعته فيما سبق؟ لا بد أن الحوار بدأ بذكر الزفاف، ثم فتح الموضوع مواضيع أخرى ذات صلة، واستمرت السلسلة حتى أن أيّاً منهن لن تذكر كيف وصل بهن الحديث إلى

هذه القصة.

كانت علاقتهن الثلاثية مدهشة؛ فمنذ اللحظة التي وطئت فيها قدما الخالة حسناء أرض قرينتا، عرّفتها أمي على خالتي ودود، وإمعاناً في تحقيق الترابط، قررت أمي اتخاذ إجراء غير معتاد؛ فأرضعت ساري ابن خالتي، وأرضعت وادع، لتضمن - على حد قولها - ترابط الأبناء كما ترابطت الأمهات. الحقيقة أنني لا ألومها؛ فقرارها العجيب منحني أخوين رائعين وأختاً -بالتبعية-، ومنح ساري -الوحيد دائماً- أختاً غاية في الرقة والعذوبة هي أنا، وكفل للتوأمين الغريبيين شخصاً يناديها بـ(أخوي) ويشعرهما أنهما من أفراد القرية حقيقة لا مجرد كلام. بوسعي أن أؤكد أن غاية أمي السامية قد تحققت!



كان الزفاف باهراً كما خطط أهل القرية وأكثر، ذبحت الكثير من العجول وأكل منها كل من في القرية، من الأغنياء والفقراء، ووزع الباقي منها على من أقعده مرض أو غيره عن حضور الزفاف. زُفت ليلة بلباس حريري أبيض فاخر خيط لها خصيصاً، وكانت آية في الجمال والرقة، واستشففت من ملامح وجهها أنها سعيدة فعلاً، وأن الشائعات -التي تتناقلها السنة من لا يجدون شيئاً يفعلونه غير إطلاق الشائعات- لم تكن صحيحة بحال.

كان يوماً مليئاً بالسعادة والرقص والزغاريد والأهازيج، والفاكهة والعصائر طبعاً، بكت السيدة محمل والدة ليلة لفكرة افتراقها الوشيك عن ابنتها، والذي لم يحدث منذ يوم مولد الأخيرة، لكنها كانت سعيدة لسعادتها لا شك، وكانت خيمة الاحتفال المخصصة للنساء تضحج بالفرح من كل جوانبها.

فجأة شعرت بأن شيئاً ما على غير ما يرام، اخترق الحشود الطفل (شهاب) ابن الحاكم الأصغر من زوجته حلية، وكان صبيّاً غاية في المكر والدهاء والاعتداد بالنفس، أي أنه يشبه أنور الصغير في كل شيء بالإضافة إلى ذكاء خارق ليس له مثيل في مثل هذا العمر، وقف أمام والدته العروس فانحنّت تستمع إلى ما يريد قوله، همس شهاب في أذنها ببضع كلمات كانت كفيلة بجعل وجهها يشحب، وأخذت تنظر حولها بارتباك كأن هناك ما يجب أن تقوله للحاضرين ولا تعرف كيف تبدأ. بعد قليل جاءت طفلة -لا أعرف ابنة من- لتخبرني أن وادع وساري يريدان التحدث إلي عند باب الخيمة، وقد كان الأطفال يلعبون دور الحمام الزاجل، وباب الخيمة يمثل أرض اللقاء المحايدة كما ترون.

تركت أمني المنهمكة في الحديث مع خالتيّ ودود وحسناو وعدد من النساء الأخريات، لا يبدو إن إحداهن لاحظت قيامي، وذهبت للقاء وادع وساري وقد خمنت لسبب ما أنني سأعرف ما أربك السيدة مخمل قبل دقائق.

- «أصحاب الأعين الزرقاء، إنهم يشنون هجمة مفاجئة، وقد أصبحوا قرييين من قريتنا بالفعل!»

اتسعت عيناى في فزع، برغم أنني لم أفهم ما الذي يريدانه بالضبط بإخباري بشيء كهذا. كانت هجمات واحدة من قرى أصحاب الأعين الزرقاء شيئاً معتاداً خلال الشهور القليلة الأخيرة، وإن لم يعرف أحد السبب؛ فقد كانت سبل التفاهم بيننا وبينهم شبه معدومة، ولم يستطع أحد وضع يده على حدث معين أو مشكلة ما من شأنها أن تتسبب بكل هذا، فقط تأقلمنا على هذا الوضع، وأصبح رجال الحماية ورجال القرية عموماً معتادين على المسارعة إلى صد تلك الهجمات عند حدود القرية، وغالباً لا يسفر ذلك الاحتدام المختصر إلا عن إصابات محدودة لدى الطرفين.

- «لقد ذهب أنور ومعظم الشباب ليقابلوا المهاجرين عند حدود القرية، لكن الحاكم لا يريد أن يشعر ضيوفنا بشيء؛ لذلك فكر أنور بإرسال رسالة لأمه مع شهاب بإبعاد النساء عن الخيمة، وقد رأى الشيخ مدرار أن السيدة مخمل قد يلتبس عليها الأمر وتحار في اتخاذ إجراء مناسب؛ لذلك أرسلنا لنخبرك بما عليك عمله.»

- «أنا؟ وما شأني؟ لست من أصحاب العرس...»

- «اسمعي وكفي عن الشرثرة؛ فسيكون علي ووداع الالتحاق بالبقية سريعاً.»

يا للسان ساري السليط الذي لا يستطيع الامتناع عن إهانة محدثه مع أول عبارة. تجاهلت سخافته وصرفت تركيزي إلى الأهم، انصرف ساري ووداع وعدت أدراجي إلى داخل الخيمة، اقتربت من السيدة مخمل شاحبة الوجه وتوقفت جوارها بطريقة أريحية، قربت رأسي من رأسها وحاولت التحدث بصوت خفيض لا يصل إلى أسمع من حولنا، وعال بما يكفي ليطنخي على الأصوات الصاخبة المحيطة، وكانت موازنة -والله يعلم- صعبة!

- «اطلبي من النساء الاجتماع للعشاء في دار التاجر ربيع خلف الخيمة، الرجال وضعوا الصحف في قاعاتها الآن، وسيتكفلون بحماية الموقع خلال الطعام، المهم ألا يشعر أهل عريسنا بشيء.» ثم نظرتُ لليلة التي تستقبل التهاني نظرة ذات معنى وأنا أضيف: «ولا عروسنا البهي، إنها ليلة العمر كما تعرفين!»

ابتلعت ريقها ولم يدُ أن تهتة كل شيء قد قللت من توترها ولو قليلاً، أشارت بيدها في ارتباك إلى الزخم المخيم على المكان، ضربات الدفوف والرقصات والأناشيد والزغاريد، قلت بحسم:

- «لو لم تقطعي هذا الصخب بنفسك؛ فلربما تقطعه صرخات أصحاب الأعين الزرقاء وهم يمزقون أستار الخيمة!»

ازداد وجهها شحوباً وبدأت أفقد الأمل في إمكانية أن تنفذ أي شيء مما ذكرته، بقيت أتلقت حولي بحيرة حين تلاقت عيناى بعيني تبر التي أصيبت بالصرع تقريباً وهي تتقاذف في منتصف دائرة الرقص بفرح معد يبعث السرور في كل من يراها، أوقفت جسدها عن الرقص بمعجزة وسارت تجاهي بوجنتين متوهجتين -أكثر من توهجهما المعتاد- وقد خمنت أن هناك خطباً ما، شرحت لها الموقف باختصار فلم تفكر مرتين.

- «يا حبيبات! يا حبيبات!»

كررت نداءها بصوت عال حتى هيمنت على كل الأصوات مجتمعة، تدرجياً توقفت أيدي ضاربات الدفوف وألسنة المزغردات واتجهت كل الأعين بفضول تخمن ما ستقوله تبر، أكملت الأخيرة دون أن تهتز من رأسها شعرة:

- «والدة العروس تحب دعوتكم للوليمة حتى نستكمل العرس بطاقة أكبر، الصحاف بانتظاركم في دار التاجر ربيع وسنصل إليها عبر مدخل الخيمة الخلفي، لا شيء أفضل من الطعام لمضاعفة السرور وشرح الصدور!»

تعالق قهقهات النساء إثر عبارة تبر المرححة، وبدأن المرور واحدة تلو الأخرى عبر المدخل للوصول إلى الدار، ابتسمت لي تبر في تباه وهي تسير مع الفوج، تبادلت والسيدة مخمل نظرات الراحة في حين نظرت إلينا ليلة -المنهكة من كم عبارات المجاملات التي اضطرت لقولها خلال الساعات الأخيرة- متسائلة إن كان من خطب ما، نفينا بابتسامة تفضح كذبنا وتبعنا البقية إلى الدار.

لم يهدأ لي بال طوال فترة الأكل، ولم أكل إلا عدة لقييات من باب ألا أشعر أُمي ومن معها بشيء، وفي لحظة غفلة تمكنت من الإفلات من بينهن واتجهت إلى النافذة المطلة على واجهة الدار، حيث كان يتمركز عدد من الرجال على خيولهم، وسيوفهم ترقد في أعمدتها متأهبة، وأعينهم تدور في المكان كأعين الصقور، شغل تفكيري الموقع الذي يمكن أن يشغله أبي في هذه اللحظة، ثم خمنت أن أنسب مكان يلائمه هو أن يكون جوار الحاكم في خيمة العرس يلاطف الضيوف بكلماته العذبة ويحاول تغطية اختفاء عدد كبير من الرجال دفعة واحدة. كانت صحة الحاكم تأخذ مسارًا منحنيًا في الآونة الأخيرة، وربطها البعض بهجمات أصحاب الأعين الزرقاء وما استتبعته من أعباء أعيت الحاكم وأثقلت كاهله؛ إذ بات قلقًا حيال أن تكون الهجمة التالية هي الأخيرة التي ينكسر بعدها الحاجز ويعيث أصحاب الأعين الزرقاء فسادًا في الأرض، وهذا ما حدا ببعض الثرثارين لأن يشككوا في نية الحاكم من تزويج ابنته لهذا الشاب تحديدًا، ورأوا أن هذا دليل لا يدحض على أن الحاكم يحاول استئالة قرية الربوة للتصدي لأصحاب الأعين الزرقاء معنا برابط النسب.

انترعتني أصوات مرتفعة آتية من صالة الطعام؛ فتركت النافذة وجريت لأستطلع ما يجري، وهناك رأيت شهوة تقف بتنمر بينما تصل شرارة نارية عينها الصفراوين بعيني تبر الزرقاوين، كانت شهوة تصرخ في غل لا يصدق:

- «وجودكم في قريتنا هو أكبر خطأ، أنتم مجرد همجين لا تسببون إلا الفساد، وها هم أولاء قومكم يهاجمون قريتنا، ولعل أحدهم يطعن أخي الآن أو يتسلل لياغتنا في صالتنا هذه!»

تبادلت النساء نظرات الذعر والدهشة وندت العديد من الشهقات والصرخات القصيرة، بعضها فزع من الخبر وبعضها مستنكر لكلام شهوة،

لكن تبر لم تكن ضعيفة تكتفي بالبكاء أو مغادرة المكان، بل إنها ردت بقوة:

- «نحن لم نسكن في بيتكم ولم نطلب منكم أن تتصدقوا علينا بالمؤونة حتى نتحدثي عنا بهذه الطريقة، نحن أشخاص شرفاء، وكنا أقوياء بما فيه الكفاية لنقول إن قومنا على خطأ ثم نغادر بلادنا إلى غير رجعة؛ لأننا اعتقدنا أن من يشاظرنا الإيمان نفسه سيرحب بنا أكثر ممن يشابهنا في لون العينين! ثم.. ماذا تظنين؟ أخي نفسه يقف الآن في الصف الأول مقتحماً بصدوره ساحة المعركة؛ لأنه يرى أن هذه القرية قريته، وأن هؤلاء الناس هم أهله الحقيقيون، لا من يحملون لون عينيه!»

- «أخوك؟ ذلك (الوادع) الذي يخاف من ظله؟ أراهن أنه سيفر من المواجهة بمجرد أن تغفل أعين الجموع عنه!»

كانت الدموع قد بدأت تنفر من عيني تبر الآن، ومن عيني ليلة التي لم تتحمل أن يشتعل هذا الجدال في حفل زفافها بالذات، وأخذت أخوات العريس ومن أتى من قريته يتبادلن نظرات الاستغراب، كنا نحاول إخفاء الأمر عنهم لكن شهوة برعوتها أفسدت كل شيء!

- «ألا يكفي هذا؟ ما بك يا تبر؟ لقد اجتمعنا الليلة لنفرح بالعروسين ونتمنى لهما عيشة هنيئة، وهذا ما سنفعله، حتى إن حدثت مشكلة طارئة خلال ذلك فإن الرجال سيسيطرون عليها وليس علينا أن نقلق بهذا الصدد، أين ضاربات الدفوف؟ هيا، نريد شيئاً من البهجة هنا!»

قالتها حلية زوجة الحاكم، وبرغم تعمدها استفزاز تبر وإلقاء اللوم عليها، إلا أن المشكلة انتهت عند هذا الحد. أمسكت الضاربات بدفوفهن في شيء من التردد، وبمجرد أن سرت أنغام الدف وأهازيج الأمهات العريقة حتى بدا أن الجميع نسي ما حدث قبل هنيهات، وسرت الفرحة مثل الوباء

وعادت النسوة تستكملن ما بدأنه.

غير أن تبر لم تعد للرقص، بل انتحت جانباً وبقيت ترمق المشهد في كآبة شاردة، جلست جوارها ووضعت يدي على كتفها فأجفلت، قلت بلهجة متعلقة:

- «لو كنت مكانك ما كنت لأعير كلامها اهتماماً، إنها مجرد مختلة تبحث عن أحد تصب عليه غضبها، لا أحد سيعبأ بكلام إنسانة تحمل هذا الاسم على أي حال، خاصة أنك سددت حلقها بردك الشافي، أتعلمين؟ لقد بردتِ خاطري!

ابتسمت بوهن.

- «لكن يا غيم...»

- «لا لكن، وادع بطل من أبطال قريتنا ولا أحد يستطيع الإنكار، لعلها تعمدت مشاجرتك فقط لأنها تعرف أن أخاها يختبئ خلف إحدى الأشجار بينما الجميع يقاتل، وأنه أجبن بكثير من القيام بمثل ما يقوم به أخونا.»

تعمدت قول (أخونا) لأشعرها بالدعم، وسرعان ما نفضت ضيقها وعادت تشارك الرقص مع النسوة المتحمسات.

انتهى الحفل والهجمة على خير بحمد الله، ورحلت ليلة -بعد يوم شاق- على متن عربة مبهرجة أنيقة رفقة زوجها، بقيت بعد الاحتفال مع عائلتي وعدة عوائل من المقربين إلى الحاكم، نقوم بواجبنا من تعبئة ما تبقى من طعام وتوزيعه على المحتاجين، والاعتناء بطي الخيام وتنظيف مخلفات الاحتفال وما إلى ذلك، وحين كنت أجمع السجاجيد الصغيرة التي فرشت

في دار التاجر ربيع لتاكل النسوة عليها، تناهى إلى سمعي -من غير رغبة مني- حديث يدور بين حاكمنا جلال والحاكم (صارم) حاكم قرية الربوة، حيث كان الأخير يلوم الأول لعدم إخباره بأمر الهجمات الدورية، ليمدوا لقربتنا يد العون ويبيدوا أولئك المتوحشين عن بكرة أبيهم، مما أكد لي أن شهوة ليست الوحيدة الثرثرة في عائلتهم، وأن قاسط قد تحدث بالكثير. علقت في ذهني عبارة واحدة ظلت تطن في عقلي بشكل ملح، إذ قال الحاكم صارم في معرض حديثه:

- «إن لم نساعدكم فمن سنساعد إذن؟ إننا واحد يا أخي، وجميع (الصفراويين) واحد!»

مر عَقلَة المجنون ليتناول من أبي صحيفة عبث بالطعام، وتناهت تلك الكلمة إلى مسمعه فرددها ضاحكا وهو يعرج مبتعداً مع عكازه.

- «الصفراويين! ها ها! كم هذا ظريف!»

تعمد الحاكم صارم قول تلك الكلمة كنوع من الجمع الطريف لأصحاب الأعين الصفراء، لكنه لم يحزر ما كانت ستبلغه تلك الكلمة فيما بعد!

في اليوم اللاحق لزفاف ليلة، كنت أقضي بعض الوقت في المزرعة، عندما يسمع سهل صوت فرسي (جناح) فإنه يعرف أنني في المزرعة الآن ولا يغادر كوخه، أعدت جناح لمكانها المخصص بعدما أمسكت بدفترتي الجلدي وقلمي، ذهبت لأنترع عوداً من شجرة الأراك التي يفضلها أبي وأخذت أفرك أسناني وأنا أتمشى بشرود وأصوغ الكلمات التي سأكتبها. كان غياب ليلة فارقاً بشكل واضح، برغم أنها كانت منطوية على نفسها ولا تجتمع بنا كثيراً، لكن فكرة ابتعادها ورحيلها إلى قرية أخرى كانت مزعجة بما لا

يقاس. وصلت إلى نبات (الأغاف) الذي قررت أن أجرب زراعته قبل مدة طويلة، لقد شق التربة وخرج قبل مدة لا بأس بها، لكنه لم يُزهر أبدًا، ولا زهرة واحدة! وضعت الدفتر جانبًا وجثوث على ركبتَيَّ وقربت عينيَّ من الأغاف مدققة، لربما بزغت زهرة صغيرة جدًا في مكان ما، أكاد أياس من خروج زهور لهذه النبتة، وبدأت أفكر في أنني ارتكبت خطأ ما أثناء زراعتها، أو أن البذور التي باعنا العم جواد إياها لم تكن صالحة، والخيار الأخير شبه مستحيل!

- «ماذا تفعلين هناك؟ هل تناجين النمل؟ لحظة! أهذه نبتة أغاف؟ إنها نادرة الإزهار، وربما ينتهي عمرك دون أن تدركي رؤية زهرة واحدة منها! لقد اخترت نباتًا صعبًا ومحبطًا لزراعته يا غيم.»

استدردت لأواجه صاحب الصوت بضيق، كان ساري يقف راسمًا ابتسامته الهازئة الدائمة، وكأنها عيب خلقي ولد به.

- «هل تريد شيئًا؟»

- «أوه أوه! أنت لا تزالين غاضبة إذن أيتها الصغيرة!»

قالها وهو يضع يده على رأسي ويجلس جوارِي، المشكلة أنني أكبر منه بعدة أشهر في الأساس!

- «حسنًا، لست كفؤًا لتحمل عواقب غضبك مني يا أختاه، ما رأيك بنزهة سريعة؟»

وغمز بعينه في مرح، اعتدلت باهتمام؛ إذ كانت النزهات مع ساري هي الأروع، وكان قادرًا دائمًا على جعل زيارتنا المشتركة لأي مكان -مهما كان عاديًا- لا تنسى!

- «متى؟ وأين؟»

- «غداً مساءً، أما أين؛ فلنبقيها مفاجأة!»

أومأت برأسي في حماس فابتسم ونهض، سألني باهتمام إن كنت لا أزال متضايقة فنفيت بصدق، إنه يزعجني لكنني أنسى سخافاتى على الفور، وردة الفعل التي أبدىها ليست إلا محاولة مني لجعله يتوقف عن طريقته، لأجله لا لأجلي.

قالت معلمتي رؤية:

- «أرجو أن تكن قد أبحرتن في عقولكن ومعلوماتكن لتصلن إلى إجابة مرضية لسؤالي يا بناتي، وللاهيأت منكن، ومن تنسى كل ما ذكرناه في مجلسنا وما يتوجب عليها عمله بمجرد تجاوز عتبة الباب، أذكركن بالسؤال: ما هي الأهداف المميزة التي تحرك غارسي الفسائل، وتجعل من محاربتهم للغير تصرفاً نبيلًا يختلف كل الاختلاف -في الكيف والقصد- عن غيرهم من الغازين والمهاجمين؟»

رفعت (أريج) ابنة (حصين) الحداد يدها بأدب تستأذن في الحديث، أذنت المعلمة لها؛ فقالت:

- «إن أحد الأسس التي لا يمكن أن تستمر حياة الإنسان إلا بها هو وجود النباتات، وغارسوا الفسائل قد وعوا هذه الحقيقة وأيقنوا بها، ولأن الحياة بغير نباتات صعبة ما لم تكن مستحيلة، ولأن معظم مشاكل العالم اليوم أو كلها تحل بالزراعة والإكثار منها؛ فإن غارسي الفسائل حريصون على توصيل النباتات لكل بقاع الأرض، وإفادة كل أولئك الذين أخذوا فكرة خاطئة عن النباتات، أو لم يدركوا حجم أهميتها. وباختصار أشد: غارسوا

الفسائل لا يهاجمون الغير للهيمنة على الأراضي أو استعباد المهزومين أو إفساد البلاد، بل إن هدفهم العظيم هو إحياء أكبر قدر ممكن من الذين يعيشون بغير نباتات، لمصلحتهم ليس إلا!

ابتسمت المعلمة في رضا، حين رفعت (مسرة) -وهي فتاة انتقلت مع عائلتها إلى قريتنا مؤخراً، لكنها من أصحاب الأعين الصفراء، ووالدها يعمل بين رجال الحماية- يدها تطلب إضافة ما لديها.

- «ولذلك سمي غارسوا الفسائل بهذا الاسم؛ لأنهم كانوا يحملون فسائل صغيرة حين تنشب معركة ما، وفي حال فاز الغارسون فإنهم كانوا يباشرون بغرس تلك الفسائل بأكبر قدر داخل البلاد المهزومة، ولما كان أهالي تلك البلاد يلاحظون بسرعة قيمة تلك الفسائل، ومقدار التغير الذي تصنعه في حياتهم، وتركيز الغارسين على زيادة تلك الفسائل البديعة في أراضيهم دون مساس بحقوقهم، أصبحوا يكتنون احتراماً وتبجيلاً لغارسي الفسائل، ويصدقون رغبتهم الخالصة في مساعدتهم، وكثيراً ما تحولت بلاد بأكملها لتتضم إلى غارسي الفسائل!

اتسعت ابتسامة المعلمة أكثر، وأعربت عن سرورها الكبير لكوننا حضرنا للسؤال بشكل جيد، ومنحناها إجابات تطمئننا على المستقبل الذي بين أيدينا، لكن أياً من المتكلمات لم تقل ما أردت قوله؛ لذا رفعت يدي بدوري.

- «ولربط حديثنا الشيق اليوم، بحديث الدرس الفائت الذي لم يأخذ حقه في النقاش، أحب أن أضيف أن أهمية الانتماء لغارسي الفسائل تكمن في هذا السبب بالضبط، أن غارسي الفسائل -الحقيقيين- لا يبحثون عن الجاه أو الثروة، ومن أهم معتقداتهم أن يتعدوا عن القومية التي تفرقهم وتحل ترابطهم للوصول إلى غايتهم المشتركة الأهم، وهي غاية عظمى لا يثني غارسي الفسائل شيء في سعيهم إليها؛ لذا بدأ الحاقدون وغربان

البين بالتفكير في أسلوب آخر يجعل غارسي الفسائل يتفرقون ويتباعدون، وتنصرف أذهانهم عن الغاية التي توحدهم؛ هكذا بدأوا بالتشكيك في أساسيات معتقدات غارسي الفسائل؛ فزرعوا الفرقة بين غارسي الفسائل بسبب ألوان الأعين؛ فأصبح المرء يتأكد من لون عيني محدثه قبل أن يسأل إن كان انتهاؤه لغارسي الفسائل!»

- «لا عجب من كونك صاحبة تلك الإضافة الفذة؛ فأنت ابنة الشيخ مدرار!»

قالتها وهي تستدير عائدة إلى مقعدها في المقدمة؛ فتوهجت وجنتاي خجلاً، بينما تتوجه أنظار جميع الفتيات إلي في غبطة أو سرور، أو حقد إذا ما توخينا حقيقة جلوس شهوة في الصفوف الأولى هذه المرة بناء على رغبة المعلمة رؤية: «لعل الكلمات الصحيحة تنفذ إلى قلبك بعمق أكبر يا ابنتي»، وقد فهمت أنني كنت أعنيها بلفظتي (حاقدين) و(غريان البين).

- «لا أشك يا بنياتي في كونكن بحثنّ بجد عن الفئات المتخلفة عن ركب غارسي الفسائل، وستعدد لي إحداكن الآن مسمياتها فقط، لست أطلب ما هو أكثر.»

- «حارقوا المحاصيل، واليائسون، والجداريون. هناك الكثير من الفئات الأخرى لكن هذه هي الأشهر.»

هزت المعلمة رأسها مؤكدة، ثم بدأت تفصل المُجمل بشمول كعادتها، وقد كانت أفضل من يطبق مقولة: خير الكلام ما قل ودل.

- «حارقوا المحاصيل يا فتاتي، كان معتقدتهم في الأصل موافقاً لمعتقد غارسي الفسائل، وكذلك كان الجداريون، كانت مساعيهم تسير في سبيل إعمار الأراضي، وزرع النباتات، التي تستقيم بها أمور الحياة كلها. لكن

الكتاب الذي كان الحارقون يستقون منه معلومات الزراعة قدم، وطالت طرق الزراعة فيه الكثير من التحريف والتغيير، حتى لم يعد من الممكن معرفة ما هو أصلي فيه، وما هو محرف؛ فاختلطت الأمور على حارقي المحاصيل، يتبعون تعليمات الكتاب فلا يثمر اتّباعهم، ولا تسفر محاولاتهم عن شيء، وعوضاً عن خروج النباتات المفيدة التي يأملون خروجها، امتلأت أراضيهم بالنباتات الضارة، التي سببت لهم الأذى والفساد. ولم يهتد حارقوا المحاصيل لأهمية البحث عن كتاب موثوق يعلمهم الزراعة، بل وسوست لهم أهواؤهم الفاسدة بأن العيب في الزراعة بذاتها، وأن وجود المزروعات في الأرض يسبب الأذى ولا شيء غيره؛ هكذا فعلوا ما أكسبهم هذا الاسم، بدؤوا بإحراق كل ما تطوله أيديهم من المزروعات والمحاصيل؛ كي لا يعترفوا بأن العيب في تطبيقهم المختل لا في النباتات نفسها.

أما عن الجداريين، فهم كما يدل اسمهم، يسيرون طوال الوقت قرب الجدار، في مسالة مخادعة، غامضون لا تُعرف غاياتهم أو ما يعتقدونه بالضبط، ناعمون وخبيثون تماماً كالأفاعي، وبرغم قلة عددهم، إلا أنهم كانوا خبيثين ومتظالمين بما فيه الكفاية لينالوا تعاطف حارقي المحاصيل ويحصلوا على دعمهم، أو ربما اتفقوا لمجرد توافق مصالحهم ومسايعهم.

وللحديث عن البائسين، سأقول ببساطة إنهم يائسون، لا يعبؤون بشيء، لا يريدون إرهاب أنفسهم باتّباع نهج غارسي الفسائل القويم، ولا باتخاذ معتقدات وهمية كالفتن السابقتين، يعيشون كما تعيش البهائم، أكل ونوم واتّباع شهوات، لا يؤمنون بأهمية النباتات أو غيرها، ويسعون لنشر فكرهم العدمي الذي يقضي بعدم جدوى أي شيء، وأن الإنسان أتى من لا شيء وسيعود إلى اللا شيء، من ثم عليه أن يستمتع بحياته القصيرة لا أكثر!!

عم الصمت بعد انتهائهما، وسمعت تنهدات خفيفة وتمتات من عدة

فتيات، يحمدن الله أن جعلهن من غارسي الفسائل بالذات، حمدت الله بصدق، ووجدتني أصفق تلقائياً وقد أعجبني عرضها السلس للموضوع باختصار شامل، وخذت بعض من الفتيات حذوي؛ فابتسمت المعلمة في حياء، وسمعت همس شهوة قريباً مني:

- «المعلمة والطالبة تجاملان بعضهما، ونضطر لسماع حديث ابنة حداد، وفتاة لاجئة، ونضيع وسط الكثير من الهراء والكلمات الفارغة التي تتكرر منذ دهور!»

- «هل تريدین قول شيء يا شهوة؟»

- «آآ.. لا..»

- «تكرار الكلام ليس عيباً، ودوام التذكير يمكن أن يحبي القلوب الميتة، ألم تري أن الماء الذي يستمر بالنقر على حجر أصم سيقسمه في نهاية المطاف؟»

بهتت شهوة حين تبينت أن المعلمة سمعت حديثها، تلاقت عيناها بعينيها فابتسمت في شماعة.

- «هل من أسئلة يا بنياتي؟»

- «أصحاب الأعين الصفراء هم أنفسهم غارسوا الفسائل، صح؟»

ستموت لو لم تصنع بعض الضجة.

- «لا، يؤسفني أن أخبرك بأن كل فئة من الفئات، بدءاً بغارسي الفسائل وانتهاءً باليائسين، متواجدون بين كل لون من ألوان الأعين بنسب متفاوتة، صحيح أن شرارة غارسي الفسائل انطلقت من بين قرى أصحاب الأعين الصفراء، لكن من حمل رايتها ونشر منهجها كانوا أناساً مؤمنين يحملون كل

ألوان الأعين، ولم يتقاعس أي منهم عن إعلاء هذا المنهج؛ لأن معتقد غراسة الفسائل فكرة، فكرة تخاطب كل عقل سليم وكل قلب يقظ، وهداية الله قبل كل شيء، هداية الله التي يهبها لمن يشاء دون شروط خلقية ابتدعها الناس دون سبب!

ولغرض استفزازي هذه المرة، تعالى صوت تصفيقي، فهمت المعلمة غرضي ونظّرت إلي بابتسامة شبه متواطئة، مرت جوارى وقالت همساً:

- «أنتِ واعدة يا غيم، يا ابنة الشيخ مدرار!»

- «ساري، إلى أين نحن ذاهبان؟ نحن نسير منذ وقت طويل!»

- «لا تكوني طفلة، أوشكنا على الوصول.»

أوقف حصانه فجأة فأوقفت فرسي خلفه، قال بابتسامة عريضة وهو يترجل ويشير إلى شيء ما يفصلنا عنه حاجز من الشجر:

- «ها نحن سيدتي، لقد وصلنا!»

ترجلت عن الفرس وأزحت الأغصان المتشابكة لأطالع ما خلفها؛ فغزت جسدي قشعريرة مفاجئة واستنكار، كانت عربة (البهاليل) المتحركة قد اتخذت موضعها خارج حدود قرينتنا بمسافة قليلة، وانبعثت منها أضواء متعاقبة بكافة الألوان تجعل عيني الناظر إليها تتألمان، ودخلها وخارجها وقف خلق كثير من رجال ونساء في اختلاط يثير الغثيان، كانوا يرقصون معاً ويسكرون ويملاً صوت معازفهم الهواء حتى ليكاد المرء يختنق، وينفذون الكثير من الحيل الغريبة والحركات الاستعراضية الصعبة، كانوا بارعين والحق يقال، لكنهم.. لكنهم مريعون! مجرد النظر إلى المشهد جعلني أصاب

بالجزع، ألا يخاف هؤلاء القوم من عقاب الله؟ كانوا يشكلون تشكيلة متنوعة من أناس بألوان أعين متباينة، الأزرق والقرمزي والبنفسجي، وحتى الأصفر لم يُعدم بينهم، بل إن المصيبة كانت أن من أصحاب الأعين الصفراء المتواجدين أشخاصًا ينسبون أنفسهم إلى غارسي الفسائل! وكانت عربية البهاليل تنتقل من بلاد إلى أخرى، ليتجمع الأراذل من كل بلد ويحضروا عروضهم الخارجة مقابل مبلغ زهيد، ويؤسفني إخباركم أنهم وجدوا الكثير من الجماهير بين قرانا، قرى أصحاب الأعين الصفراء، التي يفترض بها أن تكون معقل غارسي الفسائل الأصلي!

نظرت إلى ساري في استغراب وكأنني أسأله: «لم أحضر تني إلى هنا؟»؛ فلكزني بمرفقه في مرح وهو يقول:

- «هيا، لم أنت متحجرة هكذا؟ سنستمتع قليلاً ثم نعود!»
- «لقد جننت على أقل تقدير؛ ألا تشم رائحة الفساد النفاذة في هذا المكان الموبوء؟ كيف تريد منا البقاء هنا دقيقة واحدة؟!»
- «يا لسماجتك يا غيم، أهذا خطئي لأنني أردت ترفيهك؟»
- «ساري! أنت ترفه عني دائماً، ومن دون انتهاك للشريعة أو ارتكاب للحرام، ألا ترى كمّ النباتات التي تموت بسبب ما يفعلونه؟ المفترض أنك أكثر شخص يجيد الزراعة، ويعرف كم أنه من المؤلم إفساد الزرع!»
- «أنت قلتها بنفسك، أنا أجيد الزراعة، لا ضير في إفساد القليل من أجل المرح، وسنزرع أضعافها.»
- «الإفساد لا يستغرق أكثر من ثوانٍ، بينما يحتاج التشييد إلى سنوات، هذا ما يقوله أبي دائماً!»

- «وأنا الذي ظننتك كبرت ونضجت! تبين أنك لا زلت تنجّرين وراء كلام أبيك من دون وعي، كأنك شاة تتبع الراعي! أبقى هنا أيتها المحبطة، وسأستمتع بمفردي!»

قلت بحزم وأنا أقفز إلى ظهر الفرس:

- «بل ستعود معي!»

- «ستجبريني؟»

- «أليست لديك مبادئ تحتكم إليها؟ ألا تملك حدوداً؟ ألا يوجد لديك ما تخاف عليه؟!»

- «نعم.»

- «إجابة أي سؤال هذه؟»

زفر بضيق وقال وهو يمتطي حصانه مدعناً:

- «بوسعك الاختيار.»

- «يا لك من...!»

توقف فجأة وطلب مني الانتظار لحظة، تركني مع الفرس والحصان ليقتمح حلقات الناس المجتمعين حول العربية، غاب قليلاً ثم عاد حاملاً كأسين من عصير البرتقال، وجراباً مملوءاً، سألت بفضول:

- «ماذا في الجراب؟»

- «عرق سوس.»

قالها بتحفظ، لكنني لم أسمع باسم هذا الشيء من قبل.

- «عرق سوس؟ وما هو عرق السوس؟» أضفت بشك: «أهو نبات

مسكر أو ما شابه؟»

- «ليس كذلك، وليس عليك افتراض أنني سأكون سكيراً لمجرد أن أبي كان كذلك.»

وجمت في دهشة، لم يكن ذلك مقصدي أبداً، وسؤالي كان بسبب المكان الذي أحضر منه الجراب لا أكثر! حاولت التبرير لكنه لم يبدُ مهتماً كثيراً، ناولني أحد كأسبي العصير فنظرت إليها وقلت بأسى:

- «ينعمون بمنافع النبات، ثم يدمرونه بلا أدنى ندم، يا لهم من جاحدين!»

نظرت أمني وخالتي حسناء إلى وادع القادم من الخارج متهدل الكتفين بادي الضيق، سألتها أمه بقلق:

- «ما الأمر؟ هل حدث شيء؟»

نفى بإشارة غير مقنعة، ثم تجاوزهما ليتجه إلى ديوان أبي الذي كان يجلس فيه وحده الآن، أشارت لي أمني من طرف خفي فسارعت باللحاق به، رأيته يجلس جوار أبي ببال مكسوف؛ فوضع أبي يده على ظهره بتعاطف وهو يقول:

- «هل تكرر الأمر مجدداً؟»

هز وادع رأسه إيجاباً دون أن يتكلم. ورغبة في معرفة المزيد، بقيت كامنة جوار الباب دون أن أظهر لهما وجودي، قال أبي من جديد:

- «يا للحقارة، لو أنهم يفهمون أن القيمة في القلب لا في العينين! ما الذي فعلوه هذه المرة؟»

- «إنهم يتهايمسون وراء ظهري، أسمعهم بوضوح وأتغابى، لا أريد إحداث صدام، ينفضون إذا ما حاولت مشاركتهم في سباقات الخيل أو الرماية، يقولون إنني لا أجيد الرماية، وأن أصحاب الأعين الزرقاء لا يمكن أن يكونوا فرساناً أو رماة أو مزارعين بارعين! لم يكن الحال هكذا يا عمي، لم نشعر بهذه الغربة في القرية من قبل قط!»

- «هون عليك يا بني، ما ضيركم في أن يحبكم الناس أو يكرهوكم؟ إن كنتم تعلمون أنكم مخلصون وصادقون؛ فسيكون جزاؤكم من جنس أعمالكم، وسيندم كل شخص حاول التشكيك بكم أو إيذاءكم بالقول! وأياً كان ما يعترضكم، ولو انقلب أهل القرية كلهم ضدكم؛ ثق أننا سنبقى عائلة واحدة، وستجدون منزلنا دائماً يرحب بكم!»

تنهد وادع بحزن ووجدتني أتألم لمظهره، قال أبي مغيراً الموضوع:

- «أتعلم؟ لم لا تبدأ بالتدريب؟ السباق الكبير اقترب، وسيتوجب عليك أن تثبت لأولئك أن صاحب العينين الزرقاوين يستطيع بسهولة أن يصبح فارساً وراميًا ومزارعًا وسباحًا بارعًا كذلك!»

ابتسم وادع مجاملاً والحزن لم يفارقه، ثم نهض مع أبي وخرجا. خيل إلي أنني رأيت شيئاً شفافاً ضئيلاً يتحرك عند أصص الزرع، بدت لي -بعد التدقيق- كأنها ديدان صغيرة، أو ربما خنافس، لم يسرني مراها، لعل من الأفضل أن أخبر أبي بأمرها لاحقاً. عدت لأمي لأخبرها أنه لا شيء، بالضبط اللا شيء الذي قاله وادع، ثم اتجهت إلى غرفتي وأنا أفكر، شهوة ليست الوحيدة إذن، فليحفظنا الله من الانقسام القادم!

(٣)

لقد مر عامان، كان ذلك سريعاً جداً، صح؟ أخبرتكم أن مسيرة الزمن ليست منطقية وأن الأرقام لا تصلح للتعبير عنها، غداً سيبدأ السباق الكبير لهذا العام، كان أنور هو المسيطر على المركز الأول في كلا العامين الماضيين بجدارة، وحل وادع في المركز الثالث في العام الأول، والثاني في العام الثاني، وهو يطمح للمركز الأول هذا العام. أما عن ساري؛ فلم يكن يشترك إلا للتخلص من إلحاحي، ولم يكن يبذل جهداً حقيقياً للفوز بأي شيء.

لكن الأمن لم يعد مستتباً مثلما كان، ازدادت هجمات أصحاب الأعين الزرقاء شراسة، وضجت الشهور الماضية بأنات المصابين الذين انفصلت أطرافهم، وعويل الثكالى والأرامل والأيتام الذين فقدوا ذويهم، الحق أنها كانت شهوراً عصيبة، فقدنا فيها الكثير من الأحباب، وأصبح الناس لا يخرجون إلى الشوارع فرادى، وقليلاً ما تسمع صوت وقع أقدام بعدما يحل الظلام، ليس أن طرقات القرية كانت تنشط عادة في الليل، لكن لياليها الآن أصبحت صموتاً لا توحى بوجود أحياء في هذه القرية بحال. ومع استعار المعارك وازدياد الخسائر، تزايد تحامل أصحاب الأعين الصفراء عامة، وأهالي قرية المروج خاصة، على أصحاب الأعين الزرقاء الموجودين بيننا، فأصبح وادع وحيداً طوال الوقت، لا يكاد يرافقه أحد إلا ساري، حين يكون في مزاج رائق، ولم تعد تبر تجالس أحداً غيري، وكذا حال الخالة حسناء، صحيح أن حالة التجارة لم تعد بأفضل حال في كامل القرية، لكن

دكان العم جواد بالذات نسي معنى كلمة زبائن تقريباً، وبرغم ضعف جودة ما لدى الدكاكين الأخرى من بذور، إلا أن الأهالي فضلوا الاكتفاء بها كي لا ينفعوا صاحب العينين الزرقاوين.

أوقفت جناح قرب البحيرة وترجلت، جلست جوار ذلك الشاب الصموت، كان محني الظهر وهائماً في عوالم لم يزرها بشري قط، تأملت شعره البني الأشعث، أظنه لم يفكر في تمشيته من قبل، يقولون إنه نسخة طبق الأصل من حيّان، اللهم إلا عيناه الداويتان، كأنهما عينا خالتي ودود، يغمرهما حزن عجيب، يدفنه ساري تحت أطنان من السخريّة واللا مبالة المفتعلة، مع فارق أن عيني خالتي حنونتان إلى أبعد حد، بينما عينا ساري غامضتان لا يمكن التكهن بما تفكران فيه.

- «عرفت أنني سأجذك هنا.»

- «ارتاحي، لن أغيّر رأيي.»

جلست جواره ودليت قدمي في الماء وابتسمت بانتعاش، قلت وأنا أتأمل الحركة الخفيفة في البحيرة:

- «يا لسخافتك يا ساري، أنت تحب الزراعة، وركوب الخيل، وتجيد الرمي كأفضل ما يكون، وحتى السباحة؛ فلم تتأى بنفسك عن مضمار التنافس؟»

- «بما أنك ذكرتِ السخافة، ليس أسخف من أن أشارك في سباق أعرف نتيجته مسبقاً، والفائز بالمركز الأول للمرة المليون هو: أنور بن جلال!»

قالها باستهزاء مقلداً صوت الشيخ عامر الذي يشرف عادة على السباق، قلت معترضة:

- «أنت تعرف أن هذا افتراء، أنور يفوز كل عام بمجهوده، ولو أنك بذلت جهداً حقيقياً وأخذت السباق على محمل الجد كنت لتنافسه بسهولة.»
- «أوه أوه! انظروا من يدافع عن أنور!»
- «أنا لا أدافع عن أنور، بل أدافع عن نزاهة المسابقة، من يفوز يفوز لأنه يستحق ذلك، ولو كان الأمر كما تقول، لما تحصل وادع على أي مركز بلون عينيه هذين!»
- «لنفرض أن كلامك صحيح، ما الذي يحفزني للمشاركة؟ أنا لا أرى الأمر يستحق.»
- «التدريب، الاستمتاع، إشغال نفسك بما ينفع، وأن ترفع رأس أختك الفخورة، وتدخل السرور على قلب أهلك المتعب!»
- صمت وابتسم بهدوء، كنت أعرف أنني نجحت في إقناعه بالاشتراك، لكن إجباره على المنافسة بجد ليس بيدي.

كان أبي يتقدمنا برفقة العم جواد، خلفه سرنا أنا وتبر، وكان وادع وساري قد سبقنا في الذهاب ليشاركا في استعدادات المسابقة، أما عن أمي وخالتي حسناء وودود فقد كان مشيهن بطيئاً بسبب الأحاديث الكثيرة التي تتطلب الوقوف لمجادلتها كل قليل. مالت تبر على أذني وهمست بارتباك:

- «ما خطب عمي مدرار؟ يبدو واجماً منذ انطلقنا.»

تنهدت وأخبرتني أنني لاحظت بدوري، وأنني سأسأله، لكنني كنت أعرف السبب في الحقيقة؛ فأحوال دار المنارة ليست على ما يرام في الآونة الأخيرة، لم يعد بوسع أبي تدريس الصغار بحرية كما كان يفعل، فقد كانت

سحنة الأهالي الغاضبين تتبدى أمام عينيه كل وقت، وهم يطالبون بمنع أصحاب الأعين الزرقاء - (المسوخ) على حد قولهم - من الالتحاق بالدروس، وفي كل درس كان أبي يضيف فيه للأطفال معلومة جديدة، كان يلقي اعتراضاً وحيرة من الأعين الصغيرة البريئة، تتمثل في عبارة واحدة:

- «والدائي أخبراني بعكس ذلك!»

ليس أصعب على المعلم من إخبار الطفل بأن أبويه مخطئان، لكن العلم أمانة، وأبي كان مصرّاً على حفظها، وهو ما كان يزيد اللهب في قلوب الآباء الحانقين اشتعالاً. وفي كل يوم يمر، ومع كل ضحية تسقط وقت المعارك، كانت الأصوات الغاضبة تتزايد، بل إن كثيراً من معلمي ومعلمات دار المنارة كانوا من ضمن تلك الأصوات! والتجأ البقية إلى اتخاذ موقف الحياد؛ فلم يكن يقاوم الغاضبين، وبذكّرهم بالصواب، ولا يخشى رفع صوته في دار المنارة إلا رجل وامرأة، الشيخ مدرار، والمعلمة رؤية. وبدلاً من أن يأنس أبي ويسعد بما يقدمه للصغار من علم، أصبح يعود كل يوم مهموماً كسيف البال، ويجرّ قدميه جرّاً كل صباح كأنه مجبر على الذهاب.

سيبدأ المسار الأول بعد دقائق، مسار اليوم هو ركوب الخيل، سينطلق المشتركون معاً من ساحة القرية، سيكون عليهم الالتفاف حول القرية ليعودوا من خلف البحيرة، من ثمّ تعترضهم في الطريق حواجز من نوع صعب؛ فقد بُنيت حظيرة مبتكرة خصيصاً لأجل السباق، حيث قسّمت المساحة بداخلها على هيئة مستطيلات، مستطيل فارغ، ومستطيل يشغله كلب عملاق مسعور يتطاير الزبد من شذقيه، والمطلوب من الفرسان هنا أن يتنقلوا بين كل مستطيل فارغ وأخيه، محاذين من التورط في مستطيلات الكلاب، وهذا ما لا يمكن لغير فارس محنك وحصان أصيل بينهما تناغم جمّ أن يفعله، وبمجرد تجاوزهم لتلك الحظيرة ينتهي السباق. تأملت تبر

الخطيرة والدرب القادم من البحيرة بنوع من الحسرة، ثم تنهدت وقالت بضيق:

- «كم أتوق لخوض مغامرة كهذه، الفتیان محظوظون، لم لا ينظم سباق خاص بنا مثلهم؟»

طمأنتها -بلا دليل حقيقي- على أنها ستخوض مغامرة أروع منها في القادم، ومن جديد كتبت عنها المعلومات التي أعرفها؛ فقد كان الحاكم وأبي وبعض من كبار القرية يخططون لمشروع مماثل قبل ما يزيد عن السنة، لكن ظروف الحرب وما أسفرت عنه من أزمات اقتصادية وأمنية قتلت تلك الفكرة قبل أن تولد، ولولا ما تبثه هذه المسابقة من حماس ضروري وما تزيله من ضيق في أنفس المتسابقين والمشاهدين على حد سواء، لكانت قد أوقفت منذ مدة.

كان الشيخ عامر يقف عند خط البداية، وعلى طول الطريق وزع مراقبون مسؤولون عن إسعاف من يصاب بحادث عرضي وعن منع محاولات الغش التي تصدر كل سنة من قاسط، ذلك الشاب الفطيع الذي لا يعرف كيف يثبت على حصانه لخمس دقائق حتى، ولا يبدو من مظهره أنه لمس ماءً في حياته فضلاً عن أن يجيد السباحة. أعلن الشيخ عامر بدء السباق فتناقله المراقبون وتعالّت من بعدهم أصوات الحوافر وهي تضرب الأرض بعزم، كانت تبر تتابع بحماس، وأمي وخالتي يـ.. لا بد أنكم خنتم، يتحدثن! لمحت شيئاً يتحرك بطرف عيني أسفل مقاعد المشاهدة، دقت النظر فرأيتها، إنها تلك الحشرة الصغيرة الشفافة التي رأيته من قبل في شرفة منزلنا وفي عدة أماكن من القرية! نزلت بهدوء عن مقعدي واقتربت منها، فقط لأكتشف وجود ما يقارب العشرة منها على مد البصر، بلا تفكير هرعت أفتقد المصدر الذي تأتي منه، إنها تأتي من قلب الغابة، نسميها (غابة) تجاوزاً، لكنها لا

تعدو عن كونها نطاق أشجار متوسط المساحة يحيط بالبحيرة، اقتحمت الأشجار وعيناى لا تفارقان الأرض، إن أعداد هذه الأشياء مهول فعلاً، إنها آفة حقيقية لا أظن أن أحداً تنبه لخطرهما، متى ظهرت هذه وكيف؟ قطع تركيزى صوت الحوافر والصرخات الحماسية القادمة من خلف البحيرة، المتسابقون يقتربون، كدت أعود أدراجى حين تنبته لسرب آخر من تلك الحشرات الشريرة تسير فى اتجاه آخر، بقيت أتبعتها كالمفتونة دون أن أعرف إلى أين ستقودنى، انسل السرب من تحت سور خشبى يشبه أسوار الحظائر، انحنيت وتبعته دون تردد، لتتعالى أصوات فزعة كثيرة تهتف باسمى، رفعت رأسى ونظرت لما حولى بذهول، فاصطدمت عيناى بعينين غير بشريتين، عيناى يتطاير الشرر منهما ولو كنت أوسع خيالاً لقلت إنها عين الشيطان نفسه، إليكم الحقيقة المروعة: لقد التفتت من الجهة الأخرى دون أن أدري، لأعود إلى موضع قبل الذى انطلقت منه ببضع أقدام، وهأ أنا الآن أقف مع كلب مسعور فى مستطيل لا يتجاوز طوله القامة والنصف! كان يستعد الآن لينقض على فريسته البلهاء التى أتته بقدميها، وفى حين كانت الأصوات المدعورة تتعالى من حولى وتحثنى على الخروج، كان جسدى قد تجمّد تماماً، وبقيت أنظر إلى الكلب كالمشلولة، فقط تحركت عيناى لتقيسا المسافة بينى وبين السور، وتمكن عقلى -للعجب- من القيام بحسبة بسيطة، وهى أن الكلب سيصل لى فى وقت أسرع بمراحل من الذى سأستغرقه للوصول إلى السور، إذا تجاهلت حساب وقت القفز أو الانسحاب من تحت السور.

انقض الكلب فى غصون ثوانٍ وتعالى الصرخات المفجوعة، وفى عينيّ توقف الزمن، حتى الرياح كفت عن هز أغصان الأشجار، لم يستغرق كل ذلك أكثر من ثوانٍ، لكننى شعرت أنه كان عامّاً كاملاً، شعرت بأنفاس الكلب الحارقة ولعابه القذر يتطاير على وجهى، وفى اللحظة التالية رأيته يسقط جثة هامدة، ومن حلقه يصدر صوت مستغيث بشع، وما تبينته بعد

ثوانٍ من الصدمة كان السهم ذا الريش الأسود، الذي انغرس في صدره مباشرة.

تهاوت قدماي على الفور، وأخذت ألث غير مصدقة لما حدث، في حين كانت مقاعد المشاهدين تفرغ بسرعة والكل يتجه نحوي، شعرت بحصان يطير فوق رأسي ليهبط خارج الحظيرة، ترجل ساري عنه وهو ينظر إلي بفزع فج، وفي نفس اللحظة هبط حصان آخر في نفس المستطيل الذي أجلس فيه، رفعت عينيّ أنظر إليه لتقابلني عيناه الفزعتان، وعلى الفور استطعت تمييز الأسهم التي تستقر في الجعبة المعلقة على ظهره، الأسهم ذات الريش الأسود.

- «حمداً لله على سلامتك.»

قالها أنور وهو يشيح بنظره عني بمجرد تأكده من أنني بخير، وصلت تبر أخيراً وضممتني بفزع وهي تسألني ألف سؤال في ثانية، وفي الثانية التالية انهالت علي بسيل من التقرير واللوم لكوني متهورة لا تحسب عواقب ما تفعله، تراجع أنور بهدوء مع وصول أبي وأمي والكثير من الرجال والنساء، الكل يسأل ويستفسر، بحنق أو قلق، وسمعت شهوة تعرب عن مدى حماسها -الذي انطفأ- لرؤيتي أتمزق بين أنياب الكلب، ضمني أبي بلوعة ومن بعده أمي، اخترق الجموع صوت الشيخ عامر يقول فجأة وبحماس بالغ كأن شيئاً لم يحدث:

- «الفائز في المسار الأول من مسارات المسابقة، هو: ساري بن حيّان!»

تبادل الموجودون النظرات المذهولة، ولم يكن ساري بأقل دهشة، أشار الشيخ عامر إلى المكان الذي يقف فيه حصان ساري، وقال:

- «لقد كان أول الواصلين إلى خط النهاية، وأبدى مهارة منقطعة النظير

في تجاوز الحظيرة!»

استعاد ساري نظره الهازئة وهو يقول:

- «الجميع رأى أن أنور كان الأسرع، لكنه توقف ليقتل الكلب!»

اقترب منه أنور ولكم كتفه مداعباً وهو يقول:

- «بل إن الجميع رآك وأنت تسابق الرياح لتتجد أختك، ولو حاولت مجاراتك وأنت تعدو بتلك الجدية لما اقتربت منك حتى، لقد تركتني كل هذه المدة بلا منافس فقط لأنك لا تريد بذل جهدك!»

كان أمراً مفاجئاً لي أن يحدث أنور ساري بكل هذه المحبة والتبسط، ابتسم ساري بهدوء وهو يقول:

- «كنت أظن فيما سبق أن الأمر كله سخي، الآن تأكدت.»

تحسس أنور خطم حصان ساري بإعجاب، التفت إليه وسأل:

- «ما هذا الجواد الرائع؟ من أين أتيت به؟ إنه يطير طيراناً! بارك الله لك فيه.»

نظر ساري إلى أبي بامتنان وهو يجيب:

- «لم تخطئ، اسمه الطائر، أهدانيه الشيخ مدرار قبل عامين.»

ابتسم أبي بمودة. سمعت صوتاً -لعله صوت مسرة- يقول بحيرة أن وادع لم يصل بعد، عندها فقط ظهر وادع، بعد وصول كل المتسابقين، حتى قاسط، كان وجهه مرهقاً كأنه عائد من حرب، ومبلل من رأسه لقدميه، وقد لاحظت لتوي أنه لم يكن يمتطي حصانه (البرق)، بل حصاناً آخر هزياً. نظر إلى الجمع بذهول وهو يقول:

- «ماذا حدث؟»

انطلق صوت قاسط الأجش يقول بسخرية:

- «انظروا من جاء! لقد نسينا أنك في القرية يا صاح! بالتأكيد، هل كنا ننتظر من المسخ أن يفعل شيئاً شجاعاً؟»

بدا على وادع الارتباك في حين سدد أنور لقاسط نظرة نارية، اقترب أنور من حصان وادع وتأمله وهو يقول باستغراب:

- «أين حصانك؟»

أخذ وادع نفساً عميقاً وترجل عن حصانه وهو يجيب:

- «هناك من دس له الكثير من النخالة في طعامه، وجدته صباح اليوم يكاد يموت من الإسهال؛ فأعطاني وسم حصانه، لكنه ضعيف وغير مدرب، وعنيد فوق ذلك، لقد كان تعدياً! كما أن هناك من ألقى نباتات شائكة في طريقي بعد تجاوزي للبحيرة بمعجزة.»

- «خلط طعام الحصان بالنخالة ليلة السباق! نذالة لا مثيل لها! ثم نباتات شائكة في طريق الحصان؟ هي لم تكن موجودة حين عبرنا، لقد وُضعت خصيصاً لك!»

قالها أنور بشرود، ثم نفض رأسه وربت على كتف وادع وهو يقول ضاحكاً:

- «لا زال أمامنا الكثير من التنافس، لكن علينا أن نحترس من ساري ذي المواهب الدفينة في القادم!»

بحث الشيخ عامر عن شهاب ليرسله إلى دار الحاكم بنتيجة السباق، كان الحاكم قد لزم داره منذ بضعة أيام، استمرت صحته في التدهور منذ رحيل

ليلة، وكانت الأخيرة لا تتأخر عن زيارته كلما سنحت لها الفرصة، وكان ذلك يحسن من حالته بشكل ملحوظ. ظهر شهاب من مكان ما وبدا مبللاً بشكل غامض، ابتسم ابتسامة بريئة اشتهر عنه أداؤها في كل مرة يقوم فيها بمصيبة ويريد إخفاءها.

بدأ الجمع ينفض، السباق التالي سيكون بعد أسبوع من الآن، امتطى أنور حصانه وتبع شهاب إلى دار الحاكم، امتطى ساري حصانه الطائر بدوره، مر من جواري فلمس رأسي بيده وقال دون أن ينظر إلي:

- «أنصحك باختيار الأماكن التي تزورينها في المرة القادمة.»

- «لم تقل حمداً لله على سلامتك حتى!»

قلتها بانزعاج بينما هو يتعد، رفع صوته وقال باستمتاع:

- «على الأقل قالها لك أحدهم.»

- «يا لك من...!»

انفجرت تبر ضاحكة واستندت على كتفي وهي تقول:

- «إنه مضحك! دائماً تضحكني طريقته في النظر للأمر، منذ كنا

صغاراً، برغم أنه كاد يُنبِت جناحين لحصانه من شدة الخوف!»

الطريقة التي تضحكها -وتعجبها خلسة- هي نفسها التي تكاد تجعلني

أغلي من الغيظ، تلميحات ساري مستفزة منذ الأمس! مر قاسط من جوارنا وقال متعمداً إيصال صوته لأسماعنا:

- «ابن سكير يفوز، ومسح جبان يزعم أنه مستهدف، هذه القرية

بحاجة إلى إعادة تأهيل!»

كادت تبر تنقض عليه لولا أن أمسكت ذراعها بكل قوتي، لا يمكنني

تصوّر ما سيحدث حين تنشب معركة بين فتاة وشاب في وسط القرية، المصيبة الأكبر في أن أحدهما بعينين زرقاوين، لا حاجة إلى التفكير في هوية من سيلبس الخطأ كاملاً!

- «إذن، كيف انتهى الأمر بك هناك؟»

قالها أبي أخيراً بعدما عدت إلى المنزل، استجمعت أفكارى وبادلت سؤاله بسؤال:

- «حشرة صغيرة للغاية، ليس لها لون، وتبدو مقززة وشريرة.»

ضيق عينيه باهتمام وهو يسأل:

- «ماذا عنها؟»

- «رأيتها في الغابة بين أشجار الدردار والصفصاف، هناك قرب البحيرة، بل وجدت أسراباً منها، أعداد مهولة لن تصدق وجودها ما لم ترها!»

رفع حاجبيه باستغراب وبدا عليه القليل من الشرود، ثم عاد يحثني على المتابعة؛ فحكيت له المغامرة القصيرة والغريبة التي خضتها حتى وصلت إلى مستطيل الكلب.

- «إنها حشرات المن الجذرية، حشرة تتشبث بجذور النباتات وتمتص الحياة منها، كارثة بكل المقاييس، هل رأيت غيرها قبل اليوم؟»

- «أجل، رأيتها عدة مرات على مدار العامين الفائتين، لكن ليس بهذه الكثرة!»

- «من جذري في قريتنا؟ ونحن الذين حسبنا أننا قهرناه منذ زمن! ربما

كان ذلك في الماضي، حين تمسكنا بطرق الزراعة القويمية، أما بحالتنا هذه، فإن المن سيبدأ بفرض هيمنته بيسر، ما لم يكن قد بدأه بالفعل!»

بدالي وكأنه لا يتحدث عن المن، بل عن كيان عاقل يستطيع فرض هيمنته وسلطانه! سألت باهتمام:

- «لكنها لن تظهر من العدم فجأة، صحيح؟ ليس بهذا العدد على الأقل، ألا تظن أن هناك من.. من بعثه لنا مثلاً؟»

- «لا تظهر آفة من العدم يا غيم، وإنما تبدأ على هيئة مشاكل صغيرة وفردية، مجرد حشرة صغيرة تدوسينها بحذائك، ولا تنتبهين إلى وجود عشرات منها على وشك صنع كارثة. ومن دأب الإنسان ألا ينظر أبعد من موضع قدميه، وأن يستمر بتجاهل ما عليه الالتفات إليه ما دام ذلك بالوسع، وتقدير راحته الحالية على راحته الدائمة، وتفضيل الهدوء المؤقت المضمون على المشكلة القادمة المحتملة، ولسان حاله يردد: ومن يدري؟ لربما تنتهي الأزمة ببساطة ولا يكون لتحركي فائدة من الأساس!»

- «لكن يا أبي، أنا أشك وبقوة، ألم تر كيف كان الصغير مبللاً حين ظهر اليوم؟ ما الذي جعله يقترب من منطقة البحيرة أصلاً؟»

ابتسم أبي وقال باسترخاء وثقة كأنه رأى ما يتحدث عنه:

- «كان يضع النباتات الشائكة في طريق وادع.»

- «م... ماذا؟ ولم قد يفعل ذلك؟»

- «ليعطل المسخ الذي لا يستحق الفوز، ويعين أخاه ذي العينين الصفراوين.»

- «من تقصد؟ أنور؟ لكنه كان متقدماً على أي حال!»

- «أنا لم آتِ على ذكر أنور، لقد عنيت قاسط.»
- «هل تظن أن قاسط أرسله لفعل ذلك، مقنعاً إياه برابطة لون العينين؟»
- «لا أظن، بل إني واثق، وشهاب مجرد طفل مهما بلغ ذكاؤه، إنه يسمع في كل وقت أحاديث الكبار والصغار ممن يثق بهم حول أصحاب الأعين الزرقاء (المسوخ)، فكيف له ألا يتأثر؟»
- «ولم لا يكون هو من وضع الحشرات أيضاً؟ لربما أرسله أحد آخر لفعل ذلك، أو أرسله قاسط نفسه، ليدمر سلطة غارسي الفسائل التي يملكها هو وأسرته حد الجنون!»

اتسعت ابتسامته الواثقة وهو يقول:

- «حتى لو آتت هذه الحشرات بفعل فاعل، فهو لن يكون شهاب، أنا أكيد من ذلك.»

مططت شفتي بغير اقتناع، لكن أبي لا يقول إلا ما هو واثق من صحته؛ لذا أثرت قبول كلامه. مسد عينيه بإرهاق وقال:

- «حمداً لله على سلامتك على كل حال يا غيم، في المرة القادمة يستحسن ألا تدعي أي شيء يجر فك خلفه دون وعي منك، حتى لو كان فضولك قاتلاً لمعرفة أو كانت نيتك هي المساعدة فقط، الوعي يأتي أولاً وكل شيء آخر ينبني فوقه، اتفقنا؟»

لم يغيّر نهجه معي منذ كنت صغيرة، ابتسمت في نوع من الاعتذار ووعدته بأن أكون أكثر تركيزاً في الآتي، نهض متجهاً إلى حجرته وهو يقول:

- «في الغد يأذن الله أزور الحاكم، وأناقصه في أمر تلك الحشرة.»
- دخل حجرته لينام، ونهضت بعده لأدخل حجرتي، غير أنني لا أنوي النوم؛

فبحوزي الكثير من الأفكار المتلاطمة كالموج، ومن حق عقلي-المسكين- علي أن أفرغ كل ذلك على صفحات دفثري الجلدري.

الأمر الأول الذي كان يشغلني هو حالة خالتي ودود، الصحية من جهة، وعلاقتها وساري من جهة ثانية، لقد غادر هذا الشاب بعد انتهاء السباق مباشرة، دون أن يلقي نظرة واحدة على أمه، أو يعرف مشاعرها إثر فوزه. وقد تبرعت بمرافقة خالتي إلى منزلها كي لا أدعها تسير بمفردها، وما إن خطوات إلى داخل ذلك المنزل الكئيب الذي أتحاشى زيارته ما وسعني ذلك، حتى داهمني الشعور المقبض والحزين الذي يتربص بي كل مرة آتي فيها، كأنني دلفت إلى مقبرة للتو! كانت آثار حيّان الراحل منتشرة في كل مكان، بشكل يجعلك تنسى أنه مات فعلاً، ومنذ ما يزيد عن عشرين سنة. كأس زجاجية لا تزال ملوثة بالشراب الجاف، وعباءات ملونة فاخرة معلقة أو ملقاة على الأرائك بإهمال من ظن أنه سيعود قريباً لالتقاطها، وقد كانت خالتي تهيب بالخدامتين-اللتين تأتي بهما أسبوعياً للتنظيف- أن تحذرا من تحريك شيء من مكانه.

ساعدت خالتي على الاستلقاء على فراشها، وأردت النزول إلى المطبخ لأعد لها شيئاً تأكله، كان ذلك ليكون من ضمن ابتلاءات حياتها، لولا أن أوقفتني وأخبرتني بأنها ليست جائعة، وأن شطائر الخبز والزبد والمربى التي حضرتها أمني لنأكلها أثناء السباق -كانه نزهة- قد أشبعتهما بما يكفي، طبعاً كنت على ثقة بأنها لم تأكل إلا نصف شطيرة على الأكثر، لكن لم يكن بوسعي إنشاء خالتي عن أي قرار تتخذه مهما بلغ صغره. أمسكت يدي بين يديها الشاحبتين الباردتين، وأخبرتني أنها تريد التحدث عن موضوع مهم معي.

- «اعتبريني أدناً عملاقة تجلس جوارك يا خالتي.»

كانت تبتسم باقتضاب للأسلوب الذي اختاره في المداعبة، وقالت:

- «أنت فتاة عاقلة وواعية يا غيم، ولا يطمئنني على ساري أكثر من وجودك جواره؛ فمن بين كل ما يواجهه، لا شيء يجعله يبتسم غيرك.»

قطبت حاجبيي بعدم فهم وكدت أستفسر، ما الذي يواجه ساري؟ لكنها أشارت إلي بأن أنصت وتابعت:

- «إنك الشخص الوحيد الذي يتحدث عنه باهتمام، ويأخذ رأيك عنه وما تقولينه له في عين الاعتبار، حتى أنا -أمه- يضرب بكلامي عرض الحائط ولا يأبه بما أريده على الإطلاق.»

مجدداً كدت أعلق وأخبرها أنه سوء فهم بالتأكيد، لكنها استرسلت.

- «لا يملك قلب القدرة على قراءة قلب آخر كما يفعل قلب الأم مع قلب ابنها؛ لذلك خذي ما أقوله لك عن ساري كحقيقة مسلم بها، إنه ذكي، وماهر، ولماح، لكنه محبط، وقلبه ميّت لو لم يخني التعبير، أريد أن أقول...» وسعلت مرتين. «أنه لم يعد يهتم بشيء، مثله مثل الأموات، بلا هدف ولا رغبة ولا خوف حتى، ولو مت اليوم أو غداً فإن ذلك لن يهز فيه شعرة!»

- «لا تقولي هذا بالله عليك، أطال الله في عمرك يا خالتي!»

- «أنت طيبة القلب يا حبيبتي، لكنني لا ألوم ساري على شيء لعلمك، إنه يشبه الشمس التي تدور حياتي كلها حولها، ولا أظنني كنت لأقاوم المرض كل هذه الأعوام لو لم يكن لأجله، لكنني لا زلت متفهمة لموقفه، إنه يسمع طوال تلك الأعوام ما يكره عن والديه اللذين يفترض أن يكونا الحب الأول في حياة المرء، يسمع أن والده سكير، وأنه مات وتركه ليلة ولادته بالتحديد، بل إن الأمر وصل إلى قول أنه أحرق مزرعته وهو في وسطها عامداً ليتهرب من مسؤولياته! كانوا يسخرون منه صغيراً، واليوم يبنذونه كبيراً، وينتظرون

منه أن يسكر في أي لحظة ليقولوا وهم يمصصون شفاههم في خيبة: من شابه أباه فما ظلم! يقولون إن السكر الذي دمر حياة حيّان من قبل قد سرى في دماء ساري، وأنه ينتظر اللحظة المناسبة ليعرب عن وجوده، بهيئة اختلال في العقل ربما، أو تصرفات متوحشة، وقد عزز ظنهم هدوء ساري الغامض وعدم احتكاكه بالآخرين. ساري يتعذب منذ أبصرت عيناه الدنيا يا غيم، وبعد كل ما بذلته له، وبعد كل ما فعلته لأجله، وبعد كل محاولاتى لتربيته بطريقة قويمه وجعله إنساناً سوياً، بعد كل ذلك أصبح ساري يكرهني.. يكرهني يا غيم!

توقفت عن الكلام وأجهشت بالبكاء، فيما أخذت أنظر إليها بصدمة، لم أتوقع سماع هذا النوع من الكلام، تذكرت إهانات قاسط صباحاً، وما فعله أنور به منذ زمن، لكني لم أعرف أن هذا كان ديدن حياة ساري، ولم تكن مجرد مواقف عارضة كما رأيته أنا! لكن.. لم قد يكره ساري أمه؟ الوحيدة التي يعرف أنها تقف في صفه في هذا العالم، وأن نظرة الحب في عينيها له لن تتبدل مهما حدث!

- «لقد كره أباه، لأمه على كل ما تعرض له، منذ تعلم تشكيل الجمل وهو يرفض مرافقتي لزيارة قبره، صبرت على ذلك، وقلت لنفسى: إنه مجرد طفل، لا يعي إلا ما يعايره به أقرانه في القرية، وغداً يكبر ويفهم أن ارتكاب المرء لخطأ لا يجعله سيئاً بالكل، وأن الجميع معرضون للخطأ! لكنه كبر ولم يفهم، بل ازداد غضبه أكثر وأكثر، ألمحه في عينيه الناعستين، كدوائر صغيرة ترسم على صفحة الماء سريعاً ثم تزول، أميزه في كل مرة يحاول فيها التظاهر بعدم المبالاة، وكم كان يجيد لعب هذا الدور وإقناع الجميع به، عداي! ساري يهتم، ويبالى، بكل شيء وأتفه شيء، لكنه لا يجد لاهتمامه مخرجاً، فيتجاهله!»

أدركت هنا أنني الحمقاء الوحيدة التي فسرت تصرفات ساري على

ظاهرها، أبي كان يفهمه، وتبر -البعيدة عنه- وعت ذلك ببساطة، وحتى خالتي التي ظننتها لا تفهم بروده بالشكل الصحيح، حسناً، ترون أنني من لا يفهم أي شيء في الواقع.

- «ثم تحوّل حنقه إلي، امرأة علية وكان عليها أن تموت منذ زمن، لماذا جازفت بالزواج؟ لماذا اختارت هذا الرجل من بين ألف رجل ممكن؟ لماذا وافقت على أن تبقيني مكللاً بالعار ما حييت؟ لماذا لم تفكر بغير نفسها؟ لماذا لم تفكر بي؟»

مدت يدها تحاول تناول إبريق الماء من جوار الفراش، كان بعيداً عليها فأسرعت بحمله وصب كأس لها وتقديمه بيد ترتجف، وإعطائها اللفافة الصغيرة التي تحوي جرعة العلاج لهذا اليوم، بينما الدموع تتشبث على أهدابي بمعجزة.

- «لكنني لم أفكر في غيره يا غيم، والله على ما أقول شهيد، لقد كان حاضري وماضي وما أروم إليه، لقد كان الحمل مشكلة كبرى لمن هي مثلي، لكنني لم أقبل بإنزاله، لم أقبل فكرة أن أقتل ابني بيدي، وبذلك الصحة العرجاء، والتساؤل الذي يراودني بعد كل نفس أخذه إن كان سيكون الأخير، بقيت أدعو أن أحيى قليلاً بعد، حتى يمشي ساري، حتى يتعلم القراءة، حتى يثبت على صهوة الجواد، حتى وحتى وحتى.. كنت لا أريد أن أتركه وحده لحظة، لم أرد أن أجعله يتلفّ حوله باحثاً عن سند في يوم من الأيام دون أن يجد من يضع يده على كتفه، ويخبره أنه جواره، لم أتحمّل تحيّل مظهره وهو ينتظر من شخص أن يحتفل معه بإنجازه ثم ينتهي به الأمر بالاحتفال وحده. وكم أكرمني الله ومن علي يا غيم، وكم استجاب لدعواتي ورزقني فوق ما دعوت حتى استحيت من عظيم كرمه، الآن أنا.. لعلي اطمأنت عليه الآن يا غيم، فقط أدعو الله أن يرق قلبه علي، ويرزقني بـ

ومحبته، حتى أموت وأنا أعرف أنني تركت ولدًا يدعو لي ويتذكرني!»
كانت دموعها قد جفت، وحلت مكانها ابتسامة كسيرة مؤلمة، فيما بدأت
دموعي أنا بالانحدار، وعبثًا كنت أحاول إيقافها أو تأجيلها إلى ما بعد
خروحي من هنا.

- «أنت بخير يا خالتي، أنت بأفضل حال، شفاك الله وعافاك، غداً
تعودين قويةً شديدة كما كنت دائماً، وتعرفين أنك أخطأت في تقدير هذا
المرض، وعندما يأتي الغد؛ سنرى!»

قلتها بثقة كبيرة مقلدة أسلوب أبي، تجاهلت أنها لم تكن يوماً بصحة
جيدة، كما لم أعرف أن السر ليس في الأسلوب، وأن الثقة في النفس لا تكفي
لتغيير المكتوب!

- «أما عن ساري، فلعل سوء فهم بسيط حل بينكما، والشيطان حريص
على إدخال النزاع والفرقة بين كل قلبين متآلفين، لا ينبغي لك ولا لساري
أن تسمحا له بذلك، أرجوك أن تطردي عنك ما يعكر مزاجك من ظنون،
وأن تستعين بالله من الشيطان وكيده، وأعدك بأن أسمع ساري وأفهم منه،
وأتيك بالنبا الأكيد، وأنقل لك مقدار ما يكتنه لك من محبة وود!»

لا زالت على ابتسامتها الكسيرة، بدا أنها لم تسمع كلامي على الإطلاق،
أو أنني لم أكن مقنعة بما فيه الكفاية، أرخت رأسها على الوسادة وهي تناولني
كأس الماء الفارغ، أغمضت عينيها وقالت:

- «وفي حال لم أرَ ما أتمناه من محبة في نظراته لي قبل أن يأتي يومي، فعليك
أن تخبريه بأنني راضية عنه في كل حال، وأنني أحبه بغض النظر عما إن كان
يبادلني نفس الشعور، وأنه لو أتى يوماً يبكي على قبري، أو يلتمس السماح؛
فإنني سأكون قد سامحته قبل ذلك بكثير، ولن يكون عليه أن يقلق بشأن

عقوقه لي أو ما شابه، أنا أعذره تمامًا، ولا ألومه على شيء!«

الآن كنت أكتّم شهقاتي بوضع يدي على فمي، وأنظر إلى جسدها الذي أعياه المرض، ممدّدًا على الفراش، هزيلًا سقيمًا، لله ما أقواها من امرأة، عايشة وفاة زوجها وأمها وأبيها، وهجران ابنها وجفاءه، والمرض الذي فتك بجسدها فتكًا، ولا تزال -بعد كل ذلك- ثابتة مقاومة شاكرة لله، بل ونقية النفس لا تحقد ولا تلوم ولا تقسو!

رفعت الغطاء ليدفئ جسدها البارد، وقبلت رأسها برفق وقد شعرت بها تغرق في عوالم النوم، غلقت الستائر واستأذنتها بصوت (يسمعه المستيقظ ولا يسمعه النائم) كما كان أبي يوصيني حين أتحدث إلى شخص يُظنّ نومه، ثم أغلقت باب البيت وأنا أستقبل النسيم المشاكس وأشعة الشمس المرحّة، كأنني انتقلت من عالم إلى آخر، كان الله في عونك يا خالتي ودود!

أقلب الصفحة بعينين مغرورقتين لم تتخلصا من آثار ما حدث صباحًا بعد، وأبدأ بكتابة تفاصيل لقائي بساري بعدها.

جلست جواره عند البحيرة، لا أعرف السر في كونه يجب هذا المكان إلى هذا الحد، بل ويقضي هنا وقتًا أكثر مما يقضيه في منزله نفسه، ربما هي تلك التموجات الخاطفة في عينيه التي ذكرتها خالتي؟ أتراها ترتاح للقيا شبيهتها المائية؟

- «مبارك.»

- «على...؟»

المشكلة أنه كان يسأل بتعابير جادة، هو لم يرَ فيما فعله شيئًا يستحق

الاحتفاء والتهنئة! تجاهلت تساؤله الكيدي وتابعت:

- «أملك أيضاً فرحت كثيراً، لم تتوقف عن الحديث عن ابنها البطل الذي حاز المركز الأول، لقد أسعدتها يا ساري.»

هز رأسه بمعنى أن هذه معلومة قيمة جداً، قلت بضيق:

- «إلى أين ذهبت بعد السباق؟»

- «إلى أين سأذهب مثلاً؟ إلى البيت.»

- «ربما، لو لم أذهب أنا إلى بيتكم بعد السباق، كنت سأراك بالتأكيد لو كنت هناك!»

تنهد بعمق وشعرت بأنه يراني الآن على هيئة ذبابة لحوح تطن في أذنه ولا تريد تركه وشأنه. في تلك اللحظة لمحت جراباً جلدياً أسود كان قد وضعه جواره.

- «ذهبت لأشم بعض الهواء، أهذا مسموح؟»

- «تشم الهواء بعدما التففت حول القرية كلها راکباً على حصان، وراكضاً بأقصى سرعة؟ جميع المتسابقين يرتاحون الآن، لقد أخذوا كفايتهم من (شم الهواء)!»

- «غيم، ماذا تريد مني؟»

- «هل لي أن أسأل عما خطر لك حين رحلت من مكان السباق وتركت أملك لتعود بمفردها؟»

- «لقد عدتِ معها، أليس كذلك؟»

- «وافترض أنني لم أفعل!»

أمسك جرابه ونهض منزعجاً، اتجه نحو حصانه الطائر الواقف قريباً يضرب الأرض بحوافره في تلملم، قال -ساري- ساخطاً:

- «لم لا تطرحين إلا الأسئلة السخيفة؟ ما الذي تريدان الوصول إليه؟ أمني بصحة جيدة، تسير وتتسوق وتفعل كل شيء بمفردها، لم تتوهمين أنها تحتاج إلى عكاز يسندها؟»

ساري ينكر، حقيقة مذهشة، ساري ينكر أن أمه مريضة، ساري يقنع نفسه بأن أمه على ما يرام! مؤشّر طيّب بكل المقاييس. قررت مجاراته.

- «أنت محق تماماً، خالتي بحال لا بأس بها، إنها في تحسن والله الحمد، ليست بحاجة إلى عكاز، لكنها تحتاج -قطعاً- إلى ابن بار، يلبي طلباتها ويتحدث معها ويستمع إليها، أمك كانت كل شيء لك حين لم تعرف سنداً غيرها، والآن يجب أن تفعل المثل، إنك كل شيء بالنسبة إليها الآن!»

أخذ يمسح خطم الحصان وهو يوليني ظهره، وقال:

- «يا للمبالغة، ألسنت موجودة؟ وخالتي رؤوم أيضاً؟»

- «الأمر يختلف، لا تتغاب، أنت ابنها الوحيد!»

- «هي لا تريد شيئاً مني.»

- «بل أنت من لا يريد تقديم شيء لها، بعدما بذلت هي كل ما أمامها وخلفها لأجلك!»

التفت إلي وصاح بعصبية، وقد كانت تلك من المرات القليلة التي يفقد فيها هدوءه:

- «ما الذي بذلته من أجلي؟ قولي! لم تفعل شيئاً يذكر، لم تقدم ما يستدعي امتناني، تنجب وهي مريضة، وتتزوج من سكير ينتحر هرباً من المسؤولية،

تركني لأصبح مثاراً للاستهزاء من أبناء القرية، وحتى الزواج الثاني عزفت عنه، تعرفين لم؟ كي لا تترك أطفالا بدون أم! ماذا عني؟ لم لم تفكر في أنها قد تتركني دون أم؟ لم تمنح شفقتها لأطفال مفترضين وتنسى ابنها الحقيقي؟»
اقتربت منه بإشفاق وقلت محاولة تهدئته:

- «ساري، هذا غير صحيح، ربما كان حيّان سكيراً، لكنه كان مزارعاً ممتازاً، وتاجراً فذاً، يقول أبي إنه كان فلتة بين أقرانه. أملك أحبته لأنه كان عطوفاً ومنحها حبه بلا قيد أو شرط، كان ليفعل المثل مع ابنه لو لم يحن أجله قبل أن تتاح الفرصة، لا يوجد دليل واحد على كونه انتحري، ولو انتحري فعلاً فهل يحرق كل أملاكه ليترك زوجته التي يحبها بلا معونة؟ تعقل وفكر بمنطقية، أملك لم تتزوج حتى تتفرغ لك، وهبت حياتها لك وحدك، قاومت المرض لتبقى جوارك، وتمنحك حياة سعيدة لا حرمان فيها، لم تنسى كل محاسن أبيك وتتمسك بالخطأ الوحيد الذي ارتكبه؟ ولم تتجاهل كل ما فعلته أملك وتنجرف خلف أفكار لا أساس لها؟ لم تترك أحداً آخر يحدد لك من تكون، ومن يكون والداك؟ لم تعطهم صلاحية التحكم في حياتك وذكرياتك؟»

دمعت عيناه، الجزء من الثانية، قبل أن يرمش بهما سريعاً ليعود له هدوؤه المعتاد، قال ببرود وهو يستدير مجدداً ليمتطي حصانه:

- «تحبين الشرثرة غير النافعة، ضيعت وقتك ووقتي.»

- «يا لك من...!»

قلتها بغیظ وأنا أجذب يده ليتوقف، لم أتنبه إلى أن يده كانت ترتجف، أفلت الجراب من يده ليسقط على الأرض وتتناثر محتوياته، نظر إلي بضيق وانحنى ليلملم ما سقط، في حين كنت أتأمل تلك النباتات غريبة الشكل

في حيرة، انحنيت أساعده في التقاطها فمغنني بإشارة حازمة من يده، أنهى جمعها ووقف ليثبت الجراب في سرج حصانه، فسألته بتردد:

- «ساري، ما.. هذا بالضبط؟»

- «عرق سوس، ولا مزيد من الأسئلة.»

- «عرق سوس؟ وما الطارئ الذي يدفعك للحصول على كمية منه في هذا الوقت تحديداً، بعد كل التعب الذي أصابك من السباق؟»

- «قلت: لا مزيد من الأسئلة!»

قالها ضاغظاً على أسنانه بضيق، لم يرحني تكتمه الزائد، لكن لم أرد مضايقته أكثر، امتطى حصانه وتحرك به بضع خطوات، قبل أن يتوقف ويقول:

- «ولعلمك، أنا لن أستمر في تلك المهزلة المسماة بالسباق الكبير، ابن السكّير لا يريد الفوز، ابن السكّير يريد أن يُترك وشأنه!»

وقبل أن أتمكن من نطق حرف كان قد انطلق يطير بحصانه الطائر، وتركني وحيدة وسط الصمت الذي يحاذيه خرير الماء وحفيف الشجر وزقزقة أنواع من الطيور، تحاذي الصمت ولا تمزقه. نظرت إلى أسفل فلم أجد الحشرات الشفافة، لقد غادرت مقرها لتبدأ بالقيام بمهمتها.

أنهيت الكتابة وأخذت أتمرر عيني على الأسطر سريعاً أتأكد من توازن كلماتي، ثم أغلقت الدفتر وارتميت على فراشي لأسمع تأوهات ظهري اللائمة، لقد كان يوماً شاقاً، وقلبي يقول أن الغد سيكون أصعب، ابتسمت وقلت لنفسي الجملة التي تصلح لأن تكون شعار حياتي:

- «عندما يأتي الغد؛ سنرى!» أضفت بعد لحظة تفكير: «وأيًا كان ما قدره الله لنقابله غدًا؛ فهو الخير!»

استقرت عيناى على الأصيل الذى يحمل أعشاب إكليل الجبل عند نافذة غرفتى، استنشقت رائحتها المنعشة وبقيت أتأملها حتى رحت فى النوم.

فى الصباح ذهب أبى ليقابل الحاكم، وما أقصه الآن هو خلاصة ما حكاه أبى وما عرفته لاحقًا بطريقة أو بأخرى.

كان تاجر السلاح هتر والد قاسط وشهوة متواجدًا فى دار الحاكم، وبدا أنه يحدثه فى أمر غاية فى الأهمية، لكنه ابتلع لسانه بمجرد دخول أبى، وبقي يسدد له نظرات مغتظة كأنه اقتحم عليها خلوتها، «أيًا كان ما يقوله هتر للحاكم فهو شر مطلق» - ضمن أبى، ولم يجانب تخمينه الصواب. سلم أبى وجلس بكل أريحية كأنه لم يلحظ تصرفات هتر، واستأذن الحاكم فى التحدث إليه على انفراد، نظر هتر إلى الحاكم بطريقة غريبة، كأنه يقول: «ألم أخبرك؟» رفض الحاكم الانفراد بأبى، وطلب منه التحدث فى وجود هتر؛ «فهو منا» كما قال. أخذ أبى نفسًا عميقًا وبدأ يحكي عن الحشرات الشريرة الغازية، وضيقه يتزايد مع كل حرف ينطقه؛ بسبب نظرات هتر الهازئة أو المكذبة.

بدا على الحاكم الاهتمام بالأمر، وكاد ينطق باستفسار ما، لكن هتر -الذى لم يكن يحترم أحدًا ولا يأبه بمقاطعة الأحاديث- هب قائلاً:

- «عيب عليك يا شيخ مدرار، يا من تعلم أنباءنا الصدق فى الدار، ما الذى تلمح إليه بزعمك هذا؟ أتريد قول أن قريتنا لم تعد ملتزمة بالزراعة الصحيحة؟ وأن المن بدأ يهاجمها؟ أنت تهين جميع الزراع يا شيخ!»

استعت عينا أبى بغضب من هذا الاتهام المباشر بالكذب، لكن الحاكم لم

يقبل بأن يهان الشيخ مدرار في داره؛ فقال بلهجة متعقلة:

- «الشيخ مدرار لن يدعي وجود شيء بلا أساس، لربما لو أرسلنا من يتحقق قرب البحيرة، ويؤكد لنا الخبر.»

- «وهل ستبقى حشرات المن منتظرة قدوم الباحثين؟ لا ريب أنها بدأت تمارس وظيفتها وتمتص ما تقدر عليه من حيوات الزروع!»

قال هتر بلهجة ضاحكة منتصرة:

- «آها! ها هو الشيخ يتراجع! ما لم يكن المن موجوداً حيث قلت؛ فكيف تتأكد من زعمك؟»

كان يتعمد استعمال كلمة (زعم) ليلوِّث الحديث بصبغة من الشك، قال الحاكم محاولاً تهدئة الأمور:

- «ربما اختلط عليك الأمر يا شيخ، أو وُصفت لك الحشرات بشكل خاطئ جعل ظنك ينصرف إلى اعتبارها مثلاً.»

(وُصفت)؟ فكّر أبي - كيف يعرف أن الحشرات وصفت له ولم يرها بنفسه؟ كتم خواطره وقال بهدوء:

- «لن يصعب علي تمييز حشرة المن بعد كل تلك السنوات يا حضرة الحاكم، حتى لو وُصفت لي ولم أرها!»

أطرق الحاكم وبدأ ميّالاً لتصديق أبي، لكن وجود الوسواس المتخذ هيئة هتر في المكان، والنزعة البشرية الأمارة باختيار الحلول المريحة التي تحدث عنها أبي، كانت عاملين قويين انضما إلى انشغال الحاكم بكثير من المنغصات وأمله في عدم ظهور منغص جديد؛ لذا قال منهياً الجدل:

- «هل يكون من المناسب أن نخبر أهل القرية بالأمر، ونطالبهم

بالحذر؟ أو -على الأقل- نطالبهم بإخبارنا في حال وجدوا شيئاً يدعو للقلق؟»

من جديد اندفع هتر يتحدث بصوت عال ودون احترام للجالسين:

- «بالطبع لا يا حضرة الحاكم؛ فهذا سيعم القلق، وسيحمل الناس همًّا إضافياً فوق هم الحرب، والخوف -كما تعلم- هو العدو الأول الذي ينخر الصفوف، ويساعد العدو على اختراقنا دون أدنى جهد، وهذا كله من أجل ماذا؟ شائعة لا يُدرى مدى صحتها؟»

- «أظن أن كلام التاجر هتر هو الأقرب للصواب، على الأقل حتى نتأكد من وجود خطر حقيقي.»

نهض أبي مغضباً، وقال بحزم:

- «القرار قرارك يا حضرة الحاكم، لكن أن يقلق الناس ويحتاطوا الآن، ولو تبين أن الشائعة كاذبة...» وتعمد قول كاذبة حتى يذكر أسوأ الاحتمالات، ويمنع هتر من مقاطعته. «خير من ترك الناس يعيشون في أمن زائف، ليستيقظوا يوماً وقد تدمرت مزارعهم ومصادر رزقهم!»

- «شكراً لحرصك يا شيخ مدرار.»

قالها الحاكم بلهجة من لا يريد سماع المزيد، فابتسم هتر بشماتة، كاد أبي يغادر المكان حين استوقفه الحاكم.

- «لحظة من فضلك يا شيخ مدرار، هناك ما أحب سماع رأيك فيه.»
أوماً أبي دلالة الإنصات وجلس. «لو كان هناك سبيل للمهادنة ذوي الأعين الزرقاء وإيقاف الحرب ولو مؤقتاً؛ فما قولك؟»

تفكر أبي لبعض الوقت ثم قال برصانة:

- «أي شيء أفضل من إراقة الدماء، خاصة بلا طائل، لكن المهم ألا

يكون في تلك الهدنة تنازلات تمس عقيدتنا أو كرامتنا.»

- «تنازل منا، وتنازل منهم، والسلامة أولاً، ما المانع؟»

قالها هتر متحدياً دون أن يُسأل عن رأيه؛ فقال أبي موجهاً كلامه للحاكم كأنه لم يسمعه:

- «إذ أن التنازل سيكلفنا ما هو أكثر من الدماء، وسيعدنا بمصير أشد حُلَكة من الموت الشريف بهامات مرفوعة، التنازل سيتزع منا كرامتنا ومعتقداتنا وعقولنا وأبناءنا وأنفسنا، ثم سيتتهي بموت مذل لا شرف فيه ولا سمو!»

تأمل الحاكم في كلام أبي وهز رأسه بنوع من التأييد، ثم تنهد وقال:

- «سيعثون لنا بسفير في وقت ما من اليوم حسب الرسالة التي أرسلوها لنا، وسيناقش معنا شروط الهدنة، أريد منك أن تكون متواجداً وقتها.»

- «بكل سرور.»

ثم نهض واستأذن والغضب لا زال يتزايد في داخله من الطريقة المهملة التي عومل بها تحذيره، كما شغلت باله كلمة (وُصفت) بأكثر مما توقع، هل هتر هو من نقل للحاكم ذلك؟ ما معنى نظراته حين تكلم هو؟ إن كان الأمر كذلك؛ فهل يعني أنه رأى غيم وهي تتجه إلى حظيرة الكلاب دون أن يحرك ساكناً، بل والأسوأ، أنه رأى الحشرات بالفعل ورأى غيم وهي تتبعها! والأهم هو: هل أخبر هتر الحاكم بكل ذلك؟ ما معنى هذا؟

قرر التوجه إلى المزرعة ليصفّي ذهنه هناك، وليطمئن على سلامة مزروعاته من المن.

في تلك الأثناء كانت الخالة حسناء ووادع قد أتيا لزيارتنا، وكانت لدى تبر دروس في دار المنارة فتأخرت عنهما قليلاً، وفي حين اندمجت أمي وخالتي حسناء بالأحاديث انتحيت بوادع جانباً، وحدثته بشكل مختصر ومشذب عن موضوع ساري، وطلبت منه إقناعه بالاستمرار في السباق؛ لأنه لن يستمع إلى كلمة أخرى مني على الأغلب. أطرق وادع مفكراً ثم قال أنه سيرى ما يمكنه عمله. أعدت لنا أمي كعكة عسل وقهوة، قضينا وقتاً طيباً، أمي وخالتي تتحدثان عن ألف موضوع في الدقيقة، ودارت أحاديثي مع وادع حول السباق وما يتعلق به.

- «لقد كان قاسط هو من وضع الأشواك في طريقي، أنا واثق يا غيم، لقد رأيت نظرة الحقد في عينيه في كل مرة أفوز فيها، وأخبرتني تبر عما قاله صباح الأمس.»

- «لا أستبعد ذلك منه، إنه لا يترفع عن الغش أو فعل أي نذالة مهما كانت دنيئة، وليته يطمح للفوز حتى، بل إن أقصى طموحاته هو ألا يشغل المركز الأخير!»

- «لكن، أوصول إلى إسطنبول مزرعتنا ليؤذي الحصان؟ أنتِ ترين كم هو سمين وثقيل حركة، كان بوسعنا الإمساك به في ثوانٍ!

- لربما استعان بأحد أخف حركة منه، كل شيء وارد.»

مط شفتيه بتقزز واستمرت بنا الأحاديث، كنت أحاول جعل الكلام عامّاً لا يدل على أنني أعرف شيئاً مما قاله أبي، ولم آت على ذكر الحشرات حتى يصل أبي وأعرف ما فعله مع الحاكم. كان المسار التالي هو مسار السباحة، وأخذ وادع يحدثني عن التدريبات التي يداوم عليها وكم أنه عازم على الفوز. ألقى الكلام سيرة تبر في طريقنا، فتنبها أخيراً إلى مدى تأخرها، كان

من المفترض أن تكون هنا منذ ساعة على الأقل. بدأ القلق ينتشر كالعدوى بيننا، وكل منا يتخيل مدى ما يمكن أن يصل إليه تطرف أولئك الكارهين للون العينين الأزرق، الحق أن سير تبر في شوارع القرية وحدها لم يعد آمناً مؤخراً، قررت أنا ووادع الذهاب للبحث عنها عند دار المنارة.

فتحت الباب وأنا أحث وادع على ارتداء حذائه، وحين نظرت إلى الباب واجهتني الكرتان الزرقاوان، الحق أن مظهرها أفرعني، كان وجهها مليئاً بالخدوش ولونها شاحباً، لكنها كانت تبسم، تنحيت دون كلمة وتركتها تدخل، لتصدم الجميع بمظهرها المفزع.

- «تبر، ماذا حصل؟ أهذه آثار أظافر على وجهك؟»

ارتمت على الأريكة ورفعت كأس الشاي بالحليب الذي كنت أشرب منه، نظرت فيه وأنزلته بضيق، ثم قالت بابتسامة فاترة:

- «كان عراكاً بالأيدي، لم أخض مثله منذ كنا نتشاجر مع أنور صغاراً، حتى المعلمة (وقار) كادت تفقد وقارها وهي تحول بيننا!»

ضحكت ضحكة عصبية أبدت حجم توترها، تبادلنا النظرات القلقة وجلست جوارها، وضعت يدي على ظهرها وسألتها برفق:

- «ماذا حدث بالضبط؟ لم تشاجرت؟»

- «لا أريد تخيب ظنك، لكنني لم أكن البادئة، كانت تلك الفتاة (زنبق)، لقد أصيب والدها في آخر هجوم شنه الأعداء، وحالته تزداد سوءاً من وقتها، والحمقاء تهاجمني أنا كأني من أنشب السهم في أبيها! ومعظم الفتيات وقفن في صفها، لقد شاجرت خمس فتيات بمفردي، غير الإهانات اللفظية التي رمتها الباقيات، وقليلات فقط بقين على الحياد، لا أحد دافع عني! ولو وصلت المعلمة متأخرة خمس دقائق فقط... لا أعرف ماذا كان

ليحدث!»

عم الصمت إثر عبارتها، لقد كان تخميننا في محله، تبر تعرضت للهجوم بسبب لون عينيها! أخذت أخفف عنها، وأخبرها أنني سأخبر أبي، وسيكون للحاكم تصرف آخر ..

- «لا تخدعي نفسك يا غيم، هل سيلوم الحاكم الفتاة التي أصيب والدها في الحرب؟ ما الذي سيفعله حتى لو مال إلى صفي، وهو ما لن يحدث على الأرجح؟ لقد أصبح الوضع هكذا، ذو العينين الزرقاوين أثقل على نفوس أهل القرية من الشياطين، ولو كان الخيار بيدهم لأبادونا واحدًا واحدًا دون أسف!»

ابتلعت رقيقي ولم أعلق، تبر محقة تمامًا، بالأمس يتأذى حصان وادع، واليوم تتأذى تبر نفسها، والله أعلم بما سيحدث في القادم!

عاد أبي ليلاً، كان من المقلق أن يظل خارج المنزل كل هذا الوقت، وحين رأيت وجهه المكفهر عرفت أن علي تأجيل الكلام عن قصة تبر لوقت آخر، خلع عباءته فالتقطتها منه أُمِّي وعلقتها، بقيت وأُمِّي واجتنبت النظر إليه ولا ندري إن كان علينا أن نسأل، مرت دقائق من الصمت الثقيل الصاخب، ثم قال أبي أخيرًا:

- «لقد كنت محقة يا غيم، المنّ يغزو قريتنا، وبشكل أكثر كثافة من المتوقع!»
مجددًا أدركت أنه لا يقصد المن، جلست جواره وسألت بحذر:

- «ما الذي أسفرت عنه زيارة الحاكم؟»

- «المن يهاجم بشكل خفي، والمصيبة أن يتم التعامل معه كما يتم التعامل

مع عدو ظاهر واضح، دعونا نرى المن ثم نفكر، عندما ترون المن لن يتبقى أمامكم وقت للتفكير!»

صمت قليلاً ثم قلت برفق:

- «إذن، لم يستمع إليك.»

أوماً برأسه في عصبية، فقررت سؤاله عما فعله في كل ذلك الوقت.

- «بعث أصحاب الأعين الزرقاء بسفير إلى القرية، يريدون التفاوض والوصول إلى حلول وسط!»

- «و...؟»

- «فلنودع أيام قرية المروج الهائثة؛ فالعدو الغازي يمكن مقاومته بالسلاح والعتاد، أما المهادن المنافق الذي ينخر من الداخل كالسوس، هو من لا يمكن إيقافه بعد توغله!»

كان يرتجف غضباً، أعدت له أمي كأساً من منقوع اليانسون بالعسل، ذلك المشروب هو ما يساعد أبي على الاسترخاء في كل مرة يتوتر فيها. استغرق الأمر وقتاً لا بأس به حتى يسترد أبي هدوءه وتتوقف زاوية فمه عن الارتجاف، أخيراً شرح بهدوء واختصار ما تم التوصل إليه بعد اللقاء بذلك السفير:

أولاً: السماح لذوي الأعين الزرقاء بعرض بضائعهم والمرور من قريتنا بشكل عادي؛ (لتعزيز العلاقات بين القريتين).

ثانياً: السماح للفئات الأخرى من غير غارسي الفسائل بممارسة معتقداتهم داخل القرية، أيًا كانت ألوان أعينهم، أي أن يتم السماح لحارقي المحاصيل بفعل ذلك في نفس الوقت والمكان اللذين نحاول نحن الزراعة فيها وتغطية

أراضينا بالنبات!

ثالثاً: تعيين معلمين متخصصين في تدريس معتقدات حارقي المحاصيل وغيرهم داخل دار المنارة نفسها، وتخصيص قاعات لطلاب تلك الفئات.

أصابني الذهول من تلك البنود، وصحت بفزع:

- «ووافق الحاكم؟!»

- «وافق على الأول، وطلب مهلة للتفكير في الآخرين، لكنه سيوافق في النهاية، أعرف ذلك.»

- «و.. ولم سيوافق؟ هذا مستحيل!»

- «لأن حوله أشخاصاً على شاكلة هتر، ذلك الشيطان الإنسي، إنه لا يرتاح حتى يتأكد من تحقيق أعلى قدر ممكن من الفساد!»

ابتلعت ريقى وشرد ذهني، ما الذي يمكن أن يحدث لو وافق الحاكم على شروط السفير؟ الإيجابية الوحيدة هي توقف الحرب، لكن السلبيات لا يمكن حصرها، ثم، لم يشترط السفير حرية الممارسة لمعتقدات حارقي المحاصيل برغم أن قومه لا ينوون دخول قريتنا إلا مروراً، ولم يرغب في تدريس عقيدتهم في دار المنارة؟ إنه يفعل ذلك لحارقي المحاصيل من أصحاب الأعين الصفراء لا الزرقاء! رباه، ما معنى ذلك؟

- «هل حاولت التحدث إلى الحاكم؟»

- «هذا ليس سؤالاً، بالطبع فعلت، لكن ماذا بوسع صوت واحد فعله في مواجهة عشرات الأصوات؟»

- «عشرات؟ أليست كلمتك مقابل كلمة ذلك الهتر فقط؟»

- «بالطبع لا، هتر رأس الحية لا أكثر، لكن جسد الحية طويل طويل،

وكبراء القرية الذين كانوا يطالبون بالأمس بفصل ذوي الأعين الزرقاء من الدار، هم أنفسهم الذين يشجعون اليوم قبول تلك الشروط المشطّة، ويدعمونها بكل إخلاص.

- «أنا.. أنا لا أفهم! كيف تغير رأيهم بين عشية وضحاها؟»

- «ومن قال أن رأيهم تغير؟ بل من قال أن لهم رأياً من الأساس؟ إنهم يمارسون التحزب ضد ذوي الأعين الزرقاء سرّاً وجهراً، ولا زالوا مصرين على مطلبهم بفصلهم من الدار، لكنهم يؤيدون (السلام) و(الانفتاح على الثقافات الأخرى)، أرأيت كمّ التناقض؟ إنهم -باختصار- لا ينتمون إلى أي هوية، إنهم لا ينتمون إلا إلى الهوى، ولا يريدون أن يفرض عليهم عامل العقيدة الانتماء إلى أشخاص بعينهم، ولمجرد العناد، تقبلوا أصحاب الأعين الزرقاء كحارقي محاصيل، وعادوهم كغارسي فسائل!»

حسنًا، مثلما التفت رؤوسكم للتو التف رأسي، وأخذت أحاول -عبيثًا- منطقة أسلوبهم اللا منطقي؛ فلم أنجح. رفض أبي تناول أي طعام، اتجه إلى فراشه وقرر أنه سيخلد للنوم، وأضاف بابتسامة متهمكة:

- «سنستيقظ صباحًا على خبر إيقاف الحرب، خبر ظاهره رائع ومبشّر، وباطنه شر خالص!»

تابع وهو يغلق باب حجرته:

- «فلنستعد لما هو أقسى من الحرب!»

(٤)

لا داعي لقول إن أبي كان محققاً كالعادة، استيقظنا على خبر إيقاف الحرب، وعلى خبر آخر خفيف، الحاكم فاقد للوعي، أنهى لقاءه بالسفير بعد إعطائه موافقته على الشروط، ثم قرر أنه متعب وبحاجة إلى الراحة، ثم.. ثم لم يستيقظ! إنه يتنفس، إنه حي، لكنه ليس هنا، اجتمع الحكماء وقرروا أخيراً أنه سيكون بخير، وأنه سيستيقظ قريباً، لسبب ما لا أثق في أقوال الحكماء حين تعاكس الواضح والمنطقي، لكن لا ضير في الأمل. الخبر التالي -والبدهي في ظل هذه الظروف- هو أن أنور أصبح المسؤول الآن، سيكون عليه تسيير أمور القرية -بمعاونة بعض المقربين- حتى يعود للحاكم وعيه.

ارتدى أبي ملابس الخروج والعباءة، وانطلق ليرى دار المنارة، هدفه الأساسي توديعها، ليس لأن أحدهما سيرحل، بل لأن الدار لن تعود هي في وقت قريب، والله وحده يعلم كيف سيمكن لدار المنارة تعليم أي شيء غير الخير.

سلكت الطريق المختصر لأصل إلى مزرعتنا، كان أكثر ما أريد رؤيته هو الخضرة، ذلك المنظر المنعش الذي يغسل الروح، أمطرت السماء وأنا في الطريق، وانهمرت القطرات علي برقة فلم أنزعج، أغمضت عينيّ وسكنت في مكاني، تركت المياه تغمرني وتتدفق على جسدي، كنت قلقة وحزينة، كل ما يحدث لا ينذر إلا بالشر، المن الغزير عند البحيرة، المضايقات المستمرة

لعائلة العم جواد، هتر وأتباعه ممن يسرون بالقرية نحو الضياع، فقط ليحافظوا على مصالحهم، وشروط السفير المتجاوزة والتي.. تمت الموافقة عليها، ويمكن إضافة إصابة الحاكم المفاجئة، أن يتسلم أنور حكم القرية؟ هل يدعو هذا للاطمئنان أم للقلق؟ إلى أي مصير تسير قرية المروج؟ فتحت عيني وتأملت -بصعوبة- الغيم المكتنز فوقي، رمادي وكثيف، يحجب أشعة الشمس حتى كاد يحيل النهار ليلاً، لكنه يحمل الخير! ألا يستلزم غياب النور غياب الخير؟ هل يكون الظلام ضرورياً في بعض الأحيان لحلول المصلحة؟ تذكرت يوماً بعيداً، لكنه في ذاكرتي كأنها كان منذ أيام، حين قلت للحاكم ما قلته عن اسمي، وعن أنني غيم كثيف ماطر يحمل في داخله البروق والعود والعواصف، أكان ذلك صحيحاً؟ فلم تأبى تلك العواصف الخروج؟ لم أنا عاجزة عن تغيير شيء مما أراه ويؤلمني؟ لم أراقب ما يجري لقريتنا وما تؤول الأمور إليه دون تحريك ساكن؟

- «هل الأمور.. جيدة؟»

كذا قال سهل وهو يتطلع بحذر من عند باب كوخه، كان ثباتي تحت زخات المطر دون حراك أمراً غريباً بالنسبة له. لم يكن سهل قادراً على تشكيل جمل كاملة بلغتنا رغم بقائه الطويل برفقتنا. طمأنته وتابعت طريقي -والمطر يزداد هطولاً- لأدخل المزرعة، وصلت إلى الإسطبل ووقفت أمام جناح، أخذت أكلهما وأثرثر لها عن كل ما يشغلني، كانت مستمعة بارعة، وإن لم تستطع إمدادي بالنصائح. أخرجتها من الإسطبل ومشيت برفقتها لبعض الوقت، كان العشب مبللاً، ورائحته المنعشة تفعم الهواء من حولي، وكذلك ابتلت ملابس لي لكنني لم أبال، أهذا ما يريد حارقوا المحاصيل حرماننا منه؟ رائحة العشب الرطب؟ الارتياح الذي يبعثه اللون الأخضر؟ انتعاش الفم بعد أكل وريقات من النعناع، أو فرك الأسنان بعود أراك؟ لأي غاية؟ كيف

يمكن لتلك التفاصيل أن تكون مؤذية؟ بل كيف السبيل إلى العيش دونها؟ وكيف توصل تفكيرهم المعطوب إلى ضرورة التخلص منها؟

هل أنا واهمة، أم أن هذه النبتة أكثر اصفراراً من اللازم؟ لم تكن الإضاءة جيدة كفاية لأتبين الحقيقة، قرّبت عينيّ منها وتمعنت في أوراقها، إنها مصفرةٌ كثيراً، لو كانت إنسانة لقلت إن وجهها شاحب!

حمحت جناح وكأنها تسألني عما أفكر فيه، ثم ضربت الأرض بحافرها الأمامي الأيمن في إشارة مفهومة بيننا، كانت بحاجة إلى الركض السريع لتفرّغ طاقتها، وكنت بحاجة إلى الشيء نفسه لتصفية أفكاره، قفزت إلى ظهرها دون أن أفكر مرتين، وتركتها تنطلق بي إلى حيث تريد. كانت المياه تسيل في الطرقات الخالية، ولو كنت أمتطي صهوة فرس غير جناح ما كنت لأحظى بهذا القدر من الاطمئنان؛ فالانزلاق أبسط ما يمكن حدوثه لبشري يمشي فضلاً عن حصان يركض، لكن جناح تعرف جيداً ما تفعله. أوصلنا الركض الحر إلى سور مزرعة حيّان المحترقة، كانت تبدو مظلمة في كل وقت، حتى لو لم تحجب الغيوم ضوء الشمس، توقفت جناح بشكل مباغت وبدا أنها سمعت نفس الصوت الذي تخيلت سماعه، هناك أحد يقف قريباً من هنا، لا بل هما اثنان، وكانا يتهامسان بشكل مثير للريبة، ترجلت وأشرت لجناح بالصمت، اقتربت بهدوء لألقي نظرة، وبرغم الإضاءة الخافتة والمطر الغزير تمكنت من تمييز كتلة الشعر البنية، كان يتحدث بعصبية إلى شخص آخر ليس في نطاق رؤيتي، اقتربت أكثر لأتمكن من السمع، فالتقطت القليل من الكلام:

- «لقد أوصلت ما أتيت لأجله وأخذت المقابل، هيا ابتعد الآن قبل أن تتم رؤيتنا وننورط في أسئلة لا نريدها!»

انصاع له الطرف الثاني ولمحته يبتعد ببطء شديد، كان يتوكأ على عصا

ويعرج في مشيته، ناداه ساري من جديد باستخدام: «هيه، أنت»؛ فالتفت ليؤكد لي الافتراض الذي افترضته، إنه عقلة المجنون! قال ساري بنبرة تهديد: - «أنت تعرف أن ما يحدث بيننا يجب أن يبقى بيننا، لو فكرت أن تطلق لسانك المنفلت هذا وتحاول الثرثرة فإنني سوف...»

وصمت وهو يومئ برأسه إذ لم يرَ داعيًا للإكمال، هز عقلة رأسه بإفراط مؤكِّدًا أنه سيسكت، ثم استدار وتابع طريقه حتى اختفى عن ناظريّ، شردت للحظات أفكر في معنى ما رأيته، عقلة المجنون؟ لا أذكر أنه كان موجودًا يوم السباق، ولو تأملنا في الأمر على نحو آخر لجزمنا بأنه من...! لكن ما علاقة ساري؟

تراجعت خطوات -وأنا أكنم أنفاسي- بينما التف ساري ليدخل إلى المزرعة عبر الباب المخلوع الذي نمت الحشائش والنباتات المتطفلة خلاله فصنعت بابًا بديلًا، ومع استدارته لمحت الجراب الجلدي الذي رأيته معه عدد مرات أكثر من اللازم، كاد يغيب في الداخل حين.. حين صهلت جناح بكل عنفوان! البلهاء! أهذا وقته؟ التف ساري بصدمة لكنني كنت قد أطلقت ساقى للريح، في ثوان كنت أمتطي جناح وأعدو بها بأقصى سرعة، وفي اللحظة التي وصل فيها ساري، لم يكن بوسعه -في طقس كهذا- رؤية أكثر من خيال شخص يمتطي حصانًا، أستطيع أن أراهن على أنه لم ينم ليلتها.



كان التسوق من المهام التي اعتدت القيام بها منذ سنوات، وحين ينقص غرض في المنزل؛ فإن غيم هي من تذهب لشرائه في المعتاد، كان الأمر جيدًا بالنسبة لي لأنني أفضل الخروج وأحب عدم وجود سقف فوقى، كما أن تقسيم السوق الدائم لقريتنا كان يمنحني ارتياحًا شديدًا؛ فكنت أقصد الجهة

النسائية من السوق وأتضع منها معظم احتياجاتي، ولا أحتاج غالباً إلى زيارة القسم الثاني حيث أن أبرز البضائع متوفرة هنا. كنت أقول إنني اتجهت للسوق بعد عودتي من تلك المغامرة القصيرة، وعندما نلت توبيخاً لا بأس به بعد أن بللت ملابسي؛ فأمي تخشى علي من المرض بشكل مفرط، وعندما بزغت الشمس من جديد وبدأت المياه على الأرض بالتبخّر؛ فكان أول ما قابلني عربة خشبية صغيرة يجرها حمار، كان الحمار مكسوّاً بمنسوجات غريبة الشكل لم أرَ مثلها من قبل، وحين نظرت إلى وجوه راكبي العربة أدركت السبب؛ فقد كانت عائلة صغيرة من أب وأم وطفلة، كانت عائلة من ذوي الأعين الزرقاء، ملئت عربتهم بأشكال من منسوجات بنفس الطراز الذي رأيته على الحمار، والذي كانوا يرتدون ما يشبهه، أهذه السرعة؟ كان عدد من الشباب والشابات قد التفوا حول العربة وبدؤوا بالاستفسار عن الأسعار والخامة، وأبدت النسوة الكبيرات -الجالسات في دكاكينهن- انزعاجهن من تواجد الرجال هنا بهذا الشكل وأخذن ينبهن بعضهن ليحجبن وجوههن، قال رب الأسرة الزرقاء شيئاً ما بلغتهم خيّل إلي أنه اعتذار، إنه لم يكن على علم بنظام سوقنا على الأرجح؛ هكذا ساق عربته ليتعد بها عن منطقة النساء، الحق أنني أكبرت رد فعله، واحترامه لنظامنا، لكن هل يكون كل القادمين مثله؟

- «أهلاً بابنة الشيخ مدرار، لم لم تحملي سلاحك بعد؟»

التفت في غيظ لأقابل صاحبة الصوت، تلك الكهلة المتطفلة سليطة اللسان، الفرد الأخير من عائلة التاجر هتر، (أنفة) التي تباع في دكانها مشغولات يدوية من سلال وغيره، مصنوعة من فروع أشجار الصفصاف، وجدير بالذكر أنها لن تمد يدها -بصفتها امرأة مرموقة وزوجة تاجر كبير- في صناعة شيء كهذا، وإنما كانت خادماً من يصنعها ويتكفلن ببيعها،

وكانت تحضر السوق فقط لتلوك سِير الناس بين أسنانها وتراقب (اللصات) اللاتي يععن في دكانها. رددت بغیظ مغلف بالأدب:

- «ولم قد أحمل سلاحي يا خالة؟»

- «يا للحلاوة! لقد ورثت لسانك المعسول عن أبيك يا فتاة؛ فلا بد أنك تحملين نفس منطقته المتحجر ونظرته السوداوية للأمور، ألن تحملي سلاحًا لتقتلينا في الطرقات بعدما وضعنا أيدينا في أيدي الذي يخالفوننا في الرأي؟»

كززت على أسناني وابتلعت ألف تعليق يتصارع في رأسي، أردت أن أقول إننا - كغارسي فسائل - لا نحمل للآخرين إلا السلام، ولا يمكن أن نقتل إنساناً لمجرد اختلافه في الرأي، كما أن الاعتقاد الصحيح لا يمكن إلا أن يكون اعتقاد غارسي الفسائل، ليس تحيزاً لرأينا أو اعتقادنا، بل لأن طبيعة البشر والحياة تؤكد ذلك، شئنا أم أبينا! كما أن غارسي الفسائل لم يقاتلوا أحداً يوماً إلا لإثبات أهمية النبات، ومنع حارقي المحاصيل وغيرهم من تدمير أنفسهم والبشرية كلها بسبب اعتقادات بنيت على غير أساس!

- «لقد حرزت يا خالتي، نحن ننوي محاربة المختلفين عنا بصحون السلطة، هل يمكنني الحصول على طماطم وخيار وليمون طازج يا أم عماد؟ واحرصي على أن تكون مميتة من فضلك!»

قهقهت أم عماد وبقية الجالسات في مرح، وبدأت تحضر لي ما طلبته، حين تمتت أم قاسط من بين أسنانها بغل:

- «ها هي المسوخ تقترب!»

نظرت إلى حيث تنظر تلقائياً؛ فرأيت تبر وخالتي حسناء تقتربان، وجهت أم قاسط كلامها إلي قائلة بسخرية مغلظة:

- «هؤلاء هم من تنتمين إليهم، صح؟ لعلهم من أوحوا إليكم بتلك الأفكار الملعونة، يريدون التفريق بين ذوي الأعين الصفراء وسينجحون بوجود أمثالكم!»

الآن تأكدت من تحليل أبي، هؤلاء القوم يمتهنون الكيل بمكيالين، ينهرون بأفعال ذوي الأعين الزرقاء المفسدين ويتملقونهم، وينبذون الأخيار منهم لأنهم يشاركوننا نفس الاعتقاد؛ (فليرحلوا إلى ديارهم ويبارسوا ما يريدون هناك)! تجاهلتها واتجهت نحو القادمتين، كان الكثير من النساء يشحن بوجوههن عنهما؛ لذلك سرّتا بتواجدي هناك، أخذت بضاعتي من أم عماد وقلت متظاهرة بتوجيه الكلام لتبر:

- «فلنر يا عزيزتي ما سيؤول إليه الحال، عندما يقوم حارق محاصيل بتدمير نباتاتنا وضعضة ما تقوم عليه حياتنا، هل سترقص طرباً لأنه بعينين صفراوين حينها؟ وهل سنعاذي من يساعدنا في تأهيل الأراضي لمجرد أنه بعينين زرقاوين؟»

التقطت تبر طرف الخيط، وقالت بابتسامة:

- «من لا يملك منجزاً يفتخر به، ومن لم يبذل ما يستحق التكريم لأجله؛ فإنه سيلجأ إلى ما لم يفعله، وما ليس له فضل في وجوده، وسيبدأ بالافتخار به والانتفاء الزائف إليه، والأهم من ذلك كله أن النقص المتنامي بداخله سيسد أذنيه عن سماع أي نصح يحره من هذا الوهم؛ لأنه لو تحرر منه فسيبقى عارياً من أي شيء يستر بلادته وعدم قيمته، وهمياً أو حقيقياً!»

الحق أنني دهشت من كلماتها؛ فقد كانت مرتبة عذبة تنم عن فكر راق، وخطرت لي أنها ربما سمعت تلك الكلمات من المعلمة رؤية، تجاوزنا أنفة الكازة على أسنانها بعنف يجعل من يراها يعتقد أنها متشنجة، استمررنا بتبادل

الأحاديث أثناء المسير، ومن آن لآخر كنت وتبر نوجه كلمات لاذعة للنسوة اللاتي يتجاهلن الخالة حسناء حين تكلمهن، أو يمتنعن عن البيع لها. وعند مخرج السوق، لمحت بطرف عيني فتيات متجمعات عند أحد الأركان، كن يتهايمن في موضوع يبدو خطيراً، والغريب أنهن كن يرمقنا بحذر من وقت لآخر، برغم أن معظمهن لا تربطني بهن علاقة أكثر من معرفة الأسماء والسلام عند اللقاء صدفة! اقتربت عمداً منهن دون أن أنبه تبر وأمها لشيء، أردت أن أرى ما ستكون ردة فعلهن، في البداية التقطت نصف عبارة قبل أن تتبّه إحداهن لاقترابي:

- «(الصفراوية) سترتفع وتنتصر في النهاية، وستصل لأهدافها، المهم ألا يعرف أولئك بما نفعله، وأن يبقى الأمر سرياً مؤقتاً.»

هل أصبح الجميع يحمل أسراراً قاتلة مؤخراً؟ .. (الصفراوية)؟ ما الذي يفترض بتلك الكلمة السخيفة أن تعنيه؟ تبيست مكاني في ثانية وقد فهمت، حين تنبّهت الفتيات لقربي منهن فانسجن من المكان بهدوء، لو سمحت لنفسني بالاستنتاج فإن عائلتنا ومن يشبهها هم (أولئك)، وعائلة العم جواد سيكونون العدو!

- «غيم، ما بك؟»

- «لا.. لا شيء.»

ليس علي استباق الأحداث، لعل أذني أخطأنا السمع، أو أن المقصود شيء غير ما فهمته، حين يعود أبي سأخبره، وسيكون بوسعه تفسير كل ما يدور.

فارقت تبر ووالدتها في منتصف الطريق، وأكملت طريقي للمنزل وأمواج

الأفكار تتلاطم في عقلي، وكل منها أشد ضراوة من الأخرى، حين وصلت للمنزل لمحت خالتي ودود تغيب في الداخل، بينما يمتطي ساري حصانه مبتعدًا، مما أوحى لي بأنه أتى ليوصلها، وهذا ما كان لي شعري بالسرور لولا ما رأيته صباحًا.

- «مرحبًا غيم».

قالها وهو يمر جوارى فلم أجد في نفسي ميلاً للرد، توقف ونظر إلي بحيرة إذ رأى تجاهلي ونفوري الواضحين، ترجل وتمعن في وجهي ثم قال بسخرية: - «تبدين ذاهبة لعراك، أو خارجة من عراك، كأنني أرى غيم ذات السبع سنوات، لا ينقصك إلا إطلاق شعرك!»

قهقهه بمرح وقد أعجبته نكاته، بينما أعجبت - في سري - بدقة ملاحظته، مجددًا أثرت الصمت؛ فمط شفتيه وهو يقول بلا مبالاة:

- «الجميع يتصرف بغرابة هذه الأيام، اعتدت أن أكون الوحيد!»

- «ماذا تقصد؟»

قلتها بتجهم محاولة إخفاء اهتمامي، فرفع حاجبيه وهو يقول بنوع من الشرود:

- «بدعة (الصفراويين) التي ظهروا بها فجأة، من الأمس استمر كل شخص يراني صدفه بإقناعي بالانضمام إلى الصفراوية، ويستمرون بترديد شعارات من نوعية (المجد للصفراوية)، و(الصفراوية هي الحل)، أظن أن إحداهن كانت عند أمك قبل وصولنا بدقائق.»

الآن تخلّيت عن قناع التجاهل وبدأ الاهتمام جليًا على وجهي.

- «وما الذي يدعون إليه بالضبط؟»

- «لو فكرت خمس ثوانٍ فقط ما كنت لتضيعي الوقت في سؤال بهذه السخافة، الاسم يدل على المضمون!»

أغاظني برغم أنه محق، إنهم يحاولون جمع ذوي الأعين الصفراء حول راية واحدة.

- «و ضد أصحاب الأعين الزرقاء؟ الحمقى لا يدركون أنني قاطعت دار المنارة منذ كف وادع عن ارتيادها، صحيح أن أنور لا بأس به، لكنه أصبح مقلداً في الحضور منذ مرض والده، وبعد ما حدث مؤخراً لا أظنه سيعود إليها قريباً.»

قالها كأنها يكلم نفسه، كاد ينصرف لولا أن أوقفته، وقلت بتردد:

- «هل يمكنني سؤالك عن حشرة ما؟ عديمة اللون ولزجة ومقرزة، كأنها دودة.»

بدا مستغرباً نوعاً من الانتقال المفاجئ للحديث، لكنه مط شفتيه وقال إنه لا يدري، ثم استدرك بأنه قرأ عن هذه الأوصاف مرة في مكتبة دار المنارة، وسرعان ما ابتلع كلماته كأن اعترافه بأنه يقرأ سيشكل وصمة عار تلتصق به، وعاد يؤكد أنه لا يذكر تحديداً كنهها، ثم نفص رأسه وقفز فوق حصانه مرة واحدة، ودعني بعبارة:

- «لن ينتهي السخف من العالم أبداً.»

ثم انطلق دون أن ينتظر ردي، لا أعرف لم أكتفيت بالصمت بدلاً من سؤاله عن معنى ما رأيته أو حتى استدراجه في الكلام، لعلني خفت أن أكتشف شيئاً لا يسرني عنه، ولو حاولت التلميح فإن ساري أذكى من ألا يربط بين كلامي وبين ما حدث معه هذا الصباح.

قاطعت كلام أمي وخالتي في المطبخ وقلت وأنا أقطع السلطة:

- «أمي، من زارك حين كنت بالخارج؟»

صمتت أمي لثوان محاولة الفصل بين إجابة سؤالي ومشكلة (انفصال الملوخية عن المرق) التي كانت تناقشها مع خالتي، وبدأت تحكي لي ما خلاصته (بعدما حادت عن مسار الحديث مرارًا واستطردت في ألف موضوع جانبي هي وخالتي):

- «كانت أم قيس، أرادت إقناعي بالانضمام إلى ما أسموه بالصفراوية، لا أعرف من اختار الاسم لكنه ليس خلأً، عمومًا، كانت تحدثني عن مدى الفساد الذي أحدثه ذوو الأعين الزرقاء في أراضينا، وأن معظمهم من حارقي المحاصيل محاصيل أو الجداريين؛ فأخبرتها أن أتباع تلك الفئات من أصحاب الأعين الصفراء يحدثون الضرر نفسه، وأن المشكلة من الاعتقاد لا من لون العينين. الحق أنها ثرثرت كثيرًا لكنها لم تضيف جديدًا، كأنها حفظت تلك الكلمات وأتت لتسردها علي بترتيب مختلفة، وفي النهاية انتفخت أوداجها وباتت تشبه أكثر ما تشبه الديك الرومي حين أخبرتها أنك على وصول، وأنت أدري بتلك الأمور مني، ثم غادرت المنزل وهي تتمتم بكلمات ساخطة عن كوني عنصرية تنحاز إلى غارسي الفسائل وترفض تقبل الاختلاف!»

[الكاتب] لم تكد تنهي القصة حتى انخرطت في حديث جديد مع خالتي ودود، اتساع الأفق لا يعوزهما في افتتاح المواضيع، بقيت أقلب القصة في رأسي بينما أساعدهما في إعداد الطعام ثم في الأكل، وحين عاد أبي أخيرًا أسرعت بالجلوس إليه.

- «لم يعد هذا محتملاً، إنه اليوم الأول بعد عقد الاتفاق، لكن الوضع يوحي بأن التجهيزات تتم منذ وقت طويل، كل شيء معد سلفاً، معلموهم يتعاملون كأنهم هناك منذ تأسست الدار، يسIRON بكل ثقة وهم يعرفون طريقهم، لا يسألون عن أماكن الفصول والقاعات ولا يبدون تائهن، مظهرهم يثير القلق، وثقتهم المفرطة جعلتني أتساءل مراراً أينما دخيل على الآخر!»

- «أهم من ذوي الأعين الزرقاء؟»

- «هل سكرين كلامهم المبذل أنت الأخرى؟ ماذا تظنين؟ لم أرَ من ضمنهم إلا واحداً بعينين زرقاوين، والباقيون لا يفرق بيننا وبينهم شيء في المظهر!»

- «عرفت ذلك، قصدت التوثق فقط.»

- «ثم الهراء الآخر الذي ابتدعه فجأة، (الصفراوية)، حارقوا المحاصيل المتطفلون في دار المنارة أقرب إليهم من إخوانهم، ماذا أقول والكلام لا يفيد؟ المصيبة أن عددهم لا يستهان به، وأنهم -برغم الوقت القريب الذي أطلقوا فيه فكرتهم- قد لاقوا قبولاً كبيراً، خاصة بين الشباب!»

- «لا يمكنهم الاستمرار يا أبي، سيدركون خطأهم عاجلاً أو آجلاً.»

- «بعد فوات الأوان، وهذا أسوأ ما في الأمر!»

للمرة الألف أجد أنني آخر من يعلم، الجميع عرف بأمر الصفراوية، والجميع سمع عنهم ومنهم، حتى وادع توقف عن ارتياد دار المنارة خوفاً منهم، وقلل العم جواد من عدد الأيام التي يفتح فيها دكانه، وتبر -التي لم تكن تكاد تتغيب يوماً عن دار المنارة، أو تتخلف عن اجتماع للفتيات؛ بسبب ميل شخصيتها الشديد للتقرب من الناس- أصبحت تتعرض للهجوم والنبد

والسخرية في كل فرصة متاحة؛ فازدادت انزعالاً وميلاً إلى الانفراد وإيثاراً للسلامة، الكل لاحظ والكل فهم ما يدور، إلا محسوبتكم! لسبب لا يتعلق بتبرير جهلي، أفكر في أن ذلك كان متعمداً، أمي وخالتي وأبي وحتى ساري، جميعهم أرسل إليهم من يدعوهم للحزب الجديد ويقنعهم بالانضمام، إلا أنا، كانت الفتيات يتعدن عني ويحاولن إبعاد حديثهن عن سمعي، وغادرت أم قيس منزلنا ما إن علمت باقترابي، هل أبالغ في تقييم نفسي أم أن الصفراوية حقاً تخشاني؟

حين زرت دار المنارة بعد يومين، بقيت شهوة تراقبني بعينين مليئتين بالشماتة طوال دروس اليوم، لم أفهم سر نظراتها ولم أهتم؛ فقد كان بالي مشغولاً بغياب المعلمة رؤية الغامض، إنها تبث لياها في الدار؛ فما الذي طرأ وجعلها تغيب عن الدروس الموكلة إليها؟ انتهى اليوم الدراسي بسير بقية الدروس بالطريقة المعتادة، وحين خرجت -ساهرة- اصطدمت بشخص ما، اعتذرت لها بارتباك، لقد كانت معلمتي رؤية.. معلمتي رؤية؟! هل كانت هنا طوال الوقت؟ لم تدخل وقت حصتها إذن؟ ابتسمت وقد فطنت -كعادتها- لكل الأسئلة التي ضج بها رأسي وأنا أرمقها بعدم فهم، قالت بابتسامة لا تشبه الابتسامة:

- «لم أتخيل أن يأتي هذا اليوم، لكن أحداً لا يعرف أين يكمن الخير، لقد انتهى عهد تدريسي في هذه الدار يا غيم.»

نزلت كلماتها علي كالصاعقة، لم أستطع منع شهقة اللوعة وعينا تكادان تغادران محجريهما، ماذا تكون دار المنارة دون المعلمة رؤية؟! مرت جوارنا معلمة صغيرة في السن تدعى (أديم)، التحقت مؤخراً بالتدريس، لكنني لم أكن على وفاق معها يوماً؛ فقد كانت من النوع الذي لا يهتم حقاً بإفادة

الطلاب، ولا تكاد تعرف عن مجالها -اللغة والأدب- أكثر مما نعرفه نحن، وكانت دروسها حافلة بالمعلومات المغلوطة والإجابات المؤلفة، حتى لأكاد ألطم خدي وأنا أسمع ما تسكبه على الطالبات الغافلات من أخطاء، وكانت تغتاظ مني بدورها لأنني أصحح دائماً أي معلومة مغلوطة تقولها ما دمت أعرف تصحيحها، وبرغم أنني كنت أتوخى الأدب في التصحيح، وأقدمه عادة على هيئة سؤال أو استفسار، إلا أن هذا لم يرق لها؛ فالجاهل الراغب في إخفاء جهله يبنّي حول نفسه سوراً وهمياً من التظاهر بالعلم، وألد أعدائه هو من ينقض هذا السور ويكشف حجم الفراغ الحقيقي في عقله. المهم أنها كانت تسير مكلفة بمجموعة من الفتيات الضاحكات، نسيت أن أقول إن أغلب الفتيات كن يحبينها؛ لأنها كانت تكثر من المزاح والثرثرة معهن لأنها لا تملك ما تزجي به وقت الدرس إلا عدة معلومات سطحية تسردها سرّداً في أول خمس دقائق، وقد كانت شهوة من بين تلك الفتيات، الخلاصة من ذلك كله أن كليهما -أديم وشهوة- وغالبية من معهن، كن يظهرن شامتتهن بلا تحفظ، وكن يرمين عبارات من قبيل: «انتهى عصر التحجر»، و«هذا أول الغيث فقط»، التزمت الصمت احتراماً للمعلمة رؤية، أما هي فقد بادلتهم ابتسامة شفقة جليلة، ولسان حالها يقول: «كم أتألم لجهلكم، ولسعيكم الحثيث لتدمير أنفسكم!». ابتعد موكب الجهلة، وعدت أسأل المعلمة بحرقة:

- «لم فعلت ذلك؟ نحن بحاجة إليك، هل تتركيننا لأمثال أديم؟ كيف تصبح دار المنارة بعدك؟ أنت شعلتنا يا معلمتي، أنت الإصبع الذي يشير إلى الخير والنور الذي يبدد ظلمة جهلنا!»

وضعت يدها على كتفي وقالت بمودة:

- «الخير ليس مقروناً بي، والنور لن يزول من بعدي، أنا لست قلقة عليكم يا ابنتي؛ فوجود من يشبهك ويشبه تبر في هذه الدار يطمئنني على

مستقبلها، ثم إنني لم أكن أكثر من سبب، أرسله الله إليكن لإرشادكن إلى الطريق، والخوض عليكن، السبب في النهاية يزول، أما مسبب الأسباب فباق، يجيب من دعاه، ويرشد من طلب الرشاد، ويسدد خطى من نوى وعزم؛ فالتعلق لا يكون إلا به يا غيم، والخير لا يأتي إلا بالرجوع إليه.»

لم أتمالك نفسي، وجدتني أنقض عليها لأضمها بحرارة، وقلت:

- «لكنني أحبك، وكلنا نحبك، وسنفتقدك كثيرًا!»

ربتت على ظهري بمواساة وقالت بابتسامة:

- «وحدك تحبينني وستفتقدينني يا غيم، وأخبرك أنني أيضًا أحبك في الله، وأرى فيك شيئًا عظيمًا، ومن باب الترويح عنك، أعدك بأنني لن أغيب عنك بإذن الله؛ فقد يستطيعون إبعادي عن التدريس، لكنهم لن يستطيعوا أبدًا إبعادي عن التعلم، والمعرفة، والقرب من الحق ما دمت حية، وإن كانت فصول الدار قد أغلقت أبوابها في وجهي؛ فإن اسم الدار سيبقى يحمل معناها، وستبقى أبواب مكتبتها مفتوحة لمن أراد الاستزادة، وسأبقى أستزيد من العلم حتى آخر يوم في عمري.»

نظرت إليها وقلت بشيء من السرور:

- «أي أنك ستبقين قريبة منا؟ سأجلك في المكتبة؟»

- «دائمًا، وفي أي وقت احتجت فيه إلي؛ ستجدينني جوارك بإذن الله، وسأبقى مطلعة على ما تفعلينه من خير، وسأنتظر -بلهفة- اليوم الذي أراك فيه تصنعين شيئًا كبيرًا، وتسطرين اسمك في قوائم العظماء.»

ثم ربتت على كتفي وقالت بابتسامة حنونة:

- «وإياك أن تسمحي لأولئك الصغراوين بتدمير معتقداتنا يا غيم، ففي

في وجوههم واصدحي بالحق، ولو كنت الوحيدة الباقية على هذا النهج!

- «إذن، تلك لم تكن مجرد شائعة؟ المعلمة رؤية تركت التدريس فعلاً يا غيم؟»

قالتها تبر بعدم تصديق؛ فقلت بنوع من الغموض:

- «أو أجبرت على تركه يا تبر، الله أعلم، والمؤكد أن أولئك الصفراويين يتوغلون بسرعة قياسية، وأن دار المنارة أصبحت تحت سيطرتهم بشكل شبه تام، ولن أكذب عليك لو قلت إنني خائفة على الدار من الصفراويين أكثر من حارقي المحاصيل!»

صمتت تبر وشاركتني العيش في عالم التحليلات الذي دخلته، حين سمعنا من ينادينا فجأة، التفتنا لنرى أبي خارجاً من الدار هو الآخر، كان قد خرج بعربة الحصان خاصته هذا الصباح ليمر على السوق في طريق عودته، دعانا للركوب معه بدلاً من المشي فلم نكذب خبراً، لفته وجومنا الغريب طوال الطريق؛ فسألنا باهتمام عما هنالك.

- «المعلمة رؤية، لقد تركت التدريس يا أبي.»

ران عليه الصمت بطريقة أشعرتني أن الخبر ليس جديداً عليه، أو أنه كان يتوقعه بشكل ما، قال بعد مرور بعض الوقت:

- «قرار مفهوم، أصبحت الدار مرتعاً للجهلة والمنافقين، لم يعد التعليم المقصد الأول لمنسوبي الدار.»

ابتلعت ريتي وتبادلت نظرات متوترة مع تبر، نفخ أبي رأسه وأعاد نبرته المرححة وهو يقول:

- « لكنها لا تزال القبلة الأولى للعلم بالنسبة لقرية المروج وما حولها، ولا زال أمامها بعض الوقت حتى نحكم بانهارها، من يدري؟ بين لحظة وأخرى يصلح الله الأحوال. »

ثم رمى تبر بنظرة جانبية وهو يسأل:

- « أين شقيقك يا تبر؟ لم أره في الدار منذ وقت طويل. »

- « وادع؟ لقد توقف عن ارتياد الدار منذ بدأت أفكار الصفراوية بالتشكل يا عمي، لم يعد قادرًا على تحمل أذيتهم، وأظنني سأحذو حذوه في القريب. »

زفر بضيق واضح، افترضت أنه متضايق من ذكر الصفراوية، لكن تبين أنني على خطأ.

- « أحقًا؟ وهل توقفت الصفراوية بهذا أو ستوقف؟ إنه لم يؤثر على أحد -بقراره هذا- إلا على نفسه! فيم يضيره استهزاء الجهلة والسفهاء، ولم تهمه آراؤهم فيه؟ التعلم واجب وليس لتركه مبرر، وإلا فإنه يحكم على نفسه باللاحق بركب أولئك الحمقى، وحين لا يوجد دين ولا علم؛ فما السبيل إلى التفاضل بين الناس إلا بالهوى والمظاهر الفانية؟ »

رأيت عدم الموافقة في عيني تبر، غير أنها لم تقل شيئًا، لكن أبي -الذي اعتاد قراءة الأفكار- تابع:

- « أعرف كم أن الأمر ثقيل عليكم، وكم أنهم يتناولون عليكم ويتجاوزون في نعتكم بكل قبيح، والسخرية منكم والتقليل من مقامكم، لكن أذاهم لا يتعدى ذلك، وكلامهم وسخريتهم زائلة، أما العلم الذي تحصلونه فسيبقى بإذن الله، وفي الوقت الذي ينبحون فيه كالكلاب فينزلون إلى أسافل الدركات، سترتقون أنتم وتصلون أعالي الدرجات، وسيفيقون

من نشوة نباهم ليدرکوا حجم خطئهم بعد فوات الأوان.»

كان من الغريب أن يستخدم أبي تلك النعوت في وصف أي كان، لكن من الواضح أن الكيل طفع، وأن أولئك القوم تجاوزوا إلى حدّ استحقاق الشتم من أبي، هزت تبر رأسها بثقل، فيما أكد أبي أنه سيتحدث إلى وادع والعم جواد حتى يعود وادع إلى الدراسة.

نزلت تبر عند منزلهم فالتفت إلى أبي يسألني إن كنت سأرافقه إلى السوق أم سأنزل لأعود إلى منزلنا -القريب- مشيًا، بالطبع لم يكن في اختياري شك؛ هكذا رافقت أبي، وقد كانت إمكانية أن تدخل امرأة إلى منطقة السوق الخاصة بالرجال أسهل من أن يحدث العكس؛ فبعض السلع قد تتوفر في منطقة الرجال حصراً، كما أن الحرج في دخول النساء على الرجال ليس كما هو في دخول الرجال على النساء؛ إذ لن يضطر الرجال إلى تغطية رؤوسهم ووجوههم أو خفض أصواتهم كما هو الحال مع النساء.

- «أبي، هل لي بسؤال؟»

كان مستعداً تماماً لهذه العبارة منذ أعربت عن رغبتني في مرافقته.

- «بالتأكيد.»

- «عقلة المجنون، من يكون؟»

ابتسم بهدوء إثر الصيغة التي اخترتها لطرح السؤال.

- «يكون عقلة المجنون؟»

- «أبي، أنت تفهمني! عنيت من يكون حقاً؟ من أهله وأين هم؟ لم يهيم

في الشوارع هكذا ويعيش على إحسان المحسنين؟ والأهم من ذلك كله، لم هو مجنون، وما الدليل على جنونه؟»

قال باهتمامٍ مرحٍ، وكان قد استعاد مرحه بصعوبة بعد الأحداث الأخيرة:

- «على رسلك، ما كل تلك الأسئلة حوله؟ أهنك ما أثار ريتك؟»

- «ربما، وربما أكون على خطأ، فقط أحب أن أعرف.»

- «الحق أنني لن أفيدك كثيراً حول هذه القصة؛ فهذا الرجل عجوز جداً، أذكر أنه كان على نفس هيأته هذه منذ كنت في السابعة، ولم نكثر كثيراً للبحث وراءه، لربما كان بوسع أحد آخر الإجابة على تلك الأسئلة.»

- «أحد آخر؟ مثل من؟»

أطرق يفكر قليلاً، ثم قال وهو يوقف الحصان:

- «فلنستكمل حوارنا لاحقاً.»

ترجل من العربية وساعدني على اللحاق به، سألته ونحن نسير:

- «ما الذي تنوي شراءه؟ ولم آتيت بالعربة؟»

ابتسم بتبرّم لم أفهم سببه، ألكثرة أسألتي أم للإجابة التي لم ينطق بها؟ تقدمني ففهمت أنه سيريني الإجابة بدلاً من أن يسمعني إياها. توقف أمام ورشة حصين فرحب به الأخير وأخبره أن طلبه قد جهز، أعطى أبي للحداد ثلاث قطع ذهبية، وهو مبلغ فادح فعلاً كما لكم أن تتصوروا؛ لذا اشتعل فضولي لمعرفة نوع ذلك الطلب. ظهر ثلاثة صبية -كانوا يعملون مع حصين في الورشة- من المخزن حاملين صناديق معدنية متقنة الصنع، ويبدو من مظهرها أنها ثقيلة للغاية، سألت حصين بعد أن وضع النقود في مكانها وعاد يبصق في يديه استعداداً لدق حديدة كان يعمل عليها:

- «هل ستوصلها بنفسك إلى (جلد) أم تريد أن يتكفل صبياني بذلك؟»

- «أشكر لك اهتمامك، بل سأنقلها بنفسي.»

أوماً حَصِين متفهماً وتابع عمله، أشار لي أبي لأركب العربة وتبعني، أخذ يساعد الصبية في رص الصناديق في العربة بينما أراقبهم -من المقدمة- في حيرة، وبعدما قبض الصبية إكراميتهم ركب أبي جواري والبشر على محياه، وقبل أن أسأله قال:

- «ألا زلتِ محتفظة بطاقتكِ أم تعبتي؟»

- «على حسب.»

ضحك وقال وهو يوجّه الحصان إلى ورشة جلد النجار:

- «سأنزل هذه الصناديق عند جلد، ثم أتجه إلى المزرعة لأقوم بعملية جد مهمة، وأنا راغب فعلاً في إتمامها اليوم قبل الغد.»

- «وما هي تلك العملية؟ ولمَ هي عاجلة؟ وما هذه الصناديق؟ ولمَ يبلغ سعرها هذا الحد؟ ولمَ تأخذها إلى جلد؟ ولمَ...»

- «توقفي، توقفي! لمَ كل هذه الأسئلة؟ لو كان هناك ما عليك معرفته فستعرفينه دون أن تسألي، ولو لم يكن عليك معرفة شيء فلن تعرفيه حتى لو سألت!»

ضحك وضحكت، ثم قلت بمكر:

- «ألست من علمني أن أسأل عن أي شيء أجهله، وأخبرتني أنه كلما زادت معرفة الإنسان، زادت قيمته؟»

- «غلبتِ أباك هذه المرة يا غيم.»

- «أنت معلمي.»

- «ما أكثر الطلاب الذي يتفوقون على معلمهم!»

- ضحكننا من جديد، كنا قد اقتربنا من ورشة جلد الآن، قال بطريقة عابرة:
- «لقد أهملت زيارة المزرعة منذ أيام، أنا نادم على ذلك لكن وجود سهل هناك يطمئني؛ فهو أمين ومخلص في عمله، ويحافظ على المزرعة كما لو أنها له.»
- «لا أعرف لم لا يعتنق معتقد غراسة الفسائل، إنه طيب وخلقوك وكأنه يتبع نهجنا، أشفق عليه من الضلال!»
- «من حكمة الله أن ليس كل طيب في نظرنا يُهدى إلى طريق الصواب، والله يهدي من يشاء، لكن من يدري؟ لربما أعلن سهل رغبته في أن يصبح غارس فسائل اليوم أو غداً.»
- «كم أرجو ذلك!»
- «هل زرتِ المزرعة قريباً؟ كيف تسير الأمور؟»
- «أجل، زرتها يوم المطر، أتعلم؟ أذكر الآن أنني رأيت شيئاً غير مفهوم بالنسبة لي، أوراق النباتات في الجانب المحاذي للسور، بدت كما لو أنها.. مصفرة، أو شاحبة، بدت مريضة بشكل ما.»
- توقف فجأة وزال كل أثر للابتسام عن وجهه، نظر إلي بعينين مصعوقتين وهو يقول:
- «أوراقها مصفرة؟! وكيف لم تخبريني؟!»
- «أنا.. أنا لم.. لم أكن واثقة مما رأيت، كانت السماء غائمة والشمس محتجبة لذا...»
- لم يدعني أكمل تبريري، ألهب ظهر الحصان بالضربات وترك السوق كله منطلقاً نحو المزرعة، وفي عينيه نظرات لوعة وذعر لا يمكن وصفها.

ارتمينا على العشب نلهث بعد انتهائنا من تلك العملية الشاقة، لم تكن العملية التي خطط أبي لها، بل كانت أشبه بطاّمة نزلت به من حيث لم يحتسب، استقرت في عينيه نظرة فقد كما في عيني أم ثكلي، وهو يتأمل المساحات التي خلت من الزروع الآن، وكان منظر التربة العارية مؤلماً بأشد مما تصوّرت، وتبدّت أمام عينيّ فداحة ما يفعله حارقوا المحاصيل، وقد ساعد المنظر الذي أراه على تجليته بشكل أفضل.

- « لا بأس، قدر الله وما شاء فعل، الحمد لله أن لم تكن المصيبة أكبر. كان خطي أن لم أداوم على الاطمئنان على المزرعة بنفسي، لم يكن علي الاعتماد على أحد آخر. »

قالها هامساً، ثم نهض ونفض التراب عن ملبسه، وكان يحاول إبعاد عينيه عن النباتات المزروعة المنتشرة حولنا، كانت لم تثمر بعد، هاجمها المن قبل أن يكتمل نموها. أخبرني أبي بصوت لا يكاد يسمع أنه تأخر عن موعد جلد، ثم غادر وتركني هناك وحدي. نهضت بدوري واقتربت من إحدى تلك النباتات، كان الشعور بالذنب يمزقني ويشعري أنني المسؤولة عن كل ما حدث، وأنني السبب في تلك النظرة القاتلة في عيني أبي، والتي لم أتمن رؤيتها أبداً. تأملت جذورها، وتلك الكتل المتشكلة حولها من الشمع الأبيض، إنها مستعمرات المنّ، أخذت أتأمل الفروع الملتوية والأوراق الملتفة. حين أتيت مع أبي قبل ساعتين، كان اللون الأصفر قد انتشر بين النباتات، ولم تعد النبتة التي رأيته ذلك اليوم هي الوحيدة، لكن أبي لم يكن محتاراً مثلما كنت، بل إنه أدرك مباشرة الخطب، وأخذ يهتف بي مفعجاً لأساعده في انتزاع النباتات المصابة قبل أن تُعدي جاراتها السليمة، كانت إماتة نبات حي وانتزاعه من مكانه أمضى في قلب أبي من الخناجر، لكن تركها كان يعني ترك أضعاف

هذا العدد يموت، وكان لا بد من التضحية بالقليل لينجو الكثير، وفطنت لحظتها إلى أن النباتات أيضاً تتغير أحوالها مثل البشر، وتلك النباتات التي كانت تشع فائدة بالأمس لم تعد الآن أكثر من حاملّة آفة يُخشى على غيرها منها، وكله لأنها استسلمت للمنّ، وتركته يتغذى من حياتها؛ فخسرت قيمتها وأصبح انتزاعها ضرورة لا غنى عنها!

لماذا لم أخبر أبي حين لمحت ذلك الاصفرار في الأوراق؟ لم أهملت الموضوع كله؟ كيف سأغمض عينيّ ليلاً بعدما حملت عينا أبي كل ذلك الألم، وبسببي!

- «إذن، يا صديقتي، وبما أننا أنهينا الدرس، تعالين نتحدث عن الصفراوية، ومستقبلها، وما نأمله ونسعى لتحقيقه من خلالها.»

كانت تحب استعمال كلمة (صديقتي) لتبعث شعوراً زائفاً بالقرب، وهو ما كان يندع أكثر البنات لكن لا يندعني، أما عن الموضوع التافه الذي طرحته للنقاش فلم يكن لذلك سبب إلا لتناكفني، وتفتعل مشكلة معي، والحق أنه كان عز الطلب، خاصة مع مزاجي المتعكر منذ الحادث الذي أصابنا أمس، والصمت الذي خيم على أبي من وقتها مع هيمان عينيّه وشحوب وجهه، كل ذلك جعلني مستعدة لتحطيم وجهها لا مناقشتها فقط.

- «خفض السامي ورفع الوضع، دفع أشخاص كالمعلمة رؤية للرحيل، ووضع أشخاص من أمثالك مكانها؛ لأن المعلمة رؤية تقول الحق، وتهتك النسيج الواهي الذي تستر الصفراوية به، أما أنت فتنتطقين بما يراود منك النطق به، ولا تهتمين إن كان ما تقولينه حقاً أم لا، أو لعلك لا تعرفين حتى! الصفراوية هي الفرصة الوحيدة للصفهاء كي يعتلوا مناصب مرموقة، وللغارغين كي يتصدّروا، الصفراوية ليست إلا كذبة اخترعتموها

وصدقتموها؛ لأنها تشفي علة في نفوسكم، وتسد ثقب النقص في أهوائكم المريضة، لكن حكمة الله تقتضي أن يؤدي أي سبيل ليس سبيله إلى الهلاك والبوار، وغداً حين يفرغ المن من امتصاص مزارعنا، ويتخلص حارقوا المحاصيل مما تبقى؛ سنرى كيف بوسع العينين أن تبعثا الخير لمجرد أن لونهما أصفر!

توقعت أن أجادلها، لكن لم تتوقع أن أنفجر في وجهها، ظلت تحرق في بعينين مصدومتين لثوان، وعمّ الصمت أرجاء القاعة، ثم انبعث صوت لم أتوقع صدوره بمثل تلك النبذة الهائلة:

- «أشخاص متحجرون، لستم إلا عشرة في طريق التقدم، وستدوسكم الصفراوية وتساوي بكم الطريق، هذا مصيركم، وهذه ليست إلا مسألة وقت!»

حان دوري لأنظر لأريج ابنة الحداد في دهشة، إن والدها غاية في الرقي والرزانة، وقد أخبرني أبي أنه من ضمن الناظرين للصفراوية باحتقار، أيعقل أن ابنته متعصبة للصفراوية إلى هذا الحد؟

- «أهذه ابنة الشيخ مدرار المهدبة المتعلمة؟ إن كانت هذه هي الطريقة التي علمك والدك التعامل بها مع معلمائك فإن مستقبل الأجيال التي تحت يده في خطر!»

بالطبع لم يكن بوسع أديم تشكيل عبارة كهذه، إنما كانت هذه شهوة، وأخيراً استعادت أديم النطق؛ فقالت:

- «أنت لست محترمة! سوف أطرّدك من هذه القاعة ولا أرغب في رؤيتك هنا مجدداً، هيا اخرجي!»

- «لا شيء سيفوتني بقرارك هذا، بل إنك تمنحيني فرصة للانتفاع

بشيء آخر بدلاً من إضاعة الوقت في سماع هرائك وتخاريفك، لكنك بالتأكيد تضيعين فرصة هاته الفتيات الغافلات في سماع تصحيح لمعلوماتك المغلوطة!»

سمعت ضحكة خافتة تند من مسرّة في الزاوية، لكنها أخفتها بسرعة في حين كنت أقطع القاعة بأقصى سرعة وأطرافي ترتجف غضباً.

- «غيم، ماذا تفعلين هناك؟ أنتِ ذاهبة لقاعة بعينها؟»

التفت إليها بعينين هائمتين وأخبرتها أنني لست ذاهبة لأي مكان.

- «لقد رحمتني أديم من درسها.»

- «تقصدين إن المعلمة أديم حرمتك من درسها؟»

- «بل عנית ما قلته بالحرف.»

أخذت المعلمة وقار تتأملني بحيرة، لم أكن صاحبة مشاكل في العادة، كما أنني أخذ الدروس بجدية وأحب عملية التعلم؛ لذلك كان من الغريب أن أتحدث عن معلمة بهذا الشكل، أو أهيم في طرقات الدار دون أن تكون لدي دروس أحضرها.

- «هل تساعديني في حمل هذه الكتب إلى المكتبة؟»

- «بالتأكيد.»

رفعت عدداً من الكتب وسرّني أنها كانت ثقيلة كفاية لتفريغ الفوران في داخلي، بقيت عدة كتب حملتها المعلمة وقار وهي تسير جوارى صامته في أول الأمر، ثم قالت بحذر:

- «ليست كالمعلمة رؤية بالضبط، لكنها معلمة أيضاً، وتستحق شيئاً من الاحترام.»

- «ليست كظفر المعلمة رؤية في شيء، وليس كل من لُقّب بالمعلم يكون كذلك، المعلم هو من يحمل علماً، ويوصله للغير، ويحرص على إفادة الناس وتأدية الأمانة، وأديم لا تحمل من هذه الصفات ذرة، ليس الكل يستحق الاحترام يا معلمتي، خاصة من يقلل من احترام نفسه بنفسه!»

لا زالت تتأملني بحيرة ودهشة، لم تتوقع -بالطبع- سماع كلمات كنتك مني، لكن فيما يخص تلك المدّعية تحديداً، لم أكن مستعدة لتزويق كلامي.

- «أولئك الصفراويون يتمادون كثيراً، وسيقودوننا إلى الهلاك ما لم نوقفهم عند حدهم!»

- «آها، إذن هذه هي المشكلة؟ ظننت الأمر أكبر من ذلك.»

أدهشني انشراح وجهها المفاجئ، كأنها كانت تتوقع مصيبة أكبر، قلت بحيرة وغضب مكبوت:

- «أوليس هذا موضوعاً يستحق الاستنكار والغضب؟»

- «ليس تماماً، ما هي إلا بدعة عارضة، ستأخذ وقتها ثم تختفي، ولا أراها تستحق التوقف عندها حتى، المعلمة رؤية صارمة جداً في أمور كهذه؛ لهذا تحدثت عن الأمر فأثارت أتباعهم المتعصبين فأجبرت على ترك التدريس، أما أنا فأظن أن حماقات الشباب شيء عابر ستكبر إن أخذناها بعين الاعتبار، وستندثر إن تغاضينا عنها.»

- «ليس إن كانت مخلوطة بوعود براقة وأحلام زائفة، إنها تقترب من أن تصبح عقيدة قائمة بذاتها، عقيدة قوامها الهوى والشهوات، الأخطاء التافهة

المجردة وحدها تحتفي دون تدخل، أما الأفكار من هذا النوع، فإنها أشبه بالنار التي لن تنطفئ ما لم نخمدتها بالماء، وإلا بقيت تستقطب المزيد من الجاهلين وتتغذى عليهم وتكبر بهم كحزم من الحطب!»

التزمت الصمت وشعرت برغبتها في التوقف عن الجدل، كانت تلك رغبتني أيضًا إذ لم أشأ أن أنشئ خلافًا معها؛ فهي معلمة وقورة ومحترمة وعالمة فعلاً، وإن كانت واقعة في خطأ كهذا -ولا عاقل يعارض كونه خطأ- فإن هذا لا يبرر تجاهل مقامها.

في المكتبة وجدت معلمتي رؤية جالسة تقرأ ويدها عدسة زجاجية صنعها (صافي) صانع الزجاج خصيصاً لها، وكانت تكبر لها الخط وتساعدتها على رؤية الكلمات دون أن تؤلمها عينها اللتان ضعفتا من كثرة القراءة، شرحت مشاهدتها صدري وعرفت الآن أين سأقضي وقتي الفارغ، رتبت الكتب في رفوفها المخصصة مع المعلمة وقار في حين كانت تتبادل أحاديث مقتضبة مع المعلمة رؤية، نظرت إلى انعكاسي على زجاج إحدى خزائن الأدوات فرأيت شعري المتنفش، فككت رباطه المنزلق وأعدت للممة ما تطاير منه. استأذنت المعلمة وقار وذهبت، من ثم سحبت مقعداً وجلست إلى الطاولة الكبيرة جوار معلمتي، كانت مستمرة في القراءة ظناً منها أنني سأذهب في أي لحظة، لم أرغب بمقاطعتها، فقط أردت البقاء في نفس المكان معها، لكنها تنبهت إلى أنني لن أرحل قريباً على ما يبدو، هكذا تركت العدسة في منتصف الكتاب وأغلقت الضفتين عليها، ونظرت إلي بود نظرة متسائلة تطالبني بقول ما أريد قوله، انطلق لساني فلم يصمت حتى حكيت لها كل شيء، بدأت بقصة الجدل الحامي مع أديم ثم انتقلت إلى قصة مزرعتنا وما حدث لها، وأنهيت الكلام بدموع لم أتمالكها تسيل على وجنتي وأنا أقول:

- «كنت من رأى المنّ لأول مرة، وكنت من حكى لأبي عنه ليحذر

الحاكم، وبقي الأمر يشغلني ويملاً تفكيري حتى غدا الهدف الأكبر لي أن أعرف من أين أتى ومن له مصلحة في إرساله، وبعد هذا كله.. كنت السبب في انتشاره، وأين؟ في مزرعتنا بالذات! لقد كنت أطالب الناس بشيء لم ألتزم أنا نفسي به!»

أخذت نفساً عميقاً وقالت برفق:

- «هوّني عليك يا ابنتي، لست مسؤولة عما حدث، بنفسك قلت إن الرؤية كان متعذرة ذلك اليوم، وأي شخص سيكون مكانك لن يعير الأمر اهتماماً، كما أنك لم تعرفي أن المنّ هو ما يؤثر على النباتات بهذا الشكل، وأن اصفرار الأوراق والتفاف الفروع دليل على امتصاص المنّ لجذور النبات. أنا واثقة أن أبائك تألم لفقدان تلك المزروعات، لكنه لا يلومك ولا يشعر بخيبة أمل تجاهك. ولو كنت راغبة في تدارك هذا الخطأ، وتعوّض ما تمت خسارته، ومنع حدوث خسارات أكبر؛ فإن عليك المضي قدماً فيما بدأت به، استمري في البحث عن مصدر المنّ، وحاولي توعية المخدوعين بكذبة الصفراوية وفضح نوايا مؤسسيها الخبيثة، والأهم من ذلك كله أن تتعلمي كيف تتماكين أعصابك، ولا تسمحين لأحد بإثارة غضبك؛ لأن صاحب الادعاء هو من عليه أن يكون متوتراً وعصياً لإخفاء كذبه، أما صاحب الحق فإن حجته واضحة وقوية وليس عليه إخفاء شيء أو الخوف من اقتضاح شيء، ضعي نصب عينيك دائماً حقيقة أنك من يقف في الأعلى ولو لوحدك، ولن يصبح الموضوع العالي واطئاً لمجرد أن الجميع يصفه بذلك!»

هززت رأسي بفهم وشعرت ببعض الضيق لكوني تركت أديم تجرّني إلى مستواها بارتفاع الصوت والغضب العاتي، وبهذا تمكنت من إظهاره بمظهر المتعصبة غير المنطقية، وجعلتني أبدو نائرة أمام النبات بينما احتفظت هي بهدوئها.

- «معلمتي، أنا أحمل شكًا تجاه شخص بعينه، عقلة المجنون تحديدًا، لكن أبي أخبرني أنه أكبر سنًا من أن يعرف أحد قصته؛ فهل لديك ما تنصحينني به؟»

فركت ذقنها مفكرة وقد أثار الشخص المشكوك به حيرتها، قالت بعد لحظات من التفكير:

- «عقلة المجنون؟ افتراض غريب، قد لا أؤيده لكنني لن أستبعده بشكل كامل، ماذا عن...؟ أجل، ماذا عن العجوز (صباية)؟ أظنها معمرة بما يكفي لتطلعك على ما تريد من معرفته.»

- «العجوز صباية؟ لكن.. أليست مخرّفة؟ يقول الجميع إنها فقدت الإدراك منذ زمن طويل!»

- «فقدت النظر فقط يا غيم، وضعف سمعها قليلًا، لكنها واعية بالكامل، كل ما هنالك أنها تحمل دائمًا الحقائق المخفية غير المنتشرة، والناس يكرهون الحقائق لأنها غالبًا تكون مرّة ومؤلمة؛ فيستبدلونها بقناعات مزيفة تتيح لهم العيش براحة بال، ويصدقونها حتى تحل محل الحقائق وتصبح الحقائق مجرد خرافات. المهم عندهم الراحة، ولو تحت سقف متهالك!»

كان كلامًا شبيهًا بكلام أبي، وإن كان هناك من أثق في كلامه ثقة عمياء -باستثناء أبي- فهي المعلمة رؤيّة، خاصة حين تتحدث مثل أبي! هكذا غادرتها عازمة على زيارة العجوز صباية، ودعوت أن أجد عندها ضالتي، وفي جزء مني، دعوت أن أكون مخطئة في شكّي بعقلة، ربما لأن ثبوت تورطه في شيء ما سيورط ساري معه بالتبعية.



- «يا فتاة، أحقًا تجادلت مع المعلمة أديم؟! الدار كلها تتحدث عن

القصة!

- «معلمة عليك أنت يا تبر، وأؤكد لك أنني مسرورة لانتشار القصة، ولا يقلقني إلا هواية أولئك المخادعين في تغيير الأحاديث وليها لصالحهم.»

- «على رسلك، أنا لا أحبها بأكثر مما تفعلين، لا تنسي أنها تجعل مني مثار استهزاء واحتقار أمام كل الفتيات، وتحاول دائماً إظهارني بمظهر الهمجية الحمقاء التي لا يمكنها إنجاز شيء.»

نفخت لإخراج غيظي وفكرت في أن تبر ليست الشخص المناسب لتفريغ هذا الغضب، حكيت لها باختصار ما جرى، وكانت ردة فعلها مذهشة بالنسبة لي.

- «أنت مجنونة بلا جدال، ما هذا الذي فعلته؟ تحدثت عن المنّ -الذي أمر الحاكم بكتان أمره- أمام الجميع، وأهنت الصفراوية علناً، الصفراوية التي ينتمي إليها كل شباب القرية تقريباً، ومعظم كبارها!»

- «لا أصدق أن تبر تلومني على خوض جدال!»

- «ولا أصدق أن من كانت تطالبني بالتعقل وتخبرني أن الصوت العالي لا يحل المشاكل، فعلت ما نهتني عنه!»

هدأت من نبرتها قليلاً وقالت وهي تضع يدها على كتفي برفق:

- «أتفهم أنها أغاظتك وتعمدت جعلك تنفجرين بتلك الطريقة، لكن كما قال لنا والدك، علينا العمل على إثبات هرائهم وهدم أفكارهم أمام أعينهم، بلا صراخ ولا ضوضاء، الصراخ للعاجزين والكسالى والكاذبين فقط يا غيم!»

أومأت موافقة حين رأيت مسرة تقترب منا، بدأت كلامها مباشرة:

- «لقد أعطيت الأمر أكبر من حجمه يا غيم، بالغتِ إلى حد ما، الموضوع ليس بهذه الخطورة في رأيي.»

- «لا يهم رأيك يا مسرة، كما لا يهم رأيي أو رأي أي أحد؛ فالواقع يسير رغمًا عن أنوفنا ودون استشارتنا، والصواب أن نرى الحقائق ونبني آراءنا على أساسها، وليس العكس!»

قالت بلطف محاولة التودد إلي وإشعاري أنها ليست ضدي:

- «لكن الصفراوية ليست بهذا السوء، أليس لون العينين هذا هو ما خلقنا الله عليه؟ أليس من الجائز أن نفرح بما اختاره الله لنا ونفتخر به؟» ثم نظرت لتبر واستدركت: «كما يحق لذوي الأعين الزرقاء الافتخار بلون أعينهم مثلنا تمامًا!»

- «طريقة فاشلة أخرى لتبرير منطق الصفراوية، وبرغم أنك تعرفين أن هذا ليس منطق الصفراوية فعلًا، إلا أنني سأرد على منطقك بقول إن الرضا بما خلقه الله شيء، والانتفاء إلى المظاهر الخارجية شيء مختلف تمامًا، لأن هذه كلها قشور، مجرد قشور يا مسرة.»

هزت رأسها في تقية وحيثنا، ابتعدت قليلًا حين وجدنا وادع يقترب منا، نظرت إليه مسرة مجفلة ثم سارعت بالابتعاد باضطراب استشعرنا منه أنها خشيت البقاء في مكان يتواجد فيه ذو العينين الزرقاوين، لم يبدُ على وادع أنه لاحظ أي شيء لأنه لا ينظر أصلًا إلى أي امرأة حين تصادفه.

(٥)

تجمعنا -نحن أهل القرية- عند حدود البحيرة من جهة الغابة، في حين اصطف المتسابقون عند ضفتها وقد فرّقت بين كل اثنين منهم مسافة كافية، وكالعادة توزّع المراقبون على أطراف البحيرة من عند نقطة البداية وحتى نهاية البحيرة التي لا نستطيع رؤيتها من موضعنا، كان على المتسابقين -مع إعلان الانطلاق- أن يقطعوا البحيرة سباحة حتى يصلوا إلى الوند المنصوب على الضفة الأخرى، وعلى الوند علّقت سلّة ارتصّت فيها عيدان خشبية رفيعة بأطوال تنازلية؛ وهكذا يكون على أول الواصلين أن ينتقي أطول عود من ثم يعود -حاملًا إياه- إلى نقطة البداية التي ستصبح نقطة نهاية، بحيث يتم تقليد المراكز استنادًا إلى طول كل عود يمسكه المتسابق.

كان ساري يقف بتبرّم وهو يرى عدم جدوى كل ما يحدث كالعادة، ووقف وادع وعلى وجهه تصميم شديد، وفي عينيه الزرقاوين عزم على الفوز لإثبات نفسه، وبينهما وقف أنور شاحب الوجه يبدو كما لو كان راغبًا في إنهاء كل ذلك سريعًا ليعود إلى أشغاله، وحوّلهم اصطف ما يقرب من عشرين شابًا. لكزنتي تبر وهي تقول بمرح:

- «توقعاتك؟»

- «لا أعرف حقًا، هناك الكثير من المرشحين، ماذا تظن يا أبي؟»

فلتها محاولة جعله يشاركنا المرح والحماس، وفي محاولة منه لإرضائي

رسم تعبيراً حماسياً شديد الافتعال على وجهه، وقال:

- «لست واثقاً، لكنه لن يكون أنور.»

تبادلت النظرات الحائرة مع تبر، وسألته عن السبب؛ فابتسم بغموض كعادته مؤخراً وطلب منا التركيز لأن السباق سيبدأ. في البداية كان أنور ووداع وقيس ونسر هم المتقدمين، وكان على قاسط أن يقطع مسافة لا بأس بها ليلحق بساري الذي يسبح على مهله بطريقة عبثية للغاية، لكن الترتيب تغير بعد ذلك؛ فتأخر أنور بشكل لافت وكأن قواه خارت فجأة، لكنني فهمت، إنه يعتمد الخسارة؛ فهو الحاكم الآن، وفوزه قد يثير بعض الضغائن أو يبذر الشائعات، لا أحد سيعتقد بصحة فوزه حتى لو رأوا ذلك بأعينهم، لقد كان ساري يتحدث عن الأمر قبل أن يصبح أنور حاكماً حتى! أما وادع فقد ضاعف من سرعته ليتقدم الباقي بمسافة جيدة، وبقي ساري في المنتصف، حيناً يسرع فيحس أنفاس الناظرين ونعتقد أنه لن يتوقف حتى يعود بالعود الأطول، عندها يتوقف فجأة بتعبير استمتاع على وجهه ويترك المتأخرين يسبقونه، كان يلهو بمعنى الكلمة. اتكأت مسرةً -التي لا أعلم من أين أتت- على كتفي وهي تقول بلهجة لا تقبل النقاش:

- «من الواضح أن وادع سيكون الفائز، لا أرى أحداً جديراً بمجاراته من بين كل هؤلاء.»

سمعت نحنحة صادرة عن شخص عرفت هويته دون أن أنظر خلفي لأراه، التفتت مسرةً ونظرت إلى شهوة بارتباك واستدركت:

- «ومن يدري؟ لربما فاز أحد الصفراوين في نهاية المطاف.»

- «إنهم فقط يدّخرون قوتهم للنهاية، هذا المسخ لن يقوى على الاستمرار على هذا النحو، وليس بوسع أزرق أن يهزم أصفر أبداً، وفي أي مجال كان!»

أمسكت بيد تبر لأنهاها عن الرد، كزت تبر على أسنانها بقوة وصرفت نظرها إلى المتسابقين الذين كانوا يغيبون عن أنظارنا الآن، ولم تبقَ من آثارهم إلا كتلة الشحم الخبيثة المدعّوة بقاسط. شعرت بشيء يصطدم بي، نظرت لأرى الفتى شهاب أخو أنور، بدا على عجلة من أمره وفي يده شيء ملفوف بخرقة خشنة، نظرت لي بعدوانية دون أن يعتذر وأراد أن يكمل مسيره، غير أنني أمسكت به وقلت بلطف ما استطعت:

- «إلى أين يا صغير؟»

- «اهتمي بشؤونك الخاصة.»

قالها وهو يتفلت مني دون أن ينظر إلي، وبلهجة شديدة الاحتقار، أثار حقني فتركته عازمة على تتبعه، هذا الولد يخفي مصيبة ما، لمحت الطريق الذي اختفى خلاله بين شجرتي صفصاف ضخمتين، هكذا انسللت من بين الجمهور المرتقب لعودة أول المتسابقين، بحذر أحاول تخمين المكان الذي ذهب إليه، وقد قدّر لي أن أركض خلف الأشياء الغامضة بدلاً من التمتع بمشاهدة السباق في كل مرة، مشيت بضع خطوات حين سمعت الصوتين المتهامين، أحدهما يعود لحلية زوجة الحاكم، والآخر لأنفة زوجة هتر التاجر، ألقىت نظرة بحذر وأنا أحمد الله -بصمت- على وجود فروع الصفصاف الكثيفة بإخفاء جيش كامل بينها؛ فرأيت شهاب واقفاً بين المرأتين، ناول أنفة اللقافة التي كانت بيده وأخبرها أنه أحضرها من عند فتياتها في الدكان كما أمرته، حلتها المرأة البدينة ونظرت إلى ما فيها، غير أن محتواها لم يكن ظاهراً لي، ثم أعادت تغطيتها وأمرته بإتمام الأمر، نظر الطفل لأمه فأومأت مشجعة؛ هكذا انصرف شهاب راكضاً نحو طرف البحيرة الثاني وهو يتلفت حوله، فاحترت أأراقبه أم أراقب المرأتين، قالت حلية:

- «اسمعيني جيداً، إذا ما تم الإمساك بولدي وهو ينفذ أوامر ابنك

الفاشل فلن أتردد في فضح كل ما يدور.»

- «تماسكي قليلاً يا امرأة، لمَ تشعرينني أننا نتآمر ضد أحد القامات؟»
مصمصت بشفتيها. «يا حسرة، ما هو إلا مسخ متطفل نحاول قرص أذنه
وإخباره ألا مكان له عندنا.»

الحديث يدور حول وادع، هذا مؤكد، كما أن حقيقة كونهم من سم
حصان وادع ووضع الأشواك في طريقه لا مراء فيها، وكان أبي محقاً مجدداً،
لكن ما الذي ينوون فعله؟ تقول إنها (قرصة أذن)؛ فهل لي أن أطمئن إلى
كونهم لن يؤذوه؟ ليس بوسعي أن أراهن على طيبة قلوبهم، يجب أن أتبع
شهاب وأمنعه من فعل ما سيفعله أيّا كان. تركت المكان وابتعدت -بحذر-
متجهة إلى طرف البحيرة، كنت أسير بمحاذاتها لكن نطاق الأشجار يخفيها
عن ناظري، ويخفيني عن أنظار المراقبين والمتسابقين عبرها، لم تكن المسافة
بالقصيرة، وخطر لي أن قطعها سباحة يستنفد مجهوداً لا بأس بحجمه،
فجأة خيل إلي سماع صوت ما، كان من الطبيعي أن تتحرك أوراق الأشجار
محدثه حفيفاً مطرداً، لكن صوت الحفيف ارتفع أكثر، وشعرت أنه يصدر
من مكان بعيد عني نوعاً، استمررت بالسير وإن استبد التوجس بي، حين
حدث ما أحال هذا التوجس إلى ذعر صريح: كانت صرخات عاتية تجمد
الدماء في العروق، ومن جديد ربط عقلي الصراخ الحالي بصراخ الجمهور
يوم اقتحمت مستطيل الكلب، لكن أين صراخ الجمهور الخائف من هذا
الصراخ الهمجي المرعب؟ أخذت أتلفت حولي كالمجنونة باحثة عن مصدر
الصوت، وقد خيل لي -في بادئ الأمر- أن هذا هو صوت زئير الأسود الذي
حدثنا الرجالون عنه؛ إذ كيف بوسع آدمي -مهما بلغ توحشه- أن يصدر
صوتاً بهذه القوة من حنجرته؟ أزحت غصناً واطئاً ونظرت وراءه؛ لأرى في
البعيد أولئك الوحوش الشريرين، لقد كان رجال قريتنا شجعاناً بحق حين

وقفوا في وجوههم كل تلك السنوات! كانوا بعيدين عن موضعي، لكن قرييين بشدة من موضع الوند الخاص بالسباق، والذي وقف جواره سائس الخيول -الذي كلف بالإشراف على سلة الأعواد- وقد كبله الرعب في مكانه، اختلطت الأصوات بعد ذلك وتنوعت بين تحذير المراقبين من الخطر الداهم إلى دعر المتسابقين -الذين كانوا في حال من التعب يصعب عليهم مقاومة أي شيء معها- إلى هتاف الأهالي الخائفين على أبنائهم، لكن أذنيّ ميّزت صرخة خاصة بين كل تلك الصرخات، صرخة طفل بالتحديد، تتبعت الصوت بحذر لأرى الصغير شهاب وقد تدلى نصفه السفلي في المياه، وكان متشبثاً بغصن صفصاف هزيل وهو يصرخ طالباً النجدة، هرعت لأمسك به، وفي اللحظة التي أمسكت يده فيها كان الغصن قد انكسر في يده الأخرى، هوى الصغير بسرعة وسحبني معه، وفي أثناء سقوطي، دفعت شهاب بكل قوتي ناحية غصون الصفصاف، خيل لي أنني رأيته يخرج من الماء متشبثاً بها قبل أن أصطدم بسطح البحيرة، نسيت أن أخبركم أنني لا أجيد السباحة! أهذا ما يسمى الغرق؟ تتخبط قدماي ويدي في الماء، وأحاول التقاط أنفاسي فلا ينفذ إلى جسدي إلا المزيد من المياه، أحاول أن أصرخ أو أستغيث، لكن الماء يستغل كل محاولة ليغرقني أكثر، أحاول تذكر كل النصائح التي سمعتها فتضيع جهودي هباء، وتبقى حقيقة مروعة تذهب بلبّي: أنا أغرق! مرت ثوان ظننتني أحضر خلاها، قبل أن أسمع صوتاً منخفضاً كأنه يصدر من أعماق عقلي، ولم أعرف حتى إن كان حقيقياً.

- «أمسكها يا شهاب، ساعدني، فقط اسحبها، هيا.»

كذا كان الصوت يقول، وبعد ثوان وجدت تحتني أرضاً، حقاً، لقد كدت أستسلم لحقيقة أن أمري انتهى، أخذت أسعل ماءً وأعب الهواء بغمي عباً، وحين هدأ روعي أخيراً أدركت ما حدث، لقد أنقذ أنور حياتي، وللمرة

الثانية، كان شهاب يرتجف جوارى، وكلانا غارق بالماء، نادى أنور على أحد المراقبين، أخذ منه حصانه، ثم قال بطريقة عملية:

- «هيا اركبا هذا الحصان، وانطلقا إلى ساحة القرية، الجميع هناك.»

بصعوبة وقفت وامتطيت الحصان، ساعد أنور شهاب على الركوب أمامي ثم ضرب مؤخرة الحصان وهو يأمرنا بأن نشبث، وخلال دقائق كنا في ساحة القرية، اندفعت حلية تعانق ابنها المبهوت في لوعة، وركض أبي وأمي وتبر نحوي، ترجلت من الحصان وارتيمت في حوض أبي، في حين كانت أمي ترسل عبارتها بسخاء، نزع أبي عباءته ولفني بها ليدفني، ثم اقتربت امرأة وسألتني عما حدث، لقد سمع الجميع صرخات مرعبة، وأمرهم المراقبون والرجال المسؤولون عن حماية القرية بالتراجع، لكنهم لم يفسروا أكثر. ابتلعت ريقى ونطقت بالحقيقة المرعبة، ذوو الأعين الزرقاء يهاجمونا من جديد! تناقل الجميع العبارة بسرعة حتى أنني سمعتها عشرات المرات في دقيقة واحدة، وبدأت الفوضى تنتشر، الصغار يبكون، والنساء يولولون، والباقون من الرجال يهتممون بغضب أو خوف، حين هتف أبي برصانة:

- «يكفي يا إخوة، ما هكذا تحل المشكلات، فقط لنهدأ ونذكر الله، وستمر المحنة بسلام إن شاء الله.»

عم الصمت المتوتر الأرجاء، وقبل أن يتكلم أحد أو يقترح شيئاً، انطلق صوت شهوة الرفيع:

- «ألا تلاحظين أنك موجودة دائماً حيث توجد المصائب؟ هل تحاولين إثارة اهتمام الجميع أم ماذا؟ ماذا وراءك بالضبط أيتها الخبيثة؟»

- «توخي الحذر وأنتِ تحدثين ابنتي.»

قاطعها أبي بصرامة مخيفة، هكذا امتنع وجهها إذ لم تتوقع، وتراجعت لتقر جوار أمها وأبيها وتكتفي بإرسال نظراتها الملتهبة نحونا. مر وقت لا بأس بطوله، والناس يتقلبون بين تجاهل أوامر رجال الحماية والذهاب لاستطلاع ما آلت إليه الأمور، أو العودة إلى بيوتهم حيث يمكن أن يجدوا حماية أكبر، أو حيث سيجدون أصحاب الأعين الزرقاء في انتظارهم، على حسب، أو يبقون مكانهم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، وقد غلب الخيار الأخير، وكان الجميع يتساءلون عن السبب الذي دفع ذوي الأعين الزرقاء لنكث عهدهم، والعودة إلى مهاجمتنا.

أخيراً عادوا، المتسابقون ورجال الحماية، بعضهم مصاب، وبعضهم مبلل بالكامل، وبعضهم في حال جيدة، لكن لم يبدُ عليهم ما يثير الجزع، الحالة العامة هي أن الكل بخير، اندفع الأهالي الجزعون يطمئنون إلى سلامة ذويهم، اقترب منا ساري فانقضت عليه أمه تعانقه، لحظتها فقط تنبعت إلى لون وجهها المزرق، لقد كان القلق يخنقها حرفياً. أخذت أتأمل الوضع حولي، لقد عاد الجميع، أنور وقيس والشيخ عامر وحتى سائس الخيول المرتجف.

- «لكن وادع لم يعد! أخي وادع!»

كذا صاحت تبر بذعر وهي تفقد الوجوه العائدة، دون كلمة امتطى العم جواد حصانه وانطلق يسابق الرياح، تلفت أنور حوله ثم حسم قراره، وانطلق بحصانه (الرمح) يتبع العم جواد. غطت خالتي حسناء وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء، ضمتها أمي وأخذت تهدئها، فيما كانت تبر تنفس بصوت مسموع وعيناها لا تفارقان الجهة التي ذهب أبوها منها، قالت أريج في شماته:

- «تلك هي طبيعة قومكم، خلف الوعود، والتهجم على الأبرياء،

لو أن أخاك سقط ميتاً في خضم تلك المعركة فسيكون هذا عادلاً للغاية،
وعندها سيخسر المهاجمون واحداً منهم ليس إلا!

في تلك اللحظة تحديداً، استحوذ صوت واحد على انتباه كل من كان متواجداً، صوت صفعة، انطلقت بتصميم وحرارة كأنها شهاب انزلق من السماء، ليسقط على وجه أريج. وكان صاحب تلك الصفعة شخصاً اعتادت يده على الدق، واللي، وحمل الأوزان الثقيلة، أي أن الصفعة كانت مضاعفة إلى مئة ضعف، صفعة من يد الحداد حصين، على وجه ابنته، أمام كل أهل القرية.

- «هذه الصفعة لن تمحو القذارة التي تلفظت بها، لكنها ستجعلك تفكرين ألف مرة قبل أن تهيني كرامتك وكرامة الآخرين بهذا الشكل في المرة القادمة. ولو سمعت عبارات ابنة تاجر السلاح تلك تتردد بين أفراد أسرنا مجدداً؛ فسيكون لي تصرف آخر. أقل ما في الأمر، خذي المعروف الذي قدمه ذلك الشاب لك ولأهلك في عين الاعتبار، حين كنا نقف هنا نثرثر ونرتجف، كان هو يتصدى للمهاجمين بصدرة، ليحمينا!»

ضمت زوجة الحداد ابنتها بفزع فيما كانت الأخيرة تضع يدها على وجهها متحسسة أثر الصفعة في ذهول، وفي عينيها دموع متحجرة، تبادلت شهوة النظرات مع أبويها، وللمرة الثانية لم يجرؤ والدها على فتح فمه للدفاع عنها، إنها ليست ابنة الشيخ مدرار في النهاية. أما تبر فقد انفجرت في البكاء بلا إنذار وارتمت على الأرض ترتجف وتنتحب، أسرع نحوها أنا ومسرّة وأخذنا نهدئها ونرجوها أن تكف عن البكاء، ولفتني أن وجه مسرّة كان شاحباً بشدة، وكانت مذعورة مثلنا وأكثر. قفز ساري على شهوة الطائر واقرب منا وهو يقول:

- «لا تبكي، سأعود به.»

ثم استدار ليلحق بالعم جواد وأنور، متجاهلاً احتجاجات أمه الصامته. بدأ أهل القرية يتفرقون، قليلون منهم فقط كلّفوا أنفسهم بطمأننة الخالة حسناء بكلمة أو كلمتين، أما الباقون فكانت أمنياتهم الصاخبة بموت وادع تحترق آذاننا وإن لم ينطقوا بها. لم يمر كثير وقت منذ رحيل ساري، حتى عاد الثلاثة .. ومعهم جسد مرتخ يشارك ساري حصانه الطائر، هبت تبر واقفة وانتفضت الخالة حسناء، وشُعرت بأظافر مسرّة تغوص في كتفي بترقب غامر. ترجل ساري عن حصانه بصمت وأنزل وادع بمعاونة أنور، كان لون وجه العم جواد غائباً، فيما تبادلت تبر وأمها النظرات المصدومة.

- «هل .. هل...؟»

كان سؤالاً متكاملاً أطلقته تبر، في حين انحنى أبي على الجسد يفحصه بلهفة، اعتصر رسغه عدة مرات، ووضع أذنه على صدره وأنصت بعمق شديد. وفي الوقت الذي كان أبي فيه يضغط براحتي يديه على صدر وادع؛ فنشعر أنه يحاول إعادة التنفس لنا كلنا لا له وحده - كنت أنا أثقب أنفة بعينيّ، تراجع خطوة مشدوهة من تركيزي الشديد عليها، في حين كنت مستعدة لحرقها حية، لقد كنت على صواب، هؤلاء الوضيعون لا يملكون ذرة مبادئ، ولا يبالون حتى لو قُتل إنسان بريء بسبب حسدهم وحقارتهم.

- «إنه .. إنه يسعل!»

كذا صاحت مسرّة إذ لم تبدّ قدرة على السيطرة على انفعالاتها، ومن أفواهنا جميعاً خرجت شهقات الارتياح وتمنّات تحمد الله على نجاته، أخيراً آن للباقيين حولنا -وأكثرهم فضوليون، لا مهتمّون- أن يفارقوا المكان وقد عرفوا تنمّة القصة، اندفعت الخالة حسناء تعانق ولدها وكذا العم جواد وتبر، اقترب قاسط منهم ومن وادع الذي فتح عينيه بالكاد، ولم يبدّ قادراً على إدراك ما حوله، ابتسم قاسط بنعومة كنعومة الأفاعي وقال:

- «سلامات، أرجو أن تكون قد تعلمت درسك، السباحة ليست لك!»
وأشار إلى عينيه في إشارة ذات مغزى، كاد يرحل حين نهضت تبر،
وصاحت باندفاع لم تشه محاولاتي الحثيثة:

- «لهجوم ذوي الأعين الزرقاء فائدة واحدة؛ وهي أن يخلصونا من
أمثالك يا عديم المروءة، غير أنني واثقة من أنهم لن يجدوك لو بحثوا عنك،
لأنك ستكون قد بللت سروالك خلف حجر ما!»

استدار قاسط بهدوء، برغم أن عينيه كانتا متأججتين بالشرر، شمل تبر
بنظرة وقحة من رأسها إلى قدميها، ثم ابتسم في ساحة مصطنعة وقال موجهاً
حديثه إلى العم جواد:

- «نحن لسنا مثل قومك يا بائع البذور والأعشاب؛ فنحن الصفراويون
نحترم النساء، ولا يمكن لرجل حقيقي منا أن يرد الإساءة بمثلها إن صدرت
من امرأة، حتى لو كانت تلك المرأة زرقاء العينين، وحتى لو تناولت ولم
تراع أي عرف أو تقليد.»
- «أيها ال...!»

قالتها تبر من بين أسنانها وكادت تنقض عليه فعلياً لو لم أثبتها أنا ومسرّة
بصعوبة، اتسعت الابتسامة الكريهة على وجه قاسط وابتعد متدحرجاً،
ولحقت به عائلته بعد مبادلتنا نفس الابتسامة. نظر العم جواد إلى ابنته وكاد
يتكلم، لولا أن قال أبي بسرعة:

- «لا تلمها، لقد استحق كل حرف نطق به، ولو لم تتكلم هي، كنت
لأتكلم أنا.»

- «ليس في هذا الوقت يا مدرار، وليس بهذه الكيفية، أنت تعرف ما

سيقال الآن!»

- «ما يقال يقال على أي حال يا عماء، وإن كنت تظن أن صمت ابتتك كان ليمنع ألسنتهم من الخوض في سيرتكم فاعذرنى على ما سأراك عليه ساعتها، هنيئاً لك بابتنة شجاعة كهذه.»

قالها ساري بلا مبالاة ودون أن ينتظر ردّاً، أمكنني -بعين الخيال- أن أرى توهّج خدّي تبر عبر الغطاء الذي يخفي وجهها، في حين انحنى ساري على وادع وهو يقول بنفس نبرة الصوت المترنة:

- «وأنت، هل أحببت الرقود على الأرض؟ هيا انفض!»

كأنها كانت كلمة السر، بدأ وادع فجأة يدرك من هو وما الذي يجري حوله، تشبّث أمه بذراعه في لوعة وسأله أبوه مراراً إن كان بخير، وإن كان يسمعنا ويرانا، في حين عادت دموع تبر للأنهار من جديد. هنا وجد أنور أن دوره انتهى، ودع ساري بحرارة وأثنى على أدائه في السباق، قال أبي باهتمام:

- «انتظر يا أنور، هل عرفت ما حدث؟ لم هاجمونا مجدداً؟»

ابتسم أنور في تحفظ وبدا غير راغب في قول أي شيء، رفع أبي حاجبيه باستنكار وتبادل نظرة ساخطة مع العم جواد، في حين امتطى أنور حصانه متجاهلاً إياهما وهو ينظر إلى وادع قائلاً:

- «حمداً لله على سلامتك.»

مر جوارى فأضاف وهو يحدق في ظهر حصانه:

- «وحمداً لله على سلامتك، وشكراً.»

لإنقاذ شهاب، هذا ما أراد قوله غالباً، ثم وكز حصانه وابتعد راکضاً.

خلال اليومين التاليين لم أغادر المنزل؛ إذ أن أمي لم تكن مستعدة للتنازل بتركي أخرج بعدما تغير صوتي بسبب آلام الحلق، وبعدها ارتفعت حرارتي ليلية كاملة، وكله بسبب ملابسي المبللة التي بقيت علي طوال يوم السباق، بالإضافة إلى أن أمي -أصلاً- تملكها حساً خاصاً من الأمراض، وبرغم أن حمّاي العادية لا تقارن بمرض جدتي وخالتي ودود، إلا أنها مرض بالنسبة لأمي وكفى. صحيح أنني لست -مثل تبر سابقاً- محبة للقاء الناس بشكل عام، وربما تقتصر علاقتي على إخوتي فقط ومن أضطر للتواصل معه عرضاً، إلا أن البقاء في الداخل لا يلائمني؛ إذ أنني مغرمة بالنظر للسماء، وبملامسة النسيم الرقيق لوجهي، وبرؤية الأفق يمتد أمامي فلا ينتهي إلا حيث ينتهي مجال إبصاري، دون أن يحده أي حد، لكنني انصعت لقرار أمي برغم ذلك، ورأيت أن المجهود الذي بذلته في الأيام السابقة يستأهل استراحة قصيرة، تعني بي أمي خلالها. وارتأيت أن أملاً هذين اليومين بالكتابة، وأن أبدأ بتنفيذ ما حدث معي خلال الفترة الماضية، وما أستنتجه من تلك الأحداث. دخلت أمي حجرتي حاملة كأساً من منقوع اليانسون بالعسل، علاج كل العلل بالنسبة إليها، بدءاً بالغضب الشديد وانتهاءً بالأسقام المستعصية كالذي تعاني منه خالتي ودود، وتعارضها خالتي في الاعتقاد فترى أن البابونج هو العلاج الأمثل. وضعت الكأس أمامي على المنضدة وهي تحثني على شربه؛ فاستحييت من إخبارها بأنني لا أريده، بل أريد كأساً من الشاي بالحليب! جلست على الفراش تتأملني محاولة استشفاف حالتي الصحية، حين دخل أبي بملابس الخروج وهو يتسم، قالت أمي:

- «أكان من الضروري أن تقدمي على كل تلك المخاطر؟ لم لا تهديني وتكتفين في مكانك بدلاً من التواثب في كل صوب؟»

فقهقهت بمرح وأنا أرشف من الكأس، قال أبي ضاحكاً:

- «تهدأ وهي ابنة الشيخ مدرار؟ بل إنني مسرور بما تفعله، وأحب سعيها الحثيث لكشف الحقيقة، ربما عليها فقط أن تتوخى الحذر في القادم، وألا تندفع بمفردها دون استشارة أحد.»

- «لم يكن أمامي وقت، لو ضيعت دقيقة واحدة كان شهاب ليختفي عن ناظري.»

هز رأسه بسماحة وابتسم، من الجميل أن أراه يستعيد حيويته مجدداً، ويتجاوز ما مضى لينطلق من جديد. سألت أمي بحيرة:

- «لكن، ما دمت رأيت كل ما دار بين حلية وأنفة، لم لم تتحدثي حين عادوا بجسد واحد؟»

- «كان قرارها حكيماً يا رؤوم؛ فلا تنسي أن تواجدها في أماكن الحوادث كل مرة يثير التساؤلات، وتلك الخبيثة ابنة هتر ستجيد اللعب على هذا الوتر، وبما أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم؛ فإنها كانت ستمطر غيم بوابل من التهم المشطة، حتى تصبح ذمتها موضع شك من أهل القرية.»

هزرت رأسي مؤيدة، فقالت أمي بابتسامة:

- «البت سر أبيها، كم أنتم متوافقان!»

ضحكنا بجذل، وقلت:

- «صديقني، لقد ورثت الصفات منكما بالتساوي، ويا سعد من يكون أبواه مدرار ورؤوم!»

من جديد عم الضحك، وكانت الغرفة تنضح بحميمية لذيدة أستشعرها فتجعلني راغبة في البكاء لسبب مبهم، طالبنى أبي بمرح بأن أستعيد صحتي سريعاً لأنه يحتاج إلي في إتمام عملية المزرعة إياها، وفي إعادة زراعة النباتات

التي انتزعناها. خرج أبي وتبعته أمي؛ هكذا خلا المجال للكتابة، رشفت رشفة أخرى وأمسكت بالريشة.

حين أخذ أبي من ساري تفاصيل إيجاده لوداع، قال ساري الآتي:

- «حين وصلت كان أنور والعم جواد يطوفان حول البحيرة، تحديداً في المواضع التي حدث فيها الاشتباك مع ذوي الأعين الزرقاء، وقد انحصر تفكيرهم على إمكانية أن يكون وادع قد أصيب خلال المعركة، وأعيته جراحه فلم يستطع العودة بمفرده. لكنني لم أتبنَّ وجهة نظرهما؛ إذ كانت تطن في أذنيّ كلمات قاسط وبقية الشباب التي وجهوها إلى وادع، عن أن أصحاب الأعين الزرقاء لا يمكن أن يكونوا سباحين بارعين، وفكرت في أنهم كانوا ليثبتوا كلامهم بأي وسيلة، الحق أنني خفت من فكرة أن يكون وادع غارقاً منذ ذلك الوقت، هكذا قفزت في الماء دون أن أفكر مرتين، ووجدت أنني كنت محقاً كالعادة، لقد عُقد الحبل -الذي ثبتت في آخره صخرة ضخمة- حول قدم وادع بطريقة محكمة جعلت من فكه مسألة تستغرق وقتاً لا بأس به، حتى بالنسبة إلي أنا السليم غير الجريح.»

أجل، كان وادع جريحاً، لكن المدة التي قضاها في الماء تكفلت بإيقاف النزيف، والجرح لم يكن بذلك العمق، لكنه أضعفه دون شك، ورغم ذلك كان وادع قوياً كفاية ليقاوم الغرق حتى قبل وصول ساري والآخرين بقليل، وربما لو كان غيره في موضعه لما صمد كل هذا الوقت. أخبرني قلبي أن أصحاب الأعين الزرقاء لم يكونوا المسؤولين عن جرح وادع، وعزز ظني فكرة أن وادع لم يخرج من الماء على الأرجح، وأن دقة الرماية ليست من مميزات القوم الزرق. تساءل أبي إن كان هناك شيء آخر لاحظته ساري؛ فقال الأخير:

- «كان الحبل عبارة عن فروع رفيعة من شجرة الصفصاف، مما يعني شيئين: الأول أن من لفّه حول قدم وادع كان راغبًا في إخفاء فعلته بجعل الأمر يبدو حادثًا عرضيًا؛ إذ سيقال بسهولة إن الغصن التف حول قدم وادع بالصدفة، وعجز الأخير عن حله لأنه لم يكن بارعًا بما يكفي ليركز على السباحة ويفك الحبل في الوقت نفسه، والثاني أن من دبّر هذه المكيدة هو نفسه المسؤول عن إصابة وادع؛ لأن كل ذي عينين يستطيع أن يرى مهارة وادع في السباحة، ويعرف أن هذا الحبل الواهي لن يكفي لعرقلته، إلا في حال كان مصابًا! باختصار: المسؤول عن تلك المكيدة شخص حقير بمعنى الكلمة!»

كان من النادر أن يطلق ساري كل هذا القدر من الكلمات من فمه مرة واحدة، لكن ما أصاب وادع قد أثر فيه بشدة وإن افعل الثبات والصلابة، وبرغم أن ما قاله ساري ليس جديدًا علي بالكامل، إلا أنني أتساءل -والحق معي- عن المسؤول عن لفّ الحبل حول قدم وادع، المنطق يقول إنه شهاب، لكن الواقع يحطم هذا المنطق بحدث واحد: لقد كان شهاب خائفًا من الغرق حين أنقذته! فما معنى ذلك؟ لقد كانت المهمة تتطلب سباحًا بارعًا بحق، يستطيع قطع كل هذه المسافة ليصل إلى مسار وادع في منتصف البحيرة، ويتمكن من حبس أنفاسه لمدة طويلة هي التي يستغرقها عقد الحبل بهذه الحبكة، وكل هذا دون أن يراه أو يشعر به أحد؛ فهل شهاب مؤهل لفعل كل هذا حقًا؟ ربما حين يفيق وادع من حُمّاه الضارية وتعود إليه حيويته، وحين أتمكن من مقابلته، ربما يستطيع ساعته توضح شيء أو شيئين.

وعلى ذكر السباق، لقد أعلن الشيخ عامر هوية الفائز في ساحة القرية في اليوم التالي، والذي كان -عكس توقعات الجميع- ساري بن حيّان، للمرة الثانية. قال الشيخ عامر إن سبب فوزه ليس كونه عاد بالعود الأطول، بل

لأنه عاد بالأعواد كلها، مع سلتها؛ فعندما كان السائس المسكين منشغلاً بترتيب الأعواد على سبيل تزجية الوقت ريثما يصل المتسابقون؛ باغته رجال الأعين الزرقاء، كاد أحدهم يهاجمه وأراد قتله أو ربما أسره، لكن ساري ظهر من أسفل الماء فجأة ليسحب السائس نحوه، معتمداً على شائعة تقول أن ذوي الأعين الزرقاء لا يعرفون عن السباحة إلا أقل القليل؛ بسبب بعد معظم قراهم عن مسطحات المياه. المهم أن ساري سبح -ومعه السائس- حتى وصل إلى الضفة الثانية، وهناك استقبلها أحد المراقبين، وساعد السائس على ركوب حصان -كما فعل أنور معي- ليعود به إلى ساحة القرية، الطريف في كل ذلك أن السائس لم يفلت السلة طوال تلك المدة، وأن العود الأكبر بالذات بقي عالماً فيها، مع عدة أعواد أخرى؛ مما يعني أن ساري قد أنقذ حياة شخصين يوم السباق، وفاز دون أن يطلب الفوز!

ترجع لي هذه القصة لقطعة أخرى مهمة، تلك اللحظة التي توقف فيها أنور عن السباحة الجادة بشكل مباغت، وترك كل المتسابقين يسبقونه حتى قاسط! لقد فسرت تصرفه حينها بأنه شاب شهيم يرفض الفوز لكونه الحاكم، لكنني أراه الآن -مجرة- تحت ظل آخر؛ فلو أخذنا في عين الاعتبار صمته الغامض الذي اختاره ليكون إجابة سؤال أبي، لخمناً -بشكل ما- أنه كان على علم بأمر هذا الهجوم، وأنه تأخر عن الباقيين عامداً كي لا يكون في المقدمة حين تحدث المعمعة!

ألقيت الريشة على الدفتر حين وصلت إلى هذه النقطة، وبقيت أحدى في ما كتبته بأنفاس مبهورة، أهذا معقول؟ أيمكن لأنور أن يكون بكل تلك الخسة والندالة فعلاً؟ لكن لأي مصلحة؟ لم لم يلغ السباق أو يؤجله وحسب؟ هناك طبقة كثيفة من الغموض تحيط بهذه القصة، وأعرف جيداً أنني لن أهدأ بالاً حتى أنتزع التفسير من جذوره!

زارتنا تبر عصر اليوم، وكنت لم أقابل أحدًا منذ يوم السباق، حتى عندما أتى ساري لرؤيتي اعتصمت في حجرتي وتظاهرت بالنوم ليرحل، لم أهنئه بالفوز حتى، لست مستعدة لمواجهة، ليس بعد، ربما بعدما أزور العجوز صبابه وأحصل منها على شيء ما، لا أدري ماهيته، ربما ساعتها أعود للتواصل مع ساري بشكل طبيعي.

لذا كنت مسرورة جدًا برؤية تبر، نزلت لاستقبالها فقابلتني بضحكة طويلة على منظر أنفي الأحمر، واستبدالي الميم بالباء، سألتها عن حال وادع فأخبرتني أنه في تحسن، لكنه يرفض البوح بأي شيء يخص الحادث.

- «يقول إنه لا يذكر، لكنه أخي ولن ينطلي ذلك علي، إنه يخفي شيئًا ولا أفهم السبب.»

أما أنا فأفهمه، وادع -صاحب القلب العطوف- لا يرغب في توريط الطفل شهاب! لكن أهم ما يشغلني هو أن أعرف هوية من جرحه، أيعقل أن يكون شهاب أيضًا؟ أم أن هناك شخصًا آخر يخشى وادع أن يبوح باسمه فيحدث صدامًا معه؟

- «الدار مظلمة من دونك يا غيم، متى تنوين العودة إليها؟»

- «لست واثقة، لكنني أقول -صادقة- أن حماسي لارتياها قد خبا كثيرًا، حتى بتّ أكذب على نفسي لأقنعها بأنني لا زلت أحبها!»

- «أظن أنني أفهمك، لم يعد الأمر محتملاً، والسبب الوحيد الذي يدفعني للحضور هو ألا أتركها لهم، أخبرني الشيخ مدرار أنهم يتعمدون إبعادنا من هناك لتخلو المساحة لهم، ويفعلوا ما يحلو لهم، لكنني لن أسمح بذلك، سأبقى جالسة فوق أكبادهم، ولو نغصوا مزاجي بكلامهم فسأنغص

مزاجهم ببقائي!»

ابتسمت وهزرت رأسي موافقة، كان كلاماً سليماً بالمجمل، ورأيت أن غاية كهذه تستحق ابتلاع كل المهازل التي تحدث لأجلها، تذكرت تبر شيئاً فنهضت لتعبث في جيبيها لثوان، ثم أخرجتها حاملة قماشة حريرية ملفوفة لم أتبين ماهيتها، مدّت يدها بها إلي وهي تقول:

- «تفضلي، لقد صنعتها بالكامل بنفسي، خصيصاً لأجلك.»

التقطت منها القماشة شاكرة وقد توهج خدّاي بخجل، فضضتها فوجدتها جراباً ناعماً له لون أبيض، وبخيط فضي طرز عليه اسم (غيم)، الحق أنه كان متقناً لحد أثار دهشتي، ضممتها بسرور وأنا أقول:

- «أي روعة! سلمت يدك يا أختاه، لم تخبريني أنك بارعة هكذا!»

ضحكت في خجل لإطرائي وأجابت:

- «لم أكن ماهرة في التطريز حتى وقت قريب، لكنني وجدت فيه متنفساً لتفريغ انزعاجي من شهوة وزنبق وأديم ومن معهن، ودون تفكير كنت أجدني أنغمس فيه طوال اليوم، حتى وصلت إلى هذه المرحلة!»

- «لو كنت مكانك كنت لأفتح دكاناً أبيع فيه مطرّزاتي هذه!»

- «ليس إلى هذا الحد!»

تشاركنا الضحك، وقالت تبر في فضول:

- «والآن أخبريني، ما الذي ستضعينه في هذا الجراب؟»

- «لا أعرف حقاً، لكن لا بد أن يكون شيئاً مميزاً ونفيساً؛ لكي يستحق

أن يوضع في هذه التحفة النادرة!»

- «كفي عن هذا، أنتِ تجرحين تواضعي!»

أت أمي حاملة كأسين من عصير الليمون بالنعناع، وصحنين من كعك القرفة، وضعتها أمامنا وألحت علينا لتناولها، ثم انصرفت لتنتهي من إعداد الغداء قبل عودة أبي، فهمست لتبر برجاء:

- «هل بوسعك أن تطلبي منها إطلاق سراحى؟ أريد أن أزور وادع، ولدي مخططات جمة علي تنفيذها، وقد أصبحت بخير، لا يمكنني البقاء هنا أكثر!»

ابتسمت بمكر وهي تقول:

- «أنتِ حبيسة في المنزل إذن، ما المقابل لإخراجك؟»

- «أي شيء تريدينه!»

أطرقت لثوان ثم أعلنت باستمتاع أنها ستقرر المقابل لاحقاً، وكنت واثقة أنها ستختار مقابلاً صعباً للتسلي، لكنني لا أمانع، نهضت ونهضت وراءها، استندت على باب المطبخ وهي تقول بلطف:

- «خالتي رؤوم، من فضلك، من فضلك، هل يمكن أن ترافقني غيم إلى منزلنا؟ وادع يريد رؤيتها بشدة.»

بدا على وجه أمي الامتعاض، لكنها لم تكن لترفض طلب تبر، هكذا وافقت على مضمض بشرط أن تنتهي من تناول الكعك والعصير أولاً، ابتسمت تبر بتباه وهي تعود معي للمجلس، وعندما حان وقت الخروج أوصتني أمي بارتداء أثقل الثياب؛ حتى لا يلفحني الهواء بنوبة أخرى من المرض.

- «كيف أصبحت الآن؟»

- «أنا بخير، الحمد لله.»

أخبرتني تبر أنه تحسن، لكنها عنت التحسن الجسدي، وما لم تخبرني به أن معنوياته كانت في أسفل سافلين، بدا محبطاً للغاية وكان يتسم بصعوبة، خرجت تبر لتحضر لي ما أشربه برغم أننا انتهينا من شرب العصير قبل مدة وجيزة في منزلنا، لكنني فهمت أنها أرادت تركي أنفرد بوادع، لعله يخبرني بشيء لم يرد إثارة قلق أسرته به.

- «شهاب، صح؟»

نظر إلي بدهشة وبدا عليه الارتباك، وضعت يدي على يده برفق، وحكيت له مختصراً - غير شامل - لما حصل، وطمأنته لكوني أعرف ما حدث له تقريباً، لكنني أريد الاستيضاح منه عن نقاط بعينها.

- «هل رأيت شهاب يسبح تجاهك؟ هل أنت واثق بأنه من فعل ذلك بنفسه؟ أعني.. هل كان الصبي ماهراً في السباحة لهذا الحد؟»

أطرق لثوان وأدركت أنه يزن الأمر في رأسه ويتساءل إن كان بوسعه التحدث، أخيراً حسم قراره وقال:

- «حسناً، لقد اقترب مني شهاب، وكاد يفعل ما أتى لفعله، الحق أنه كان بارعاً في السباحة بما يفوق عمره بكثير، لكن ليس إلى حد تحمل وزن الحجر الثقيل كل هذه المسافة، لا أصدق مقدار انعدام الإنسانية فيمن أرسله لفعل شيء بهذه الصعوبة.»

أجل، كان مشفقاً على شهاب من ثقل الحجر الذي كان يحمله لقتله به!
- «حين بدأت المعركة لمحته يصارع للبقاء على السطح، أسرعت نحوه

لأنقذه، وحين وصلت إليه رأيت ما كان في يده، وفهمت ما كان يرمي إليه، أمسكته وسبحت به نحو الضفة، كنا قد وصلنا تقريباً حين شعرت بنصل حاد يخترق ظهري، هنا، قريباً من الكتف. وأشار إلى المنطقة المضّمة من جسده. «أجبرت على إفلات الصغير وانتزعت السهم بصعوبة، بدأت الرؤية تتشوّش في عينيّ حين شعرت بشيء يحتك بقدمي، الحق أنني لم أملك صفاء التفكير الكافي لأدرك ما كان يحدث، من رحمة الله بي أن علقت بأغصان متشابكة كانت قد تدلت في المياه، بقيت بينها لمدة لم أقدرها، وحين بدأت بالكاد- أعني ما حولي حاولت الخروج؛ ففطنت أخيراً إلى ذلك الشيء الذي يسحبني بقوة للأسفل، حبست أنفاسي بمعجزة وغصت لأحاول تخليص قدمي من الحبل، لكن قواي خارت فجأة، ولم أشعر بشيء حتى وجدتني أفيق بين يدي عمي مدرار.»

أي أنه كان قريباً مني حين حاولت إنقاذ شهاب، شهاب الذي يجيد السباحة! المسكين كان يتألم ويتأرجح في فقدان الوعي جوارياً تماماً، ولم أشعر به!

- «لماذا لم تتحدث؟ لم لم تخبر أحداً بما حصل؟»

- «لم أرد أن أسبب مشكلة للصغير، يكفي ما يلاقيه من أقرانه، لا أحب أن أكون سبباً لحزن أحد، حتى لو كان يحاول إيذاي!»

كما توقعت! أغمضت عينيّ بتأثر حاولت إخفاءه؛ لأن وادع لا يجب رؤية نظرات الشفقة تجاهه من أيّ كان، ولعله أخفى القصة عن أهله لهذا السبب بالتحديد.

- «ومن الذي رماك بالسهم وربط الحبل؟ ألا تملك تصوّراً محدداً، أو تذكر من كان قريباً منك في تلك اللحظة؟»

- «كما أخبرتك، لقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها في المكان كله، وبالكاد كنت أركز على عدم إفلات الصبي، كنت لأجزم بأن قاسط هو من فعلها، يقولون إن الشيء الوحيد الذي يجيد عمله هو الرماية، لكنه كان بعيداً بما يكفي، وكان يحتفظ بتوازنه في الماء بالكاد؛ لذا.. لا أعرف، صدقاً.»

عمّ الصمت الواجم لبعض الوقت، ثم قال وادع بإحباط:

- «أتعلمين يا غيم؟ أظن أن هذا يكفي، لا فرصة للأزرق بين الصفر، أرى أنني كنت واهماً حين ظننت بمقدرتي على مضاهاتهم، لكنني أدركت الآن خطئي، والأوان لم يفت بعد.»

- «يا أرحم الراحمين! ماذا فعلت كي أبتلى بأخوين يزعجانني كل صباح برغبتهما في الانسحاب؟»

- «أنا جاد هذه المرة، لقد أثبتوا ضعفي بالدليل القاطع، وعندما أعود للسير في الطرقات سيكون علي تحمل كل تلك اللزمات والهمسات التي تذكّرني بما حدث، لقد قالوا إن ذا العينين الزرقاوين لا يستطيع المنافسة، وكانوا محقين!»

- «من الطريف أن أراك تنكر ما أثبتوه هم أنفسهم، وتنفي جدارتك في حين أنهم مؤمنون بها بكل كياناتهم الوضيعة.»

قطب حاجبيه مستفهماً، فقلت ببساطة:

- «لو لم يكونوا واثقين من كونك بطلاً لا يشق له غبار، ومن أن منافستك حلم أبعد من الوصول إليه، ما كانوا ليلجئوا إلى تلك الطرق الملتوية لعرقلتك، إنهم -بهذا الذي فعلوه- قد قدموا اعترافهم الصريح بعجزهم عن مجاراتك معتمدين على الجهد الشريف وحده!»

- «كلامك.. جميل، شكرًا».

قالها وهو يتسم في شيء من الارتياح، لقد كان بحاجة إلى تعزيز ليس أكثر، كان -المسكين- قد بدأ يشك في كون الخطأ خطأه!

- «شيء آخر، لا أريد أن يؤخذ على محمل خاطئ؛ لأنني لست واثقًا فعلاً مما سأقوله، ولا أقصد به شيئاً بعينه».

- «ما الأمر يا وادع؟ لم كل هذا التمهيد؟»

- «أنور، أذكر -بشكل ضبابي- أنه كان قريبًا من المكان الذي سحبت شهاب إليه، وخيل إلي أنه توقف عند هذا الحد ولم يستمر في السباحة معنا، لا أعرف ما الذي قد يعنيه هذا لكن...»

وقطع كلامه مع هزة كتف -كتفه السليم- تفيد الحيرة، أضاف بعد لحظة تردد:

- «ساري أيضًا...»

- «ساري كان هناك؟»

- «بل لاحظ ما لاحظته، هو لم يقل ذلك بالصريح، لكنني شعرت بأنه يفكر في شيء ما بالنسبة لأنور، حين أتى ذكره في حديثنا صباح اليوم بدا.. بدا واجمًا إلى حد ما، وشاردًا، ولمحته أكثر من مرة يكاد ينطق بشيء ثم يتراجع في اللحظة الأخيرة.»

هزرت رأسي وشردت بدوري، وأكثر ما أتوق إليه هو العودة إلى دفتري الآن لأفرغ كل ما سمعته على الورق، وأفنده وأحلله بتركيز.

- «لم تسأليني عن الطريقة التي اقتنع بها ساري بالمنافسة.»

قالتها تبر وهي تدخل -دون تنبيه- حاملة كؤوسًا من الشاي بالحبق.

- «أخبريني إذن.»

- «لقد حكى لي وادع عن أمره، فمنحته نصيحة ناجعة، ككل نصائحي في الحقيقة!»

ثم جلست وأمالت رأسها جهتي لتشعري بالخطورة، وهي تتابع:

- «أشرت عليه بطلب مساعدة أنور، لقد لاحظت مقدار الألفة بينهما حين كان أنور يهنته بفوزه في سباق الخيل، وكنت أعرف من وادع أنه أصبح يمتنع عن الذهاب لدار المنارة بعدما توقف أنور عن الذهاب؛ هكذا استنتجت أنه لو كان بوسع أحد أن يقنع ساري بعمل شيء لا يريد عمله -بعدك- فسيكون أنور، وقد كان!»

كانت تتحدث بفخر شديد كأنها اكتشفت سرًا من أسرار الكون، بينما كنت أضيف نقطة جديدة إلى ما سأكتبه في دفثري، أنور هو من أقنع ساري بالمشاركة، هل يفترض بهذا أن يعني شيئًا ما؟ كلا على الأرجح، لكن لا ضير من التفكير في الأمر بشكل أعمق.

سألت إحدى النساء على أطراف السوق عن كيفية الوصول إلى منزل العجوز صباية؛ فظرت إلي باستنكار كأني أسأل عن شيء محرّم، ثم هزت كتفيها وأشاحت بوجهها وهي تتمم بشيء ما حول الفتاة التي لن ترتاح قبل أن تقلب القرية رأسًا على عقب، ظننتها تجاهلتنى وكدت أنصرف لولا أن رفعت يدها بكراهية لتشير إلى جهة بعينها، شكرتها وسرت إلى حيث أشارت، كانت الطريق المؤدية إلى حدود القرية، من الناحية التالية للبحيرة، كانت منطقة شبه مهجورة ولا يزورها إلا بعض الشباب صغير السن أحيانًا في محاولات يائسة لاصطياد أرنب أو ما شابه، غير أنني توقعت أن تكون

قاطنة في مكان هكذا؛ لأنها شبه مجهولة، ولا أحد يسمع عنها شيئاً، أعتقد أنها لو ماتت في أي لحظة فإن أحداً لن يعرف قبل مرور بضعة أسابيع. شعرت بصلصلة حصان قريبة مني، التفت بتوجس لأرى ساري يتبعني ممطياً حصانه، وكان يرمقني في حيرة كأنه يحاول التأكد من كوني أنا فعلاً.

- «غيم؟ كيف وصلت إلى هنا؟ هل أثرت الحمى على عقلك فأصبحت تمشين دون إرادة منك؟»

- «أنا واعية تماماً لما أفعله يا ساري، شكراً لاهتمامك.»

فلتها بجفاء وأعطيته ظهري لأتابع سيرتي، أسرع حصانه الطائر الخطي قليلاً ليحاذيني، بقي ساري صامتاً لكنه لم يكف عن اتّباعي، نظرت له بانزعاج وأنا أقول:

- «هل تريد شيئاً بعينه؟»

- «ألم تكوني متعبة صباح اليوم لحد جعلك تغلقين باب حجرتك في وجهي؟»

- «وتحسنت الآن، ما المشكلة؟»

- «إلى أين تذهبين؟»

توقفت عند هذا الحد، نظرت إليه بغضب شديد وقلت:

- «ليس عليك أن تحشر أنفك في ما أفعله، من الأفضل أن تعود وتهتم بشؤونك الخاصة!»

استعملت نفس العبارة التي وجهها الصغير إلي، من الواضح أنها أزعجتني بأكثر مما ظننت، بدا على ساري القليل من الدهشة لطريقتي في التحدث إليه، اعتاد أن أكلمه جيداً وأثرثر معه وأسحب الكلام منه حتى

حين أكون غاضبة، لكن كل هذا الجفاء والتجاهل والنفور يحيرُه، أخيراً هز كتفيه وأعلن أن «كما تشائين»، ثم شد لجام حصانه واستدار، قال وهو يسير:

- «احذري، لربما ظهرت هرة من مكان ما وأكلتك.»

ثم ابتعد وهو يطلق -بسماجة- صوتاً شبيهاً بالمواء، لو كانت تبر هنا لانفجرت ضاحكة، لا أفهم كيف تروق لها دعاباته الثقيلة هذه، أما أنا فقد اغتظت مرتين، الأولى لدعابته السمجة، والثانية لأنه لم يعر غضبي أي اهتمام، ولم يبد ما ينم عن رغبته في معرفة السبب. جرفت تيارات الأفكار عقلي حتى غفلت عما حولي لبعض الوقت، وحين أفقت وجدتني في مكان منقطع تماماً، لا زروع، لا أشجار، لا أصوات، لا شيء سوى نسمة هواء لو لم أكن أتنفس لقلت إنها غير موجودة، الحق أن الرعب بدأ يدب في نفسي، نظرت إلى الطريق الذي أتيت منه فرأيت -بشيء من الصعوبة- ما ينم عن وجود قرية قريبة، لا أعرف إن كان هذا المكان -اسماً- داخل نطاق قريتنا، لكنه عملياً ليس كذلك بالتأكيد، أيعقل أن حياً يعيش هنا؟ أم أن امرأة السوق إياها ضللتني، أو ظنت أنني أسأها غير جادة فأجابت بغير جدية هي الأخرى؟ وبدأ جزء في داخلي يلومني على صرف ساري وتركه يذهب، على الأقل كان بوسعه أن يؤنسني في هذا الطريق المخيف، لكن طبيعتي العنيدة تجاهلت نداء ذلك الجزء الضعيف بشمم، وقررت أنني قادرة على اجتياز هذا الطريق بمفردتي، أنا غيم ابنة الشيخ مدرار! هكذا رفعت رأسي في جراءة مصطنعة وتابعت السير وأنا أنظر لكل ما حولي في حذر؛ إذ يمكن -ببساطة- أن أحميد عن هذا الطريق فأجد نفسي داخل منطقة الجبال، أو في طريق السفر العامر بقطاع الطرق، رباه، كم أنا بارعة في إفزاع نفسي! بدأ جسدي يرتجف حين...

- «مذهل، توغلت لمسافة طويلة في وقت قياسي!»

وثبت في الهواء، طرت حرفياً، وحين عدت إلى الأرض كان قلبي يدق في

قدمي، أطلق ساري ضحكة عالية وقال:

- «واعية جداً، تذهلني درجة الوعي التي وصلت إليها!»

احمرّ وجهي في حرج، وقلت مغلفة هذا الحرج بالغضب:

- «إن كانت فكرتك عن التسلية هي أن تفزعني في مكان كهذا فإنني أتساءل بجدية عن مدى فعالية عقلك!»

- «اهدئي، أنا لم أقصد إخافتك، صدقيني، لقد كنت خائفة لوحدي، ومن دون أي تدخل مني!»

- «لم عدت بالأساس؟ ألم أطلب منك أن تتركني وشأني؟»

كنت أقولها بنبرة غاضبة، لكنني كنت أشعر بالاطمئنان في الحقيقة، قال وهو يمد يده نحوي:

- «هيا أيتها المخبولة، لن أتركك تكملين السير هكذا وأنت لم تتعافي بعد.»

- «لكنني.. أنا لا أريد العودة.»

- «سأوصلك إلى حيث تريدن، برغم أنني لا أستطيع تخمين ما قد تريدن من منطقة الجبال تحديداً.»

- «م.. منطقة الجبال؟»

شملني بنظرة باردة ورفع أحد حاجبيه وهو يقول:

- «ظننتك تعرفين إلى أين أنت ذاهبة.»

تنحنحت وحاولت استعادة رباطة جأشي، تشبث بيده الممدودة وركبت خلفه، قلت بنبرة أردتها واثقة لكنها خرجت مترددة:

- «منزل العجوز صباية، قيل لي إنه في هذا الاتجاه.»

- «أوه أوه، وما الذي تريدينه من...»

- «لا أسئلة.»

قاطعته باقتضاب وصرامة؛ فابتسم باستمتاع أغاظني من جديد، لم لا يأخذ كلامي على محمل الجد؟ قال وهو يسحب لجام حصانه:

- «تمسكي إذن أيتها الصغيرة؛ فالطائر حين يركض، يركض!»

خطأ، الطائر يطير، بديهاً، لقد قطع مسافة غير معقولة في وقت غاية في القصر، لا أفهم كيف لا يستغل ساري جودة هذا الحصان ويشارك في السباقات بحماس؟ لو كان هذا الحصان لي ما كنت لأنزل عن صهوته! بارك الله له فيه. أبطأ ساري السرعة عند لحظة بعينها، حيث تبدت بين الصخور والأراضي الجافة طريق متشعبة، لها مساران، أجاب ساري سؤالاً لم أطرحه:

- «الأيمن يقود إلى طريق السفر، ستقابلنا -بعد قطع مسافة لا بأس بها- قرية الربوة حيث تعيش ابنة الحاكم، ثم بقية القرى، أما الأيسر فإنه يقودنا إلى قلب منطقة الجبال، حيث نشأت أسطورة اليتيمة صدى وحيث لا يستطيع أحد أن يجزم بما قد نراه، وكل هذه المساحة - منذ الموضع الذي صحبتك منه- تدخل ضمن ما يسمى بـ(منطقة الجبال).»

- «ومن أين نذهب إلى...»

- «إنها تعيش على أول المسار الأيسر، انظري.»

أوقف حصانه وأشار إلى منزل متهاالك، لقد وصلنا إلى وجهتنا، قفز ساري عن حصانه برشاقة وساعدني على النزول، سرت خطوتين تجاه البيت ثم نظرت له متسائلة حيث بقي واقفاً مكانه.

- «سأنتظرك، خذي وقتك.»

ابتلعت ريقى وتظاهرت بالتماسك، كان من السهل أن يدرك عدم رغبتى في مشاركته ما أتيت لأجله، لكننى لم أرغب في مفارقتة برغم ذلك، وفي الوقت نفسه يصعب أن أطلبه بالمجيء معي بعد كل التمتع والتعالي اللذين أبديتهما. تابعت السير نحو البيت في ثبات ظاهري، ولم أسمح لنفسى بالالتفات للتأكد من بقاء ساري، أنا واثقة من أنه سيبقى، وبرغم كل شيء أشعر بالامتنان الشديد له. لم يكن الوصول إلى المنزل صعباً، لكن الخوف جعلني أختلق ألف وحش ووحش أثناء سيرى، وحين وصلت إلى الباب المتخلع أخيراً، حسناً، لم أتصور أن يتطلب طرق باب كل هذا المجهود العاتي مني.

- «ريشة، أهذا أنت؟»

صوت عجوز جداً، جداً! صوت يستند على عكاز ويتنفس بالكاد لو كان بوسعي استعمال هذه التمثيلات، تنحنحت وقلت في كياسة محاولة منع صوتي من الارتجاف:

- «مرحباً يا خالة، اسمي غيم، وأتيت لـ...»

فتح الباب قبل أن أتم كلامي، وامتدت اليد المتغضنة تتحسس وجهي في فضول، تركتها تفعل بينما تتمتم بسخط:

- «لكن لحظة، أنت لست ريشة!»

تذكرت ما قالته لي المعلمة رؤية عن ضعف سمعها؛ فرفعت صوتي وضغطت على حروفي وأنا أقول:

- «كلا يا خالة، أنا لست ريشة، أنا فتاة، واسمي غيم، وقد أتيت

لأسألك عن بضعة أمور.»

- «غي.. ماذا؟ أين ريشة؟»

سأوفر عليكم العناء، الحق أن مهمة توضيح سبب مجيء إنسان أيًا كان لزيارتها في هذه البقعة النائية كانت شاقة وعسيرة لأبعد حد؛ فكيف بها وهي على هذا الحال من ضعف السمع، والإصرار على أنني (ريشة)؟! تفهمت -بعد لأي- حقيقة أنني أتيت للتحدث إليها، وأفسحت لي المجال لأدخل، نظرت إلى حيث كان ساري واقفًا فوجدته كما هو، كظل مبهم من هنا، لكن يجيل إلي أنه لم يبدل وقفته حتى. دخلت مع العجوز إلى منزلها، ولو لم أر حالة المنزل لما كنت لأتفهم سبب دعوتي للدخول بهذه الحماسة ودون قلق برغم أنها لا تعرفني؛ فالمرأة -ببساطة- لا تخاف من شيء، من عساه يريد أذيتها؟ ليس لديها ما يغري بالسرقة، وليست مزعجة لأي كائن حتى يحاول قتلها أو إيذاءها، الحق أنها كانت معدمة ماديًا وجسديًا إلى حد يجعل الخوف يبارح قلبها إلى غير رجعة.

- «عذرًا يا صبية؛ فأنا لن أتمكن من أداء حقك في الضيافة.»

- «لا بأس، أنا...»

- «فريشة لم يحضر الطلبات التي أمرته بإحضارها من السوق.»

- «لقد أتيت فقط ل...»

- «لكن بوسعك أن تنهضي وتتفقدي المطبخ، إن وجدت شيئًا هناك

فضعي لك ولي منه.»

- «يا خالة، أنا لم آت لتناول شيء عندك، أكرمك الله، فقط أتيت

لأسألك عن بعض الأشياء التي لا يعرف إجابتها غيرك!»

فلتها صارخة بالمعنى الحرفي، عندها فقط بدا عليها أنها سمعتني، ومن الآن فصاعدًا سأذكر مستخلص الحوار دون أن أتطرق لكل تفاصيل التواصل المتعثر بيننا.

- «لم تعيشين هنا بمفردكِ يا خالتي؟ ربما لو اقتربت من القرية أكثر لكان بوسعنا أن ندوم على زيارتكِ ومعرفة أخباركِ..»

أجابت بأشمزاز شديد كأنني أحدثها عن حساء فئران:

- «وما حاجتي إلى البقاء وسط تلك المجموعة من المنافقين والمدّعين؟ أنا هنا أنعم بالهدوء والراحة، ومتطلباتي القليلة يتكفل ريشة بإحضارها كل أسبوع، لدي كل ما أريده، أذكر الله وأعبده في سكينته، وأنتظر أن يأتي اليوم الذي أنتقل فيه إلى الرفيق الأعلى، وأترك كل هذا الهراء خلفي.»

كانت محقة، بعد كل شيء، البقاء في القرية ليس مغريًا لهذا الحد، خاصة في ظل المستجدات الأخيرة. برغم أنني لم أعرف من يكون ريشة هذا، إلا أنني أظهرت موافقتي الحارة لما قالته.

- «ثم إن (ناسي) كلهم قد رحلوا، كل من يقطن تلك القرية الآن هو غريب عني، وقد كبرت على التعرف على الغرباء يا ابنتي!»

التقطت طرف الخيط.

- «ماذا عن عقلة يا خالة؟ إنه لا يزال موجودًا.»

- «من؟ أتعنين ما تقولينه؟ أهو حي؟ ذلك الخبيث لا يزال على قيد الحياة؟ لم على الوضيعين أن يعيشوا لعمر أطول، بينما يموت الطيبون أمثال صادق وبشيرة...»

- «عقلة، عقلة يا خالتي، كيف له أن يكون خبيثًا؟!»

- «قلت عقله؟ لقد سمعت! عقله المجنون، أنا أعرف تمامًا ما تتحدثين عنه يا بنت، لا تتوهمي أنني فقدت عقلي!»

- «ليكن، حدثيني عنه إذن يا خالتي لو سمحت، أريد أن أعرف كيف جنّ، وما حل بعائلته الحقيقية، و.. وكل ما تعرفينه عنه!»

- «آه يا ابنتي، لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة طلب فيها أحدهم سماع قصة عن الماضي مني، منذ... منذ رحل ولدي برفقة صغيره الجميلين، لقد غادر إلى بلاد ذوي الأعين الحمراء، كم مرّ من حينها؟ هاه؟»

بعد استرجاع الماضي والتعبير عن الحنين إليه، وإجراء حسابات اعتباطية عن المدة التي مرت منذ غادر ابنها -قاسي القلب- وتركها هنا بمفردها ليعتني ريشة بها، انتقلت أخيرًا للحديث عن عقله؛ فأخبرتني بالآتي:

لقد عاشا -هي وعقله- طفولتهما في زمن ما بعد الحرب، أي حرب؟ لقد قامت واحدة في ذلك الزمن، واستغرقت سنوات طوَالاً حتى هدأت ثورة الأطراف المتحاربة وصلح حالها، من ثم استغرقت سنوات أطول للملمة ما تبعر وإصلاح ما فسد وتشيد ما هدم، أيًا كان طول مدة الحرب ستبقى مدة إزالة آثارها أطول. المهم أن طفولتهما -كما قلت- كانت في زمن الإصلاح هذا، وكان الحاكم (جسّار) حاكم القرية الصفراء -التي كانت مكوّنة من قرية المروج وقرية الربوة مع بعض القرى الصغرى المجاورة متحدة- رجلاً قوي الشكيمة، رابط الجأش، كان مهيبًا وحكيماً ولماحًا في الوقت نفسه، من نوع الرجال الذين يعرفون متى يتكلمون أو يصمتون، ومتى تنتهي مرحلة الكلام أو الصمت لتبدأ مرحلة الفعل، كان حاكمًا فذاً باختصار، ولأنه كان كذلك؛ فقد تمكن -بحذقه العالي- من إخفاء السر بمهارة، سر الخلود الذي قامت الحرب لأجله، وانتهت أيضًا لأجله.

- «سر الخلود؟ وما هو سر الخلود؟!»

ولم سمي سرًا إذن؟ لقد توصل الحاكم (رشيد) -جد الحاكم جَسَّار- بمعونة من كبير علماء غارسي الفسائل من التوصل إلى السر الأكبر، الذي ظل يؤرق حكام الأمم وقاداتها عصورًا، والذي أريقَت دماء خلق كثيرين من أجل معرفته. منذ متى زُرعت أُمْنِيَّة الخلود في نفوس البشر؟ ومن يدري؟ لا بد أن هذا حدث منذ وقت طويل جدًّا، الفكرة مغرية ولا جدال، أن يعيش المرء طويلًا، لأزمان وأزمان، أن يقهر الموت والفناء، أن تتقدم العصور، وتتقدم الحضارات، وترتقي أمم وتندثر آخر، كل هذا وهو واقف على قدميه، يتأمل ويقارن ويعتبر، مع وثوقه أشد الثقة أنه سيتجاوز كل هذا، وأنه سيجد وقتًا لتطبيق ما تعلمه! ماذا عن الكنوز؟ ماذا عن الذهب والفضة والجواهر؟ ماذا عما سيشتريه اليوم برخص التراب ويبيعه غدًا مقابل الثراء والنعيم والغنى؟ إذن، لو وجد ما تُعرف قدرته على تحقيق ذلك كله، أفلا تتصارع الأمم وتتسابق إليه؟!

لكن الحاكم رشيد وجده، وجد سر الخلود، وقبل الجميع! وكان لا بد من أن يوجد أحد يسعى لانتزاعه منه، والاستئثار به لنفسه، وكان لا بد من أن يوجد من هذا الأحد ألف نسخة؛ لذا -ببساطة- اشتعلت الحرب، وظن الأعداء أن دحرهم لجيوش الحاكم رشيد واحتلالهم لأراضي قومه وأسرهم وإذلاله، ظنوا أن ذلك كله سيعينهم على التوصل إلى سر الخلود، وسيجبر الحاكم رشيد على تقديمه لهم، حسنًا، جميعنا يعرف أن ظنونهم خابت، وأن الحاكم رشيد كان أقوى مما ظنوا، وأن احتلال مملكته كان أصعب مما اعتقدوا، وأن الطريق إلى الهيمنة على سر الخلود كان أكثر طولًا مما توقعوا. امتدَّت الحرب، ومات من مات من كل الأطراف، وتغيَّرت التحالفات ألف ألف مرة، وكل من وجد مصلحته إلى جوار طرف هادنه وحالفه، ثم رأى

خيرًا منه فانقلب عليه لصالح الآخر، لقد كانت.. كانت حربًا! ثم انتهت، رغم كل شيء كان عليها أن تنتهي، من المعنيّ بتقرير الفائز والخاسر؟ المنتصر هو من يقرر؛ لأن المهزوم -ببساطة- لن يكون قادرًا على فعل ذلك، لقد فاز الطرف الذي لم يختَر الحرب، الطرف الذي كان أشبه بأسد مهاب متربع في عرينه، شاكسته ثلة من الضباع الذليلة حتى حشته على النهوض، وحين ينهض الأسد، يكون على الضباع أن تتحمل مسؤولية إزعاجه! لقد انتصر الحاكم رشيد، ودحر الآتين لدحره، وأعادهم -أو أعاد من تبقى منهم- إلى ديارهم مذليّن مهانين عاضّين على أصابع الندم، كان عليهم أن يفكروا ألف مرة قبل العبث مع الحاكم الرشيد، واجد سر الخلود.

بالعودة إلى العجوز صباة وعقلة، سنراهما يركضان في القرية، سنراهما يتشاكسان، يتشاجران، يتعلمان، يساعدان عائلتيهما في العمل على مصادر رزقهما، البناء في حالة العجوز صباة، والطب في حالة عقلة، ومع نضوجهما وتقدم عمريهما، بدأت الكثير من الأمور بالتبدل، تمامًا كما حدث معي، ومع كل إنسان في الدنيا، افرقت السبل ولم تتقاطع إلا فيما ندر؛ إذ أن عقلة كان من عائلة حكماء راقية، تلك العائلة التي تجالس الحكام وترسل إلى القرى الصديقة لتنشر علمها وترفع راية القرية الصفراء في كل بقعة من بقاع الأرض تقريبًا؟ لكن كان لعقلة رأي آخر؛ ففي حين كانت أسرته منهمكة في مداواة المرضى، وصناعة التاريخ، كان هو قد عثر -باطّلاعه الواسع، بحكم نشأته بين تلك الأسرة- على معلومات غريبة، معلومات مميّزة قد لا تطولها يدا كل من يريدها، لكن يديه طالتاها، ورأى أن هذا قدره، أن يجد تلك المعلومات، ويسلك تلك الدرب حتى نهايتها، لقد وجد ما كتب عن سر الخلود، وعن الحاكم رشيد والعالم الذي ساعده للعثور عليه، وعزم -عقلة- بكل كيانه على إيجاد هذا السر، وحيّازة مفاتيح الخلود التي تتناسب مع طموحاته العالية؛ فهو لم ير نفسه إنسانًا عاديًا يوميًا، ولن يكون كذلك على الإطلاق، خاصة

حين يمسك سر الخلود بيده!

- «خالتي، أنت واثقة أن هذا الشخص الذي تتحدثين عنه هو نفسه عقلة؟ عقلة المجنون الذي يهيم في الطرقات كحمل ضل طريقه وفارق القطيع؟»

- «أمنيتي الأخيرة - قبل أن أفارق هذه الدنيا، وأتركها لكم تحترقون معها- هي أن يسمعني أحد للنهاية، ودون مقاطعة!»

تحقيقاً لأمنيتها الأخيرة ابتلعت لساني، وحاولت -عبثاً- أن أبتلع معه القصص العجيبة التي تظنني بها، والتي أشعر لسبب ما أنها ليست ما أردت سماعه.

بالعودة إلى عقلة، نجد أنه فكر -كخطوة أولى- في زرع عين داخل منزل الحاكم، يتلّس أي خبر يفيد في بحثه، ويقبض أجره في المقابل، الأهم من ذلك كله أن يكون هذا الجاسوس جاهلاً بهوية عقلة؛ حتى لا يورطه في حال وقوعه أو الإمساك به. إذن كان عقلة يبحث عن شخص طماع، بلا مبادئ، يقبل الرشوة، يستطيع دخول بيت الحاكم والتجول فيه بأريحية، وغريب، لا يقدر على تمييز وجه عقلة أو صوته. بعد البحث والمراقبة والسؤال، تمكن عقلة من إيجاد رجله، كان شاباً من ذوي الأعين الزرقاء، ينتمي إلى الجداريين، يسمى (المبقع)؛ لأنه كان مصاباً بمرض جلدي يترك بقعاً سمراء على جلده، وكان المبقع يزور بيت الحاكم جَسَّار بصفة دورية ليوصل إليه الضريبة المقررة على بلاده منذ عهد الحاكم رشيد، وكان يجالس الحاكم ليناقش معه أحوال البلدين ويوصل صوت قومه وطلباتهم أو اعتراضاتهم المختلفة، ومع الوقت أصبح المبقع أكثر راحة أثناء زيارته للحاكم، وأصبح يتمشى في منزله ويتجول على راحته فيه -فيما لا يخص قسم النساء الداخلي- حتى أنه كان يحضر -أحياناً- بعض اجتماعات الحاكم حين يضطر للمكوث هناك

لتأخر الوقت أو لأي سبب آخر. المهم أن عقله وجد في المبعع مبتغاه، أرسل له طفلًا من أطفال القرية ليخبره أنه سيلاقيه في مكان محدد وساعة محددة، وسرعان ما تم الاتفاق بين الرجلين؛ إذ لا يتهم أحد الجداريين بالشرف أو يراهن على حفظهم للأمانة بشكل خاص، ولم يكن عقله يطلب الكثير، هو لا يريد أكثر من معرفة كنه سر الخلود هذا، وما يفترض به أن يكون، أكسير ما؟ أم تميمة ختمها الجان بسحرهم؟ أم قد تكون بضع طلاس مرمزة تُفك شفرتها فيتفشى مفعولها؟ لم يكن المبعع قد سمع بأمر سر الخلود هذا من قبل، ولم ير عقله إلا على هيئة أحرق ثري سيحب الانتفاع من ورائه. لكن المبعع -وبدون إطالة- أبدى بلاهة وغباءً منقطعي النظر، وقبل أن يتمكن من تزويد عقله بأقل معلومة كان قد نجح في لفت انتباه الحاكم ومن حوله، وجعلهم يشككون فيه ويشددون من مراقبته، وحين تأكد الحاكم من كون تصرفاته تزداد ريبة يومًا بعد يوم، استدعاه، وحقق معه، لكن المبعع لم يؤت لسانًا مبيّنًا يحتاج به، ولم يكن في جعبته الكثير ليقوله؛ إذ أنه لا يعرف عمن أرسله أكثر من كونه ثريًا ملثما، ولا يعرف عما يبحث عنه أكثر من كون اسمه سر الخلود، سجنه الحاكم، ثم أعدمه على مرأى من جميع أهل القرية، بعدما استخلص منه عبارة واحدة هي كل ما فتح الله به عليه للاعتراف: أنه كان يتجسس على الحاكم! وحتى أهل قريته لم يعترضوا، ولم يحاولوا إبداء سخطهم على حكم الحاكم جَسارًا؛ إذ كانوا يعرفون جيدًا أنه لم يكن ليقدم على حكم بهذه الصرامة إلا لسبب وجيه، ولجزم يستحق، ورأوا أن دماء أخيهام التي سالت ليست أكثر من ثمن زهيد لكسب ثقة الحاكم جَسار وإثبات ولائهم له خشية غضبه عليهم.

لكن الحاكم الحاذق جَسار لم يكنف بإيقاع حكم الإعدام على المبعع؛ فبعد كل شيء، لا يزال مرسله حرًا طليقًا، والأهم أنه لا يزال مجهولًا تمامًا، ثم إنه لا يعرف مدى استطاعته على التوغل بين رجاله أو التسلل إلى داره، أهو

من رجال الأعين الزرقاء أم الأعين الصفراء؟ ألف سؤال وألف توقع لا يحتملون ترك شيء للمصادفات، لا بد من اتخاذ احتياطات مناسبة لحماية سر الخلود.

هكذا -وفي غضون أسابيع- أصدر الحاكم قراره المفاجئ: تقسيم القرية الصفراء إلى ثلاثة أقاليم، الأول هو (المروج)، و(الربرة) هو الثاني، والأخير يدعى ب(مجمّع القرى)؛ لأنه يتكون من بضع قرى متناهية الصغر، يشكل مجموعها حجم واحدة من المروج أو الربرة، ثم قام الحاكم بتقسيم مفاتيح سر الخلود (أو طريقة الوصول إليه) على حكام الأقاليم الثلاثة، بحيث لا يستطيع الواحد منهم إيجاد بمفرده، وهذا ما لم يقله علانية، وإنما تسرب -باستحياء- من مجلسه الداخلي وتناقلته السنة العامة، أما الظاهر المعلن فلم يتجاوز خبر التقسيم.

أما عقلة فقد أدرك السبب وراء كل ما يفعله الحاكم، وفهم أن الحاكم قلق منه بالذات، وإن لم يعرف هويته بعد؛ لذا كانت أولويته حالياً هي إبعاد الشكوك عن نفسه، وبرغم أنها مهمة سهلة -إذ لا أحد يرتاب فيه بشكل خاص- إلا أنه بقي متوجساً من فكرة أن يكون المبقع قد ثرثر كثيراً مع أحد ما، أو فضح سره بشكل أو بآخر، أو أن يكون الحاكم قد عرف بهويته من الأساس لكنه بادر بإخفاء سر الخلود، من ثم سيعود إليه ليتعامل معه. كل هذه الأفكار أدت إلى توقف عقلة مؤقتاً عن السعي وراء سر الخلود، لكن عقله استمر بالتخطيط بلا هوادة، وأدرك حقيقة أن الأمر أصبح أكثر اتساعاً من أن يقدر على إحاطته، وأن أي محاولة منه -مهما كانت جاهدة- للوصول إلى أي معلومة في هذا الوضع ستكون كمحاولة النفخ في قربة مشقوقة، مجرد مضیعة للوقت والجهد وربما المال لا أكثر. وبعدها هدأت الأوضاع واطمأن عقلة إلى أن أحداً لا يطلبه وأن سرّه لم ينكشف - عاد مباشرة للالتفاف

والتفتيش عن طرف خيط جديد يمسك به، وقد هداه عقله إلى أن الأمر قد يستدعي تدخلات خارجية، والكثير من التحالفات، وخططاً متقنة على نطاق واسع. لا يوجد بشري يعرف بسر الخلود إلا واحد، الحاكم جَسَّار، وثلاثة يستطيعون التوصل إليه أو يعرفون - على الأقل - من أين يمكن البدء، وهم حكام الأقاليم، كيف يستطيع إجبار الحاكم جَسَّار أو حكام الأقاليم على الاعتراف بها يعرفونه؟

- «كيف يا خالتي؟ أرجوك أن تختصري وتعطيني الخلاصة، أخي ينتظر في الخارج وقد تأخرت كثيراً.»

كنت أرى ضوء الشمس ينحسر تدريجياً عبر النوافذ، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن تعرف أُمِّي أنني لم أعد في منزل الخالة حسناء، ثم إنني لا أريد لأمر قدومي إلى هنا أن يصبح خبراً متداولاً يتناقله أهل القرية، تكفيني امرأة السوق التي أعرف أنها لن تمسك لسانها. بالطبع لم تختصر العجوز وإن وعدتني بأنها ستفعل.

أفضل ما توصل له عقلة كان الآتي: سيحدث فتنة بين حكام الأقاليم الثلاثة من جهة، وسيحدث شقاقاً بينهم وبين الحاكم جَسَّار من جهة أخرى، بمعونة الأعداء الطبيعيين لهم! وسيلعب هو على جميع الحبال ليستأمنه الجميع، وسيرتدي ألف وجه ليعرف أسرار كل امرئ منهم على حدة، وهذا سيصبح الوحيد الذي يعرف السر كاملاً، بعدما يتخلص من الحاكم جَسَّار في نهاية الأمر طبعاً. وضع خطته الشيطانية قيد التنفيذ دون إبطاء، وكانت محطته الأولى هي قرية (وَخْنة) الواقعة تحت سيطرة أصحاب الأعين الزرقاء، وكان أهلها من حارقي المحاصيل، وبينهم قلة تعتنق غراسة الفسائل. وكإبليس نفسه، بدأ عقلة يزيّن لهم الخروج من نطاق هيمنة الحاكم جَسَّار، وأن يضعوا ثقتهم فيه لتخليصهم منه، ولن يطلب منهم أكثر من

إمداده بالرجال في الوقت الذي يحدده هو. من الواضح أن عقله كان مقنعاً جداً، وكان ماهراً في التلّون كالحراي، ولم يصعب عليه الحصول على ما أُراده؛ لأنه عرف من البداية أن هؤلاء القوم لا يشبهون الحاكم جسّار في شيء، وأن حيله ستنتظلي بسهولة على من لم يملك إيماناً صادقاً، أو بصيرة نافذة، وهو ما يتميز به الحاكم ويقلل من محاولات نجاح عقله في خداعه إلى الحد الأدنى. المهم أن عقله انطلق بعدما أصبحت قيادات الأعين الزرقاء رهن إشارته ضمناً، وبدأ يمارس شيطنته على حاكم مجمع القرى، حسناً، لم يكن إقناعه صعباً باختصار، ولم يُبدَ تمتّعاً كبيراً، وكذا كان الحال مع حاكم الربوة، لكن حين كان على عقله العمل على الوسوسة لحاكم المروج، كانت أنباء نخره بين الحكّام الموالين للحاكم جسّار تنتشر ببطء، وقد كان الحاكم محبوباً وذا شعبية واسعة جعلت من أمر إخباره بما يستجد طارئاً لدى بعض الجنود والرجال المخلصين، هكذا تسللت الأخبار لتصل إلى أسماع الحاكم، لكنه أحب اللعبة، ورأى في عقله منافساً يستحق أن يتركه لبضع جولات أخرى قبل أن يجعله عبرة للمعتبرين، أبقى الحاكم عقله تحت مراقبة رجاله دون أن يشعر الأخير بشيء، ولأن حاكم المروج آنذاك لم يكن كشبيهه في الربوة والمجمع، لم يعجبه كلام عقله كثيراً ولم يشعر بالراحة ناحيته، كان رجلاً أميناً ومخلصاً ويحمل رغبة صادقة في أداء مسؤوليته دون استغلال منصبه، لكنه كان طيب القلب لا يتصف بالحزم بشكل خاص؛ لذا كان أشد ما اهتدى لفعله هو أن يطلب من عقله المغادرة، مع تلميح برفضه لأفكاره من الأساس.

غادر عقله شاعراً بأنه صفع على قفاه، برغم أن حاكم المروج كان راقياً في تعامله معه، وغدت الكوابيس ضيفاً دائماً في منامات حاكم المروج، وأصبح قلقاً طوال الوقت حيال هذا المفسد الخبيث، لا يدري إن كان ينبغي عليه إشعار الحاكم بما حدث أم أن الأمر أتفه من ذلك. عقله أيضاً كان يفكر بلا توقف، لقد اغترّ بنفسه وظن بنجاح خطته حين سارت الأمور مع كل

الحكام بشكل جيد، لكن موقف حاكم المروج أنزله من فوق سماء نشوته، وتمثله يسد أمامه طريق المجد عاقدا ذراعيه على صدره ومبتسما في شماته، ورغم أن شخصية حاكم المروج الرثيفة لم تكن تشبه صورته المتخيلة في شيء. لكن عقلة يملك خططا بديلة دائما، ويعرف كيف يستبدل القطعة التي تعيقه ويدمرها ليصل إلى غاياته؛ هكذا عاد لقرية وحنة، وأخبرهم بالشيء المحدد الذي جاء طالباً إياه، ولحسن حظه وجد بغيته عندهم، لقد جئ عقلة رجلاً ينتمون لحارقي المحاصيل من ذوي الأعين الصفراء أنفسهم -موالون لذوي الأعين الزرقاء- ليذيعوا -بحذر- شائعة تحالف حاكم المروج مع رجال الأعين الزرقاء، ونيته للانقلاب على الحاكم جَسَّار والهيمنة على أراضي القرية الصفراء جميعها. لقد جئ عقلة ما لا يزيد عن بضع عشرات من المندسين، لكن أصداء الأخبار كانت عالية، وجابت الشائعة أراضي القرية الصفراء من الحدود إلى الحدود، ووصلت إلى مجالس الحاكمين الآخرين والحاكم جَسَّار، وفي حين ظن الحاكم الأكبر أن في الأمر حيلة ما، صدق الحاكم الثانيان الخبر، أو لم يرغباً في ترك شيء للظروف؛ هكذا أعربا عن معارضتهما لقرار حاكم المروج، وأعلنا الحرب ضده، تدخل الحاكم جَسَّار ومنعهما من الإقدام على كارثة كهذه، وألقى خطاباً مزللاً لا يُنسَى عن كون وحدتنا هي ما يقوينا، وأن الله جعل بعضنا سنداً لبعض، وأننا إن تركنا الشيطان ووشاية الواشين وألسنة المثرثرين نتحكم في علاقاتنا وترابطنا فإننا هالكون لا محالة، وأن أراضي القرية الصفراء خاصة وغارسي الفسائل عامة لن تقوم لها قائمة إلا بالتكاتف والانتماء، وتقديم السماع من الإخوة على السماع عنهم، ووضعهم في المرتبة الأولى ومن بعدهم الآخرون.

ولضعف جيوش الحاكمين الغاضبين أظهرها الإذعان وامتنلا للإلغاء القرار، وكان على عقلة أن يتدخل ليدق على الحديد في حرارته؛ هكذا استمر بالطين في آذانها كالبعوض حول أهمية المضي قدماً لمنع الكارثة الوشيكة، أي

كارثة؟ كارثة تفضيل الحاكم جَسَّار لحاكم قرية المروج طبعًا! لا بد أن الحاكم يضمرنية خفية ما، نحن لا نريد إساءة الظن، لكن من يدري؟ لربما كان ينوي زيادة نفوذ حاكم المروج ليصبح حاكمًا على القرية الصفراء كلها من بعده، وأنتما -أيها المسكينان- تعيشان وتموتان في مكانكما هذا، دون أن تتاح لكما الفرصة في تسطير اسميكما في التاريخ. الحقيقة أن الرجل كان شيطانًا بامتياز، ومع مرتبة الشرف. ماذا نفعل يا عقله؟ الحاكم جَسَّار سيدكنا دكًا إن نحن حاولنا مخالفة أوامره، وليس أسهل من عزلنا والزج بنا في السجن، وعندها سنُنسى حقيقة وليس ضمناً كما تقول! دعوا الأمر لي - قال عقله؛ فأنا -والله يشهد- لا أحمل همًّا ولا يشغل بالي إلا مصلحتكما، والرغبة في مساعدتكما ضد ذلك الحاكم الشرير، والقادم أسهل، ستعرف الأراضي كلها بخطاب ذوي الأعين الزرقاء، الخطاب الذي يعارض الظلم الواقع على قرية الربوة ومجمّع القرى، وسيعلنون استعدادهم الكامل للوقوف جنبًا إلى جنب مع الطرف المظلوم، ودعمهم بما يحتاجون إليه ماديًا ومعنويًا. ما نعرفه جميعًا أن خطابًا كهذا لم يعلن، وأن ذوي الأعين الزرقاء من حارقي المحاصيل أجبن بكثير من الوقوف في وجه الحاكم جَسَّار، وأكثر خسة بكثير من مساعدة ذوي الأعين الصفراء من غارسي الفسائل، وقد كان ضمن اتفاق عقله معهم ألا يقحمهم في أي مشكلة بشكل مباشر، أي أن تلك الخطابات المزعومة لم تزد على أن تكون شائعات ييئها المندسون إياهم، ويتناقلها سامعوها بكثافة تجعل منها -مع الوقت- حقيقة كونية يعرفها الجميع، دون أن يسعى أحد للتحقق من صحتها. إذن استعان حاكم الربوة والمجمّع بذوي الأعين الزرقاء ليحاربوا حاكم المروج لأنه تحالف مع ذوي الأعين الزرقاء، قمة العبثية! لم تتدلع الحرب تمامًا، بل بدأت مقدماتها، وكادت تتطور وتلتهب أكثر، كانت لتحدث مجزرة حقيقية، لولا وجود رجل بقوة الحاكم جَسَّار وحكمته في السلطة، وتواصل ذوو الأعين الزرقاء من غارسي الفسائل -بشكل سري- معه لإبداء

استعدادهم لفعل ما يلزم لإيقاف الحرب الوشيكة، ومنع إراقة دماء إخوانهم من غارسي الفسائل، وهو ما جعل الحاكم يكبر تصرفهم، وينظر إليهم بعين مختلفة؛ فهو كان -حتى وقت قريب- يرى أن ذوي الأعين الزرقاء سيئون، وذوي الأعين الصفراء جيدون، هكذا، بنظرة طفولية جامدة، لمجرد أن هذا ما يقال وأن هذا ما تربت عليه الأجيال في القرية الصفراء، الآن فقط أدرك حجم خطئه، وأن من كان يحتقرهم ويتوقع غدرهم هم من ساندوه وأبدوا رغبتهم في معاونته، وأن الغدر أتى ممن كان يأمن جانبهم؛ لأن الأخلاق والقيم - ببساطة- تتبع العقل والقلب لا لون العينين! المهم أن الحاكم رأى أن اللعبة زادت عن حدها، وأن هذا العقله قادر -بمفرده- على إحداث ضرر يوازي ما تفعله قرية كاملة من الجداريين شديدي الخبث وحارقي المحاصيل شديدي الشراسة؛ هكذا تلقى عقله استدعاء لدار الحاكم المتواجدة في المنتصف بين الأقاليم الثلاثة، لبي عقله الدعوة بتردد وتوجس، لكن الحاكم كان قد قرر مجاراته في ميدانه، وقتله بسلاحه؛ لذا أشعره بأنه يثق فيه، ويحترم آراءه، ويهتم باستشارته في أوضاع القرى الراهنة، ولم يكذب عقله خبراً، ابتلع الطعم بسرعة ووجد في استدعاء الحاكم فرصة تمكنه من الارتقاء درجة أخرى نحو حلمه الأعظم، وأنسته نشوة النجاحات المتتالية، والأثر المدوي الذي تسبب به في أربع قرى مختلفة حذره؛ فلم يفتن إلى غاية الحاكم الحقيقية لإيقاعه والتخلص منه بأبشع طريقة يستحقها أمثاله.

وأرسل الحاكم رسله إلى قرية وحنة، برسالة تهديدية واضحة ومحددة: (لا تحشروا أنوفكم الكبيرة داخل شؤون القرية الصفراء كي لا نقطعها لكم)؛ فأجابوا بجزع أنهم لم يتدخلوا من قريب أو بعيد، وأن أحوال القرية الصفراء لا تعنيهم بحال، ومع التقصي والتحقق تأكد الحاكم من صدق دفاعهم، ففهم أن الأمر كله لا يعدو كونه حرب شائعات وألسنة، تطورت لتصبح حرب جنود وأسلحة، وكله بفضل هذا العقله! تمكّن من انتزاع تصريح

واضح معلن من ذوي الأعين الزرقاء بعدم التدخل لصالح قرية الربوة والمجمّع أو غيرهما، مما أصاب حاكمي تلكما القريتين بالإحباط، وجعلهم يقصون فكرة الحرب تمامًا؛ إذ أن انسحاب ذوي الأعين الزرقاء يعني أن يصبحوا في مقابلة الحاكم جسّار وحاكم المروج وحدهما ودون عون. لكن الحاكم جسّار كان يفكر لأبعد من ذلك؛ إذ أنه لم يعد قادرًا على الوثوق بذانك الاثنين بعدما أظهرتا نيّتهما الواضحة للغدر به، وكان متأكدًا من أنهما سيقدمان على محاربته بمجرد وجود الدعم، لذا كان عليه أن يفصح أفعالهما ليكون عزله ومحاكمته لهما قرارًا شرعيًا لا يثير الشكوك في أذهان العامة ولا يترك مجالًا لنشر الشائعات.

ثم قرّب الحاكم عقلة منه، وأشعره أنه أثير لديه، وأطلعه -ظاهريًا- على أمور تتعلق بسر الخلود، وظل يلمّح إلى الموضوع أمامه ويتأمل باهتمام لمعة الظفر في عينيه، لقد كان ظنه في محله، كان عقلة هو من جند المبعق، وتسبب بتقسيم القرية الصفراء، كان الحاكم ليسخر من نفسه ويندم على اتخاذ كل تلك الإجراءات خوفًا من رجل واحد، لكنه أيقن تمامًا أن عقلة -بإصراره وخبثه الشديدين- كان يستحق مناورة كهذه. ولإيقاع عقلة بطريقة سلسلة، ولسقيه من نفس الكأس، وضع الحاكم خطة -اجتهد في صياغتها- في حين التنفيذ، فأصبح يلتقي بأنصاره من ذوي الأعين الزرقاء في حضور عقلة، ويوهمونه أنهم مبعوثون من حكومة قرية وخنة شخصيًا، وفي المقابل كان على نفس الثلة الزرقاء أن يعدودا لقريتهم بصفتهما حاملين لأوامر الحاكم جسّار علنًا، وبصفتهما حاملين لأسرار القرية الصفراء سرًا، ربما لم تكن العجوز صباغة خير من يحكي تفاصيل خدعة سياسية مخنّكة كالتّي أداها الحاكم، لكنها تعرف الخلاصة، وتعرف أن هذا كله أدى لهجرة عقلة وعائلته نحو قرية وخنة، بعدما خرجت الأمور من تحت سيطرته وأصبح افتضاح أمره مسألة وقت، ثم أدى لتوريط عقلة مع ذوي الأعين الزرقاء الداعمين

له، بعد أن سقط قناعه وتبين أنه كان يستغلهم لمصالح شخصية، وبين هذا وذاك، تمكن الحاكم من انتزاع شعرة الأسد التي كان يحتاج إليها من صراع عقله وأنداده، واستطاع -بهذا- إثبات عمالة حاكمي الربوة والمجمّع وانتمائهما خلصة لحارقي المحاصيل من قرية وَخنة. وخلال السنوات الطوال التي لبثها عقله في سجون وَخنة، بعدما قُتل أفراد عائلته أمام ناظره واحداً تلو الآخر، كان الحاكم يشيّد داراً أراد لها أن تكون قبلة للمعرفة، ومقصداً لتعليم معتقدات غارسي الفسائل، وقد نوى أن يوصل إلى أكبر عدد يستطيعه من البشر، أن قيمة المرء باعتقاده وقيمه، لا بلون عينيه!

- «وكيف نجاة عقله بعد ذلك؟»

لقد انتشرت شائعات منذ وقت مضى - وكل ما فات يُعبّر عنه بعبارة (ما مضى) عند العجوز صباية، بدءاً من الدقيقة الماضية وحتى ألف سنة فائتة- أن عقله خرج من سجون وَخنة في وقت الحروب الداخلية التي اندلعت بين أهل قريتهم، وبين قتل حاكمهم وتنصيب غيره، كانت السجون خالية تماماً من نزلائها، ولم يعد أكثرهم إليها بعد كل تلك الفوضى. لكنه كان قد فقد عقله، لقد استمرت فكرة الخلود تطوف برأسه بينما هو عاجز، وحبيس بين جدران زنزانه الأربعة، يروح ويحيى دون توقف، ويحدث نفسه ويضع الخطط، إلى أن تلاشى عقله نهائياً؛ فلم يأبه به أحد بعد عودته، اللهم إلا الصبية الذين كانوا يطاردونه متلذذين بخباله، ومتفكّكين بتصرفاته وكلماته الطريفة.

انتهت القصة، وغاب معها آخر خيط نور في السماء، نهضت واستأذنت من العجوز، بعد أن شكرتها على ذلك الكم الهائل من المعلومات الذي لم تقدمه لي. عقلي لا يريد تقبّل تلك القصص، أيمكن أن يكون هذا العقله الوديع الذي يعيش على لقيمات الخبز وبواقي الطعام، أيمكن أنه كان جباراً

بهذا الشكل في يوم من الأيام؟ أو أنه كان داهية تسبب في تقسيم القرية الصفراء وضرب الحكام بعضهم ببعض؟ والأدهى من ذلك، أن أفكر في أنه عاد لهوايته القديمة في سلوك الطرق المعوجة والضرب تحت الحزام!

خرجت من منزلها وسط الظلمة هذه المرة، وفكرت في أن المكان الذي اختارته للسكنى يحبط أي نية لمزاورتها وتعاهدتها بالرعاية وتقديم المساعدة، برغم ذلك قررت - بصدق - أن أزورها وأطمئن عليها من آن لآخر، خاصة بعد ما رأيته من أثر زيارتي عليها. نظرت إلى حيث كان ساري يقف، وجدته كما هو منذ دخلت، بل خيّل إلي أنه لم يغيّر وقفته حتى، كأنه تمثال منتصب هناك، أسرعته الخطى نحوه محاذرة من أن أطأ أفعى غافية أو عقرباً متحفظاً في موضع ما، وحين وصلت، لم يتلفظ ساري بأي شيء يدل على التملل أو الانزعاج، ببساطة قفز فوق ظهر حصانه ومد يده يساعدي على الركوب، بقيت صامتة بدوري ونحن نسير لبعض الوقت على مهل، ثم قال ساري أخيراً:

- «أرجو أنك وجدتِ بغيتكِ عندها.»

- «لو كان هذا ما أبحث عنه حقاً يا ساري، فأنا أتمنى -صادقة- ألا أعيش إلى اليوم الذي أضطر فيه للمواجهة.»

- «مواجهة من؟»

التزمت الصمت، ولم يسألني مجدداً، أترأه يشك بشيء؟ لا زال لقاؤهما -هو وعقلة- الغامض الذي رأيته بلا معنى بالنسبة لي، إلا لو حاولت ربطه بكلام صباية، وهو ما لا أريد فعله؛ لأنه سيعني أن عقلة وساري يخططان للعبة كبيرة جداً، الله وحده يعلم عواقبها!

- «بكم تشترين سكوتي؟»

- «ماذا تعني؟»

- «أنت تفهميني، كل هذا التأخير، ما الذي ستعطيني إياه كي لا أخبر خالتي رؤوم بقدمك إلى هنا؟»

لم أكن في مزاج رائع لمبادلتها المشاكسة، صمت بنوع من التأفف فقال بسخرية:

- «حسنًا، على رسلك، لا تفقدي أعصابك رجاء، كانت مزحة!»

كان علي أن أشعر بالحرج، لقد رافقني طوال هذا الطريق الشاق دون أن يعرف سبب قدومي حتى، وانتظرتي بلا ملل إلى أن خرجت من منزل العجوز، ولم يكتفِ بالامتناع عن إبداء انزعاجه، بل إنه يتحمل تأففي وضيقني منه بسعة صدر! برغم ذلك، وكما قلت، لم أكن أراه إلا في ضوء تلك المقابلة المشؤومة مع عقلة.

- «ما الذي أسفر التفتيش عنه؟»

- «ماذا ظننت؟ لا شيء بالطبع!»

كنت أسأل بحذر في محاولة لفتح الأحاديث مع أبي ومتجنباً معاتبته أو غضبه مني بعدما شكت له أمني تأخري الشديد بالخارج دون أن تعرف أين كنت، وكذبي عليها إذ لم تجدني في منزل العم جواد كما زعمت، ولم ترد سماع أي تبرير مني، كانت غاضبة بالفعل. لكن أبي لم يقل أي شيء، وبقي على تصرفاته المتبسطة والهادئة حتى خلدت أمني للنوم، وحين سألتها، أجاب سؤالي بمنتهى الهدوء. سؤالي كان حول القرار الذي اتخذته أنور، إثر معرفته بهجوم المنّ على مزرعتنا، لقد قرر أن يقوم رجال الحماية بدورية تفتيش شبه

سرية لمزارع القرية، وقياس مدى الضرر الذي أحدثه المنّ.

- «لا شيء؟ ما معنى هذا؟ ألم تُهاجم أي مزرعة أخرى من قبل المنّ؟»

- «قلت إن هذه نتائج التفتيش، لكنني لم أقل إنها الحقيقة!»

قطبت حاجبيّ مستفهمة، فأخبرني أبي بما لم يكن شاذًا عن توقعاتي في الواقع، لقد وُجد المنّ، وأفسد الكثير من الأراضي، وبرغم أن ضرره كان في بدايته، وبرغم أن احتواء المشكلة لا يزال ضمن نطاق السهولة، إلا أن أنور رأى أن يبقى على حالة التكتّم التي قررها والده من قبله، برغم اختلاف الظروف. وحين يقول أبي إن أنور قرر شيئًا، فإنه يعني -في الحقيقة- أن هتر ومن معه من المحيطين بأنور هم من قرروا ذلك الشيء.

- «ولماذا يطيعهم أنور؟ هل هو أحقّ إلى هذا الحد، أم هو معجب بما يفعلونه ومتواطئ معهم؟ ما تفسيرك يا أبي؟»

- «لا هذا ولا ذاك، أنا أستبعد من أنور أن يكون أحقّ أو خسيسًا، لكنه متردد على الأرجح، إنه شاب شهيم وباسل، لكنه يخشى أن يتسبب بضياع القرية أو إحداث مشكلة ما، وقد تسلّم الزمام في وقت تواجه فيه قرينتنا خطر ذوي الأعين الزرقاء، تخيلي كم من الصعب أن يتخذ أي قرار في حين أنه بدأ حكمه في وقت حرب! لذا رأى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.»

- «ولماذا يثق بهتر وأشباهه؟ لم لا يثق بك أنت مثلاً؟»

- «لأن تلك الثلة هي نفسها التي كانت محيطة بأبيه من قبله، وحتى لو لم يكن أنور مقتنعًا كفاية بهم، إلا أنه من الصعب عليه الاستغناء عنهم أو تهميشهم في وقت كهذا؛ فليس أسهل من أن يؤلبوا الناس ضده، ويتهموه بأنه استغنى عن خدماتهم لشيء في نفسه، أو ليحيد بالقرية عن منهاج أبيه!»

- «إذن فأنور واع بما يحدث حوله، ويدرك جيداً أن آراءهم ليست موضع ثقة، لكنه ينتظر حتى يملأ يديه من منصبه الجديد، أو يعود والده، وحينها سيأخذ كل شيء نصابه. أنت تحسن الظن به كثيراً يا أبتى!»
- «هذا هو أنور كما أراه، ولا أذكر أنني أخطأت في قراءة الناس من قبل، أرجو ألا يكون هذا خطئي الأول في هذا المضمار!»
- ثم رأى أن الوقت أصبح مناسباً، فسَلَّط عينيه علي وقال بهدوء:
- «بالعودة للأهم، أين كنت طوال هذا الوقت؟»
- «أبي، هل تعرف شيئاً عن.. سر الخلود؟»
- طريقتي المعتادة في مقابلة السؤال بسؤال، أملاً في جذب انتباهه وتحيد الحديث عن لومي، لم يكن هذا ينطلي عليه بالطبع، لكنه كان يستجيب فقط لاهتمامه بما أقول، ورؤيته لأولوية موضوعي عن اللوم الذي لا طائل من ورائه.
- «سر الخلود؟ سؤال غريب، وفي وقت غريب!»
- «أفهم أنه سؤال غريب، لكن لم وقته غريب أيضاً؟»
- «لأن الحرب التي اندلعت قبل سنوات طوال، الحرب التي تتشابه ظروف بداياتها مع ما نعايشه في أيامنا هذه، كانت شرارتها قصة سر الخلود هذه!»
- «إذن، القصة حقيقية!»
- «القصة متداولة، الكثير يصدّقها والكثير لا يفعل، لا أجزم بصحتها أو عدمها، لكن ذكرها في هذا الوقت مُلهم بلا شك.»
- «كان الحاكم رشيد هو من وجده حسب القصة، وأخفاه ابنه الحاكم

- جسّار من بعده؛ فهل طرأ تجديد في أحداث القصة من بعد هذا الحد؟»
- «أستغرب من معرفتك بمعلومات كهذه، لكن للإجابة عن سؤالك، لا، لم يُفتح هذا الباب منذ عهد الحاكم جسّار.»
- إذن، كانت أحاديث العجوز صباية صحيحة في هذه النقطة، والأهم أنها حصريّة ولا يعرفها الكثيرون، هذا مثير للتساؤل.
- «وبسببها قُسمت القرية الصفراء إلى الأقاليم الثلاثة المعروفة حالياً، وأُسست دار المنارة!»
- «أما تأسيس دار المنارة فجزى الله الحاكم جسّار عنه خير الجزاء؛ فيها هي تُدرّ من الخيرات الجمّة على القاصي والداني، وبقيت شامخة عزيزة في وجه التغيّرات والفتن، واستمرّت صامدة حتى بعد وفاة مؤسسها بعقود. وأما عن تقسيم القرية، فسأحبه الله وغفر له، أما كان من الأجدر أن يوسّع نطاقها ويستبدل القلة بالكثرة، وعزة الواحد بعزة الآحاد؟ فما زاد التقسيم أهالي القرية إلا تفرّقاً على تفرّقهم، وخالف -بنفسه- المبدأ الذي لأجله أسس الدار، وهو ترسيخ أن اعتبار الاعتقاد فوق كل اعتبار، وها نحن ذا، نزداد تشرذماً يوماً عن يوم، وتستمر الجماعات الأضيّق بالتشريق حول نفسها شيئاً فشيئاً، حتى لنصبح ذات يوم وقد صار الواحد منا حزباً منفرداً يقف في مواجهة إخوته!»
- «لكن، ألم يكن ذلك ضرورياً لحماية سر الخلود؟»
- «لا يا غيم، لا شيء يرر الانقسام، الجماعة هي الحماية، والوحدة هي الأمان؛ فإذا كثرت الواجهات، وتشعبت الخطوط، أصبح بذر الفتّن عملية سهلة، ووجد الختّاس لنفسه موضعاً رحباً بين الحدود الفاصلة!»
- «لكنني أرى أهالي القرية الصفراء -سابقاً- لا يزالون متّحدين، بل

إنهم يضعون اليد في اليد ضد ذوي الأعين الزرقاء!»

- «بل يقطعون آخر وشائج الصلة بينهم؛ فالدعاية المججلة التي تمارسها (الصفراوية) ليست إلا تنهيدة احتضار أخيرة، لقد فقد ذوو الأعين الصفراء جُلّ ما يوحدهم ويجمع كلمتهم، ولم تجمعهم إلا نظرة سطحية للون الأعين! ألا ترين كم أن رابطتهم واهنة، وأنها أقرب إلى الانقطاع من خيوط العنكبوت؟»

- «والحل يا أبي؟ ماذا لو انقطعت آخر صلة تجمع ذوي الأعين الصفراء؟ ألن يهونوا وتضعف شوكتهم ويتردّوا في الدركات؟ ما الذي يجب فعله لإيقاف الكارثة قبل وقوعها؟»

- «ومن قال إنها لم تقع؟ أخبرتك - يا ابنتي - أن هذا هو النزاع الأخير، فيم يفيد العلاج لمن داهمه الموت بسكراته؟»

- «أتعني أن الأمر انتهى؟ وأننا ننزل في منحدر يُفضي إلى هاوية، دون أن نملك إيقاف هذا الانزلاق، أو تحويله إلى صعود؟!»

- «أحياناً يكون القاع هو الموضع الأفضل للبدء من جديد، ولربما كان الأساس مزعزعا؛ فكيف سيتّصف ما يُبنى على مزعزع بالثبات؟ الهدم نافع يا غيم، مثله مثل البناء تماماً!»

ساد الصمت للحظات، كان ما يقوله أبي مخيفاً، قلت بوميض أمل:

- «طيب، ألا يمكن أن هناك من يعتمد العبث بالناس، ومن مصلحته أن تتدهور الأحوال هكذا؟»

- «هل تقصدين بكلامك أحداً بعينه؟»

- «ليس تماماً، ربما أقصد نوعية من الأشخاص، أولئك الذين لا

يتعشون إلا مع اشتهاى رائحة الدماء والدمار، ومن لديهم كامل الاستعداد لرؤية أهاليهم يموتون أمامهم مقابل بضع سبائك من الذهب، أو ربما مثلاً.. من يدفع الفتنة ثمنًا للحصول على مراد عزيز، سر الخلود مثلاً!

أطال أبى النظر إلى وجهى، غير أنه لم يكن يرانى، شرد ذهنه فى صور يراها ولا أراها، ثم عاد إلى وهو يقول نصف شارد:

- «أنت تتوقعين أن هذا كله يحدث من أجل سر الخلود، وأن التاريخ يكرر نفسه، تظنين أن التشتت والتشردم، والفتن والمبتدعات، تظنين أن هذا كله حدث بفعل فاعل، شخص أو أشخاص يحاولون دفع الفخار ليكسر بعضه بعضاً، ويخلو لهم الطريق للوصول إلى مبتغاهم!»

ثم مط شفتيه كأنه يزن الكلام ويحاول استساغته ثم تقييم معقوليته، أخذ نفساً عميقاً، ونفض رأسه وقال:

- «وهل تملكين شكوكاً فى هوية هذا الوسواس؟»

تلعثمت وارتعج على، لو قلت عقله، فإننى أدين سارى ضمناً، صحيح أن أبى لا يعرف كونها فى سلة واحدة، لكننى أعرف!

- «ليس حقاً، وحتى التخمينات تبقى تخمينات غير مفيدة حتى يدعمها دليل قوى، كنت لأقول إن هتر مناسب جداً للعب هذا الدور، لكن شيئاً ما يخبرنى أنه مجرد أداة، أداة تحت تصرف يد أكبر بالكامل. الشيء الوحيد المؤكد، هو أن الفاعل -أيًا كانت هويته- اختار أن تكون البداية من المزارع بالتحديد؛ لأنه يعرف جيداً أن الاعتقاد يبدأ وينتهى ويرتبط من كل النواحي بها، وإذا تدمر الاعتقاد، انهارت كل الحواجز تبعاً! ثم اختار مزرعتنا خصيصاً، لبدأ الإفساد منها.»

- «لا، ما أراه أنه لم يختار مزرعتنا ولم يقتنصها؛ فالبلدهى أننا كنا لنكتشف

الأمر من بدايته ونحد من الكارثة، لا أظنه كان ليخطر بكشف نفسه مبكراً هكذا.»

- «لكنه كان مستعداً لكل الاحتمالات، وها هو ذا يحرك رجاله ليزينوا للحاكم فكرة كذبك مرة، وفكرة التكتم على الأمر مرة، وأخيراً يجبروا أنور -ضمنًا- على الإبقاء على سياسة التكتم!»

- «تحليل لا بأس به، لكن لا زلت أميل إلى اعتقاد أن مهاجمة المنّ لمزرتنا كانت بسبب تقصيرنا في المقام الأول، وفساد الزرع مرتبط دائماً بفساد الزارع، لو لم يتعهد الزارع مزروعاته بالعناية والتدقيق والرعاية؛ فإن تسلط الآفات عليها لن يكون أكثر من مسألة وقت!»

كان محققاً، لو لم نقطع عن زيارة المزرعة لأيام، ما كان ليحدث ما حدث، لكن قدر الله وما شاء فعل، أظن هذا سيمنحنا درساً للقادم، ولن ينقطع أحدنا عن زيارة المزرعة يومياً لو لزم الأمر!

- «إذا تابعنا على نفس السياق؛ فما الذي يجعل ذوي الأعين الزرقاء ينقضون عهدهم برأيك يا أبي؟»

- «جواب هذا السؤال، أكاد أجزم أنه عند أنور، لكنه يكتمه لسبب لا يعلمه إلا الله. ذلك السفير لا يريح النفس من قريب أو بعيد، العين نافذة الروح، وبمجرد النظر إلى عينيه، يمكن إدراك أنه يضمّر الكثير من الشرور، مسألة الهدنة المفاجئة كانت مثيرة للتساؤلات، مثلها مثل هجومهم المفاجئ ابتداءً، لكن أحداً لم يسأل عن سبب هذا ولا ذاك، بل اكتفوا بترديد أنهم قوم مهذبون دمثون، سعوا إلى الصلح بينما سعينا نحن إلى استمرار الحرب، نحن الذين كنا ندافع لا غير!»

- «إذن أنور كان يعلم -بشكل أو بآخر- بأمر الهجوم، صح؟ يدفعني

هذا إلى طرح عدة أسئلة ولي الحق...

- «لم ترك السباق يقام.» قاطعني أبي. «ولم لم يحاول التلميح بتحذير ما على الأقل، وهل لهذا علاقة بتأخره المتعمد عن أقرانه أثناء السباق؟ هذا ما أردت قوله.»

- «بالضبط.»

- «الجواب: لا. ساحة أنور بريئة من هذا كله في نظري، أنور - وإن كانت لديه معلومات لا أعرف مداها- لم يكن يعرف بميعاد الهجوم تحديدًا أو بمكانه، وأجزم أنه لو كان يعلم ما كان يسمح بتعريض كل أهل القرية للخطر على هذا النحو. ثانيًا، غاية أنور من التأخر كانت نبيلة ولا غبار عليها؛ لأن أنور شاب نبيل وشهم، ولن أسمح لنفسي بمجرد التفكير في أنه كان ليدفع رفاقه إلى الهلاك وهو خلفهم يشاهد، أو أن يفعل أيًا مما يندرج تحت وصف الخسة والندالة.»

مجددًا تدهشني الحمية التي يدافع بها أبي عن أنور، شخصيًا لا أراه إنسانًا سيئًا، ليس كهتر مثلاً في شيء، لكنني لا أرى فيه ما يجعل سقف طموحات أبي بشأنه يرتفع إلى هذا العلو.

- «ولا يجعلك كتبانه لأمر المنّ تفكر باستساغة أمر كهذا، ولو على سبيل الاحتمال؟»

- «إطلاقًا، ولا ألف شيء مشابه.»

هزرت كتفي كأني أقول: (أنت أدرى)، وكان جزء في داخلي موقفًا فعلاً بأنه أدرى.

- «غيم.. غيم! أناديكَ منذ مدة، هل تتجاهلينني؟!»
- توقفت واستدرت إليها، لتصدمني حقيقة أنني كنت مستمرة بالسير منذ مدة طويلة، ذاهلة تمامًا عما حولي، وغارقة في الأفكار إلى أذنيّ، حتى أنني لم أسمع نداءات مسرّة المتكررة خلفي، وقد ساعدني أكثر عدم وجود درس في هذا الوقت، إذ لا يمكن احتساب درس أديم المفترض درسًا حقيقيًا!
- «أعتذر، كنت شاردة.»
- «بسبب ما حدث؟»
- «ما الذي حدث؟»
- دققت في وجهي كأنها لتتأكد من أنني لا أسخر منها، ثم قالت:
- «لا أصدق أنك لم تعرفي بالخبر! لقد أصبح من المحظور على ذوي الأعين الزرقاء ارتياد دار المنارة!»
- «م.. ماذا؟! متى صدر هذا القرار؟!»
- «صباح اليوم، قبل ساعات فقط.»
- لم أحب هذا، لم أستسغ فكرة أن الأحداث تتسارع بهذا الشكل، وأنا نستعجل السقوط إلى الهاوية بهذا الحماس!
- «من أصدر هذا القرار؟!»
- «ومن بيده إصدار القرارات برأيك؟ أنور بالطبع! بعد الاجتماع بكبار معلمي دار المنارة والتشاور معهم.»
- «وما معنى هذا القرار بالأساس؟ ما الخير الذي سيُضاف إلى الدار أو الشر الذي سيُزاح عنها برحيل ذوي الأعين الزرقاء؟!»

- «ربما لا توجد إجابة من هذا النوع، فقط هي تلبية لمطالب الصفراوية، الجميع تحدث بالأمر والجميع علم بأن هذا القرار سيصدر حتى قبل صدوره!»

- «الجميع، الجميع! أليست من ضمن الجميع؟! لم تمر علي هذه المحادثات كالبقية؟ لم أكون دائماً آخر من يعلم؟»

بقيت مسرّة تنظر إلي بصمت، انفرجت شفتها عن إجابة لم تطلق سراحها، وأعدت غلقها بسرعة. الصفراوية تكرهني، وتحرص على إخفاء أي قرار مستقبلي عن مسمعي حتى يقضى وأجدني في الأمر الواقع، سمعت إجابتها بأذن الخيال!

- «وهل علمت تبر بهذا أيضاً؟ تقولين إن القرار صدر منذ ساعات فحسب، كيف يفترض بذوي الأعين الزرقاء أن يلتزموا به؟»

- «ليسوا مطالبين بذلك.»

- «لم أفهم!»

- «إنها مهمة الأمن عند بوابات الدار، من لم يعلم بالقرار سيعلم به حين يتم منعه من الدخول.»

- «أمن عند بوابات الدار؟! منذ متى أغلقت الدار أبوابها في وجه أي طالب علم؟!»

- «منذ اليوم يا غيم، وإلى أجل غير مسمى.»

بقيت أنظر حولي عاجزة عن إيجاد كلام أقوله، ما الذي عساه يُقال؟

- «بما أنك تعرفين بالأمر للمرة الأولى، أفترض أنك لم تعرفي بقية الأخبار؟»

- «أطربيني!»
- «المعلمة وقار، تركت التدريس. لقد اعترضت على قرار منع ذوي الأعين الزرقاء، و.. أبعدتها الصفراوية.»
- «أي جنون! ألا يحق للمرء أن يبدي رأيه حتى؟!»
- «بل يحق له ذلك، ويحق للصفراويين أن يغضبوا من رأيه ويطالبوا بمجازاته، ويحق لصاحب القرار أن يتخذ ما يراه مناسباً لتهدئة الوضع.»
- «أفهم من هذا أنك تدعمين قرار فصل المعلمة وقار!»
- «ومن قبلها المعلمة رؤية، لا أفهم لمَ على المرء أن يبدي رأيه في كل شيء، سر مع التيار وحسب، لمَ تضحي بمركزك وحب محبيك ومصدر رزقك من أجل قول رأي لا أحد يهتم له ولن يغير شيئاً!»
- «بالطبع أمثالك من عبيد الصفراوية لن يفهموا المغزى، ولن يفهموا أن الحياة تسير -رغمًا عنا- إلى المصير الذي قدّره الله لكل شخص وشيء في هذا العالم، وأن الجهر بما يُظن صوابه -وإن لم يغير شيئاً- سيكون بمثابة معذرة إلى الله، وإبراء للذمة، لقد كان هذا كل ما تستطيعان فعله، وفعلتاه، وكما قلت لك من قبل، الأقدار لن تستشيرنا وتتقصى آراءنا لتحدد ما سيحدث، بل هي تسير في طريقها بلا التفات، والمفروض أن تتبع آراؤنا وقائعها وليس العكس!»
- هزت كتفيها بلا اهتمام ولم تجبني، جاهلة، لا أتوقع منها ما هو أكثر، قلت
بوجوم:
- «ألا زالت هناك أخبار سوداء؟»
- «تقريبًا.»

- «إذن؟»

- «المعلمة وقار ليست الوحيدة، مديرة الدار النسائية أيضاً، المعلمة (عذبة)، تم فصلها. وعُينت المعلمة (نداء) مكانها.»

- «يا أرحم الراحمين، ومن بقي؟! أهذه هي المصلحة العامة إذن؟ أن يغادر العلماء ويبقى السفهاء، لإرضاء فئة مبتدعة رغباتها وأفكارها هدامة ووضيعة؟!»

- «لن أفهمك أبداً، ولن أعرف لمَ تهاجمين الصغراوية بتلك الضراوة، بدلاً من أن تدعيمها وتحببها.»

- «لأنها للجهلة، ومن لا يجدون شيئاً ملموساً يفتخرون به، ومن يتكاسلون عن بناء صروح الأجداد، وأنا لست ضمن أي من تلك الفئات الثلاث المشؤومة!»

- «زرتِ العجوز صباغة إذن؟»

قالتها وأكملت الاستغفار وهي تحرك حبات سبحتها السوداء المهيبة، والمصنوعة من أحجار الكهرمان. زفرت بتعب وجلست جوارها، قلت بإحباط:

- «زرتها، وسمعت الكثير منها ومن غيرها، حتى كاد رأسي ينفجر، ولا أدري كيف أوفق بين كل هذا الذي أعرفه، وكيف أستخلص منه نتيجة ما، وكيف -وهو الأهم- أتخذ إجراء مناسباً بشأنه!»

وضعت السبحة جانباً ونظرت إلي ملياً، قالت بتمهل:

- «ماذا عن شكوكك تجاه عقلة، هل تأكدت أم زالت؟»

- «بل تكاثرت وتشعبت، وبدلاً من أن أشك في عقله، أصبحت أرى -بعين الخيال- ألف عقله يستأهلون الشك!»
- «وضحي كلامك يا ابتتي، لعلني أستطيع إسداء ما يشفع لي يوم ألقى ربي.»
- «أطال الله في عمرك يا معلمتي، ملخص ما قالته صباية كان...»
- حكيت لها باختصار، مع الحرص على التفاصيل المهمة، وحين انتهيت، نهضت المعلمة رؤية وسارت على مهل حتى توقفت أمام أحد الرفوف، مرت بأناملها على كعوب الكتب حتى استقرت على أحدها، أخرجته وعادت لتضعه أمامي، كان عنوانه: (التاريخ المنسي)، قالت وهي تجلس في مقعدها:
- «هنا تجددين ما حُكي حول سر الخلود، وحول إيجاد الحاكم رشيد له، وحول الحرب التي قامت وقتئذ.»
- «التاريخ المنسي؟ إذن كان ذلك حقيقياً!»
- «الحرب كانت حقيقية بلا ريب، لقد كانت الحقيقة المؤكدة الوحيدة وسط كل تلك التشابكات والتناقضات غير المفهومة، يمكن للناس أن ينسوا أي شيء أو يزيّفوه، إلا الدم، الدم دائماً مخزن في الذاكرة، لا تمتصه الأراضي، ولا تبتلعه ثغور النسيان!»
- «وسر الخلود، أيمن لشيء كهذا أن يكون موجوداً بالأساس؟»
- «شيء كماذا؟»
- «ك... كسر الخلود!»
- «وما الذي يفترض بسر الخلود أن يكونه؟»
- «كان الأولى بعقله أن يعرف، لربما كان إكسيراً ما، أو طلسماً سحرياً

مثلاً.. على أي حال، اسمه يعني ببساطة أنه سر يدل حامله على كيفية الخلود!»

- «إذن، ما سؤالك؟»
- «كيف يمكن لأي شيء أن يجعل المرء خالدًا؟!»
- «أنتِ تعترضين على المبدأ، أم على الكيفية؟»
- «أنا لا أعترض، لا يحق للمرء أن يعترض على شيء قبل أن يفهمه! ثم، أنا لا أعرف الكيفية كي أعترض أو أوافق عليها، إنه سؤال فقط، هل يمكن أن يوجد شيء من هذا القبيل؟»
- ابتسمت بخفة ولم تضيف شيئاً، وقررت بحسبة سريعة: إن كان أبي لا يعرف، فإن المعلمة رؤية-على الأرجح- لا تعرف أيضاً.
- «إذن، يفترض بي أن أجد إجابات لكل أسئلتني في هذا الكتاب؟»
- «لم أتوقع استنتاجاً كهذا منك يا غيم! أنتِ واعية بما يكفي لإدراك أن احتمالية إجابة كل أسئلتك معدومة، فضلاً عن أن تجديها مجمعة داخل كتاب واحد!»
- «لم أعطيني هذا الكتاب إذن، ما لم تكن فيه إجابة أسئلتني؟»
- «أولاً، أنا لم أعطك هذا الكتاب؛ لأنه ليس ملكي بالأساس، كل ما هنالك أنني أنصحك بقراءته في الوقت الذي تنئين بنفسك عن سماع هراء أديم فيه. ثانياً، لو كان عليك قراءة هذا المجلد بكامله لتقفي على معلومة واحدة قد تدلك إلى طريق قد يعينك على إجابة سؤال واحد من أسئلتك غير المحصاة؛ فإن هذا يكفي ويزيد! عملية التعلم ليست سهلة كما تظنيتها يا غيم، قد يُفني الإنسان عمره كله بحثاً عن إجابة سؤال دون أن يصل

إليها! الحياة لن تمدك بما تحتاجين إليه من معلومات بالتلقين والسر، ولن يكون بوسعك إيجاد حل سريع لكل معضلة في أي وقت، هذا كله يحدث في الصفوف الأولى عند بدايات الدراسة، حين يكون ناتج واحد وواحد هو المسألة الكبرى، والرقم اثنين هو الحل الجوهري الذي يجعل واجده ينام قريح العين؛ لأنه بمجرد أن تحل المسألة البسيطة، ستفتح الآفاق أمام المسائل الأصعب والمعضلات الأعقد، وستكون غامضة لمن يواجهها بقدر ما يكون مجموع الواحدين غامضاً لطفل في السادسة، وتستمر المسائل بالتدرج نحو التعقيد الأشد شيئاً فشيئاً، إلى أن يشاء الله!

لم يكن هذا هو الكلام الذي أحتاج إلى سماعه بالضبط في وقت كهذا، بدا ذلك محبطاً إلى حد ما، لكن المعلمة رؤية لم تكن تبحث عما يريحني، بل عما يفيدني، ونهجها هذا هو الذي وصل بها إلى الفصل من منصبها!

- «لكن، هناك أطفال يجدون الناتج سريعاً، ويتجاوزون الكثير من المسائل المعقدة في أوقات مبكرة، ربما لن يكون بوسعي حل كل العقد، لكنني سأحرص على حل أكبر قدر أستطيعه منها، بما يسمح به وقتي. الأهم من هذا كله، أنني سأجلك دائماً هنا، تعطيني النصيح وترشدينني إلى ما يمكن أن يقود إلى طرف معلومة قد تحيب على سؤال واحد من أسئلتني اللا محدودة! وهذا يجعلني متحمسة للاستمرار في البحث، والوصول إلى نتائج، ولو أدى ذلك لظهور مسائل أعقد!»

ابتسمت بسرور وفخر أمومي، وضعت يدها على كتفي وقالت:

- «ولو لم تجدينني يا ابنتي، استمري بالبحث على أي حال، استمري به لأنك تريدين الحقيقة، ليس لأجلي، ولا لأجل أي أحد في هذا العالم، بل لأنك تتعبدن لله بذلك، بإعادة الناس إلى الطريق الصحيح، ودحض أي فتنة يحيكها حائكو الفتن براءة وإتقان. أنا لن أكون هنا دائماً، وإن حرصت

على ذلك. لكن بوسعك أن يستمر البحث واستخراج الحقائق جاريًا ما دمت أنت موجودة يا غيم!

قبل أيام قلائل وعدتني بالبقاء جوارى دائمًا، وبأنني سأجدها في أي وقت أحتاج فيه إلى مشورتها؛ فلم يحيد حديثها عن هذا المفهوم منذ بداية محاورتنا؟!

- «فيم تفكرين يا ابنتي؟»

- «في.. في العجز صباية، لم أحدد موقفني من كلامها بعد، أوجب أن يؤخذ على محمل الجد وأبدأ بالبحث على أساسه؟»

- «حسب علمي هي امرأة واعية تمامًا، لكن كما أخبرتك، لا شيء موثوق مئة بالمئة؛ لذا يمكنك اتباع كلامها، لكن كوني مرنة بما يكفي لتقبل أنها كانت مخطئة في أي لحظة!»

هززت رأسي بفهم، ثم نهضت معلنة أن درس المعلمة (أهداب) على وشك البدء، لم تكن المعلمة أهداب عالمة كمعلمتي رؤية ووقار، لكنها كانت من المعلمات الجديرات بالاحترام، كانت كبيرة في السن، ومتدينة كثيرًا، وطيبة إلى حد غير معقول؛ لذلك تظن الفتيات قليلات التهذيب أن هذه إشارة تسمح لهن بالأكل والشرب والتحدث في قاعتها على راحتهن، وكانت المعلمة أهداب أكثر رفقا من أن تهدئن بحزم أو تمنعهن من التماذي، وللسبب نفسه كنت أحرص على حضور دروسها؛ لأشعرها أن هناك من يهتم بكلامها، ومن يكن لها الكثير من الاحترام. كدت أنصرف لكن المعلمة رؤية طلبت مني إعادة الكتاب الذي كانت تقرأ منه إلى الرف، وإحضار كتاب (منهاج الغارسين) إليها بدلًا منه.

- «معلمتي، أنتِ تقرئين منهاج الغارسين طوال الوقت، ألسنِ

تحفظينه؟»

- «أحفظه عن ظهر قلب، وأكرر قراءته وحفظه كل يوم، وأحرص أشد الحرص على عدم تفويت يوم دون أن يكون لي حظ من قراءة جزء منه، ولو يسيراً. نحن أقل إدراكاً وإحاطة مما نظن بكثير يا غيم، ولو لم نحرص على ما ينظم أوضاعنا ويحدد لنا أسس تعاملاتنا وعباداتنا وشؤون حياتنا لما استقامت أمورنا، ولبقينا نتخبط ونتردى بين الحفر والهاويات بلا أمل في الخروج أو الارتقاء، ولن تكون الصفراوية وقتها أسوأ ما يستبدعه العقول وتبحر في سخافاته وتفسد به عالمها!»

هزرت رأسي موافقة، أمسكت بالكتاب أمامها لأحملة، لكنني لم أتنبه لوضعية السبحة السوداء عليه، كان أحد طرفيها متشبهاً بزاوية الكتاب، والطرف الآخر عالقا في طرف الطاولة، ومع جذبي المتحمس للكتاب لم نر إلا حبيبات سوداء متطايرة في كل مكان!

- «يا إلهي! أنا آسفة! لم.. لم أقصد!»

- «اهدئي يا ابتتي، لا بأس، تفديكِ ألف سبحة!»

كان الارتباك قد بلغ مني مبلغه، أخذت ألملم حبات السبحة بيدين مرتجفتين وتمنيت أن الأرض ابتلعني قبل أن أوضع في هذا الموقف المخرج، تلفت حولي باحثة عن شيء يصلح لجمع الحبات فيه، ثم وجدته! وضعت يدي في جيب جلبابي وأخرجت الجراب الحريري الذي أهدتني تهر، أخبرتها أنني سأضع فيه شيئاً أثيراً ونفيساً يليق به، وأظن أن حبات سبحة المعلمة رؤية هي الشيء الملائم لهذا الوصف! وضعت الحبات فيه بينما أطلقت المعلمة تعليقاً ينم عن إعجابها به، أغلقتها ووعدتها بصوت شبه متناسك أن أصلحها بنفسي ثم أعيدها إليها، فكررت بابتساماة لطيفة أن (لا بأس،

فعلاً!)، لبیت طلبها بتبديل الكتابين ثم خرجت من المكتبة واتجهت لقاعة المعلمة أهذاب.

كنت أغالب النعاس بصعوبة، وبمعجزة أبقي رأسي مرفوعاً بدلاً من إراحته على الطاولة، صوتها الهادئ الرتيب، وموضع القاعة الذي يسمح بدخول شعاع أقل من الشمس، والخممول المسيطر على المكان، كل هذا جعل من التيقظ والانتباه عملاً بطولياً. وفي حين كنت أحسب الدقائق لانتهاه الدرس، محاولة إبقاء ملامح الاهتمام لحديث المعلمة على وجهي، مع وضع يدي في جيبي ومداعبة جراب تبر المحتوي على حبيبات السبحة، والهيمن في أفكاري وتحليلاتي عن مختلف الأمور - لمحت تهاجمات مريبة تدور بين الفتيات حولي، وكانت واحدة منهن - أريج تحديدًا - تستغل فرصة استدارة المعلمة لتغير مكانها وتنتقل من فتاة إلى أخرى، ناقلة إليهن الرسالة نفسها على ما يبدو، هل سيحين دوري في سماع كلامها يا ترى؟ الإجابة واضحة! ورغم ذلك كنت مصرة على سماع ما تقوله، خاصة أن شهوة بقيت تراقب من بعيد وتتبادل معها الإشارات الإرشادية من حين لآخر.

اقتربت أريج من شمعة الجالسة جوارى، وبحركة - حاولت قدر المستطاع أن تكون - تلقائية، وضعت رأسي على الطاولة قريباً منها، وأبقيت عينيّ مثبتة على المعلمة كي لا تلاحظ تركيزي معها، بالفعل لم تلاحظ، وسمعت الآتي:

- «أجل، شهوة هي من تجمع النقود، ستأكد من إعداد الأمور على أفضل نحو، لنكون جميعاً سعداء وقت الحفل!»

حفل؟ أي حفل؟!

- «لكن، أنت واثقة مما تقولين؟ أحقاً ستدخل عربة البهاليل المتنقلة

إلى قريتنا؟»

- «أخبرتكَ أن هذا خبر مؤكد من والد شهوة نفسه! لقد اجتمع مجلس الكبار مع أنور وقرروا السماح للعربة بالدخول! أخيرًا سنستمتع كما كانت كل القرى تفعل!»

هل هذا كابوس؟! عربة البهاليل المتنقلة في قريتنا؟! لطفك يا رب!
انتهى حوارهما بوعده من شمعة بأن تؤكد لها إن كانت ستحضر أو لا، مع إحصار المبلغ إن كانت ستحضر. ومعه انتهى وقت الدرس، انفصّلت الفتيات من القاعة، وعلى مهلي نهضت لأخرج بدوري، ويدي لا تتوقف عن مداعبة الحبات، وأذناي لا تكفان عن الطنين. اصطدمت بكتفي بقرة ما.. أوه! لقد كانت شهوة، وفعلتها عامدة! ثم التفتت ونظرت إلي وهي تقول بابتسامة شامتة:

- «ما الأمر؟ هل تفتقدين حليفك الزرقاء؟ لا تقلقي يا حياتي، قريبًا ستفنيك الصفراوية وإياها، ليس خارج دار المنارة فقط؛ فهذه الدار لن تعود مهمة ومقدسة كما أوهمنا أمثالكم، بل من قرية المروج، وقرى الصفراويين كلها!»
نظرت إليها ببرود ولم أرد، وكان ذلك كافيًا لإغاظتها وخروجها تضرب الأرض -المسكينة- بقدميها الغشيمتين.

(٦)

أنور، أنور، أنور!! يا للتكرار المخيف لهذا الاسم، يا لكثافة ذكره من حولي، أصبح وجود اسمه مقترناً بأي مصيبة أو قرار سخي يتم اتخاذه، لحد أنني فكرت -في لحظة ما- أن إبعاد أنور عن الصورة سيكون كافياً لإيقاف عجلة الفساد المتدحرجة، وإعادة كل شيء إلى سابق عهده. لكن لا، ليس والصفراويون في الوجود، ولا والمنّ يعيث في الزروع دون أن يُعترف بتواجهه حتى، ولا وأصحاب الأعين الزرقاء يحتلون قريتنا -بشكل أو بآخر- ويمثلون علينا ما نفعله. المشكلة ليست في قرار أو اثنين، أو في شخص بعينه، المشكلة في نظام حياة كامل.

رباه! يا للمصادفات! أهذا صوت أنور أم أنني أتوهم؟ هناك تماماً، وراء ذلك المنعطف. يتحدث بغضب وبصوت يحاول خفضه دون جدوى، واضح من نبرته أنه لا يرغب في أن يسمعه أحد. مع من يتحدث يا ترى؟ وهل قدّر لي أن أقع على كل المحادثات التي لا يرغب أهلها في أن تُسمع؟ هل يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي سأقع بها على الحقائق التي أبحث عنها؟

- «اسمعيني جيداً، لقد قلت ما لدي، وسأكرره بوضوح أكثر: أنا لن ألتمز الصمت لمدة أطول، تحملت الكثير ولم يعد بوسعي الاستمرار، كل ما فعلته كان تقديراً لكِ وصوناً للعشرة، لكن لكل شيء حدوده!»

أجابته زوجة أبيه وهي تضرب صدرها بيدها في ارتياح مفتعل:

- «أتهددني يا ابن مخمل؟!»

- «بل إن ابن جلال هو من يهددك الآن، الشاب الذي تولى حكم القرية، وأصبح أمان أهل القرية ومستقبلهم مسؤولية يحملها على عاتقه لآخر يوم في حياته. لقد قرطت في تلك الأمانة كثيرًا لحد الآن، وبوسع كل ذي عينين أن يرى سوء ما وصلت إليه الأمور، وإن كان أبي يستمع إلى ذلك المترهل الجشع إكرامًا لك ولأختك، وإن كنت سرت على خطاه لفترة من الزمن، فإن ذلك لا يعني أنني ملزم بالاستمرار في ذلك!»

إكرامًا لها ولأختها؟

- «وما الذي تريده الآن؟ ما شأني أنا بكل هذا؟!»

رفع إصبعه في وجهها بعصبية، وقال:

- «أبعدي شهاب عن هذا كله، واضح؟ هذا الفتى الشيطان نتاج تركك له مع خالته وابنيها القذرين، انظري إلى أين وصل، بلا أصدقاء، لا أحد يقترب منه أو يحدثه، منبوذ من الجميع، ثم أصبح حقودًا إلى أبعد حد، ومستعدًا لإيذاء كائنًا من كان بلا أي مبرر! لا تظني أنني أعمى أو أحمق، أو أن صغر سني سبب كاف لتجاهل حكمي الشرعي وتمرير ما لا أرضاه من تحت أنفي، أنا واع تمامًا لما يجري وقادر على منعه حالما أتخذ القرار، وقد تجاوزت عن أفعال شهاب الفظيعة مرة ومرتين، وراعت أنه طفل، وأنه أخي، لكنني أحذرك، لن تكون هناك الثالثة!»

- «اهدأ يا أنور من فضلك، لا تقحم شهاب في كل هذا، إنه مجرد طفل، وأنت لا تملك دليلًا على كونه ارتكب شيئًا مما تقول!»

- «كلانا يعرف جيداً أن كلامي صحيح، وبرغم ذلك، أنا لست مضطراً إلى إثبات شيء، في اللحظة التي سأرى فيها ملاحظة أخرى على هذا الصبي، سوف أتصرف، ولن يكون تصرفي لطيفاً؛ لذا سيكون من الجيد أن تقي ولدك غضبي!»

بقيت حلية صامتة، بدا الانزعاج والضيق واضحين على صفحة وجهها، فيها بقي أنور يفرك كفيه بتوتر، قال بعد لحظة صمت:

- «ثم، لماذا تظاهر بأنه لا يجيد السباحة حين حاولت غيم ابنة الشيخ مدرار مساعدته؟! ولأي غاية عرضها للخطر وسحبها للماء برغم أنه كان قادراً على إنهاء الأزمة كلها! التفسير الوحيد أنه تعمد إغراقها، كأنه يعوّض فشله في إيذاء وادع، خاصة بعد ما سمعه من أقاربه المحترمين حول هذه الفتاة، وبعد كل السموم التي بثوها في داخله تجاهاها!»

يا إلهي! كيف لم أربط؟ لقد قال وادع إن شهاب كان ممتازاً في السباحة، برغم ذلك كان يصرخ ويطلب النجدة، هل رأى أنني كنت واقفة هناك فدبر ذلك المقلب ليتخلص مني؟ أيعقل أن يصدر هذا الحقد والمكر في وقت بهذه الحُلَكة من صبي في هذه السن؟!

- «ولماذا تهتم؟ دعها تغرق أو تذهب إلى حيث ألفت، لم تكثرث إلى هذا الحد؟!»

- «لماذا أهتم؟ لماذا أهتم؟!»

قالها صارخاً بغضب مرعب، وبدا صوته مختنقاً بشكل غامض، من الغريب حقاً أن أستمع صدفة إلى حديث أنا محوره، وبين من ومن؟ بين أنور وزوجة أبيه!

تراجع أنور خطوة فتوهمت أنه على وشك مفارقتها، تراجعت ببطء

بدوري، لأدوس على غصن شجرة لا أعرف من أين جاء، لا بد من نهاية ملحمية لكل محادثة أستمع إليها، التفت أنور بانفعال نحو مصدر الصوت، وللمرة الألف، أطلقت ساقّي للريح، ها هو السوق النسائي يلوح من بعيد، سيكون ملجأ ممتازاً. بسرعة، بسرعة، ها نحن ذا، توقفت أمام أحد الدكاكين بين زحام النساء، وأخذت ألتقط أنفاسي بينما كاد قلبي يخرج من موضعه من شدة الخفقان. بعدما انتظمت أنفاسي قليلاً، رفعت رأسي لأرى الموضع الذي أتيت منه، يمكن رؤية المنعطف الذي كنت أقف عنده بشيء من التركيز، ها أنا أرى أنور يقف هناك بعيداً، لولا المبالغة لقلت إنه كان ينظر إلي بالذات، لكن ذلك شبه مستحيل مع عدد النساء الكبير، والحركة الدووبة في السوق، فضلاً عن بعد المسافة. رأيته -بصعوبة- ينحني، وبدالي أنه التقط شيئاً ما من على الأرض، ثم عاد أدراجه ليلتله المنعطف.

- «أتريدين شيئاً يا غيم؟»

أيقظتني السيدة بهيئة من شرودي بعبارتها، لقد وقفت أمام دكانها، فردت قامتني وتنحنحت، ثم قلت بصوت حاولت جعله متماسكاً:

- «بكم تلك اللعبة الخشبية؟ أجل، القوس والأسهم الخاصة بتدريب الأطفال؟ حسن، جيد، سأشتريها.»

طرقت الباب مرة، مرتين، لا إجابة، بدا ذلك غريباً بعض الشيء، سأطرق الثالثة وأذهب، ها نحن، لا رد أيضاً، لعلمهم خارج المنزل. استدرت وكدت أعود أدراجي، لولا أن أوقفني الصوت الرقيق لخالتي حسناء:

- «من بالباب؟»

- «أنا غيم يا خالتي.»

- «أوه، غيم!»

فتح الباب عن وجهها المليح، مع ابتسامة بدت دخيلة على الملامح الحزينة، شعرت أنها كانت تخوض معركة شرسة للتو.

- «في وقتك يا ابنتي!»

قطبت حاجبيّ مستفهمة؛ فأخبرتني أن تبر ترفض الأكل والشرب والخروج من غرفتها منذ عادت، عادت من أين؟ من دار المنارة، من بوابتها بالأحرى، وقد كانت صدمة لها أن يوقفها رجل عند باب الدار ويطلب منها العودة من حيث أتت لأن (لون عينيها مخالف)، بالنص. وزاد الطين بلة رؤيتها للآخرين يدخلون أمام عينيها دون أن يوقفهم أحد.

- «الآخرين، بقية الطالبات يعني؟»

- «بل ذوو الأعين الزرقاء، لكن من طلبة قاعات حارقي المحاصيل والفئات الأخرى، لم يُمنع إلا الزرق الغارسون!»

يا للـ... لا أعرف كيف أصفه! طرقت الخالة باب غرفة تبر ونادتها فلم تتلقَ جواباً، تنحت وأشارت لي كي أتكلم أنا.

- «تبر، افتحي الباب، هذه أنا، غيم.»

- «ادخلي.»

قالها صوت بائس من الداخل، نظرت إلى الخالة حسناء وابتسمت باقتضاب، كأنها تقول لي: (لم تكن لتجيب غيرك). لو لم أملك نعمة في الدنيا غير أن أحبائي يختصونني بالبوح، ويتقبلون كلامي وقت يرفضون كلام الجميع، لكفاهها وزيادة! فتحت الباب برفق ودخلت، في حين انصرفت خالتي.

- «هوني عليك يا تبر، خسروك ولم تخسري شيئاً!»
- «جميعنا كان يعرف أن هذا اليوم سيحين قريباً؛ فلم ألح علينا الشيخ مدرار بالبقاء؟ لم ننتظر حتى يطردونا بدلاً من أن نغادرهم نحن؟!»
- «أنت من أخبرتني قبل أيام فقط يا تبر، أخبرتني أنك تذهبن لتنصني عليهم، لترهمن أنك ستلزمين الحق وإن ضيقوا عليك، وأن قوانينهم لا تؤذيكم أكثر مما تؤذيهم هم، وأنت ستكونين شوكة في حلقهم، لترهمن كل أن أنهم لم ولن يستطيعوا فرض سيطرتهم الكاملة، لقد ذهبت لأنك أشفقت أن تبقى الدار تحت رحمتهم بينما يمكنك تغيير ذلك، والآن خرج الأمر من بين يديك، ولن تلومي نفسك يوماً على أنك تركت الدار للفسدة، بل إنك بقيت فيها ما دام ذلك ممكناً!»
- تنهدت بعمق، كأنها لم تتنفس منذ أيام، رمقتني بنظرة مستسلمة ولم تقل شيئاً، شممت رائحة زكية؛ فسألت:
- «ماذا طهت خالتي حسناء؟»
- «محشو الكوسا، لقد رجنتي أن أكل لكن شهيتي كانت مسدودة.»
- «لكنه طعامك المفضل! هيا يا فتاة، استعيزي من الشيطان، واذهبي لتحضري الصبحون، أنا جائعة بالفعل.»
- «رافقتيني.»
- «لا بأس، تفقدي الطريق.»
- «عمّ تتحدثين؟ أبي ليس هنا، إنه في دكانه.»
- نظرت إلى الشمس في استغراب، وقلت:
- «في دكانه؟ بعد الظهيرة؟ لكنه يغلق دكانه في هذا الوقت عادة، حتى

قبل الصفراويين ومقاطعتهم!»

- «أجل، لكن الإقبال كان فوق المعتاد اليوم، لقد استمر الزبائن بالتدفق كزبد البحر، وانتعشت المبيعات فجأة؛ لذا رأى أبي أنه من الأفضل إبقاء الدكان مفتوحًا، هذا الخير لا يأتي كل يوم.»

قالتها ونهضت خارجة من الغرفة فيما كنت أفكر، توقفت عند الباب ونظرت إلي تحثني على النهوض، قلت بحيرة:

- «أأنت واثقة من أن ما يحدث يندرج تحت قائمة (الخير)؟ هذا ليس.. مريحًا بالضبط!»

عقدت ذراعيها وابتسمت، وقالت بسخرية:

- «ما هي مشكلتك يا غيم؟ لم تفترضين أن كل شيء يحوي سرًا خطيرًا، أو أن هناك مؤامرة خلف كل حدث؟! الرزق لا ينتظر أسبابًا منطقية محسوبة بالورقة والقلم، الرزق يأتي على أي حال، شاء من شاء، وأبى من أبى!»

- «صحيح، لكن.. ما الذي جد وجعل الصفراويين يتخلون عن المقاطعة؟ ألا تظنين...»

- «ألا تظنين أنك تفكرين أكثر مما يجب؟ ارحمي رأسك قليلًا، لن تستطيعي معرفة سبب لكل شيء! عليك أن تسلمي بأن الكثير من الأمور ستحدث وستبقى أسبابها مجهولة تمامًا بالنسبة إلينا!»

مططت شفتيَّ بعدم اقتناع، ثم نهضت معها إلى المطبخ، أحضرنا الصحون وجلسنا، قلت لها وأنا أبتلع ما في فمي من طعام:

- «على العموم، لا تتحسري كثيرًا على مفارقة الدار، لقد عرفت اليوم بنأ مغادرة المعلمة وقار، والمعلمة عذبة، وعدد من المعلمات الأخريات، لم تبق

في الدار إلا المعلمة أهذاب، والله يعلم إن كانت ستستمر طويلاً بدورها! «
توقفت عن المضغ وتأملتنى بضع ثوانٍ في صدمة، كأنها تريد استيعاب
أنني أتحدث بجدية على عكس ما تظهره نبرة صوتي من تبسط وتفكه، وكنت
قد سردت الخبر بتلك الطريقة لأن عقلي لاكه على مهل وازدرد بصعوبة من
قبل، وساعده على ذلك استقرائي للأحداث، والذي يسفر -دائماً- عن أن
القادم أصعب مما فات.

- «لكن، ماذا بعد هذا؟ إنهم لم يمنعوننا -ذوي الأعين الزرقاء- من التعلم
وحسب، بل منعوا الجميع منه! ممن يفترض تحصيل العلم الآن؟ من أديم
وأشباهاها؟ لقد حكموا على الجميع بالجهل إلى ما شاء الله!»

- «لا أحد قادر على إلزام أحد بالجهل يا تبر، البقاء في الجهل قرار
شخصي، والخروج منه قرار شخصي أيضاً، كالاختيار بين إشعال المصباح
أو البقاء في الظلمة! المعلمات لم يكن أكثر من سبب واحد، وهناك ألف سبب
وطريق مختلف، لكن لن يراهم إلا العازم الجاد، الذي يستعين بالله أولاً ثم
يتجاوز الأبواب المغلقة لأنه يعرف أن الخير يتخذ هيئات غير محصورة، وأن
الساعي يصل، بمجرد أن ينوي الوصول!»

هزت رأسها ببطء تستسيغ كلماتي، ثم قالت:

- «وبم تنصحيني؟»

- «بما سأفعله من اليوم، وما سبقتنا إليه المعلمة رؤية، جميعنا نرى أن
الدار لم تعد معنية بالتعليم أكثر مما هي معنية بإرضاء غرور الصغراوين
وضلالاتهم، لم أعد مستعدة لترك أحد يملي علي ما أعتقد، سأبحث عن
الحقائق بنفسني، سأقرأ وأدقق وأحص المعلومات، وأتعلم التفريق بين الغث
والسمين، ومن الآن فصاعداً، سأكون مسؤولة عن أي معلومة أسمح لها

بسكنى عقلي، وأدعوك لفعل الشيء نفسه!»

هزت رأسها بين التخبط والموافقة، كانت موافقة على الفكرة، وحائرة بكيفية تنفيذها.

- «مجددًا نسير على خطى المعلمة رؤية، وكما كانت دليلنا إلى العلم أيام التدريس، ستكون دليلنا للوقوف على أول طريق البحث الآن، أبواب مكتبة دار المنارة مشرعة للكل يا تبر، ومدخلها منفصل عن مدخل الدار، وقد تأكدت من عدم وقوف حراس عليه أثناء عودتي، إنهم لا يأبهون لمنع أحد من دخولها، لأن أحدًا لا يهتم بدخولها من الأساس!»

الآن زالت حيرتها وبقيت ابتسامتها المطمئنة، كنا نعرف أن ما نقوله عائم جدًا، وأن الأمر لن يكون بالسهولة التي نتكلم ونخطط بها، لكنه يستحق أن نحاول ونجاهد من أجله، بل هو الشيء الوحيد الذي يستحق ذلك!

- «دعك من ذلك كله وأخبريني، ماذا فعلتِ بالجرب؟ هل وجدتِ ما تحمليه بداخله؟»

حدثتها بأمر السبحة السوداء المنفرطة دون أن أتطرق لحديثي الأساسي مع المعلمة رؤية. في العادة أحب مشاركة تبر بأسراري، أو وادع، أو -على الأقل- أبي، لكن حين يكون الأمر متعلقًا بساري؛ فإنني أفضل الكتمان حتى اللحظة التي يغدو الأمر فيها حقيقة لا مجال للتشكيك فيها، وأتمنى ألا تأتي تلك اللحظة أبدًا.

- «أوه، لدي بعض الخيوط هنا، هاتي الحبات ولنصلحها معًا.»

- «شكرًا لك، ها هي ذي.»

مددت يدي في جيبِي أفتش عنها، ليست هنا، الجيب الآخر، يا إلهي!

- «ما الأمر؟»

- «أنا لا أجد الجراب يا تبر، أين يمكن أن يكون؟!»

- «اهدئي، ربما نسيته في المكتبة، ذكرت أنك كنت مرتبكة بشدة من ذلك الموقف المخرج، ليس من الصعب أن تكوني قد تركته على رف مثلاً وخرجت مسرعة من دونه.»

- «ربها..»

فلتها بخفوت وعدم اقتناع، أكملنا طعامنا في حين انطلقت تبر تثرثر وكأنها لم تكن حزينة منذ دقائق، تبهرني السرعة التي تتجاوز بها أحزانها على الدوام، أحب أنها لا تترك شيئاً ينغص عليها أيامها، وأنها حريصة على اغتنام لحظات حياتها بشكل كامل. دخلت الخالة حسناء بعد قليل حاملة اللعبة الخشبية التي اشتريتها من السوق، وأخبرتني أنني نسيته عند الباب. حقاً، وضعتها حين كانت تحدثني بشأن تبر ونسيت حملها من جديد. سألتني تبر باستغراب عن السبب الذي قد يدفعني لشراء قوس وأسهم أطفال؛ فأجبت بغموض:

- «من المهم أحياناً أن يوسّع المرء دائرة معارفه، وأن يكتسب أصدقاء في كل مكان، ومن كل الأصناف والفئات، سيكون من الرائع -على سبيل المثال- الحصول على صديق طفل!»

أمعنت النظر إلى وجهي ثم انفجرت في الضحك، أخبرتني أن أسلوبني في المزاح يذكرها بأسلوب ساري، شاركتها الضحك، دون أن أضيف أنني لا أمزح، وأن ساري -في الأغلب- لا يمزح أيضاً.

لمحت أبي يوقف عربته التي يجرها الحصان العجوز والحمار الرمادي قرب المنزل قبل وصولي بثوان، ورأيتها محملة بالصناديق المعدنية التي استلمها أبي من الحداد حصين قبل أيام. دخل ودخلت وراءه، كان يعلق عباءته ويتحرك بعصبية واضحة، بينما بدا أن أمي المنشغلة في المطبخ لم تنتبه لعودتنا.

- «أبي...»

- «عرفت.»

قالها بغضب، ثم ارتمت على الأريكة وأخذ يفرك جبينه في إرهاق وضيق. أخذت اللعبة الخشبية إلى غرفتي تاركة مساحة له كي يستعيد هدوءه، وحين عدت وجدته يسند رأسه على مسند الأريكة مغمضاً عينيه، قال دون أن يلتفت إلي:

- «لقد عدت متأخرة، هل لا زلت تملكين قوة لفعل شيء؟»

لم أفهم ما يريده بالضبط، قلت بصوت خفيض:

- «يمكنك طلب ما تريده يا أبتني، لم تعد الدراسة تستغرق ذلك المجهود كله، لم تعد هناك دراسة ولا تعلم من الأساس.»

أخذ نفساً عميقاً وخيل إلي أن هناك ما يؤلمه، قال بخفوت:

- «لم يعد الكلام يجدي، لا خير يُرجى ممن استبدل العقيدة بالهوى!»

ثم فتح عينيه ببطء ونظر إلي قائلاً:

- «أريد منك قيادة العربّة والذهاب إلى المزرعة، لكن أولاً اجعلي وادع يرافقتك، واجعليه يعلمك كيف تستخرجين البذور من النباتات المختلفة، وتعاوننا على تعبئة كل نوع منها في صندوق منفصل، وإذا زادت أنواع البذور فقسّمها الصناديق بطريقة ما ليحتوي كل صندوق على أكثر من نوع.»

ابتلعت ألف سؤال عن مغزى ما يطلبه، لم يبدُ في صحة جيدة للجدال أو إجابة الأسئلة.

- «ماذا عن ساري؟ قد يستطيع المساعدة، إنه يعرف الكثير عن النباتات.»

- «لا لا، دعك من ساري، افعلي كما طلبت منك.»

غريب، لم لا يريد إشراك ساري؟

- «كما تحب، أتعرف تحديدًا أين أستطيع إيجاد وادع؟»

- «كان يساعد والده في الدكان، الزحام اليوم غير منطقي، أستغرب أن جواد لم يشعر بالارتياح حيال ذلك. على كلٍ، لقد خف الضغط الآن، سيكون بوسع وادع أن يرافقتك.»

إذن أبي لاحظ ما لاحظته، رغبة الناس المفاجئة في الشراء من العم جواد لا تبعث على الارتياح، أرجو أن يكون الأمر خيرًا.

- «لا تفكري كثيرًا يا غيم، الغامض الآن سيتضح غدًا، وعندما يأتي الغد؛ سنرى.»

ابتسمت باقتصاب، لم أسمع هذه العبارة منذ زمن. خرجت أُمي من المطبخ لتفاجأ بوجودنا، وبمنظرة واحدة إلى أبي -الذي أغمض عينيه مجددًا- انقلب وجهها، نظرت إلي مستفهمة، كأنها تسألني إن كنت أرى مظهر أبي مقلقًا كما تراه هي. هزرت رأسي ببطء فهرعت أُمي لتعد كأسًا من الينسون بالعسل.

- «غيم، ماذا تفعلين هنا؟ هل تريدين شيئًا بعينه؟»

- «وادمع، هل أنت مشغول؟ أبي يريد منك خدمة.»
- نظر وراءه إلى حيث دكان والده، لم يبقَ إلا زبونان أو ثلاثة، هز رأسه وهو يقول:
- «أظن أن الزحام الشديد قد زال، بوسعي مرافقتك.»
- أشار إلى والده يستأذنه فأومأ له بالسماح، قفز إلى جوارى وأمسك لجامي الحصان والحمار، نظر إلى الصناديق نظرة متسائلة وقال:
- «ما الأمر؟ هل كل شيء بخير؟»
- حكيت له الخلاصة، وحين سألتني عن السبب الذي يجعل أبي يطلب شيئاً كهذا، أعلنت جهلي بصراحة، وأفهمته سبب عدم سؤالني، وحكيت له عن مزاج أبي المتعكر وإرهاقه الشديد.
- «لعله الوحيد في القرية الذي تضايق من القرار، باستثنائنا أعني.»
- «أقول لك كما قلت لتبر، هم الخاسرون لا أنتم.»
- هز رأسه متظاهراً بعدم الاهتمام، قال مغيراً الموضوع:
- «بخصوص هجوم ذوي الـ... أعين الزرقاء غير المبرر، هل وصلك تبرير السفير لذلك؟»
- اعتدلت وحشته على المتابعة باهتمام.
- «قال إنها فرقة منشقة من ذوي الأعين الزرقاء، وأن تصرفاتهم لا تمثل قريتهم ولا حكامهم، مجرد مرتزقة يحبون إحداث الشغب والإفساد في الأرض والتفريق بين (المتحايين)، ذكر الكلمة الأخيرة حرفياً.»
- «وعلى افتراض أن كل هذا الهراء حقيقي، ما معنى أنهم لا يمثلونهم؟»

لقد وضع حاكمنا يده في يد السفير رغبة في إنهاء هذه الهجمات؛ فما الذي استفدناه بعد الموافقة على الشروط وتغيير قوانيننا إن كانوا سيستمررون في أفعالهم؟! من الملام إذن؟ لمن نتجه بالاعتراض؟!

- «اشترينا سمكاً في ماء، هذا ملخص ما حدث.»

- «وبعد؟ هل سيستمر الاتفاق بهذا الشكل؟ اتفاق أعرج يحافظ عليه طرف ويتجاهله طرف؟ خاصة أن شروطنا كانت أن يتوقفوا عن مهاجمتنا فقط، بينما تدخلت شروطهم في أبسط أمور حياتنا!»

- «هل ترين أحداً مستعداً لإيقاف الهدنة المزعومة وإعلان الحرب بجدية؟ الجميع مرتاحون هكذا، بينما وبين ذوي الأعين الزرقاء هدنة، ونحن قوم متحابون ومتفاهمون ومنفتحون، الجميع ينظر إلى الشكل العام، لا أحد يدقق في الحقائق.»

زفرت بقوة وبقيت أنظر حولي غير واجدة ما أقوله، نظرت إلى وادع مجدداً وسألت بريية:

- «لحظة، من أين عرفت كل هذه التفاصيل؟»

نظر إلي بنوع من الدهشة وهو يقول كمن يدافع عن نفسه:

- «من أين عساي آتي بها؟ لن يخبرني بها أقربائي الزرق مثلاً، لقد حكى لي أنور كل شيء.»

- «لا وادع، أنت تعرف أن هذا ليس قصدي!»

علي أن أخفف من حدة كلامي بعض الشيء؛ فكما أملك هموماً وهو اجس خاصة، الجميع لديه ما يكفيه ويزيد، ووادع فسّر ما قلته -وأنا أفكر في شيء مختلف- على ضوء ما يواجهه يومياً من تشكيك وارتباب وطعن في الشرف

والأمانة. الجميع يخطئ أحياناً، لكن معالجة الخطأ تختلف بحسب نوعه؛ فبعض الأخطاء يمكن إصلاحها وبعضها لا يملك تصحيحها أحد، ومن ضمن ذلك التصنيف الأخير، كان خطأ وادع الذي استحق عليه اللوم والإهانة، ولم يحاول أحد غفرانه له، أن كان لون عينيه أزرق!

- «لا بأس يا غيم، أنت بالذات لا يمكن أن تعني ذلك، لكنني اعتدت أن ألتقى الاتهامات من حين لآخر، لذا...»

وضعت يدي على كتفه مواسية، على هذا الشاب أن يكون أقل رفقا، وأن يتعلم من تبر.

- «لا يفترض بك أن تبرر للجميع، أو أن تتخذ موقفاً دفاعياً طوال الوقت، اختر من يهكم أمره، ومن سيعنيك أن يفهمك بشكل صحيح، وركز معه وحده، أولئك المتربصون سيجدون ألف سبيل لتخوينك وجعلك تظهر بمظهر سيئ حتى أمام نفسك، لا تكثر لهم يا وادع. أنت تعرف نفسك جيداً، وأي شخص يعرفك ولو لأيام سيدرك أي شخص تكون، ترفق بنفسك!»

ابتسم بحزن وهز رأسه، تنهدت وعدت إلى مسار الحديث.

- «لم أعرف أن علاقتك بأنور قوية إلى درجة تدفعه لإخبارك بما يدور في المجالس الداخلية.»

- «ما بك؟ نحن هكذا منذ كنا صغارا، لم يتغير شيء، أنا أنا، وأنور لا يزال أنور، وعلاقتنا هي نفسها!»

- «لكنني لا أذكر أنني أراك ترافقه كثيراً، هو دائماً محاط بمجموعة من الشباب الذين لا أعرف معظمهم، وأنت دائماً في الدكان أو بمفردك أو مع ساري!»

- «مع ساري؟ متى رأيتني أجالس ساري؟»
- نظرت إليه بدهشة، أحياناً تثبت لدى المرء فكرة ما دون أن ينتبه لحقيقة أنه لم يرَ أي شيء قد يؤكدها، صدقاً، متى رأيت ساري ووداع معاً آخر مرة؟
- «هل بينك وبينه شيء؟»
- «إطلاقاً، إنه أخي وأنا أحبه، لكنك تعرفين ساري، ليس من النوع الذي يعشق الناس، إنه دائماً صامت ووحيد وغامض، ويُشعري برغبته في الانفراد في كل مرة أحاول فيها البقاء معه.»
- مفهوم تماماً، هذا هو ساري كما أعرفه!
- «لم تخبرني عن أنور، هل يشعر بالخزي لمرافقتك أمام الآخرين فيكتفي بالانفراد بك سرّاً في وقت فراغه؟»
- التفت إلي باستنكار شديد.
- «لم تقولين هذا؟ بالطبع لا! إنه يدعوني للجلوس معه ومع الآخرين طوال الوقت، وأمام الجميع، أنور شخصيته قوية ولا يهمه رأي أحد، إنه ينفذ ما يريده وحسب، كما أخبرتك، هو هو أنور الصغير الذي تعرفينه، اللهم بتعقل أكثر وشهامة أشد!»
- «لم لا ترافقه إذن؟»
- «لأنني.. لا أحب أن.. أعني...»
- وصمت بعد لحظات من الكلمات المقطّعة المرتبكة، حاولت أن أخمن ما يريد قوله لكنني لم أفجح. أخيراً، ها هو آخر منعطف، وها هي بوابة المزرعة تلوح في الأفق، وها هو.. لحظة، أهذا ساري؟
- «مرحباً ساري.»

- «أهلاً يا شباب، فيم اجتماعكم؟»
- «مهمة بسيطة، لن تعرض المساعدة طبعاً، صحيح؟»
- قالها وادع بتلقائية مضحكة؛ فبدت لساري كالمزحة.
- «لا أحد يريد أن يتعب، سأدعو أن يوفقكم الله.»
- قالها ضاحكاً فضحك وادع، بينما بقيت محتفظة بالهيئة الصارمة التي قررت مقابلته بها حتى يتبين لي اليقين من الشك، لكن هذا لم يعجبه، لا بد من إلقاء نكتة ما أو إثارة غيظي.
- «غيم، هل أصابك الصمم أخيراً؟ أم إنه الخرّس؟ يمكنك أخذ دروس في الإشارات عند وسم صانع المربى!»
- قهقهه وادع باستمتاع، ليس السبب أن نكات ساري تروق له، بل لأنه طيب لحد أن أي نكتة من أي شخص تروق له!
- «يا لك من شخص لطيف ومشغول بمصالحنا يا ساري، كيف حال خالتي ودود؟»
- «لا أدري لماذا أشعر أنك تلمحين لشيء لا أفهمه، على أي حال، أُمي بخير، كالعادة.»
- «بخير، كالعادة؟»
- لم يكثرث بالرد، ابتسم ببرود ولوّح بيده مودعاً، كاد ينصرف حين انتهت لشيء.
- «لحظة! ماذا كنت تفعله هنا؟»
- «أرصد حالة الطقس، الموضع مرتفع!»

- «أتحدث جدًّا، من أين أنت أت بالضبط؟»

وشملته عيناى باحثه عن شيء رأيتة كثيرًا في الآونة الأخيرة، الجراب الأسود، لكنه لم يكن في يده، لمحت طرفه ظاهرًا من جيب سروال ساري، إذن هو فارغ، أو (تم إفراغه).

- «هل تحقيقين معي؟ هل تم تعيينك أخيرًا ضمن رجال الحماية؟ أم أن طرقات القرية صارت ضمن أملاكك؟»

نظرت له بضيق ولم أعلق، اقترب مني وركز عينيه في عيني، قال بجفاء لم أعتده منه:

- «لا أدري ما مشكلتك بالتحديد، لا يعجبني حالك مؤخرًا، لكنني أنصحك بالابتعاد عني.»

لن أكذب، لقد شعرت ببرودة وخوف يعتصران قلبي لثانية، استدأر ساري وابتعد دون كلمة أخرى، وخطر لي أن صبره علي قد بلغ حده.

- «احم.. ما هذا الذي حدث تحديدًا؟»

- «ليتنى أعرف.»

قلتها هامسة وعقلي يفكر بشرود، أترأه يعرف أنى أنقب خلفه، ويخشى من افتضاح أمره؟ أم إن الأمر لا يعدو كونه غاضبًا من أسلوبى المتشكك المستمر؟ كان وادع ينظر إلي كأنه يرى مصيبة بعينه، يمكن أن يعتبر هذا الموقف مشاكسة عابرة بين أخوين لأى أحد يراه، إلا وادع، إنه يخشى من أقل مشكلة، ويخاف من حدوث سوء فهم بين أى اثنين، إنه حريص على أن يكون كل شيء على ما يرام، كأن عقله لا يستوعب حقيقة أن الحياة لن تسير أبدًا بالطريقة التي نريدها! نزلنا في المزرعة صامتين، كأن الطير يقف على

رأسينا، أنزل وادع الصناديق من العربة رغم ثقلها، وخطر لي كم أن قوته الكبيرة تتعاكس مع طبيعته الرقيقة، فتحت أول صندوق ونظرت في داخله بفضول؛ فوجدته مبطنًا بفروع خشبية رفيعة لها مظهر غير مألوف، نظرت إلى وادع وقلت بحيرة:

- «وادع، هل تعرف فروع أي نبتة هذه؟»

أنزل الصندوق بين يديه وأتى ليلقي نظرة، تحسس الفروع بيده وقال مشاركًا إياي حيرتي:

- «لا أعرف، لا أذكر أنني رأيتها من قبل، شكلها غريب!»

ربما لو كان ساري هنا لعرف، وادع خبرته أكبر فيما يتعلق بالبذور بناءً على نشأته في منزل أكبر بائع بذور، أما ساري فهو مزارع بارع بالفطرة، ثم إنه ملم بأنواع النباتات وأشكالها وخواصها.

- «على أي حال، لننه ما أتينا لأجله.»

قضيت وقتًا ممتعًا وشاقًا في الحين نفسه- وأنا أحاول استخراج البذور من جوف النباتات، أو من براعم الزهور، أو من أي مكان كانت فيه، لربما كاد وادع يصاب بالشلل وهو يرى تجاربي العقيمة، لكنه -والشهادة لله- كان صبورًا بما يفوق الوصف، وبقي يعلمني ويحاول معي حتى تمكنت من استخراج الكثير من الأنواع، ربع الكمية التي استخرجها هو على الأكثر. وقف وادع بعد انتهائنا ممسكا ظهره بتعب، نظر إلى المزرعة حوله وقال:

- «كم نوعًا يزرع والدك هنا؟»

- «في الأساس، أبي زرع سبعة أنواع من النباتات المختلفة؛ ولهذا جلب سبعة صناديق، لكن هناك بعض الاستثناءات، كشجرة الأراك الوحيدة

تلك، وحشيشة من نبات ما نمت عنوة هناك في منأى عن جميع النباتات، ونبته الأغاف التي جربت زراعتها في تلك الناحية، والتي لا تنوي الإزهار قريباً على ما يبدو. أظن هذا ما عناه بالبذور الفائضة التي يجب أن نقتطع لها جزءاً من مساحة الصناديق.»

- «العم مدرار لا يريد التفريط في تخزين شيء، كأن النباتات ستنقرض من العالم!»

فعلاً، كيف لم أفكر في هذا؟! لقد كان مقصد أبي من كل هذا الاحتياط ليوم قد لا تتوفر فيه النباتات، أو لا نتمكن من اقتناء المزيد من بذورها! ما هي رؤية أبي للمستقبل يا ترى؟ أين يظن أن مزرعتنا هذه ستذهب، أو كل المزارع الأخرى؟ فكرة مخيفة، والمخيف أكثر أن أبي هو من فكر فيها!

- «غيم، تذكرت، أين تلك المساحة التي عريتها بسبب المن؟ أريد أن أراها، أبي طلب مني التحقق من نظافتها.»

سحبته من يده وتوجهنا نحو تلك المنطقة، فيما كان يأخذ مني معلومات حولها كأنه حكيم يسأل عن تاريخ المرض، أخبرته بنوع النباتات ومساحة الأرض وأن أبي استعان بالعم جواد لينشر نوعاً من مبيدات الآفات داخل مياه الري، نوع خاص ركّبه بنفسه كي يشفي الأرض من جهة، ولا يلحق ضرراً بالنباتات التي تحصل على سقايتها من نفس القناة من جهة ثانية، ووضعها في القناة تحديداً لأن المعروف عن المنّ أنه يتكاثر عبر مياه الري، وأن محاربته هناك هي الطريقة الأنجع لإبادته.

- «هنا تماماً.»

ألقي وادع نظرة واسعة على المنطقة التي قلب أبي تربتها -بمعونة سهل- توطئة لإعادة زراعتها، بعدما اختفى المنّ بما لا يدع مجالاً للشك. سألته عن

رأيه لكنني وجدته يركز أنظاره في شيء بعينه، التفّت إلى حيث ينظر ودقت؛ فرأيت نبتة غريبة الشكل تنتصب واقفة بلا مبالاة وسط المساحة العارية، كيف ظهرت هذه ومتى؟

- «ما هذه يا غيم؟ ولم زرعتموها هنا بالذات؟»

- «ليست لدي فكرة.»

- «لربما زرعها عمي مدرار؟»

قلت وأنا أسير -بخفة- فوق الأرض المقلوبة نحو تلك النبتة المتطفلة:

- «لا أظن، أبي لم يأت أمس، وقبل أمس كنت هنا معه، ولم تكن هذه موجودة.»

- «هل تعنين أنها ظهرت اليوم أو أمس فقط، وأن من زرعها ليس أنت أو عمي مدرار؟»

نظرت له بغيظ، إنه بارع في الاستنتاج فعلاً! انحيت ألقى نظرة على النبتة، شكلها غريب، لكن هناك جزءاً في خلفية عقلي يجعلني أعتقد أنني رأيتها مسبقاً، أين؟ أين؟ تماماً!

(لم أتنبه إلى أن يده كانت ترتجف، أفلت الجراب من يده ليسقط على الأرض وتتناثر محتوياته، نظر إلي بضيق وانحنى ليلملم ما سقط، في حين كنت أتأمل تلك النباتات غريبة الشكل في حيرة، انحيت أساعده في التقاطها فمنعني بإشارة حازمة من يده، أنهى جمعها ووقف ليثبت الجراب في سرج حصانه...)

ساري! لقد كان يتسكع في الجوار، لم؟ ماذا عن تلك النباتات العجيبة التي كان يحصل عليها بكميات كبيرة ولأسباب مجهولة؟ ولماذا يحاول دائماً إخفاءها وعدم التحدث عنها؟ ثم الأماكن التي يحضرها منها، أولاً من عند عربة البهاليل، ثم من عقلة المثير للريبة. والأهم من ذلك كله، ما الذي يهدف إليه بغرسها هنا تحديداً؟

دون تردد، مددت يدي وانتزعت النبتة بكل ما أوتيت من قوة، اقترب مني وادع وقال باستغراب:

- «ماذا هناك؟ هل تعرفتِ النبتة؟»

- «لن أنتظر حتى أعرفها، إنها تحمل مظهرًا غير مريح، وأنت من طريق غير مريح، وهذا يكفي!»

- «أي طريق تقصدين؟»

ألقيت النبتة جانباً ونفضت يديّ، قلت وأنا أستدير عائدة إلى حيث العربة:

- «هيا يا وادع، لنحمل الصناديق ونذهب.»

نظر إلي بعدم فهم للحظات، ثم أذعن وسار خلفي ليحمل الصناديق.

رص وادع - بإشراف أبي- الصناديق المعدنية داخل غرفة شبه مهجورة في منزلنا. وحين انتهى وادع من مهمته كانت عروق رقبتة نافرة، ووجهه -المحمر أصلاً- شبيهاً بالطماطم، لقد حمل الصناديق بمفرده عدة مرات، دون أن يشتكي أو يتذمر، لعل أبي اختاره لهذا السبب بالذات. ثم انصرف بعد أن شرب كأساً بارداً من عصير الليمون، أعطته له أمي كي يجد ما يكفيه من

الطاقة للعودة إلى منزلهم. وحين انفردت بأبي في جلسة ليلية صارت شبه عادة لنا هذه الأيام، تأملت أولاً وجهه، واطمأنت إلى عودة لونه الطبيعي إليه، وزوال آثار الإرهاق التي كانت تكبله عصر اليوم، لم أكن واثقة من أن تجديد ضيقه سيكون خياراً صحيحاً، لكن كان لا بد من معرفة رأيه.

- «أبي، هل صحيح ما يقال بشأن.. عربة البهاليل؟»

نظر إلي بهدوء ورشف من كأس الشاي في يده، شاي في الليل، ها هي عادة جديدة غريبة عن أبي تُضاف إلى سابقتها.

- «صحيح أو لا، ما الفارق؟»

- «كيف ما الفارق؟ هل يتساوى وجود عربة عامرة بكل أنواع المفاسد والموبقات داخل القرية وعدمه؟»

- «بالطبع لا، لكن لو لم تدخل العربة فسيجدون شيئاً آخر يبعث الفساد، سبق وأخبرتكَ يا غيم، المشكلة متأصلة ومتشعبة، وجذورها أعمق من أن تُنتزع بمنع احتفال مثلاً. وكلامي لا يعني أن دخول العربة إلى قريتنا بهذه البساطة بعدما مُنعت زمناً، وبعد ما رأيناه من الأذى الذي سببته في القرى التي دخلتها، أمر عادي، أو أنني أوافق عليه، أو حتى أنني ادخرت جهداً في محاولة إثباتهم عن هذا القرار الأخرق. فقط ما أقوله أننا ننحدر بأي حال، وأن دخول العربة لن يفعل أكثر من زيادة سرعتنا في الهبوط.»

- «ولهذا اتخذت احتياطاتك عن طريق تخزين البذور؟ نوع من ادّخار القرش الأبيض لليوم الأسود.»

هز رأسه ببطء وتنهّد، لشد ما تغير أبي خلال العامين الأخيرين، وتغيّر أضعاف ذلك بعد مرض الحاكم، لو كان بوسعي أن أستنتج شيئاً لقلت إن أنور لا يصلح للحكم بحال.

- «وما توقعك للقادم؟ أن تختفي النباتات من الأرض؟ أم أن يسيطر حارقوا المحاصيل على القرية، ومن ثمّ يمنعون الزراعة أو تداول النباتات؟ أم أن المنّ سيقضي على كل شيء؟»

- «لا شيء من هذا، لو كان خطر سيحيق بغارسي الفسائل فإنه سيكون على يد غارسي الفسائل أنفسهم. لا أريد التعمق في خاطر كهذا، لكن لو بقي الحال على ما هو عليه فإن هناك مآلاً واحداً لهذه القرية، ولنا جميعاً.»

ابتلعت ريقى -أو ما وجدته منه- في توتر، في كل لحظة يتضاعف القلق في صدري عدة أضعاف، ويزداد الشعور الثقيل بالعجز، أريد أن أغيّر هذا كله بفرقة من إصبعي، أريد أن أنام وأصحو فأجد القرية التي ألفتها وأحببتها، والناس الذين أعرفهم بطباعهم التي اعتدت عليها، وأحياناً أعود لأسأل نفسي: أيعقل أننا نبالغ قليلاً؟ أليس من الممكن أن تكون الصفراوية محقة مثلاً؟ أو -لمبالغة أقل- ستكون مجرد بدعة عابرة كما ظنت المعلمة وقار في بادئ الأمر؟ ربما لا يكون استثناء ذوي الأعين الزرقاء مصيبة كبرى كما نراها، أو ربما هم يستحقون نفور الناس منهم. أقلّب الأحداث على كل الأوجه؛ فلا يتغيّر أي شيء، وأجدي عائدة إلى نقطة الصفر من جديد، كل ما يحدث خاطئ، والأوضاع كلها مقلوبة رأساً على عقب، لكن تعديلها ليس سهلاً، وليس صعباً، بل هو أقرب إلى المستحيل!

- «لكنني سأجتمع بأنور في الغد.»

قالها أبي فانتشلتني من هاوية التشاؤم التي سقطت فيها، هل يوجد ما سيشعل ولو شعلة ضئيلة من أمل؟ تابع أبي بتمهل:

- «على انفراد، أخيراً.»

- «ممتاز، وفيّم سيكون اجتماعكم؟»

مط شفتيه وبدا غير مقتنع بجدوى الأمر كله، منذ زمن لم أر أبي متخلفاً عن عادته في الإقدام على ما سيعمله بشغف وحماس، كان يحرص دائماً على وضع كل طاقته فيما يعمل، لكن من الواضح أنه لن يكون كذلك بعد الآن.

- «موضوع الدار إياه، لقد صرت عاجزاً تقريباً عن منع المفساد، فلأحاول -على الأقل- تحقيق بعض المصالح، ربما لو تمكنت من إعادة ذوي الأعين الزرقاء للتعليم كالجميع...»

مجدداً مط شفتيه، قلت بمزيج من الألم والحذر من إحباطه:

- «أنا آسفة، لكن الصفراوية قالت كلمتها، لم يعد الأمر في يد أنور، ولو حاول التراجع عن قراره فسيجد ألف صوت يعارضه ويطالب بعزله شخصياً، الصفراوية مسعورة يا أبي، وعمياء، ليس لها توجهات أو انتماءات واضحة، من يتبعنا بلا جدال هو معنا، ومن يحاول التفكير في ضد قراراتنا سيتخذ مكانه في القائمة السوداء بلا رجعة!»

- «وهل تظننني لا أعني ذلك؟ أنا.. أنا فقط.. أحاول فعل أي شيء!»

قالها بوهن فظيع، العجز يحاصره أيضاً، والأسوأ، أنه يجعل شعور الذنب يلاحقه طوال الوقت، لقد كان مستشار الحاكم الأول فيما مضى، وكانت قرارات القرية لا تخلو -يوماً- من مشورة أبي وتوجيهاته وأوامره، والآن هو عاجز عن تغيير موضع مقعد داخل الدار، الدار التي تعاقبت الأجيال من معلمين وطلاب علم عليها بينما بقي الشيخ مدرار علامتها الثابتة، الدار التي بات ينظر إليها بحسرة وألم، كأنه ينظر إلى أمه في نزاعها الأخير، أو إلى مسافر سيغادر إلى الأبد.

- «ربما ليس علي قول هذا، لكن لا تحاول يا أبي، لا تتعب قلبك في محاولة لن تجدي، هب أنك نجحت في تغيير هذا الموقف وعاد ذوو الأعين

الزرقاء إلى الدراسة، ماذا بعد؟ من سيعيد المعلمين العالمين؟ ومن سيصحح أفكار الشباب المنحرفة؟ الأمور لن تعود لسابق عهدها يا أبي!

نظر إلي ملياً، أو ربما، نظر عبري، لم يكن ما فعلته أكثر من إعادة كلامه السابق حول عربة البهاليل، الأمر أكبر من قرار أو اثنين!

- «لا زال علي لقاء أنور، هذا الشاب بحاجة إلي، والقرية كلها كذلك، لقد وعدت الحاكم ولن أخلف وعدي.»

وهو بحاجة إلى ذلك، بحاجة إلى أن يشعر بجذواه، أو بأنه يقوم بأي شيء كما قال.

- «أعانك الله يا أبي، ما دام هذا ما تريده. بالمناسبة، كيف هو الحاكم؟»

- «يتحسن ويتدهور بلا توقف، ولهذا لا يذيعون نبأ استيقاظه؛ لأنه لا يكاد يستيقظ حتى يغط في غيبوبته من جديد.»

- «ولم يتوصل العم جواد إلى ما قد يساعد؟»

هز رأسه بصمت نافيًا، بينما كنت أتردد بين البوح له بما سمعته من محادثة أنور وحلية أو كتمان الأمر، أخيرًا فضلت الاحتفاظ بمعلوماتي لنفسِي، لن أزعج أبي حتى يكون لدي خيط حقيقي أمسك به، وحتى ذلك الوقت، سأبقى أجمع أجزاء اللوحة وأرتبها قطعة جوار قطعة، إلى أن أصل، أو أرحل وأنا أحاول.

خرجت أمي من غرفة النوم فاركة عينيها في انزعاج، طالبت أبي بالدخول للنوم؛ فأخبرها -بهـم- أن النوم ليس السبيل الوحيد للراحة، وأن بعض أنواع التعب لا يشفيها النوم، فطلبت منه -بتبرم- أن يتوقف عن فلسفة كل شيء ويخلد للنوم وحسب، هكذا انصاع لها، نهض ليدخل خلفها فيما

كنت أضحك من الموقف، نفش أبي شعري بيده وهو يقول ضاحكاً بإرهاق:

- «لا تضحكي، كلمة أملك لا ترد!»

تابعت الضحك حين توقفت أُمِّي واستدارت إلي فجأة.

- «وأنت، ما كل هذه الفوضى؟ لم لا تخلدين للنوم كالبشر ليلًا؟»

أخبرتني أنني سأنام حالاً؛ فأغلقت باب الغرفة وهي تلقي تعليقاً حول كوني طفلة تحتاج إلى متابعتها في كل خطوة. الحق أن أُمِّي تغيرت أيضاً، لطالما كانت تتسم بسعة الصدر والصبر، وتأخذ الأمور من منطلق بسيط وسهل، لكن ظروف القرية طالت الجميع، بالإضافة لاشتداد المرض على خالتي، آخر من بقي من عائلتها، وكذلك وجوم الخالة حسناء الدائم، كل شيء تدهور في وقت قياسي.

ذهبت لغسل وجهي، لم يكن النوم أول ما سأفعله الآن، لا زال يتعين علي كتابة ما يدور في عقلي من أفكار، وتفنيد استنتاجاتي وتحليلاتي كالعادة، رفعت رأسي إلى المرأة، كان شعري متنفساً بفعل يد أبي، لسبب ما شعرت أن شكله هكذا أفضل، وأنسب، لا أعرف لماذا تحديداً. فككت شريط شعري وأعدت للممته.

من باب التسهيل على نفسي، واختصار مدة الكتابة كي أخلد للنوم سريعاً، قررت كتابة رؤوس أقلام تنظم لي أفكارني وحسب، كتبت:

١- وادع رفض أن يحضر لي حلوى الفواكه والسكر التي أحبها من وسم؛ لأنه متعب بعد أن أضناه العمل في دكان أبيه أولاً ثم في مزرعتنا. لست ألوّمه لكنني أشتهي الحلوى بشدة فعلاً.

٢- بعيداً عن الهزل، الغموض يحيط بأنور، لو تركت ما رأيته وما عرفته يتحكم باستنتاجي لحزمت بأن أنور مجرد خسيس دنيء يتبع هتر ومن معه حفاظاً على مصالحه ومنصبه دون مراعاة لما تستأهله الوقائع من وقفات صارمة وقرارات جادة، لكن ما يطعن في هذا الاستنتاج عاملان: الأول ثقة أبي العمياء فيه، برغم أنه يعاني في محاولات إيصال صوته إليه أو جعله يسمعه على انفراد ولو لدقائق، الثاني حواراه الذي قدر أن أسمع خصباً ليثبت لي عدم رضاه عما يجري، ويثبت لي أن حلية -البريئة ظاهرياً- لا تبالي بموتي أو حرقى حية، وأن أنور يبالي!

٣- شهاب طفل وحيد، منبوذ، وأقرانه ليسوا الملامين في حاله هذه، خاصة بعد ما رأيته من مكره الشديد وحبه للشر، ربما يصف الحال قول أن شهاب جلّاد وضحية في آن، نبذه من الآخرين ليس لإنتاج أفعاله، وأفعاله -إلى حد ما- هي رد فعل على نبذ الآخرين له! ما الذي أوصل شهاب لهذه المرحلة؟ أبناء خالته السفلة كما قال أنور، واستغلالهم السافر له، وهذا ما يأخذنا للنقطة التالية.

٤- من هم أبناء خالته؟ قاسط وشهوة! هتر هو سلف الحاكم، حقيقة تجيب أسئلة كثيرة، حلية وآفة أختان! كان علي أن أعرف! سبب كافٍ يجعلني أكره حلية حتى لو لم أسمعها تتمنى موتي.

٥- أصحاب الأعين الزرقاء من حارقي المحاصيل وغيرهم يملكون الحرية الكاملة في دخول الدار، وحدهم غارسوا الفسائل تم منعهم، ما الذي يُستنبط من هذا؟ بوسعي -ببساطة- أن أنسخ كل ما تم استنتاجه سابقاً وأعيد كتابته، لكن التجديد في نقطة هامة لم أفطن لها من قبل، وهي وجود حرص شديد -لا أدري ممن بالتحديد- على استمرار تعليم الفئات الأخرى بكافة ألوان أعينهم، على أعلى المستويات، وبأهم المعلمين، ويمتد الحرص

- في المقابل - على إفساد تعليم غارسي الفسائل بشتى الطرق، بدءاً من تسطیح الكتب وتقليل المعلومات، مروراً بتعيين الجهلة وطردها العالمين، وليس انتهاءً بحصر الأعراق التي يتاح لها التعلم. للتلخيص: يزيدون منسوب علمهم ومستوى جهلنا بشكل متوازٍ.

٦- بشكل مفاجئ تتم الموافقة على دخول عربة البهاليل المتنقلة إلى قريتنا، لو قيلت لي هذه العبارة قبل شهور كنت لأعتبرها مزحة، الأهم أن اتخاذ قرار كهذا لم يأت بشكل منفصل، وإنما هو ضمن منظومة متكاملة من القرارات والتغييرات، وبهذا تم ضمان عدم إثارة القرار لأي جدل أو فوضى، الصفراويون موافقون بلا شك، ومن لم يوافق منهم أو من غيرهم لا يجرؤ على الاعتراض أو -على الأغلب- لا يهتم، وليغلي الدم في عروق المغتاضين أكثر، أتى القرار برفقة قرار منع ذوي الأعين الزرقاء من التعلم، بمعنى أن مصدري القرار مطمئنون لأبعد حد إلى ركود ردات الفعل.

٧- الزحام المهول على دكان العم جواد، يقول وادع إن السبب اكتشافهم لجودة بضاعته بعدما عانوا مع بضاعة التجار الأقل أمانة أو جودة، حسناً، أسخف تفسير ممكن، ككل محاولات وادع في تحليل الأوضاع. ليس في ظل الصفراوية، وليس بعد أن مر عامان من المقاطعة، وليس كأنهم يكثرثون بجودة ما يزرعونه أصلاً! سألت وادع في شك إن كان هناك طلب محدد يتم سحبه أكثر، لكنه أكد أن الطلبات كانت متنوعة ومتفاوتة، لكنه ذكر ملاحظة قد تكون مرتبط بالفرس، أو تكون بلا معنى على الإطلاق، وهي: كل الطلبات تقريباً كانت على سلع نادرة الاستعمال لا تُطلب كثيراً في العادة. لا أعرف إن كان لهذه المعلومة أهمية ما.

٨- خالتي ودود مريضة جداً، أعني أكثر من المعتاد، وكلام ساري لا يمكن أخذه بعين الاعتبار لأنه لا يرى أمه تقريباً، لا بد من إيجاد حل في

هذا الصدد، ربما على خالتي القدوم للإقامة معنا في الفترة القادمة، لكن من يستطيع إقناعها؟

٩- المنّ الجذري، الآفة التي ربما كانت لتتربع على عرش مشاكل القرية، لولا التكتّم الشديد غير المفهوم، والمصائب التي هطلت علينا من حيث لم نحتسب فأصبح أذاها الممكن فائقاً لأذى المنّ بمراحل. برغم ذلك لا زال المنّ كارثة كبرى، ولربما تعيّن علي إنشاء استقصاء سريع للمزارع التي هوجمت منه، ما دمت غير قادرة على الحصول على المعلومات بالطريقة السهلة. المزارع لم تعد ملكية شخصية بعد الآن، والأولوية للحفاظ على المزروعات أيّاً كان صاحبها؛ لأن وجودها يساوي وجودنا، والنبته الواحدة تجعل الموازين تختلف. حقيقة حتمية وإن لم يعترف بها غيري.

أخذت نفساً عميقاً وفردت ظهري على المقعد، ألتني يدي من الكتابة، ماذا لو لم أختصر إذن؟! تسع نقاط تحمل من التعقيد والصعوبة ما الله به عليم، وراودني سؤال: أيفترض بي أنا أن أحل هذه المشكلات كلها؟ أين تبدأ مسؤوليتي تجاه ما يحدث وأين تنتهي؟ أعتقد أن أحداً لا يكثر ث تقريباً للتدقيق في كل شيء، أو النظر إلى الأمر على أنه ظاهرة سيئة تستلزم التدخل، لا أحد عداي، أهذا يعني أنني الوحيدة المسؤولة عن كل أولئك الجهلة والغافلين؟ بعد تأمل ما كتبته للحظات، قررت قلب الصفحة وكتابة شيء أكثر أهمية: قائمة بما علي فعله في الغد.

- جمع معلومات حول التطورات التي أحرزها المنّ، وعدد المزارع والنباتات التي تضررت بسببه.

- معرفة ما تجمع شهوة نقود الفتيات لأجله، ما الذي ينوون فعله خلال الحفل بالضبط؟

- كلمتان على انفراد مع الطفل الذي ليس طفلاً تماماً: شهاب.
- استعادة جراب تبر مع حبات السبحة من حيث تركتها، على رفوف المكتبة على الأرجح.
- زيارة خالتي ودود وفعل شيء ما لها.
- نزعت الورقة وطويتها، ووضعتها جوار وسادتي كي لا أنساها غداً، مصيبتني الدائمة: أضع القوائم والخطط ثم أنسى أنني وضعتها، فضلاً عن تطبيقها! خيل إلي أنني سمعت أصواتاً في الأسفل، ثم انطلق صوت أمي يؤكد لي:
- «غيم، أخوك عند الباب، يريد التحدث إليك.»
- عرفت ذلك! لم أكن لأهون على وادع، أخبرته أن جفنه لن يغمض وهو يعرف أنني أشتهي الحلوى. لا بد أنه صدقني الآن. طرت على الدرج طيراً في حين عادت أمي للنوم، فتحت الباب بحماس وابتسامة واسعة، وهيأت فمي لنطق: (شكراً)، لكن..
- «مرحباً يا صغيرة.»
- «سـ.. ساري؟ ما الذي أتى بك؟»
- رفع إلي علبة أعرف تماماً ما تحتويه، إنها حلوى الفواكه والسكر! نظرت إليه بصمت ولم أتناولها منه، قال بهدوء:
- «أخبرني وادع أنك أردتها.»
- «وادع يجب نشر الشائعات.»
- ابتسم ببساطة وهو يقول:

- «لقد كنت ذبابة لزجة خلال الأيام الماضية، لعل الحمى ذهبت بعقلك،
أو ربما تعرضك للغرق، لكنك لا تزالين أختي، ولا زال علي إرضائك.»
لم يتغير شيء، مجددًا يحاول إرضائي بعدما تحدث إلي بطريقة جافة صباحًا،
لو كنت منصفة لقلت إنني البادئة، لكنني لست كذلك.

- «ألن أسمع كلمة (تفضل)؟»

- «ادخل.»

- «كنت أسأل عن (تفضل)، لكن (ادخل) تفني بالغرض أيضًا.»

جلس على أريكة ووقفت مستندة على المقابلة لها، وضع علبه الحلوى
على الطاولة وعبث في جيوبه قليلًا، أخرج شيئًا صغيرًا أحاطه بقبضته فلم
أتبينه، وقال:

- «متى كانت آخر مرة خرجنا فيها في نزهة ثنائية؟»

لم أستطع منع ابتسامتي، لقد قاومت أشياء كثيرة كنت أحب عملها مع
ساري في الآونة الأخيرة، لكن هذا العرض كان مفرطًا في الإغراء.

- «لماذا تخطط؟»

بسط قبضته لأرى ما فيها، كانتا قطعتين خشبيتين دائريتين، رفعت
إحديهما لأنظر إليها عن كثب؛ ففطنت إلى النقش الدقيق المحفور عليها،
عربة خشبية لها جوانب مرتفعة، ويغطيها ما يشبه الستائر، وحولها رسومات
مبسطة لأشخاص يؤدون أنشطة مختلفة تتراوح بين الرقص أو الوقوف على
اليدين أو القفز في الهواء، لم أر هذه القطعة الخشبية من قبل، لكن فهم ماهيتها
لم يكن صعبًا.

- «عربة البهاليل المتنقلة؟»

- «تماماً، هذه القطعة تؤكد أنك دفعت رسوم الاحتفال، وتتيح لك التمتع بكافة الأنشطة والمزايا التي يوفرها.»
- «وبعد؟»
- «لقد حصلت على اثنتين، لي ولك، الاحتفال سيكون غداً مساءً.»
- غداً مساءً؟ أقرب مما تصورت بكثير!
- «أذكر أنك عرضت عرضاً مشابهاً فيما مضى، وأذكر -إن لم تخني ذاكرتي- أنني أعلنت إجابتي.»
- «كان ذلك قبل عامين يا غيم، كل شيء تغير!»
- «إلا أنا.» قلتها بصرامة وأنا أعيد القطعة الخشبية إلى يده، وتابعت: «أنا لم أتغير، أنا لا زلت غيم، ولا زلت محتفظة بأفكاري ومعتقداتي ونظرتي للأمور، ولا أحد على وجه الأرض قادر على جعلي أي أحد آخر غيري، كما فعلوا مع الجميع!»
- زم شفتيه في ضيق، أعاد القطعتين إلى جيبه وقال ببرود:
- «لن ترافقيني إذن، لقد دفعت ثمنها، وهو ليس زهيداً.»
- «سبق وتحدثنا عن السخف، والآن أجد تعريفاً له: أن تشتري الوضاعة بالمال، وأن يتسابق المغفلون عليها!»
- «ماذا أفعل بالقطعة الثانية؟»
- «أعطيها لمن يشاركك اهتماماتك، ما رأيك في شهوة؟»
- قلتُها بسخرية فتبسم بسماجة.
- «من دواعي سروري، لكنها ليست أختي.»

استدرك بسرعة:

- «وليس لدي اهتمامات!»

- «هذا ما كنت أظنه أيضاً.»

اختفت ابتسامته وحلت مكانها نظرة منزعة في عينيه الهادئتين.

- «هل سنعود للتلميحات الغريبة؟»

- «لن نعود لشيء، وتجنباً لإضاعة الوقت: أنا لن أذهب، وشكراً على

الحلوى، أهنأك شيء إضافي؟»

هز رأسه بهدوء ونهض استعداداً للانصراف، قال ببرود:

- «كما قلت لك، مجرد حمقاء.»

- «يا لك من...!»

ابتسم باستمتاع واستدار ناحية الباب، قلت باندفاع:

- «أتعرف؟ ماذا عن مرافقة عقلة إلى الاحتفال؟ أليس حليفاً جيداً؟»

التفت إلي، ضيق عينيه وقال بطريقة غريبة:

- «ولم عقلة بالتحديد؟»

ارتبكت.

- «ربما لأن.. المجانين يتناغمون جيداً بعضهم مع بعض.»

بقي ينظر إلي في صمت ثقيل لثوان، ثم أكمل طريقه للخارج، إنه يكذب

بلا حدود، لكنه كان صادقاً في بعض الأحيان، الجزء الذي نعتني فيه بالحمقاء تحديداً.

أنهت جولة منعشة في طرقات القرية، تعمدت خلالها السير من الطرق المحفوفة بالمزارع والشجيرات، مرت من أمامي عائلة من ذوي الأعين الزرقاء، كان هنالك ولدان وفتاة برفقة أبيهم، قال الولد الأصغر وهو يشير إلى النباتات:

- «أبي، لماذا يزرعون النباتات الشريرة في كل مكان؟»

أسرعت الفتاة بالإجابة:

- «لأنهم ينوون أذيتنا يا أخي، سوف يهاجمونا بها في المستقبل.»

أمّن الأب على كلام ابنته وباركته الأم؛ فوجدتني أفعل ما لم أفكر كثيرًا قبله.

- «على العكس، نحن نفعل هذا من أجلنا ومن أجلكم.»

اتسعت عينا الأبوين في دهشة من تدخل المفاجئ، في حين تبادل الأولاد نظرة مبهوتة، انخفضت إلى مستوى الطفل وقلت:

- «أتعرف؟ لو لم تكن هذه النباتات موجودة؛ فإن كل شيء لن يكون على ما هو عليه، حتى الهواء الذي تتنفسه. نحن نزرع النباتات في كل مكان لأن هذا ما يجب أن يحدث، ولأننا نحاول الحفاظ على الأمان في العالم.»

التفت للفتاة وأضفت:

- «ثم إنها ليست شيئًا خطيرًا حتى نخطط لمهاجمتكم به، فضلًا عن أننا لن نؤذيكم بمجرد أن هذا خطر ببالنا. أتعرفين ما هو الخطر الحقيقي يا صغيرة؟ حرق هذه النباتات!»

كدت أتابع متجاهلة وجود الأبوين، لكن الولد الأكبر هتف بغضب:

- «انظر إلى ما تقوله هذه الصفراء الشاحبة يا أبي، إنها تخالف كل ما نعتقد!»

الصفراء الشاحبة؟ قوم مهذبون بحق!

- «اسمعي يا هذه! إن كنت تعتقدين أن بوسعك التحدث إلى أبنائي، وملء عقولهم بالأحاديث المكذوبة والقناعات المسيئة فأنت واهمة! أنتم مجرد قوم متخلفين وستبقون كذلك مهما فعلتم، ونحن لا نريد لأبنائنا أن يكونوا مثلكم!»

أضافت الأم:

- «ثم، أليس لنا احترام في هذا البلد؟ أليست لنا حقوق؟ ألا توجد حرية اعتقاد أيتها العنصرية المتعصبة البغيضة؟ كيف تسمحين لنفسك بقطع طريقنا والتصرف بكل هذا العنف والتزمت؟ هل تعرفين عاقبة ما تفعلينه؟ في المرة القادمة لن نسكت على هذه الإساءة، وسنبلغ رجال الحماية بمضايقاتك!»

عنصرية متعصبة بغيضة؟! وابنهما ينعني بالصفراء الشاحبة، أي تناقض! ثم عنف وتزمت وإساءة ومضايقة؟ هل سمعا ما قلته حتى؟!

- «تعالوا يا أحبابي، أرجوكم أن تنسوا ما قالته ولا تدعوا ذلك يחדش نفوسكم اللطيفة، أخبرتك أنه كان قراراً سيئاً مجئنا إلى هنا يا عزيزي، مجازفة بمعنى الكلمة! لا أحد يجنأ هنا!»

- «بل الجميع يجنأ يا حبيبة قلبي، ويتمنون لو كانوا مثلنا، حتى هذه الحاقدة المدعية، فقط لا تنسي ما قاله اللطيفون من ذوي الأعين الصفراء، سنقابل أشخاصاً متعصبين لا محالة. كانت القرية لتتقدم مراحل كثيرة لو لا وجودهم.»

قالها وهو يهز رأسه بأسف وحسرة شديدين، ثم أضاف وهو يثقبني بنظراته:

- «ثم إننا أتينا ليتعلم أبنائنا في دار المنارة، علماءها الأفاذا سيخرجون لنا جيلاً عظيماً من حارقي المحاصيل؛ حتى نبيد هذه النوعيات ونباتاتها عن بكرة أبيهم!»

- «أنت محق يا نور عيني، دائماً محق.»

كم أنكم لرجان! لحظة! ماذا عن العنف والتعصب... سييدوننا عن بكرة أبينا؟ يقولها صراحة داخل أرضنا؟ أين رجال الحماية؟ أين الصفراويون؟! أمسكت الأم بيد ولديها وأمسك الأب بيد ابنته، وانصرفوا مسرعين وهم يلقون نظرات متقرزة علي من آن لآخر، فرصة سعيدة، قوم في غاية التحضر والافتتاح، سينعمون بتعليم عالي المستوى في دار المنارة، تباً!

- «هل سمعت كيف يحدثان بعضهما؟ يا حبيبة قلبي، ويا نور عيني؟»

- «سمعت، ربه، إنهم رقيقون وشاعريون للغاية، ليت قومنا يتعلمون منهم الرقي!»

نظرت في ذهول إلى الشابتين البلهاوين الواقفتين قريباً، تتحدثان بنبرة حاملة وهيام، هل صمت أذانها إلا عن هاتين الكلمتين؟ أم أن قلبيهما هما المصابان بالصمم؟

ابتعدت وأنا أدب الأرض بقدمي في غيظ عاصف، أخرجت الورقة من جيبى بعصبية فمزقت طرفها بالخطأ، كان تدخل خاطئاً، لكنني لم أتحمل أن يردد الأطفال هذه العبارات المبحرة في التجني وأصمت! إلى أي مصيبة سأذهب الآن؟ ليس إلى الدار، لو رأيت وجه أديم أو شهوة أو أريج وأنا في هذا المزاج فلن تبقى لهن وجوه، ربما سأبأشر البحث عن شهاب أولاً،

ضربت رأسي بيدي في غيظ، نسيت اللعبة الخشبية!

اقتحمت المنزل كالسهم ونزعت غطاء رأسي فيما أركض نحو الداخل متعجلة، اصطدمت بأبي الواقف يعدل عمامته، ناولته العمامة بعدما سقطت وأنا أعتذر، فتأملني وقال بابتسامة متعجبة:

- «لم شعرك منفوش هكذا؟ ولم أنت... ما الأمر؟!»

- «ذوو الأعين الزرقاء يا أبي، إنهم لا يطاقون!»

تغير وجهه.

- «هل تعرّض لك أحدهم؟»

أخذت نفساً عميقاً وهذأت من انفعالي، ابتسمت ابتسامة غير مقنعة وأجبت:

- «ليست مشكلة كبيرة، لعلني كنت متطفلة أكثر من اللازم.»

أصرّ -بغضب- على معرفة التفاصيل؛ فأخبرته، هكذا تلوّن وجهه إلى ألف لون، في كل مرة أقول فيها إن هذه المرة الأولى التي أرى فيها أبي غاضباً إلى هذا الحد، أجد أن هناك حدّاً أعلى لغضبه لاحقاً.

- «ممتاز، ها هو موضوع جديد سيتوجب علي أن أحدث فيه أنور، من يظن أن بوسعه إهانة ابنتي فهو واهم!»

- «أ.. أبي...»

- «لا أحد يهين ابنتي ويعبر بسلام، ابنتي خط أحمر، يمكنهم تأجيل ذلك إلى ما بعد موتي، أما في وجودي، لا!»

خرج وصفق باب المنزل بكل قوته، وقبل أن أستوعب شيئاً وجدته يفتح الباب من جديد ويستدرك صارخاً:

- «ولا حتى بعد موتي!»

ابتلعت ريقى ونظرت حولى مبهوتة، لم أرد إثارة أعصاب أبي بهذا الشكل، أرجو ألا يسبب هذا الموقف مشكلة أكبر، ليتني تماكنت نفسي، لا بد أن تصرفاتي المشحونة كانت السبب الأكبر في جعل أبي يثور هكذا. ما إن خرج أبي حتى وجدت زوجين من الأعين الفزعة تطل ببطء من المطبخ، واحد أصفر وواحد أزرق، التفت لهما فارتبكتا، وارتبكت أيضاً.

- «تـ.. تبر؟ أنتِ هنا؟»

- «غيم، شعرك.. إنه شبيه بأشعة الشمس، من حيث الانتشار.»

فككت الشريط ووضعتَه في فمي بينما أعدل شعري بيديّ، قالت أمي بقلق:

- «ماذا هناك؟ لم كان أبوكِ نائراً إلى هذا الحد؟»

- «قصة طويلة.»

- «أصحاب الأعين الزرقاء أزعجوكِ، صح؟»

قالتها تبر بخفوت، اقتربت منها وقلت بارتباك:

- «تبر، أنا.. لم أقصد قول ما قلته، لم أقصدكِ حين ذمت ذوي الأعين

الزرقاء، أنتِ.. لستِ مثلهم.»

هزت كتفها ببساطة، وأجابت بلا مبالاة:

- «مفهوم، تصرفاتهم مخزية فعلاً، وليس من حقي أن أتضايق لأنكِ

ذممت من يستحق الدم، ثم إنني أعرف جيداً أن تصرفات غيري لا تمثلني، كما لا تمثل تصرفاتي أحداً آخر، ثم إنني أنتمي لغارسي الفسائل فقط، ولا أملك انتماء لشيء بعد ذلك.»

- «غارسوا الفسائل فقط، معك حق.»

مرت دقائق من الصمت، قبل أن أقول بنبرة مرحة مفتعلة:

- «صحيح أيتها المشاكسة، لم تذهبي إلى الدار؟ لقد اتفقنا على ارتياد المكتبة بشكل مستمر!»

- «أجل لكن.. ليس اليوم، لدي ما يكفيني من الأشغال.»

- «أي أشغال؟ ماذا تفعلان في المطبخ أصلاً؟»

جففت أمني يديها في قماشة جافة وقالت بابتسامة متباهية:

- «سنقيم وليمة مصغرة هذا المساء، خالتك ودود وحسنا، وعمك جواد وكل إخوتك. سيكون من الجميل أن نعيد الترابط والمودة التي افتقدناها في الآونة الأخيرة، ونؤكد على كوننا أسرة واحدة، بغض النظر عما يحدث في القرية.»

ابتسمت بسرور، بالفعل لم يحدث ما يبعث الفرح ويمحو شيئاً من الكآبة المهيمنة على الأجواء منذ مدة طويلة. لكزت تبرأمني وقالت بمرح:

- «أخبريها من صاحبة الفكرة يا خالتي.»

قهقهت أمني بمرح، حقاً كان الوضع مبهجاً، لولا الموقف المشحون قبل قليل.

- «سيكون بقائي معكما مهماً، التجهيزات كثيرة على ما يبدو.»

قلتُها وأنا ألقى نظرة على الفوضى المنتشرة في المطبخ؛ فدفعني تبر من كتفي خارج المطبخ وهي تقول بابتسامة:

- «لا أظن ذلك، أنا وخالتي سنقوم بالواجب، لا بد أن لديك ألف مخطط يستوجب التنفيذ داخل هذا الرأس الذي لا يتوقف عن التفكير.»

ابتسمت بنوع من الاعتراف، في حين أخذت ابتسامة تبر طابعًا مكرًا وهي تضيف:

- «كما أن الطبخ ليس أكثر ما تبرعين فيه، لا نريد للوليمة أن تفسد، صحيح؟»

- «أيتها المزعجة!»

تشاركنا الضحك، فيما قالت أُمِّي والابتسامة لم تفارق شفيتها:

- «يكفي لهوًا، هيا يا تبر، لنعد إلى العمل، ألا يكفي أن أملك وعدتني بالقدوم لمساعدتي وأخلفت وعدها.»

- «خالتي رؤوم، ما بك؟ إنها تعد العصير المميز خاصتها!»

- «خلال ساعة كاملة؟! أي نوع من العصائر هذا؟! يجب أن يكون كل شيء جاهزًا في وقته، الله أعلم بأي حال سيعود مدرار مساءً وكذلك والدك وخالتك ودود، يجب أن نسرع!»

- «أستاذنكم، سادعو أن يوفقكما الله في هذه المعركة، وأحمد الله الذي عافاني.»

أخرجت لساني لأغيط تبر في غفلة من أُمِّي، وبرغم أن الوقوف في المطبخ كان نشاطًا مسليًا لها إلا أنها بادلتي المشاكسة.

- «وداعًا.. أيتها الصفراء الشاحبة!»

- «ألقاك مساءً، يا مسخ!»

انفجرنا في الضحك في حين هتفت أُمي بغضب:

- «أنتما، هذا ليس مزاحًا، لا أريد سماع كلام كهذا مجددًا، أسمعان؟»

أومأنا في إذعان ولا زال الضحك سيد الموقف، سارعت تبر لمساعدة أُمي وارتقيت الدرج لأحضر لعبة شهاب. لقد مُحي بند من قائمة مهماتي، خالتي ودود ستكون هنا الليلة.

أين يمكن أن أجده؟ أحوم منذ نصف ساعة حول منطقة المزرعة المملوكة للحاكم، بعد أن تفقدت ساحة القرية حيث يلعب الأطفال ولم أجده، لم أتوقع إيجادَه هناك على أي حال، الطفل المنبوذ سيجد ملاذًا مناسبًا له، غالبًا سيقدر الالتجاء إلى أملاك أبيه، كل المطرودين يفعلون ذلك، لا يجدون ترحيبًا ولا قبولًا فيتحصنون بمكاناتهم وجاههم وثرواتهم، لعل هذا هو السبب في كون معظم الكبار والأثرياء ثقيلي ظل وعديمي حس.

كما توقعت، ها هو هناك، محاطًا بثلاثة كلاب عملاقة مخيفة يلاعب أعناقها ورؤوسها، كانت مقيدة إلى جدار المزرعة لحسن حظي.

- «احم.. مرحبًا يا صغير.»

التفت إلي بحركة حادة وبعينين يتطاير منهما الشرر، قبل أن يتعرف علي حتى، كأنه مستعد للأذية مبدئيًا. ابتسمت وقلت متلطفة:

- «عذرًا على الإزعاج، هل يمكننا.. التحدث معًا؟»

تراجع خطوتين بعدوانية فيما انفجرت الكلاب تنبح وتزجر، قال وهو يمسحني بعينه من رأسي إلى قدمي:

- «ما المناسبة؟»

استقرت عيناه على عينيّ فاتسعتا بتوتر، لقد عرفني، لم يفكر مرتين، استدار وركض مسرعاً دون أن ينظر للخلف، إن كان عقله صغيراً فإن عقلي أصغر، رفعت جلبابي وانطلقت أركض وراءه، لو أطل أحدهم على المشهد فسيعتقد أنني مختلة كعقلة وأشد.

- «انتظر يا شهاب، لن أفعل لك شيئاً، سأحدث معك فقط.»

توقف فجأة فكدت أصطدم به، قال بغضب واحتقار شديدين فطنت إلى أنه يخفي تحوّفه خلفهما:

- «ماذا تريد مني؟ أنا لم أفعل شيئاً!»

بعصوبة التقطت أنفاسي وقلت محاولة إكساب صوتي نبرة مطمئنة:

- «ومن قال إنك فعلت أي شيء؟ أنا أردت أن أعطيك هذه.»

ومددت يدي بالكنانة الصغيرة التي تبرز منها الأسهم والقوس الخشبية، نظر إليها بشك ونظر إلى دون أن يأخذها، ثم قال:

- «لم أعتد أن يهديني أحد شيئاً، ما المقابل؟»

- «كيف تكون هدية إن كانت بمقابل؟ خذها، ما بك؟»

بتوجس مد يده وأمسك بها، وبالكاد ابتسم، أمكنني استشعار سعادته الغامرة التي لا يريد إظهارها، وكان هذا انتصاراً لطيفاً لي، جلس على الأرض وأخذ يتفقد القطع باهتمام، قال بتردد:

- «لم اخترت هذه اللعبة بالذات؟»

- «لأنني رأيت فيك فارساً وسباحاً رائعين، ربما ستحتاج إلى أن تكون

راميًا بارعًا أيضًا، حتى تتمكن من الالتحاق بالسباق الكبير ما إن يسمح عمرك بذلك.»

ازدادت ابتسامته اتساعًا، لم يبدُ أنه تعلم نطق (شكرًا)، لكنه نظر إلي نظرة ترادفها، فجأة انتبه لتلمييح رميته في أثناء كلامي فاخفت ابتسامته، صبي ذكي فعلاً كما قيل لي.

- «من أخبرك أنني أجيد السباحة؟»

جلست قبالة وقلت بتبسط:

- «لا داعي للقلق، لن ألومك على شيء، كثيرًا ما يفعل المرء أشياء لا تمثله، ولا تعجبه، ولا يجب أن تُبنى صورته في أذهان الناس على أساسها، لكنه يفعلها مجبرًا ربه، أو واقعًا تحت ضغط ما، أو مغيبًا عن حقيقة مهمة، وما إن يفلت من تأثير أي مما يسيطر عليه، يكون نادمًا وراغبًا في نسيان ما جرى، وغير مستعد لسماع ما يذكره به.»

بقي ينظر إلي بتركيز شديد كأنها يحاول ابتلاع كلماتي الثقيلة عليه، وحين انتهيت ابتلع ريقه باضطراب وأخذ ينظر حوله بنوع من التشتت، ثم قال بخفوت:

- «كيف عرفت.. أن هذا ما أشعر به؟»

ابتسمت ومسحت رأسه، قلت برفق:

- «لم يكن الأمر صعبًا، وضعت نفسي مكانك فقط، وبناءً على ذلك وجدتني راغبة بشدة في أن أكوّن صداقة معك.»

- «صد.. صداقة؟! معي أنا؟!»

قالها بصدمة تامة، من الواضح أنه لم يتلقَ عرضًا مشابهًا من قبل، قلت

محاولة رفع معنوياته:

- «أجل، لم أنت متعجب إلى هذا الحد؟ أنت ولد ذكي، وماهر في الكثير من المجالات، وعقلك يسبق عمرك بكثير، أظن أن صداقتك مكسب لأي أحد.»

هز رأسه مبهوراً وصمت تماماً، لم أرد مقاطعة شروده، بقيت أتأمل المزرعة حولي بإعجاب، كانت كبيرة وشديدة الخضرة، هدأت الكلاب الثلاثة وإن بقيت تطالعني بتحفز منتظرة أي حركة تهيّجها من جديد.

- «أنا.. أعتذر..»

بصوت لا يكاد يُسمع، لكنه انتصاري الثاني لليوم، ابتسمت كما لو كنت أقول: (لا بأس)، ثم نهضت ونفضت التراب عن ملابسي.

- «أهذا كل شيء؟»

- «لقد أخبرتك، أتيت لأهديك هذه ليس إلا.»

قفز من مكانه وقال بلهفة:

- «هل ستحدث مجدداً؟»

- «بالطبع، وفي أي وقت تريد، تعال إلي فقط ولن أردك.»

- «اسمك غيم، صحيح؟»

- «أجل.»

- «لم قالوا لي إنك شريرة إذن؟»

- «من قال لك ذلك؟ الذين حفّزوك على تسميم حصان وادع وإلقاء

الشوك في طريقه ومحاولة إغراقه في البحيرة؟»

- اتسعت عيناه الكبيرتان في ذهول.
- «أنتِ تعرفين كل شيء!»
- «ووادع يعرف أيضًا.»
- «م... ماذا؟!»
- «ما بك؟ لقد حاول إنقاذك حين كدت تغرق، أنسيت؟»
- «لم أتخيل أنه عرف ما أردت فعله، هل ساعدني بعد كل هذا حقًا؟ و.. ولم تبلغا عني؟ لو عرف أخي أنور بكل هذا لم يكن ليصمت.»
- لم أرد أن أزيد رعبه بإخباره أن أفعاله وصلت لأنور أيضًا، وضعت يدي على كتفه وقلت بهدوء:
- «لأننا لم نرد إيذاءك، ولم نرد تشويه سمعتك، كنا واثقين من أن في داخلك إنسانًا شهمًا، وأن ما فعلته لا يمثل حقيقتك؛ لذا قررنا منحك فرصة، ونحن متأكدون من أنك ستبلي حسنًا.»
- «ماذا تريد مني أن أفعل؟»
- قالها بتردد، فقلت ببساطة:
- «لا شيء، أخبرتك، فقط أريدك أن تتجهّد في دراستك، وتستمتع بلبعتك، وتندرب على الرماية، وتركز على أن تكون أفضل طفل في القرية، لا أريد أن يتحدث أحد عن شهاب بالسوء بعد الآن، هذا كل ما أريده، فهل يمكنك؟»
- لم يجب مباشرة، تفكر قليلًا ثم قال:
- «يمكنني أن أحاول.»

- «هذا كافٍ». استدركت: «كبداية».
- مررت من أمام الكلاب فرأت أن من واجبها أن تنبح عدة مرات على سبيل التسلية، قلت بنبرة مرتجفة متظاهرة بالمرح:
- «كلاب ظريفة، لمن هي؟»
- «إنهم لي، ثلج تحرس المزرعة، وجمرة يحرس الخراف حين تخرج للرعي، والرمادي كان يرافق أبي في رحلات الصيد، والآن يرافق أنور».
- «آه، كلاب المزرعة إذن».
- «بل إنهم لي، أُمي قالت ذلك!»
- قالها بعصبية جمّة وهو يضرب الأرض بقدمه في حركة طفولية بدت شاذة عن شخصيته، نظرت له في دهشة وقلت محاول تهديته:
- «إنهم لك، ما دامت أُمك مصرة!»
- بدا أنه تنبه لحركاته المبتذلة، عدّل وقفته بسرعة ونظر إلي بارتباك كأنه يطالبني بنسيان ما حصل، ابتسمت بسماحة وودعته واستدردت ذاهبة، ولمعت في ذهني حقيقة وليدة الموقف: لو كان لهذا الصغير عيب، فهو أُمه.



هذأت مقابلي مع شهاب والتقدم الجيد الذي أحرزته معه من آثار اللقاء المستفز مع تلك العائلة الزرقاء، صحيح أنني أردت معرفة بعض المعلومات منه، لكن تنمية الثقة بيننا كانت الأهم كخطوة أولى، كما أنني وجدت أن هذا الصغير في حاجة إلى المساعدة بالفعل، مثلما توقعت تمامًا، جلال وضحية في آن، لن أخطط لإنقاذ غارسي الفسائل كلهم ثم أتقاعس عن مد يد العون لطفل يحتاج إليها!

أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيَّ لبعض الوقت، أنا بحاجة إلى أكبر قدر من البرود لتحمل السحنات البغيضة التي ستصطدم بي في كل منعطف من الدار، يثير عجبني كمّ التغيير الذي تؤثر به تصرفات المرء على ملامح وجهه، كنت أرى ملامح أريج غاية في الرقة والنعومة، وكان يمكن لأديم -بشيء من التجاوز- أن تكون الأكثر جمالاً بين نساء الدار، لكن كل ما تحمله ملامحهما من ملاحظة ورقة قد كُسي بقناع ثخين من البغض والدناءة، هبط بهما من مراكز الجمال الأولى إلى المنافسة على نيل لقب المرأة الأشد بشاعة، بلا أمل في الفوز بصراحة؛ لأن شهوة استحوذت على القلب منذ زمن.

ابتسمت برغمي، ثم اختفت ابتسامتي سريعاً، حين سمعت - للمرة المليون- همسات تدور بين فتاتين، وراء المنعطف.

- «أنت آتية للاحتفال حقاً؟ هذا رائع، أنا أيضاً لن أفوت حدثاً كهذا، لقد كذبت على أمي، أخبرتها أنني ذاهبة لزيارة نرجس مساءً، لو عرفت أنني سأذهب إلى عربة البهاليل المتنقلة فستمزقني!»

- «أنا أيضاً فعلت الشيء نفسه، كان عليّ أن أتحايل على والديّ كي أتمكن من الحضور، لن أسمح لأحد بحرمانني من هذه الفرصة، خاصة بعد كل ما هيأته لنا شهوة كي نستمتع!»

- «على ذكر شهوة، أسمعتِ بالعرض الذي قدمته؟»

- «بخصوص تكفلها بدفع تكاليف القطعة الخشبية لمن ينفذ أمرها ذلك؟ في الواقع، ثمن القطعة باهظ جداً، ولم يكن من السهل أن أتدبره؛ لذا وافقت على عرضها.»

- «يا إلهي، وأنا مثلك! بصراحة، لم أعرف غايتها بالتحديد مما طلبته، لكنني لن آسف كثيراً على أي ضرر يلحق ببائع البذور الأزرق إياه، الزرق

يستحقون ما هو أكثر.»

- «ما شأنكما بـدكان عمي جواد؟!»

كما توقعتم، برزت لهما من خلف الجدار، كالقدر يهجم بخطوبه على الغافلين، قفزت إحداهما في حوض الأخرى ونظرتا إلي بفزع، همست إحداهما لرفيقتها:

- «من تكون هذه الفتاة الثائرة تحديداً؟»

- «أظنها.. أجل، إنها غيم، تلك المتعصبة عدوة الصفراوية، التي لا تقبل وجود أصحاب المعتقدات الأخرى بيننا، تلك التي حذرنا شهوة من ثورتها، وقالت إنها مجنونة وعنيفة ومستعدة لإيذاثنا ما إن نستفزها!»

المصيبة أنها تحسب أنني لا أسمعها لمجرد أنها أحاطت فمها بيدها، يئست من إيجاد صفراوي ذكي! وبرغم كل شيء، أسعدني أنها تنظران إلي بكل هذا التهيّب، وتصدّقان أنني مجنونة وعنيفة، هذا سيسهل العملية، لقد خدمتني شهوة من حيث أرادت العكس.

- «لقد سمعتماني، هل ستنطقان بكل ما تعرفانه أم...؟»

فلتها وأنا أكرّ على أسناني بطريقة شريرة وأضرب قبضة يميني في راحة يسراي، تمثيل مفرط في الافتعال لن يقنع عاقلاً، من حسن حظي أنها ليستا كذلك.

- «نحن لا نعرف التفاصيل، نقسم لك، فقط هي أعطتنا نقوداً وأمرتنا بشراء سلعة محددة من عند ذلك التاجر لقاء إعطائنا القطع الخشبية، ولم تسمح لنا بمعرفة المزيد!»

- «وما هي تلك السلعة؟ تكلم!»

- «نسيت.. أقسم لك! كان اسمها طويلاً وغير مألوف، لا أذكر أنني سمعته من قبل.»

- «وهل طلبت من كليهما شراء نفس السلعة؟»

نظرنا لبعضهما في غباء ولم تجدا جواباً، تنهدت في نفاذ صبر، تقدمت خطوة وقد أعجبني دور المجنونة، قلت من بين أسناني:

- «لو رأيتهما أمامي مجدداً فلا تلوما غير نفسيكما، ولو عرفت أنكما تعرضتما لعائلة العم جواد بأي شكل فستندمان، واضح؟»

هزتا رأسيهما في اضطراب وذعر ثم ولتا هاربتين، المجانين يستمتعون كثيراً بالفعل. إذن شهوة مسؤولة عن الزحام في دكان العم جواد، صدق إحساسي المرتاب، ما الذي تهدف إليه يا ترى؟ لم أجد جواباً غير: عندما يأتي الغد؛ سنرى! مللت شعري الذي يحب أن يتطاير تلقائياً مع كل عراك لفظي أو يدوي أخوضه، وأعدت إلى ملاحي براءتها ولطفها المعتادين، ويممت وجهي شطر المكتبة.



دلفت بهدوء شديد أقرب للتسلل، لا أريد إحراجاً آخر مع المعلمة رؤية، لو استطعت أن أحصل على الجراب وأهرب سريعاً دون أن تشعر بي فسأكون محظوظة، مشطت المكتبة بعيني فلم أجد المعلمة في أي ركن، لا تخالف الرياح رغبة السفن دائماً، تمشيت في الأنحاء على أطراف أصابعي، أجوس بعيني باحثة عن الجراب، لكنهما لم تلمحاه، غريب، أين سيكون...

- «أهلاً غيم، كيف حالك يا ابنتي؟»

وثبت من مكاني مجفلة، استدرت لأواجه المعلمة بابتسامة مرتبكة.

- «أ.. أهلاً معلمتي، أنا بخير الحمد لله، كيف حالكِ أنتِ؟»
- طالعتني بنوع من الحيرة، ثم ابتسمت ببساطة وجلست حيث اعتادت الجلوس، قالت وهي تفتح الكتاب الذي وضعت عدستها بين صفحاته حيث توقفت في وقت سابق:
- «كانت إحدى المعلمات راغبة في سؤالي عن معلومة ما، من الجميل أن أجد معلمة تتحرى الصحة في ما تقدمه لطالباتها.»
- «معلمة تتحرى الصحة في المعلومات؟ في هذا الوقت؟ ظاهرة تستحق الإشادة دون شك!»
- «ما بكِ يا غيم؟ العالم ليس بالسواد الذي تعتقدينه، ولا يمكنه أن يكون كذلك في أي وقت، دائماً ستبقى هناك شعلة تكسر حدة الظلام في مكان ما، وستظل مشتعلة ما بقي غارسوا الفسائل في العالم.»
- «ولو لم يبقَ غارسوا فسائل في العالم؟»
- «لا يمكن؛ لأنه بلا غارسي فسائل، لن يكون هناك عالم من الأساس!»
- فتحت ضفتي الكتاب وقربت العدسة من عينها وغرقت بين الكلمات والسطور، منطق عميق يستأهل التفكير، لا عالم بلا غارسي فسائل، ولا وجود للظلمة الخالصة في وجود غارسي الفسائل، معادلة رياضية سهلة نتاجها ألا ظلمة خالصة ستكون في هذا العالم.
- «أُتيَتِ لقراءة الكتاب؟»
- «الـ.. الكتاب؟»
- «التاريخ المنسي؟»
- «الـ.. تاريخ الـ... أوه أجل! بالطبع!»

كنت قد نسيت كل شيء تقريبًا عن هذا الكتاب، اتجهت نحو الرفوف لأخرج الكتاب فوجدتها فرصة مناسبة للتفتيش عن الجراب، أبعدت بعض الكتب ونظرت وراءها وفوقها، فتشت أكثر من رف بلا جدوى، لا أجده في أي مكان، أين يمكن أن يكون...

- «هناك يا غيم، في أول رف بحثت فيه، ألم تريه؟»

- «ما.. ما هو؟»

- «الكتاب يا ابنتي، ما خطبك اليوم؟»

علي أن أتماسك أكثر، تصرفاتي تنفذ حرفيًا مقولة: كاد المريب أن يقول خذوني. أخرجت الكتاب وعدت للجلوس إلى طاولة المعلمة، فتحت صفحة عشوائية من منتصفه واتخذتها لوحة ترتسم عليها أفكار، الجراب ليس في المكتبة، كان يفترض به أن يكون في مكان واضح، لا أحد تقريبًا يدخل المكتبة أو يغير مواضع الأشياء فيها، ولو وضعت صندوق كنز هنا وتركته أسبوعًا ما فطن إليه أحد...

- «غيم، هل تقرئين الكتاب من منتصفه؟»

- «ماذا؟!.. لا، أنا أنصفحه فقط.»

مدت يدها لتقلب الكتاب وتفتح آخر صفحة منه.

- «انظري، هذا فهرس الموضوعات، أحب الاطلاع عليه قبل قراءة أي كتاب؛ حتى آخذ فكرة عما يشمله الكتاب من أفكار، أو أتأكد إن كنت سأجد فيه معلومة محددة أبحث عنها.»

- «أجل، شكرًا جزيلاً.»

ابتسمت وهزت رأسها وتراجعت لتعود للقراءة، في حين عدت للشرود

في صفحة الفهرس، أيمكن أن تكون المعلمة هي من أخذته؟ معقول جداً، لا بد أنها دخلت صباحاً فوجدته حيث هو، عندها نعتني بالحمقاء في سرّها واحتفظت به كي لا يضيع وتضيع سبحتها فيه.

- «احم.. معلمتي، في الحقيقة أنا...»

أنزلت عدستها ونظرت إلي بتركيز، كانت بانتظار شرح لتصرفاتي الغريبة فيما يبدو.

- «حسنًا، اعذريني، يبدو أنني ارتبكت بالأمس ونسيت الجراب بحبات السبحة هنا، كنت أنوي فعلاً إصلاحها بالأمس وإعادتها لك اليوم لكن...»

بقيت تنظر إلي بدون تعبير محدد، كأنها بانتظار بقية الحديث.

- «هذا كل شيء، أنا آسفة حقًا، أولاً أفسدت السبحة والآن أهملت إصلاحها ونسيت الجراب هنا.»

- «سبق وأخبرتكَ أنني لا يمكن أن أغضب منك لأجل سبحة! ثم، أتعلمين؟ اعتبرها هدية مني لك.»

- «ماذا؟ لا لا! أنا لم أعن ذلك، سأصلحها وأعيدها، فقط أمهليني للغد.»

- «اسمعيني يا ابنتي، أنا أملك الكثير من السبح.» ورفعت واحدة بيضاء كانت في يدها لتريني إياها. «لن يضرني فقدان سبحة واحدة، وحين فكرت مليًا، وجدت أن كل السبح تعتمد علي كي أحركها؛ فرأيت أنه من الأفضل ترك سبحة على الأقل تتحرك من قبل غيري، وأثق أن أجراها سيبقي يطالني حتى بعد عجزني عن الاستمرار في استعمالها!»

ابتسمت في إذعان وشكرتها، ثم قلت بتردد:

- «اعذريني لكن.. ألم تريها حين دخلت اليوم؟ أظنني نسيتها هنا.»
- «لا، لم تنسيتها هنا، أنا واثقة أنني رأيتك تدخلين الجراب إلى جيبيك وتخرجين، مؤكداً أنك فقدتها في مكان آخر.»

شردت أتذكر، ربما في قاعة المعلمة أهداب؟ لا أذكر أنني أخرجته هناك، لكنني كنت مفتونة بتحريك الحبات داخل الجراب، ربما أخرجته ونسيته بعد عبارات شهوة السخيفة. سأذهب للبحث عنه هناك، أو أسأل العاملات المعنّيات بتنظيف القاعات.

- «معلمتي، أخبريني، أليس بوسعي استعارة الكتاب؟ يومي حافل بالكثير من الأعمال والمهام الضرورية، ولن أتفرغ للقراءة إلا في المساء.»
- تفكرت قليلاً ثم قالت:

- «أظن أن بوسعك هذا، ستعيدينه على أي حال، صحيح؟ ثم إن هذا سيكون أفضل من عدم القراءة إطلاقاً.»
- هزرت رأسي بابتسامة، ثم حملت الكتاب وخرجت.

أين هو؟ لقد قلبت القاعة رأساً على عقب! المعلمة أهداب متغيبه اليوم؛ لذا لم يدخل أحد القاعة منذ غادرناها أمس، كل شيء باقٍ على حاله؛ فلم لا أجد الجراب؟ أين يمكن أن يكون...

- «عمّ تبحثين؟»

اعتدلت لأقابل مسرة الواقعة عند باب القاعة تنظر إلي في حيرة.

- «جrab حريري أبيض، طرّز عليه اسمي بخيوط فضية، هل رأيت شيئاً بهذه المواصفات؟»

مطت شفيتها في عدم معرفة، وربما عدم اكتراث أيضاً، توقفت عن البحث واستندت إلى أحد المقاعد، ليس في المكتبة ولا في القاعة، والعاملات لا يعرفن عنه شيئاً، أعني هذا أنه ضاع؟ هل أضعت أعلى هديتين استقبلتهما من إنسانتين تُعدان من أعز الناس على قلبي؟

- «يبدو عزيزاً جداً عليك..»

- «أكثر مما تتصورين..»

لم تعرف ما عليها قوله كما هو واضح؛ فاختارت أول ما خطر لها.

- «هل علمتِ بأمر الـ.. الحفلة؟»

- «أجل..»

- «وهل.. تنوين الحضور؟»

- «سؤال أسخف من أن أجيب عليه..»

هزت رأسها باضطراب بمعنى أن الأمر غاية في الوضوح، عم الصمت لبضع لحظات قبل أن أتذكر شيئاً وأقول:

- «ما الذي أرادته شهوة بإرسال الفتيات إلى دكان العم جواد؟»

- «هل أرسلتهن إلى دكانه حقاً؟ أوه لم أكن أعرف..»

قالتها بنغمة رتيبة واحدة، لم يبقَ إلا أن تقول: (أنا أمثل). نظرت إليها في غيظ وبدا أن نظرتي كانت مخيفة فعلاً؛ لأنها رفعت يديها في حركة دفاعية وقالت بارتباك:

- «حتى إن كان ما تفعله وما تخطط له شيئاً خاطئاً أنا لا أستطيع أن أشي بها، لن أبيع صفراء مثلي لصالح شخص أزرق!»

- «من علمك هذا المنطق المعطوب؟ الحق أحق أن يتبع! ولا يبرر لون العينين الأصفر للشخص ارتكاب الأخطاء وإيذاء الغير، هل تتحملين ذنب ما سيحدث لذلك التاجر المسالم الطيب وعائلته كلها كرمى لمنطق وضع استثنه حمقى الصفراوية وأقنعوا المغفلين به؟»

- «أتحمل ذنب ما سيحدث لهم؟ ما شأني أنا؟!»

- «شأنك أنك سكت عن الخطأ برغم علمك به، وأصبحت -بتسترِكَ هذا- مساوية لهم في الذنب، وأي أذى سيطل الآخرين بسببهم، ويعلمك، وبإصرارك على الكتمان والتستر، ستبقى خطيئته متشبثة بعنقك مثلك مثلهم!»

اصفرّ لونها وازرقّ واخضرّ، قالت بتخبط:

- «لا تكوني قاسية هكذا يا غيم، الصفراوية ليست سيئة صدقيني، أنتِ تنظرين إلى العالم بطريقة مفرطة في السوداوية، لو كانت أفعال البعض مفرطة في الغلو فإن هذا لا يمثّل الجميع، ولا يعني أن العالم سيسوء كما تتصورين. أهداف الصفراوية سامية ونبيلة وأخلاق الصفراويين عالية، فقط أنا لا.. لا أستطيع ترك صف أختي في الصفراوية والوقوف في أي صف معاكس لها!»

- «أختك في الصفراوية؟!»

قلتها باستهزاء فج، ثم مشيت نحو باب القاعة، نحيتها من كتفها بحركة متقززة، ولم أنس أن أقول قبل مفارقتها:

- «انتهى وقت النقاش والإقناع بالعقل والحجة، المسلح لا يقاتل

أعزلاً، والعاقل لا يحتاج مجنوناً، والأسوأ، صاحب المبدأ لا يناقش فاقده؛ لأن الأخير لن تحكمه أي قوانين ولن يرتكن إلى أي مسلّم، لا فائدة من تضييع الوقت، خاصة فيما سترهن الأيام صحته دون الحاجة إلى كثير كلام.»

- «هوني عليك يا غيم، سأخيط لك واحداً أجمل منه.»

قالتها تبر وهي تراقب وجهي الواجم منذ عدت من الخارج، نفضت رأسي أمحو عنه آثار كل ما رأيته في يومي، وحاولت أن أجاريها في الأحاديث والمشاكسات متجنية ذكر موضوع دكان أبيها، سيتضح كل شيء في حينه. كان أبي قد عاد من الخارج، لكن وجهه لم يعد أحمر كما كان قبل خروجه، التمسست فيه شيئاً من الارتياح والرضا، وحين تساءلت بابتسامة و(خيراً؟)، أجابني أن الخير قادم في الطريق بإذن الله، وأن حقي سيأتيني بقدميه. لم أرد أن أكثر من السؤال، وفضلت أن أنتظر حتى يتضح كل شيء في حينه.

- «أبتي، هل حدثت تطوّرات بشأن موضوع المنّ؟»

- «أجل، لكنها سرية للغاية.»

- «إلى حدّ ألا تعرفها ابنتك الغالية؟»

قلتُها بدلالٍ مرح، فضحك وقال:

- «لا وجود لشيء يصل إلى هذا الحد، أعرف أنك لن ترتاحي حتى تعرفي ما حدث، وسأريحك.»

أخبرني -مشكوراً- أن أنور ربّ مع العم جواد ليركب كمّيات أكبر من المحلول المبيد للمنّ، وسيُسكب المركب إياه في القناة الرئيسية التي تتفرع منها قنوات الري في كل مزارع القرية، وبرغم أن العم جواد أخبره أن هذا

سيصلح كإجراء وقائي، أو لإزالة آثار المنّ بعد انتزاع النباتات المصابة كما حدث في مزرعتنا، وأنه لن يحدث النفع المرجوّ مع منّ يلتجئ بجذور نباتات حية ويتكاثر ويمد نفوذه إلى مساحات أكبر، برغم ذلك أصرّ أنور على اتخاذ هذه الخطوة مبدئيّاً، حتى يستقر رأيه على القرار التالي سواء كان إخبار أهل القرية، أو عمل حملات لانتزاع النباتات المصابة دون ذكر التفاصيل للعامة، أو أي قرار سيُتخذ.

- «إذن وجدوا المزيد من النباتات المصابة!»
- «الكثير جدّاً، أتعرفين ما المصيبة يا غيم؟ المصيبة أن المزارعين لم يتعرفوا سبب اصفرار أوراق نباتاتهم والتفاف فروعها، لقد نسي الناس المنّ وآثاره وخطره!»
- «هل كان يفترض بهم أن يعرفوه؟»
- «وهل هذا سؤال يا ابتتي؟ هل يحذر بإنسان أن يجهل عدوه؟ فكيف يفترض به مقاومته وإيقافه ومنعه من التعدي عليه؟ الخطوة الأولى لمواجهة العدو هي معرفة العدو من الأساس!»
- أطرقت للحظات وقلت بابتسامة متصالحّة:
- «أصبح قول ذلك مبتذلاً، لكننا اقتربنا من الهاوية فعلاً يا أبي.»
- وافقني بابتسامة، كأننا نتحدث عن جمال شروق الشمس.
- «والسفير والهدنة وكل ما يتعلق بهما من هراء، هل حدث جديد بشأنهم؟ أعني بعدما أخلّى السفير مسؤوليته عن الهجمة الأخيرة.»
- «أنور لا يخبرني بكل شيء، لكن حسب ما أظنه، سيحاول أن يضيّق الخناق على السفير بحرص، حتى ينتزع منه وعداً بعدم تكرار ذلك.»

- «السفير ليس غيبًا يا أبي، ولو لم يكن يعتمد على شيء غير تحاذل قومنا وتزلفهم الشديد للزرق وتقبلهم لكل ما يفعلونه كأنه حقيقة كونية، فإن هذا يكفيه وزيادة. السفير يعرف كيف يستغل شعبيته الكبيرة في أرضنا، وحب هتر وأمثاله لمصالحهم، وضعف موقف أنور، وحقارة الصغراوي لنيل غاياته!»

- «أنت محقة يا غيم، لكن هذا لا يعني أن الأمر بهذا السواد، هناك شعاع ضئيل موجود في مكان ما حتمًا، وفي كل مرة تشتد فيها حُلُكة السواد يتضح أن هناك شمعة مشتعلة بالغة الصغر مخبوءة في مكان ما، وشعلتها ستكفي لإضاءة ألف شمعة أخرى، إلى أن يسقط النور عرش الظلام!»

هززت رأسي باقتناع، وقلت باهتمام:

- «هل تجد خيطًا تستطيع الإمساك به؟»

- «أنور، شريف وشهم وحكيم، واليوم عرفت أنه يثق بي ويرتاح إلي، فقط هو بحاجة إلى الوقت كي يستطيع التنصل من الأندال المحيطين به، وينال حرية أكبر في اختيار مستشاريه.»

يدعم كلام أبي كلام أنور مع زوجة أبيه، فقط أرجو أن يستعجل أنور؛ لأن الوقت ليس أكثر ما نملكه. وصلت خالتي ودود ومعها ساري، أدخلته أُمِّي إلى الشرفة حيث كنا نجلس أنا وأبي؛ فنهضت من فوري، قال ساري ضاحكًا:

- «سأغادر أنا، لا داعي للنهوض.»

رفع يده ملوحًا لأبي دون إلقاء أي نوع من التحايا، ثم استدار وعاد من حيث أتى، نظر إلي أبي في حيرة فقلت بغموض:

- «منعطف حاد، تعرف أن الجميع يمر به أحياناً.»
- «المنعطفات الحادة مهمة للوصول إلى الطريق المستقيم، مفهوم.»
- «ليت هذا هو ما ينتظرنا بعد المنعطف.»

كان شعوراً محبباً لي أن أجد أبي يتفاعل مع أي موضوع أطره حتى لو لم يعرف تفاصيله. الجميع يحتاج إلى المؤونة في أي رحلة يخوضها، وفي رحلتنا إلى الهاوية حددت المؤونة التي ستعينني: وجود أحبابي حولي، سالمين وبعيدين عن أي مكروه. وسأدعو ليل نهار ألا يحرمني الله من هذه النعمة.

(٧)

للمرة الثانية قامت أمي وتبر بطردي من المطبخ، ستعودان إلي ما إن تنتهي الوليمة ويحين وقت غسل الأواني، عندها سوف... سوف لن أفعل شيئاً، سأذعن وأغسل بكل أدب.

حملت كتاب التاريخ المنسي واتجهت به نحو المزرعة، سأقرأ ما أستطيعه حتى يحين موعد العشاء، اتخذت موضعي تحت شجرة الأراك الكبيرة التي طالما أحببت الجلوس تحتها مع أبي، لتحدث ونتأمل ذلك الامتزاج الفريد لقبلة السماء الفسيحة التي لا ترى العين نهايتها، بعيدة المدى كما هي الأهداف، لا حد لها كما هو الأمل. ومن تحتها طرقات القرية المتشابكة، العامرة بالناس حيناً والخاوية حيناً، الحركة الدؤوبة للناس في الصباح عادة، والسكون الآخرس وقت المساء. يصعب لمن يراقب أن يصدّق أن هذا مشهد واحد، كأنهما لقطتان من عالمين منفصلين، تم تركيبهما فوق بعضهما بضرب من ضروب السحر. أحياناً اعتقدت أن السبب الأبرز في كون أبي يرى الأمور بنظرة مختلفة عن الجميع، هو أنه كان ينظر من الأعلى على الدوام، كانت هذه مزرعة جدي من قبله، ومن قبله أبوه وأبوه إلى ما شاء الله، لطالما كانت هذه العائلة مختلفة، ولطالما كانت هذه العائلة تنظر للعالم من الأعلى، بدون تحيز، بدون انطباع مسبق، بدون انتصار لهوى أو رغبة، نظرة حيادية بحتة ترى أطراف الصراع ودوافعهم وغاياتهم، وتقرر أين الصواب وأين الخطأ كما

يبدوان من بعيد.

أسندت ظهري إلى الشجرة وفتحت فهرس الكتاب كما علمتني المعلمة، وأخذت أتمرر عيني على الموضوعات بتركيز هذه المرة، شدتني بعض العناوين من قبيل: (سر الخلود - حرب الحاكم رشيد - انقسام القرية الصفراء). لكن أكثر ما أثار فضولي كان في أواخر ما ذكر: (عناوين إضافية: ما وراء سر الخلود - ما قبل القرية الصفراء). عناوين إضافية؟ أعني أنني لن أجد تفصيلها في الكتاب؟ لا سبيل للإجابة عن هذا السؤال إلا بقراءة الكتاب كاملاً، وإن لم أجد فيه تفصيلها فسأجد فيه تفصيل العناوين الأولى، وهو ما ليس هيناً.

لم أشعر بمرور الوقت وأنا أقرأ الصفحات بنهم واستمتاع، لعل معظم ما ذكر كنت أعرفه من قبل، لكن الكتاب قدم لي تفصيلاً أكثر وشرحاً أفضل من حكايات العجوز صباة البريئة غير المختصة، كان الكتاب سياسياً وتاريخياً بحثاً، أبرز مآثر الحاكم جَسَّار ومن قبله جده رشيد بشكل ممتاز، وكما ذكر ما قدمه ذكر ما أخذ عليهما من مأخذ؛ فالحاكم جَسَّار - على سبيل المثال - كان غليظاً عنيفاً بقدر ما هو حاذق وشجاع، وكانت احتمالية عفوه عن المخطئين ضرباً من الخيال، وكانت له أخطاء فادحة لا يشفع لها إنجازاه العظيم، وسبب عنفه المفرط ومزاجه المتقلب الكثير من الأزمات والمصائب والاختلاف بين الناس، وحدث أنه - ذات نزوة - اختلف مع شيخ قدير من كبار شيوخ القرية الصفراء، إذ سرق ابن لذلك الشيخ نعجة من مزرعة الحاكم وهرب، وبدلاً من البحث عن الولد السارق؛ فضّل الحاكم جَسَّار محاسبة الأب في حال لم يظهر الابن خلال مدة بعينها، وانتشر الخبر بين أهالي القرية، لو لم يظهر الابن؛ فسيعدم الأب. ومن هناك بدأت الأقاويل بالانتشار: إعدام لسرقة نعجة، وأخذ الأب بجريرة الابن؟ لم يكن الشيخ خفيف وزن في القرية، بل

كان عالماً جليلاً له مكانته ومقامه، وسببت قضيته انقساماً كبيراً في رداات الفعل، وتدخل في المسألة خلق كثير من داخل القرية وخارجها، كل بما يقدر عليه؛ فالبعض عرض ألف نعجة على الحاكم ليفرج عن الشيخ، والبعض رجاء أن يطلق سراحه بما أراد، ووصل الأمر بالبعض أن يعرض فداء الشيخ برقبته، لكن الحاكم كانت له -كما أسلفت- نزواته، رفض كل التوسلات والواسطات والعروض، وتجاهل الاحتجاجات والهمسات المستنكرة وحتى المواقف العدوانية وأصحابها، كان محمداً وواضحاً: إن لم يظهر الابن؛ سيعدم الأب.

لم يحب الشيخ الهيجان الكائن، ولم يرد أن يتأذى أناس كثيرون لأجله، وفضّل أن يدفع نفسه ثمناً لاستقرار الناس وسلامتهم؛ لذا رجا محبيه ومن يحاولون مساعدته بأن ينسحبوا من المسألة، ويتركوا القصة لتسير إلى نهايتها أيّاً كانت، بعودة ابنه أو إعدامه أو -ربما- تنازل الحاكم. ولم يجد أتباعه بداً من طاعة أمره، والانسحاب ودموعهم تغرق الوجنات، والنغزات تعتصر الصدور. حسناً، لم تحدث نهاية ملحمية، لقد انقضت المدة التي حددت للفتى كي يسلم نفسه، ونفذ الحاكم حكمه دون أن يختلج جفنه حتى.

كان ذلك من أعجب ما قرأت، وكان محبطاً في الوقت ذاته. حين قصت لي العجوز قصة عقلة وما ألحقه الحاكم جسار بأعدائه من خسارة، أحبت هذا الحاكم وتعلقت بسيرته وتمنيت أن أعرف عنه أكثر، وليتني لم أعرف! لقد كان إنساناً أكثر من اللازم، إنسان يخطئ ويصيب، بل وله أخطاء قد لا يغفرها شيء، ما الأسوأ من معاقبة بريء بذنب لم يقترفه، ولا يستحق عقاباً بهذه القسوة؟

لم يوقفني عن القراءة إلا انحجاب النور المفاجئ، نظرت حولي محاولة الاستفاقة من ذهولي، لقد غربت الشمس، ودون أن أشعر. الآن أفهم

المعلمة رؤية حين تغرق في لجة كتاب فلا تشعر بزلزال أو إعصار لو انتفض جوارها. أغلقت ضفتي الكتاب عازمة على متابعة القراءة في وقت لاحق، مددت أطرافي التي تيبست من طول الجلوس، ونهضت لأتمشى قليلاً في المزرعة قبل المغادرة.

قادتني قدماي إلى المنطقة التي خلت من الزروع، والتي انتزعت منها نبتة ساري أمس، هل هذا حقيقي أم أن عيناى تخدعاني؟ لقد عادت النبتة إلى مكانها، لا، بل عاد أضعافها! كأنه هجوم ما! كان ما يقارب العشرة من شتلات هذه النبتة قد غرست في أماكن متفرقة من أنحاء المنطقة الخالية، لقد أخذ زارع هذه النبتة انتزاعها كمسألة شخصية، وأعاد زراعة أضعافها من باب العناد!

إن كان عنيداً جداً، فإن أمني هي رؤوم، وأبي هو مدرار، وخالتي هي ودود، ولا أظن أن أحداً سيحاط بعائلة عنيدة كالتي أحطت بها! بلا تردد تتبععت الشتلات واحدة واحدة وانتزعتها من أماكنها، كوّمتها أمام باب المزرعة وناديت سهل.

- «أترى هذه النباتات؟ أحرقتها!»

نظر إلي في دهشة وبدا أنه شك في فهمه للجملّة، قبل مدة يأمره أبي بانتزاع النباتات، واليوم أمره بحرقها، قال بارتباك:

- «عقيدة قومي.. ممتازة جداً.»

يا للحماقة! يعتقد أننا نرتد عن عقيدتنا بأفعالنا هذه، ونبحث عن عقيدة بديلة نعتنقها! ليته يفهم أن الهدم مفيد مثله مثل البناء أحياناً. طوال السنين التي قضّاها معنا لم يتعلم تقريباً غير نطق كلمات ثلاث: (جيد، ممتاز، جداً)؛ لكثرة ما يستعملها أبي معه، وخلال الأحداث الأخيرة في القرية تعلم كلمتين

إضافيتين: (عقيدة، قوم)، أي أنه استعمل كل قاموسه اللغوي ليدعوني إلى معتقده! أمرته بفعل ما قلته دون إضافات فانصاع، خيّل إلي سماع صوت سهيل بعيد نوعاً، وبدلاً من افتراض أن الصوت يعود إلى فرسي جناح، أو حصان أبي العجوز، فضّلت أن أنسب الصوت إلى الحصان الطائر.

يا لتلك الروائح التي لا تقاوم! أمي طاهية بارعة بامتياز، وخالتي حسناء وودود تنافسها، وتبر قادمة بقوة، هنا تُقام ملحمة عاتية لا تقل ضراوة عن التنافس في السباق الكبير! تسللت إلى المطبخ وفتحت القدور أسترّق النظر إليها. الكوسا المحشوة بخلطة الأرز، لا بد أنها من إعداد تبر، وهنا لحم الضأن مع المرق، وهذه ملوخية متقنة الإعداد ورائحة الثوم المحمّر الطافي على سطحها تسكر العقل، عددت سبعة أصناف على الأقل بخلاف الحلويات والعصائر والسلطات، لقد أقسمت على أن تكون الليلة سعيدة، ثم أقسمت على استفتاح هذه السعادة عن طريق الفم.

خرجت لأجلس مع النساء المنتظرات نضج الطعام، ومتحاشية النظر إلى الأواني المتكدسة عند حوض الغسيل، لكل حادث حديث. كان أول ما لفتني لون وجه خالتي ودود، أو ربما عدم لونه، لقد بهتت بشرتها وتلاشى لونها كأن الدم انسحب من تحتها، وجحظت عيناها بطريقة مخيفة بالإضافة إلى الظلال القاتمة التي لوّثت أسفلهما، برغم معاناة خالتي مع المرض منذ قبل أن أولد حتى، أنا لا أذكر رؤيتها في حال بهذا السوء من قبل. كانت تبسم وتتفاعل مع أحاديث أمي وخالتي حسناء، وتظاهرها بأنها بخير، لكن الآهات الخافتة من آن لآخر كانت تفضحها، والحد الأدنى من الكلمات التي كانت تنطقها عند الضرورة فقط، وتستعيض عنها بالإيماءات معظم الوقت. وفي حين كان الجميع يظهر السرور والأنس، كنت أنا أرصد المخفي

والمستتر؛ فكنت أصطاد -بصبر- النظرات المتألّمة المنطلقة من أمي تجاه أختها، كأنها تتأوه معها في كل حركة أو ضيق نفس، وكنت أتعلق في المنتصف بين النظرات المتبادلة بين الخالة حسناء وتبر مع كل آهة تند عن خالتي ودود. الجميع يلحظ تدهور حالتها، والجميع يتظاهر بأن كل شيء بخير، ربما لأن قول الحقيقة ليس مطلوباً دائماً، ولأن بعض الأمور يُفضّل لها البقاء حبيسة النظرات الحذرة والتنهيدات الخافتة.

- «غيم، ما بك؟ هل أصبتِ بالصمم؟»

- «ها؟ لا لا، أسمعكِ يا أمي.»

- «صدقت تبر، كفي عن التفكير قليلاً، الواقع يستحق أن يُعطى فرصة مثله مثل الخيال!»

ليس أبي الوحيد الذي يعطي الحكم هنا.

- «لقد أوشك الطعام على الانتهاء، اذهبي لاستدعاء عمكِ جواد وأخيكِ وادع من الدكان.»

- «ماذا؟ لمَ هما هناك حتى هذا الوقت المتأخر؟»

قالت تبر بسرور عارم:

- «المبيعات لم تتوقف، بل إنها ازدادت هذا اليوم، وكان عليهما البقاء حتى بعد وقت الإغلاق ليجردا البضاعة ويحدد ما سيحتاجان إلى استيراد المزيد منه وما بقي من كميات.»

هزرت رأسي بتفهم وتبسمت لأجاري تبر، أياً كان ما خططت له شهوة فإنه سيتبين قريباً جداً. قالت خالتي ودود بخفوت لكن بابتسامة:

- «واستدعي ساري أيضاً، جديهِ واستدعيهِ، وأخبريه ألا يستمر

بالبحث عما طلبته منه، لقد أحضرته لي خالتكِ حسناء.»

أومأت بإذعان مع شعور خالجنِي بأن علاقتهما تحسنت على ما يبدو. نهضت لأرتدي ملحفي، ثم وجدت تبر عند كتفي تعلن أنها سترافقني. خير وبركة، رافقيني يا تبر.



لم أكره طرقات القرية من قبل كما فعلت اليوم، كانت الاستعدادات للحفل جارية على قدم وساق، الكثير من الزينات الملوّنة والقادمين والذاهبين، من يحمل البراميل ومن يحمل الصناديق، من يرتدي ملابس غريبة ومن يدهن وجهه بأصباغ عجبية، ولعل من أشد المناظر التي أذت عيني وأثارت غثياني لباس النساء، ليس فقط من التابعات للبهاليل، بل أيضًا من فتيات قريتنا والقرى المجاورة! فتيات كنت أراهن في دار المنارة، وفي جنبات السوق، فتيات عاديّات تمامًا مثلي ومثل أي أحد، وأهاليهن متنوعون بين أصحاب حرف وتجار ومعلمين ورجال حماية وغيرهم، ومعظم من أعرفهم منهم أفاضل وأصحاب شرف وخلق ووعي؛ فما هذا الذي أراه من عري وانحطاط في الحياء والأدب؟ من تنزل بياقة ملبسها لتكشف نصف نحرها، ومن ضيّقت جلبابها حتى غدت كما لو لم تكن ترتدي شيئًا، الفتيات يرتدين في الشارع ما أستحي من لبسه في البيت أمام أهلي! أي قذارة وصلن إليها وجعلتهن يتنازلن عن أهم ما يمتلكن؟ كيف أقنعوهن بالتراجع إلى مستويات دينيّة كانت لا تليق إلا بالإماء في الأيام الخوالي؟ هل نحن نتقدم بالزمن أم نعود للوراء؟ لماذا رأسي يدور؟

- «أنت محقة، كل هذا قدر ومقزز، لنجد وادع والآخرين ونفلت من هنا بسرعة.»

قالتها تبر ردًا على كلام لم يلفظه فمي بل عيناى، حثت السعي مع تبر نحو الدكان عند حافة السوق، وكلما تقدمنا في السير ازدادت المظاهر المثيرة للاشمئزاز والخزي كثافة وتنوعًا، إلى أن فطنت أن المكان الذي استقرت فيه العربة لتقيم احتفالها كان موالياً للسوق، في المنعطف التالي مباشرة.

رأيت الكثير من الحيوانات في الطريق، حمير وبغال وخيول وجواميس وأغنام و.. وبقر يصطدم بالأكتاف عامداً، ويرتدي لباساً أصفر ضيقاً يبرز التكتلات البشعة لبدنه بشكل أكثر قرفاً، ويلوك شيئاً ما بطريقة شديدة الغل، ويلطخ وجهه بالأصباغ حتى ليبدو أقرب شبهاً إلى قوس المطر منه إلى الإنسان.. أعني إلى البقر.

- «أوه، غيم؟ لم أركِ بسبب هذا التخفي الذي تمارسينه، هل عليكِ ثأر وتحافين أن يعرفكِ أصحابه؟»

- «بل أعتبر بما حدث لكِ من قبلي، لا أريد أن يكون جسدي مشاعاً للجميع.»

أصدرت تبر من فمها صوتاً شبيهاً بالاصطدام كناية عن إعجابها بردي، في حين زادت شهوة من سرعة مضغها لما في فمها على سبيل إظهار الغيظ، أحمد الله أن لم أكن ما تلوكة.

- «لا أعرف لم آتيتِ إلى هنا أيتها المتعصبة، لكنني أعرف لم آتت صديقتنا الزرقاء المنفتحة.»

تبادلت مع تبر النظرات الحائرة، عمّ تتحدث هذه المعطوبة؟

- «لربما كان في كلامك شيء من الصحة بعد كل شيء يا ابنة الشيخ مدرار، الزرق ليسوا سيئين في المطلق، بل هم قوم يحبون الحياة والاستمتاع، ويساعدوننا على الاستمتاع بدورنا بأكبر قدر ممكن.»

وضربت كتف تبر بطريقة حميمة كادت تطير تبر إلى الطرف الآخر من القرية وهي تقول بمودة مريعة:

- «أليس كذلك يا عزيزتي؟»

أبعدت تبر يدها بحركة حادة وهي تقول بنفاد صبر:

- «لا أفهم لغة البقر، ولا أعرف عمّ تتحدثين، ولو ناديتني بـ(عزيزتي) مجدداً فسأفرغ ما في جوفي.»

- «رباه! مرافقتك لهذه العدوانية أصابتك بالعدوى، برغم أن والدك وأخاك ليسا كذلك، لقد تعاونا معنا إلى أقصى حد، ولهما الفضل في أي متعة سنخوضها الليلة.»

كورت شفيتها الملوثتين بالأحمر القاني وأرسلت قبلة مفترضة في الهواء، ثم استدارت تهز جسدها المليء بالكتل وتمايل بدلال يثير الصداع. نظرت إلى تبر بوجه محمر وعينين حائرتين:

- «هل فهمت ما عنته؟»

- «ولا حرفاً واحداً.»

أمكنني رؤيتها تمط شفيتها من خلف غطاء وجهها وتسرح في أفكارها قليلاً، في حين ابتلعت ريقى في توتر، مخططات مجهولة وكلام مريب، كل شيء ينذر بكارثة.

- «وأنت يا غيم، لم سمحت لها بضرب كتفك بتلك القوة دون أن تكسري كفها العملاق ذاك؟!»

- «نحن متفقتان على أنها مجرد بقرة، والحاجز الوحيد بيننا وبين الضياع الآن ألا نزل إلى مستوى البقر.»

صمتت تمامًا وتابعنا السير لبعض الوقت، ثم فطنت إلى أنها كانت تدقق النظر إلي بشرود غريب.

- «ما الأمر؟ هل يلهمك وجهي المغطى؟»

- «بل أتفكر في المدى الذي يمكن أن يبلغه الإنسان في رحلة التغيير، من يصدق أن غيم الصغيرة التي كانت تتفعل المشاكل من العدم، وتسير في الطرقات باحثة عن شخص تعضه بأسنانها اللبنية الحادة، أصبحت الآن فتاة عاقلة تتغاضى عن جهل الجاهلين وحماقة السفهاء، بل وتتركهم يسيرون من أمامها سالمين دون أن تفكر في رد الإساءة حتى؟ كنت لأقول إن غيم الصغيرة قد انتقلت إلى داخلي حين كبرنا، لكنني أنا، كبيرة وصغيرة، تبر الصغيرة لا زالت متواجدة بقوة على الساحة.»

ضحكت بشدة، لا أعرف لم أضحكني قولها إلى هذا الحد، فقط كانت فكرة طريفة، ومسألة تستحق البحث، إلى أين ذهبت غيم الصغيرة منفوشة الشعر؟

- «لا أحد يدري يا تبر، لعلها لا تزال هنا، في مكان ما، تستتر تحت طبقات من التعقل والتهاusk حتى يحين الأوان المناسب لتفك رباط شعرها وتعود لرد الصاع صاعين، وللجميع!»

- «يا ساتر! أرجو ألا أكون من ضمن الجميع وقتها.»

من جديد تشاركنا الضحك، وأكرر أنني أحب نظرة تبر للأمر، وقدرتها على تحويل أي شيء مزعج إلى شيء مريح ومضحك. حين وصلنا إلى الدكان، لمحت ساري يسير في جهة قريبة، افترقنا كل لمنادة أحد، أسرعت من خطاي لأتبع ساري، انعطفت خلف عربة صغيرة تابعة للبهاليل فتبعته، ولم يكن لي هدف إلا مناداته. كان المنعطف مؤديًا لمر ضيق بين عدة عربات، وكان الممر

مزدحماً بالرجال فلم أستطع الدخول، لمحت ساري يتحدث مع شخص ما ببرود وعدم اهتمام كامل، كالعادة يعني، ثم زم شفتيه في تبرم ومد يديه ليحمل برميلاً خشبياً كبيراً وثقيلاً على ما يبدو، مططت عنقي أكثر لأرى من يقف قباليته، وليتني ما رأيت، لقد كان هتر، يبتسم بسماجة وخبث وهو يقول لساري شيئاً لم أتبينه بسبب الإزعاج المحيط، فارقه ساري حاملاً البرميل في حين التففت حول العربات لألحق به، كنت أركض تقريباً.

بالطبع كان طريقي أطول؛ لذا كنت قد تأخرت في الوصول، وقفت ألهث وأنا أرى ساري واقفاً مع العم جواد ووادع عند الدكان، كان وادع يتناول البرميل من ساري ويضعه على الطاولة، ما معنى هذا الذي أراه؟ كانت تبر واقفة قريباً منهم تراقب مثلي، تابعت السير نحوهم حين رفع العم جواد صوته وهتف بمرح:

- «بمناسبة المبيعات الغزيرة خلال آخر يومين، يسرنا دعوتكم لشرب هذا العصير ذي الخلطة المميزة من إعداد أم وادع يا رفاق!»

عصير خالتي حسناء؟ ألهذا تأخرت في الحضور إلى منزلنا؟ كانت تعد عصيراً بهذه الكمية؟ لكنني لا زلت مصدومة، كل شيء مشفر وغامض لحد الآن!

تجمع الناس من كل جهة ليلبوا دعوة العم جواد، دفعتهني الجموع وأبعدتني عن الدكان، لكنني استطعت -وبوضوح- رؤية قاسط يناضل ليكون أول الواصلين، ومن مكان قريب، لمحت شهوة واقفة تتهامس بابتسامة خبيثة مع أريج وعدة فتيات من بينهن الحمارتان اللتان صادفتهما في الدار صباحاً، هالني أن مسرة أيضاً كانت موجودة، ربما لم تكن متعربة مثلهن، وكانت نائية بنفسها عنهن إلى حد ما، لكنها كانت أضعف من أن تمتنع عن القدوم.

عاد ناظراي إلى جهة الدكان بسرعة وأنا أسمع صوت قاسط الفظ المرتفع، يقول بطريقة مفتعلة غريبة:

- «يا إلهي! ما هذا تحديداً؟ هل توزع النبيذ أيها الأزرق؟ كانت بادرة جميلة منك أن وضحت لنا مدة انفتاحك وتقدمك!»

نبيذ؟! دارت الأرض من حولي وسمعت دقات قلبي في أذني من الصدمة، كان العم جواد ووداع وتبر يتخبطون في حالة مشابهة كما هو واضح، أما ساري فقد بقي ينظر إلى المشهد كما ينظر لأي مشهد في حياته: بلا أي تعبير على وجهه.

- «وهو من علمنا طريقة إعداد وصفة المزاج الفائقة، لم نذق شيئاً بهذه الروعة من قبل، لكنه تكفل مشكوراً ببيعنا ما نحتاج إليه وبأسعار مستحيلة! باعنا منقوع الزوان، والعسل المجنون، ومسحوق جوزة الطيب المركز، وكل ما احتجنا إليه لإكمال الخليط.»

كانت هذه أريج، قالتها من موضعها ليسمع كل الموجودين قولها، كانت هذه هي الخطة إذن، لو لم ينحرف أصحاب الأعين الزرقاء؛ فسنهيئ للجميع أنهم منحرفون! فغر العم جواد فمه في صدمة وبدا غير قادر على الدفاع، صاحت تبر في جنون:

- «أيتها الملعونة! أي افتراء هذا!»

- «افتراء؟ أنا أمتدح والدك! ثم، بوسعك سؤال الجميع هنا، فتيات وفتيان!»

انطلقت عدة أصوات مؤيدة لكلامها، واتجهت أنظار كل من كان في السوق وفي محيط العربة إلى العم جواد، باستنكار أو استهجان أو غضب أو دهشة، كنت واثقة من وجود خطأ! كان علي منع هذا!

- «أيها الحقير، يبدو أن الصفراوية كانت محقة في شيء واحد على الأقل، وجودكم بيننا أكبر بلوى!»

قالها الحداد حصين بغضب عارم، لا أعرف متى ظهر، لكن وجه أريج امتقع وتلوّى، اقترب منها والدها وشد أذننها بقوة، ثم جرّها خلفه وهو يلعنّها ويلعن كل العاريات الواقفات معها، اقترب من العم جواد فتنحت الجموع في رهبة، في حين تحفّز وادع للدفاع عن أبيه، توقف أمام العم جواد وبدأ أن الوقت توقف معه، مرت لحظات ثقال قبل أن يبصق أكبر بصقة بصقها في حياته ربما، أكبر من كمية البصاق التي أفرزها منذ بدأ يعمل في الحدادة، كل هذا والعم جواد واجم لا يأتي بردة فعل، ثم اقترب من البرميل الكبير وهوى عليه بقبضته العملاقة، لم يصمد البرميل واختار الاستسلام، هكذا تحطم إلى ألف قطعة وانساب السائل الخبيث هاربًا من جنباته.

فجأة بدا أن ما فعله الحداد أصبح سنّة لدى الواقفين، يمر واحد إثر الآخر ليبصق على العم جواد ودكانه ويطلق سيلًا من اللعنات والدعوات بالخراب والخزي ثم يغادر، حتى الصفراويون الذين أتوا بالأساس ليشربوا ويفعلوا كل ما يحلو لهم، لم يريدوا تفويت الفرصة.

انتهى الحدث كما بدأ، والعم جواد واقف كالصنم دون حراك، ووادع يرتجف جواره غضبًا وألمًا، وتبر تنظر إلى مذهولة كأنها تسألني إن كان ما حدث حقيقة أم حلمًا، لم أستطع تحمل مسؤولية إجابتها؛ لذا هربت بأنظاري ناحية ساري الواقف كأنه لم ير شيئًا مما جرى.

فجأة حدث ما يחדش الهدوء، أبعد شيء عن التخمين: قفز وادع من مكانه كما لو كان واقفًا على زنبرك، وبكل قوته لكم ساري لكمة جعلت الأخير يطير عدة أقدام، شهقت بذعر وصرخت تبر، أفاق العم جواد من ذهوله ومشى خطوتين ليووقف ابنه الثائر، في حين كان ساري يرفع رأسه

بصعوبة عن الأرض ويفرك موضع اللكمة دون أن يعكر صفحة وجهه تعبير من أي نوع، لم يمهل وادع، بل انقض عليه مجددًا، لم أر وادع شرًا وهائجًا بهذا القدر في حياتي، كان يكيل له اللكمات والضربات تباغًا دون توقف، لم يكن أحد قادرًا على إيقافه، بدا أنه فقد وعيه وإدراكه بما يجري حوله، وأصبح العالم بالنسبة إليه مختزلًا في إزهاق روح ساري. كان يردد بأعلى صوته:

- «أيها النذل الحقير، كنت تعرف، كنت متواطئًا معهم، كنت أعتبرك أخي أيها الدنيء، بكم بعثني أيها...»

وأخذ يطلق سيلًا من الألفاظ التي لم أتخيل أن أسمعها يومًا تخرج من فمه الحيي المهذب. اللافت أن ساري لم يكن يقاوم بأي شكل، لم يحاول منعه من ضربه، ولم يحاول صد أي من هجماته، برغم أنه كان قادرًا على مجاراته وأكثر. فجأة تدخلت كتلة دهنية عملاقة في العراك، انقض قاسط على وادع بكل جسده وهو يصرخ في غل:

- «من أنت أيها المسخ لتثير المشاكل هنا وتضرب واحدًا منا؟ هل تحسب نفسك في بلادك أيها الهمجي؟»

انتقلت المعركة إلى طور أصعب، وغدا الأمر جنونيًا، انهارت تبر على الأرض تبكي بجزع، وأخذت مسرة تولول في مكان قريب، وتجمعت شهوة ومن معها من الفتيات يشجعن قاسط ومن معه من الفتيان، ويحفزنهم على قتل الأزرق المسخ. تلقى العم جواد عدة ضربات وهو يحاول إيقاف الطوفان الثائر، لكن الوضع كان كارثيًا بكل المقاييس؛ لذا وجدني أفعل الشيء الأول الذي خطر ببالي.

ركضت بأقصى سرعتي ناحية الطرف الآخر من السوق، لم تكن أصوات

الشجار وإزعاجه قد وصلت ذلك الحد، كنت أعرف أن أنور ومن معه يقفون هنا ليناقشوا مسؤول عربة البهاليل في بعض الأمور قبل بدء الحفل، توقفت في مكان قريب منهم واحترت فيما علي فعله، هل أنادي اسمه؟ هذا أسخف من أن أستطيع فعله! كيف أجذب انتباهه؟ لحسن حظي تنبه واحد من الواقفين معه إلي، وبدا من توتري المفرط ونظراتي المركزة على أنور أنني أريده بالذات، وكز الرجل أنور وأشار إلي فنظر إلي أنور، مباشرة بدا الاهتمام والاستغراب في عينيه، وقطب حاجبيه كأنه يسألني عما أريد. من جديد لم أعرف ماذا أقول، واحتبس الصوت في حلقي، باضطراب مددت يدي أشير إلى الطريق الذي أتيت منه؛ فنظر أنور إلى حيث أشرت في حيرة ثم عاد ينظر إلي وهو يهز رأسه مستفسراً، لم أجد إلا كلمتين تصلحان للتوضيح:

- «ساري، ووادع!»

اتسعت عيناه في فزع برغم أنني لم أشرح ما جرى، ركض بسرعة وخلفه بعض من كان معه من رجال الحماية وغيرهم، وركضت خلفهم، وصل أنور إلى موضع الشجار فكادت عيناه تخرجان من محجريها، خاصة حين دقق النظر فرأى ساري ووادع في مركز المعركة، اقتحم المعركة بكتفه وخلفه رجاله، تفرق بعض المتشاجرين لما تعرفوه وتوقفوا وهم يلهثون، صرخ أنور بغضب شديد وصراة:

- «يكفي! ما هذه الهمجية! توقفوا حالاً!»

توقف الباقون عن الشجار، لم يبقَ إلا واحد، اقترب منه أنور وأبعده من كتفيه بقوة وهو يصرخ بذهول:

- «وادع! هل جنتت؟! يكفيك أيها المخبول! أنت تكاد تقتله!»

بدا أن هذا كان كافياً ليفيق وادع من سكره المعنوي، انهار على الأرض

يلهث وينظر حوله في بؤس، بوجه مليء بالكدمات والجروح، وبشفتين متنفختين، وشعر معجون بالدم والعرق. انحنى أنور على ساري يتفحصه في لوعة، كان يتنفس بالكاد، انطفأ النور في عينيّ لثانية شعرت خلالها أنه قضى، لكنه فتح عينيه بصعوبة ورسم ابتسامة هازئة على شفثيه الغارقتين في الدماء، أخذ أنور يهزه ويسأله إن كان بخير، جاء أحدهم بكوب من الماء سكبته أنور على وجه ساري وغسله به. أبعد ساري يد أنور بحركة غير مبالية ونهض بمعجزة، تحسس أسنانه بلسانه ثم بصق شيئاً ما، ضرس، لقد أسقطت ضربات وادع ضرساً من ضروس ساري، نظر إليه ساري في استمتاع وقال بصوت متحشرج:

- «أوه أوه! كان من الممكن أن تكون روحي بدل هذا الضرس!»

إنسان غير معقول! يمزح حتى في لحظة كهذه. التفت أنور إلى وادع وبدأ أن وجهه يحمل من الإشفاق أكثر مما يحمل من الغضب، قال بنوع من الصدمة:

- «لا أصدق، ما هذا الذي فعلته يا وادع؟ أنت تضرب ساري؟ وبهذه الشراسة والجنون؟!»

نظر إليه وادع نظرة خرساء ولم يتكلم، بقيا يتبادلان النظرات بعض الوقت، خيّل إلي أن عينا أنور اغرورقتا بالدموع في لحظة بعينها، وهو يوزع نظراته بين ساري ووادع.

- «أزرق متوحش، كنت أعرف أنهم لا يمكن أن...»

- «اخرس!»

قالها أنور في صرامة مخيفة فابتلع قاسط لسانه، تابع أنور:

- «أخوان يتشاجران، ما دخلك بينهما أيها الشيطان؟»
 - «إنه أخي في الصفراوية، وهذا الأزرق يضربه، كان...»
 - «ألم يكن بوسعك منعه من ضربه بدلاً من زيادة الطين بلة؟ أم أنك -يا شبيه الخنازير- لا تترتاح إلا حين تُغمر في القذارة؟!»
- كانت غضبة أنور عاتية، وأدهشني أنه وجه لومه لقاسط وحده، نهض وادع في حين اقتربت تبر الباكية من أبيها وأمسكت بكفه، استدار أنور للعم جواد وقال بنبرة ليّنة:
- «أصحيح ما سمعته يا عمي؟»
- أغمض العم جواد عينيه في إرهاق واضح ولم يقل شيئاً، لم يضغط عليه أنور، بل استدار إلى وادع وربت على كتفه بطريقة أخوية وهو يقول:
- «لا أريد أن يتكرر هذا، من فضلك.»
- مجدداً لم يحبه وادع، سار العم جواد مع تبر ناحية عربته القريبة، وتبعهما وادع، ثم انطلقت العربّة مبتعدة، زجر أنور قاسط في حدة لبيتعد ويذهب للاهتمام بشؤونه فأذعن الأخير وذيله بين أسنانه، نظر إلي وإلى ساري نظرة أخيرة وأطالها عند ساري، كانت عيناه تحملان تعبيراً غريباً لم أفهم ما وراءه، همست بصوت لا يكاد يسمع:
- «شكراً.»
- لم أعرف إن كان سمعني، لكن خيل إلي أنه هز رأسه برفق قبل أن يبتعد، اقتربت من ساري المستند على الجدار يتحسس موضع الضرر المخلوع بإصبعه، نظر إلي وقال بهدوء:
- «ظننتك لا تريدن حضور الاحتفال، لم أتيت؟»

رغمًا عني وجدت الدموع تنهال من عيني، كان ذلك سخيًّا جدًّا، لكنني لم أستطع منعها، عبثًا أخذت أمسحها وأفرك عيني بقوة، في حين بقي ساري ينظر إلي بنفس الهدوء. قلت بعد لحظات من استجماع الصوت:

- «أمك أرادت أن.. تأتي معنا.. الوليمة جاهزة...»

عند هذا الحد وجدتني أنفجر باكية، كان ما حدث كثيرًا على أعصابي، لم أتخيل أن أرى وادع وساري يتقاتلان يومًا، بل إن وادع كان مستعدًّا بكل صدق لقتل ساري! غطيت وجهي بكفي وأخذ جسدي كله يهتز، وضع ساري يده على رأسي وقال بنبرة حائرة:

- «ما بك؟ لماذا تبكين؟»

لماذا أبكي؟ هل هو معنوه؟ كان يسأل بجدية! إنه لا يرى لأي شيء معنى، هذه حقيقة تتبدى أمام عيني بشراسة أكثر في كل يوم يمر، بل إنه لا يتأوه من جروحه حتى!

- «هيا، فلنعد إلى منزلكم. الطائر واقف هناك.»

- «لا، شكرًا، سأعود على قدمي.»

قلتها بصوت متهدج وأنا أمسح دموعي، فهز كتفيه في بساطة وسار مبتعدًا عني وهو يقول:

- «كما تشائين، أراك هناك إذن.»

- «لا تتأخر.»

- «بهذا المعدل، أرجو ألا تتأخري أنت.»

ثم ضحك في مرح وأكمل طريقه مبتعدًا.

لا أعرف كم استغرقت رحلة عودتي إلى المنزل من وقت، تناوبت كل أنواع الهواجس والأفكار على عقلي، كنت أرى الناس أشبه بالأشباح في زوايا عيني، وكانت الطرقات تموج بي كالمياه، ولو تخلّيت عن تماسكي لثانية فإن قديمي ستسقطان دون معاودة النهوض.

ما كان ذلك؟ وما معناه؟ بدا أن العم جواد كان ينتظر البرميل الآتي مع ساري، لكنه زعم أنه العصير الخاص بالخالة حسناء، العصير الذي نشره منذ كنا صغاراً ونعشق طعمه، بأي معجزة تحول العصير إلى نبيذ؟ ثم مزاعمهم بأن العم جواد دلّم على مقادير الوصفة، وبذل ما بوسعه ليتمكنوا من الاستمتاع بحفلتهم، لا أستطيع تصديق كذبة بهذا الحجم، العم جواد لم يظهر بيننا فجأة، بل هو هنا منذ عرفت نفسي، دائماً كانت له وقفاته المشرفة، ومبادئه الثابتة، و.. لم سأفكر كثيراً؟ لو أراد العم جواد سلوك طريق أعوج ما كان ليغادر قريته ابتداءً! هل يُصدّق أن الرجل الذي ترك قومه وأرضه وبلاده وحمل عائلته ليبدأ بداية مجهولة في مكان لا يعرفه بحثاً عن الحق، هل يُصدّق أنه سيبيع ضميره بأي ثمن، أو يحاول استبدال شرفه لأي سبب؟

وصلت إلى منزلنا؛ فأثار استغرابي وجود عربة العم جواد أمام الباب، وحصان ساري الطائر قريباً منه، لقد أتوا برغم كل شيء! لعلمهم قدّروا أن الأسوأ لم يحدث بعد، وأن قمة السوء شبيهة بالسراب، كلما اعتقد المرء أنه وصلها فوجئ بأنها تبعد أكثر؛ لذا فضّلوا اتخاذ وليمة الليلة كخط فاصل بين الفائت والآتي. دلفت بلهفة وفضول لمعرفة ما عليه الحال في الداخل، سمعت صوت أبي والعم جواد في الديوان الذي نصل إليه عبر الباب الخلفي، كان صوتهما خفيضاً وواجماً، لا يحمل الحيوية والمرح المعتادين في حديثهما. انعطفت لأدخل مجلس النساء؛ لأجد أُمّي وخالتاي وتبر جالسات

حول الصحون ووسط الروائح الخلابه، والتي كانت لتطير بلبي في ظروف أخرى. قالت أمي بحماس شبيه بنارٍ تناضل للحياة بعد سيل من الماء المنهمر:

- «أوه غيم! أين كنت طوال هذا الوقت؟ هيا، الطعام سيرد، لا يجب أن يفوتك مذاقه وهو ساخن!»

أومأت بخفوت وجلست جوارها أتأمل الجميع من حولي، أهذه وليمة أم مآثم؟ همست لأمي:

- «أين وادع وساري؟»

- «وادع مع والده ووالدك في الديوان. ساري رفض ترك أمه تراه، وبصعوبة أفنعتُه بأخذ صحن والجلوس في الشرفة.»

لا أستبعد أن تلفظ خالتي آخر أنفاسها بمجرد وقوع عينيها على منظر ساري، كان خياراً جيداً منه، برغم أنني عاجزة عن وصف أي شيء يفعله بـ(جيد) بعد كل ما جرى. مددت يدي وأكلت باستحياء، الجميع يفعل المثل، يأكلون في الظاهر، ويغادرون إلى أماكن أخرى داخل أفكارهم بين لقمة وأختها.

- «الحمد لله، شبعنا.»

قالتها تبر بصوت مبحوح ونهضت، منحتني أمي نظرة فنهضت أتبعها، صببت عليها الماء لتغسل يديها، ثم تبادلنا الأدوار، كانت عيناى تجوسان بارتباك باحثه عن شيء أقوله.

- «لا تقولي شيئاً، إياك.»

قالتها بلهجة قاطعة ووجه جامد، تنهدت بحرارة وأذعنت، لم يكن لدي ما أقوله على أي حال. أبعدت دورق الماء بحركة حادة وهي تقول:

- « لحظة، أنتِ لم تأكلي أصلاً! »
- « ولا أريد أن آكل. »
- « لم أخبرهم بما فعله وادع بساري رافة بالخالة ودود، احرصى على عدم ذكر ذلك. »

أومأت بوجوم وأنا أجفف يدي، خرجنا بوجوه صلبة لترفع الصحون، بعدما انتهت أمني وخالتاي من الأكل، أو من التظاهر به. ثم اتجهت أمني إلى المطبخ لتحضر دورقين كبيرين، ناولتني أحدهما مع ثلاثة أقذاح وأمرتني بإعطائه لأبي، وحين عدت وجدتها تصب للجالسات من الآخر، ناولت تبر كأسها فرفعت يدها ممانعة، تبر التي كانت لتشرب دورقاً كاملاً من هذا العصير في أي وقت، لا عجب أنها عاجزة عن مجرد النظر إليه بعد كل ما حدث. وصل الدور إلى فهزرت رأسي رافضة بدوري، فوجئت بالخالة حسناء تقول بسرعة وبلهجة دفاعية:

- « خوخ وتفاع وليمون وماء ورد، لا شيء مريب. »
- المسكينة! بادرت بالدفاع عن نفسها ظناً منها أن رفضي مبني على ما حدث في السوق، هذا هو عصيرها كما أعرفه، وهذا ما كان يفترض به التواجد داخل البرميل!

- « لا.. ليس هذا ما.. حسن، سأشرب كأساً يا أمني. »

- « إنها غيم يا أمني، غيم! »

قالتها تبر بطريقة نافذة الصبر، كأنها تقول: (ليست هذه من تظنيها!)، سبق وقلت ذلك ألف مرة ربما، لكنني بحاجة إلى جعلهم ألفاً وواحد: لم أملك شيئاً في حياتي بحجم ثقة أحبابي بي، ورؤيتهم المختلفة تجاهي، ولو

جاء يوم خبيت فيه ظن أحدهم بي؛ فإن هذه ستكون النهاية بالنسبة إلي، ولو فعلت مقابل ذلك أي شيء حسن!

صبت لي أمي وجلست، لم تطل الجلسة كالعادة، ولم تكن عامرة بالأحاديث، لم أتوقع يوماً أن تقوى أمي وخالتاي على الجلوس دون قص ألف قصة متتاليات، لكن كما سبق وقلت، التغيير طال الجميع. سمعت سهيل الطائر في الخارج وصوت حوافره يضرب الأرض مبتعداً، لم يطل الوقت قبل أن تتبعه عائلة العم جواد، أما خالتي ودود؛ فقد أفتعتها أمي -بطريقة ما- بالمبيت عندنا الليلة، على الأقل حتى تطمئن عليها، ثم ستركها تغادر وقتها شاءت.

خلدت خالتي إلى النوم في غرفة الضيوف بالطابق العلوي، بعد مسامرة قصيرة مع أمي، ثم تلتها أمي بعد أن نهتني إلى غسل كل الأواني قبل أن أنام. لكل مشكلة أثارها الجماعية والفردية، لعل غسل الأواني يشكل واحدة من تلك الأخيرة بالنسبة إلي، أما كان بوسع تبر الاحتفاظ بمزاج أفضل لمساعدتي؟

حين هدأ الجو، اندفعت أجالس أبي متشوّقة لحديث ليلي يريحني. بدا أبي منتظراً لتلك اللحظة بدوره، أحاط كتفيّ بذراعه وأخذ نفساً عميقاً في نوع من الشroud، وهو يسألني إن كنت أريد شيئاً بعينه.

- «سمعت بما حدث؟»

هز رأسه ببطء؛ فقلت بخفوت:

- «ورأيك هو...؟»

- «ما رأيك أنتِ أولاً؟»

صمّت للحظات أقدّم قدماً -معنوية- وأوخر أخرى، كنت أحاول التستّر على ساري طوال الفترة الماضية، وكنت أقنع نفسي أن السبب هو الانتظار حتى تأكيد الشكوك. الآن سأحكي، ما أنا واثقة منه على الأقل.

- «رأيت ساري يتحدث إلى هتر، وقد أخذ البرميل إياه منه.»

نظر إلي أبي باهتمام فائق إلى حد أن حاجباه كادا يلامسان حدود شعر رأسه، ابتلعت ريقى وقلت بصوت أشد انخفاضاً:

- «وبدا أن العم جواد يعرف، كان ينتظر البرميل، أنا.. مشوشة!»

شدّ على كتفيّ كأنه يطمئنني، شرد قليلاً ثم قال:

- «عمك جواد لا غبار عليه، ولو رأيته بعينيّ يعيى البرميل بالنبيذ، ويوزّع على شباب القرية قراطيس تحمل مقادير الوصفة إياها لما خالجنى شك تحجّاه، ما أعرفه جيداً أن جواد أبعد عن الشك من أي أحد في هذه القرية!»

- «والتفسير؟»

- «لا يهم، سيأتي لاحقاً، أو لا يأتي أبداً. كل ما أعرفه أنني لن أستمع إلى الصفراويين وادعاءاتهم ضد أخي الذي جمعني به عمر كامل!»

- «الصفراويون لا يرون هذه جريمة، بل لو فعل العم جواد ذلك فعلاً سيحملونه فوق أكتافهم، وسيضربون به المثل في الانفتاح!»

- «بالضبط؛ فما الذي جعل العالم يقوم دون أن يقعد، بعد أن فعل الأزرق ما تشجع الصفراوية على فعله؟ الصفراويون يعرفون جيداً ما يفعلونه، ويعرفون أنهم بتشويههم لسمعة جواد -وإن هداهم خبثهم إلى الاستتار بالإعجاب المزيف والمدح الكاذب- سيقلّبون شرفاء القرية وأصحاب الرأي

فيها ضده، وسيتيحون لكلاهما النابحة من أمثال هتر الطعن فيه والحصول على حجة يستعملونها لذمه ونبذه أكثر. كل ما أراه يبرئ جواد الذي لا يحتاج إلى تبرئة في رأيي!»

كلام جيد، وأخالفه بأنني واثقة بظهور التفسير، عاجلاً أو آجلاً؛ لأن الله لا يرضى الظلم، ولأن العم جواد كان مع الله دائماً، وعاش عمره باحثاً عن رضاه، الله لن يضيّعه أبداً، وسيستصر له ممن ظلمه، وسيظهر سلامته من ادّعاءاتهم القذرة كما يُستخرج الذهب من بين الأتربة والصخور!

- «وساري؟»

تنهد تنهيدة طويلة لم أفهم ما تعنيه، كررت سؤالاً بإلحاح فكرر رده الصامت. لأبي نظرة في ساري، لكنه يرفض البوح بها، لم ياترى؟

كان أول ما فعلته حين صحت صباحاً -بعد شرب كأس ضروري من الشاي بالحليب- أن ارتديت ملابسني وخرجت قاصدة منزل العم جواد، يجب أن أكون جوار وادع وتبر في وقت كهذا؛ لأن الجميع -حتمًا- سيكون ضدهم. حملتني أُمي سلة مجدولة اقتنتها من دكان آنفة منذ أعوام، عبأتها بصحون من أصناف الطعام المختلفة التي كانت على سفرتنا ليلاً، الطعام كثير ولو انتظر لوقت أطول سيفسد، كما أن منظر الكوسا المحشوة البائسة يجرح الإحساس كثيراً، حين أفكر في أن تبر كانت موجودة ليلتها ولم تقض عليه. رفضت تناول الإفطار معها ومع خالتي، عازمة على فرض نفسي على سفرة الخالة حسناء، إن كانوا ينوون إعداد واحدة. أما أبي فقد خرج باكراً إلى الدار، ومعه بقية الطعام الذي نوى توزيعه على من هم أولى به.

ولأنني أملك هواية لا تخفى على أحدكم في الإفراط في التفكير والانفراد

بالعوالم التي ينسجها عقلي من الاستنتاجات والتخيلات، قررت الالتفاف من الطريق الأطول، من جهة السوق، وقد كان لاختيار هذا الطريق تحديداً دافع خفي لم أصارح به نفسي: أن أرى ما خلفه الاحتفال من آثار، وأن أنظر إلى بقايا إعصار الليلة الفائتة.

حسناً، لم يخب ظني كثيراً، وضعت صورة محددة في ذهني ووجدتها ماثلة أمامي، الطرقات خالية توحى لمن يراها بأنها غير مأهولة، أو بأن هذه قرية أموات، الكل منهك بعد ليلة البارحة، وكل ما رأيته بالأمس من تجهيزات وزينة وبراميل وكؤوس و.. كل ما يمكن تصويره مما يستعمل في الحفلات، متناثر على الأرض بشكل فوضوي ومزعج، لا أحد كلف نفسه برفع قرطاس من بعده، أو ربما لم يكن أحد مستقيماً كفاية للتنبه لذلك. تسارعت خطواتي للوصول إلى دكان العم جواد و.. ما الذي داسته قدامي؟ أهذا...؟ يا إلهي! ألا فليخز الله كل من كان السبب في تلوث حذائي بهذا القبيء، بدءاً ممن نظم الحفل مروراً بصاحبه المقرف وانتهاءً بمن تعين عليه التنظيف وأهمل واجبه! مسحت قدمي في الأرض بقوة حتى كدت أثقب الأرض، أمل أن يتكفل التراب بامتصاص هذه القذارة، كما تكفل باحتواء غيرها من تحته وفوقه على مر العصور، كم واحداً من أمثال هتر احتضنه التراب دون شكوى؟ بل كم واحداً ممن تجبر على الضعفاء وجنى على الأبرياء استطاعت الأرض -برحابة صدر- إيجاد مرقد أبدي ملائم له؟

تابعت السير نحو الدكان دون أن يزايلني الاشمئزاز، لكن الدهشة -وربما القلق- حلّ محله بسرعة كبيرة، ما إن لاح باب الدكان أمام ناظري. لم الباب موارب؟ لقد أغلقه العم جواد بالأمس، أنا أكيدة من ذلك. لا توجد بضاعة مرصوفة على طاولة العرض، كل شيء يوحى بغلق الدكان، لكن الباب ليس مغلقاً! كما أن بقايا البرميل المكسور زالت من أمامه، من أزائها ومتى؟

بطأت من خطواتي وقلت بصوت متوتر وأنا أضع سلة الطعام على إحدى المقاعد الخشبية القريبة:

- «عمي جواد، أنت هنا؟»

لم يجبني أحد، لكنني سمعت صوت حفيف خافت، كأن هناك من يعبث بشيء ما في الداخل.

- «وادم؟ تبر؟ من هناك؟»

توقف الحفيف، كأن من بالداخل لا يريد لي معرفة وجوده، بدأت ساقاي بالاهتزاز، وبدأ حساس الإنذار بالطنين في أذنيّ، هناك شيء خاطئ يدور، هل أمضي قدماً لإرضاء فضولي، والحفاظ على صورتي أمام نفسي؟ لعله فأر في نهاية المطاف، هل سأهرب من فأر؟ أم أهرب بجلدي متبعة أسوأ الاحتمالات؟

بدا أن الطرف الثاني -المفترض- أراد الاستئثار باتخاذ القرار؛ فجأة وجدت باب الدكان يفتح عن آخره بطريقة عنيفة، ولمحو الشكوك: لم تكن هناك نسمة هواء ولو خفيفة، يمكن أن يُنسب إليها الفضل في فتح الباب الثقيل بهذه القوة. خيل إلي أنني رأيت شيئاً/ شخصاً يتحرك خارجاً، ببطء وحذر، لكن زاوية نظري لم تسعفني لتبينه بالكامل، ولم أنو ذلك، كان هذا آخر شيء لمحته، قبل أن أجدني أركض كالمجنونة عبر الطرقات دون أن أرى ما أمامي، كان دعر متوحش يستبدّ بي، وشعور الخطر وصل لمراحله العليا، اصطدمت بأحد أمسك كتفي فأغمضت عينيّ وصرخت بدعري، لكنني بعد لحظات فطنت إلى الصوت المرتجف الذي يوجه حديثه إليّ.

- «ما بك يا غيم؟ ممّ تهربين؟»

فتحت عينيّ وعببت الهواء بفمي، إنها مسرّة، وليست وحدها لحسن

الحظ، بل إن والدها (وطيد) قائد رجال الحماية واقف معها، تماسكت وأشرت ناحية الدكان.

- «دكان عمي جواد، هناك أحد في الداخل.»

قطب الرجل حاجبيه وتحرك نحو الدكان ببطء وارتياب، وقفت مع مسرّة في أبعد مكان ممكن للرؤية وراقبناه وهو يقترب رويداً رويداً، وحين كاد يقتحم الدكان، خرجت ثلاثة ظلال عملاقة من النافذة الخلفية للدكان، وانطلقت تجري بأقصى سرعتها. صرخنا ننبه العم وطيد لما حدث، وإلى أن فهم ما نشير إليه، وبدأ بالالتفاف للحاق بهم، كان الأوان قد فات، وكانوا قد اختفوا تماماً.

- «ما الذي يعنيه هذا؟»

قالتها مسرّة وهي ترتجف، بقي العم وطيد صامتاً، وبدأ أن هذه طبيعته، يبدو أن هذا الرجل لا يحب الثروة، إما أن يفعل أو ألا يفعل. أما أنا فقد سرّنتي -تجاوزاً- حقيقة أنني هربت من شيء يستحق، وأن الخطر كان محيقاً في الداخل بلا شك.

استدار العم وطيد واتجه إلى دكان مجاور لدكان عمي جواد، سألته مسرّة عما يريد فعله فلم يجيبها، ليس بالكلام على أي حال، اقتحم المكان عبر النافذة برشاقة ومكث هناك لبعض الوقت، ثم خرج وهو ينفذ يديه من الغبار، واتجه نحو دكان آخر، الآن فهمت، إنه يحاول التحقق مما إذا كان الاقتحام قد طال جميع الدكاكين، أو أنه خاص بدكان العم جواد دون غيره. وخلال انشغال الرجل بما يفعله، نظرت إلى مسرّة وقلت:

- «ما الذي أيقظك في هذا الوقت؟ الجميع في سبات بعد ما فعلوه ليلة

البارحة.»

- «ولم تفترضين أنني فعلت ما فعلوه؟»

- «لأنك كنتِ معهم، أنتِ مثلهم إجمالاً.»

هزت رأسها بارتباك ومطت شفيتها، كأن حُجبتها خانتها، هي ليست مثلهم وأنا أعرف، لكنها ترضى على نفسها أن تُعد منهم، فلا هي طالت البراءة الكاملة من أفعالهم، ولا هي نالت الرضا التام منهم.

- «لو كان بوسعك تغيير شيء مما حدث بالأمس وامتنعتِ عن ذلك؛ فإنني أشفق عليكِ من الذنب الذي سيلاحقكِ للأبد.»

مجدداً طال صمتها، لم أفهم إن كان خوفاً من تحاذلها، أم عجزاً عن الدفاع عن نفسها. عاد والدها من آخر دكان تفقده، كان دكان هتر. لم أختبر انفعالات هذا الرجل كثيراً، لكن خيل إلي أن وجهه انقلب بشكل ما، كما لو أنه رأى شيئاً خاطئاً. أيد ظني قول مسرة:

- «ما الأمر يا أبي؟ هل وجدت ما يريب؟»

تفكر قليلاً ثم هز رأسه نصف هزة، موجز حتى في الإيحاءات. نظرت إلي مسرة وسألتني عن وجهتي، أخبرتها فأخبرتني أن بوسعي مرافقتها، هما ذاهبان إلى مزرعتهم في الجهة القريبة من منزل عمي جواد. بحذر استعدت سلتي، وسرنا مترافقين، لكن كلاً منا كان بمفرده. مسرة كانت تنظر إلي من آن لآخر بطرف عيناها، كأنها تنتظر مني إشارة أو كلمة توحى بتقبلي لحديثها إن تحدثت.

- «ماذا حدث في اعتقادك؟ أعني.. بالأمس.»

قالتها بصوت مبحوح، ثم قلبت وجهها مباشرة واستمرت في السير كأنها لم تقل شيئاً، ألقى ضيقي منها جانباً وأجبت منتقية كلماتي:

- «لا أجد تفسيراً، لكن العم جواد بريء من كل التُّهم.»

هزت رأسها كأن هذا مفهوم تماماً لها، لا أعرف إن كانت فعلت ذلك انتقاءً لغضبي، أم لأنها تشاركني الرأي، أم لأنها تعرف ما لا أعرف، هذه الفتاة بئر أسرار، ظلمت حياتها مع الصغراويّة، وحكمت على نفسها بالعيش داخل دوائر لا تنتهي من التستر وتأييب الضمير ومخالفة المبادئ.

- «وساري؟»

لجأت إلى رد أبي في تلك المسألة، فهزت رأسها من جديد بنفس التعبير. وصلنا إلى مفترق طرق يؤدي أحد جانبيه إلى وجهتي، هكذا شكرتهما وفارقتهما لأتابع سيري بمفردي.

- «أهلاً غيم.»

قالتها تبر بفتور وصحبتني للداخل بعد أن حملت السلة للمطبخ، كادت تتركني لتحضر لي شيئاً أشربه، قالتها بلهجة توحى بأنها ستحضر سماً، وبدا وجهها منتفخاً بشدة كأنها لم تنم منذ شهر، أو كأنها قضت الليل كله تبكي، وهو الأرجح. أمسكت بها لتتوقف، وقلت بلهجة خطيرة:

- «هل ذهب والدك أو وادع إلى الدكان اليوم؟»

- «لا، لماذا؟»

قالتها باستغراب محاً بعضاً من فتورها المصطنع، حكيت لها باختصار ما حدث؛ فخرجت بسرعة لتخبر والدها. عادت بعد قليل وعلى وجهها شيء من الضيق.

- «ماذا؟»

- «لم يهتم، برغم أن كل البضاعة الباقية لا تزال هناك، لكنه فقد اهتمامه بأي شيء على ما يبدو، قال حرفيًا: (فليذهب كل شيء إلى حيث أُلقت).»

أزعجني ذلك كثيرًا، من المفهوم أنه أصيب بالإحباط والألم بعد كل ما جرى، لكنه ليس مبررًا ليفقد حيويته بهذا الشكل. ربما ليس علي الحكم على رد فعل شخص لم أوضع مكانه، وطباع الناس وتجاوبهم مع الأحداث يختلف بما يمتنعني من مقارنة رد فعله برد فعل أبي حين هاجم المنّ مزرعتنا، لكنني لا زلت غير متفهمة لموقفه.

- «أرجوك ألا تظني أن أبي متخاذل، أو أنه ممن يسمح لخسارة بالتأثير عليه، أيًا كانت تلك الخسارة. كل ما في الأمر أن اتهامه بتهمة بهذه الفظاعة يشق عليه. ما أنا واثقة منه أنه سيعرف كيف يتجاوز ذلك، لطالما كان أبي قويًا.»

هزرت رأسي، لقد حزرت تبر ما أفكر فيه وأجابتنني بحزم.

- «لا زال على أحدهم تفقد الدكان، أين وادع؟»

- «في مزرعتنا، أو عند البحيرة، أو يحاول الصيد قرب منطقة الجبال. لا أعرف، لكنه يختلي بنفسه في مكان ما.»

نفخت بضيق، هذا الحال غير مقبول، الحياة لا يجب أن تتوقف بسبب مشكلة واحدة على هذا النحو.

- «ليست مشكلة واحدة توقفت الحياة بسببها، بل هي حياة كاملة تتخذ هيئة مشكلة، لم يعد شيء مهمًا، الدار أو الدكان أو أي شيء آخر.»

قالتها بإحباط مدقع وارتمت على فراشها بتعبير خاو ومؤلم على وجهها، جلست جوارها وبقيت صامتة أرتب كلماتي للحظات، قبل أن أقول بهدوء:

- «ما البديل؟»

عم الصمت من جديد، فتابعت:

- «إن لم نستمر بالمقاومة؛ فما الذي نفعله بدلاً من ذلك؟ ما الخيارات الأخرى المتاحة؟»

- «ربما، نستسلم وحسب؟»

- «سألت عن الخيارات المتاحة يا تبر. الاستسلام ليس خياراً وليس متاحاً، ولا أحد يملك إيقاف كل شيء لمجرد أنه تعب أو أنه يشعر بالذبول. ونزع يديك من الأمور كلها لا يرادف الاستسلام أبداً، بل إنه يعني أن تسير الأمور على نفس النسق لكن بعنف أكثر!»

- «ما الذي تريدني قوله؟»

- «أريد أن أقول إن المحاولة قد تجدي وقد لا تفعل، لكن السكون التام ليست له عواقب إلا الخسارة!»

- «وماذا في يدي لأفعله من الأساس؟ هل تجدينني محاطة بالإمكانات وممتنعة عن استعمالها؟»

- «بل إن المقاومة تعني أن تكوني محرومة من الإمكانيات لكنك مستغنية عنها وغير متعلقة بها. لو انتظر والدك توفر الإمكانيات وملء يده منها قبل رحيله من قريته ربما كان ليبقى فيها إلى النهاية، لكن الإنسان الذي يجد نفسه في مركز الإعصار، ويختار أن يحاول حتى لا يموت تقديره لنفسه على الأقل، لن يكون آملاً في وجود أي نوع من الدعم، سيكون واعياً تماماً بحقيقة موقفه، وبأنه عار وعاجز بالكامل، وأن منبع أمله الوحيد، والخيطة المنفرد الذي سيتشبث به، هو كونه مناضلاً غير متخاذل، وكونه متمسكاً بمبادئه

حتى النهاية، وكونه يبذل كل ما يملكه ولو كان قليلاً، وكونه -وهو الأهم- ينتظر إرادة الله التي يؤمن بكل كيانه بأنها ستكون منهية لكل آلامه، ومنصفة في حقه، وشفافية من كل أوجاعه. وبهذا سيكون فائزاً أيّاً كان المسار الذي ستسلكه المجريات.»

أرخت كتفيها المتشجنين، فركت عينيها بقوة وأمسكت رأسها تثبته كما لو أنه يدور، أخيراً زفرت بهدوء وقالت:

- «ونعم بالله.»

ابتسمت برفق، لكن ليس بشفقة، الشفقة مؤذية، الشفقة لا تساعد، الشفقة لا يحتاج إليها أحد، الإنسان يريد الدعم، والموازية، والتفهم، والنصح، لكنه لا يريد أن يبدو صغيراً في نظر أحد، أو أن يرى ضعفه وقلة حيلته وعجزه منعكسين في بؤبؤي أحد ينظر إليه.

- «أتعلمين؟ أنا لم أكل شيئاً منذ الأمس، وأظنك مثلي، لم لا تنهضين وتحضرين لنا ما نأكله؟»

- «في الحقيقة، ولا أومي وأبي ووادع أكلوا شيئاً، شهية الجميع مسدودة.» نهضت وقلت بابتسامة عريضة لا أعرف كيف رسمتها:

- «ممتاز، سنحتاج إلى تسخين كل هذه الصحون، وإعداد سفرة مبهجة تغري العين فتدفع اليدين إلى إلقاء الطعام داخل الفم قبل أن يتمكن العقل من الاعتراض!»

- «إنها مهمتي إذن، وستساعديني.»

في المرة السابقة أفنعت تبر بالأكل، الآن أنا أفنec عائلتها كلها. وكما أن تبر تحوّل المواقف من مزعجة إلى مفرحة، استطعت الإمساك بموهبة ماثلة

أملكها، وهي تحويل الأمل إلى أمل، ويعلم الله أن مجرد تبديل الحرفين الفارقين ليس سهلاً على الإطلاق.

وضعنا الطعام وأجلسنا خالتي حسناء برغمها لتشاركنا، وحملت تبر صحوناً لوالدها إلى فراشه وأجبرته على تناولها، دخل وادع أثناء اجتماعنا على السفرة، دعوته للجلوس وأنا أشحذ طاقتي لإقناعه، لكنه لم يكذب خبراً، بدا جائعاً كثيراً ولون وجهه باهتاً. لم يأكل شيئاً منذ يومين تقريباً، بين انشغاله بالبيع في الدكان ومرافقتي للمزرعة وكأبته من المؤامرات والمكائد التي تحاك حوله، وفوق ذلك لم يرد البقاء في المنزل وفضل الخروج ممطياً حصانه البرق.

كانت سفرة اليوم أفضل حالاً بمراحل من سفرة الأمس، وأكل الجميع بشهية لا بأس بها، وأستطيع -دون مبالغة- نسبة الفضل -بعد الله- إلى الانشراح الذي نشرته بمساعدة تبر في الأجواء، كأني نقلت بعضاً مما في خارج البيت من أشعة شمس ونسيم نقي وروائح أزهار إلى داخله. وحين انتهينا من الأكل، نهضت الخالة حسناء لتعد لنا العصير بناء على طلبي، وانفردنا بالجلوس أنا وتبر ووادع، أي أن وقت التحليل وتبادل الآراء قد حان.

- «هل يملك أحدكما تفسيراً لأي شيء؟»

بقيا يطالعان بعضهما في صمت قررت أنه يعني (لا)؛ لذلك قلت:

- «سأبدأ أنا، شهوة كانت على علم بما سيجري، وقد خططت له، ودفعت الفتيات إلى مشاركتها في تلك الخطوة الدنيئة.»

- «ولم تتكلمين بهذه الثقة؟»

قالتها تبر باستغراب ونوع من الارتياب، ذكرني بحديثي مع وادع حين حدثني بأمر السفير وما دار بينه وبين أنور.

- «سمعت فتاتين صفراويتين يتحدثان بشأن ذلك.»

- «ولم تخبرينا؟»

كان في نبرتها الآن الكثير من العدوانية والتهجم، لم أدع ذلك يضايقني، لا بد أنها تبحث عن سبب تلقي باللوم عليه الآن وتحمله مسؤولية ما حدث، وهي أختي، لو لم أتحمل غضبتها فمن سيفعل؟

- «على رسلك، هل كنت سأسمع شيئاً يضر بعمي جواد وأسكت عنه؟ ما حدث أنني سمعت بالأمر بعد تدفق الزبائن المفاجئ يومها، لم أجد مبرراً للتحذير من حدث بعد وقوعه!»

بقيت تنظر إلي في ضيق شديد لكنها لم تقل شيئاً، لم أحب التوتر الذي بدأ يشوب الجو، وشعرت برغبة في الخروج من هنا حتى تهدأ تبر وتأتي لتحدثني في الوقت الذي يروق لها. لكنني كنت بحاجة إلى سؤال وادع الجالس متوتراً عن شيء قبلها.

- «هل لي أن أسأل: هل كان عمي جواد بانتظار البرميل الذي أحضره له ساري؟»

انقلبت النظرة في عينيه فجأة، وبدا أنه حمل كلامي على غير محمله، قال بتحفظ واضح:

- «عرفت أنك ستطرحين سؤالاً كهذا، لقد أعدت أمني كميات من العصير قبل ذهابها إلى منزلكم، وبوسعك سؤالها عن ذلك، وقد حملت البرميل على العربة بنفسني لنقله إلى الدكان، أي أنني شاهد على كل ما جرى، وواثق تماماً أن كل شيء كان بريئاً وسالماً من أي شبهة. وبالنسبة للوصفة التي يزعمون أن أبي أعطاهم؛ فإنني كنت مع أبي طوال الوقت، ولم أتركه إلا في أوقات الإغلاق أو الجرد، ولم يكن هناك وقت يقابل فيه أحدهم أو

يصف له أي شيء!»

كان صوته يرتفع تدريجياً مع كل عبارة يضيفها، وفي آخر كلامه كان يصرخ حرفياً. بدا أنه تنبه لتصعيده المبذل للموقف بعدما انتهى من كلامه، تنحنح بحرج وضيق وأشاح بنظره عني، في حين كنت أحاول التماسك بآخر ما تبقى لي من صبر. نجحت في منع نفسي من الصراخ، لكن نبرة الصوت الحادة، والنظرات النارية، لم تكونا مما أستطيع التحكم به.

- «أتفهم أنكما منزعجان، وأن الضغط عليكما شديد، لكنني لا أتفهم أن تنسبا أو تخلطا - في خضم الأحداث - بين من معكما ومن عليكما، وأهيب بكما أن تركزا جيداً في مقصد كل شخص، وأن تريا كلامي بالطريقة التي تعمدت إخراجها بها: محاولات لإيجاد سبيل لتبرئة عمي جواد، وليس إدانته! لقد كنت وما زلت وسأكون دائماً في صفكما؛ لأن هذا ما يجب، قبل أن يكون كرمي لكما أو صوناً لما بيننا من ود. كل ما أطلبه هو أن تتبها لذلك وتضعاه نصب أعينكما، كي لا تفرغا غضبكما في الشخص الخطأ!»

نهضت عازمة على المغادرة، لكن تبر أمسكت ذراعي برجاء، نظرت إليها مطولاً وكنت أحاول التخلص من مشاعري السيئة كي لا أصنع مشكلة أكبر، خرجت الخالة حسناء من المطبخ وقد سمعت ما جرى بلا شك، على الأقل الجزء الخاص بوادع، كانت تحمل كأس العصير الذي طلبته، قالت برفق وشيء من التوتر:

- «أعتذر نيابة عنهما يا غيم، أنا واثقة من أنهما لم يقصدا مضايقتك بشكل خاص، وجميعنا يعرف من تكونين، وأرجو أن تعرفي أنت ما الذي تعنيه لنا جميعاً!»

مدت يدها بكأس العصير كأنها تطالبني بجعله عربون صلح، ضمتني

تبر بلا مقدمات وقالت بانفعال شديد:

- «أسفة حقًا، لم أقصد إزعاجك، فقط كنت.. لا أعرف، أنت لا تستحقين اللوم على أي شيء، أنت بالذات تفعلين ما بوسعك من أجلنا ومن أجل الجميع، ما بوسعك وزيادة!»

تلاشى كل غضبي في ثانية، ووجدتني أضمرها إلى بقوة أكبر، شعرت بصدرها يهتز كأنها تبكي، لكنني حين نظرت لوجهها وجدت أنها تضحك! حدقت فيها بدهشة فقالت وهي تمسح دموعًا لا أعرف محركها بالضبط:

- «كم هذا سخيف! الصفراويون يفسدون كل شيء ونحن من نتصارع وتبادل التهم! يا لنا من حمقى!»

لم أجد في كلامها ما يستأهل الضحك، لكنني فهمت أنها تفعل هذا كي لا تبكي. تناولت الكأس من يد الخالة حسناء وشكرتها، جلست مجددًا في حين ذهبت الخالة حسناء لتحضر باقي الكؤوس.

- «أسفة جدًّا لسوء الفهم الذي حدث، وأؤكد لكم أنني لا أستطيع أن أغضب منكم لمدة تتجاوز الخمس ثواني. إذن يا وادع، بما أن البرميل كان قد أتى برفقتكم من المنزل، ما الذي ذهب به إلى جهة العربات التابعة للبهاليل؟ ولم حمله ساري لكم؟»

زفر وادع بقوة وكنت أعرف أن ذلك الكم من الانفعالات كثير على قلبه الرهيف، قال وقد بدأت ساقه تهتز في عصبية:

- «بعد الطلب الكثير في اليوم السابق، أصبح المستودع كما لو أن صاعقة ضربته، ولم نستطع إخراج أو إدخال شيء أو التحرك على راحتنا داخله؛ لذا قرر أبي ترتيبه بشكل سريع وظاهري ليجد طريقه فيه على الأقل، مرّ ساري من أمامنا فطلب منه أبي حفظ البرميل في مكان ما ريثما ننتهي من الترتيب،

وبناءً عليه حمّله ساري واختفى من أمام ناظرينا دون أن نخبرنا أين سيضعه، ونسينا أمر البرميل تماماً مع تدفق الزبائن، ثم لم نتذكره إلا في نهاية اليوم، عندها طلب أبي من ساري إعادته، و.. حسناً، أنتِ تعرفين الباقي.»

- «إذن أنت تفترض أن ساري قد استبدل محتوى البرميل عمداً؟»

- «أنا لا أفترض، بل إن هذا ما أوكدّه صراحة!»

- «على أي أساس؟»

بدأ توهج وجهه بالازدياد، في غضب هذه المرة.

- «غيم، اسمعيني جيداً، أنت أختي وأنا أقدرك وأقدر نظرتك للأمر، وأقدر أيضاً رغبتك الدائمة في جعل كل شيء على ما يرام، لكنني لن أسمح لك أبداً بالتحدث في أمر ذلك القدر؛ لأن تصرفاته كانت دائماً مريبة، ولأنه كان طوال الوقت ملوثاً بأفكار الصغراويّة ومعجباً بها!»

ساري معجب بشيء، كنت لأعد احتفالاً في ظروف أخرى.

- «ولماذا تعتقد أن ساري معجب بالصغراويّة؟»

وضعت تبريدها على كتفي وقالت برفق:

- «بالله عليك يا غيم، هل تقولين إن ساري خلط بين البراميل، أو حمل أول برميل قابله وأتى به؟ ساري أذكى من ذلك بكثير، وجميعنا يعرف أن أخذ تصرفه على أي مأخذ حسن محاولة شبه خائبة.»

وادع لا يجيد إثبات وجهة نظره، وتبر لا تعرف الكثير عن ساري، لكنني أعرف، وأجيد التحليل، وأجيد التعبير عن أفكاره؛ لذلك أجد لساني مشلولاً في الدفاع عن ساري، بل إنني أشعر بالذنب وأجد صعوبة في كتمان ما أعرفه عنه من شكوك واتهامات أسوأ.

- «حسناً، هل حكيت لك أمر الدكان؟»
- هز رأسه سلماً، فشرعت أحكي له -ومعي تبر- ما جرى صباح اليوم، وسألته حين انتهيت:
- «إذن، أَلن تذهب؟»
- «أذهب إلى أين؟»
- «إلى الدكان!»
- «لماذا أذهب؟»
- «لتفقد الأمور!»
- «ألم تقولي إنهم هربوا؟»
- «ألا يُحتمل أنهم سرقوا شيئاً؟»
- «ولو سرقوا، هل سيُعيد تفقدي للدكان المسروقات؟»
- كأنني أحدث ساري! كثرة الضغط تسبب هذه الحالة من اللا مبالاة، لكنني واثقة أن قلب وادع ألطف بكثير من الاحتفاظ بحال كهذا.
- «ماذا لو أنهم وضعوا شيئاً ما في داخل الدكان؟»
- كنت أعرف أن وادع ليس كافياً ليكسب جداًاً معي، ربما كان ساري ليصمد أفضل. هكذا انصاع وادع وقرر الذهاب للدكان، فقط بعد قليل.
- «على فكرة، ماذا عن السباق الكبير؟ لقد تأخر المسار التالي!»
- «لقد تم تحديد ميعاده مرتين ثم تأجل.»
- «متى؟»

- «لم يُذع الخبر.»
- «ولم تم تأجيله؟»
- «خوفاً من هجوم ذوي الأعين الزرقاء.»

دلفت إلى بيتنا، وقد فطنت إلى حقيقة أنني أنهيت قائمة مهماتي كلها، تحدثت مع شهاب، عرفت مخططات شهوة، ووصلتني آخر تطورات المنّ، بحثت عن الجراب بغض النظر عن النتيجة، وأخيراً، ها هي خالتي ودود جالسة معنا.

استبشرت بأصوات الضحكات التي استقبلتني ما إن تجاوزت عتبة الباب، أرادت أمي وتبر لليلة الأمس أن تكون ليلة فارقة تلعب دور استراحة من منغصات الأحداث الجارية، لكن مشيئة الله أرادت أن تجعل اليوم التالي هو الذي يلعب هذا الدور، وبعد كل ما حدث!

كانت خالتي ودود مستلقية على جنبها فوق إحدى الأرائك، وأمامها تجلس أمي مائة قدميها ومسددة إياها على طاولة صغيرة، وأمام كل منهما صحن من بذور البطيخ المجفف، ودورق من عصير الليمون بالنعناع، وقد بدتا منسجمتين في الأحاديث إلى حد غير عادي، وبرغم آهات وأناث خالتي ودود التي تطلقها بين كل عبارة وأخرى، أو مع كل ضحكة لا تستطيع كبجها، ذكرتني جلستهما باجتماعاتهما في الأيام الخوالي، وأعني بـ(الأيام الخوالي) قبل أسابيع ليس أكثر!

خلعت ملابس الخروج بهدوء وانضمت إلى جلستهما محاولة عدم التحدث أو قطع انسجامهما، جلسة لا ينقصها إلا وجود خالتي حسناء، هذا ما فكرت به. قربت لي أمي صحن البذور وأمرتني بإحضار كأس لتصب لي

بعض العصير، أسرعت بإحضاره كي لا تفوتني القصة الممتعة التي تقصها أُمي، لطلما أحببت التطفل على محادثاتهم، ولطلما كانت ممتعة!

- «المهم أن مخمل أكدت أمر عودة ليلة، خلال أسبوع أو أقل، تقول إنها تعيش حياة مرفهة في قرية الربوة، وإن زوجها على استعداد لحملها على كتفيه لو كان ذلك يرضيها! لكن أرايت أخته يا ودود؟ تلك الفتاة التي كانت تلبس فستاناً حريريّاً خمرّي اللون يوم الزفاف؟»

- «أوه أجل! بالطبع أذكرها يا أختاه! أليست تلك الفتاة التي كادت تتشاجر مع حلية لولا أن تدخلت مخمل في الوقت المناسب؟»

تدخلت بفضول، وقد كنت متحيزة للفتاة قبل أن أعرف أي شيء، ليس سهلاً أن يتحيز المرء لمن نظر لاحتمالية مقتله بغير عين الاهتمام.

- «لماذا كانتا ستتشاجران؟»

نظرت إلي خالتي ودود وكادت تتحدث لولا أن داهمتها نوبة عاتية من السعال، صببت لها كأس ماء بسرعة في حين تكفلت أُمي بالإجابة:

- «أهل قرية الربوة يظنون أنهم معقل ذوي الأعين الصفراء الأصلي، وأن كل ذوي الأعين الصفراء الآخرين مجرد مدعين أو متملقين، وأنهم لم يكتسبوا (صفراويتهم) إلا عن طريق التزاوج منهم أو التعرض لغزوهم؛ لذلك ألقت الفتاة تلميحاً مهيناً كأنها تختار في السبب الذي يدفع أخاها الأصفر النقي للزواج من فتاة من قرية المروج، هكذا ألقت حلية تلميحاً آخر بمعنى أن أخاها محظوظ بالزواج من ابنة الحاكم جلال سليل أسرة الحكام العريقة وحفيد الحاكم رشيد. واستمرت حرب التلميحات وبدأت تزداد ضراوة، لولا أن تدخلت مخمل لتبعد حلية عن الفتاة بطلب سخييف من نوعية: (لنرَ لم لا يعمل ذلك الدف في يد صاحبتة بشكل جيد).»

انتابني شيء من الدهول، أهذه نظرة أهالي الربوة لنا حقًا؟ ألهذا بقيت نساؤهم متحفظات ومجتنبات للانغماس معنا طوال الحفل؟ غريب بالفعل، الصغراوية لم تكن بداية التمزق إذن!

- «أسمعت اسم الفتاة أصلًا؟ اسمها (سامية)، كأنهم يلقنون أطفالهم التكبر والنظرة العلوية للآخرين منذ ولادتهم!»

قالتها خالتي فأيدتها أُمِّي بحماس شديد، برغم أنني لم أجد رابطًا واضحًا بين اسمها وتكبر قِيومها، في قريتنا أعرف عشر (ساميات) على الأقل! دخل أبي من الخارج وسلم بصوت عالٍ لنتبّه لعودته، فأخبرته أُمِّي أنها جالستان في المجلس، ثم أشارت إليّ لأنهنّ وأرى إن كان يريد شيئًا حتى لا تقطع أحاديثها. في الواقع، كنت مستعدة لعمل أي شيء حتى تستمر جلستهما المرحّة هذه.

- «أهلًا أبي الغالي!»

قلتها بمرح، فنظر إليّ أبي بنوع من الدهشة، وقال:

- «غيم؟ لماذا أنتِ هنا؟»

- «لماذا.. لماذا ماذا؟!»

- «لماذا لستِ في الخارج؟»

- «ولماذا عليّ أن أكون في الخ...»

قطع كلامي من منتصفه، وجدته يدفعني بحماس غير مفهوم للداخل، وهو يطالبني بإلحاح أن:

- «ارتدي ملابسك بأسرع ما يمكنكِ، هيا!»

سألتني أُمِّي بدّهشة عما هنالك فهزّزت كتفيّ في حيرة، منذ مدة لم أرَ أبي

سعيداً ومتحمساً بهذا الشكل! ارتديت ملابسي بسرعة وتبعته للخارج، ركبت جواره في العربة وبقيت طوال الطريق أحاول انتزاع معلومة منه عما هنالك.

- «سترين كل شيء بنفسك.»

كنا نتجه نحو ساحة القرية، لكنه مر بمحاذاة منزل عمي جواد أولاً، ترجل وطرق الباب؛ فأجابه صوت الخالة حسناء، أشار إلي لأنزل وأكلمها.

- «خالتي، من فضلك أخبري العم جواد أن أبي يحتاج إليه في ساحة القرية حالاً ودون تأخير.»

- «خيرًا يا غيم؟ هل حدث شيء؟»

- «أقسم لك أنني لا أعرف!»

عدنا لركوب العربة واستمرت رحلتنا، وقد عادت قريتنا أخيراً إلى طبيعتها بعدما استيقظ البشر وعادوا للانتشار في أرضها. أوقف عربته عند ساحة القرية وترجل وساعدني، وحين نظرت حولي، تنبعت لتجمع غير طبيعي لأهالي القرية، الجميع يجد السير نحو شيء بعينه، أمسك أبي بيدي وسرنا نحو وجهة الجميع كما هو واضح، بعد قليل رأيت بضعة أمور، كان أنور وقاضي القرية (فيصل) وعدد من رجال الحماية وكبار القرية موجودين، بعضهم يتبادل الحديث مع بعض، وكان من ضمن المجتمعين -من العامة- عدد لا بأس به من ذوي الأعين الزرقاء الوافدين، وغالبيتهم من حارقي المحاصيل، وأقلية لا بأس بها من الجداريين، أعرف كل فئة من طراز لباسها. حين مررت قريباً من أنور كان يتبادل هو والقاضي كلاماً هاماً -فيما يبدو- مع رجل الحماية وطيد، شعرت بعيني أنور تتوجهان إلي للحظات أثناء كلامه ثم أبعدهما عني بحركة حادة، لا أعرف إن كان نظر إلي شخصياً أم كانت نظرة

عشوائية.

- «أبي، ما الذي يفعله القاضي هنا؟ إنه لا يخرج إلا للضرورات، وغالبية عمله تتم داخل دار القضاء، دون كثير احتكاك بالعامّة!»

ابتسم أبي بهدوء ولم يقل شيئاً، هكذا إذن؟ ليس مع غيم! أمسكت بيد أول فتاة مرت جوارى، وسألتها تحت ناظري أبي عما يجري.

- «ألم تعرفي؟ أنور ومعه القاضي فيصل ورجال الحماية لديهم قرارات وتصريحات هامة يريدون من الجميع سماعها.»

نظرت إلى أبي في دهشة وبعض من التساؤل، هل ما أفكر فيه صحيح؟ زادت ابتسامته اتساعاً وبقي على صمته. وصل العم جواد مسرعاً ورافقته تبر، رفيقة عمري وتوأمي في التطفل. سأل أبي بلهفة عما هنالك فأجابه بمثل ما أجباني به. لم يمر كثير وقت قبل أن تهدأ ضجة الجموع، إثر نحنحة كيّسة من أنور، وتنبهات خافتة من رجال الحماية، أنصت الجميع باهتمام، وفي حين استهل أنور كلامه بالترحيب بالحاضرين وما يتلوه من مقدمات ضرورية للخطابات، داس شاب مسرع على طرف قدمي، نظر إلي نظرة خاطفة وابتسم بسماجة ثم غاب عن ناظري، ساري، ومن غيره؟ كانت مناطق كبيرة من وجهه متورمة وبنفسجية بشكل فطيع، لكنه كان بخير في المجمال. استجمعت تركيزي وعدت أنصت لخطاب أنور، لولا أن داس شاب آخر على طرف قدمي!

- «آسف، آسف جداً، لم أقصد!»

قالها وادع وهو يلتقط أنفاسه، من الواضح أنه أتى ركضاً من دكان أبيه القريب ليستمع إلى خطاب أنور. أخيراً بدأ أنور الكلام المهم:

- «أول ما أحب طمأنتكم إليه، والرد عن تساؤلاتكم المتكررة بشأنه يا

إخواني وأحبائي: هو أن والذي الحاكم جلال قد استفاق من غيبوبته بحمد الله، وأنه يقرئكم السلام، وأن جميع القرارات والأساليب المتبعة في إدارة شؤون القرية، لم تثبت إلا بمباركته وبته، منذ مدة لا بأس بها، وإلى القادم من الأيام بإذن الله.»

ضجت الساحة بالكثير من الشهقات أو التهليلات أو الحمد لله، كان الفرح والارتياح هما الشعورين المسيطرين، لكن لم يفتني -تبعاً لهوايتي الدائمة في التدقيق في كل التفاصيل- سماع همهمات منزعة لم يبدُ أن الخبر وافق هواها، والبعض لم يأت بأي رد فعل، كأن الخبر لا يعني لهم شيئاً.

- «وبعد..» قالها أنور فسكنت الأصوات تدريجياً. «كان لا بد من التأكيد على ما لم نظن بضرورة التأكيد عليه يوماً». وابتسم ابتسامة لا تشبه الابتسامة. «وهو أن هذه القرية -قرية المروج- هي قرية تابعة لغارسي الفسائل في المقام الأول، وتابعة لأصحاب الأعين الصفراء، وإنه من غير المقبول، ومن غير المتوقع، أن يحاول أيُّ كان التقليل من شأن توجه هذه القرية العقدي، أو إهانة أصحابها على أرضهم.»

اتجهت أنظار معظم الواقفين -الصفراويون منهم على الأرجح- إلى وادع، ظناً منهم أنه المقصود بكلام أنور؛ فتوهج وجه وادع باللون الأحمر وبدأ متمنياً لأن تنشق الأرض وتبتلعه في التو. لكن أنور تابع بقوة بعد أن لاحظ ما اتجهت إليه ظنون الجميع:

- «وصلتني شكوى أرجو أن يكون فيها شيء من اللبس أو سوء الفهم، لكن هذا لا يلغي ضرورة أن يعتذر المخطئ ويسترضي من أخطأ في حقه؛ ولكي أرفع الحرج عن ضيوفنا.» وأشار إلى العائلة إياها واقفة بين الناس. «سأتقدم نيابة عنهم بالاعتذار إلى غيم ابنة الشيخ مدرار؛ فهل تقبلين الاعتذار؟»

تركزت أنظار الجميع علي، اختلطت الأصوات وشعرت برأسي يدور، هذا آخر ما كنت أتوقعه! كانت أذناي ساختين لأبعد حد، وأردت أن أتخلص من كوني محور التركيز بأسرع وقت. نظرت لأبي فبادلني أوسع ابتسامة رأيته منذ عامين، وأوماً برأسه مشجعاً.

- «أ.. أجل، أنا أقبل...»

أظنني قلت شيئاً ما بعد هذه العبارة القصيرة، ربما خليط من حروف غير مفهومة بصوت خفيض، لكن أنور اكتفى بإجابتي وهز رأسه راضياً. ضربت تبر كتفي في حماس فنظرت إليها ولم تنزل الرؤية غائبة عن عيني، قالت بفرح غامر:

- «أهانوكَ بينهم وبينك، لكن حقك عاد إليك أمام الجميع!»

هزرت رأسي، ضم أبي رأسي إلى صدره وهو يربت علي بلطف، سبق وقال أن أحداً لن يتعدى على ابنته ما دام حيّاً، وأبي لا يقول إلا ما سينفذه. تابع أنور كلامه في حين رأيت أنظار تلك العائلة الزرقاء تتجه إلى أي مكان عدا نظرات الحشد الفضولية.

- «ضيوفنا على الرأس والعين، وكما لا نقبل إهانتهم لأحد، فإننا لا نقبل لهم الإهانة، ولو تعدى أحد على ضيوفنا فإن حقهم سيعود إليهم دون تأخير. هذه بلاد غارسي الفسائل الصفر، لا مكان فيها للمظلم أو الإهانة، والمظلوم سيأخذ حقه أيّاً كانت هويته ومعتقده وأصله.»

صمت أنور وكاد الحشد يتفرق، لكن رجال الحماية نبهوهم إلى أنه لم ينته بعد، تبادل بضع عبارات مقتضبة مع القاضي ثم عاد ليووجه أنظار الناس الحائرة، رفع صوته ونادى:

- «هل التاجر جواد هنا؟»

أمسك أبي بذراع العم جواد وقدمه وهو يومئ إليه ليحجب، بارتباك رفع العم جواد يده وتكلم. أوماً أنور وتنحى جانباً ليحل القاضي محله. كان القاضي رجلاً مهيباً، من نوع الرجال الذي يصمت الجميع لحضرته، وحين يفتح فمه فإن كل الأذان تصغي لما سيقوله قبل أن يقوله، الحق أن حضوره كان ثقیلاً موازياً لحضور أهل القرية كلهم، وكان فضول الحضور واهتمامهم بما سيصرّح به قد بلغ مبلغه، خاصة بعدما نودي العم جواد وعُرف أن الأمر مرتبط به. تنحنح القاضي فاهتزت أجساد الناس، كيف يمكن لشخص واحد أن يحمل كل هذا القدر من الهيبة؟

- «هل صحيح ما زعمه البعض بشأن النبيذ الذي وزعته؟»

بدا العم جواد مرتبكاً لأبعد حد، لكنه بصعوبة تماسك، وقال:

- «كلا يا حضرة القاضي، أنا لم أرد توزيع أي شيء من هذا القبيل، ولا أعرف كيف حدث كل هذا.»

- «لكن الشهود قالوا أنك أحضرت برميلاً، ودعوت الجميع للشرب منه، وحين فعلوا تبين أنه نبيذ!»

- «أ.. أجل، لكن...»

لم يجد ما يبرر به موقفه، لقد كان بيع النبيذ أو توزيعه في القرية عملاً ممنوعاً، قانون لم أعرفه مسبقاً لأن أحداً لم يكن يفعل ذلك على أي حال. وبالنسبة للسؤال الذي يدور في رأسكم جميعاً: عربة البهاليل مستثناة من هذا القانون؛ لأنها لا تعد تابعة للقرية، وكل تجهيزاتها ومميزاتها وما تعرضه وتقدمه خاص بها، ولا حكم للقرية عليها فيه، وهذا ما تم الاتفاق عليه قبل استقبال العربة.

- «لكن هناك ما يطعن في هذه الدعوى، ويجعل ساحة التاجر جواد

خالية من هذه التهمة.»

تدخل أنور؛ فنظر إليه القاضي وأوماً بمعنى أنه سيصل لهذه النقطة. ناوله أحد الرجال المحيطين به عدة أوراق؛ فقلبها القاضي بطريقة توحى بأنه قرأها وحفظها، نظر للعم جواد بطرف عينه وقال:

- «ابتداءً، أنت ادّعت أن البرميل يحتوي عصيراً من إعداد زوجتك.»
أوماً العم جواد بقوة؛ فتابع القاضي: «وأعطيت البرميل لساري كي يحفظه لك ريثما ترتب مخزن دكانك، هل تؤكد كل شيء حتى الآن؟» إيباءة أخرى.
«الأزمة حدثت حين استعدت برميلك؛ لتفاجأ بتحوّل العصير إلى نبيذ بمعجزة.»

قالها بنبرة أوحى للبعض بأنه يستهزئ؛ فندّت ضحكات من عدة أماكن، لكن القاضي أغمض عينيه بانزعاج فعم الصمت من جديد، قال القاضي:
- «بالاستناد إلى تاريخك المشرف في هذه القرية، نجد أن ادعاء مشابهاً ضدك يحتاج إلى تفنيد وتدقيق أكثر، وهذا ما فعلناه؛ فبرز في الصورة شهود يهتكون صحة هذه الدعوى.»

تبادل الجميع النظرات، واحتبست الأنفاس، من الشهود يا ترى؟

- «الشاهد الأول: التاجر وسم صانع المربى.»

صاح أحدهم معترضاً:

- «وسم الآخرس؟ كيف يصلح شاهداً؟»

- «آخرس، ليس مجنوناً ولا أصماً ولا أعمى!»

قالها القاضي بصرامة وهو يثقب القائل بنظراته؛ هكذا ابتلع الأخير لسانه واعتراضاته والتزم الصمت.

- «لقد تقاطع طريق التاجر جواد أثناء ذهابه للسوق، مع طريق التاجر وسم، وفي بادرة مودة، صب التاجر جواد للتاجر وسم كأساً من محتوى البرميل الذي يحملة في عربته، وأكد وسم أن ما شربه لم يكن إلا مزيجاً من عصير الخوخ والتفاح والليمون وماء الورد، أي العصير الذي تعدّه زوجة التاجر جواد عادة.»

ظهر وسم من مكان ما ليضع يده على كتف العم جواد ويبتسم بسرور، فبادله الأخير التبسم باقتضاب.

- «والشاهد الأساسي الثاني في هذه القضية: ساري بن حيان.»

اتجهت أنظار الجميع إليه، حيث يقف في مكان قصي مستنداً على حائط أحد الدكاكين بلا اهتمام، ولم تؤثر النظرات المسلطة عليه في لا مبالاته الفطرية؛ فلم يرفع عينيه لينظر إلى القاضي حتى.

- «ساري، لقد حملت البرميل على أن تحفظه للتاجر جواد حتى يطلبه منك؛ فأين قررت الاحتفاظ به؟»

بتثاقل اعتدل ساري، قال بصوت مبحوح ونبرة هادئة:

- «أول تاجر صادفته، أظن اسمه التاجر ربيع أو شيء كهذا.»

- «غير صحيح.»

قاطعه القاضي في صرامة، فبدأ التوتر يسري في الجميع، عدا ساري، لم يهتز ولم يقل شيئاً أو يحاول الدفاع عن موقفه.

- «هناك شاهد زعم رؤيتك تستلم البرميل من تاجر آخر: ألا تزال غيم ابنة الشيخ مدرار هنا؟»

للمرة الثانية أختبر التعرض لكل هذا العدد من النظرات، بالإضافة

إلى صدمة تبر ووداع، لا أعرف كيف سأبرر لهما إخفاء هذه الحقيقة، أنا لم أخبر بها أي أحد، عدا أبي في الواقع! نظرت له بلوم فابتسم برفق وربّت على كتفي مشجعاً. تلاقت عيناى بعيني ساري فلم أرَ فيهما أي شيء، لا خيبة ولا صدمة ولا عتاباً. هذا سهل الأمر.

- «أجل، لقد رأيته يـ... يتبادل الأحاديث مع التاجر هتر، وهو من أعطاه البرميل.»

- «وماذا كانا يقولان؟»

- «لا.. لا أعرف، لقد كان المكان مزدحماً فلم أستطع الاقتراب، كنت أقف بعيدة عنهما.»

كان هتر ينظر إلي بغیظ تكاد عيناه تغادران محجريهما، في حين قال ساري بثبات:

- «هذا لا يعني أنني لم أعطِ البرميل للتاجر ربيع من البداية.»

بدأت الأصوات بالارتفاع، كلٌّ يحلل الموقف من وجهة نظره، أو يؤيد أحداً أو يشكك في كلام آخر، تنحج القاضي فصمت الجميع، لكن صوتاً صغيراً وعالياً اخترق الحشود:

- «أنا أيضاً رأيته شيئاً!»

الآن أصبح الجميع ينظر لأسفل، إلى حيث يقف شهاب، قطب أنور حاجبيه بضيق وهو ينظر لأخيه، في حين سأله القاضي باهتمام عما رآه.

- «لقد تبعت ساري حين أخذ البرميل، ورأيت أنه وهو يسلمه للتاجر ربيع، كنت أريد..» واحمرّ وجهه بحرج. «كنت أريد أن أتذوق القليل من العصير، وحين اختليت بالبرميل، فتحتة وغرفت لنفسى منه، وأؤكد أنه كان عصيراً.»

ثم في نهاية اليوم، رأيت التاجر ربيع وعمي هتر يتحدثان، كان التاجر ربيع يستعد لیسافر في اليوم التالي، وأراد إخلاء مخزنه ليغلقه، لكنه لم يجد ساري كي يسلمه برميله، ثم أخبره عمي هتر أنه سيتكفل بإعطاء البرميل لساري بنفسه.»

سأل القاضي عن التاجر ربيع، لكنه كان قد سافر بالفعل، هكذا عادت أنظاره إلى ساري، قال باهتمام وميل واضح لتصديقه:

- «أكمل يا ساري.»

- «بحثت عن التاجر ربيع لكن التاجر هتر أوقفني، وأخبرني أن البرميل الذي تركته عند التاجر ربيع انتقل إليه، أرسل أحد صبياناه ليأتيني به، لكن الصبي حين عاد كان يحمل برميلاً غير الذي أتيت به، وقد ميّزته ما إن رأيته.»

- «ولماذا أخذته إذن؟»

- «لقد سألت أولاً، لكنه أكد أنه نفس البرميل، لم أكن لأخوض شجاراً من أجل تكذيبه.»

صمت القاضي لبعض الوقت، وصمت الحضور بانتظار كلمته، قال القاضي أخيراً:

- «الشاهد الأخير، رجل الحماية وطيد.»

فرد رجل الحماية قامته واعتدل في استعداد للإدلاء بما لديه. قال القاضي كنوع من التمهيد:

- «صباح اليوم، تمت مشاهدة عدد من الرجال يتسللون بين دكاكين السوق، ولم تعرف هويتهم حتى الآن، ولما يحتمه عليه واجبه من حماية أهالي القرية وحفظ أموالهم وممتلكاتهم، تفقد رجل الحماية وطيد -مشكوراً- عددًا

من الدكاكين التي وقعت في محيط الاقتحام؛ ليتأكد من أن بضاعة أو نقوداً لم تُسرق. لكنه رأى شيئاً آخر يخص موضوعنا هذا.»

كانت عدة شهادات تتوالى من بين الناس بسبب مفاجأتهم بأمر التسلل، لكن القاضي تجاوز هذا الخبر بسرعة كبيرة ليطوِّعه إلى دليل يخص قضيتنا هذه.

- «في الواقع، كان دكان الأسلحة المملوك للتاجر هتر آخر دكان تفقدته، كانت جميع الدكاكين بحالة جيدة لم تُسرق ولم يُتلف ما فيها بحمد الله، وبدا أن المتسللين لم يجدوا الوقت الكافي لسرقة شيء قبل أن يفاجئهم الشهود.» قالها وهو ينظر إلي بطرف عينه. «لكنني وجدت ما أثار عَجَبِي في دكان التاجر هتر، وظننت بضرورة أن يصل الأمر إلى أنور والقاضي فيصل ليقِّمًا أهميته. لقد وجدت برميلًا خشبيًا معزولاً عن البقية، وكانت السدادة الإسفنجية في وسطه غير محكمة الإغلاق؛ لذا كان ينهمر منه خيط رفيع من عصير الخوخ والتفاح والليمون وماء الورد، تذوقته بدافع الفضول، وبرغم تغيُّره نتيجة بياته ليلة كاملة، تعرفت فيه المذاق الذي دعاني التاجر جواد لشرب كؤوس منه كثيراً فيما سبق.»

الآن تلَوْن وجه هتر وانتفخت أوداجه، قال أنور بنبرة منتصرة:

- «بقي شيء!»

اقترب شاب متدرب من رجال الحماية حاملاً قاعدة برميل خشبية مكسورة، قال أنور بابتسامة:

- «لقد أمر رجل الحماية وطيد رجلاه برفع مخلفات البرميل المحطم عند دكان التاجر جواد صباح اليوم، ولم يطل تفحصه حتى وجدوا هذه العلامة الواضحة.»

رفع الشاب القطعة في يده؛ فرأى الجميع النقش الذي حُفر عليها. عربية البهاليل المتنقلة!

- «هذا البرميل لا يعود للتاجر جواد بأي شكل.»

هز القاضي رأسه كما لو أنه حسم أمره، نظر لهتر بحدة وقال:

- «أي إضافات؟»

- «أجل.. أجل.. بالطبع! لا بد أن الأمر اختلط على ذلك الصبي الأخرق، لقد أمرته بإحضار البرميل، لكنني لم أحدد ظناً مني أنه فهم أيهم عنيت، لكنه أحضر برميلاً خاصاً بعربة البهاليل كانوا قد استأذنوني في حفظه لدي لإفراغ عرباتهم لاستقبال الزوّار، حسناً، إنه خطأ بالتأكيد!»

هز القاضي رأسه من جديد. لم يبدُ مقتنعاً بحديثه، لكنه كان راغباً في إغلاق الأمر كما هو واضح.

- «ماذا عن الوصفة التي أعطاها للشباب، وساعدهم في تجميع مكوناتها؟»

كذا صاح أحد معلمي الدار في تحفز، قال القاضي وهو يضيق عينيه كمن يحاول التذكر:

- «ماذا كان اسمها؟»

- «وصفة المزاج الفائقة!»

قالها أحد الشباب، نظر القاضي إلى أنور بنوع من التساؤل فابتسم الأخير ببساطة.

- «هل الحداد حصين موجود؟»

- أطل الحداد حصين من مكانه متحاشياً النظر إلى العم جواد.
- «ماذا كانت مكونات وصفة المزاج الفائقة كما ذكرتها ابتكماً؟»
- «لا.. لا أذكر تحديداً..»
- «أنا أذكر، وكذا معظم من كان واقفاً حينها.»
- قالتها تبر في شيء من التردد؛ فاتجهت أنظار أنور إليها، وأوماً برأسه يحثها على التحدث.
- «منقوع الزوان، والعسل المجنون، ومسحوق جوزة الطيب المركز. أرجو أنني ذكرتها بالشكل الصحيح.»
- هز أنور رأسه بتفهم، ثم التفت إلى أحد معلمي الدار من ذوي الأعين الزرقاء حارقي المحاصيل. قال أنور:
- «من فضلك، هل تملك فكرة عن مكونات وصفة المزاج الفائقة؟»
- «لم أعدّها كثيراً، في الغالب، لا يعرف الكثير مكوناتها؛ لذا أستبعد أن يعرفها هذا التاجر الذي عاش معظم أيامه هنا. لكن ما أنا واثق منه أنها لا تحتوي على جوزة الطيب على الإطلاق.»
- ابتسم أنور بارتياح ونظر للقاضي الذي ابتسم بدوره، مجازاً.
- «مجرد مشاكسات شبابية غرضها واضح تقريباً، لا دليل عليها ولا معنى لها، حتى أنهم لم يكذبوا بالشكل الصحيح. ربما نفتح تحقيقاً في الأمر ونحاسب المسؤولين عنه لو أصر التاجر جواد.»
- تلاقى ناظرا العم جواد بناظري هتر، أبعد العم جواد عينيه بسرعة وأجاب وهو يتنفس الصعداء:

- «لا داعي. المهم أن براءتي ثبتت.»

- «بلا شك.»

لم يكذ ينطق بها حتى تنحى عن الصدارة وابتعد، لقد أنهى ما أتى لأجله، قال أنور بابتسامة:

- «أشكر لكم استماعكم، وكهدية ختامية، نحب إعلان موعد المسار التالي من السباق الكبير، مسار الزراعة، والذي سيبدأ غداً مساءً بإذن الله، وسيستمر لمدة أسبوع كما هو معلوم.»

كقفير نحل، انفجر الجمع بالحديث، بدأ كل يسير إلى وجهته وهو يبدي آراءه في أحد الأحداث التي وقعت أو كلها، صافح أبي العم جواد في نوع من التهنية، وكذلك فعل وسم، في حين التفت إلي وادع وقال بذعر شديد:

- «كأنني تسرعت في رد فعلي؟»

- «كثيراً جداً، وسمحت لشياطين الصفراوية كلهم بالتدخل بينك وبين أخيك دون سبب جازم!»

فلتها وتبادلت نظرة مع تبر. فجأة هتف صوت جهوري:

- «لحظة، من فضلكم، هناك ما أود قوله!»

التفت من تبقى باهتمام إلى الحداد حصين، الذي اقترب بخطوات واثقة من العم جواد في حين طالعه الأخير بتوجس، أمسك برأس العم جواد وقبله في دهشة من الحضور، ثم قال:

- «كما أخطأت في حق التاجر جواد أمام الجميع، وسننت سئة سيئة -اقتدى بها من في نفسه شيء- في إهانته، ها أنا أقدم له اعتذاري الشديد أمام الجمع نفسه، وأؤكد استعدادي التام لفعل أي شيء سيرضيه، ومن باب

الاعتذار، أي شيء سيحتاج إليه من ورشتي من الآن فصاعداً سيكون له بلا مقابل!»

- «سأحتك يا أخي، ومن دون أي اعتذار، غفر الله لك.»

كذا قال العم جواد في سباحة. شكره الحداد حصين بحرارة ثم مضى في طريقه. ربتُ على كتف وادع المتوتر وأشرت برأسي ناحية ساري الذي يسير مبتعداً، ابتلع ريقه بارتباك وطلب مني أن أرافقه. هكذا انطلقنا نركض لنوقف ساري.

- «ساري، أرجوك انتظر!»

قلتها بعدما كاد يغيب عن أنظارنا، توقف والتفت إلينا بهدوء، ثم استدار بالكامل ووقف ينتظر وصولنا إليه. قلت بتوتر:

- «ساري، لماذا لم تخبرنا بكل هذه المعلومات؟»

- «لأن أحداً لم يسألني.»

إجابة غاية في البساطة، لكنها لم تبدُ كذلك لنا. لماذا تسرّعنا؟ لماذا ضربه وادع بدلاً من أن يتناقش معه؟ ولماذا حكمت عليه قبل أن أفهم منه؟! أمسك وادع كتفيه في رجاء وقال بحرارة:

- «لا أعرف كيف أعذر لك، لكنني حقاً حقاً آسف!»

نظر إليه ساري لبعض الوقت بهدوء عارم، ثم ابتسم ببساطة وقال:

- «ولو أن اعتذارك لن يمحو اللون البنفسجي عن وجهي الوسيم، إلا

أن هذا لا يعني أنني لن أقبل. لم يحدث شيء.»

كانت طريقة ساري في قبول الاعتذار غريبة بعض الشيء؛ لذا نظر إلي وادع يستوثق ما إذا كان هذا يعد سباحاً؛ فأومأت بابتسامة. استدار ساري

وأكمل سيره؛ فلم نجد سبباً للحاق به. استدرنا بدورنا عائدين إلى حيث تقف تبر، حين اصطدم بي جسد صغير.

- «إذن، هل أنا شخص جيد الآن؟»

انحنيت لأصبح في مستواه ومسحت شعره، أجبته بابتسامة ملأتها فخراً قدر استطاعتي:

- «أنت جيد من البداية، والآن أصبحت جيداً جداً! وأنا واثقة من أنك ستسير على هذا النهج طوال حياتك، ولن تكتفم معلومة تعرفها مهما حدث، خاصة إذا كانت براءة إنسان أو نفعه معلقة على شهادتك!»

أوماً بابتسامة سعيدة، بدا طفلاً جداً في تلك اللحظة. أضافت تبر:

- «ولست مضطراً للتسلل كي تشرب العصير، تعال في أي وقت وستحصل على كأس كبير منه.»

ضحك واحمرّت أذناه في حرج، قلت برفق:

- «شهاب، حين يقدم أحدهم معروفاً إليك؛ فإن من الواجب عليك أن تشكره، وتدعو له كمكافأة على معروفه.»

هز رأسه بفهم، وشكر تبر، ثم التفت إلي وشكرني أيضاً، ودون كلمة أخرى، استدار وركض بأقصى سرعته. ضحكت بسرور حتى اصطدمت عيناها بعيني تبر الحادثين، كانت تعقد ذراعيها على صدرها وتضرب الأرض بقدمها اليمنى في نفاذ صبر. نظرت لوداع فرأيته يزم شفثيه في ضيق مشابه.

- «أنا.. حسناً، أعرف أنكما غاضبان مني الآن لكن.. لم يكن بوسعي أن أوغل صدر وادع على ساري أكثر من ذلك! ولم أرد اتهام أحد بشيء دون دليل! أبي هو من فاجأني بتسريب ما أسررت به إليه، بعدما تأكد أن هذا

سيفيد في تبرئة عمي جواد!»

نفخت تبر بقوة حتى كادت تطيرني من مكاني، ثم قالت:

- «لسنا غاضبين، لقد كنت سبباً في تبرئة أبي بفضل الله، لكن تأكدي أن أي شيء ستقولينه لي من الآن فصاعداً...» ورفعت يدها لتشير إلى رأسي. «سأكون واثقة بأن رأسك هذا يخفي أكثر منه بكثير!»

ضحكت بمرح وقلت:

- «هذا ليس اكتشافاً جديداً يا أختاه! كنت دائماً هكذا، وسأبقى!»

حين دخلت إلى البيت، كانت أمي وخالتي مستمرتين في التحدث، ربما هو خبر معتاد، أو ليس خبراً على الإطلاق، لكنه -بالنسبة لي- بدا أفضل ما يمكنه الحدوث؛ إذ شعرت أنه بالإمكان -بشيء من التجاوز- عودة الأمور إلى سابق عهدها!

التفتت لي أمي وأخبرتني بابتسامة عريضة أن:

- «خالتك ستبيت عندنا يوماً آخر يا غيم، من قال إن الأحجار لا تلين في بعض الأحيان؟»

أطلقت صيحة فرحة وضممت خالتي بحبور؛ فأخذت تضحك ضحكات تحولت إلى سعال عات، ولم تهدأ إلا بعدما صبيت لها دورقاً كاملاً من الماء. لا أريد أن أسقط ذبابة في اللبن كما يقولون، لكن وضع خالتي ودود يقلقني أكثر مما يسعدني، الشحوب الشديد مع الانسراح المفاجئ، ما الذي يمكن أن يعنيه حالها؟

طلبت خالتي من أمي إعطاءها (ما) أحضرته خالتي حسناء بالأمس؛

فانتهزت الفرصة:

- «خالتي، ما الذي كان سيحضره ساري بالأمس وطلبت مني أن أوقفه قبل إحضاره؟»

- «أوه، أجل، أوراق الجوافة الجافة، إنها مفيدة للصدر، كانت تريخني كثيرًا حين يشتد علي الألم، لكنها انتهت لدي منذ فترة؛ فأرسلت ساري ليحضرها من عند عمك جواد، لكن حسناء فاجأتني بإحضار كمية منها دون أن أطلب.»

فهمت، يبدو أن ظني صدق فيما يخص علاقتهما. وعلى سبيل الاحتفال، قررت البقاء في المنزل هذا اليوم، وعدم معاودة الخروج لأي سبب، من حق نفسي علي أن أريحها، ولو لنصف يوم.

اتجهت للشرفة لأجالس أبي قليلًا، لكنني لم أجده هناك، أخذت جولة قصيرة في المنزل فوجدته يضبط عمامته استعدادًا للخروج.

- «مجددًا؟ إلى أين هذه المرة؟»

نظر إلي وابتسم بمرح، أتمنى أن يبقى أبي على حالته البشوشة هذه طوال الوقت، لقد بدأت أستعيد الأيام الخوالي حين أنظر إليه.

- «بم تشعرين؟»

- «بما كنت أنفاخر على الصغار به حين كنت في السابعة.»

قطب حاجبيه بحيرة مصطنعة.

- «بأنك تملكين مهرة جميلة ستكبر لتصبح فرسك الخاصة؟»

ضممته فجأة وأنا أجيب:

- «بل بأنني محظوظة لأنني ابنة الشيخ مدرار، الشيخ الذي لا يقبل على ابنته الإهانة، ولا يقبل للآخرين الظلم، ويعرف ماذا يقول وماذا يفعل طوال الوقت!»

أحاطني بذراعيه وضممني إليه بقوة وهو يقول بحنان:

- «إذا لم أَدافع عن ابنتي، وأسعى في رد الحقوق؛ فما هي قيمتي إذن؟ أدامك الله لي يا حبيبة قلبي، وبلغني بكِ أعلى المراتب، ولا أراني فيكِ مكروهاً أبداً.»

يا حبيبة قلبي! لطالما ناداني أي بذلك، ولطالما كان حنوناً معي ومع أمي، لا أذكر أنه ترك إحدنا تبيت ليلة وهي حزينة عموماً، وبسببه خصوصاً، ولا أذكر أننا طلبنا منه شيئاً وتأخر في التلبية، ولا أذكر أنه كان غليظاً أو جافاً في تعامله معنا في أي وقت، ومهما بدر منا أو حدث بيننا. لكن عبيد الصغراويّة لا يرون الحقيقة، بل يرون ما يريدون أن يروه، لا يريدون الاعتراف بوجود العطف والود والحب بيننا، وبأبهى صورته، فقط يريدون نسبة أي نوع من الرقي لذوي الأعين الزرقاء؛ ليجدوا مبرراً لصغراويتهم: (أن نتطور كما تطوروا، وأن نلحق بركبهم!)، ركبهم المتأخر أصلاً!

- «إلى أين ذهبت صغيرتي؟»

قالها ضاحكاً؛ فعقدت ذراعيّ على صدري وقلت مضيقّة عينيّ بحزم مفتعل:

- «إلى حيث ستذهب يا ابنتي، ما الموضوع؟»

- «اجتماع خاص جداً.»

أعاد النظر للمرأة ليتأكد من توازن عمامته؛ فحلت بينه وبينها لأوصل له

رسالة قصيرة مفادها ألا خلاص مني .

- «أنت لا تعتقد أنني سأرضى بإجابة مكوّنة من ثلاث كلمات، صح؟»
- ضحك بشدة ونفس شعري بيده وهو يقول:
- «بالطبع لا، لكنني أعتقد -أيضاً- أنك تحبين الأخبار المفصلة؛ لذا ستنتظرين ريثما ينتهي الاجتماع، وبعدها أخبركِ بكل شيء بإذن الله.»
- «فليلهمني الله الصبر!»
- ابتسم بلطف وودعني، كاد يذهب لولا أن أوقفته بلهفة.
- «سؤال واحد فقط!»
- «وستطلقين سراحي بعده؟»
- هزرت رأسي ضاحكة؛ فأوماً يحثني على التحدث.
- «لماذا لم يحو خطاب أنور أي معلومة تخص المشاكل الأساسية في القرية، المنّ الجذري، الحرب، أحوال دار المنارة، أي شيء له أهمية كبرى؟!»
- «لقد كان ما تحدث عنه أنور هو الطارئ يا غيم، مشكلة عمك جواد، والأزمات التي سببها ذوو الأعين الزرقاء، ومرض الحاكم، والسباق الكبير.»

- «بل إنها مشكلات صغيرة متفرعة عن المشكلات الأساسية!»
- «بالضبط، وهذه مشكلة القرارات غير الموقّعة: ابتداءً، تكون مشكلة واحدة؛ فتعالج بأسلوب خاطئ لتتفرع عنها مشكلات أكثر تحتاج إلى معالجة بدورها، وعن المشكلات التي لم تعالج مشكلات أكثر، والمصيبة الكبرى أن آثار المشاكل الفرعية لا تقل سوءاً عن آثار الأساسية، مع فارق أنها تكون

عاجلة وبحاجة إلى تدخل سريع قبل أن تبرعم من جديد!»

محق، كالعادة، أنور لم يتجاهل المشكلات الأساسية، بل إنه كان مضطراً لإعطاء الأولوية للفروع.

- «تسمحين لي بالخروج الآن؟»

- «حسنًا، لكن لا تتأخر.»

- «أمرك.»

ضحكنا من جديد ثم خرج أبي، وعدت لأشارك خالتي وأمي جلستهما. كان أسرع يوم يمر منذ مدة طويلة، وهو ما أكد لي أنه كان يوماً سعيداً فعلاً. في المساء، سمعت صوت صهيل حصان قريباً من الباب، ظننت أن أبي عاد، لكن خالتي تعرفت فيه على صوت الحصان الطائر، قالت بلهفة:

- «لقد جاء ساري يا غيم، أرجوك اذهبي وساعديه في حمل ما أحضره.»

قفزت من مكاني وركضت لأفتح الباب، ليس حماساً لحمل غرض ما كما تصورتهم، بل لأن فضولي كان مشتتاً لمعرفة ما يمكن أن يحضره ساري، وتكون خالتي بانتظاره بهذه اللهفة.

فتحت الباب في حين كان ساري يضع صندوقاً خشبياً ثقيلاً كما يبدو أمام العتبة مباشرة، رفع إلي وجهه المتورم وابتسم.

- «أهلاً غيم.»

اتجه إلى حصانه وأنزل صندوقاً مشابهاً، اقتربت منه بطريقة صورية توحى بأنني عازمة على مساعدته؛ فنظر إلي بسخريّة.

- «أتعلمين؟ سأعطيك أي شيء تريدينه إذا استطعت رفع طرف

الصندوق فقط!»

- «أنت تتحداني إذن؟»

شمرت عن ساعديّ واستحضرت كل قوتي، لو لم أرفع هذا الصندوق الآن فلن أستحق أن أكون غيم ابنة الشيخ مدرار! الحق أنه كان ثقيلاً للغاية، لكنني لم أكن مستعدة للاستسلام.

- «توقفي يا مجنونة، عروق رقبتك ستنفجر!»

لا مجال! ها أنا ذي، لقد.. لقد رفعته! بالكاد فارق الأرض، لكن هذا كان يكفي، أفلت يديّ وارتميت على الأرض ألثت بتعب، وأنا أشعر بقلبي يكاد يخرج من فمي. ضحك ساري وهو يقول:

- «اذهبي واشربي شيئاً، أو اغسلي وجهك، لونه أصبح شبيهاً بثمرة طماطم ناضجة!»

أشرت له بيدي ل ينتظر قليلاً ريثما ألتقط أنفاسي.

- «كيف.. تحمله.. وحدك؟»

- «أنا ساري، لست غيم.»

قالها ضاحكاً وهو يقبض بإصبعيه على أنفي بحركة مزعجة، أبعدت يده وقلت بفضول:

- «ماذا في الصندوق؟»

- «عرق سوس.»

- «م.. ماذا؟!»

نظر إلي بطرف عينه وابتسم بمكر.

- «يبدو أن هذه الكلمة أصبحت تخيفك.»

- «ساري، جدّيّا، ماذا في الصندوق؟»
- «ألا يمكنكِ تمالكِ فضولكِ لعدة دقائق فقط؟»
- لويت فمي بضيق، وسبقته للداخل، اتجهت للمطبخ وشربت عدة كؤوس من الماء البارد حتى عاد إلى أنفاسي انتظامها، ثم خرجت إلى الصالة حيث وضع ساري الصندوقين، كانت أُمي وخالتي في طريقهما من الداخل، لكنني بسرعة فتحت الصندوق الأول ونظرت، عجيب! إنه مملوء عن آخره بالعنب الأحمر الناضج، نظرت إلى ساري في تساؤل فقال بهدوء:
- «ألا يمكنني الحصول على كأس من الماء أولاً؟»
- أسرعت بإحضار الماء له، الحق أن الصندوقين كانا مصنوعين من خشب غاية في القوة والثقل، مما يعني أن ساري غاية في القوة هو الآخر، ما شاء الله.
- «إذن، ما كل هذا العنب؟ ولماذا أحضرته إلى هنا؟»
- «أحضرته لأن أُمي طلبت ذلك.»
- «لماذا لا تتبّه للسؤال الأول؟»
- ابتسم بهدوء ولم يجب.
- «ساري، ما الموضوع؟»
- «لا يوجد موضوع، على فكرة، ماذا بينكِ وبين ذلك الصغير.. ماذا كان اسمه؟ شاهر؟»
- «شهاب؟»
- قلتها بضيق لأعلمه أن محاولة تشيتي لن تنجح، ابتسم ببساطة.
- «أجل، شهاب.»

- «ماذا عنه؟»
- «أتاني عند البحيرة، وسأل عنك، سألته عما يريد فأخبرني أنه (موضوع خاص جدًا)، قال ذلك بالنص، أخبرته أنك في المنزل على الأرجح، فانقلب وجهه وغادر محبطًا.»
- «ولا تعرف ما أراده؟»
- «موضوع خاص جدًا، هل تريد أن أتدخل في خصوصياته؟»
- ضحك وشاركته، ولعل براءته من المكيدة التي حاكوها ضد عمي جواد خففت من ضيقي منه.
- «ساري، ماذا فعلت بالقطعة الخشبية الثانية؟»
- «ماذا؟ هل غيرت رأيك؟ فات الأوان يا صغيرة.»
- «ساري يا ساري، أتمنى أن أسألك سؤالاً وتجيبه ببساطة.»
- «أهذه أقصى أمنياتك؟ ليكن، لقد بعثتها لفتاة عشوائية كانت تسير في الطريق، جميع الفتيات مستعدات لفعل أي شيء للحصول على تلك القطعة، جميعهن عدا واحدة.»
- نظر إلي وابتسم ابتسامة جانبية؛ فابتسمت بدوري.
- «قبل عامين، حين عرضت علي حضور احتفالهم، كان المقابل المدفوع لهم زهيدًا للغاية.»
- «لم يكن هناك طلب، كان حفلهم وحضوره أمرين محتقرين ومتقدين، أما الآن، أنت ترين، إنه مقياس التطور والتحضر!»
- صدق ساري، ورغم كذبه الدائم، كثيرًا ما يصدق.

طوال الليل، انضمت لأمي وخالتي -ضمنيًا- في تقسيم عناقيد العنب وتوزيعها في صحاف صغيرة، قالت أُمِّي أنها ستوزعها بهذا الشكل حتى يأتي أبي ويقرر لمن سيعطونها، لكن أحدًا لم يتبرع بإخباري بقصة هذا العنب، ومن أين جاء.

الخلاصة أنه كان يومًا مثاليًا بما لا يقاس، ولأول مرة منذ زمن لا أعلم طوله أجدني في قمة سعادتي وارتياحي، كأن كل مشاكل الكون حُلَّت. كان خطئي في الواقع، أنني لم أفطن إلى حقيقة أن وصول قمة الشيء، لا يعني إلا النزول من الجهة الأخرى!

ما قبل النهاية

(١)

كان كتاب التاريخ المنسي جيداً في المجمل، قراءة التاريخ جيدة في المجمل، وقراءة ما يجري الآن بالإضافة إلى مقدماته وتبعاته وما أدى إليه وما تلاه بصيغة الماضي لها سحر خاص، لقد حدث كل شيء من قبل، بأسماء مختلفة وصيغ متنوعة، لكن بنفس الترتيب والحبكة والأساس، لا يوجد شيء مفاجئ في الأحداث، لا شيء يحدث لم يحدث من قبل، المشكلة الوحيدة هي أن الناس تنسى، وتكرر الخطأ ألف مرة، وتظن في كل مرة أنها الأولى، وأنهم سيتعلمون منها للأبد!

قضيت النهار كله أقرأ في الكتاب، قطعت عددًا لا بأس به من الصفحات، أنهيت نصفه تقريبًا خلال يومين وحسب، الحروب، الدسائس، آراء الجموع والشعوب، تغير آراء الجموع والشعوب، كل شيء كان فاتناً ومثيراً للدهشة، الصورة العلوية تبدو شاملة أكثر، وواضحة أكثر، ومثيرة للاستغراب أكثر: لماذا فعلوا كذا بدلاً من كيت؟ كيف لم يعوا حقيقة الأمر الفلاني في حينه؟ ما الذي حدث وجعلهم غافلين تمامًا عن معالجة الخطأ (...). قبل أن يتشعب؟

أمدد ظهري على فراشي، أبعد عيني عن الصفحات وأتهد وأسهم في الفراغ. أليس هذا ما يجري الآن؟ أألن يأتي شخص بعد مئة سنة ليقرأ عنا باعتبارنا (تاريخاً منسياً)، ويتعجب من مدى غفلتنا أو حماقتنا أو سوء تقديرنا؟ في أي صفحة من ذلك التاريخ سأكون؟ هل سأوضع في نفس

السلة الإجمالية لأحوال الناس في تلك الحقبة؟ ألم يكن في أولئك القدامى شخص مثلي، سعى ليميط عن الحقائق اللثام، وبقي للحظة الأخيرة مقاومًا، ورافضًا الاستسلام، وآملًا في أن يكون فارقًا، ثم مات دون أن يشعر به أحد، أو يحظى -على الأقل- بسطر يتيم يتحدث عن جلادته داخل كتاب يسرد التاريخ المنسي؟

عادت عيناى إلى سطور الكتاب وقررت إجبار عقلي على متابعة القراءة عوضًا عن التفكير الذي لا يؤدي إلا إلى ألم في القلب. لكم دُهِشت مما قرأت بين هذه الصفحات، سبق وقلت أن الناس تنسى، لكن الحقيقة الأكمل، أن الناس -وبسهولة- يمكن أن تتعرض لمحو الذكريات! ليس بمعجزة ولا بسحر، ولا باصطدام الرأس أو عشبة ذات مفعول قوي، بل بالإيحاء وتغيير المفاهيم فقط، ويسهل المهمة دراسة طبيعة البشر، البشر مستعدون لنسيان أي شيء مقابل حياة هنيئة مؤقتة، البشر لا يكرثون بالماضي أو بالمستقبل، البشر لا ينظرون إلى ما هو أبعد من موضع أقدامهم، البشر ليسوا مستعدين لاستبدال حياة خاصة حالية بسيطة آمنة -ولو وهميًا- بحياة ذات مستوى أفضل ينالون فيها حقوقهم بالشكل الصحيح وبمدى مستمر لأبنائهم وأحفادهم لكن بقليل من التعب و -معذرة لهم- بذل مجهود أكثر بقليل. ومن كانت هذه صفاته فإن تزيف ذكرياته ليست أصعب من إقناع طفل صغير بأخذ قطعة من الحلوى!

لقد وجدت أصل قصة اليتيمة صدى هنا، قيل أن والديها هربا بها من غزو ذوي الأعين الزرقاء حارقي المحاصيل، الحقيقة تختلف، اختلافًا جذريًا بالنسبة لي، واختلافًا بسيطًا إذا كان القارئ صفراويًا: الغزو كان من ذوي الأعين الزرقاء غارسي الفسائل! هل أدلي بتصريح سيثير جنون الصفراويين أكثر؟ الغزو لم يكن غزوًا!

لقد كانوا المعنيين بحماية معتقد غراسة الفسائل آنذاك، كانت ديار غارسي الفسائل وأراضيهم ومعها أفكارهم وأساسات حياتهم تحت سيطرتهم، وهم لم ينالوها عنوة، بل إنهم كانوا المتصدرين في تلك الحقبة، كانت لهم أمجادهم وصولاتهم لحماية غراسة الفسائل وغارسي الفسائل، ولتوسيع رقعة المتممين لهذا المعتقد في شرق الأرض وغربها، لقد كانوا أبطالا للاختصار! وما حدث حقاً وجعل صورتهم تشبه هذا الشكل، أن حرباً جرت على هذه الأراضي يوماً أثناء فترة حكمهم لها، لم تكن حرباً يدوية بالجنود والسلاح، بل كانت حرباً معنوية وفكرية بامتياز، لقد استطاعوا الدخول من نفس المدخل الذي يعتمدون عليه الآن، لون العينين! (أصحاب الأعين الزرقاء يسيطون هيمنتهم على أصحاب الأعين الصفراء، وينهبون خيرات أراضيهم ويظهرون الخير ويبطنون الشر)، لم يهتم أحد لنشر الحقيقة البسيطة: (إنهم غارسوا فسائل يحكمون غارسي الفسائل، دون أن يكون للون العينين فضل في شيء!). هكذا تشكلت الأمور على ضوء جديد، كالماء الذي يُفرغ من إناء إلى إناء آخر فيتخذ شكله، لقد أصبح الأمر (لونياً) بحثاً، وبدأت الخلافات تكبر وتتصعد وتشتعل، لم يعد أحد يكثرث بسلطة غارسي الفسائل ومآلها، الكل يريد أن تكون السلطة للون عينيه، ألوان الأعين مزقت مملكة غارسي الفسائل، ومزقت وحدة أراضيهم، وهدمت عروش مجدهم!

ما حدث لوالدي صدى لم يكن مدوناً بشكل خاص داخل الكتاب، لكنه كان مفهوماً بلا كثير تفكير: اشتبك الأزرق مع الأصفر، واختلط الحابل بالنابل؛ فأصبح كل أزرق يطال أصفر يقتله، وكل أصفر ينال من أزرق بطلاً يستحق التكريم. لقد كانت مجزرة بمعنى الكلمة، مجزرة ارتكبتها غارسوا الفسائل ضد غارسي الفسائل!

كنت على شفا لطم خدي وأنا أقرأ هذا الجزء، كنت أمسك بنفسي بين

سطر وأخيه وأنا أصبح وأهتف، لا تفعل ذلك إنه أخوك، لا تسمحوا لهم بالدخول بينكم، لون العينين ليس اختياريًا، المعتقد كذلك! ألم يكن أولى بالأحياء السامعين أن يصلهم صوتي، بدلًا من مناشدة الموتى الذين أخطأوا وتحملوا نتيجة خطئهم ثم فات زمانهم وولى -بالنسبة لهم- وقت التصحيح والإنصات؟

للتوضيح: حين قلت: (استطاعوا)، (لا تسمحوا لهم)، عنيت حارقي المحاصيل والجداريين.

أغلقت الكتاب بعد انتهائي من هذه الحرب، قلبته وفتحت الفهرس ومررت على المحتويات بعيني، كتاب مثر ومفيد، سأجد وقتًا لقراءته كله، لكن أحداث القرية لن تنتظر كما سيفعل الكتاب، يجب أن أقفز إلى الفصلين الأخيرين اللذين جذبا انتباهي أول مرة.

سمعت صوت الباب بالأسفل، وأصوات أمي وخالتي تتحدثان؛ فشعرت أن عزلتي اليومية مع الكتاب آن لها أن تنتهي. نزلت إلى الأسفل؛ فوجدت سلتين كبيرتين مملوءتين بالشطائر، مربى توت من عند وسم، وزبد، وجبن، وبيض، ودورقان مغلقان من عصير الليمون بالنعناع، لوازم الاستمتاع بمشاهدة مسار الليلة من السباق.

للمرة الثانية أبحث عن أبي في الشرفة ولا أجده، ثم فوجئت بمعرفة أنه نائم في حجرته، إلى هذه الساعة! نسيت إخباركم أنه عاد في وقت متأخر من ليلة البارحة، وبوجه غير الذي غادر به للأسف، أي معكوس اليوم الذي ذهب فيه غاضبًا لإهانتي من العائلة الزرقاء.

فتحت باب الغرفة واقتحمتها بقوة عازمة على إيقاظه، أنا أعرف أبي جيدًا، وأعرف أن بقاءه في الفراش إلى هذا الوقت المتأخر لا يعني إلا شيئًا

واحدًا: إنه محبط لأقصى حد، وواجبي ألا أسمح باستمرار هذا. حاولت أمني منعي من إزعاجه، لكنني أخبرتها أنه محتاج إلى الإزعاج في هذا الوقت أكثر مما تتصور؛ هكذا تركتني وهي تقول أنني أحب فلسفة الأمور تمامًا كأبي.

- «أشرفت الشمس، وزقزقت العصافير، اليوم الجديد بدأ وسيتهي، أين أنت يا أبتني؟!»

أزاح الغطاء عن رأسه ونظر إلي بنصف عين، لم يكن نائمًا!

- «أهلاً يا حبيبة أبيها.»

جلست جواره، وقلت برفق:

- «ما الأمر؟ ما الذي ساءك إلى هذا الحد؟ تعرف أن بوسعك إخباري.»

الآن أزاح الغطاء حتى منتصف جسده، نظر إلى السقف وقال:

- «سأسألك، ما انطباعك عن الفترة التي تولى فيها أنور مسؤولية حكم القرية؟»

- «أأنت قلق على مستقبل القرية، إذا ما تولى أنور الحكم بشكل كامل؟»

- «أجيبيني يا غيم.»

- «حسنًا، هي أسوأ فترة مرت على القرية من وجهة نظري، كل شيء كان في حالة فوضى غير معقولة، واتخذ عدة قرارات غاية في السوء، كأن سوء الأوضاع وحده لا يكفي!»

- «إذن ترين أن تدهور أحوال القرية كان بسبب أنور.»

- «هل هناك خيار ثانٍ؟»

استوى جالسًا؛ فبدا الإرهاق على محياه بشكل غير مسبوق، بدأت

ساقاي تهتران بتوتر، يجب أن أذهب لأعلم أمي، ربما سيكون إعداد كأس من اليانسون بالعسل خيارًا مناسبًا الآن. لكنه نظر إليّ وتحديث، ولم أستطع مقاطعته.

- «أنور هو الشخص الوحيد الذي يمكن التفاؤل به وسط ذلك المجلس كله. الحاكم جلال.. لا أعرف كيف أقولها، لكنه جنّ، أو فقد الذاكرة، أو أصابه مس!»

- «ل.. لماذا؟ ماذا حدث؟»

- «حين التزم أنور الصمت إثر تلك القرارات المؤذية، وحين انصاع لمطالبات الصفراوية وتيارهم الجارف، لم يكن حرصًا منه على منصبه، ولا خوفًا من هتر وأمثاله، ولا عجزًا عن اتخاذ قرار صحيح، ولا تواطؤًا أو كسلًا.»

- «ماذا دفعه لذلك إذن؟»

- «علمه أن أباه موافق -بشكل ما- على تلك القرارات، وأنه لو حاول الاعتراض فإنه يخالف رغبة أبيه، الحاكم الفعلي لهذه البلاد! أبوه راض عن فكر هتر والصفراوية، ومنحاز للصففر ضد الزرق، ولا يجد غضاضة في طرد المعلمين من الدار أو إدخال عربة البهاليل إلى القرية، أو -على الأقل- لا يجد غضاضة في موافقتهم وترك الأمور تسير كما يحبون!»

- «ماذا؟ الحاكم جلال؟! لكن.. ما الذي غيرّه؟»

- «هو لم يتغيّر يا غيم.»

قالها وبقي ينظر إلى وجهي بصمت تام، كأنه يريد مني استشفاف باقي الكلام من ملامحه، وهذا ما فعلته، وأكملت له عبارته:

- «هو لم يكن شيئاً حتى يكون عكسه، هو خادم منصبه، وما يحفظ له مكانه ويجعل شعبه منتشياً سيفعله، ولو على حساب المبادئ والعدالة والصواب.»

اتسعت عيناه وبدا مبهوراً، فتح فمه قليلاً ومرت لحظات من الارتباك، قبل أن يقول بنبرة غير مقنعة:

- «ليس إلى هذا الحد يا ابنتي، لا تجحفي في حقه هكذا، هو لم يكن هكذا ولن يكون، هو فقط.. ليس حازماً بما يكفي. لا يريد تطبيق ما يعرف أهمية تطبيقه، لعله يخاف على القرية، يخشى من حدوث اضطرابات...»

- «اضطرابات عاجلة واضحة؛ لذلك يفضل الاستقرار الوهمي المؤقت على اتخاذ قرار صحيح، أليس هذا ما أخبرتني به عن طبيعة البشر حين بدأ المنّ بالظهور يا أبي؟»

كذا قاطعته؛ فأخذ نفساً عميقاً حزيناً ولم يعلق. ربما لا يكون الحاكم شخصاً سيئاً، لكنه -قطعاً- حاكم سيئ، مؤخراً على الأقل.

- «على ذكر المنّ، أستطيع أن أقول أن الكارثة وقعت بالفعل.»

- «لقد وقعت منذ رفض الحاكم إذاعة الخبر!»

- «غيم، أنا أتحدث حقيقة لا مجازاً الآن، عشرات المزارع أصيبت، وبالكامل! المصيبة أن المنّ لا زال يعيث في داخلها؛ لأن معظم أصحابها لم يتعرفوا المنّ، ولم يفهموا سبب ذبول نباتاتهم، ولا ضرورة إزالتها وتنقية المياه.»

- «أقيلت هذه الأخبار في مجلس الحاكم؟»

فلتها بنوع من التبرم؛ فقال أبي بسرعة:

- «كلا بالطبع، أنور أخبرني بها، على انفراد.»
- «ولماذا يخبرك أنت؟ لماذا لا يخبر والده؟»
- بدا أبي كما لو كان يشاور نفسه، أخبرني أم لا.
- «أنور ينوي اتباع سلوك خطير بعض الشيء خلال الفترة القادمة يا غيم، وسيعتمد في ذلك على مرض والده.»
- «مرض والده؟ ألم يقل أنور في خطابه إن والده...»
- «تعافى، أجل، هذا ما اتفق على قوله، لكن الحاكم لا يزال على حاله إن لم يكن أسوأ.»
- «ربما عليه أن يتقي الله في قراراته قليلاً ويرعى مسؤوليته بشكل أفضل حتى يشفيه الله!»
- «يكفي يا غيم!»
- «آسفة، كيف ينوي أنور استغلال هذا الوضع إذن؟»
- «باتخاذ القرارات التي يراها صحيحة خلال فترة غياب والده عن الوعي، وسيتعذر بأنها كانت أموراً طارئة حين يستيقظ!»
- «وهتر؟ والصفراوية؟ و...»
- «لهذا هو يجتمع بي، ولهذا يسألني، ولهذا يستشيرني.»
- «و...؟»
- مسح وجهه بيديه في تعب شديد، نظر إلي في إرهاق وقال:
- «لا أدري، لقد تعبت يا غيم، وتشوشت، لم أعد أعرف ما ينبغي عمله، كل شيء اختلط علي!»

إحساس مفزع لأبعد الحدود، أبي يخبرني أنه مشوش ولا يعرف ما ينبغي عمله! من يعرف إذن؟ أنا؟

- «أبتاه، ليس من المنطقي أن تخبرني بشيء ثم تنساه!»

- «...؟»

- «أخبرتني أن الأدوار لا يمكن أن تتبدل، وأن الحاكم لن يستطيع أن يصمد في مركز في التدريس يوماً واحداً، والعكس صحيح، أنت معلم يا أبي، عملك أن تربي الصغار وتفتح عقولهم وتصحح أفكارهم، وهذا ما ينبغي عليك التركيز عليه حين تتشعب الأمور وتختلط عليك الطرق!»

- «و.. القرية؟ من سيصحح أفكار أهلها؟ من سي...»

- «هذا ليس عملك! لقد بذلت أكثر مما تستطيع. أبي، أنت لا تظن أن مسؤولية إصلاح ما أفسده مئات الأشخاص ستقع على عاتقك وحدك!»

- «لا، لكن...»

- «بدون لكن، الزم موقعك يا أبي، فلتعلم يا أبتى أن الإنسان -كل إنسان- يحمل في داخله ما لا يحمله غيره، ويسد ثغرة بحجمه تماماً، لا تزيد عنه ولا تنقص، ولو حاول غيره أن يحل محله في سدها فلن يفلح!»

ابتسم على استحياء، لقد عرف العبارات، تابعت بانسراح أكثر بعدما رأيت ابتسامته:

- «ثم إن دورك ليس هيناً، أن تربي الصغار على القيم الصحيحة والعقيدة القويمة، على التمييز بين الصواب والخطأ، وعدم القبول بأنصاف الحلول، وعندما ينشأ هذا الجيل على هذه المبادئ؛ ستكون مساهماً أساسياً في صلاح القرية وقتها، لا، بل صلاح نسبة كبيرة من غارسي الفسائل!»

- أغمض عينيه في ارتياح جزئي، وحين فتحهما قال:
- «ربما هذا ما يجب عمله فعلاً، أن يلزم كل شخص ثغره، وأن يخلص في أداء واجبه، لكن.. هل سيفعل الجميع هذا؟»
- «أبي!»
- «ماذا؟»
- «هذه ليست مسؤوليتك!»
- ابتسم، نهضت ومددت يدي أعينه على النهوض وأنا أقول:
- «هيا، فطور جيد، وكأس من الشاي بالحليب، وزيارة للمزرعة، ثم الاستعداد لحضور المسار.»
- أمسك بيدي ونهض، ضم رأسي وهو يقول:
- «أنت نعمة، حقاً، نعمة تستحق الشكر، أسأل الله ألا يحرمني منك.»
- «ولا منك يا معلمي!»



ظللنا الصمت فترة طويلة، بقينا خلالها جالسين تحت شجرة الأراك دون أن نقول أي شيء، كلانا يعرف أن ما يجب أن يقال قيل منذ زمن، وأن أي شيء إضافي سنقوله سيكون بلا فائدة، لذا؛ كان التزام الصمت خياراً مناسباً. ذات يوم قال أبي إن الهدم مهم مثل البناء، سأقول عبارة أقل إحكاماً: اللا تفكير مهم أحياناً كما هو التفكير!

من حق العقل على المرء أن يعطيه استراحة بين فينة وأخرى، ليس عليه أن يظل مشغولاً بكل شيء طوال الوقت، خاصة بما لا يحل التفكير فيه المشكلة!

عقلي المسكين يتحرك بسرعة كبيرة منذ عامين، وتضاعفت سرعته لحدود جنونية خلال الشهور الأخيرة، بضع دقائق من الاسترخاء التام وعدم فعل شيء غير تأمل حركة السحاب، ومتابعة سير أهل القرية بأحجامهم الصغيرة من هنا، والتنفس بعمق للتشبع بأكبر قدر ممكن من رائحة الأعشاب المنعشة، لن تضر بلا ريب، بل إنها أكثر ما أحتاج إليه.

مع استغراقي في اللا شيء، لم أفطن لنهوض أبي من جوارى، واتجاهه ناحية المنطقة الفارغة، انتبهت حين سمعت صوته البعيد يناديني، لا أعرف لم أنقبض صدري لسماح صوته بهذا البعد. نهضت وأجبت نداءه؛ فميّزت على وجهه نوعاً من الحيرة.

- «هل فعلت شيئاً للتربة في هذا الجزء؟»

- «إطلاقاً، لم السؤال؟»

مد شفتيه ساهماً وقبض على حفنة من التربة بيده، تأملها قليلاً ثم أعادها إلى موضعها، نهض ونفض يديه وهو يقول:

- «استدعي لي سهل، ثم غادري؛ سأبدأ ببذر هذا الجزء.»

- «غريب، ظننتك قلت إنك ستضطر للانتظار حتى...»

- «لم يعد هناك داعٍ، أرى أن التربة أصبحت مؤهلة.»

- «كما ترى.»

كنت أعرف إلى أين سأتنج الآن، أريد بشدة رؤية ساري، والبحيرة هي المكان المناسب لذلك بلا شك. لم أفكر مرتين وأنا أحرر جناح من الإسطبل، وأنطلق على ظهرها مختصرة مسافة الطريق، ومستمتعة بالهواء يلطم وجهي

بسرعة ومرح، الأمر نفسي بحت، المشوار قصير، لكن ركوب جناح يشعري بتحسّن.

ها نحن أولاء، لكن المكان فارغ! ترجلت وأخذت أجول بهدوء في المكان، لا أثر لساري أو لحصانه، ربما هو يستعد للسباق الآن، أو يستعد للتظاهر بأنه يهتم بالسباق. اقتربت من صفحة الماء ونظرت إلى انعكاس وجهي عليها، لم أرَ وجهي فقط، بل رأيت أفكار مرسومة بشكل غاية في الإتقان، تحاكيها موجات الماء المستمرة مع أرق نسمة عابرة، هذا التذبذب وعدم الاستقرار، الحيرة والتخبط، والتساؤل غير المجاب عن الضفة التي سأنازل إجاباتي عند وصولها، وأجد راحتي على سطحها الثابت.

- «أنت هنا!»

أيقظني صوت الصغير من تأملاتي، التفتُ إليه وابتسمت، لكنني اصطدمت بعينه الدامعتين المتفتحتين، وأنفه المحمرّ، وشفتيه المقوسّتين للأسفل.

- «شهاب! ما بك؟ لم تبكي؟!»

- «أبكي؟ لا، أنا لا أبكي.. الرجال لا يبكون!»

وأخذ يمسح عينيه بظاهري كفيه في طريقة بريئة ومحزنة للغاية، سحبته من يده وأجلسته جوارِي، مسحت دموعه بيدي وقلت برفق:

- «حتى الأحجار تبكي يا شهاب، من قال إن الرجال لا يبكون؟

وحدهم قساة القلب من يجرمون من البكاء. أخبرني يا صغيري، من ضايقك؟»

- «لماذا تسألين؟ ماذا ستفعلين؟»

- «سنبحث عن حل معًا!»
- استنشق عدة مرات حتى يمنع أنفه من السيلان، ثم قال بشفة متدلّية:
- «أنا لا أحب إخبار أحد؛ لأن أحدًا لا يهتم لأمرى، الجميع يكرهني، أمي فقط تحبني، لكنها تخرجني بردود أفعالها؛ لذا...»
- «تكلم يا شهاب، تعرف أنني أهتم لأمرك، وأحبك، تمامًا كأنك أخي الأصغر.»
- ابتسم ابتسامة منكسرة، لم أتوقع رؤيتها على ثغره، وقال:
- «لكن أخي الأكبر لا يحبني أصلًا، ولا يهتم لأمرى!»
- «م... ماذا؟ ما هذا الكلام؟ بالطبع هو يحبك!»
- «بل إنه يكرهني بشدة، ويراني شخصًا سيئًا وخبيثًا، ويتمنى لو لم أكن موجودًا في العالم!»
- «يا إلهي! ما هذا الكلام الكبير؟ ما الذي جعلك تظن هذا؟»
- «أنا لا أظن، أنا واثق! كثيرًا ما كنت أسمعته يتحدث عني، يقول إنني خيب للآمال، وإن السبب الوحيد الذي يجعله صابرًا علي وممسكًا لأعصابه تجاهي هو أنني أخوه! برغم أنني لم أفعل له شيئًا، صدقيني!»
- «أنا أصدقك يا شهاب.»
- وشرّد ذهني في الحوار الذي دار بين أنور وحلية، أنور يكره شهاب بلا جدال، لكن السبب واضح وبسيط.
- «سنعود لأمر أنور، الآن أخبرني عما أبكاك.»
- «الصغار في ساحة القرية، لا يريدون اللعب معي، وحين أقترّب

منهم، يبدؤون بالسخرية مني والابتعاد عني.»

- «لكن لماذا؟»

هز كتفيه كناية عن عدم المعرفة وبدأ يشهق مرارًا استعدادًا لنوبة ثانية من البكاء، أحطت رأسه بذراعي وضممته إلي كما يفعل أبي معي، قلت بلطف ما استطعت:

- «ربما هم مستأثرون من تصرفاتك السابقة معهم؟»

- «لكنني أصبحت شخصًا جيدًا، لم لا يريدون تصديق ذلك!»

- «لأنك لم تحاول إخبارهم بهذا يا شهاب.»

ابتعد عني بحركة حادة وهو يقول بعصبية:

- «غيم! كيف لي أن أخبرهم وهم لا يريدون سماع شيء مني!»

- «ربما، عليك إيجاد طريقة ما للاعتذار، كما أوجدت ألف طريقة

للإيذاء من قبل.»

أطرق لبعض الوقت يفكر، ثم رفع رأسه إلي قائلاً:

- «أي اقتراحات؟»

- «يمكننا شراء كمية من الحلوى، وتوزيعها عليهم، بالإضافة إلى كلمة

(آسف)، سأتي معك لو أردت.»

- «لا، ليس أنت!»

قالها صارخًا كالملسوع، نظرت له بدهشة وتساؤل؛ فقال موضحًا:

- «أمي دائماً تفعل ذلك، ترافقني إلى حيث يجتمع الصغار، وتأمرهم

أن يتركوني ألعب معهم وأكون صديقهم، وهم يخافون منها لذا.. ينفذون

أوامرها، أمامها فقط، لكنهم لا يحبونني حقاً، بل أصبحوا يخافون مني، وكلما رأوني قالوا: (هذا هو الصغير الذي لا يستطيع فعل شيء دون مساندة أمه!)»

هل قلت ذلك من قبل؟ لو كان لهذا الصغير عيب؛ فهو أمه.

- «ليكن، لن أرافلك إذن، أتفق معك في أن مشكلتك معهم يجب أن تُحل من قبلك أنت، دون تدخل من أحد.»

- «لدى أبي الكثير من الحلوى، لقد كان يأمر وسم بإعدادها له، كان يحبها كثيراً، لكنه امتنع عن تناولها منذ زمن؛ لأن الحكماء أخبروه أنها سيئة لصحته، والآن قبو منزلنا يحوي كميات منها، دون أن يتناولها أحد.»

- «ممتاز، وتستطيع أخذها؟ استأذن والدك أولاً.»

- «أبي متعب، لن يكون رائقاً للتحدث معي، أنور هو المسؤول.»

- «إذن، استأذن أنور.»

نظر إلي في إحباط وطأطأ رأسه، مسحت على شعره وقلت:

- «شهاب، حل مشكلتك مع أنور، هو نفس حل مشكلتك مع أصدقائك، لم أنت قلق هكذا؟»

- «ماذا؟ هل أعطيه الحلوى مع كلمة (آسف)؟»

ابتسمت لمشاكسته التي غلفها ببراءة مصطنعة، وقلت:

- «ليس هذا، بل عليك أن تتحدث إليه، إنه أخوك الأكبر، وأنا واثقة من أنه سيكون سعيداً حين تخبره أنك تغيرت، وتعهده بأن تكون عند ثقته وحسن ظنه دائماً.»

- «لن يستمع إلي.»
- «لو تحدثت إليه بأدب وهدوء وثقة سيسمع!»
- لوى فمه بانزعاج، لم يرد أن يقوده الحديث إلى هذا الطريق.
- «في هذه الحالة، سأنتظر حتى تأتي ليلة لزيارتنا، هي لطيفة معي، ليس مثلك تمامًا، لكن إلى حد ما. سأطلب منها مساعدتي في التحدث إليه.»
- «ليلة أخته، وأنت أخوه، ليست أقرب إليه منك!»
- «هما من أم واحدة!»
- «لماذا تظن أن هذا يشكل فارقًا؟»
- «أمي قالت ذلك، قالت إنه يكرهني لأنني ابن حلية لا مخمل!»
- اتسعت عيناها في دهشة وغيظ، ما الذي قد تهدف إليه حلية بقول شيء كهذا لابنها الطفل؟! لقد فهمت السبب الذي جعل أنور يتهمها بأنها تبذر الحقد تجاه الآخرين في داخله، وفهمت -أيضًا- شعور أبي، حين يضطر لإخبار طفل أن أبويه على خطأ.
- «اسمعي يا شهاب، لا يفكر الجميع بطريقة واحدة، وإن كان أنور منزعجًا منك لسبب؛ فهو تصرفاتك القديمة التي قررت تغييرها، وما إن يزول سبب انزعاجه، حتى ترى كم هو يحبك، ويراك أخاه بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى.»
- هز رأسه وقال بخفوت:
- «سأحاول.. لأنني أثق بكلامك.. فقط.»
- «هذا يعني لي الكثير.»

- ابتسم باقتضاب ولاحظت حركته الزائدة، سألته بحيرة عما به؛ فقال:
- «ما رأيك أن نبتعد عن هذا المكان؟ لا يريحني!»
 - «لماذا؟ ما خطبه؟»
 - هب واقفًا وأخذت عيناه تجوسان في الأرض كأنه يبحث عن شيء.
 - «تلك الحشرات كانت تملؤه، و.. أنا.. أخاف الحشرات، بشدة!»
 - حسنًا، أرى أن أبي قريب من طلابه إلى حد غير عادي. قلت بلهفة وأنا أقف مع شهاب:
 - «هل رأيته يا شهاب؟ تلك الحشرات البيضاء الصغيرة؟»
 - «أجل، يوم المسار الأول، أتيت لهذه الجهة كي.. احم.. تعرفين، موضوع وادع، ولاحظت تواجدها الكثيف في هذه المنطقة، لكنني خشيت الاقتراب منها.»
 - «ولم ترَ من وضعها؟»
 - «وضعها؟»
 - «ليس تحديدًا.. أعني.. من كان قريبًا وقتها؟ أتذكر؟»
 - تفكر بعض الوقت في حيرة، أخيرًا قال:
 - «لا أحد غريب، كان هناك أشخاص كثير يملون بطبيعة الحال، فتيات كثيرات كن يشجعن إخوانهن أو أقرباءهن.»
 - «خارج المدرجات؟»
 - «لقد امتلأت الغابة بهن! كن في كل مكان.»

- «طيب، ولا أحد آخر؟»
- «المراقبون، ورجال الحماية طبعاً، ربما.. عقلة المجنون، أيعد هذا أحداً؟»

كما ظننت، شرد ذهني وأنا أجيبه:

- «أحد بآحاد، يوازي ممالك بجندها وكبار عقولها!»

قال شهاب:

- «أنا آسف يا غيم، حين رأيته تتبعين الحشرات أخذت أراقبك باستمتاع، بدا هذا مسلياً. لكنني نادم على هذا الآن، لم أعرف أن هذا قد يؤدي لتعريضك للخطر.»
 - «أنت لطيف حقاً يا شهاب.»
- اتجهت ناحية جناح، وقلت ببسمة:
- «هل أراك مساءً يا شهاب؟»
- أوماً برأسه مبتسماً، كدت أمتطي جناح لولا أنا فاجأني بصرخته:
- «انتظري، نسيت أن أريك شيئاً!»

أنزلت قدمي ونظرت له متسائلة؛ فأمسك يدي واقتادني خلفه إلى منطقة متوارية وسط الأشجار، توقف وأشار إلى شيء ما، مع ابتسامة عريضة تزين وجهه. نظرت إلى حيث أشار؛ لأرى دائرة رماية صغيرة الحجم معلقة على أحد الأشجار، وفي منتصفها تماماً استقر سهم بعمق لا بأس به، نسيت أن أضيف أنه كان سهماً خشبياً للتدريب، أعدت النظر إلى شهاب بابتسامة فخر وعينين متسعيتين؛ فأشار بصمت إلى شيء تحت قدمي، كان خطأ محفوراً في التراب، لقد رمى من هذه المسافة، مسافة ليست قصيرة أبداً، لدي خبرة

جيدة في الرماية، علمني وادع، لكنني استغرقت تدريباً لا بأس به كي أتمكن من الرمي من مسافة كهذه، بهذه الدقة والقوة خاصة.

- «فارس ورام وسباح، ما شاء الله، رجل بمعنى الكلمة! ماذا ستفعل حين تكبر إذن؟»

- «من يدري؟ ربما أقود رجال الحماية.»

ضحكنا بسرور، حفظه الله وسدده. ودعته وقد تنامى شعوري بأنه أخي حقاً، وأُنبي مسؤولية عن تحفيزه وتوجيهه.

مجدداً يسير موكبنا نحو مكان السباق، أبي والعم جواد في المقدمة، وقد انضم إليهما وسم، وراءهم أسير برفقة تبر، ووراءنا أمي وخالتي، ساري ووادع سبقنا في الحضور. كان مسار الزراعة مختلفاً عن بقية مسارات السباق، من حيث أنه يستغرق أسبوعاً كاملاً قبل إعلان الفائز به، قوانين هذا المسار بسيطة جداً، صاحب النبتة الأفضل نمواً والأكثر نفعاً والأكبر حجماً هو الفائز، لكل خاصية من تلك الثلاث نسبتها في التقييم، وقد يأتي متسابق بنبتة تتفرد بخاصية واحدة ويفوز في السباق، بحسب إتقانه واختياره واجتهاده.

اجتماع الليلة لشرح قواعد المسار، والتأكد من عدد المتسابقين وأسمائهم، وتخصيص مكان بارز ومسمى في الساحة لكل متسابق؛ كي يضع فيه نبتته ويرعاها على مرأى من أهل القرية، تجنباً للشكوك وإمعاناً في إقحام الجمهور في متعة السباق. أي أن حضورنا الليلة لا أهمية له، ونحن نعلم ذلك ونصر على الحضور برغمه، وكذلك كثير من أهل القرية، وإن تناقصت أعدادهم بعد حفلات البهاليل. كل ما في الأمر أننا نتشبت بشيء يروّح عنا، ويخرجنا

قليلاً من أحداث القرية اليومية وما فيها من مشاكل، كما أننا نقدم نوعاً من الدعم للمتسابقين، ونظهر تشجيعنا الشديد لهم.

فرشت أُمي حصيرتين أحضرتها معها في منطقة مشجرة من الساحة، واحدة لنا وأخرى للرجال، وكذا فعلت بالسلتين ودورقي العصير، تصنف أي خروج عن حدود البيت على أنه نزهة. كان المتسابقون قد اصطفوا بانتظار بدء الشيخ عامر بالكلام، بدأ الجمهور بالهتاف والتشجيع، وعلا على أصواتهم صوت الفتيات المتجمهرات في ركن بعينه، شهوة وفتيات الصفراوية، كن يضحكن بصوت عالٍ ويتمايعن بطريقة مقززة وملفتة، ويهتفن بصوت واحد:

- «الأصفر يدحر الأزرق!»

نظرت لهم تبر في ضيق، فربتُ على يدها برفق، ليس عليها أن تعيرهم اهتمامها، التجديد أن عائلات من الزرق كانوا متواجدين آنذاك، وبدأ أنهم راغبون في مشاهدة سباقنا وما نفعله، خاصة أن المسار كان خاصاً بالزراعة هذا اليوم، أي بأكثر ما يكرهونه ويخافونه من أفعالنا. وقف شاب لزج أزرق وقال معترضاً:

- «ما مشكلتكن مع الأزرق؟»

نظرت له شهوة نظرة وقحة وصفّرت بطريقة فجّة، نظرت للفتيات المبهورات جوارها، وقالت بنعومة مخيفة:

- «لست المقصود أيها الحبّوب.»

الحب... يع! تبادلت النظرات مع تبر فوضعت يدها على فمها كناية عن رغبتها في التقيؤ، ضحكنا باستخفاف في حين بدأ الشاب يدلك شعره الجعد بطريقة متباهية مستفزة؛ ففتنهد إثر حركاته الفتيات محتبسات الأنفاس، قال

بطريقة رقيقة:

- «ربما نعرف ذلك في الطرف الثاني من السوق؟»

- «قرب المكان الذي تتوقف فيه عربة البهاليل، اتفقنا؟»

تورّد خداهما المكتنزان فذكرني وجهها بالبهلوانيين الذين رأيتهم قرب العربية، علاقة لزجة، ربما كان على قدر من الوسامة، كنت لأستغرب من انجذابه لشهوة لولا رؤيتي لأسلوبه وحركاته. نظرت لأبي ورفيقه فوجدتهم منشغلين بالأحاديث -وسم يستمع ويومئ فقط طبعًا- وكذلك أمي وخالتي، لم يلحظ المشهد غيري وتبر، لحسن حظهم وسوء حظنا. وحين تنحج الشيخ عامر وبدأ الصمت يجيّم على الحاضرين، كنت أتمنى -في سري- أن يكون موقف شهوة والشاب الأزرق أسوأ ما سنراه اليوم؛ لأن مساري السباق الفائتين ساهما في إرساء قناعة لدي بأن الكوارث تحب حضور السباق معنا، في الأول أفسدت عليهم بدخولي مستطيل الكلب، وفي الثاني هاجمنا الزرق، هل تثبت بالثالث؟

بدأ الشيخ عامر يسرد أسماء المتسابقين، فيما كنت أخطط أنا وتبر، سنصفق بكل قوتنا حين ينادى وادع، وحين ينادى ساري، نودي عدد من الشباب أولاً، وكانت التحايا والتهنئات متفاوتة من شاب لآخر، حين نودي قاسط، تعالت هتافات الفتيات والشباب على حد سواء، وهم يشجعون الصغراوي المخلص بأقوى العبارات. نودي اسم وادع؛ فصفقت وتبر كما اتفقنا، ولكم أن تثقوا في أن الصخب التالي لاسمه كان الأقل بين المتسابقين، لكن فاجأني هتاف أبي والعم جواد المفاجئ، بعبارات مثل: (تشجع يا بني، ابذل كل طاقتك، النصر حليف الأزرق)، كانت الأخيرة من أبي، وهي عبارة مثيرة للجدل كما هو واضح، لكنه ابتسم ابتسامة واسعة وبدأ مستمتعًا جدًا بقولها، حتى وسم صفر بكل قوته، يستطيع إصدار صوت ما برغم كل شيء. كان

اسم أنور هو التالي، نال الكثير من التصفيق والصفير والهتاف بطبيعة الحال، لكن صوتاً صغيراً كان أعلى من الحشود:

- «أخي أنور، التوفيق حليفك، أنا أثق بك!»

نظر له أنور بدهشة عارمة، وكذلك فعلت حلية الجالسة جواره، بيد أن دهشتها خالطها غيظ وغل صريحان، ابتسم أنور لأخيه والدهشة لم تفارقه بعد، حين انتهت الضجة، التفت لي شهاب وابتسم بفرح.

- «لك يد في هذا إذن، كان علي أن أعرف.»

نظرت لتبر وابتسمت، أزعجتني قليلاً نظرة شهاب تجاهي، لم أرد أن تفتح نظرتي باباً للمترصدين ومحبي الشائعات، مقصدي كان واضحاً، أن أعين الصغير على التقرب من أخيه، وهو ما وضحته لتبر. نودي اسمان آخران، ولما حان دور ساري، وجدت الكثير من التصفيق الحار والهتاف على عكس ما تصورت، لكن تجاه نظرات المشجعين كشفت لي السر، لقد كانوا ينظرون إلى وادع، مقصدهم واضح، معاندة وادع! نظر ساري لوادع بضحكة ساخرة، لكنه أشار على الجمهور، كأنه يقول: (أترى هذا السخف؟)، ابتسم وادع بتردد، وأكبرت هذا التصرف من ساري، لم يدع مجالاً للشياطين لممارسة هواياتهم، وهو ما فهمه الصفراويون حالاً؛ فجعلهم يقطعون هتافاتهم بامتعاض. لكن شخصاً لم يصفق ولم يشجع، نظرت لتبر بضيق وأنا أهتف:

- «هيه! ألم تنفق على...»

- «ششششش! هل رأيت ما رأيته؟»

تنبّهت إلى تجاه نظراتها، كانت تنظر إلى السوق القريب، وراء المنعطف تحديداً حيث يستقر دكان العم جواد، عدت أسألهما باستغراب عما رأته؛ فقالت بريئة:

- «لست واثقة، لربما كنت أتوهم برغم كل شيء.»

- «ماذا رأيتِ بالتحديد؟ قولي!»

- «كأنني لمحت ضوءاً خافتاً من نافذة مخزن الدكان، لكن...»

مطت شفيتها كأنها غير متأكدة، ألقىت نظرة أخرى على الدكان وعدت لمتابعة المسار، وقد تعزز ظني بحتمية حدوث كارثة وقت السباق. انطلق الشيخ عامر يشرح القواعد والقوانين، وأمر صبيين بإحضار أحواض الزراعة لوضعها في أماكنها المخصصة، وهو ما يقيد المتسابقين بكمية محددة من التربة وظروف التهوية وأشعة الشمس وغير ذلك، كنت أراقب تعابير الوجوه وأحاول استشفاف ما يدور في خلد الآخرين بدلاً من الاستماع إليه كعادتي، حين هزنتني تبر بعنف هذه المرة.

- «لقد تكرر الأمر، رأيته؟»

- «ما هو؟»

- «الضوء يا غيم! هناك في النافذة!»

نظرت إلى الدكان بتدقيق، كانت تلك الجهة مظلمة في هذا الوقت، حتى البهاليل لم يكونوا مستيقظين؛ لأن موعد حفلتهم التالية سيبدأ باكراً، قلت لتبر محاولة عدم إظهار الاستخفاف في صوتي:

- «تبر، لربما كان انعكاس شيء ما في داخل الدكان أو...»

أخرستني نظراتها النارية.

- «لا يمكن أن تكوني حمقاء إلى هذا الحد، صح؟ أقول لك إنني أرى

الضوء من هنا! عن أي انعكاس تتحدثين؟»

ابتلعت ريقِي بارتباك، وهمست:

- «ما الذي تريدان قوله؟»
- «لننهض ونرى ما هنالك.»
- «لَمْ تذهبين إذن؟»
- «بمفردي؟!«
- «تبر خائفة؟!«

فلتها باستخفاف مصطنع؛ فقالت بغیظ من بین أسنانها:

- «من تحسینني؟ غیم التي تذهب إلى أي مكان وتتبع أي أحد وتزور أشخاصًا لا تعرفهم بین الجبال دون أن يهتز لها جفن؟»
- «لحظة، كيف عرفتِ بأمر ال...»

فلتها بصدمة؛ فابتسمت بانتصار وغموض، ألقينا نظرة على أمي وخالتي، ثم نهضنا في غفلة منهن، اقتربنا ببطء وتوجس من الدكان، وكانت تبر تشبث بذراعي بطريقة مثيرة للأعصاب مع كل نسمة رياح عابرة أو حفيف ورقة شجر، لم أتوقع أن أكون أشجع منها. حين أصبحنا على بُعد خطوات من الدكان رأيت ما كانت تتحدث عنه، بالإضافة إلى أصوات الخطوات والهمسات الواضحة، هناك أحد في الداخل، ليس في دكان العم جواد وحده، بل في معظم الدكاكين المجاورة!

- «غیم، الأمر يزداد خطورة، يبدو أن هناك عددًا كبيرًا.»

قالتها تبر هامسة، واستطعت الإحساس بها تحاول منع يديها من الارتجاف بصعوبة، أو مأت موافقة، الاستمرار منذ هذه اللحظة ليس خيارًا حكيمًا. تراجعنا عدة خطوات بهدوء ما استطعنا، لكن شخصًا ملثمًا قفز من إحدى النوافذ على حين غرة، اصطدمت عيناه بنا فأسرع من حركته، في حين

انتهى مقدار ما نحمله من تماسك، صرخت تبر بأعلى صوتها، ممتاز، الصوت سيصل إلى الجميع مؤكد، سمعت عدة أصوات عالية تصرخ:

- «هناك متسللون في الدكاكين..»

وقبل أن تتمكن أنا وتبر من الاستدارة والركض، حدث شيء جنوني: سمعنا صوتاً عالياً، أعلى من أي صوت سمعته من قبل، إلى حد أنه صمّ أذنيّ لبضع ثوان، تزامن معه تطاير أجزاء من أخشاب الدكاكين وحديداتها، أساسات الدكاكين تتطاير في السماء بقوة اندفاع مهولة! كان كل شيء في حالة فوضى شبيهة بالكوابيس، بالإضافة إلى نيران مسعورة اشتعلت في كل ما حولنا، الدخان أعمى عينيّ، وصعب عليّ التنفس، بالإضافة إلى محاولة تفادي كل الأجزاء المتطايرة و.. يا أرحم الراحمين! كيف ومتى حدث هذا؟! لا أدري. فقط رمشت بعينيّ؛ لأجدني بين لحظة وأختها محاصرة داخل النيران! لا أرى تبر حولي، والأصوات تتداخل وتطن في أذنيّ فتؤلمني، رأسي يدور وأتنفس بصعوبة، فضلاً عن إمكانية الصراخ. طارت صفيحة معدنية كبيرة وثقيلة من مكان ما، وهبطت فوق رأسي تماماً، لا يفصل بيني وبينها إلا إصبع واحد، علقت بين خشبتين مائلتين وجدتا هناك من لطف الله، وأوقفنا رحلتها لتحطيم رأسي، خاننتي قدماي، هذا كثير! النيران مشتعلة أمامي، متشبثة بقطع من الخشب والأقمشة، وترفع بلا توقف، وتتمدد حتى تكاد تمسني، وأنا عاجزة عن فعل شيء! أشياء كثيرة اصطدمت بوجهي، أحدها دخل في عينيّ لو لم أكن واهمة، لكن وعيي خذلني، سمعت صرخات عالية تنادي اسمي، إنه أبي، فتحت فمي لأجيبه فلم يخرج صوتي، وقبل أن أغمض عينيّ بثانية؛ رأيت شخصين يظهران كالأشباح أمام ناظريّ، كانا يبعدان الصفيحة من فوقيّ، بينما يهرق آخرون المياه على النيران.

- «إنها هنا يا عمي، ارفعوا معي!»

كان هذا آخر ما سمعته بصوت أنور، ثم أطفأ أحدهم الضوء.

لماذا يستنفد رفع الجفون -مجرد رفعها- هذا المجهود الجبار؟ لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن أنجح في ذلك، بآلم مفرع لا يخترق عيني فقط، بل ورأسي وجسدي كله، وصدرتي مع كل زفير وشهيق. استطعت -من أول لمحة- رؤية أثاث غرفتي، خزانة الثياب، المكتب مع مقعده، ورف الكتب الصغير الذي ثبته، حركت عيني بصعوبة دون أن أحرك رأسي، لأنظر إلى ظل أضيض إكليل الجبل من وراء الستائر المسدلة، بينما أشعة الشمس تتسلل من بينها باستحياء باعثة أنواراً دافئة في الغرفة. بعد عدة محاولات استطعت فتح عيني بشكل كامل، دلفت أمي إلى الغرفة بالتزامن مع ذلك، وحين رأت عيني مفتوحتين شهقت بلوعة، هرولت تجاهي بعينين دامعتين وهي تصيح مراراً:

- «الحمد لله، تعال يا مدرار، غيم استيقظت!»

ضممتني بحرارة في حين استطعت سماع صوت خطوات أبي تقترب بسرعة، متزامنة مع صوت دقات قلبي العالية في أذني، كنت أشعر بتعب فظيع لم أختبره من قبل.

- «لقد غبتِ عن الوعي ليلة كاملة، كاد عقلي يطير من مكانه! قال الحكيم إنك ستكونين بخير لكنني لم أستطع الاطمئنان.»

مسدت شعرها بيدي، كنت أحاول التحدث لكن ذلك استغرق مجهوداً أكثر من المعتاد. وصل أبي أخيراً، توقف عند باب الغرفة ونظر إلي بلهفة وهو يضع يده على قلبه، اقترب مني وجلس على ركبتيه جوار الفراش وأمسك بيدي وهو يقول هامساً:

- «كيف حالك؟ أنت بخير؟»

بصعوبة هزرت رأسي، قبل يدي وهو يقول بحرارة:

- «الحمد لله على سلامتك.»

رفعت يدي اليمنى أمسك برأسي، أردت أن أشير لأبي على موضع الألم فيه، لكن يدي ميزت وجود قماشة غريبة تغلف عيني اليسرى.

- «اهدئي، لقد جرحت، جرح ملاصق للعين تمامًا، لولا لطف الله ربها كان... الحمد لله، الحكيم قال أنك بخير، ووضع لك مرهمًا خلطه من الأعشاب من دكان جواد لتهدئ الألم، وهذه القماشة لتسهّل امتصاص الجرح للمرهم فقط.»

إذن كان كل هذا المجهود لفتح جفني عين واحدة! كدت أتحدث لولا أن انطلق السعال يقتلع صدري من محله، لسبب ما قفزت في ذهني صورة الحالة ودود في حالة مشابهة، لكن سبب ألم صدري كان الدخان الكثير الذي استنشقتة.

- «لا بأس، ستكونين بخير يا جميلتي.»

- «ظننتني فقدت عيني.»

قلتها بصعوبة.

- «حمالك الله من كل مكروه يا ابنتي.»

نظرت لأمي ووضعت يدي على يدها أطمئنتها، الحمد لله، أنا بخير فعلاً، وكل هذا التعب لا يحتاج إلى ما هو أكثر من الراحة.

كان منظر أبويّ وهما يطالعاني بهذه اللفهة والذعر يمزقني، وبصعوبة استطعت مغالبة شعوري بالذنب، لم تكن لي يد في ما حدث، وحتى لو لم أتجه

إلى الدكاكين أنا وتبر كان من الممكن أن أصاب، لقد وصلت النيران والقطع المتطايرة إلى حدود بعيدة، ربما ليس كما لو كنت واقفة وسطها لكن...

- «لا تلومي نفسك يا غيم.»

- «ما كان ذلك؟»

شرد ذهنه لثانية، ثم أطبق على يدي بكفيه وهو يجيب بلطف:

- «لا تشغلي بالك، استرخي، لا شيء سيفوتك.»

- «لقد حُضرت الطعام، هل تأكلين؟»

هززت رأسي سلبيًا، كنت أشعر بعيني تنغلق بقوة خفية، ومقاومة إغماضها كان صعبًا.

- «أريد أن أنام، لكن.. القليل من الماء إذا سمحت.»

نهضت من فورها مهرولة للخارج، أغمضت عيني ورحت في النوم تقريبًا، بعد مدة سمعتها تضع الكأس جوار فراشي وتنبهني؛ فهزرت رأسي -أظنني فعلت- دون أن أفتح عيني، شعرت بأبي يترك يدي، يرفع الغطاء ليحكمه علي، ثم يغلق الفجوة بين الستارتين لينتشر الظلام، ويغلق باب الحجرة.

- «أظنكِ نمتِ كثيرًا جدًّا، أكثر من اللازم، صح؟»

فتحت عيني بانزعاج إثر هذه العبارة الساخرة، نظرت إلى صاحبها الجالس مبتسمًا على فراشي، مديده ووضعها على رأسي وهو يقول:

- «كيف أصبحتِ يا جاذبة المشاكل؟»

- «المشاكل تجنبني لسبب ما، بدليل أنك تجنبني!»

ضحك بشدة، نظر إلى أمي الواقفة عند باب الغرفة قائلاً:

- «لقد عاد إليها طول لسانها، أصبحت بخير إذن، أخبرتك أن سماع صوتي سيجعلها تتعافى على الفور!»

ابتسمت برغمي، في حين تنهدت أمي في صبر وابتعدت، لا تحب أمي السخرية من المرض أو المرضى، تعامل المرض كشيء مقدس يجب أن يُعامل بمنتهى الاحترام والجدية، ولا شيء يبرر لها فعل العكس ولو كان طبيعة ساري السخرة. اعتدلت أحاول الجلوس فأسرع ساري بتعديل الوسادة لتسند ظهري، يراودني شعور غريب حين أرى ساري -الذي لا يهتم بشيء عموماً- يهتم لأمرى ويبدل جهده ليراني مرتاحة، كانت ملاحظة خالتي ودود في محلها.

- «ماذا حدث بالضبط؟»

- «لا أحد يعرف على وجه اليقين، هجوم من ذوي الأعين الزرقاء على الأرجح.»

- «لكن.. كيف؟ ما هو السلاح الذي يمكن أن يسبب هذا الدمار؟»

صمت لبضع لحظات، قبل أن يقول:

- «وجدوا كرات زجاجية متكسرة في مواضع الدكاكين المدمرة، يعتقدون أن هذه الكرات كانت تحوي مادة هي المسؤولة عما جرى؛ لهذا حظروا التجول في طرقات القرية هذا اليوم، ريثما يمشطون بقية الأماكن المتوقع وجود كرات مشابهة فيها، ويفحصون الكرات ليعرفوا ما كانت تحتويه.»

قلت بفهم:

- «هذا إذن ما كان يفعله المتسللون، يدسون تلك الكرات بين البضاعة وفي أماكن مخفية، وهم مطمئنون إلى أن وجود سلاح بهذا الحجم غير وارد في توقع الباحثين، حتى أن وادع حين فتش المخزن بعناية لم يجد أي شيء مثير للريبة.»

هز رأسه مؤيداً؛ فقلت باهتمام:

- «وهل قاموا بإجراء ما؟ مبدئياً يعني.»

ابتسم ابتسامة واسعة، ظننت منها أنه سيقول شيئاً يدعو للارتياح.

- «بالطبع، لقد عزلوا رجل الحماية وطيد من مركزه!»

استولت علي الحيرة، كررت الاسم بارتباك، لعلي لم أسمع بشكل جيد، لكنه أكدّه مجدداً وهو يستمتع بآثار التخطئ على وجهي. قلت بعدم فهم:

- «لكن ما الهدف؟ ما ذنبه هو؟»

- «لقد فتش الدكاكين وأعلن أن كل شيء بخير، وهو المسؤول عن حماية القرية، من الواضح أن الغريب القادم من إحدى قرى المجمع لا يهتم بأمر قريننا كفاية، ولا يأخذ واجبه على محمل الجد.»

- «لكنه أصفر!»

- «لكنه لا يعجب الصفراوية.»

يتحدث باستمتاع طاغ. برغم أن الخبر أغاظني، إلا أنه لم يدهشني، الصفراوية نشأت على الانحياز إلى فئة لم يختار أحدها أن يكون منها، وليس صادماً أن يزداد انحيازها لاعتبارات أكثر وأسخف.

- «أراهن على أن هتر هو المسؤول عن ذلك، هو لم ينسَ شهادته ضده أمام القاضي فيصل، وقد جرت الرياح بما تشتهيهِ سفينته، واستطاع استغلال فجع الناس بالحدث ورغبتهم في إيجاد ما يطمئنهم؛ ليستخدم وطيد كمرمى يوجه إليه الناس لومهم وغضبهم، ويحملونه مسؤولية ما حدث. وبهذا يضرب عصفورين بحجر، يتخلص من وطيد، ومن الفوضى المنتشرة في القرية.»

- «تحدثين إلي كأنني والدك، أنا لا أكثرث لكل هذه التعقيدات حقاً يا غيم، لكنني سأجاريك لأنك مريضة. لماذا تظنين أن هتر يهتم لطمأنة الناس أصلاً؟»

- «هو لا يهتم لطمأنة الناس، بل يحرص على إخمادهم، وتسييرهم على الخطة التي رسمها سيده، دون أن يحدث ما يحيد بهم عنها خطوة. حتى يصل إلى هدفه بسلاسة.»

- «سيده؟! وهدفه?!»

قالها باستغراب واضح، فنظرت إليه بجمود ولم أضف شيئاً.

- «شفاك الله يا غيم. لقد اصطدم رأسك كما هو واضح، أو أنها هوايتك في تحميل الأمور فوق ما تحتل؟»

- «أنا لا أحب أن أكون بلهاء يا ساري، ولا أحب أن يوجد من يتلاعب بمجريات الأمور من حولي في غفلة مني، أحب أن أكون واعية، هذا كل ما هنالك.»

- «تضيعين حياتك في البحث والتدقيق فيما لا يخصك، لا أعرف ما الذي قد تستفيدينه، لكن الأضرار مؤكدة، وليس الصداع أسوأها، صحيح؟»

- « تريد مني أن أتجاهل كل شيء، مثلك؟ »
- « لا أريد منك شيئاً، كانت مجرد نصيحة، لم أعتد أن أقدم النصائح، لكن الاستثناءات لا تضر. »

بقيت أتأمل به بضيق، أتمنى أن أصرّحه بكل شيء وأكشف كل أوراقي، وفي الوقت نفسه أخشى من عواقب ذلك، لا أريد أن أتسرع. فجأة فطنت إلى شيء، قلت بتعجب:

- « لحظة! سبق وقلت إنهم حظروا التجول، كيف أتيت؟! »
- ابتسم ببساطة.

- « القوانين تسري على الجميع، لكن ليس على ساري. »
- « وما الذي يجعلك واثقاً هكذا؟ »

- « أن الجميع يخاف، لكن ساري لا يخاف. »
- رفع حاجبيه باستمتاع؛ فقلت بمكر:

- « أم أن كل شخص له حدود في إخفاء خوفه، إلا ساري، يستطيع إخفاء خوفه إلى النهاية؟ »

ابتسم ابتسامة هادئة ولم يقل شيئاً. داهمتني نوبة سعال فنهض بارتباك وأخذ ينظر إلي عاجزاً عن فعل شيء، أشرت إلى دورق الماء فقفز بسرعة ليصب لي منه، وأثناء حركته المتعجلة، سقط شيء ما من جيبي، وأحدث اصطدامه بالأرض رنيناً خافتاً. قدم لي كأس الماء فجرعته مرة واحدة، كانت آثار الدخان في صدري مزعجة أكثر منها مؤذية، وكنت أشعر بها مع كل نفس كأن هناك تربة تملأ رئتي. انحنى ساري ليرفع ما سقط منه، لم يكن فضولي ليركني في فرصة كهذه، انحنيت بصعوبة ونظرت إلى الشيء، كانت

قطعة مكسورة من كرة زجاجية صغيرة، وقد لُفَّت داخل قماشة مطوية عدة مرات لتحميه من حُدّها، أعاد ساري لفّها بعناية ودسّها في جيبه.

- «أخيراً، يسقط من جيبك شيء غير عرق السوس!» ضحك برغمه.
«أنت تهتم إذن.»

قلتها بابتسامة منتصرة، وأنا أشير لجيبه؛ فقال مصححاً:

- «بل أتسلى.»

استنشقت قليلاً، كانت هناك رائحة غريبة تفعم الجو الآن.

- «ما هذه الرائحة؟»

- «لا أشم شيئاً.»

- «رائحة تشبه.. رائحة العنب، إلى حد ما.»

رفع ساري عقيرته وصاح:

- «يا خالة، أحضري صحنًا من العنب لغيم، إنها تشتيه!»

- «لم أقل ذلك!»

نظر إلي وقال بابتسامة سمجة:

- «هذا هو التفسير الوحيد لاشتياهم روائح غير موجودة.»

نظرت له بملل لأؤكد أن رأيي في دعاياته لم يتغير، ازدادت ابتسامته اتساعاً ونهض وهو يقول:

- «على أي حال، علي أن أذهب، تريدني شيئاً؟»

- «سلامتك، وأوصل سلامي لخالتي ودود.»

أوماً موافقاً، ثم استدار ليخرج.

- «ساري، ماذا ستزرع؟»

- «عرق سوس، ربما.»

قالها ضاحكاً، ألقى نظرة على مكتبي أثناء سيره؛ فوقع بصره على كتاب التاريخ المنسي الموضوع هناك.

- «حتى الموتى ستلاحقن أسرارهم؟»

- «ربما كي لا أسقط في نفس الحفر التي سقطوا فيها؟»

- «الحياة أقصر من هذا بكثير يا غيم.»

- «بل هي أقصر من أن نجرب طرقاً ثبت عدم صلاحيتها من قبل، لمجرد أننا لا نريد إزعاج أنفسنا بالاستفادة من الماضي.»

هز كتفه وأوماً برأسه كأنها يقول أن هذا معقول، رفع يده مودعاً وخرج. وراءه مباشرة نهضت، ترنحت قليلاً إثر رقودي الطويل في فراشي، والدوار الذي لم يفارق رأسي، لكنني رأيت أن هذا كان كافياً كوقت استراحة، تسندت على الفراش والأثاث أثناء سيرتي حتى وصلت إلى المكتب، ارتيمت على المقعد وفتحت الدرج لأخرج دفترتي، كنت بحاجة ماسة إلى كتابة شيء ما.

«كان هناك ثلاثة أشخاص: جبان، وأحمق، وجبان أحمق. اعتاد الجبان حين يعترض طريقه أحد، أو يتعدى على حقوقه من هو أقوى منه، أن يسرع ليختبئ في جحره الخاص كالفئران، ولم يحاول يوماً أن يغير من ديدنه، أو يحاول العيش بهامة مرفوعة، ولم يسمح لعقله بمجرد التفكير في خيار مشابه. أما الأحمق؛ فقد اعتاد أن يتسرع في قراراته، ويفعل ما يعنّ على باله دون

كثير تفكير؛ فكان يستل سيفه ما إن يعترض طريقه معترض، ولو بغير عمد، وكان يمزق كل حبال الود مع أول نزاع، ولم ير في أفعاله بأساً ولا ضيراً، وكان راضياً عن حماقته تمام الرضا. وأما الجبان الأحمق؛ فإنه كان جامعاً لأسوأ ما في سابقه، وكان يتبع أسلوباً فريداً في الجمع بين الصفتين، كان يتعدى المتعدي على حقوقه فيهرع الجبان في داخله للجحر، لكن الأحمق يتحضر لفرض شخصيته؛ لذا كان الجبان الأحمق يترك القوي المتعدي ويفرغ غضبه في جهة أخرى تماماً، في أحد يقل عنه قوة ربا، وفي الأغلب لا يكون مسبباً لأي ضرر، ولا لإيذائه أي معنى، اللهم إلا كونه يرد للجبان الأحمق شيئاً من اعتباره الوهمي، ويجعل الأحمق نافخاً صدره شاعراً بأهميته، والجبان مطمئناً إلى سلامته بعيداً عن كل مواجهة أو شرف.

نهاية القصة: مات الجبان متعفنًا داخل جحره، في حين كان أعداؤه يستمتعون بأراضيهِ وأملاكه، دون أن يتذكروا أصلاً لمن كانت. قتل الأحمق في شجار مع شخص لم يجب أن يتشاجر معه، ولسبب لم يستحق أن يتشاجر لأجله، ولم يهتم أحد لمناصرته؛ لأنه كان قد قطع أواصر المحبة بينه وبين الجميع، ولم يترك باباً يمكن أن يدخل منه أحدهم إليه مفتوحاً. أما الجبان الأحمق؛ فإنه لم يمت ولم يقتل، بل بقي حياً داخل ذكريات الجميع، يلعنه جلاده وضحيته، ينظر إليه جلاده بعين الاحتقار، وتنظر إليه ضحيته بعين الرغبة في الانتقام؛ فلا هو حقق شرفاً في دفع ظالم، ولا سلم منه بريء ألقى به حظه العاثر داخل نزال افتراضي بين مختل ونفسه، ولا أرضى غرور نفسه المريضة وأنزلها المنزلة التي طمعت فيها.

ألقيت الريشة من يدي التي بدأت تنبض من الألم، لدي عادة سيئة في الضغط على الورقة بكل قوتي أثناء الكتابة، خاصة حين يكون ما أكتب عنه شيئاً يستدرّ عاطفتي. أغلقت الدفتر ولم أهتم بقراءة القصة؛ فأنا أعيش

أحداثها بالفعل. دخلت أُمِّي حاملة صحن العنب؛ فطلبت منها أن تساعدني لأنزل وأجلس معهم في الأسفل، لم يعد لدي مبرر أمام نفسي للرقود في الفراش.

قضيت اليوم كله أَدور في المنزل بلا توقف، بعدما عادت إلى قَدَمِي ذاكرتها في كيفية المشي، لم تعجبني فكرة أن نبقى حبيسي المنزل دون أن نعرف عما يدور في الخارج شيئاً، لا أعرف أكان مبعث ذلك الشعور الفضول أم المسؤولية، لكنني كنت أتحرق شوقاً للخروج وإكمال تحريّاتي، في ظل الظروف الأخيرة خاصة.

- «لا ترحمين نفسك، حتى في أعتى الأوقات!»

- «أعتى الأوقات لم تحن بعد يا أبتِي، ستحين لو لم نتحرك!»

أحاطني بذراعه في حنان، وأجلسني جواره على الأريكة وهو يقول بابتسامة لطيفة:

- «أُتعلِّمين ما مشكلتِك يا غيم؟ أنكِ تحيدين علاج مشكلات الآخرين بمهارة منقطعة النظير، وتعجزين -أو تغفلين- عن فعل المثل مع نفسك، وتعطين كل طاقتكِ واهتمامكِ لمن حولكِ، وتؤثرينهم على نفسك.»

- «اعذرنِي يا أباي، لكنني لا أراها مشكلة.»

- «كل شيء -مهما بدا جيِّداً في بدايته- يمكن أن يتحول إلى مشكلة، في اللحظة التي تفرطين فيها في أدائه، وتجعلينه يأكل -بفضلك- حق شيء آخر في الاهتمام.»

لم أقل شيئاً؛ فضمني وهو يضيف:

- « لا زال الاهتمام بنفسك أولوية، ولا زال حق نفسك عليك ملزماً، وإن أبيت إلا أن تقدمي شيئاً للآخرين؛ فأرجي نفسك من منطلق أن تكوني قوية بما يكفي لمساعدة غيرك!»

تنهدت بقوة وابتسمت وأنا أقول:

- «سأحاول.»

أبعدني عنه برفق ونظر إلي قائلاً:

- «هل تخططين لفعل شيء بعينه الآن؟»

- «عدا التفكير، لا شيء.»

ابتسم ونهض وهو يقول:

- «إذن، ما رأيك في تقديم المساعدة لي؟ علي تحضير الدروس التي سأعطيتها للصغار غداً في الدار، مع كل دقيقة تمر، أجد أن هذه المهمة تزداد صعوبة وتعقيداً، وأن كم المعلومات التي كانت بديهية فيما مضى، وأصبح الجهل بها مدقاً هذه الأيام، أكبر من أن تكفيها الدروس في كل صباح.»

- «لكنني أراك تصبح أكثر اجتهاداً وإصراراً في توصيل كل معلومة يجب على الأطفال معرفتها، وهذا كاف.»

- «المسألة في اختيار الأهم، ما الذي يجب تفضيله وإعطاؤه الأولوية للشرح وما التالي مرتبة.»

- «ستساعد إذن، والله المستعان.»

نهضت معه حين أوقفني صوت أمي من ورائي:

- «مدرار، أتشغلها بدلاً من أن ترسلها إلى فراشها لترتاح؟»

- «النوم والفراش ليسا السبيل الوحيد لمعالجة كل أنواع التعب يا أماء.»
- «أين سمعت هذه العبارات من قبل؟»
- تبادلت مع أبي النظرات وأخذنا نضحك، قالت أمي وهي تغالب الضحك:
- «أي نوع من الآباء تكون؟»
- «النوع الأفضل؟»
- قلتها بابتسامة مسرورة؛ فابتسمت أمي برغمها، قرص أبي خدي وهو يقول لأمي:
- «كلانا يحرص على الشيء نفسه يا رؤوم، أنتِ تريدين راحتها وأنا أريد ذلك بلا شك، كل ما هنالك أنني أبحث عن الشيء الذي أعرف أنه سيريحها، غيم لا تكف عن التفكير يا رؤوم، ولو بقيت في فراشها فإن تزاحم أفكارها على عقلها سيزداد ضراوة، أما في حال صحبتها لمساعدتي؛ فإن عقلها سينشغل بما نفعله وسيأخذ استراحة قصيرة من دورانه المستمر.»
- أطالت أمي النظر إليه، ثم رفعت كفيها في استسلام.
- «دائماً تهزمني.»
- قهقهه أبي بمرح، في حين نظرت إليه وضيقت عيني قائلة:
- «كلانا كان مدرِّكاً لحقيقة خطتك، لكن أكان عليك قولها بهذه الصراحة؟ لا أحب أن أخدع، خاصة برضاي!»
- «وهل يُخدع أحد برضاه يا غيم؟»
- «بالطبع! لو تأملت أحوال أهل القرية يوماً واحداً يا أبي لفهمت

مقصدي، يمكن للمرء بسهولة تعطيل عقله عن التفكير وترك أي خدعة تنظلي عليه، في حال ضمن له ذلك جلب مصلحة أو دفع نصب من أي نوع، بل ويكون مستعداً للفتك بأي أحد تسوّل له نفسه كشف تلك الخدعة؛ لأنهم لا يريدون مواجهة أنفسهم بالحقيقة، ولا تحمّل مشقة ما سيستتبعه ذلك من محاولات لإعادة اعتبارهم. وبناءً على ذلك: المخدوعون لغفلة أو جهل يمكن أن يعودوا للحقيقة ما إن ينتفي سبب غفلتهم وجهلهم، أما المخدوعون برضاهم، لا أمل في إيقاظهم!

تبادل أبي وأمي النظرات حين أنهيت كلامي، تنهدت أُمّي وقالت:

- «أظن أن عليك الإسراع بإشغالها.»

- «أظن ذلك أيضاً.»

ثم ضحكنا معاً.

مرّ اليوم بمعجزة، بطيئاً ثقيلاً كأنه يزحف زحفاً، أو لعله أشفق علينا مما سيُتلوه فأحب تأجيل موعد لقائنا به. قفزت من الفراش صباحاً، كأس شاي بالحليب مع قطعة من البسكويت، من ثم هروب سريع قبل أن تمسك أُمّي بي. كان أبي قد خرج إلى الدار باكراً كعادته، أول من يصل وآخر من يغادر؛ يحاول استثمار كل لحظة في تدريس الأطفال وإفادتهم. اصطدمت بي أشعة الشمس الساطعة بمجرد خروجي، كأنها تضمّني بشوق، أو تعاتبني بقسوة على غيابي ليوم كامل، سرت أسفلها على سبيل المراضاة والطمأنينة، سأعوّضك وسأحرص على أن نظل معاً، أي زميلة المهنة، أنتِ تحمين الظلام، وأنا أمحو الغموض عما يجب أن يتضح.

لا أظن من الصعب تخمين وجهتي، السوق بلا حيد، يجب أن أرى ما آلت

إليه الأمور هناك، ما إن لاح موضع دكان العم جواد أمامي حتى أسرع خطواتي حد الهرولة، لقد غيّر الدمار معالم المكان، حتى أن التأكد من أنني وصلت إلى وجهتي استغرق مني وقتاً أطول من المعتاد. ما إن اقتربت لمحني وادع، أسرع نحوي راكضاً وهو يقول بحرارة:

- «غيم، الحمد لله، أنت بخير!»

- «الحمد لله.»

وضع يده على كتفي وبقي يتأملني باضطراب وقلق؛ فعدت أؤكد له بصدق أنني بخير. ألقيت نظرة على الدكان، أعني على بقايا الدكان، لم يبقَ إلا جدار واحد، مائلاً، والرفوف متهدمة تكللها الأعشاب والبذور المختلطة والمفتتة.

- «الחסائر كبيرة؟»

- «أكثر مما تصورنا، الحمد لله على كل حال.»

زمت شفتيّ في أسف، يتضررون من أذى الصفراوية، ومن أذى الزرق، وكله لأنهم حاولوا طلب رضا الله، ولو في سخط الناس. ثم قلت في نفسي بابتسامة معنوية: الجميع طاله الأذى، أصفر وغير أصفر، الصفراوية والزرق آذوا الجميع، لكن النية تختلف، ومن طلب رضا الله فإن الله لا يضيعه.

فجأة شعرت بنفسي أغوص في حضن أحدهم، كانت تبر تضميني بحرارة واستغرق ذلك مدة طويلة جداً، لم تكن تقول أي شيء، وحين ابتعدت عني أخذت تنظر إلي بعينين دامعتين، قالت بعد تنهيدة ارتياح:

- «الحمد لله، كنت لأشعر بالذنب ما حييت لو أن مكروهاً أصابك،

أرجوك أن تسامحيني!»

- «أسامحك؟ على ماذا؟»

قالت بآلم:

- «أنا السبب، لم يكن علي أن أجركَ معي إلى تلك المنطقة، لقد عرضتك للخطر لأنني كنت أجبن من الذهاب وحدي.»

ابتسمت وقلت برفق:

- «عزيزتي تبر، أنا مستعدة لتقديم روجي ثمنًا لثلا يصاب أحدم بخدش واحد، ثقي أن هذا أفضل لي ألف مرة من أن أراكِ أنتِ المصابة، بالإضافة إلى أنني بخير تمامًا، والحمد لله!»

مسّت القماشة الملفوفة حول عيني اليسرى وقالت بارتباك:

- «ما خطب عينك؟»

- «ليست عيني، بل جرح جوار عيني، وهو سطحي وأمره سهل، القماشة لتعزيز دور المرهم ليس إلا، سأنزعها مساءً.»

هزت رأسها عدة مرات وبدأ أنها تحاول إفراغ توترها. قلت بحيرة:

- «ما الذي أتى بك؟»

- «نفس الذي أتى بك، لا أطيق البقاء في المنزل، رغم أن الخروج لرؤية تلك الوجوه الكالحة أشد كآبة من ذلك، على أي حال، التجديد مطلوب، بين كل نوع من الكآبة وآخر.»

وافقتها ضاحكة، قالت وهي تسحبني من يدي لنبتعد عن فوضى الرجال المتعاونين في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، والذين انضم وادع إليهم:

- «لم تجدي الجراب حتى الآن؟»

- هزرت رأسي سلباً، شيء إضافي يستدعي الحزن كنت قد نسيتَه.
- «لا تشعرني بالأسف، سبق وأخبرتكَ أنني سأخيط غيره.»
- «أنا لا أشعر بالأسف يا تبر، بل أشعر بثلاثة (أسفات) لو صح التعبير. مرة لضياع الجراب، وأخرى لضياع حبات السبحة، والثالثة لأنني بحثت في كل مكان ممكن ولم أجدها!»
- «قَدَّر الله وما شاء فعل. لا توجد خسارة غير قابلة للتعويض.»
- «من قال ذلك؟»
- «أبي، قبل عشر دقائق، حين رأى ما حدث للدكان.»
- رجل عظيم، متسامح، كريم، طيب، مؤمن، سيعوّضه الله عن كل ما أصابه، هذا يقين، وهي ليست إلا مسألة وقت. سألت تبر:
- «ما مجموع الخسائر؟ وما مجموع الاحترازمات المقررة؟ غير فصل الحامي وطيد.»
- «أولاً، فصل جميع رجال الحماية من غير أبناء قرية المروج.»
- «إنه الجنون إذن، ماذا بعد؟»
- «قاموا بتوزيع رجال الحماية حول حدود القرية، ونظّموا ورديات حراسة لرصد أي حركة مريبة أو متسللين مشاهين في أي مكان من القرية، لا أعرف كيف سيعرفونهم مع كل أصناف الناس الوافدين لأجل احتفالات البهاليل أو الدراسة في دار المنارة، لكن هذا ما قرروه.»
- «وكيف يفترض برجال الحماية أداء عملهم على وجه كامل مع فصل قائدهم بشكل مفاجئ ووسط هذه الظروف العاتية؟ أكان الوقت مناسباً لقرار كهذا؟ ثم أي عقل هذا الذي اقترح التخلص من نسبة تساوي ثلث

عدد رجال الحماية أو أكثر في وقت نحتاج فيه إلى كل فرد؟ هل سيعتمدون على الشباب المتطوعين من أمثال ساري ووادع حين يجدّ الجدّ، لمجرد أنهم متحيّزون ضد الرجال المتمرسين المخلصين؟»

- «غيم، أنت تتحدثين بالمنطق، الذي هو أبعد شيء عما يدور في القرية؛ لذا، أريحي رأسك، لا حياة لمن تنادين.»

تنهّدت بغیظ، إنها محقة، ما الأثر الذي يفترض بالحوار المنطقي تحقيقه في قرية يُقدّم فيها رأي المهتر على آراء الشيوخ والعلماء؟

- «لا زال هناك المزيد، عربة البهاليل، ستقيم احتفالاً، مساءً.»

- «أي مساء؟ مساء اليوم؟!»

هزت رأسها. قلت بدهشة:

- «أهذا وقته؟ بعد المأساة التي حدثت منذ يوم فقط؟!»

- «لم يُمّت أحد، والناس بحاجة إلى ما يروّح عنهم. كلفتة إنسانية: تم تخفيض أسعار القطع الخشبية.»

- «بل إلى ما يخدّر مشاعرهم، لقد مُسَخ الناس وفقدوا آدميتهم.»

- «إلا من رحم الله.»

هزّزت رأسي بصمت، هذا يفوق التخيل، إلى أي حد وصل الاستهتار بشخص يفقد مصدر رزقه في يوم ثم يذهب ليحتفل في اليوم الذي يليه؟ لنقل إنه جيد بهذا القدر في امتصاص الصدمات، ماذا عن خطر ذوي الأعين الزرقاء الذي بات أقرب إلينا من أي وقت مضى؟ أهذا استعدادنا؟ الاحتفال؟

- «أوه أجل، الجانب المشرق!»

- «أجل أرجوك!»
- «أمر أنور بإعطاء مبلغ تعويضي لكل من تضرر من الهجوم، وسيجري توزيع التعويضات صباح الغد.»
- «الحمد لله، قرار قيّم أخيراً!»
- صمتُ لحظة ثم قلت باندهاش:
- «لم أنور؟ أين الحاكم؟»
- «فاقد للوعي، منذ يومين، لكن هذا سر بالطبع.»
- قالتها تبر همساً، لا بد أنها نقلت الخبر عن وادع، عن أنور.
- «ما خطتك لليوم؟»
- «لا توجد خطة بعينها، ما رأيك في مكتبة الدار؟»
- «لا بأس بهذا، أفضل من فعل لا شيء.»



عند المدخل الجانبي لمكتبة الدار من ناحية القسم النسائي، تصادف وجود طفل يركض ركضاً أقرب إلى التحليق، كانت بيني وبين الاصطدام به خطوة واحدة، لولا أن توقف فجأة وضممني بحرارة، تبادلت نظرات متسائلة مع تبر ثم حوّلتها إليه.

- «كيف أشكرك يا غيم؟ منذ اليوم الذي قابلتني فيه وأهديتني كنانة السهام والقوس، وحياتي تسير على نحو أكثر جمالاً في كل يوم، أنت لم تهديني القوس والأسهم فحسب، بل علمتني كيف أسدد أهدافاً صحيحة أيضاً!»
- تبادلت نظرة أخرى مع تبر، لكنها مذهولة هذه المرة، كان تعبيراً أصعب

من أن يخرج من طفل بهذا العمر، وبغض النظر عن ذهولي، لقد شعرت أنني أكاد أطير من فرط سعادتي. كل ما فعلته لشهاب لا يساوي نصف ما أهدها هو لي بعبارته هذه!

- «أدام الله السعادة في أيامك يا صغيري، وسددك دائماً، وهداك إلى الأهداف الصحيحة، ووفقك في تحقيقها.»

ثم انحنيت لأصبح في مستواه، وأضفت بابتسامة:

- «خيرًا، أَلن تسعدني معك؟»

- «أنور يا غيم، لقد أصبح مسرورًا جدًا مني، التقيت به وتحدثت معه كما نصحتني، واعتذرت له عن كل ما فات، ووعدته بأن أتصرف بشكل مختلف من الآن فصاعدًا. خمني ماذا؟ لقد ضمنني بقوة وقبل رأسي، وقال إنه فخور بي، وواثق بأنني سأحقق أشياء عظيمة في القادم، وأنه سعيد لأنني أخوه!»

- «الحمد لله، بشرك الله بكل خير يا شهاب، إذن تبين أن كل ما ظننت أن أنور يعتقد به بشأنك كان خاطئًا.»

هز رأسه بحماس؛ فقلت بنبرة ذات مغزى:

- «لكنك قلت إنك سمعته بأذنك يتكلم عنك بسوء، أتذكر؟»

طأطأ رأسه بنوع من الخجل، وقال:

- «كنت أكذب كي أحظى بتعاطفك، الحقيقة أن أُمي هي من سمعته، وهي من أخبرتني بذلك.»

للمرة الثالثة تبادلنا نظرات مع تبر، مغتاطة الآن، بصعوبة أُلجمت نظراتي الحادة وقلت بابتسامة:

- «المهم أن علاقتك بأخيك ستتحسن بإذن الله، لكن في القادم، وكما أن الشهادة بما حضرته واجبة، كذلك لا يجوز لك قول إنك شهدت شيئاً دون أن تكون شهادته، اتفقنا؟»

- «اتفقنا.»

تجاوزني بخطوتين سريعاً، ثم استدار إلي قائلاً بابتسامة عريضة:

- «أخبرني أنور أنه سيوصي وسم بإعداد كمية من الحلوى تكفي جميع أصدقائي، وسينتهي وسم من إعدادها عند الظهيرة، لا أستطيع الانتظار حتى أرى ردود أفعالهم حين أوزعها عليهم.»

ابتسمت بسرور، أسعدني أنني كنت سبباً لكل هذه الفرحة في قلب الصغير، وكنت طريقاً لتوثيق علاقة أخوين كان من الممكن أن تنقطع للأبد بسبب حلية الوسوسة.

- «بالمناسبة يا غيم، لقد سألتني أنور عما حدث وجعلني أتغير؛ فأخبرته أنك من تحدث إلي، وأنتك أرشدتني إلى كل تلك التصرفات الجيدة، وأنتك من أشار علي بالتحدث إليه.»

قالها واختفى من أمامي، فيما كانت أذناي تطنان بطريقة فظيعة.

- «غيم، يا غيم! تبدين كما لو أن أحدهم صفعك على وجهك!»

أمكنني معرفة ذلك، عن طريق الحرارة العالية التي أشعر بها في خدي وأذني. سحبني تبر خلفها حتى دخلنا المكتبة، وبصعوبة استطعت العودة إلى الواقع، لقد وضعني شهاب في موضع لا أحسد عليه، ولا أثق بأن مقصده كان بريئاً تماماً حين قال لأنور ما قاله.

في المكتبة وجدنا ما لم نتوقعه، احزروا ماذا؟ المعلمة رؤية! سلّمنا بصوت

عال ودخلنا، سألتني المعلمة عما حدث لعيني وخديّ، فأجبتها عن الأولى مع إخفاء دهشتي لعدم وصول الخبر إليها، دعت لي بإشفاق وحمدت الله على سلامتي، ثم سألت عما حدث لكتاب التاريخ المنسي؛ فأخبرتها أنني على وشك إنهائه، وأنني أنوي قراءة شيء في مجال مختلف أثناء وجودي في الدار، رشحت لي كتاباً جيداً في اللغة، جلست أقرأ صفحاته في حين نهضت تبر تطالع الكتب لبعض الوقت، بعد قليل التفتت إلينا وقالت بتبرم:

- «العناوين كلها معتادة، وتدور في فلك العلوم التي سبق واطّلعتنا عليها أثناء دراستنا، معلمتي، أنا سريعة الملل حقاً، وهذه الكتب لن تساعدني بهذا الشكل.»

- «ليس إن بحثت في الصفوف الخلفية المخفية، معظم الكتب المختلفة تختبئ هناك.»

قالتها المعلمة دون أن ترفع عينيها عن كتابها، بفوضوية أراحت تبر الصّف الأول من الكتب ونظرت وراءه، استغرقت عملية إبعاد الكتب والاطّلاع على العناوين الخلفية وقتاً لا بأس به، قبل أن تتمم تبر بغير اقتناع وهي تسحب كتاباً:

- «ربما سيفني هذا بالغرض.»

جلست إلى طاولتنا ووضعت الكتاب بقوة، رفعت المعلمة بصرها لتنظر إلى الفوضى التي أحدثتها تبر في الرفوف.

- «ستعيدان كل شيء إلى ترتيبه السابق قبل ذهابكما.»

- «بالتأكيد يا معلمتي.»

قالتها تبر وهي تحرك حواجبها لتغيظني، فوكزتها وأنا أهمس من بين

أسناني:

- «ما شأنِي أنا؟»

ضحكت باستمتاع ثم توقفت تحببًا لإزعاج المعلمة، مر وقت لا بأس به ونحن منهمكات في القراءة، وبدأ لي كتاب اللغة الذي فتحته حقلاً مليئاً بالجواهر التي تنتظر من يجمعها، أحببت فكرة أن مجرد تغيير حركة أو إزالة نقطة أو تحريك موضع حرف يمكن أن يصنع هذا الفرق الهائل بين المعاني، ولسبب ما، خطري أن هذا لا ينطبق على الكلمات فقط كمصطلحات مجردة لا وظيفة لها إلا شرح الأفكار والمشاهد، بل إنها تحاكي الواقع أو يحاكيها؛ فلرب نقطة أو حركة أو موضع يظهر الفارق بين الصالح والطالح، ويحوّل الألم إلى أمل، ويخرج المنحة من قلب المحنة. اللغة ليست أداة وصف للحال، بل هي عامل أساسي في صناعة الحال!

سمعنا طرقات خفيفة على الباب، صدر بعدها صوت خفيض:

- «معلمة رؤية، هل لي بكلمتين معك إذا سمحت؟»

بتثاقل أفلتت المعلمة العدسة من يدها ونظرت لأديم الواقفة عند الباب، قالت بلا اهتمام:

- «هل من شيء طارئ؟»

- «إلى أقصى حد..»

نهضت بتملل وسارت على مهلها حتى غادرت المكتبة، كادت أديم تلحق بها، لكن لسانها أبى أن يظل في موضعه.

- «تجتمعن هنا إذن، تحتاجون إلى مُبِيد كالذي يُرش في المزارع وقنوات

الريّ، أنتم ملتصقون أكثر من اللازم.»

كادت تبر تنهض من مكانها لترفعها من شعرها على الأرجح، لكنني اكتفيت برفع رأسي والنظر إليها بحدّة، كنت مغتابة حقيقة، لكنني لم أرد تكرار الموقف الذي حدث في قاعتها يومذاك، فوجئت بها تبتلع ريقها بارتباك وتراجع بسرعة حتى اختفت عن ناظرينا. نظرت إلي تبر وقالت مبتسمة:

- «مُهابة يا غيم.»

- «تعلمي مني إذن.»

ضحكنا وعدنا نتابع القراءة، فجأة جذبت تبر كمي بقوة وهي تهتف:

- «غيم، انظري إلى هذا.»

بصعوبة أبعدت عيني عن الصفحة التي التصقت بها، نظرت إلى حيث تشير؛ فرأيت.. ما هذا؟ إنها صورة مرسومة لكرة زجاجية على ما يبدو، وجوارها كُتبت طريقة إعداد التركيبة التي ستعابها. قلت لتبر بدهشة:

- «ما موضوع هذا الكتاب؟»

قالت وهي تنظر لغلافه بارتباك:

- «لا شيء مكتوب عليه، لكن خط كتابته غريب، لا يبدو أن من كتبه يتحدث لغتنا بفصاحة؛ لهذا تحديداً أستمتع بقراءته، تسليني فكرة تخمين ما يقصده الكاتب من كل كلمة.»

- «من أين أتى؟»

- «هل تسأليني؟»

أعادت تبر فتح الصفحة إياها، مرت بإصبعها على الأسطر بسرعة وقالت ما بدا لي خلاصة الكلام:

- «تعتمد في عملها على العنب كعنصر أساسي، عصير العنب، بشكل أكثر تحديداً، النبيذ المصنوع من عصير العنب.»

العنب؟ لهذا شملت رائحة عنب قوية في غرفتي يوم أمس، لقد كانت عالقة بالقطعة الزجاجية التي احتفظ بها ساري. لم أشعر بأن العنب كان قريباً إلي أكثر من ذلك في الأيام الأخيرة؟ أجل! ساري أحضر صندوقين عملاقين مليئين به، ورفض إعطائي أي معلومة عن مصدرهما، كما أنه سخر مني حين ذكرت رائحة العنب أمس!

- «أتعلمين؟ طريقة إعدادها غاية في البساطة، يدهشني أنها تترك كل هذا القدر من الدمار!»

قلبت الصفحة ليظهر رسم بياني أكثر تفصيلاً لأجزائها وطريقة صنعها، قرأت الكلمات التي خُطت بيد الكاتب المجهول، والتي بدا أنها أصبحت خبيرة نوعاً في قراءتها:

- «تُشكل الكرة الزجاجية من قطعتين، الأولى تشكل ثلاثة أرباع الكرة، والثانية هي الربع المتبقي الآخذ دور الغطاء، مثقوباً من منتصفه بعناية، ومن هذا الثقب يدخل فتيل كتاني. تُعبأ القطعة الأولى بتركيبة نبيذ العنب المعتق جيداً، ثم تُغطى فوهتها بما يشبه الصحن المعدني الرقيق، والمعبأ بالزيت حتى آخره، مع ثقب بجدران عالية في منتصفه، يتم تركيب الجزء الزجاجي الأصغر في الموضع المفرغ له مع مراعاة تمرير الفتيل عبر الصحن المعدني، يُحكم الغلق عن طريق الخطوط البارزة في طرفي الغطاء الزجاجي والصحن. تُدس الكرات الزجاجية في الموقع المراد تدميره، وحين تحين الساعة، تكفي شرارة صغيرة تمس الفتيل، سيعمل الفتيل على إيصال النار إلى (الكحول) الناتج عن النبيذ في الداخل، والذي سينفجر بدوره محطماً الكرة وناشراً زيت الصحن على ما حوله، ثم سيتكفل الزيت بمهمة نشر النيران على نطاقات

أوسع، ومن ثم إشعال المزيد من الكرات المخبوءة في المكان.»

بقينا نطالع الصفحة بأنفاس مبهورة، أي عقل شيطاني أتى بفكرة كهذه، ليس سلاحاً مؤذياً وحسب، بل هو سلاح يتدمر ليشعل غيره، وتفادي أضراره مسألة صعبة، خاصة إذا احتوى المكان الواحد على عدد كبير منه، وهو ما حدث يومها على الأرجح. عادت المعلمة رؤية من الخارج بوجه واجم، بدا الضيق جلياً عليها، باضطراب صفقت تبر صفتي الكتاب، في حين جاهدت للتخلص من آثار ما قرأته، لسبب ما اتفقت وتبر-ضمنياً- على عدم البوح بها وجدناه.

- «ما بكِ معلمتي؟ هل كل شيء بخير؟»

هزت رأسها إيجاباً بوجوم، لم يبدُ ذلك مقنعاً.

- «هل ضايقتك تلك المدّعية؟ أنا على استعداد للذهاب وإخراج أنفها من قفاها الآن وحالاً، ثم سأسحبها من أنفها -في موضعه الجديد- وأتي بها إليك لتعتذر.»

اتسعت عينا المعلمة رؤية في دهشة ولم تتمالك ضحكاتهما، كذلك فعلت إثر عبارات تبر المجنونة، هي لم تكن تمزح، كانت مستعدة لفعل ذلك فعلاً، لكن بدا أنها أزاحت شيئاً من الضيق عن صدر المعلمة.

- «لا شيء يا ابنتي، لا عليكم، عودا للقراءة.»

تبادلنا النظرات وهزنا أكتافنا، هي لا تريد التحدث، هذا شأنها.

- «آسفة يا معلمتي، أظن أنني سأذهب الآن، علي إحضار بعض الأغراض من السوق، غيم، هل ترافقينني؟»

اتسعت عيناها بقوة وارتفعت نبرة صوتها مع السؤال الأخير، لم تكن

لدي خيارات إذن.

- «أجل، أنا معك.»

حملنا كتابينا ونهضنا لنعيدهما إلى موضعيهما، ونعيد الفوضى التي أحدثتها تبر -سامحها الله- إلى ما كانت عليه، تنحنحت تبر وقالت بنبرة أرادتها عادية لكنها بدت مريبة أكثر من اللازم:

- «معلمتي، من أين تأتي كل هذه الكتب؟ أخص الخلفية بالسؤال.»

أجابت المعلمة بنصف انتباه ساعد على عدم فطنتها إلى نبرة تبر الغريبة، وبدا أنه ناجم عن حوارها الأخير مع أديم، وهي تفتح صفحات كتابها:

- «كثير منها تأتي من المكتبة في قسم الرجال، وهم بدورهم يحضرونها من أماكن متفرقة، لربما جاء ببعض الكتب رّحال ما، أو كتبها عالم جوّال أقام هنا لمدة وجيزة ثم غادر دون أن يعرفه أحد. الخلاصة أن ليس كل ما في هذه الرفوف معلوم صاحبه ومصدره على وجه الدقة.»

- «فهمت، شكرًا.»

رصصت الكتب ورفعت كتاب تبر إياه لأضعه في مكانه؛ فوق منه شيء رقيق، ظننته صفحة ممزقة في بادئ الأمر، ثم لما دققت النظر فيها وجدت نبتة مجففة كانت تنتصف صفحات الكتاب، كأنها مؤشر وضعه أحدهم ليدلّه على الصفحة التي توقف عندها. رفعت النبتة بحرص محاذرة من تفتيتها، ثم غزت يدي قشعريرة دعر حين تأملت مظهرها المؤلف، إنها نبتة عرق سوس!

- «هل من مشكلة؟»

- «ل.. لا!»

فلقتها بارتباك وأنا أدرس الكتاب في مكانه، بعد أن أعدت النبتة إلى صفحاته
كيفما اتفق. انتهينا من ترتيب الكتب وأشعرتني ذلك بتعب غير عادي، لم يكن
جسدي مستعداً بعد لهذا المجهود، لاحظت تبر تعبني فارتبكت، كانت قد
أخذت الأمر من منطلق هزلي في البداية، لكنها تذكرت الآن أنني لست
بخير.

- «يا إلهي، أسرع معي، كأس من العصير سيفي بالغرض.»

هززت رأسي بإرهاق وسرت نحو الخارج بعد تحية المعلمة رؤية، لم ترد
التحية لأنها لم تسمعها على الأغلب، شملت تبر المكتبة بنظرة ناقدة قبل
اللاحاق بي وهي تقول:

- «لا بد من جرد كل هذه الكتب، وفهرسة محتوياتها وتدوينها
بالتفصيل، واثقة أننا سنجد فيها أكثر مما نظن.»

- «لقد أحببت المكتبة أكثر مني!»

- «سأحفظ لك هذا الجميل يا غيم، أن كنت من شجعني على القدوم!»

(٢)

- «أهذا من أظنه حقاً؟!»

قلتها بذهول وأنا أراقب رجل الحماية وطيد في طرف السوق، يفعل آخر شيء تخيلت رؤيته يفعله، نظرت إلى تبر بأسف وهي تؤكد ما رأيته عيني، قلت بدهشة ممزوجة بالحسرة ومطعمّة بالغضب:

- «قائد من كبار قادة رجال الحماية، ينتهي به الأمر ليعمل حمالاً في السوق مقابل أجرة لا تكاد تكفيه قوت يومه!»

- «لديه خمسة أبناء، عليه أن يجد عملاً يتكسب منه مهماً كان بسيطاً أو متواضعاً، كما أنني لم أفهم اعتراضك، بُنيته القوية تناسب العمل الذي اختار ممارسته.»

لم تكن تلك عبارات تبر، بل عبارات ساري الذي وجدته جوار كتفي دون سابق إنذار، ينظر إلى ما أنظر إليه وهو يتسم باستمتاع وهدوء تامين، كالعادة، كأنه يراقب لوحة مرسومة ويصف تفاصيلها.

- «هذه القرية تعاني مشكلة في وضع الأشخاص المناسبين في أماكنهم الصحيحة!»

- «أوه أوه! وهل لديك ما تفعلينه لتغيير ذلك؟»

- «لا أعرف سبب سخريتك مني، لكن من حقي البوح بما أراه مزعجاً

من وجهة نظري، ولست مطالبة بتقديم بديل لقاء ذلك؛ لأن هذه ليست مسؤوليتي، وليست غلطتي من البدء!

- «ما دمتِ معترضة فإن عليكِ تقديم حلول، أو التزام الصمت.»
- «ساري، أتعرف ما المستفز في أسلوبك؟ أنك تجيبني بإجابات أنت نفسك لست مقتنعة بها، أنت تستمتع بمضايقتي وحسب يا أخي، وهذا ما لن أفهم مغزاه أبداً!»

ازدادت ابتسامته العابثة اتساعاً، اتكأ على الجدار خلفه وعقد ذراعيه على صدره، في حين كانت تبر قد ابتعدت في حرج لتقف قرب بقايا دكان أبيها. قال ساري بمرح:

- «ليست المسألة أنني أستمع بمضايقتك، الحقيقة أنني أستمع باستفزازك، وإخراج كل ما في عقلك من مبررات وأفكار ورؤى ونقد، يعجبني كلامك يا صغيرة.»

كلام لطيف، كان يجدر بي أن يتوهج خدائي وأشعر بالحنج، لكن نبرة صوته وتعابير وجهه زادت من ضيقي، ولسبب ما شعرت أن حتى هذه العبارة الأخيرة قالها على سبيل الاستهزاء. تنهدت بصبر.

- «سأسألك، لو طلبت من البناء أن يبني لك منزلاً، وبناءه بطريقة غير متقنة، وارتكب فيه أخطاء قاتلة قد تتسبب بسقوط المنزل فوق رأسك في أي لحظة؛ فهل يكون عليك حرج في الاعتراض على عمله ومطالبته بتغيير الوضع وتقديم بديل مناسب؟»

- «كلا.»

- «ممتاز، ولا يحق للبناء -ساعتها- أن يعترض على اعتراضك، ولا أن

يقول: (إن لم يعجبك عملي فأوجد بديلاً أفضل، وإلا فالتزم الصمت)؛ لأن هذا عمل البناء وليس عملك، وكل شخص مسؤول عن عمله، وكل شخص متضرر من إهمال المسؤول لمسؤوليته من حقه الاعتراض والمطالبة بالتغيير، وليس مطالباً بتقديم بديل في شيء ليس مسؤولاً عنه!

- «أحسنّت».

قالها بهدوء تام كأنه لم يسمعي أصلاً، كتبت غيظي وقررت مجابته بسلاحه:

- «ساري، هل لي بطلب؟»

- «اطلبي».

- «بما أنك تتردد كثيراً على مكتبة الدار، هل تستطيع إحضار كتب بعينها لي في أقرب فرصة؟»

- «أتردد كثيراً على مكتبة الدار؟ من أين تأتين بمعلوماتك؟»

نجحت، تعكّر وجهه، أصبحت قادرة على تمييز التغيرات الطفيفة التي تطرأ على وجهه عند الانزعاج، والتي يمكن أن يغفل عنها غير الملمّ بطبيعة ساري، أو قليل الاحتكاك به.

- «أثارك في كل مكان يا ساري، لا داعي للإنكار».

- «آثاري؟ غيم، عمّ تتحدثين بالتحديد؟»

- «أوراق عرق السوس المجففة الموضوعة بين صفحات الكتب، لا أعرف أحداً آخر يمكن أن تعود له».

ضيق عينيه ونظر إلي مفكراً، كأنه يحاول استشفاف أي الكتب رأيت أوراقه داخلها، قلت بنبرة انتصار لم أستطع كبجها:

- «إذا أردت أن أعيد إليك كتابًا لم تنتهِ من قراءته فسأفعل.»

- «أنا لا أقرأ الكتب، ولا أهتم بشيء كهذا.»

- «أوه أجل، أنا أكيدة من هذه النقطة.»

فلتها بنبرة ساخرة؛ فازداد الضيق تمكّنًا من ملامحه، لكنه لم يستمر في الجدل، خرج وادع من الدكان -بقاياها- حاملًا الكثير من الخردوات والقمامة ليلقيها على كومة كبيرة تكوّنت من مخلفات الدكاكين في منتصف السوق، لمحنا واقفين فابتسم وأشار لنا.

- «لم تقفان بعيدًا؟ لدينا برميل كبير من العصير هنا، والشمس حارقة، لا بد أنكما بحاجة إلى كأس أو كأسين.»

هززت رأسي، وبدا أن التعب ينتظر عبارة تذّكره بتملّكي ما إن أنساه لبعض الوقت، فجأة شعرت بالدوار وعاد الطنين لأذنيّ، لاحظ ساري ذلك لأنني لمحتة ينظر إلي بطرف عينه بقلق لا يخفى. قُرب لي وادع كرسيًا أمام الدكان فارتميت عليه، أخذت أدلك جبهتي بألم في حين ذهب ليحضر كأس العصير، بحثت عن تبر حولي فلم أجدها، لربما ابتعدت حين اقترب ساري. عاد وادع بكأسي العصير، تناولت منه كأسًا شاكرة، قال ساري ضاحكًا وهو يمسك كأسه:

- «عصيرها؟ لا شيء آخر؟»

ابتسم وادع بنوع من الارتباك، كان من الواضح أن ساري يمزح، لكن وادع اكتسب الكثير من الحساسية الإضافية على ما يبدو.

- «ربما من الجميل أن نستمتع من آن لآخر.»

أخيرًا قرر مجارة دعابة ساري، كان أحد التجار أصحاب الدكاكين

المتضررة واقفًا قبالتنا، نظر إلى وادع نظرة نارية إثر عبارته؛ فأسرع وادع يقول بصوت عالٍ وبتخبط واضح:

- «أنا أمزح وحسب، خوخ وتفاح وليمون وماء ورد، ليس إلا!»

- «لا زلت حريصًا على التبرير يا وادع؟»

- «وليته يفيد!»

ناداه والده فتركنا مسرعًا، جرع ساري كأسه مرة واحدة ثم وضعه على طاولة صغيرة، استند على ظهر مقعدي وقال وهو يراقب حركة الناس بغير اكتراث:

- «كنت تتحدثين عن مشاكل القرية، أتريدين معرفة المشكلة الأضخم من وجهة نظري؟»

- «قل.»

- «أن الناس هنا يهتمّون أكثر من اللازم، بكل شيء.»

تأملته ولم أتفوّه بإجابتي، لا أحد في هذه القرية يهتم أكثر من ساري، ما أراد ساري انتقاده تصرفات الناس الناجمة عن فرط تفكيرهم وقلقهم وخاوفهم، لكنه انتقد الاهتمام ليُشعرني ويُشعر نفسه أنه خارج المعادلة، وأن هذه مشكلة الناس عداه.

- «بست، غيم!»

نظرت إلى تبر التي ظهرت من العدم لتلوّح لي، تظهر فجأة وتختفي فجأة، قلت لساري:

- «بما أنك لا تملك خططًا، ولا تهتمّ بشيء، ما رأيك في الذهاب لمساعدة

وادع وأبيه؟»

- «يمكنك أن تطلبي مني الابتعاد حتى نتحدثي إلى تبر على راحتكما، لا داعي للفت والدوران.»

- «حاولت الاقتداء بك يا أخي العزيز.»

لم يُبدِ ما يدل على اكتراثه بكلامي، طريقة جديدة لمواجهة تلميحاتي المزعجة، أن يُشعري بأنها لا تؤثر فيه كي أتوقف عنها. اقتربت تبر بسرعة، ومع إقبالها لمحت الذعر في عينيها.

- «انظري إلى ما وجدته بين القمامة.»

- «هل تفتشين القمامة يا تبر؟»

- «غيم!»

- «أريني.»

تلقت حولها بارتباك جمّ، ثم فتحت يديها لتريني الكرة الزجاجية المخبأة داخلها، كان باستطاعتي رؤية السائل مريب الشكل يتمايل داخلها، والصحن المعدني الرقيق والمملوء بالزيت على طرفها، والفتيل الممتد عبرها، لا ينقصها إلا شرارة صغيرة لتكتمل الكارثة.

- «الحمد لله، هذه واحدة لم تنفجر، الله وحده يعلم أي دمار إضافي كانت ستسببه هذه اللعبة الزجاجية بريئة المظهر.»

- «أهذا كل ما لديكٍ للتعليق؟»

- «ما بك يا تبر؟!»

- «ما الذي علينا فعله بها؟ نحن نعرف طريقة عملها، لكن ربما لا

يعرف أنور ومجلسه ورجال الحماية ذلك، هل نسلمها لهم؟»

- «لَهِتْ ورفاقه؟ لماذا؟ ليتسَّروا على سلاح ذوي الأعين الزرقاء ويخفوا عنّا طريقة عمله، ويتركوهم متقدمين عنا بخطوة، ويتركونا تحت رحمتهم؟»
- «لكننا نملك طريقة إعدادها، حتى لو أتلفوا هذه!»
- «تبر، أنا الآن متعبة ومشوّشة، كل ما أستطيع التفكير به أن هذه لا يجب أن تصل إلى هَتر، سنبقّيها معنا حتى إشعار آخر.»
- «عرفت أنك ستقولين ذلك، هل تأخذينها معكِ؟»
- هزرت رأسي إيجاباً، وطلبت منها أن تبقّيها بحوزتها إلى أن يحين وقت افتراقنا؛ لأنني لا أملك موضعاً جيداً لحفظها فيه حالا.
- «يا إلهي! إنها قطعة من سلاح العدو، فلنحرقها بسرعة!»
- التفت لساري ولم أستطع منع نفسي من الصراخ:
- «كلا!»
- ثم فطنت إلى أنه كان يبتسم بمكر، دائماً يبتسم، لا شيء يقوله جاداً، كان اختباراً ذكياً منه ليعرف أي كتاب عنيت، وقد عرف. بحركة غريزية أخفت تبر الكرة داخل جلبابها، لكن ساري لم يهتم لرد فعلها، فجأة اختفت الابتسامة عن وجهه وحلت محلها نظرة جامدة جعلت قلبي يتوقف عن الدق لبضع لحظات، اقترب مني ووضع يده على رأسي وهو يقول بنبرة عجيبة:
- «تعرفين كيف تصلين للمعلومات التي تحتاجين إليها، دائماً تملكين طريقة، لكن المعرفة ليست جيدة دائماً يا غيم، احذري.»
- لم يمهلني لأرد أو أستفسر، بسرعة اختفى من أمام ناظري، وتركني أضرب أخماساً بأسداس، ماذا أراد قوله؟ أكان هذا تهديداً؟ للمرة الثانية يتحدث إلي بهذه النبرة، يتحوّل إليها فجأة!

- «أحم.. ما كان هذا بالتحديد؟»
- وادع، للمرة الثانية، كأن الموقف يتكرر بحذافيره، هزرت رأسي بتيه في حين وضعت تبريداً مرتبكة على كتفي.
- «ربما عليكِ العودة إلى المنزل، لا تبدين بخير.»
- «كان خروجي هذا اليوم خطأ، بالإضافة إلى أنني لم أتناول شيئاً.»
- «فهمتُ لمَ يدعوكِ الجميع بالمجنونة، تعالي، سأوصلكِ.»
- قالها وادع بنبرة مفجوعة كأنه على وشك البكاء، وركض ناحية حصانه البرق ليفك حباله ويقربه مني.
- «والدك بحاجة إليك.»
- «أنتِ أحوج، وهو لن يمانع، هيا.»
- ركبت خلفه على صهوة البرق، وحين وصلنا إلى البيت -في وقت يناسب تسمية الحصان- كانت الرؤية قد بدأت تتشوش في عيني، أنا لست إنسانة خارقة كما اعتقدت، أنا أيضاً أحتاج إلى الراحة من آن لآخر. نسيت الكرة الزجاجية مع تبر. تذكرت ذلك وأمي تحضر لي صحنون الإفطار / الغداء إلى فراشي، وهي تعاتبني برفق على (ما أفعله بنفسي).

لا أعرف متى وكيف نمت، لكنني استيقظت بعد غروب الشمس بمدة. أغمضت عيني والعالم مُضاء، وفتحتها والعالم مظلم، رمزية مزعجة قد لا يكون لها أهمية ولا معنى، لكنها طرأت في ذهني. كان أول ما تذكرته أمر القماش على عيني، قفزت من فراشي بسرعة واتجهت نحو المرأة، لم أرَ شكل الجرح ولا حجمه، وبرغم أن الألم خف إلى أقصى حد، إلا أنني واثقة أن آثار

الجرح ستبقى لوقت أطول. دخلت علي أُمي ورأيتني أحلّ القماشه ببطء، ابتسمت في نوع من التلهّف واستندت على الباب بانتظار النتيجة، سمعنا صوت سنابك خيول قريباً فأخبرتني أُمي بأنها ستذهب سريعاً لترى ما هنالك ثم تعود. ها قد زالت القماشه، أخيراً سأتحديث عن (عيني) بدلاً من (عيني)، أوّل ما واجهني كان الألم الشديد مع تعرّض عيني للضوء المفاجئ بعد يومين من العتمة الدامسة، نفس الألم الذي يحسّه من يفيق من سكر جهله فجأة ليصطدم بالحقائق القاسية. وكان ما تلا هذا نفس ما يتلو ذاك عادة، الارتياح والسرور وشكر الله، مع تنهيدة خلاص يشعر المرء معها أنه كان عاجزاً عن التنفس قبل الآن.

أخذت أتأمل مظهر عيني في المرأة، كلا، ليس الجرح بشعاً ولا كبيراً كما تخيلته، مجرد نفرة صغيرة ستزول سريعاً، نفرة صغيرة جعلتني على شفا الولولة خلال اليومين الفائتين، كم أن الإنسان ضعيف! تأملت مجدداً، إنها ملاصقة لزاوية عيني الخارجية بشكل مثير للربح، ربما لو لم تكن العين عيني لتوهّمت أن الجرح داخلها بالفعل، سبحان من نجّاني من خطر فقدان عيني الوشيك، مقدار شعرة ما حال بيني وبين ذلك!

عادت أُمي مجدداً، ابتسمت دون أن أزيح عيني عن المرأة، وقلت:

- «أخيراً عادت غيم، بكّلت عينيها! كيف أبدو؟»

لم أسمع إجابة أُمي، عوضاً عنها، سمعت لهاثها المذعور، استدّرت بفزع لأنظر إلى وجهها الخالي من الدماء.

- «ما بك يا أُمي؟ ماذا حدث؟!»

- «أبوك يا غيم، أبوك ليس بخير!»

انتفضت من مكاني.

- « ما به أبي؟ »
 - « لا.. لا أعرف! إنه يبدو عيَّاناً بدرجة فظيعة، لم أره هكذا من قبل قط، وجهه شاحب ويتحرك بصعوبة! »
 - « ربما.. ربما عاد من اجتماع عند الحاكم، ربما استفزه هتر بكلمة أو... »
 - « لا يا غيم! إنه غير قادر على المشي، لقد رأيتهم عبر النافذة، أنور هو من أوصل والدك على حصانه، وأسندته إسناداً أقرب إلى الحمل حتى وصل به إلى باب البيت! »
- أبي عاجز عني المشي؟ أبي يستند على أنور؟! بسرعة البرق كنت عند الباب، ليتني لم أزل القماشة عن عيني، ليتني غطيت عيني الأخرى بها، ليت الإصابة بلغت عيني مباشرة قبل أن أرى هذا المشهد الذي لن أنساه ما حييت! كان يترنح بطريقة مفزعة، ولم يبدُ أنه يرى ما أمامه حتى، أطرافه ترتجف ويتحسس طريقه كالعميان، غزت عيني غمامة كأنها سرب من النمل، يحجب عني الرؤية ويجعلني في حالة أقرب للهلوسة، حتى أنني بدأت أسائل نفسي إن كان ما أراه واقعاً أم كابوساً. مرت ثوانٍ علي وأنا في نفس وضعي، متصنِّمة وعاجزة عن مجرد الاستيعاب، فجأة دار عقلي بسرعة جنونية ليلتلع كل المشهد دفعة واحدة، أُمي تقف على رأس الدرج ترتجف، عاجزة تماماً عن اتخاذ موقف، يحب أن أتماسك، قفزت لأرمي بنفسي تحت ذراع أبي؛ فشعرت به يستند علي بكله، لم يكن قادراً على حمل نفسه بأي شكل، بصعوبة تمكنت من مرافقته حتى الأريكة، رمى نفسه عليها رمياً، بحلق جاف وصوت هامس سألت:

- « أبتي، ماذا حدث لك؟ »

نظر إلي بعينين لا تريان، وقال بهمس مماثل:

- «لقد أتى دوري يا غيم، لقد فصلت من الدار!»

لو قال لي أي إجابة أخرى ما كنت لأصدق، لا شيء كان سيوصل أبي لهذه المرحلة غير الدار، قلبه وروحه، المكان الذي أفنى فيه عمره كله، طالباً ومعلماً، كان مستعداً لفعل أي شيء كي تزدهر وترقى، وكان كل حدث يمس الدار أو يؤذيها يمزق قلبه كأنه هو جسد الدار ومبناها وعمادها، بالأمس فقط كان يكتب خطته للدروس بكل حماس وعزم، كانت لديه ألف أمنية وطموح، كان ينتقي أفضل العلوم، ويدون أرفع الفوائد؛ ليؤدي أمانته كما يجب وأكثر.

- «من فعل ذلك؟ من طردك من الدار؟»

- «أنور.»

قالها بصوت لا يكاد يسمع، ومباشرة ما إن تفوهت بسؤالي، أنور إذن؟ لم أشعر بنفسي وأنا أفعل التالي: أقفز إلى غرفتي لأرتدي جلاباب الخروج وألقي بالخمار علي كيفما اتفق، أقطع منزلنا كله في ثلاث خطوات نحو الباب ومنه إلى الشارع، رأيت أنور وعدة رجال معه في نهاية الطريق المظلم، كبضع أشباح مبهمة ليس لها معالم، بصوت لا أدري من أين انطلق وجدتني أصرخ باسمه؛ فتوقف فجأة، بل تجمد! كل شيء تجمد في تلك اللحظة. في طرفة عين كنت قد وصلت إليه، لم يستغرق ذلك مني أي وقت أو جهد، لا أعرف كيف أو متى قطعت تلك المسافة، كان يوليبي ظهره، راجلاً ويده لجام حصانه، والرجال الآخرون -لعلهم كانوا خمسة أو ستة- مثله. لم يستدر إلي، لكنني رأيته يطأطي رأسه بطريقة ملفقة، لم أكن أرى العالم وقتها، ولم أسمع حتى نفسي وأنا أصرخ:

- «أيها الحقير الدنيء، كان علينا أن نعرف، وكان على أبي -الذي بقي

يحسن فيك الظن لآخر لحظة- أن يستمع إلي، أنت مجرد شخص متوحش وأنا، لا تهملك إلا مصلحة نفسك، وهذه ليست مفاجأة، لا بالاستناد إلى شخصيتك القديمة، ولا برؤية ما سار عليه سلفك! لقد كنت صادقاً، وحفظت وعدك حتى بعد مرور خمس عشرة سنة، أقسمت أن تطرده من الدار، وبررت بقسمك، وأتى الغد الذي تحدثت عنه يومها ورأينا، لكنك لم تحزر، لقد خططت لما تنوي أنت فعله، ولم تفكر في أنني أيضاً أعرف جيداً ما سأفعله!»

انتهيت وأخذت ألهث، وفي حلقي تصاعدت آلام شروخ كثيرة سببها صراخي بصوت غير طبيعي، أكثر ما أحتاج إليه الآن أن أنهار وأنفجر في البكاء، ليس ضعفاً، لم أكرث ساعتها بمسماها، ربما غضباً أو قهراً أو ألماً، المحصلة أنني كنت عاجزة حتى عن البكاء، ليس وأنا وسط سبعة رجال كنت أصرخ للتو في وجه كبيرهم.

خيّم الصمت علينا، وكانت أصوات ناعمة تصدر من المزارع القريبة، صراخ حقل وثغاء أغنام من آن لآخر، هبّت نسمة لها رائحة بالغة العذوبة؛ فوجدت دمعاتي تنهمر دون إذن، وبالكاد استطعت حبسها ولو على حساب ألم في صدري. كنت أراقب الرجال حولي وإن لم يبدُ أنني أنظر لغير أنور، ظهر أنور، كان بعضهم يراقب في فضول، وبعضهم في تعاطف، وبعضهم كان أقصى طموحاته -لحظتها- أن ينقض علي لو لم يوقفه سكون أنور التام.

أخيراً تنهد أنور بصوت عال، لو تركت للحياة القيادة لقلت إنها تنهيدة شخص مهموم، يحمل جبلاً فوق كتفيه. استدار ببطء شديد ليوأجهني، غير أن نظريه لم يفارق الأرض، ابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

- «جميل منك أن ذكرتني بالماضي، وسط أيام كهذه التي يحارب فيها المرء كي يجد نفسه فقط، لمحات من الماضي تشرح القلب بلا شك، وتشعرنا

بالحنين لتلك الأيام التي كانت همومنا فيها بهذا الصغر.»

الآن أريد أن ينتهي هذا الموقف كله، أريد أن أعطيهم ظهري وأفر، أو أن أغمض عيني وأفتحهما لأجدني في حال آخر، أريد أن أطمئن على أبي، وأن أبكي، فقط، تقلّصت دائرة اهتماماتي إلى هذا الحد.

- «أجل، صحيح، أظن أن هذا سقط منك.»

بصعوبة استوعبت كلامه، وبصعوبة أشد تبينت ما كان يمد يده به إلي، جراب تبر الحريري الأبيض، والذي طرّز عليه اسمي بخيوط فضية اللون، كيف لم يخطر ذلك ببالي؟ لقد سقط مني حين كنت أسترّق السمع إلى محادثة أنور وحلية، ولم أنتبه لسقوطه أثناء ركضي، يا للموقف السخيف! بقيت أنظر للجراب في يده دون أن تندّ عني أي حركة، ابتسم برقق وهز يده مشجعاً.

- «لا تعرفين كم اطمأنت حين وجدته، كنت قلقاً من معرفة هوية الشخص إياه يومها. كان من حظي أنه أنت.»

لا أعرف ماذا تصنّف عبارته، أهو إطراء أم عتاب؟ من هو ليوجّه إلي أياً من الاثنين؟ استمرّ الموقف على ما هو عليه طويلاً، إلى أن شعرت أنه زاد عن حده، لم يعد يده إليه، ولم يقل شيئاً إضافياً، بقي ثابتاً كما هو، بابتسامته الرفيقة ويده الممدودة وعينه المغضوختين عني. ببطء مددت يدي وأمسكت بالجراب، فاكتمت ابتسامته طابعاً مرتاحاً، تراجع بضع خطوات وهو يقول بهدوء:

- «هناك الكثير مما أدين بالشكر عليه لك، شكراً إجمالاً.»

أشار لرجاله بيده وقفز على صهوة حصانه وانطلق به، بصعوبة أبعد الرجال أعينهم عني، وحذوا حذو أنور.

بقيت بمفردي في الظلام، لا أعرف لكم من الوقت، أقبض على الجراب بكل قوتي، لم أبك ولم أفكر في شيء، لم أفعل أي شيء، كنت في حالة صدمة تامة، لا أرى ولا أسمع ولا أعي، كل تلك الأحداث أفضع وأسرع وأشد من أن يتحملها قلبي وعقلي، تمنيت أن يكون أحدهم جوارِي في هذا الوقت، أحد يمسكني من يدي ويجرني وراءه جرًّا إلى منزلنا، أو إلى أي مكان.

حسنًا، لقد أجبرت نفسي على السير، وبشكل ما وجدتني أمام باب بيتنا، مددت يدي فارتجت، كانت أضعف من أن تفتحه، لا أقوى على رؤية منظر أبي مجددًا، سمعت جلبة مفاجئة خلفي، استدرت بحدة لأرى الطائر يتوقف بصخب عال وحممة مجلجلة، ومن فوقه انقلب ساري انقلابًا، كما لو أنني رأيت الفرج مجسدًا، اختنقت الدموع في حلقي، صرخت بلوعة:

- «ساري!»

لكن حين اقترب من دائرة إضاءة المصباح عند عتبة بابنا، استطعت رؤية وجهه بشكل أفضل، لم يكن ساري الذي أعرفه، قبل لحظات فقط ظننته سيمثل تجسيد الفرج، لكنه كان -في الواقع- تجسيد المصيبة! اقتربت منه وتأملت ملامحه، ولم أقوَ على السؤال.

- «أمي، أمي يا غيم!»

تكفل بالبدء، سألته بصوت مبحوح عما بها؛ فقال بذهول:

- «إنها.. إنها.. لا أعرف.. ربما هي.. تحتضر؟»

طار الباقي من عقلي، بسرعة فتحت باب المنزل، وفي ثوان استوعب عقلي الصور البسيطة التي رأتها عينا، أمي ساعدت أبي على الخلود للنوم في غرفته، وها هي جالسة في الصالة تبكي بفزع، على المنضدة كأس به بقايا يانسون بالعسل، لم يأتِ الأسوأ بعد يا أماء. نظرت لي ساري وبدا ذاهلاً تمامًا،

غير قادر على وزن الأمور أو الإقدام على أي تصرف. لم أرد إفزاز أُمي، ولم أتمنَ قط أن أوضع في هذا الموقف المريع، جلست جوارها ووضعت يدي على كتفها برفق، نظرت إلي ودموعها لا زالت تنهمر، لم تتحمل رؤية أبي بهذا الشكل، تمامًا مثلي، أحطتها بذراعيّ وضممتها، ثم ابتعدت عنها قليلًا وقلت مغالبة دموعي:

- «أُمي، تستطيعين ترك أبي تحت رعايتي، ورافقي ساري للإلقاء نظرة على خالتي ودود.»

توقفت عن البكاء مرة واحدة، ونظرت إلي بعينين تكادان تغادران محجريهما، حافظت على تماسكي قدر استطاعتي، وقاومت نظراتها بثقة وصبر، وفي دقائق كان البيت خاليًا منها ومن ساري، وآن لي أخيرًا أن أنكمش على نفسي وأنفجر في البكاء.



لم يطل الأمر كثيرًا، آخر مرة اختبرت فيها ثقل لحظات الوداع، كانت منذ أعوام طويلة، لما مات جدي، وكنت ساعتها ابنة العاشرة. لكن هذا الذي أحس به، ليس شيئًا مما يُمكن وصفه، إنها خالتي ودود، كنا سعداء بمبيتها عندنا منذ عدة ليال، كانت تأكل وتشرب معنا، كنت أستمع لأحاديثها مع أُمي وخالتي حسنًا طوال الوقت، كنت دائمًا أنظر إليها لأستمدّ من قوّتها القوة، كنت أقول لنفسي: إذا كانت خالتك -ولديها ما لديها من الابتلاءات- صابرة وشاكرة ومصرّة على عيش الحياة كما يجب؛ فما الذي يبرر لك التذمر والتعب والملل والاستسلام؟ كنت مهتمة بمراقبة علاقتها بساري، وكنت حريصة على أن أرصد أي تطور فيها، وكنت أتمنى في كل لحظة أن أرى سعادتها بلطفه معها، وفخرها بمنجزاته، كيف انتهى كل هذا في ثانية؟ كيف انطوت سيرة إنسان بالكامل، إنسان كان له بيننا وجود وكيان، وله رغبات

ومخاوف وطموحات وذكريات، كانت تضحك وتحدث وتسعل، كانت موجودة، والآن لم تعد، كان قلبها يدق في لحظة، ثم توقف عن ذلك في التالية، أخذت شهيقاً ولم تفره، كيف يمكن للعقل استيعاب شيء كهذا؟!

كانت تقع على عاتقي أعباء أخرى، كأن ألم الفقد لا يكفيني، كنت مسؤولة عن مساعدة أمي على التماسك، والوقوف بجانب ساري الذي لا يفهمه غيري، والاطمئنان على صحة أبي الذي استعاد قواه بسرعة خرافية ما إن علم بالخبر، وعرف أن أمي بحاجة إلى وقفته. مع شروق الشمس ذهبت لأراها، وأحييها تحية أخيرة، كانت مبتسمة، لن أقول إن وجهها بدا شاحباً؛ لأنه كان كذلك دائماً، أدعو الله أن تكون أسعد الآن، وأن تكون معاناتها وآلامها قد انتهت مع انتهاء أيامها، وأن يبدلها عن كل ما فقدته خيراً، وأنا واثقة من أنها الآن أفضل حالاً. غسّلتها خالتي حسناً، طلبت مساعدتي، لكنني لم أقدر، لم أجد في داخلي قوة تكفي، أصرت أمي على القيام بذلك، ولم يكن لأحد أن يمنعها، إن لم تغسلها أختها؛ فمن؟ لطالما رافقتها أمي وخالتي حسناً في حياتها، والآن ستكونان آخر من يمسه في هذه الدنيا.

بعد احتفال البهاليل مساء أمس، كان من البديهي أن تصبح طرقات القرية خالية في الصباح، قليلون استيقظوا لحضور جنازة خالتي، ومرافقتها نحو بيتها الأخير، جوار زوجها وحبيبها حيّان. طوال هذا الوقت كان ساري صامتاً، ككل شيء لا نستطيع التعبير عنه، كنت أواسيه، أتحدث إليه، أسأله، وكانت أقصى ردوده الإيماءات. بدا مصدوماً بلا جدال، لكنه احتفظ ببصمته الخاصة، واستطاع أن يبقى بلا أي تعبير على وجهه، حتى في هذه اللحظة.

في بيتنا، بذل أبي أقصى طاقته لمساعدتي في مواساة أمي وساري، لسبب ما اعتبر الجميع أنني لست معنية بالمواساة، حتى أن البعض قام بتعزية خالتي

حسناً، ولم توجه إلي عبارة عزاء واحدة، هل يعني هذا أنني نجحت في القيام بدوري على الوجه الأكمل، وأقنعت الجميع أنني أقدم المساعدة والإفادة دون أن أستقبل من ذلك شيئاً؟

لا داعي لشرح ما يُمكن استنتاجه، لا أحد غبي؛ لذا لا أحد سيكون بحاجة إلى أن أخبره بالكأبة التي خيّمت على الأجواء، وبانهيار تبر حتى أنها لم تقدر على مساعدتي في ضيافة المعزّين، وفعلت ذلك خالتي حسناء بدلاً منها، حتى وادع وأبي والعم جواد-البعيدون عنها- كانوا في قمة ألمهم وحزنهم، لربما شعرت خالتي ودود في لحظة ما أنها غير مهمة، لكن الحقيقة عكس ما يشعر به المرء غالباً.

قرب الظهيرة توقف توافد المعزّين، أو الدفعة الأولى منهم؛ فاستطعت اقتناص دقائق أعتصم فيها بدفترتي، لأكتب الكلمات السابقة. بشكل ما أقنع أبي أُمي بأخذ قسط من الراحة، إنها لم تنم منذ صباح الأمس، برغم أن أي نوم ستنامه الآن سيكون بمثابة تعذيب لها، وأني أتخيل -من الآن- اللحظة التي ستستيقظ فيها لأضطر -أنا أو أبي- لإخبارها من جديد بأن كل ذلك كان حقيقياً، وأنها لم تكن تحلم. تبر أيضاً احتاجت إلى الراحة، كنت أغبطها على قدرتها على إفراغ مشاعرهما أولاً بأول، لقد بكت جيداً جداً، ربما ليس البكاء شيئاً يدعو للغطّة، لكنني الآن كنت أرى فيه ماءً لمسافر أضناه الضياع عبر صحراء قاحلة. المهم أن منزلنا فرغ، ذهب ساري، ولم يخبر أحداً عن وجهته، لن تخرج عن ثلاثة أماكن على أي حال، البيت، المقبرة، أو البحيرة.

نزلت لصالة منزلنا؛ فوجدت أبي غائصاً في الأريكة وسابحاً في شروده، بهدوء جلست جواره، ضمنت ركبتَيَّ إلى صدري فوق الأريكة، وأسندت ذقني عليهما، نظر إلي أبي بحنان، لف ذراعه حولي، وضممني إليه، قبل رأسي ثم انتزع ابتسامة صعبة وهو يقول:

- «الأيام الماضية كانت ثقيلة جداً عليك يا ابنتي.»

لا لا يا غيم! منذ متى وأنتِ تنساقين خلف دموعك؟ الدموع لها وقت، لا معنى لتقويس الفم الآن، ولا للحشجة، ولا... لغوص رأسك في حضن أبيك، والانتحاب بصوت عال وممزق ومكلوم، ليس لهذا أي معنى على الإطلاق! أفرغت أطناناً من الدموع على ملابس أبي، ثم رفعت رأسي -على مضض- لأعود للواقع الذي هربت منه لدقائق، أخذت أجفف عيني بكمي في حين بقي أبي يراقبني بتعاطف.

- «هوني عليك يا غيم، لا شيء يمكن أن يمثل النهاية، وكما يقول عمك التاجر جواد: (لا توجد خسارة غير قابلة للتعويض). وأضيف: (إلا خسارة الإنسان نفسه)!»

- «كيف يخسر الإنسان نفسه برأيك يا أبتني؟»

قلتها بصوت مختنق بالكاد سمع؛ فقال:

- «بأن يُقدّم الرفاهية على التمسك بالحق وإن أضناه، وأن يختار الراحة بدلاً من المصلحة، وأن يُفضّل ما يُرضي شهواته على ما يضمن له السلامة دنيا وأخرى، وأن يترك غيره يفكر عنه، ويُملّي عليه ما يعتقده وما يؤمن به؛ حتى يصبح -يوماً- وقد غدا وجوده مجرد إهاب خارجي ليس له قيمة ولا تحركه روح، ضرره أكثر من نفعه، يُساق كالعبيد نحو مراد سيّده، ونهايتها أن يفقد معناه كشخص، وكيّنوته كإنسان.»

مدّ يده يمسح أثر الدموع عن خدي وهو يتسم ابتسامة حزينة. في حين كنت أشحذ كل ما أملك من طاقة لأخرج من حالتي هذه، لا زال من واجبي أن أبقى قوية، خاصة وجميع من حولي يواجهون أقسى ابتلاءات حياتهم في هذا الوقت.

- «ربما كان خروجي من الدار مؤلماً، ربما كانت الدار حبي منذ كنت شاباً، ربما كنت مغرماً بها، ومفتوناً بطرقاتها وقاعاتها، وشغوفاً بكل ما يقدم فيها، ومستبشراً بما سيحققه أبنائها.» ثم تهّدج صوته وترقرق الدموع في عينيه، بتماسك ابتسم وأكمل. «لكن هذا لا يعني أن العالم كله محصور فيها، وأن نهاية عهد تدريسي بها هي نهاية كل شيء لي! النهاية ليست إلا بداية يا غيم، ولولا النهايات ما وُجدت البدايات، لكل قدر حكمته، ولربما كانت الخيرة لي من وراء هذا القدر أن أعرف نفسي بشكل أفضل، أن أعرف من يكون مدرار وما الذي يستطيع تقديمه، دون أن يكون محدوداً بطلاب بعينهم، أو بمكان خاص، أو بمنهج دون غيره.»

- «النهاية ليست إلا بداية.»

قلتها هامة وبهوء تام، الحمد لله، عادت غيم المتماسكة، ابتسمت بصعوبة، أمسكت يده بكلتي يديّ وقلت بحزن أبى أن يستتر:

- «وفاة خالتي ودود المفاجئة كانت فاجعة بكل المقاييس، ربما كان من المحتم أن يرد هذا الخبر في يوم ما، لكن كونه محتمّاً لا يعارض كونه مؤلماً، ومأساتي أنني لن أتعرّض لهذا الألم وحده، بل أيضاً لألم رؤيتك ورؤية أمي وساري وعائلة عمي جواد في حالات تمنيت الموت على رؤيتها، أشعر أن العالم يضيق في كل دقيقة فرسخاً يا أبتى، وأن انغلاقه الكامل علينا لن يكون أكثر من مسألة وقت.»

- «تعرفين وأعرف أن الحزن يملك خاصيّة متفرّدة يا غيم، أنه قادر على التمدد والتعلّق بشكل غير معقول، لكن الفكرة في أن هذا الوقت سيمضي، بحزنه وفرحه، وأن الاكتفاء بالتوجّع لن يجعل الحزن ينقضي أسرع، ولن يجعل الفرح يصل باكراً، لذا؛ ربما علينا أن نمضي قدماً فقط يا ابنتي، وأن نعرف أن كل قدر يحمل لنا خيرة سندركها أو لا، وأن الغد سيأتي في كل

الأحوال، محملاً بما نعجز عن التكهن به، لكننا -على كل حال- لسنا مسؤولين عن العقبات التي ستعرض دربنا، وإنما عن طريقة تعاملنا مع هذه العقبات، إما أن نبذل ما نستطيعه لتذليلها، وإما أن نكون جزءاً منها.

- «وعندما يأتي الغد؛ سنرى.»

قلت بزفرة طويلة، ثم نهضت بسرعة، قلت لأبي:

- «لا أعرف لأيكما أعهد بالآخر، لكن أيمكن لك أنت وأمي أن يعتني أحدهما بالآخر؟ الشيء المؤكد أن ساري لا يملك من يؤدي هذا الدور معه غيري!»

- «اذهبي يا غيم، أنا بخير كما ترين، الحمد لله.»

قالها بابتسامة شديدة الاتساع والافتعال، لو كان كما أرى؛ فإنه أبعد ما يكون عن الخير. ذهبت للمطبخ كي أعد شيئاً محدداً قبل ذهابي.

- «منقوع البابونج سيفي بالغرض، قالت خالتي إنه مهدئ ممتاز للأعصاب، هل تشرب بعض البابونج؟»

لم ينظر إلي، لكن سطح المياه تذبذب، بينما كنت أجلس جواره وأسكب له كأساً من البابونج، مددت يدي به له؛ فتناوله مني دون أن يبعد عينيه عن البحيرة.

- «رحمها الله، ادعُ لها، وأحسن ظنك برّبك، هي الآن في مكان لا تعب فيه ولا نصب، أليس هذا أفضل ما تتمناه لها؟»

رشف من كأسه ولم يجب، رأيت أن دقائق صمت قد تكون حلاً جيداً، خاصة حين لا يوجد ما يقال، ونجح ذلك؛ إذ تحدث ساري من تلقاء نفسه

بعدها.

- «شعرت أن الوقت الذي قضيناه معًا لم يكن كافيًا.»
- ابتلعت ريقِي وتعليقي، ليس الوقت وقت عتاب أو لوم أو تنظير.
- «كنا على وشك البدء، لكن المشوار انتهى قبل أن يبدأ.»
- «لقد ساحتك يا ساري، ومنذ زمن بعيد، هي لم تغضب عليك يومًا، ولم تُلْمَك.»
- «هل تعتقدين أن هذه المعلومة تبدو جديدة علي؟ أعرف ذلك قطعًا، المسألة الآن ليست في مساحتها لي، بل في مساحتِي لنفسي، وهذا أصعب بمراحل مما لو كنت أطلب السباح من ميتة في تربتها!!»
- وضعت يدي على كتفه وقلت برفق:
- «بدت الأيام الأخيرة عامرة بالوفاق بينكما، وبدأ أن خلافكما لم يُكتب له الاستمرار.»
- أبعد كتفه عن يدي بحركة حادة وهو يجيب:
- «وما الذي أوهمك بأن خلافًا نشأ بيننا أصلًا؟»
- «علامَ تلوم نفسك إذن؟»
- قلتها محاولة ألا يبدو أسلوبِي هجوميًا قدر الإمكان.
- «على تأخري في فعل ما أرادت مني فعله منذ زمن.»
- «ساري، ترفق بنفسك، لقد ماتت وهي راضية عنك، وهذا سبب كافٍ لترضى عن نفسك.»
- «غيم، توقفي عن محاولة إقناعي بشيء لن أقنع به، وفري مجهودك

لأن المسألة ليست عقلية الآن. أنا عاجز عن التفاهم مع نفسي، وعن فهمها!

نظرت لعينه وقلت بثبات:

- «هل لي أن أسمح لنفسي بافتراض أنني أقرب إليك من نفسك؟»

تقوّست زاوية فمه في ابتسامة جانبية تحمل سخرية مرّة.

- «نفسى أبعد من أن يظن أحد -مجرد ظن- بأنه قريب منها بما يكفي، أو أنه قادر على فهمها، بعيدة جداً جداً، عني، وعنك، وعن أي أحد في العالم!»

عاد ينظر لسطح المياه في سكون، وعدت أتنهد بحرارة وأنا أشعر أن روحي محاصرة في ثقب إبرة. قلت هامسة:

- «ماذا حدث؟ أعني.. مساءً؟»

هز كتفه بتخبط.

- «لم أع تماماً، لكنني كنت في الخارج، وعدت في وقت متأخر، حين عدت كان عقلة المجنون يقف أمام الباب، رأني فضحك كاشفاً عن أسنانه النخرة، وطلب مني بعبور -غير مبرر- أن أعطيه شيئاً يتناوله، دخلت لأجد له شيئاً ما لكن.. سمعت صوتاً غريباً في الأعلى، حيث غرفة أُمي، صعدت إليها مسرعاً، لأجد.. لأجد الفراش، والأرضية، وكل ما وقع في نطاق يشكل دائرة حولها، كل ذلك كان غارقاً في الدماء، دماء استفرغتها تحديداً، حين وصلت كانت قد انتهت من تلك العملية، وبقيت ممددة على الفراش بلا حراك، وبلا دماء، تتأمل سقف الغرفة بعينين مفتوحتين، ولا تتنفس فيما بدا لي، اقتربت منها وهزرتها، وحاولت التحدث إليها، استطعت تمييز نبض خافت في معصمها؛ لذا كان أول ما خطر لي أن أسرع بإحضار خالتي رؤوم، لم أعرف أنه كان علي البقاء جوارها فقط؛ لأن هذه كانت آخر فرصة لفعل

ذلك.»

أنهى كلامه وعاد لعوالم شروده، فيما كانت تتجاذبني ثلاثة مشاعر، الريبة من تواجد عقله في وقت كهذا، والفرح مما تعرّضت له خالتي قبل موتها، كأنها لم تستحق حتى أن تموت بهدوء ودون عذاب، والألم الحارق على ساري، الألم الذي يتضاعف في كل ثانية تمضي معه. بحذر قلت:

- «أنت بحاجة إلى الراحة، لم لا تعود للمنزل؟»

- «المتعب فقط من يحتاج إلى الراحة، وأنا لست متعباً.»

قالها مغمضاً عينيه بانزعاج.

- «لقد عدت إلى المنزل في الحقيقة، دخلت غرفتها فلم أجدها، واستغرقت وقتاً طويلاً لأقبل فكرة أنني لن أجدها هناك في أي وقت لاحق من الآن وصاعداً، لم يكن ذلك سهلاً، لكنني تقبّلت في نهاية المطاف.»

كان يتسم ببساطة، كأنه يحكي قصة أطفال. فيما كنت أوبّخ نفسي على إلحاحها الشديد على البكاء للمرة الثالثة في يوم واحد، صحيح أنه اليوم الذي توفيت فيه خالتي، لكنه ليس مبرراً كافياً لترك مسؤولياتي، سأتفرّغ للبكاء لاحقاً.

- «زرهما، لا تتوقف عن فعل ذلك، هما بحاجة إليه.»

- «فعلت، جالستهما لوقت لا بأس به، لكم بدوا هادئين ووديعين أثناء رقدتهما تلك، أهذا ما أردته؟ اللحظة بمحادثة ساكنة يكون كل أطرافها صامتين وهادئين؟»

التزمت الصمت من جديد، حزنه مؤلم، وندمه الخفي أشدّ ألماً.

- «لم لم توافيني هناك؟ أتخافين المقابر يا غيم؟»

وجدته يقولها فجأة وهو يسلط أنظاره علي، ويتسم بسماحة، ليس الوقت ملائماً للمزاح، لكن أي شيء سيخفف عنه مقبول الآن.

- «بالمناسبة، ماذا كنتِ تفعلينه في الخارج وقتها؟»

كأنها سحر، أعادت عبارته إلي مشاعر الليلة الفائتة، بنفس انقباض الصدر وضيق التنفس وقلة الإدراك، نفضت رأسي وقلت بخفوت.

- «قصة طويلة، سيحين وقت قصّها لاحقاً.»

- «بدوتِ كما لو أنكِ.. كنتِ راغبة في طلب شيء مني.»

طريقة شاذة في الاعتذار، ككل طرقه في فعل كل شيء. هزرت رأسي بسماحة وقلت:

- «لا عليك، لم يكن ضرورياً.»

قال شيئاً بابتسامة، لكنني لم أسمع، عوضاً عنه سمعت صوتاً عالياً ومفزعاً، جعلني على وشك فقدان وعيي، إثر ملامسته لذكرى مرعبة مررت بها قبل أيام قليلة. أدار ساري رأسه لينظر إلى جهة صدور الصوت، ثم عاد يبصره إلي وقال بهدوء:

- «رجال حماية قريتنا يعوزهم التمكن بالفعل.»

نهضت بارتباك فنهض ورائي.

- «ماذا تنوين فعله؟ عودي للبيت.»

- «ربما خلف الهجوم ضحايا، الجرّة لا تسلم في كل مرّة، والشوارع عادت للحياة بعدما أفاق الناس من آثار الاحتفال!»

نظر إلي بنوع من الضيق.

- « ليس عليك أن تحشري أنفك في كل شيء، هل تخططين للمساعدة في رفع الأنقاض ونقل المصابين؟ »
- « سأفعل لو لزم الأمر، ما دام غيري لن يتكفل بذلك، على أحدهم أن يبادر على الأقل! »

أطال النظر إلي بعينين خاويتين، ثم وضع يده على كتفي واقتادني بصمت لتتجاوز نطاق الغابة، كان الحصان الطائر واقفاً هناك، يضرب الأرض بقدمه في ملل أو تحفز، دعاني للركوب فأذعنت دون أن أسأله عما يفكر فيه، ركب أمامي وقال وهو يمسك باللجام:

- « سأساعدكم بدلاً منك يا صغيرة، لكن ستعودين للبيت أولاً. »

لم أقل ذلك من قبل، لكنه ليس شعوراً مستجداً بلا شك: أنا أحب ساري، أحبه بشكل غير عادي، لأقصى حد يمكن أن تحب الأخت أخاها به، بصيغة أخرى: بلا حدود! مارس الطائر هوايته في طي المسافات والأوقات معاً، لكن توقفه المفاجئ كاد يسقطني من فوق ظهره، لم أتبين ما هنالك إلا حين جذب ساري لجام الطائر ليستدير به بسرعة جنونية، لأرى جذع شجرة عملاقاً يعترض الطريق، ليس هذا وحسب، بل وتتصاعد النيران على جوانبه بجشع غير عادي، لقد انفجرت كرة أخرى ها هنا!

في دقائق أصبحنا في ساحة القرية، أجبرنا على السير من هناك برغم محاولة ساري تجنب ذلك لسبب ما، وكانت الفوضى والصراخات وروائح الدخان في مجال حواسنا من هذا الموضع، ليست قرية إلى حد رؤيتها بالعين، لكن خطوات كانت تفصلنا عنها، وكانت الساحة في حالة مفهومة من الفوضى والزحام وتصادم الناس بين رجل حماية يسرع إلى الموقع، ورجال يحملون دلاءً مملوءة بالماء، أو يصرخون بفرع وهم يتجهون صوب المكان. من بين

الصرخات كانت واحدة قريبة جداً منا، ليست من رجل، بل من فتاة، تدعى زنبق، لها سوابق إن كانت ذاكرتكم قوية كفاية.

- «أنا أعرف من فعل هذا! أعرف أين يخفون أسلحتهم، الخونة يختبئون داخل قريتنا، إنها تلك العائلة الزرقاء، ابنتهم كانت تحمل واحدة منها أمس!»
لماذا وجد صراخها طريقاً ممهداً لأذان الجموع، من بين ألف صرخة أخرى ممكنة؟ بسرعة خارقة انقسم الناس لقسمين، قسم استمرّ في صبّ اهتمامه على أمر الحريق والانفجار، وقسم تحفّز لينطلق إلى منزل العائلة الزرقاء، ويفعل ما سيتيسر له بعد ذلك.

ملت على أذن ساري وهمست بفرع:

- «لقد عنت تبر بكلامها!»

لم أعرف إن كان سمعني حتى وجدته ينعطف بالحصان، مع تيار الحشد الغاضب، ومن موضعي المرتفع نسبياً، استطعت رؤية أنور يركض بفرع بين الناس، كان من ينتبه له يفسح الطريق، لكن بقي الوصول المبكر صعباً حتى بالنسبة إليه. ما إن لاح المنزل في مجال إبصاري، قفزت من فوق الطائر وأكملت الطيران بنفسي، بطريقة ما كنت عند باب المنزل خلال دقيقة، لكن للأسف، قائد رجال الحماية الجديد الشاب (بائد)، شقيق زنبق الأكبر بالمناسبة، كان قد سبقني في الوصول مع ثلة من رجاله، وإثر الضجة المستحيلة التي صنعتها مئات الأصوات أمام المنزل، لم يكن أمام العم جواد إلا أن يخرج من منزله وعلى وجهه تعبير تساؤل وذهول وفرع، وعينه الزرقاوان عاجزان عن استيعاب كل هذا الكم من الوجوه الغاضبة دفعة واحدة. بعنف ونزق قال بائد:

- «أفسح الطريق، منزلك يجب أن يخضع للتفتيش.»

- «أي هراء! من أعطاك الحق بتفتيش منزلي أيها الولد؟!»

دفعه بائد بشراسة وأشار لرجاله ليدخلوا، صرخ العم جواد بجنون:

- «هناك نساء في المنزل!»

أخذت أتلفت حولي بذعر، ما يحدث جنوني، يشبه ما كنا نسمع عنه من أساطير حول إجرام ذوي الأعين الزرقاء وبطشهم ضد الأبرياء، ما معنى أن يقتحم منزله ويدخل على نسائه على مرأى ومسمع أهل القرية دون أن يشعر أحدهم بمدى القذارة في هذا! نظرت لساري فرأيتُه واقفاً في الخلف، ممسكاً بلبجام الطائر ومصنّماً مكانه في نوع من الدهول، أو عدم الاكتراث، وهو ما لا أريد أن أظنه.

- «توقف! ما هذا الذي يحدث؟ أنت، أبعد يدك عنه حالاً، دعه ينبّه نساءه ويخلي المكان، هل جنت؟!»

نظر بائد لأنور -الصارخ في لوعة- نظرة حارقة، في حين انصاع بقية الرجال لأمره، باضطراب دخل العم جواد إلى منزله ليعود بعد قليل، وخلفه تبر والحالة حسناء في ثيابهما، ثم وادع بوجه مصدوم لم تفارقه آثار النوم بعد، لعله أفاق من كابوس ليجد نفسه في كابوس أسوأ. كقطيع من الثيران، اقتحم رجال الحماية منزل العم جواد، ركضت لأقف بين تبر ووادع، نظرا إلي في دهول وفزع فبادلتها النظرة بمثلهما، لم يطل انتظار الناس ونظراتهم المشحونة تجاه العائلة المتخبطة حتى عاد رجال الحماية، ظهر بائد من منتصفهم وعلى شفثيه ابتسامة ظفر واسعة كمن نال بشرى بدخول الجنة، وأمام الجموع المتلهفة، رفع كرة زجاجية صغيرة مألوفة للجميع.

سُلّطت الأحداق الملتهبة على العم جواد المذهول، ولولا تحفز رجال الحماية واستعدادهم للانقضاض عليه ما كانت الجموع لتتركه حياً، نظرت

إلي تبر فرأيت لَجَّتِي عينيها الزرقاوين وقد حجبنا بطبقة كثيفة من الدموع،
العم جواد بريء من كل هذا! فتحت فمي لأقول ذلك، لكن صوتي لم يخرج!
تأخرت ثانية واحدة، قبل أن...

- «توقفوا لحظة! أبي لا دخل له، أنا المسؤول عن ذلك!»

انتقلت الأنظار إلى وادع، لم يكن قد أنهى كلامه بعد، كان لديه تفسير
يلي هذه العبارة، لكن أحدًا لم يمهله، تعالت الصيحات والهتافات تطالب
بمعاقبة الخائن الأزرق، وانقضَّ رجال الحماية يقيّدون معصميه خلف
ظهره، ويقتادونه بعنف ليسير معهم، كانت الخالة حسناء تتشبث بذراع العم
جواد وتهزه في توسل، كان هذا أقصى ما استطاعت فعله، أما العم جواد فلم
ينفكّ ينظر إلى الموقف كله بذهول، منذ يوم النبذ إياه، لم يستطع استيعاب
أي مما يجري له ولأسرته. تعلّقت عيناى وعينا تبر بعيني وادع المقتاد بعيدًا،
التفت لنا وظهر شبح ابتسامة على شفتيه، لقد ضحى بنفسه كي يُبعد عنا
الأذى، لقد تحمّل عاقبة تصرفنا الطائش غير المسؤول! لماذا يا وادع؟ لماذا؟!

خلا الطريق من حولنا، الجميع تبع الموكب التعيس، ألقى أنور نظرة
مضطربة علينا وتبعهم بدوره، فجأة وجدت الأرض تميد من تحت قدمي،
كدت أسقط لولا أن أسندني أحدهم، ساري، أمسك بي برفق، نظرت إليه
بعينين تائهتين وهمست:

- «هذا كثير!»

لم يعلق، ولم يُبدِ رد فعل، نظرت لتبر، وللخالة حسناء، وللعلم جواد، لا
أحد أدرك ما حدث، الكل في حالة صدمة، تماسكت ووقفت على قدمي،
قلت بتصميم ما استطعت:

- «سأخبر أبي.»

- «لا!»

قالها العم جواد، برغم أن النظر إلى وجهه الواجم لا يوحي بأنه من تكلم، تابع بصوت لا يكاد يُسمع:

- «ليس بيده ما يفعله، لقد سببنا له الأذى بما فيه الكفاية!»

نظرت لتبر المنهارة، لقد بكت كثيرًا في الآونة الأخيرة، وفي هذه المرة تحديدًا، يمكنني أن أقول إنني السبب المباشر لما جرى، علي أن أصحح غلطتي مهما كلف الثمن! أبعدت يد ساري عني وانطلقت راكضة، كنت أشعر بالدوار والتعب، لكن كان علي أن أفعل شيئًا.

ليسا هنا، مسّطت المنزل كله ولم أجدهما، أصابني هذا بشيء من الفزع، لكنني وضعت توقعًا احتياطيًا. خرجت وركضت مسرعة نحو المزرعة، ببطء اقتربت من شجرة الأراك المرتفعة، لم يخب ظني، هما هناك، يجلسان في صمت متجاورين، يضم أبي أُمي إليه، وتسند رأسها على كتفه بوداعة، دار رأسي من المشهد، العم جواد محق، ليس علي إخبارهما، أُمي فقدت أختها للتو، وهي تعد وادع وتبر وساري أبناء حقيقيين لها، ليس عليها سماع هذا الخبر، أما أبي المسكين؛ فإن كل صلاحياته تقريبًا قد انتزعت منه، ولو كان باستطاعته فعل شيء لأحد لكان أولى به أن يفعل لنفسه. أيًا كان حل المشكلة هو لن يكون عند أبويّ، وكسر جزء جديد من قلبيهما ليس أفضل ما علي فعله الآن، ليس في يوم واحد.

- «غيم، ما بك يا صغيرتي، هل حدث شيء؟»

قالها أبي بقلق وهو يتأمل وجهي الذي بدا -قطعًا- كالمصيبة.

- «شيء إضافي؟ ما الذي يمكن أن يحدث أكثر؟»

قلتها بلهجة غير مقنعة، وتقدمت بشروء لأجلس جوارهما، أمي لا زالت تراقب طرقات القرية في الأسفل، كانت تدقق في العابرين الذين بدوا ضئيلين من هذا الموضع، شعرت أنها تبحث بينهم عن ملامح أختها، وتحاول تمييز مشيتها المتعبة بين ألف مشية مختلفة. نظرت إلى حيث نظرت، لكن ذهني ذهب لناحية أخرى، حل هذه المشكلة يقع على عاتقي، ليس ككل مشكلات القرية، بل تحديداً هذه المشكلة التي كنت السبب فيها. على الجميع أن يعرف حقيقة ما حدث، أنا السبب في وجود الكرة في منزلهم، والدافع أبسط بكثير من غرض الخيانة أو العمالة، فضول بريء ليس أكثر. لكن من سيسمع؟ إلى من أتوجه بشهادتي؟ إذا كان أنور -الحاكم عملياً- قد عجز عن إيقاف الغوغاء وإفساح مجال لوداع كي يبرر موقفه؛ فماذا بوسعي أنا أن أفعل؟

شعرت بحركة خفيفة ورائي، التفّت ولم أجد شيئاً، عمّ الصمت وعلا صوت الأفكار مجدداً، حين عاد الصوت، ومعه صهيل جناح هذه المرة، نهضت بهدوء محاذرة من إثارة توتر والدي، كانت عوالم هواجسها أكثر إحكاماً من أن تترك ذهنهما يفتن لهوضي. بحذر اقتربت من الإسطبل؛ لأسمع صوت خطوات، ارتجفت خوفاً، ثم تحوّل إلى غضب، أيّاً كان الذي أتى إلى هنا ليؤذينا فإن عليه أن يتحمل غضبتي المجنونة من كل ما هو حولي، لقد أتى لقدره!

قفزت من مكاني مرة واحدة لأنقصّ على الشخص الذي قدّرت موضعه من صوت خطواته، حين سمعت صرخة مدعورة صغيرة:

- «توقفي، إنه أنا!»

في اللحظة التالية كنت وإياه نتدحرج على الأرض، نهضت بسرعة

وساعدته، ماذا كنت أحسب نفسي فاعلة؟ لاحظت أنني أقوم بالكثير من التصرفات دون تفكير مسبق في الآونة الأخيرة. خلل شهاب شعره بأصابعه ليسكنه بعدما انتفش جرّاء وقوعه، قال وهو ينظر إلي بنوع من الخوف:

- «أنا آسف، أتيت لرؤيتك، لكنني رأيت فرسك وأحببت أن أتحمس رأسها، فقط.»

وضعت يدي على ظهره وزفرت مفرغة توتري.

- «بل أنا آسفة، يبدو أنني كنت متحفزة كثيرًا.»

- «ما الذي حدث؟»

قالها أبي لاهثًا، نجحت في الابتعاد دون لفت انتباهه، لكن صرخة شهاب فعلت اللازم. أخبرته بما جرى ببساطة، في حين جذب شهاب كمّي وابتسم ابتسامة لطيفة.

- «كنت آتياً لإخبارك بخبر هام وحصري.»

- «خبر هام وحصري، وسعيد استناداً إلى ابتسامتك، بشر؟»

أحاط فمه بكفه وقال بخطورة:

- «ليلة אחتي ستكون هنا الليلة، ليس وحدها، بل مع جنين صغير يسكن بطنها، منذ ثلاثة أشهر، سأصبح خالاً!»

اتسعت عيناى في مفاجأة، الشائعات لم تكن صحيحة إذن، فقط ألسنة الناس تكره البقاء دون ثرثرة. أضاف شهاب:

- «أخبرت أمها في رسالتها أنها تريد رؤيتك حين تصل مساءً، والخاله يحمل أرسلتني الآن لأسألك إن كنت آتية.»

ارتبكت، ليس بعد موقفني مع أنور ليلة البارحة، من واجبي أن أفرح لصديقتي ليلة وأهنتها بحملها، لكن الظروف والخطوب شديدة، حتى أنني عاجزة عن التبسم بضمير مرتاح، هذا إن وجدت ما يدعو لذلك.

- «هل ذهبت لمنزل خالتك محمل يا شهاب؟»

قالها أبي، كان تقرّب شهاب من أخويه وأمهما مسألة مبهمة بالنسبة له، ابتسم شهاب وأوماً مجيئاً:

- «أنور دعاني لتناول قطع من الكعك، أراد أن يخفف عني بعد ما حدث مع الصبية في السوق.»

- «ماذا حدث مع الصبية في السوق؟»

نظر إلي وتلوّن وجهه، قال بخفوت وهو يحفر الأرض بقدمه:

- «نصيحتك، لقد كانت.. صحيحة.. مع الأشخاص الخطأ، هذا ما قاله أنور. حملت صندوقاً من حلوى الفواكه والسكر التي يصنعها وسم، واقتربت من مكان اجتماعهم لأوزعها عليهم، لكنهم.. لكنهم سخروا مني، وقالوا إنني أستمع إلى كلام فتاة معادية للصفراوية، وإنني سأظل شخصاً سيئاً، ولن أحظى ب صداقتهم مهما فعلت.»

جثوت على ركبتني ووضعت يديّ على كتفيه بوجع.

- «هل تقول إنني كنت السبب في نبذك؟»

هز رأسه سلماً بإصرار، برقت في عينيه لمعة غريبة وهو يجيب:

- «أنت أكثر شخص ساعدني، قاسط هو السبب فيما جرى، سمعت أحد الأولاد يقول ذلك، يقول إن قاسط أخبرهم أنني عنيف وسيئ الخلق لأنني أكره الصفراوية، وأتبع كلامك وكلام الزرق. وصغار القرية كلهم

يحبون الصغراوية يا غيم.»

- «ولماذا فعل قاسط ذلك؟ أليس ابن خالتك؟»

وجم شهاب، قال بعد لحظات تفكير:

- «لأنه أمرني بفعل شيء.. وأنا رفضت.»

- «شيء؟ ما هو؟»

هز رأسه سلباً بمعنى أنه لا يريد التحدث.

- «وعدتك أنني لن أتسبب في جعل أحد يتحدث عني بالسوء مجدداً،
أسف لخلف وعدي.»

- «غير صحيح، وعدتني أن تحاول، وقد فعلت ما بوسعك وأكثر،
ثم إن طلبي كان خاطئاً من الأساس، كلام الناس ليس الشيء الذي نعمل
لأجله، ونحسن أخلاقنا وقلوبنا لنحوزه؛ لأننا نحرص على رضا الله، وعلى
تقديمه على رضا أي مخلوق!»

ابتسم بصعوبة، في حين نظرت لأبي متسائلة فوضع يده على كتفي.

- «لا بأس يا ابنتي، اذهبي، الأحباء يحتاجون إلى فرحك لفرحهم، كما
يحتاجون إلى حزنك لحزنهم.»

- «لكنني شخص واحد يا أبي، كيف لي أن أفرح لأجل ليلة، وأحزن
لأجل خالتي، وأفلق على وادع في وقت واحد؟»

- «الحياة ليست مستقيمة، ولا تسير في خط واحد، الحياة متعرجة، مرة
في قمة السعادة، ومرة في قاع الألم، ويمكن أن يحدث الضدان في آن واحد،
أنت تتصورين أنك تسيرين في طريق محدد، نحو وجهة معروفة، لكن الحقيقة
أن المسارات ستشعب بك كل لحظة، وستسلكين طرقاً لم تتوقعي سلوكها،

وستظهر لك أزقة لم تعرفي بوجودها، لكنك ستقطعين كل ذلك في النهاية، ومؤوتك هي ثقتك بربك وإيمانك بقدره، ثم احتكامك لما وهبه لك الله من فهم، ومقدرتك على التعايش مع كل ظرف بما يناسبه.»

هزرت رأسي بفهم، أبي ينصحني بالذهاب، وهذا حق ليلة علي، لم أتصور يوماً أن يصبح الفرح مهمة شاقة تستدعي إجبار النفس.

- «لحظة، هل قلتِ وادع؟ ما به وادع؟»

أسقط في يدي، إلى أي حد من الحماقة وصلت؟ أدار شهاب نظراته بيننا في فضول، ثم قال فجأة:

- «آسف لمقاطعة حديثكما، لكن علي الذهاب قبل أن تغضب أُمي، وأريد غيم في كلمة على انفراد إذا سمحتما.»

بصعوبة أبعد أبي عينيه المحترتين والمنزعجتين عني، تراجع عدة خطوات وخلا المكان لنا، قال شهاب بابتسامة:

- «أنقذتك.»

- «مؤقتاً، لا يوجد لديك ما تقوله إذن؟ لقد اختلقت ذلك.»

- «لا لا، أنا صادق، لقد وعدتك بألا أكذب مهما كان السبب، الحقيقة أنني تذكرت كلامك المتشكك عن عقلة المجنون، وقبل أن يحدث انفجار اليوم بقليل، لمحتة يسير عبر الغابة باستعجال، تبعته لأجلك وأردت معرفة وجهته، بدا كما لو كان قد شعر بي؛ إذ وجدته يراوغ حتى اختفى عن ناظري لبضع دقائق، وحين وصلت إلى قلب المنطقة، لم أرَ غير ساري جالساً عند البحيرة، سألته عنه فأخبرني أنه لم يره، حاولت البحث في عدة أماكن، وحين وصلت إلى جهة الغابة الأخرى، استطعت تمييزه بعيداً عند منطقة الجبال،

كان يتلفت حوله بطريقة مريبة، فجأة ظهر شخص وتحدث معه قليلاً، وسارا متجاورين حتى اختفيا عن ناظريّ.

- «إلى أين ذهبا، أتعرف؟»

توهّج خداه بخجل:

- «خفت من تتبّعهما، سمعت الكثير من القصص المخيفة عن منطقة الجبال.»

هزرت رأسي بتفهم، أنا نفسي خفت من السير فيها، وكنت في قمة السعادة حين ظهر سا... ساري! مجدداً تتكرر ثنائية ساري وعقلة!

- «سأذهب الآن، حسناً؟»

- «في أمان الله، وشكراً لك، انتبه لنفسك.»

ودعني بابتسامة وركض مبتعداً، في نفس الثانية كان أبي فوق رأسي، ولم أجد بُدّاً من قصّ كل ما حدث عليه.

- «وآخر ما حدث أن عمك جواد رفض أن تخبريني.»

قالها بنوع من الشroud، كان غريباً منه أن يترك كل ما حكيته ويتمسك بهذا الجزء تحديداً، أكّدت له ذلك فقال بضيق:

- «كانت غلطتي أن صارحته بما حدث في الدار، لكن ألم ينتبه لملاحظتي؟ لقد كان أصفر العينين لا أزرقهما!»

- «وما الذي حدث في الدار؟ ومن هو هذا الأصفر؟»

نظر إليّ بذهول، لستُ الوحيدة التي ينزلق لسانها ها هنا.

- «لا تقل إنك أخفيت عني شيئاً بهذه الأهمية!»

- «حسناً.. في الواقع.. ربما لم يكن من المهم أن تعرفي؛ إذ ما الذي كنتِ ستفعلينه على أي حال؟»

- «أبي، أرجوك، ما الأمر؟»

- «لمَ تظنين أنني.. أنني طُردت من الدار؟» وضغط على حروف كلمة (طُردت) بخرقة. «لا بد من سبب لكل شيء.»

- «ليس مع الصفراوية، الصفراوية يكفيها أن تخالف هواها!»

تنهد بهمّ وغاب إدراكه للحظات، لعله كان يسترجع خلالها تفاصيل ما حدث، ويزن طريقة إخباري بها في ذهنه.

- «لقد بلغوا حدوداً لا تُصدّق في التبجّح يا غيم، معلّموا حارقي المحاصيل والجدارين والصفراويون على حد سواء، بعيني رأيت المشهد، وكانت نجوم السماء أقرب إلي من البقاء صامتاً، أعمى وأصمّ ككل الحضور. لقد خرج الصبي من درسي، صبي في السادسة فقط، وبمجرد خروجه أمسك به أحد معلمي حارقي المحاصيل، وجذبه بنوع من الإجبار وهو يحفّزه على دخول قاعته، بدا الصغير غير مرتاح على الإطلاق، وأخذ يقول إنه غارس فسائل، ولا يريد معرفة شيء عن حرق المحاصيل، هنا تدخل أحد المعلمين الواقفين، معلمينا، تجاوزاً.»

- «لا بد أنه حاول تخليص الطفل من قبضة المعلم إياه.»

ابتسم بمرارة، وقال بلهجة تتقاطر الحمم مع حروفها:

- «بل إنه وبّخ الولد، من علّمك هذا الكلام يا فتى؟ نحن هنا -في بلاد الصفراويين- نحترم الجميع، لا فارق بين غارس فسائل وحارق محاصيل ما داما متحدين في لون العينين!»

تدلى فمي في دهشة، قلت كالمبهوتة:

- «لا فارق بين من يبني ويعمر، ومن يهدم ويدمر، ما داما متحدين في لون العينين. احترم الهدامين يا صغير؛ لأن لون أعينهم أصفر، وأبغض البتائن، لأن لون أعينهم لا يعجبك!»

هز أبي رأسه بتأثر، وأكمل بصوت مختنق:

- «كان علي أن أتدخل، هذا صبي يضيع عقله أمام عيني، يجذبه حارق محاصيل متحفز من جهة، ويجذبه صفراوي معلول المبدأ من الثانية، وإيمانه واعتقاده وميزانه الذي يميّز به بين الخطأ والصواب معلق بينهما، لا يجد أرضاً راسية يثبت قدميه عليها، ولا يقوى دفعاً للمخالفات التي يسكبها هذان في أذنيه. حسناً، لقد انقضضت -عملياً- على حارق المحاصيل، وحرّرت يد الفتى من يده، وصرخت فيه بحمّة أن هذا الطالب يخصني، وأنه مسؤوليتي، وأن بقائي في الدار يعني بقاء هؤلاء الصغار في مأمن من أفكارهم الهدامة.»

توقف عن الكلام وأغمض عينيه بتعب من ذكرى الموقف، وضعت يدي على ذراعه بتعاطف ففتح عينيه ونظر إلي وتابع.

- «حدثت مشادة كلامية، الكثير من النعوت بالتشدد والتزمت والعنصرية وضيق الأفق، تدخل المعلمون الآن، ليقفوني عن إجابة إهاناته، ولم يتعرض له أحد أو يحاول إيقافه، هرب الصغير باكيًا خائفاً، وكان هذا عزائي الوحيد أن أنقذته، ثم كان من الطبيعي أن يسعى الحارق لتصعيد الموقف في ظل تعاطف المحيطين معه؛ لذلك وثب علي بعنف وألقاني أرضاً.»

- «...ماذا؟!»

- «بصعوبة جذبه الجمع وأبعدوه عني، نهضت عاجزاً عن رؤية ما

حولي، هذه الدار التي كنت أحترمها وأصونها، لم تحترمني ولم تُصن كرامتي، وتركت حارق محاصيل أخرج يمدّ يده عليّ أمام الجميع. من مكان ما ظهر أنور، صرخ كثيراً وألقى الكثير من الأوامر التي لم يتركني ذهولي أسمعها، اقتادني برفق إلى غرفة مدير الدار، بعد قليل تم استدعاء الشهود الذين كانوا واقفين، وبشكل ما، ثبت أنني كنت البادئ، وأن غريمي لم يحاول إلا الدفاع عن نفسه، ثم تبين أن حرم الدار أرقى من ضمّ عنيفين أو منغلقيين أو همجيين، و.. وتمّ طردي!!

اعتصرت قبضتي في.. لا، ليس في غضب، بل في شعور أقوى بكثير، أعمق بشدة، وأكثر إيلاً وحرقة، رأيت دمعين تشقان طريقيهما وتتغلغلان داخل لحية أبي، أبي تعرّض للإهانة، داخل الدار التي كان أبرز معلميها وأكبرهم، وأنا عاجزة عن استرداد حقه! انفجرت في البكاء، تقدّم أبي بألم ليضمّني، لكنني تجاوزته راكضة، بسرعة الريح حرّرت جناح من باكيها، امتطيتها وتركتها تمتطي الرياح بدورها، وأنا أبكي فقط.. أبكي!

وجدتني في منتصف الغابة، للمرة الثانية هذا اليوم، مررت بأناس كثيرين في طريقي، رأوني ولم أرهم، والجزء الأفضل أن أحدهم لن يتساءل عن سبب بكائي، طرد أبي وأهين، توفيت خالتي، وسُجن أخي، لا أحد يحق له أن يبكي في هذه القرية أكثر مني.

ترجلت عن جناح، مع أمنيات حارة بالأجد ساري، على الأقل، هذا شيء واحد يسير كما تمنى...

- «أنت بخير؟»

لا شيء يسير كما تمنيت، لم أطق النظر لوجهه، لسبب ما حملته مسؤولية

كل ما يجري؛ فبغض النظر عن أنه كان الوحيد الحاضر حين وجدنا الكرة الزجاجية وأخذتها تبر، وأن زنبق كاذبة ولم يكن لها أثر في السوق يومها، ولا أي أحد آخر، لا أريد الاستعجال في القفز إلى الاستنتاجات وعقلي في هذه الحالة من التشتت، لكن ذاكرتي عاجزة عن إبعاد هذه الحقيقة عن الصدارة.

كنت أقول، لو أن عقلة عاد، وأنه يحاول متابعة البحث عن سر الخلود من حيث توقف، وأن ساري شريكه أو مساعده ولو بأدنى أشكال المساعدة؛ فإن هذا يعني ببساطة أن كل ما يصيب القرية من دمار هما مسببها، وهو ما لن أسامح ساري عليه أبداً، ربما أسامح عقلة، لكن ساري، أخي، مستحيل!

للمرة الثانية أتجاوز محدثي وأقفز على صهوة جناح، هذه المرة أعرف إلى أين سأتحج، شققت الغابة عرضياً وخرجت من الجهة الأخرى، وتابعت طريقي عبر منطقة الجبال، سأعود لتلك العجوز، وسأسألها عن كل حرف أخبرتني به، وسأعرف الكيفية التي وصلت بها تلك الأخبار إلى مسمعها الضعيف. ولو حالفني الحظ، ربما أجد عقلة حيث رآه شهاب، وساعتها، لا أعرف ماذا سأفعل له، حقاً.

- «توقفي!»

لا أعرف كم مرّ عليّ وأنا أسير بين هذه الطرقات المتشابهة قبل أن أسمع هذه العبارة، اعترض طريقي بحصانه فأجفلت جناح ووقفت على قائمتيها الخلفيتين بفزع، كدت أسقط عنها لولا أن ترجّل ساري وأمسك لجامها ليسيّط عليها، كل هذا حدث بسرعة خاطفة. كرزت على أسناني بقوة مرعبة ونظرت له بعينين تقدحان شرراً.

- «أنت لا تُصدّق!»

- «أيتها الحمقاء، كنتِ على وشك خوض منطقة الرمال المتحركة، كنتِ

ستغرقين دون أن تجدي أنور ينقذك!»

أغاظتني معرفته بهذا الأمر، وأغاظني أكثر إنفاذه لي الآن، بل إنه أذاني بأكثر مما كان سيؤذيني الغرق بين طبقات هذه الرمال.

- «أنت قليلة خبرة، أتفهم أنك حريصة على زيارة صديقتك المجعدة، لكن السير بمفردك خطر».

- «ساري، آخر شيء أريد رؤيته الآن هو وجهك!»

نظر إلى وجهي بذهول، لم يتوقع تهجمي المفاجئ، لقد كنا نتحدث قبل ساعات قليلة بمنتهى المودة، خاصة أنه فقد والدته للتو، وأنه بحاجة إلي وإن لم يقلها بصراحة. نفّض رأسه وحاول السيطرة على انفعالاته وهو يجيب:

- «كما تحبين، انتبهي لنفسك».

بطء سار بحصانه في الطريق المعاكس، ولم أكن مستعدة للاعتذار أو تطيب خاطره، صباح اليوم أكدت أنني أحبه، ما أشد السرعة التي تتغير بها مشاعر الناس، أنا حقاً عاجزة عن تقرير أمر كهذا الآن، لا أعرف لم قد يرغب ساري في إيذائنا، لكنني سأعرف.

- «ليس من هناك، يا حمقاء!»

إنه محق، لقد كدت أتابع السير في نفس الجهة!

- «استديري يساراً، ثم واصلي السير!»

كان ذلك سخيلاً أن أبدو محتاجة إلى توجيهه بهذا الشكل، بانزعاج استدرت كما قال، وتابعت سيرتي؛ فسمعت صوت خطوات الطائر يبتعد، آن لذهني أن يشرد من جديد، ولتقد جناح نفسها. حين مرّ وقت شعرت أنه كافٍ، أفقت ونظرت إلى أين وصلت، من المفترض أن يكون المنزل على

يميني الآن، كما حدث يوم أتيت مع ساري، هذا لو لم أنه طبعاً، أهو الشبح المستتر بالضباب هناك؟ لا أعرف منزلاً آخر يمكن أن يكون هو. كدت أترجل عن جناح لأكمل الطريق الوعر على قدمي، لولا أن لمحت حركة خاطفة عن يساري، هذا لم يكن وهماً، الشمس تغرب عن يساري، وظلي عن يميني؛ فلمن يتبع الظل المتحرك أمامي مباشرة؟ نظرت بتركيز وفزع؛ لأميز الأسهل البالية والمشية العرجاء، كان يجري بسرعة لا بأس بها برغم عرجته، فجأة شعرت أنني أتحوّل إلى وحش، بجنون لففت لجام جناح وأدرتها وأنا أهيب بها أن تركض بأقصى طاقتها، الطريق أسفلنا شبه مهّده، لكن الطريق الذي يركض فيه عقلة شبيه بالمنطقة المحيطة بمنزل العجوز، غاية في الوعورة والتعرج. برغم ذلك لم أكن مستعدة للتفريط به، سأمسكه يعني سأمسكه. صرخت في جناح:

- «انطلقني بالطريقة التي تليق بك، أنتِ لن تدعي مجنوناً أعرج يسبقك!»

فهمتني، دائماً تفهمني، أكثر من كثير من البشر، تضاعفت سرعتها عدّة أضعاف، وفاجأتني بقفزة مستحيلة مهبطها أمام عقلة مباشرة، سارت كل الأمور كما يجب، لولا أن استقرّ حافرها على حجر متذبذب انزلق عن صاحبه؛ لتنقلب جناح وأنقلب من فوقها. تدرجت عدة مرات على الأرض وشعرت بالصخور الحادة تجرحني في كل شبر من جسدي، لكنني لم أبه، قفزت بسرعة متجاهلة أنين ركبتي المصابة، أنا قابلة للسقوط، بل إنني متمرسه فيه، كم مئة مرة سقطت ونهضت؟ أنا لست خائفة على نفسي، لكن جناح، ليس عليها أن تسقط! ركضت بلوعة جهتها حيث وقعت على الأرض، وأخذت تنخر بألم واضح، ضمنت رأسها بفزع ودموعي على مشارف عيني، أخذت أمسد غرّتها وخطمها بطمأنينة مزيفة.

- «اهدئي، لا تفزعني، حسنًا؟ هيا الآن، وعلى مهلك، انهضي، ولنرَ أين موضع الإصابة.»

بصعوبة نفذت أوامري، بالكاد استطاعت الوقوف، وأمكنني بوضوح أن أرى موضع إصابتها، في أكثر مكان تمنيت ألا تكون فيه، كاحل ساقها الأمامية اليمنى، كانت تسير بصعوبة وتُصدر نحيطاً يمزق أعصابي، في حين كانت تلوي ساقها المصابة عاجزة عن السير عليها، وإن هي إلا لحظات حتى ارتمت على الأرض في ألم وعجز. ارتمت عليها واحتضنت رقبته بلوعة، وسمحت لدموعي بالسيلان بحرقه وأسى، خسارة مؤلمة أخرى، أنا السبب، لقد حملتها فوق طاقتها، وجعلتها تركض عبر طريق لا يناسبها، كان عقلي مجبوراً بفعل الغضب، ولم أراعَ صحتها أو مصلحتها، الآن كُسرت ساقها بسببي، ولن يملك أبي القدرة على معالجتها، هذا لو كانت هناك إمكانية لذلك.

- «لم تكسر، لقد التوت وحسب.»

استدردت بإجفال لأرى مصدر الصوت، لم يسبق لي أن تبادلته كلاماً معه، كنت دائماً أسمع تخاريفه التي يصدق بها وهو يهيم في الطرقات، لكنني -كالجميع- لم أخذه يوماً على محمل الجد. كانت ابتسامته من الأذن للأذن، وأسنانه -التي فُقد أكثرها- واضحة بالكامل، كعادته كان غارقاً في السرور، وكعادته الأخرى، كان ذلك دون مبرر.

- «كيف تعرف ذلك؟»

قلتها همساً وأنا أمسح الدموع بسرعة، دفعني بكتفه واقترب من جناح متجاهلاً توترتي، جثا على ركبته يللم بضع فروع متكسرة رقيقة عن الأرض، رصّها أمامه بترتيب معيّن، ثم فك شريطة بالية كانت تلف

ذراعه، بهدوء ومهارة شديدين، استطاع صنع جبيرة بدائية لجناح، في حين استسلمت له الأخيرة وبدأت ساكنة تماماً. أنهى عمله مع أشعة الشمس الأخيرة، نظرت له خلال الضوء الأحمر، بدا خيفاً ومهيئاً ومبهماً تماماً بهذا المظهر. تراجع خطوة وأمر جناح بالنهوض ومحاولة السير، امتثلت جناح، برغم أنها لا تمثل لأوامر غيري في العادة، خطت عدة خطوات بحذر، ثم نظرت إلي كما لو أنها تخبرني أن الأمر نجح. بفرحة لم يبارحها الخوف اقتربت منها، وتحسست ظهرها بنوع من الاعتذار؛ فانحنت برقبته علي لتخبرني أن اعتذاري مقبول، التفت لعقلة الواقف مبتسماً، وقلت بخفوت:

- «ماذا كنت تفعله عند بيت خالتي مساء أمس؟»

قررت البدء من النهاية. هز كتفيه وقال ببساطة:

- «شممت رائحة قوية من هناك.»

- «رائحة ماذا؟»

- «الموت!»

قالها هامساً، ومدّ حرف الواو طويلاً حتى دبّ الرعب في قلبي، بدا متلذذاً بالكلمة وهو يلفظها، وأربكني غياب آخر أيادي الشمس في الأفق. ابتلعت ريقى وقلت بصوت مرتجف:

- «كنت تعرف أنها ستموت؟»

- «كما عرفت أن حيّان سيموت، وكما استمتعت باللعب معه قبلها

بدقائق.»

أصبحت ابتسامته ضرباً من الخيال، لولا بقية من تعقل لصرخت بملء صوتي ولأطلقت ساقى للريح. أي لعبة تلك التي لعبها مع حيّان قبل موته؟

أكان في المكان وقت احتراقه؟ أله يد في ذلك الحادث؟

- «ما الذي تريده بالضبط؟ لماذا عدت بعد كل تلك السنوات؟ أظن حقاً أن العمر سيمهلك حتى تصل إلى مبتغاك؟ كيف ستتحمل كل تلك الخطايا المتشبهة بعنقك؟ كيف تسمح لنفسك بأن تكون السبب في كل هذا الدمار والأذى؟»

كان جنوناً مني أن أصارحه بتوقعاتي تجاهه، لكن ردة فعله زادتني اضطراباً: لم يؤد حركة زائدة.

- «ما علاقتك بساري؟ ما الذي تفعلانه معاً؟»

هنا أصبحت ابتسامته قهقهة، أخرج من بين أسنانه جراباً مهترئاً، ورفعته لأراه بوضوح وسط الإضاءة الخافتة، لا أعرف كيف ولا متى امتلأت بكل تلك الجرأة، وبحركة خاطفة جذبت الجراب من يده ليسقط أرضاً ويتناثر ما فيه. توقف عقلة عن الضحك وتراجع خطوة بانزعاج وإن لم تنزل ابتسامته. انحنيت في حذر وأنا أثبت عقلة بناظري، أمسكت إحدى النباتات الواقعة وقربتها من عينيّ برغم أنني عرفت كنهها. عرق سوس. شعرت بحركة خفيفة على يدي، بفزع ألقى النبتة ونفضت يدي وأنا أصرخ صرخة قصيرة؛ فانفجر عقلة في الضحك. نهضت مذعورة وتراجعت لأحتمي بجناح.

- «ما هذا؟ من؟ هل تخفونه في جذور عرق السوس؟!»

انحنى يللم ما سقط منه، الآن أصبح شبه عاجز عن التنفس من فرط الضحك، هل بدوت مسلية إلى هذا الحد؟

- «لماذا تتظاهر بالجنون؟ أنت لا تخدعني بهذا، وإن خدعت الجميع!»

- «ما معنى (تتظاهر)؟»

قطع ضحكاته وقالها بنبرة بدت لي خبيثة، صرخت برعب:

- «هذا الذي تفعله!»

نهض فجأة وبيده الجراب؛ فقفزت -كرد فعل غريزي- إلى صهوة جناح، قال بابتسامة سعيدة:

- «لا تمتطيها، لن تحتمل ذلك، عودي راجلة، ودعيها ترتاح لأيام.»

نزلت عنها بسرعة وقد شعرت أنني أتعبتها فعلاً. أشار إلى جهة مبهمة على يمينه - يساري، تمامًا حيث غربت الشمس، وقال:

- «استمرّي في السير في هذا المسار، ستجدين طريقاً ممهداً خفياً لا يعرفه غيري، إنه طريق مختصر، وبعيد عن الرمال المتحركة وجميع الأخطار الأخرى.»

بإذعان أمسكت لجام جناح، وسرت بها عبر الطريق الذي وصفه دون أن أوجه له عبارة شكر، شكر على ماذا؟ على تجميد الدم في عروقي؟ ولكم كانت دهشتي غامرة حين اكتشفت صحة ما قاله.

عدت للقرية، أسير ساهمة ومتألمة وخائفة، وخلفي جناح، حالها كحالها، أشعر بالبرد الشديد، ولا أفكر بغير العودة إلى منزلنا، لا بد أن أبي قلق علي منذ غادرته بتلك الحالة، وأمي أيضاً. تذكرت موعد ليلة فازددت همًّا فوق همي، هل أنا كفؤ لتحمل كل هذا؟

قاطع شرودي شيء صغير اصطدم بكتفي، لم يكن قوياً كفاية، لكنه أصاب جرحاً فالمني، أمسكت كتفي بتوجع والتفتُ أبحث عن مصدر هذا الحجر الصغير. كانت الطرقات خاوية؛ لأن الصوت الصاخب في الجانب

الآخر من القرية قد جذب حوله الجميع. احتفال آخر، بمناسبة القبض على الخائن الأزرق، أو بمناسبة حماقة أهالي القرية وهمجيتهم وبلاهمتهم، سيان. حركة خفيفة نددت من بين الشجيرات، يبدو إنساناً صغيراً، وفي هذه الحالة، يمكنني أن أحزر.

- «شهاب، اخرج من عندك.»

خرج، لكن بشعر ذهبي طويل، وعينين زرقاوين، لم يكن شهاب! بل كانت طفلة زرقاء بارعة الجمال، كانت تفرك يديها في خجل.

- «أسفة، لم أعرف اسمك كي أناديك به.»

- «كان من السهل أن تقولي: (هيه، أيتها الحمقاء الواقفة هناك مع الفرس)، كنت سأسمعك صدقيني.»

أعصابي مفككة، يجب أن أتماسك قليلاً بعد. لفظت الشجيرات بشرياً آخر، نسخة ذكورية مصغرة من الفتاة. بقيا يتبادلان الأنظار في تردد، في حين كنت أحاول تذكر سبب كون مظهرهما مألوفاً لي.

- «أصحيح أن النباتات مفيدة؟»

آه! الآن تذكرت، إنهما ولدا تلك العائلة التي وصلني اعتذارها عن طريق أنور في ساحة القرية، كان هذا آخر عهدي بالأحداث المفرحة. تلفتُ حولي بشك، ما الذي يفعله هذان هنا؟ وماذا يريدان مني؟ أختفي أبواهما في مكان ما هنا، أو ربما أخوهما الأكبر الذي نعتني بالشاحبة؟

- «لقد أتينا بمفردنا، ودون علم أحد، صدقينا.»

- «وماذا تريدان بالتحديد؟»

- «نريد.. أن.. نسمع ما أردتِ قوله، قبل أن يقاطعك شقيقنا.»

- «ولماذا تهتمان بسماع كلامي؟»
- «لأنه بدا منطقيًا، أنا لم أسمع أحدًا يتكلم عن النباتات بالخير من قبل، لكن حين اعترضت طريقنا يومها، جعلني كلامك أفكر بمنظور مختلف، حتى جاء يوم حكى لي أخي فيه شيئًا.»
- اتجهت أنظاري إلى الولد، لا يبدو عليه أنه قادر على حكاية شيء.
- «هناك معلم يدرّس للأطفال في عمري، قاعته مجاورة لقاعتنا في دار المنارة، خرجت من درسي لأدخل الحلاء، وسمعت كلامه لطلابه، كان يتحدث عن غرس الفسائل، وبدا حديثه.. رائعًا جدًّا، حتى أنني بقيت أسترّق السمع من وراء الباب.»
- اتسعت عيناى في دهشة وتأثر، لو كان هذان الصغيران صادقين فإنني أقف أمام معجزة، أيعقل أنهما اهتديا للطريق الصحيح وهما في هذا العمر؟
- «لقد ذكر حاكمكم اسم هذا المعلم يوم اجتمع الناس في الساحة، اسمه الشيخ مد.. مدير؟ مراد؟»
- «مدرار؟»
- «أجل، هو!»
- افترّ ثغري عن ابتسامة بدت مفاجئة لوجهي، شعرت أنني لم أبتسم منذ قرون. محممت جناح بانزعاج فنظرت للصغيرين.
- «اسمعا، إن كنتما لا تمانعان، أنا ذاهبة إلى مزرعتنا الآن لأعيد فرسي إلى الإسطبل، يمكنكما مرافقتي، وسأخبركما بكل شيء.»
- نظر الصغير إلى أخته يستشيرها؛ فقالت بتردد:
- «ولن نخبري أحدًا أننا أتينا لسؤالك، صح؟»

- «بالطبع، هذا سر بيننا.»

للاحتفال فائدة واحدة، يمكنها أن تصبح مفسدة كبرى: خلّو الطرقات من المارّة. لو كنت من الأعداء فإنني لن أدسّ كراقي الزجاجية إلا في وقت كهذا، وبرغم كل الضجة التي يصنعها رجال الحماية، أنا لم أرَ واحداً منهم طوال سيري. هناك دكان واحد مفتوح، عرفت أنني سأجده كذلك، لم يُدمّر بعد وأرجو ألا يُدمّر.

- «مرحباً عمي وسم، علبة من الحلوى التي أحبتها، وأسرع من فضلك.»

أوماً وسم مبتسماً وبدأ بتعبئة الحلوى وهو يرمق الصغيرين في فضول، فطنت لحركة الصغيرة المتوترة ومحاولتها الاختفاء خلفي، التقطت من وسم العلبة وناولته النقود، قلت قبل أن أذهب:

- «لا أحتاج إلى تنبيهك، هذان الصغيران لم يكونا معي، حسناً؟»

بابتسامة مرر كفه على فمه في إشارة واضحة، أكثر من أثق في أنه لن يتفوه بكلمة. أقفلت باكية جناح، قبلت مقدمة رأسها وتركتها لترتاح، ثم قُدت الصغيرين ناحية شجرة الأراك الكبيرة، كنت متأكدة من أن أبويّ قد غادرا المزرعة، وتأكدت من الدخول بهدوء كي لا يرى سهل الصغيرين. وضعت علبة الحلوى بيننا، وقطفت عوداً من الأراك لكل منا، وتحت اللوحة السوداء المرصعة بالنجوم، وفوق طرقات القرية الخالية من البشر، كنت أستمع إلى أسئلة الصغيرين الحائرة، وأجيبهما عن كل سؤال بإجابة شافية مقنعة. ربما كانت الأسئلة أكثر بكثير من الإجابات، لكن الفطن من يتعلم كيف يختار الأسئلة الأهم لطرحتها، وكيف يجد إجاباتها، وكيف يستفيد منها.

ساعدت جوهرة وبدر -كذا كان معنا اسميهما بلغتنا كما أخبراني- على المغادرة خفية بعد ساعتين أو أكثر بقليل، كنا قد استغللنا كل ثانية فيهما بالأسئلة والإجابة عنها، وأزعم أنني لم أتركهما يغادران إلا وقد أجبت جُل أسئلتها وجلوت عن عقليهما -الكبيرين برغم صغر عمرهما- الكثير من الحيرة والالتباس.

دلفت البيت في حذر، وقد رفع لقائي بالصغيرين معنوياتي لحد غير عادي، كانت الأضواء مطفاة، وباب غرفتهما مغلقاً، لكنني استطعت تمييز إهاب أبي جالساً على أرضية الصالة، كان يصلي ويدعو ويبكي، لم أرد مقاطعته، صعدت بهدوء إلى غرفتي وبدلت ملابسني، وحمدت الله أن أبي لم يرني بكل تلك الجروح وبملابسي الممزقة. حين نزلت للمرة الثانية كان قد أنهى صلاته وجلس على الأريكة ينتظرني، قبلت رأسه بهدوء وجلست جواره؛ فمسح على رأسي برفق وهو يقول:

- «أنت بخير؟»

أومأت مؤكدة مع ابتسامة عريضة لتطمئنه ولو قليلاً، وقلت:

- «هل نامت أمي؟»

- «أجل، بمجرد أن عدنا، حتى أنها رفضت انتظار إعدادي لمنقوع

اليانسون بالعسل.»

ابتسمت ابتسامة حزينة.

- «لعلها أدركت أن هناك أوجاعاً لا يعالجها اليانسون بالعسل؟»

- «لكنها لم تفقد إيمانها بالراحة التي يسببها النوم بعد.»

قهقهنا، بلا مرح حقيقي، قال أبي بحذر:

- «أين كنتِ من وقتها؟»
- «ذهبت إلى الغابة، جهة البحيرة.»
- إنها الحقيقة، فقط هي ليست كاملة.
- «مع ساري؟»
- هزرت رأسي، هذه المرة، هذه ربع ربع الحقيقة، ضيق عينيه وتأمل وجهي؛ فقاطعته قبل أن يجد جرحاً من مخلفات اليوم.
- «أستأذنك يا أبي، سأذهب لأزور ليلة.»
- «بالطبع، اذهبي، وأبلغها تحياتنا وتهانينا.»
- أومأت، نهضت خارجة ثم استدرت إليه:
- «ستظل مستيقظاً؟»
- «فكرت في اللحاق بأمك، لكن أحب انتظارك.»
- «يمكنك أن تنام يا أبتني، تعرف أن راحتكما أفضل ما أريده.»
- ابتسم بامتنان وهز رأسه في إذعان؛ فقَبِلَت رأسه مجدداً وخرجت.

(٣)

- «غيم هنا، لقد وصلت غيم!»

كذا صرخ شهاب المتدلي من النافذة، وفي ثوانٍ أخلى النافذة ليفتح لي الباب ويستقبلني بحضن مبتهج وهو يهلل. ومن خلفه كانت السيدة مخمل تقف مبتسمة.

- «شكرًا لأنك أتيت يا غيم، لقد وصلت ليلة قبل ساعة فقط.»

تبادلنا التحايا والمجاملات المعتادة، ثم أدخلتني إلى مجلسهم حيث تجلس ليلة ببطن (تفكر) في الانتفاخ. ما إن رأيت ليلة حتى نسيت كل همومي السابقة بشأن التظاهر بالسرور، الحقيقة أنني عجزت عن كتم صراخي ونحن نتبادل الأحضان والقبلات، لم تدعني الأيام الفاتئة أدرك مدى اشتياقي إليها. جلسنا نتحدث ونسأل عن أحوال بعضنا، نهضت السيدة مخمل وأحضرت ضيافة من القهوة التي أحضرها ليلة معها من قرية الربوة، وكعك التمر الذي تتقن إعدادة.

- «إذن يا ابنة الحاكم، وزوجة ابن الحاكم، كيف هي الحياة في الربوة؟»

- «حسنًا، لن أكذب، الحياة هناك ليست سيئة، لكنها ليست كالجنة بالضبط، ربما بالنسبة لي تحديدًا، تحاول كثير من النسوة تجنبني وعدم التعامل معي لأنني لست (صفراء حقيقية) كما يدعون أنفسهم. لكنهم ليسوا لئيمين

في النهاية، إذا حدث وتقابلنا؛ فإنهم لا يكفون عن التحدث عن المحبة المتبادلة بيننا لأننا صفراويون لا يفرق بيننا شيء.»

- «ديدن الصفراويين، لا جديد.»

ابتسمت بتبسط ووافقتني وهي تقضم من قطعة الكعك.

- «لا تهم النسوة، ما دام قصي مريحاً معك، أهذا صحيح؟»

- «آ.. بالطبع، حتماً، لكن...»

- «لكن ماذا؟»

- «لا، لا شيء، فقط أردت قول إن قصي ليس موجوداً دائماً، غالباً يحتاج إليه والده في شؤون القرية، يرسله يميناً ويساراً ولا يقيم في القرية إلا لفترات قصيرة.»

- «فهمت.»

ليست حياة كاملة تماماً، لكنها حياة، والحياة لا يمكن أن تكون كاملة.

- «ماذا عنك، كيف هي أحوالك؟»

سؤال اعتيادي جداً، لم شعرت أن قلبي ينقسم إلى قسمين؟

- «أنا بخير، الحمد لله.»

- «منذ متى لم نتقابل؟ لا بد أن الكثير حدث من وقتها.»

- «لا أذكر حقاً آخر مرة تقابلنا فيها، ربما كان ذلك منذ شهور، لكن

الأسابيع الأخيرة في القرية كانت أطول من أن تكون أسابيع؛ لذا تجدني مقاييسي الزمنية مختلة قليلاً.»

تبادلت نظرة مع أمها؛ ففهمت أن علي أن أتماسك أكثر، لا أريد لأحد

أن ينظر إلي بعين الشفقة. فجأة لامس قدمي شيء مشعر ودافئ فأجفلت، رفعت قدمي على الأريكة بفزع وأنا أنظر تحتي؛ فرأيت ما يشبه منفضة غبار ريشية تداعب قدمي، ومن وراءها تعالت ضحكات الصغير المشاكس.

- «لقد أفزعتك، اعترفي!»

- «يا لحركاتك يا شهاب!»

فلتها ضاحكة بينما كان يلتف ليتتصف الأريكة بيني وبين ليلة، قالت ليلة بعتاب ضاحك:

- «لا تزعج صيفتنا يا شهاب.»

- «شهاب صديقي يا ليلة، وهو لا يزعجني بتاتاً. صحيح؟»

أوماً مبتسماً وأخرج لسانه لليلة فضحكنا، قرصت ليلة خده وقالت:

- «في الحقيقة، كتب الله أجرك على مجهودك مع هذا الصغير، منذ بدأ يتحدث عنك وهو يتحول إلى شخص مختلف تماماً.»

- «شهاب شخص رائع من البداية، فقط كان بحاجة إلى التوجيه، مثله مثل أي أحد.»

أوماً موافقة وتورد خدها بخجل أن كان محور الحديث.

- «أخبرني يا شهاب، إن كان ما في بطني صبيّاً؛ ماذا نسمّيه؟»

- «هل تسألين؟ شهاب طبعاً، على اسم خاله!»

ضحكنا بمرح، قالت ليلة:

- «وماذا إن كانت فتاة؟»

- «غيم!»

قالها بلا تفكير، وضحكنا من جديد، حين...

- «أحم، مرحبًا بالضييفة.»

كذا قال صوت من وراء الجدار، صوت ميّزته من أول نحنحة فتقلّصت عضلاتي وتبيّست، ماذا سيقول؟

- «أردت فقط أن.. أعتذر عما حدث أمس، وأن أوضح سوء الفهم الذي حدث، وأرجو أن تعذروني.»

احتلّ الغضب جزءًا كبيرًا من محلّ الإحراج. في حين تابع أنور:

- «أنا لم أطرده من الدار، ولا أتحمل أن يقال في يوم أنني من أبعد الشيخ مدرار أبرز المعلمين وأعلمهم وأفضلهم، لكن الإجراء السيئ لا يبرر اتخاذه إلا عاقبة أسوأ لو لم يتخذ.»

- «لم.. أفهم..»

قلتها بصوت لا يكاد يُسمع، ولمحت الصغير جوارى يتسم بمكر واستمتاع شديدين بينما يراقب وجهي، وكذلك كانت السيدة مخمل وليلة تراقبان بهدوء، لقد سبق التخطيط لكل هذا، بل لعله كان السبب الأساسي لاستدعائي.

- «لقد سمعت مخططات لاغتيال عمي مدرار بأذنيّ، ومن أشخاص مرتفعي المقام وذوي جاه ومنزلة، وحين تتبعت الأمر عازمًا على إيقافه، تبين لي أنه أكبر من ذلك بكثير، وأن الصفراوية كلها استنفرت كل إمكانياتها لتدمير شخصين في دار المنارة، رجل وامرأة: الشيخ مدرار، والمعلمة رؤية. أرسلوا مرسالًا إلى الأخيرة عبر معلمة تابعة لهم، لكن أحدًا من المعلمين لم يجروا على إيصال الرسالة للشيخ مدرار؛ لذا اختاروا أن يوصلوها بهذا

الشكل، وربما لم يفهم الشيخ مرادهم الحقيقي، لكنني فهمته، وكان ما فعلته أفضل ما اهتديت إليه.»

هكذا إذن، لقد فعل أنور ما فعله لحماية أبي لا لتدميره.

- «لكن.. لكنه قد..»

- «أهين، أعرف ذلك، وأقسم أنه مزقني أكثر مما مزقكم، لكن الخيارات لم تكن متعددة، لم يكن بالإمكان أن أعاقب المعلم قليل الأدب وأترك العواقب تعود على الشيخ مدرار بأذية أشد، أنا واثق أنه لم يُسجّل لكم بذلك من قبل، لكنه كان يتعرض لتهديدات مجهولة المصدر يوميًا، يجدها بين صفحات كتبه، أو على طاولته، أو يسلمها له طفل ويهرب، كل هذه التهديدات كانت تدور في فلك واحد: زوجته وابنته.»

استحتاج إضافي: أنور لم يحم أبي فقط، بل حمانا أيضًا.

- «أنا حقًا آسف، على ما بدر مني بالأمس وقبله، وعلى كلامي معكم الآن، خاصة من دون إذن الشيخ، لكنني رأيت أن من الأفضل توضيح سبب ما فعلته بنفسني. لقد فعلتم الكثير، أنت والشيخ مدرار، لنا وللقرية كلها، لقد فعلتم الصواب، لكن -للأسف- مع الأشخاص الخطأ.»

- «كل ما فعلته كان لأجلي قبل أي أحد، لا أهتم إن كان أحدهم يسمعني أو يتأثر بي، كل ما أهتم به ألا أصحو يومًا لأجد نفسي مثلهم، ودائمًا أسأل نفسي: ما البديل؟ ما الخيار الثاني بدلًا من فعل ما أفعله؟ أن أنضم للصفرافية وأنحني لذوي الأعين الزرقاء، وأصبح مع التيار بلا مقاومة؟ هل هذا سينجيني من الأذى والهمل والمصائب؟ كلا بالطبع! لأن الشر يضرّ مؤيديه أكثر من معارضيهِ!»

سمعت تنهيدته العاتية، وكذا فعلت ليلة والسيدة مخمل، بل وشهاب،

لقد نجحت في فعل ما نجحت في فعله دائماً: حمل أجواء الخارج للداخل.
قلت بارتباك:

- «أجل.. بخصوص.. ما حدث.. أعني.. علي أن..»
- «لا، لا تعتذري، لا شيء فعلته يستوجب الاعتذار، بل إن موقفك كان مشرفاً.»

ما المشرف بالله عليك؟ الركض كالمجنونة في الشارع ليلاً، والصراخ في وجوه مجموعة من الرجال، ثم إنهاء كل هذا بكشف أنني كنت أنتصت من وراء الجدران؟ لحد الآن أنا عاجزة عن إخبار تبر بأن الجراب عاد، والظروف المحيطة ليست السبب الوحيد.

- «سؤال آخر، وأخير، أعذر منك.»
 - «تفضل.»
 - «بالنسبة لـ.. موضوع وادع، الكرة الزجاجية.. هل من تفسير؟»
- طأطأت في خجل وعضضت شفتي؛ فوضعت ليلة يدها على كتفي وأومأت لي تحثني على الكلام.

- «في الواقع، وادع لم يكن يعرف شيئاً عن الكرة، أنا السبب.»
- شهقت السيدة مخمل وليلة في دهشة؛ فقلت بصوت باك:
- «أرجوكم دعوني أشرح، لا تكونوا كأهل القرية!»
- «لا بأس، نحن نسمعك.»

- «لقد وجدت تبر هذه الكرة بين مخلفات الدكاكين المدمرة، كانت كرة لم تنفجر، وكل ما حدث أنني أشرت عليها بأن نبقئها معنا ريثما نفكر فيما

سنفعله بها، كان من المفترض أن أخذها لمنزلنا، لكنني نسيتهما مع تبر، و..
وادمع فعل ما فعل ليحمينا.»

مرّت لحظات صمت، قبل أن يقول أنور:

- «ولم لم تسلميها لنا، أو لرجال الحماية؟»

- «لم أضمن...»

ولم أكمل العبارة، كلامي مفهوم. قال أنور:

- «إذن وادمع حمل صندوقاً معبأً بأغراض من الدكان، وتسلفت الكرة
إليه دون أن يشعر، ولم ينتبه لها إلا متأخراً.»

فتحت فمي لأعدل، ثم فهمت مقصده؛ فقلت بهدوء:

- «أجل.»

- «جيد، شيء إضافي؟»

- «أجل.»

- «ماذا؟»

- «زنبق كاذبة، هي لم تكن حاضرة وقتها، ولا أي أحد آخر.»

- «لم أفهم، من إذن...؟»

- «لا أستطيع أن أجزم، فقط كنا واقفتين أنا وتبر، وساري يجلس في
الجهة المقابلة لنا، وادمع لم يرَ ما حدث حتى.»

صمت أنور، أرجو أن يكون قد فهم تلميحي. قال برفق:

- «حسنًا، أنا ذاهب بعد قليل لزيارة وادمع والتحدث إليه، أتريدون أن

أوصل له شيئاً؟»

- «أخبره أنني آسفة.. فقط.»

قلتها وغلبتني دموعي، لقد أؤذي وادع في هذه القرية بما فيه الكفاية، ويعز علي أن أكون السبب في تسليطهم عليه! ضمّنتني ليلة بتعاطف، لطالما شعرت أنها كانت أختي الكبرى، حنونة وعاقلة، وأستطيع الاعتماد عليها عند الأزمات، لكن المسافات فرّقتنا.

- «شكرًا على حسن ضيافتكم، يجب أن أعود إلى المنزل الآن، تركت أبي وأمي في حال سيئة.»

أومأتا في تفهم، نهضت ومسحت دموعي ورسمت ابتسامة عريضة، نهضتا وودعتاني، قالت السيدة مخمل:

- «أبلغني أملك تعازي الحارة، وأخبريها أنني لم أستطع القدوم اليوم لأنني كنت مشغولة بالإعداد لقدوم ليلة، لكنني سأتي للتعزية غدًا بإذن الله.»
- «لا عليك.» قلتها ثم انتبهت أنها لم توجه حديثها لي، بل لأمي.
«سأخبرها.»

- «وأنا أيضًا، سأتي غدًا بإذن الله.»

قالتها ليلة وأنا أودّعها، ثم ودّعت الصغير، واستدرت خارجة حين قال أنور:

- «أحسن الله عزاءكم.»

أول شخص يعزّيني شخصيًا! تمتت بشيء أظنه: أحسن الله إليكم، لا أعرف إن كان ردًا صحيحًا، لكنني لست الأبرع في هذا الصدد.

اقتحم أحدهم غرفتي بحماس مبالغ فيه؛ فدخلت مع دخوله الكثير من الحقائق إلى عقلي، مثل أنني نسيت إسدال الستائر قبل النوم؛ فغمرت أشعة الشمس الغرفة وأفسدت عمق نومي، ومثل أن رقبتني على وشك الانكسار؛ إذ بقيت مستندة إلى ظهر السرير طوال الليل، ومع سقوطي المفاجئ في هاوية النوم انزلق ظهري؛ فأصبحت رقبتني معلقة بشكل مرعب عملياً، وأصبحت قابليتها للتحريك مسألة لا تمكن المراهنة عليها. قفز الداخل إلى حجري حرفياً، وهزّني بعنف.

- «غيم، ما بك؟ استيقظي، هذا ليس وقت النوم!»

فتحت عينيّ بانزعاج شديد وأعاد عقلي -بطء- التعرف على وجه تبر المائل أمامي، تنظر إلي بعيني محمّرتين وأنف منتفخ. الغطاء ملقى على الأرض مما يعني أن أحد والديّ لم يستيقظ ليلاً ليتفقدني، لقد ناما بعمق فعلاً. وعلى بطني ألقيت بإهمال سبحة سوداء مهيبة.

- «ما الأمر؟ أنت لم تنامي منذ يومين، صحيح؟»

هزرت رأسي بثقل، وبصعوبة اعتدلت راغبة في الصراخ كما تصرخ رقبتني، ضنّ علي النوم بالزيارة ليلاً؛ ففضّلت أن أعيد نظم حبات السبحة حتى يطلع الصباح، لكن من الواضح أن الكلمة الأخيرة كانت للزائر الذي يقبل ويدبر كما يحلو له.

- «أهذه سبحة المعلمة رؤية؟ وهذا، إنه جراي! كيف...؟»

- «لقد.. وجدتها.»

قلتها باقتضاب غير راغبة في قص التفاصيل، ثم نظرت إليها بعينين ثقيلتين كأن فوق كل منهما جبلاً، وسألتها عن سبب إزعاجي هكذا.

- «محاكمة وادع، بعد قليل، في ساحة القرية.»

كأنها كلمة السر، تلاشى كل الخمول وانفتحت عيناى عن آخرهما دفعة واحدة، كأنهم لم يكتفوا بإذلاله أمام الجميع، الآن يريدون محاكمته علناً باعتباره عميلاً. قفزت من فراشي ونزعت جلباب الخروج المعلق عن الباب بسرعة، بدأت في ارتدائه فهتفت تبر وهي تراقبني بدهشة:

- «لا بأس، على مهلك، اغسلي وجهك وتناولى شيئاً.»

- «ليس وقته.»

في ثوانٍ كنت مستعدة، انزلت على الدرج مع تبر حيث كان أبي وأمي واقفين بانتظارنا، أبي يرتدي ملابس الخروج، أمي لا.

- «لن تأتى؟»

- «لا، اذهبوا أنتم، وأخبروني بما حدث حين تعودون.»

فهمت، هي لا تتحمل رؤية وادع في موقف كهذا. عانقتها وقبّلتها، وبالكاد استطعت انتزاع ابتسامة مقتضبة منها. ثم ترافقنا للخارج.

كل شيء كما كان عليه يومها، نفس التجمع الكثيف في نفس المكان، بغض النظر عن الدمار المستجد على المشهد. القاضي فيصل يعتلي منبراً مختصراً تم نصبه صباح اليوم في منتصف الساحة، إنها طلته الثانية لهذا الأسبوع، وهو الذي لم يكن يخرج من دار القضاء إلا في النادر، والعجيب أن كلا الاستثنائين كانا لأجل العائلة الزرقاء، مرة للأب ومرة للابن. عن يمينه يقف أنور عاقداً ذراعيه خلف ظهره ومطرّقاً بثبات، وعن يساره يقف بائد نافخاً صدره مبتسماً وفخوراً بإنجازه العظيم. جيء بوادع، مقيداً بالحبال ومحاصراً برجال

الحماية، وهو ما لا يحدث إلا.. إلا مع الجواسيس والخونة، قرأت هذا في الكتب ولم أره من قبل قط. غطيت عيني بكفي وغاصت أسناني في شفتي بجزع؛ فشدّ أبي على كتفي وأخذ يربّت عليه مواسياً، وكذا فعل العم جواد مع تبر وخالتي حسناء. شعرت بمن يجذب كمّي للأسفل، نظرت لأجد شهاب يهتز مكانه بالحاح راغباً في قول شيء، مرتجفة قربت أذني منه، ووقف بدوره على أطراف أصابعه ليُسمعني.

- «ليلة تقول لك: لا تخافي، أنور يسيطر على الموضوع.»

ولو سارت الأمور على نحو جيد، كيف لي أن أنسى مظهر وادع هذا؟ كيف سأحويه من ذاكرتي؟ كان مطأطئاً رأسه بخزي، ووجهه مسوداً وشاحباً، هو لا يتحمّل كل تلك الأنظار المسلّطة عليه، أردت أن أصفع الواقفين واحداً واحداً، إنه وادع يا حمقى، وادع الرقيق الطيب الذي.. الذي أسميتموه بأنفسكم! وادع الذي نشأ وترعرع بينكم، والذي لم يلحق بأحدكم أذى من قبل، من أين أتيتم بكل هذا الحقد والغل تجاهه؟ كيف أوغلت صدوركم عليه إلى هذا الحد؟!

بسمل القاضي بصوته الجمهوري العميق؛ فتوقفت ألسنة الجميع عن الحركة، سواء أولئك الذين كانوا يتبادلون توقعاتهم وآراءهم، أو الذين كانوا يمتجدون بظلمهم البائد، أو يلعنون الأزرق الخائن. وكعادة القاضي فيصل، لم يكثرث بالتمهيد لما سيقوله.

- «بعد إيجاد الكرة الزجاجة -التي هي، في حقيقة الأمر، سلاح يستخدمه ذوو الأعين الزرقاء لإيذاء شعبنا- داخل منزل التاجر جواد، وبعد إعلان المتّهم وادع -ابن التاجر المذكور- مسؤوليته عن وجود الكرة هناك، تمّ القبض عليه والبحث في أمره. وادع، ألدّيك ما تقوله؟»

- «أ.. أجل.»

قالها وادع بصوت مبحوح مرتجف، فتمزق قلبي مع تكسر نبرة صوته. رفع أنور رأسه وعلّق عينيه على وجه وادع بتركيز شديد. في حين أكمل وادع:

- «لقد كنت أعمل في الدكان في اليوم السابق لذلك اليوم، كنت أخلي ما تبقى من البضائع والأدوات بعد أن دمر دكاننا بشكل شبه كامل إثر هجوم ذوي الأعين الزرقاء.» وشدد على الكلمة الأخيرة كأنه يثبت معاداته لهم. «عبأت الأغراض في عدة صناديق وحملتها إلى المنزل، وحين تفقدتها مساءً، فوجئت بوجود الكرة الزجاجية بينها، بطبيعة الحال كان دكاننا مليئاً بها، والدليل أنه تضرّر بأكثر مما تضررت دكاكين السوق كلها، وكانت الكرة أصغر من أن ألحظ تسللها بين الأغراض أثناء التعبئة. هذا كل ما حدث.»

كلام مرتّب ومتسلسل ومنطقي، لقد أبلى أنور حسناً بالفعل. تعالت الأصوات تسبّه وتكذّبه؛ فطرق القاضي بإصبعه على المنبر بانزعاج ليعود الهدوء، وقال:

- «ولماذا لم تبلغ عن وجودها وتسلمها للمعنيين بفحصها؟»

- «كان احتفال البهاليل في أوجه ليلتها، لم يكن أحد متواجداً أو متفرّغاً لمقابلتي، ثم إنني كنت أعمل في الدكان طوال النهار، وكنت أكثر تعباً من أن أقدر على الخروج مجدداً.»

كاد القاضي يتكلم، لولا أن عاجله بائد بوقاحة:

- «كله هراء وتلاعب، هناك شهود.»

- «كنت سأصل إلى هذه النقطة، من الشاهدة التي زعمت رؤيته؟»

لفظت العديد من الأفواه اسم زنبق، واتجهت الأعين إليها حيث تقف

بين الحشود؛ فاتسعت عيناها بفزع وارتجفت أطرافها.

- «أ.. أجل.. أجل، لقد رأيته يحملها ويدسّها في ملابسه..»

- «رأيته شخصياً؟»

ازدادت عيناها اتساعاً، وأطرافها تراقصاً، وأومأت بذعر.

- «المعذرة، لدي اعتراض!»

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرفع يدي وأقولها؛ فتحوّلت الأنظار إلي، إما بضيق لتدخلني في كل شيء، أو بدهشة كما فعل أبي وأنور وتبر.

- «غيم ابنة مدرار، هل أنا مصيب؟»

- «أجل يا حضرة القاضي.»

- «لقد أصبحت متمرّسة في أمر المحاكم، قولي ما لديك.»

كانت نبرته جامدة بالكامل، لم أعرف إن كان هذا إطرأء.

- «يوم أمس، حين صرخت زنبق في السوق وقادت -بصرخاتها- أهل

القرية ليقترحوا منزل العم جواد ويروّعوا أهله ويتّهموهم بلا دليل. أذكر

جيداً ما قالت زنبق بالحرف، لقد قالت: (ابنتهم كانت تحمل واحدة منها

أمس!)؛ فكيف يستقيم أنها زعمت رؤية ابنتهم (تبر)، ثم الآن تزعم أنها

رأت وادع نفسه؟»

ابتسم أبي وهز رأسه مستحسنًا كلامي، ابتسم أنور أيضاً، نظر للقاضي

وقال برزانة:

- «كلامٌ سليم، كنت حاضراً وقتذاك، ومعظم الواقفين هنا.»

اختلطت الأصوات وكان كثير منها يؤمّن على كلامي، الآن أصبحت

زنبق باهتة لا يحمل وجهها أي لون، صرخت باندفاع:

- «من الطبيعي أن تدافع عنه، إنه أخوها من الرضاعة، بل إنها كانت واقفة معه يومها.»

- «يوم ماذا؟»

فلتها بتحدٍ وقد سرّني أن طريقينا تعارضا.

- «يوم أخذ وادع الكرة الزجاجية معه.»

- «هل تعتقدين أنني سألجأ للكذب لأثبت ادّعاءاتي؟ حسناً، نعم، لقد زرت دكان العم جواد في نفس اليوم، وجالست وادع وتبر وشربت معهما العصير، وهذه عادتنا منذ كنا أطفالاً، وكل من في القرية يعرف ذلك؛ لذا أنتِ لم تأتي بحجّة.»

ارتجف خذاها بتوتر وغضب، قالت بعناد:

- «رأيتم؟ لقد اعترفت، لقد كانت معه!»

- «كنت مع وادع، نعم، رأيته يأخذ كرة زجاجية، لا!»

- «رأيته بنفسه.»

- «ما إثباتك؟ أخبريني بأي قرينة، ماذا كان على رأسي يومها؟»

- «على.. رأسك؟!»

قالتها بتيه؛ فابتسمت بانتصار، وقلت:

- «لو أنك رأيته يومها بالفعل لعرفت بسهولة، يمكن سؤال أي أحد

ممن رأوني يومها، وسيجيئون عن سؤاله.»

لقد قابلت الكثير من الأشخاص يومها لحسن حظي، ولم يكذب أحدهم

خبرًا لإثبات أهميته ولفت أنظار الحضور إليه، غيم كانت تلف رأسها عموماً، وعينها خصوصاً بقماشة يومها؛ إثر إصابتها يوم الهجوم.

- «يكفي هذا. الأمر واضح الآن. زنبق، لماذا تدّعين رؤية شيء دون أن تريه؟ ما مصلحتك في هذا؟»

دارت عينا زنبق برعب، لقد أطبق الخناق عليها، صرخ بائد:

- «لقد أخذت القضية إلى جهة أخرى، لا زال أمر تواجد الكرة في منزله، واعترافه بمسؤوليته عنها، هما مرتبطا بالفرس!»

- «سبق وتحدثنا في هذا الشأن وسمعنا ما يكفي حوله، وأرجو من الجميع أن يتركوا للقاضي مهمة القضاء، وألا يتدخل أحد في عمل يختص به!»

قالها القاضي بشيء من الغضب؛ فقال بائد كعجل مذبح يلفظ آخر أنفاسه:

- «لقد قال كلاماً مختلفاً ليلة أمس في السجن، سألته عدة أسئلة وكانت إجابته دائماً نعم، وكان من بينها سؤال عما إذا كان عميلاً لذوي الأعين الزرقاء!»

تعالّت الشهقات من الحضور، صمت القاضي لبعض الوقت، في حين احتبست أنفاسنا في صدورنا، وحتى وادع رقبتة أكثر.

- «مرة أخرى تثبت تدخلك في عمل القضاء.»

قالها القاضي بهدوء تام، ثم التفت للحضور قائلاً:

- «أي طفل درس التاريخ سيعرف أن استجواب المتهمين بالعمالة لا يتم إلا علناً، في حضرة القاضي والحاكم وأهل القرية.»

ثم عاد بأنظاره إلى بائد وأضاف:

- «وهذا ما يُعتدّ به في الحكم؛ فما مبرر تعارض قولك بأقوال المتهم الآن؟ وما الذي سيجعله يعترف بشيء أمامك ثم يغيره أمامنا، خاصة أن كلامه منطقي ومترابط ومقنع؟»

تنحج بائد بارتباك، وقال:

- «ربما.. ربما بعدما تلقى زيارة من أحد.. أملى عليه ما يقوله؟»

فرد أنور قامته ورفع هامته، خيّل إلي أنني أرى أنور الصغير المعتدّ بنفسه، قال بصرامة مخيفة ضاغطة على كلماته:

- «رجل الحماية بائد، بوسعك قول ما تريد قوله بوضوح.»

هز بائد رأسه سلبيًا بإفراط، ولم تفتني ملاحظة الرجفة التي استبدّت بيديه، أو ما أنور ببطء كأنه يقول: ظننت ذلك أيضًا. اعتدل القاضي وأخذ نفسًا عميقًا يبين مدى ضيقه بها جرى، قلبّ بضع أوراق أمامه وقال دون أن يرفع عينيه عنها:

- «رجل الحماية بائد، لقد وصلت تقارير رجال الحماية خلال الأيام الفائتة متضمنة عدد الكرات الزجاجية التي تم إيجادها في مناطق مختلفة من القرية، هل يمكنك ذكر الخاصة بالسوق؟»

أجاب بائد على مضض:

- «سبع وعشرون كرة تقريبًا، لكل عشرة دكاكين.»

تجاهل القاضي شهادات الحضور الفزعة وهو يتابع بصوت رتيب:

- «استنادًا على ذلك، يكون من المنطقي تقبّل دفاع المتهم عن نفسه، وقبول فكرة أن تندسّ كرة زجاجية بين الأغراض دون أن ينتبه إليها، وفي

المقابل: لا يوجد دليل كافٍ لاثامه بتهمة كبيرة كالتجسس والعمالة.»

رفع عينيه ونظر إلى وادع مبهور الأنفاس، وقال بهدوء:

- «يُحكم ببراءة وادع بن جواد من التهم الموجهة إليه.»

الآن أمكن للصخب المحبوس في الصدور أن يتحرر، بين معترض على الحكم ومستمتع بما حدث ومهتئ لوادع، الفئة الأخيرة كان عدد أفرادها لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. قال القاضي قبل أن ينسحب:

- «تبعات الحكم ستناقش في دار القضاء، وسيأخذ كل ذي حق حقه، وسيحاسب كل من أخطأ.»

ارتعد باند إثر العبارة الأخيرة، ومع استدارة القاضي فيصل وابتعاده عن الساحة، وبمجرد أن أنهى رجال الحماية فك وثاق وادع، اندفعت تبر لتعانق شقيقها، أخذت تبكي على كتفه بحرقة في حين ضم رأسها وأخذ يهدئها بلطف ويطمئننها أنه بخير. نظري أبي قائلاً:

- «أحسنْتَ.»

لكنني كنت أنظر لجهة أخرى، جهة زنيق التي تحاول الانسلال من بين الجموع بوجه مبهور. اعترضت طريقها وقلت بشراسة:

- «هذه ليست المرة الأولى التي تتعدّين فيها على إخوتي، تجاوزت مرتين، أنصحك بعدم تجربة الثالثة، وأوصلي هذه الرسالة لمن حرّضك وحرّض شقيقك الهمام، غيم ابنة مدرار ليست خصماً سهلاً، وليس على أحد أن يحرص على معاداتها، مفهوم؟»

هزت رأسها بقوة وابتعدت في غمضة عين، عدّلت هيأتي ووددت لو أعدّل شعري الذي انتفش -قطعاً- تحت الخمار. وقفت أمام وادع وتأمّلت في

تأثر، كان يبتسم ويطمئن أسرته وأبي وأنور، لكنه ليس بخير بالتأكيد، ليس بعد كل ما حدث. التفّت لي واتسعت ابتسامته، قفزت لأعانهه وأنا أعتذر بحرارة، ثم فارقتة وتأمّلت وجهه.

- «هل أدوك يا أخي؟»

- «أنا بخير يا غيم.»

- «توقف عن ترديد هذه العبارة، ليس على غيم!»

تقلّصت ابتسامته مرة واحدة، لكنه بقي ينظر إلي في مناشدة صامتة بآلا أصرّ على السؤال.

- «لا بأس، تعرف أن بوسعك أن تبوح لي.»

- «لا أحد سيريد إيذائي يا غيم، فقط.. ذلك الشاب بائد.. ربما...»

- «توقعت هذا، انتزع منك اعترافات بالقوة، صحيح؟»

طأطأ ولم يجب. وضعت يدي على ذراعه.

- «أخبر أنور، أرجوك، وأخبر القاضي، لا تسكت عن ذلك!»

أوماً بخفوت، قلت بصوت متهدج:

- «لا أعرف كيف سأسامح نفسي بعد كل ما حدث لك بسببي، لكنني

أعدك، لن أورطكم في مغامراتي تلك مجدداً.»

رفع عينيه إلي وقال بحزم:

- «لا تقولي هذا يا غيم، بل إنني أرجوك أن تستمري في البحث

والتقصي، وألا تتوقفي أبداً عن محاولة كشف الحقائق. وبالنسبة لنا؛ فإننا لن ننال رضا الناس بأي حال، وعزائنا أننا نسعى لرضا الله سبحانه، ولو ذهب

أرواحنا جميعها فداءً لإماطة اللثام عن جانب واحد من حقيقة تفيد الناس وترضي الله وتدحر الشر فإن هذا يكفي ويزيد!»

دمعت عيناى بتأثر، مرّت لحظات من الصمت قبل أن أقول بابتسامة:

- «هل تعرف كنه ما أفعله؟»

- «لا، ولعلك لا تعرفين أيضًا، لكن استمري على أي حال.»

تنهدت وهزّزت رأسي بامتنان، نظر بشرود إلى عائلته التي تتبادل التهاني والضحكات بعد يومين خلا منهما، وقال:

- «ربما حان وقت تنفيذ نصيحتك، من يريد التشكيك بي سينقّب عن سبب لذلك ولو تحت الأرض؛ لذا عليّ فقط أن أخفف من الاهتمام، حان الوقت ليصبح وادع أقل وداعة بقليل.»

أومأت موافقة بسرور، أخيرًا أدرك هذا. كدت أقول شيئًا ما، لولا أن قطع حبل أفكارى صراخ مجنون يصدر من خلفنا. استدرت ودققت النظر، كانت الصورة مشوّشة، انتبهت أن الدموع التي تتشبّث بأهدابي هي السبب، مسحتها وركزت باهتمام؛ فهاألني أنني لم أستطع تمييز هذه الكتلة الدهنية المقرزة التي تشغل مجال الإبصار كاملاً.

- «أيها المسخ الأزرق! هل تعتقد أن تبرئة القاضي لك ستحميك منا؟ ليس بعد كل ما سببته لنا من أذى، سوف أريك كيف...»

كذا صرخ قاسط قبل أن يقفز قفزة مستحيلة لمن في مثل وزنه، كان يريد مهاجمة وادع، هذا مفهوم، لكن الفكرة أنني كنت أتوسط المسافة بينه وبين هدفه، وأنني كنت ملاصقة لوادع بطريقة تجعلني أتضرر من هجمته بشكل مؤكد! الحقير لم يراعِ ذلك حتى، وخلال الثواني التي استغرقتها قفزته، دار

عقلي - كما يفعل في اللحظات الحاسمة- ليدرك حقيقة أن قاسط مختفٍ عن المشهد منذ مدة ليست بالقصيرة.

وفي اللحظة التي كاد قاسط يهبط فيها، حدث ما جعله يغيّر اتجاه طيرانه، ربما وُصف المشهد في كلمات طويلة، لكنني أؤكد لكم أنه لم يستغرق عشر ثوان. سقط قاسط على الأرض ككتلة من الدهن وهو يتأوه ويصرخ بغضب وألم، في حين كان ظهر ساري لي، وقبضته التي حطم بها وجه قاسط لا تزال مرفوعة. كان ساري هنا منذ بداية المحاكمة، لكنه لم يفعل ما يدل على كونه شخصاً حياً، لم يهنئ وادع حتى.

- «أيها القدر، ألم ترَ الفتاة أمامك؟»

كنت مصدومة تماماً، أمسك بي وادع وأرجعني خلفه، ليحيطني أبي بذراعيه في خوف وغضب. تجمّع كل الحاضرين من أهل القرية ورجال الحماية، في حين كان وجه أنور يتلوّن بألف لون.

- «أين نحن؟ هل نحن في قرية محترمة بين أشخاص محترمين، أم أننا في غابة يتصرف فيها المرء كما يحلو له، ويتعدى على غيره، ولا يراعي وجود نساء أو كبار يستحقون الاحترام!»

أحاط رجال الحماية بقاسط وأنهضوه، ربما لم يكونوا متضايقين لتصرفه الهمجي بقدر ما كانوا شاعرين بالإهانة لأنه لم يكثرث لوجودهم. أخذ أنور نفساً عميقاً وأخرجه كما لو كان سينفجر، وقال:

- «دعوه، لنسامحه هذه المرة، تقديرًا للظروف التي تمرّ بها أسرته، أرجوكم أن تقبلاً شفاعتي هذه المرة فقط.»

كان يوجه عبارته الأخيرة لأبي ولوادع، زاد أبي من إحكام ذراعيه حولي وشمّلني بعباءته كأنه يريد أن يدخلني إلى صدره، وبقي فمه يرتجف

في غضب دون أن يجيب أنور، وأشاح وادع ببصره عن قاسط. ترك رجال الحماية قاسط كما أمر أنور، تراجع قاسط خطوتين وهو يمرر نظراته الملتهبة علينا واحداً تلو الآخر، تثبتها على ساري وقال من بين أسنانه:

- «أنت يا ساري؟ أنت تمدّ يدك علي؟ ومن أجل من؟»

لا داعي لقول إن ساري لم يُبدِ رد فعل، بسرعة ركض قاسط مبتعداً وبدأ الحشد بالتفرّق، تركني أبي ببطء، واقترب مني ساري.

- «هل أنت بخير؟»

كان يضع يده على رأسي كعادته، فجأة شعرت بشياطين الأرض كلها تتراقص أمام عيني، بثورة لطمت يده لأزيحها عن رأسي؛ فسحبها إليه وعيناه تتسعان في ذهول، صرخت بجنون:

- «كم مرة علي أن أقولها؟ لا تقترب مني، لا ترني وجهك! وإياك، إياك أن تحاول مساعدتي مرة أخرى أيها...»

كززت على أسناني بغیظ، واستدّرت أركض في الجهة المعاكسة لقاسط، وأنظاھر بأنني لا أسمع كل تلك النداءات المشدوھة من خلفي.

- «ما الأمر يا صغيرتي، أنت لستِ على طبيعتك.»

- «أنا بخير.»

قلتها بصوت مختنق وأنا أتشرنق على نفسي أسفل شجرة الأراك، هذه الشجرة التي شهدت كل أمزجتي وأحوالي منذ كنت طفلة. وضع أبي يده على ظهري وقال برفق:

- «وهل أنت مستعدة دائماً لإهانة أخيك أمام الجميع بهذا الشكل،

خاصة بعدما أنقذك من ذلك الثور الهائج؟»

- «لم أستطع منع نفسي.»

- «هذا ليس مبرراً للخطأ!»

رفعت رأسي ونظرت إلى أبي بعينين قاتمتين؛ فقال بتمهل:

- «أم أن هناك ما علي أن أعرفه؟»

هززت رأسي ببطء وقلت بثاقل:

- «مجرد خلاف.» أشحت بوجهي واستدركت: «ربما ليس خلافاً

حتى.»

- «غيم، كفي عن الهرب من عيني، لا توجد فكرة واحدة من أفكار

ساري تعجبك منذ كنتما طفلين، ودائماً تتجادلان وتختلفان؛ فما الذي شذَّ

هذه المرة، وجعلك تتصرفين هكذا؟»

- «ربما كنت متحفزة أكثر بسبب محاكمة وادع.»

بقي أبي يتأملني بتدقيق لبضع ثوانٍ، ثم قال بنبرة قوية:

- «احترفتِ الكذب يا غيم.»

اتسعت عيناى وتسارعت نبضات قلبي، لا أحب سماع ذلك من أبي!

- «الكذبة الثانية خلال يوم واحد تقريباً، أنتِ لم تكوني مع ساري عند

البحيرة حين غادرَتنى بالأمس، صحيح؟»

- «أنا.. أجل، لكن كيف عرفت؟»

- «سألت ساري، ونفى أنكِ كنتِ معه.»

- «وشى بي إذن!»

قطّب حاجبيه باستنكار وريبة.

- «لم تتحدثين عنه بهذه الطريقة؟ هو لم يشِ بك، كل ما هنالك أنه لم يكن على علم بالكذبة التي قلتها لي.»

وشدّد من نطق كلمة (كذبة). طأطأت بحرج وضيق، لا أحب أن ينظر إلي أبي بعينين محمّلتين بالخيبة، لكنني...

- «لو أنك قلت ببساطة: (اعذري يا أبتى، أفضل عدم التحدث عن ذلك..). كنت سأنفهم، ولم أكن لأضغط عليك.»

قالها بعتاب رقيق آلمي، أسندت ظهري إلى الشجرة وأرجعت رأسي للوراء، تابع أبي وهو يراقبني:

- «تعلمين أن ثقتي بك تتعدّى أي حد، وهذا يجعلني معذورًا حين أنزعج لرؤيتك تقابلين ثقتي بالكذب والالتفاف والاستخفاف بي.»

حتى في لومه لي، يحرص على انتقاء ألطف الكلمات، ويخشى من قول أي حرف يمكن أن يجرّحني أو يחדش مشاعري.

- «حاشاك يا أبتى، ومعاذ الله أن أفكر في فعل ذلك بك، أو في جحود ثقّتك بي. كل ما هنالك أنني.. ربما.. لا أعرف حقًا، فقط لم أكن مستعدة لقصّ كل ما أعرفه عليك، ولم أرد أن أقلقك أو أجعل خيالك يؤذيك وأنت تتصوّر أي نوع من الهموم أحمل.»

أغمض عينيّ لبضع لحظات، ثم فتحتها بصفتائهما وحنوّهما المعتادين، قال بعذوبة:

- «وتظنين أن هذا أشدّ وقعًا عليّ مما لو كانت ابنتي، وحبّية قلبي

تائهة وسط وقائع متشابكة لا تجد لقدمها موضعاً بينها، وتحمل فوق كتفيها الرقيقين هموم قرية بل.. بل أمة بأكملها، دون أن أشعر بذلك أو أساندها أثناء رحلتها؟»

زفرت بعمق. ابتسمت ابتسامة باهتة وقلت:

- «ليس إلى هذا الحد يا أبي، رأيت ما كنت خائفة من حدوثه إن أخبرتك؟ عموماً، حين كنت في الخارج أمس، كنت...»

- «من هناك؟»

قالها أبي بصرامة وهو ينظر إلى نقطة ما بين الشجيرات، دققنا النظر لنجد بشريين صغيرين يخرجان من وسطها بارتباك وحرص، ابتسمت لمرأهما ونفض عني ذلك شيئاً من الضيق، فردت ذراعِي ودعوتهما للجلوس، في حين حدّق أبي في وجهيهما.

- «أنتما.. ألستما ابني...»

- «أجل يا أبي، ابنا تلك العائلة الزرقاء، جوهرة وبدر.»

نظر إلي بحيرة؛ فاستأذنت الصغيرين بنظرة وحكيّة له قصتها، حين انتهيت بقي أبي ينظر إليهما بشرود.

- «إذن، أنت سمعت ما قلته في درسي، وفكرت فيه وفهمته.»

أوماً بدر مؤكداً، نقل أبي ناظريه بينهما، وانفجرت شفتاه عن ضحكة منفعلة اختلط فيها السرور بالدهشة، وحوّت شيئاً من التوجع أيضاً.

- «لقد أرسلكما الله لتجبرا خاطري أيها الولدان! الحمد لله، ألم أخبرك يا غيم؟ الدار لم تكن إلا بداية، ونهايتي معها لم تكن إلا بداية أخرى! كم واحداً كبدّر وجوهرة سيفعل الشيء نفسه برأيك؟ لقد فعلت ما فعلته الله، والله لم

يضيّع تعبي!»

ابتسمت، كنت مسرورة مرتين، مرة لفرحته العظيمة تلك، ومرة لأنه لم يعد غاضباً مني، لقد فهم الآن أنني كنت منشغلة معها أمس، قابلتهما قرب الغابة، ثم أتيت بهما للمزرعة في وقت متأخر. إنها الحقيقة، ولو لم تكن كاملة.

- «ماذا عن أهلكما؟ هل ستكونان بخير لو عرفوا؟»

قالها بقلق وقد استعاد توازن أفكاره أخيراً، قالت جوهرة بخفوت:

- «لا أعرف ما الذي يمكن أن يفعلوه لو اكتشفوا أمرنا، أبي حارق محاصيل متعصب، وأمي كذلك، وأخي فريد أسوأ من كليهما!»

- «أسأليني عن ذلك.»

قلتها بتهكم، وقد كانت اللحظات التي احتككت فيها بذلك الولد كافية لجعلي أفهم أي نوع من الصبية هو. طالعني أبي بلوم وشرّد ذهنه قليلاً، أخيراً قال بابتسامة لطيفة:

- «ليس من الضروري أن يعرفوا إذن، تعاليا عند مكتبة الدار...»

- «لا، ليس مكتبة الدار، أرجوك!»

قلتها بانفعال؛ فنظري أبي بريية من جديد، وأشحت عنه باضطراب.

- «ليس المكتبة، تعاليا من الجهة الأخرى من منزلي، من عند الباب الخلفي، في أي وقت تستطيعانه، وسأعطيكما كل الدروس التي كنت أعطيها للأطفال غارسي الفسائل، اتفقنا؟»

تبادلا النظرات وعلا البشر وجهيهما الوضائين، وسرّني أن وجدا معلماً أفضل مني. نهضا وأعلنا بارتباك أن أبويهما قد يلحظان غيابهما، ودعانا وغادرا.

- «أبي، ماذا حدث للمنطقة الخالية، هل زرعتها؟»
- عاجلته بسؤال قبل أن ينقض علي بأسئلته؛ فقال بضيق خفي:
- «فعلت بمعونة سهل، ولربما شقت البذور التربة الآن.»
- ثم نهض ومد يده لي لأنهض، سرنا متجاورين نحو تلك المنطقة، بالفعل رأيت النباتات الصغيرة تشق الأرض باستحياء.
- «لحظة، ما هذه النبتة هناك؟»
- شعرت برغبة عارمة في الصراخ، لم أكن بحاجة إلى النظر إلى ما أشار إليه حتى، هذه النبتة تلاحقني إلى كوابيسي! استبدّ الدوار برأسي وتراخت قدماي، بصعوبة استطعت أن أهتف بصوت باك:
- «انزعها يا أبي، بسرعة، المنّ...»
- كان ذلك كافياً لجعل أبي ينتزعها بكل قوّته، نظر إلى جذورها بذعر لكنها كانت نظيفة تماماً، بتردد انحنى على نبتة مجاورة لها واقتلعها لينظر إلى جذورها، لا شيء.
- «ما الأمر يا غيم؟ لا يوجد شيء... غيم!»
- لقد سقطت، والعالم لم يعد بالنسبة لي أكثر من صورة مهترّة تتداخل فيها الأنوار والألوان وتتراقص فتشير غشائي. رفع أبي رأسي وأخذ يربت على خدي وينادينني بفزع، اقترب سهل إثر الصراخ فأمره أبي بإحضار كأس من الماء، أفرغه على وجهي فثبتت الرؤية أخيراً.
- «أي جنون! ما هذا الذي يحدث لك يا غيم؟»
- اعتدلت وأمسكت رأسي بلم.

- «أسفة، لم أقصد إخافتك. هذا لا شيء، فقط أنا.. لم أنم منذ يومين، اللهم إلا الساعة التي استرقتها صباح اليوم. ولم أكل شيئاً.»

هز رأسه بلوعة وهو يحوقل مراراً، ساعدني على النهوض، وتحاملت على نفسي حتى وصلنا إلى البيت. كدنا ندخل، لكنني تذكرت شيئاً هاماً للغاية، وثبت من مكاني كالملسوعة، نظري أبي بتساؤل، وقد بدأ يفقد ثقته بمدى صلاحية عقلي.

- «أبي، هناك موضوع طارئ، مشوار هام جداً ولا يحتمل التأجيل، لن أتأخر، سأكون هنا في غضون ساعة، وداعاً.»

لم أدع له فرصة ليستفسر أو يعترض، بسرعة لا أعرف من أين أتيت بالطاقة المحركة لها، وجدنتني أقطع الطرقات ركضاً نحو الدار.

- «معلمتي.. معلمتي!»

- «بسم الله عليك يا غيم، التقطي أنفاسك يا ابنتي.»

قالتها المعلمة رؤية بفزع وهي تطالع وجهي الشاحب ووقفتي المترنحة، ألقيت نفسي جوارها وثبت رأسي بيدي، استغرق الأمر وقتاً لا بأس به قبل أن تكف الموجودات عن الدوران.

- «ما الخطب؟ تبدين كما لو أنك لم تنامي منذ يومين!»

- «حزرت يا معلمتي!»

قلتها بابتسامة ضمنية، ركزت أنظارها علي في قلق ثم انحنى تخرج شيئاً من تحت الطاولة، سلة صغيرة، أخرجت منها قطعاً من الكعك، وقربت الصحن مني.

- «قبل أن تقولي أي شيء، كلي قطعة على الأقل، حتى يستعيد وجهك لونه. هيا، ريثما أصب لك الشاي.»

على مضض أمسكت بقطعة، لدي مشكلة كبيرة تتمثل في أن تعرّضي للجوع الشديد يتقلب بغثيان يجعلني عاجزة عن مجرد النظر إلى أي طعام. لكن هذا الإحساس يتلاشى ما إن أتناول أول لقمة، أو لقمتين، ها نحن ذا، الحياة أصبحت أجمل يا رفاق! ابتسمت المعلمة في رضا، وضعت كأس الشاي الأخضر الساخن أمامي، وقالت:

- «لا تبدين بخير، أهذا الجرح الذي كنت تضعين القماشه لأجله؟ ماذا عن الجرح في خدك، وفي جبهتك، و...»

- «معلمتي، لقد حدث الكثير منذ رأيتني آخر مرة، وبصراحة شديدة، أنا أتعجب من سؤالك عن أمور يعرفها كل من في القرية، أين تكونين وقت حدوثها؟»

ابتسمت ببساطة، وأشارت إلى الرفوف حولها:

- «أكون في أماكن أخرى للأسف. أنا لا أغادر المكتبة إطلاقاً يا غيم، ولأي سبب. أنا أبيت ليلاً هنا.»

الشائعات لم تكن صحيحة وحسب، بل كانت مفرطة في الصحة! باختصار حكيت لها ملخص أخبار القرية منذ رأيتها آخر مرة، وكانت تتفاعل مع كل ما أقصه لها بما يناسب شخصاً يسمع عنها للمرة الأولى، ويغالب قناعته بأنها من وحي الخيال.

- «هل لي أن أسأل الآن، لماذا لا تخرجين إلى القرية؟»

- «ولماذا أخرج؟»

ارتبكت، ما هذا السؤال؟ ابتسمت المعلمة وقالت:

- «أصبحت البطولة الآن في أن يحافظ المرء على عقله وقلبه ووسط كل ما يدور، وأن يجد له ثغراً يسدّه ولو صغيراً. وأنا وجدت في المكتبة ملجأ وموئلاً وحافظاً لقلبي وعقلي، وفي الدار ثغري الذي يجب أن ألزمه؛ فماذا أريد بعد هذا؟»

- «لا زالت المعلمات يسألنك؟»

- «معلمات وطالبات، وهذا أقصى ما أريده من الدنيا!»

أطرقت للحظات، لا أعرف كيف أقولها.

- «معلمتي، أديم.. يوم نادتك.. كانت...»

- «في أي مرة؟»

نظرت إليها بحيرة فابتسمت ابتسامة واسعة، هي تعرف ما أريد قوله، وتخبرني أن أديم كررت ذلك مراراً.

- «لقد هددتك، صحيح؟ أرادت منك الابتعاد عن الدار.»

- «يسرّني تطوّر موهبتك في إيجاد الإجابات.»

- «لا أعرف كيف أقول هذا، لكن حقاً، لقد توقفت عن البحث عنها، وأصبحت هي من تأتيني بأقداها لتلقي بنفسها بين أحضاني. والأسوأ أنها إجابات مخادعة، ظاهر واحدتها إجابة، وباطنها سؤال أعقد وأصعب، كأنها بطيخة ظاهرها أخضر مبشّر، وباطنها أحمر منذر بالويل!»

كنت أتحدث جادة، لكن مثالي الهزلي أجبرنا على الضحك.

- «بالعودة للموضوع، أرجوك يا معلمتي، خذي تهديدها على محمل

- الجدّ، واعلمي أنه ليس صادراً منها شخصياً.»
- «هل أرسلوك لتهدديني أنتِ أيضاً يا غيم؟»
- «م.. ماذا؟ أنا؟! لا يـم...»
- انفجرت تضحك باستمتاع، في حين كنت أطلعها بتخبط، هذا ليس عدلاً! ليس على أحد أن يمازحني وعقلي غارق في التبدّل هكذا!
- «ماذا سيفعلون مثلاً يا ابنتي؟ يجيدون الأقوال بلا أفعال.»
- «ليس مع من يعيق مصالحهم، هل لي أن أعرف ما قالته؟»
- مطت شفّتيها بلا اكتراث، وقالت:
- «أمرتني أن أغادر المكتبة في غضون أيام؛ فقلت لها ببساطة إن هذا سيحدث يوماً ما بالتأكيد، لكن وأنا جثة هامدة.»
- برجفة وأنفاس متقطّعة سألت:
- «وماذا قالت؟»
- «إنني سأحصل على طلبي.»
- كانت تهز كتفيها بهدوء، كأنها تتحدث عن حوار حميم دار بينها وبين صديقة مقربة. هببت واقفة وصرخت بفزع:
- «ماذا؟ معلّتي، أنا أرجوك! إنهم يعنون ما يقولونه، لا أحد يستطيع أن يراهن على بشاعة وشناعة وفضاعة قلوب الصفراويين، خاصة تجاه من يعارضهم!»
- «غيم، هدّئي من روعك. أنا لن أترحّز من هنا، وهذا آخر ما لدي.
- وأعتر على عدم قدرتي على تنفيذ رجائك.»

- قالتها بصرامة فقطعت أي سبيل لإثنائها، ماذا عساي أفعل؟
- «اجلسي يا ابنتي، وأكملي الأكل، وخذي كتابًا من بين الرفوف.»
 - «آسفة، لا أستطيع، أنا حقًا لا أعرف إن كنت أملك ما يكفيني من الطاقة لأعود إلى المنزل. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.»
 - «رافقتك السلامة يا غيم، في أمان الله وحفظه.»
- ربما ندمت على هذا بعد مدة، ربما تمنيت لو بقيت معها وقتًا أطول، لكن تغيير المكتوب لم يكن بيدي على أي حال، ولا بيد مخلوق.

- «مرحبًا أُمي، هل خلد أبي للنوم؟»
- استدارت من مكانها في المطبخ ونظرت إلى حيث كنت أسرع ناحية الدرج، قالت مع زفرة حارة:
- «لا، حمل سلة طعام وذهب ليفطر مع سهل في المزرعة.»
- هززت رأسي بفهم وكدت أو اصل صعودي، لولا أن نادى أُمي:
- «غيم، انتظري.»
- التفت إليها؛ فأشارت بضيق إلى السفارة التي هيأتها، كدت أعتذر وأخبرها أنني لست جائعة، وأنني تناولت الكعك مع المعلمة.
- «أليس من المعيب أن تستغلي حزني يا غيم؟»
 - «أ.. أستغل حزنك؟!»
- قلتها بصدمة وأنا أنزل تلقائيًا وأتجه نحوها، أشاحت عني وتشاغلت بترتيب الصحن وهي تؤكد:

- «بالطبع، لم تعودى مهتمة بما يزعجني وما يرضيني، تهرين في بداية اليوم دون أن تلقي علي التحية حتى، عالمة أنني لن أقوى على لومك مساءً، لكن يهون عليك انزعاجي! متى آخر مرة أفطرت فيها معي؟ متى آخر مرة أفطرت فيها أصلاً؟»

وضعت يدي على كتفها بحزن.

- «لا يا أمي، الأمر ليس كما تظنين!»

- «حين أنجيتك، كنت مسرورة لأنني حصلت على ابنة، فتاة بشكل خاص. فكرت في أنك ستكبرين لتصبحي صديقتي، نتشارك الأسرار ونكون متفاهمتين، وأكون وجهتك الأولى عندما تحتاجين إلى البوح أو التوجيه.»

ثم رفعت عينين دامتتين إلي.

- «وحين ماتت ودود، كان عزائي أنك معي، وأنتك ستعوضيني عن فقدي، وسأجذك جوارى في كل وقت، تربّتين على كتفي وأبكي على كتفك. ثم ماذا حدث؟ أنا لم أرك منذ ماتت ودود!»

قلة النوم تجعل السيطرة على الانفعالات صعبة، انفجرت أبكي وأضمّهما، وأخذت أصرخ من بين دموعي:

- «أقسم أنك لا تملكين فكرة، اليومان الفائتان كانا عصيين بشكل لا يُصدّق. آخر شيء تمنّيته أن يصلك شعور كهذا، أو أن تعتقدي أنك لست على قائمة اهتماماتي، أنا فقط.. أواجه الكثير! وهذا ليس عذراً.. ساحميني!»

ربّبت علي برفق، وكما انفجرت في البكاء فجأة توقفت فجأة، مسح دموعي وجلست قبالتها على السفرة، سأشاركها الإفطار.

- «أعانك الله يا غيم. أعرف أنك لم تتجاهليني عامدة؛ ولهذا نبّهتك، لتلتفتي إلى جهة كنت غافلة عنها.»

- «يسرني أنك تحدث إلي. وأعدك أن أعدّل هذا.»

بغير حماس تناولت رغيف خبز، صبت لي أُمِّي كأس شاي بالحليب، المشروب الساحر، بلا تردد تركت ما في يدي وجرعت من الكأس.

- «أبولك أيضًا يشكو منك.»

غصصت بالشاي، أبعدت الكأس بسرعة وأخذت أسعل حتى كاد صدري يفصل عن قفصه.

- «أبي شكى مني؟»

- «لا يعجبه حالك، يرى أنك تبالغين في إرهاق وإيذاء نفسك، لا تتخيلين كم يؤرقه وضعك يا غيم، عليك مراعاة ذلك.»

- «أنا.. لا أجد ما أقوله، آسفة حقًا.»

ابتسمت بسراحة أخيرًا، وقالت:

- «أنت أفضل ابنة يمكن أن يُرزق بها أبوان، ولو حدث وغضبنا منك أو عاتبناك على شيء فالمحبة هي الدافع.»

- «أعرف، من دون أن تقولي، أنا محظوظة حقًا بكما، وأتمنى أن تسامحاني، وتدعوا لي، بغير رضاكما أنا لا شيء!»

- «ليوفقك الله يا حبيتي، وليهد قلبك، ويسهل دربك.»

أنا مقصرة، كنت أعدّ الخطط والمهام لكل يوم، ولم أفطن إلى تضمين والدي في القائمة. خطأ لن يستمر بإذن الله.

أنهيت تناول الطعام، وسرّني أن أُمي أكلت بشكل جيد. أعلمتها أن السيدة مخمل وليلة قادمتان للتعزية هذا اليوم، ثم استأذنتها وطررت طيراناً نحو الأعلى. سأنام حتى يلتصق جفناي ببعضهما.

- «غيم، غيم، استيقظي، كفاكِ نومًا يا فتاة!»
- باحتجاج ألقيت الغطاء من فوقي، نهضت بغيظ وأنا أجيب:
- «تبر، ما قصتك؟ هل أعجبكِ الموضوع؟!»
- «أنتِ لا تستيقظين إلا بهذه الطريقة.»
- «وهل سبق وجربتِ غيرها أصلاً؟»
- «يكفي جدًّا، لدي شيء مهم جدًّا أريد إخباركِ به.»
- تنهدت باستسلام وأشارت إليها كي تتكلم.
- «السيدة مخمل وليلة وأنور أتوا عصر اليوم لتقديم العزاء.»
- «عصر اليوم؟ ماذا؟ هل حلّ الليل؟ كم نمت؟»
- «لا يهم يا غيم، هل ستدعينني أكمل؟»
- أوامات بنوع من التيه، لقد نمت كثيرًا على ما يبدو.
- «المهم أن أُمي ناولتني صحن ضيافة وذهبت لأعطيه لأبي عند مدخل الديوان، وسمعت والدك وأنور في الداخل يتحدثان...»
- «ماذا عن وادع؟ أين هو؟»
- «يا ربي ألهمني الصبر! وادع غارق في النوم في منزلنا. هلا كففتِ عن

أسئلتك الوجودية هذه؟!» أخذت نفساً عميقاً بغیظ ثم أعادت ابتسامتها الواسعة. «كنت أقول إنني سمعت حوار أنور ووالدك، احزري ماذا قال له؟ قال: هناك موضوع ترددت طويلاً في طرحه عليك يا عمي، وأعلم أن هذا ليس الوقت ولا الظروف المناسبين له، لكنني لم أحب الانتظار أكثر؛ لذا، وكخبّر مبدئي، ما إن تنتهي أيام العزاء سأعود بإذن الله مع أمي وأختي... لأتقدم بطلب يد ابنتك!»

أنهت كلامها وقيت ترقب انفعالي بابتسامة عريضة، لكن الكلام كان أبعد عن التصوّر من أن يستوعبه عقلي ببساطة.

- «طيب؟»

- «غيم، هل استيقظت بعد؟»

نفضت رأسي بتخبط، وكررت كلامها ببطء.

- «أنور سيأتي بعد أيام العزاء ليتقدم بـ... ماذا؟!»

صرخت بالكلمة الأخيرة وقد استوعبت أخيراً. انفجرت تبر تضحك بانفعال في حين فغرت فمي في صدمة، احمرّ خدّاي وعرفت ذلك من ارتفاع حرارتها، وعلا صوت صفير في أذني.

- «ما بك؟ تكلمي، قولي شيئاً، كيف تشعرين؟»

- «تبر... اهدئي أرجوك... رأسي يدور...»

عادت تضحك باستمتاع، وضعت يدها على كتفي وقالت بمكر:

- «لطالما كان اسم أنور واسم غيم مقترنين، لكن من الواضح أن سبب اقترانها سيتغيّر قريباً.»

أبعدت يدها بتوتر، كانت مأساتي الكبرى أنني عاجزة عن تحديد ما أشعر

به. هل أنا سعيدة؟ أم مندهشة؟ أم ربما خائفة؟ تجربة جديدة علي بالكامل، وتحديد ما يجب أن أشعر به وأفعله مسألة مبهمة.

- «هل عرفت أمي؟»

- «أنا لم أخبرها، ربما يفعل عمي مدرار.»

هززت رأسي بإفراط وشرد ذهني، قرار عجيب، ما الذي خطر ببال أنور؟ لماذا أنا بالذات؟ تاريخنا حافل ب... أي تاريخ؟ طفولتنا؟ يا للسخافة! لقد أنقذ حياتي ثلاث مرات، من الكلب، ومن الغرق، ومن الحريق. اعتذر لي نيابة عن العائلة الزرقاء أمام أهل القرية، وترك كل ما في يده ليدرك ساري ووداع يوم ناديته. عرف أنني تجسست عليه يوم حواراه مع زوجة أبيه، وبدلاً من أن يشكو لأبي أو يحاسبني أو حتى يجرجني بأي تلميح، احتفظ بجراي وأعاده لي مع عبارة تدل على ارتياحه لأنني كنت من سمع وليس غيري. بقي هادئاً وحليماً يوم صرخت عليه وأهنته أمام جنوده، ثم اعتذر لي في اليوم التالي أمام أسرته، وكان حريصاً على ألا أفهمه بشكل خاطئ. الآن فقط أجمع كل هذه الأحداث جنباً إلى جنب، وأفهم السبب الذي دفع أنور للتقدم إلي، الأمر يشغله منذ وقت طويل كما قال لأبي.

- «هل سافرت مع فارس أحلامك؟ لا زلنا مبكرين!»

- «أيتها السخيفة!»

قلتها ضاحكة وقد بدأ تنفسي يعود إلى انتظامه أخيراً، وبدأ وعيي يتصرف بفاعلية أكبر. بدت تبر أشد فرحة مني، لعلها فطنت منذ زمن لما لم أفطن له إلا الآن. نهضت بحماس قائلة:

- «هذا كل شيء، عودي للنوم.»

- «تمزحين، صح؟ من أين سيأتي النوم؟»

قهقهته باستمتاع، ثم جذبتني من ذراعي لأنفض معها، حين دخلنا الصالة كانت أمي وخالتي حسناء تتحدثان، عيونهما دامعة وخدودهما حمرة، تتمتان بتتابع: (رحمها الله). في غمضة عين وجدتني أسقط من القصر الخرافي فوق السحاب، وأهبط إلى أرض الواقع، أفيقي يا غيم، هذا ليس وقت تخيلاتك السعيدة، خالتك ماتت منذ أقل من يومين، هل ستتجاوزينها بهذه السرعة؟

تبادلت وتبر النظرات وجلسنا، لدهشتي وجدت عقلي يخلط الحديث ببعضهما ببعض، فوجدت دموعي تنهمر لأن خالتي لن تشاركنا هذه المناسبة السعيدة، بغض النظر عما إذا كانت سستم، كان يكفي أن تفرح معنا لمجرد تحدث أنور مع أبي في الموضوع!

بمهارة استطاعت تبر تغيير دفة الحوار، وبعد قليل وجدت أمي وخالتي تضحكان على شيء قالته ولم أسمعه لصخب الأفكار في رأسي، وحين اندمجت أمي وخالتي في الأحاديث مجددًا، التفتت لي تبر ووكزتني بدهشة.

- «هيه، غيم! لديك تراكم في الانفعالات!»

وجدتني أضحك من بين دموعي فانفجرت تبر تضحك لمظهري، حقًا سبب لي الأمر حيرة وتخبطًا كبيرين. نظرت تبر لوالدتي كأنها تستوثق أنها لا تعيرانا انتباهًا، وهمست بخطورة:

- «تذكرت موضوعًا ذا صلة، هل انتبهت من قبل إلى تلك الصغراوية اللحوح التي تحوم حول وادع طوال الوقت؟»

جذب حديثها انتباهي، كما يقول أبي: فرط التفكير ليس له علاج إلا الانشغال في شيء يستغرق الوعي كله.

- «من تقصدين؟ لا أذكر أنني رأيت شيئاً كهذا.»
- «توقعت ذلك، أنتِ بارعة في تفنيد أحداث القرية وكشف المؤامرات والخوافي، لكن رؤية الواضح ليست من اختصاصك. لقد نسيت اسمها، لكنني لا يمكن أن أكون مخطئة، لقد رأيتها عدد مرات يبطل أي ظن بالصدفة، دائماً هي متواجدة حيث تواجد وادع، ودائماً تهتم لما يجري له.»
- هزرت كنفني باستسلام، لا أعرف ما تتحدث عنه. زمّت تبر شفيتها بضيق، ثم انفرج وجهها فجأة وهي تقول:
- «أجل، إنها الفتاة التي كانت تزاملك في الدار، ابنة رجل الحماية الذي طُرد من القيادة!»
- «هل جننت؟ أنتِ تقصدين مسرة؟»
- «بالضبط، مسرة! إنها غير معقولة! حيثما التفت وجدتها، أول ما فطنت لها كان يوم مسار السباحة، حين غرق وادع وأنعشه والدك، لقد كانت تنتظر نهوضه أكثر منا جميعاً. وتوالى الأحداث بعدها، أصبحت أراها يومياً تقريباً، حتى في اليوم الذي وجدنا فيه الكرة الزجاجية، كانت قد وقفت أمام الدكان قبلها بقليل، وطلبت من وادع سلعة ما، بدا واضحاً أنها تطلب لأجل الطلب فقط، وصباح اليوم حين حوكم، كانت من أوائل من صرخ وهلل لبراءته.»
- «أغبط دقة ملاحظتك، أو فرط توهمك، على حسب.»
- تأففت بنفاد صبر وقالت:
- «سترين أنني محقة، في يوم ما.»
- ابتسمت ببساطة، واندمجنا في الأحاديث مع أمي وخالتي. وحين

استعدوا لمغادرتنا مساءً، وقبل أن تغرف أُمي الصحون التي ستصّر على تحميلهم إياها، وفي حين كانوا يرتدون جلابيب الخروج - دوى الصوت للمرة الثالثة، وبقدر ما كان يستثير في داخلي مشاعر الفزع وذكريات مرعبة، إلا أن شيئاً من الاعتياد غلف الإحساس، بشكل ما أصبح الصوت مألوفاً. تبادل الجميع الأنظار بقلق.

- «أين هذه المرة؟»

- «أياً يكن، أسرع يا تبر واستعجلي والدك، فلنصل للبيت قبل أن يتهموا وادع بأنه من فعلها!»

قالتها خالتي حسناء بسرعة واستدارت تلحق بأُمي للمطبخ كي توقفها عن غرف الصحون، تبعثها تبر بناظرها ثم قالت هامسة بتهكم:

- «سيتهمونا أننا من فعلها، وسيأتون بألف شاهد وأنا نركض في الشوارع وقت حدوث الهجوم. لا فائدة يا أماء.»

تنهدت بضيق، لكن تبر بدت متصالحة للغاية مع هذه الحقيقة، اقتربت مني وبمنتهى السرور ضمتني وقبلت خدي، ثم لكزت كتفي وقالت:

- «مبارك، أيتها العروس.»

- «على رسلك، لم يحدث شيء بعد!»

- «سيحدث، أنا واثقة.»

قالتها بمكر وهي تغمز، ابتسمت برغمي، ربما هي محقة، لكنني لن أفوت فرصة الرد.

- «والعقبى لك، مع من تحبين.»

- «ماذا تقصدين؟»

قالتها بحدة، لم أقصد شيئاً ساعة قلتها، لكن تفسيراً ما راودني الآن.

- «بشكل عام.»

ضيق عينيها وقربت رأسها من رأسي، قالت بتمهل:

- «غيم لا تقول شيئاً بشكل عام، وحين تقول غيم كلمة فإن عشر كلمات إضافية يقيّن مستترات في عقلها.»

ابتسمت باعتراف.

- «تعرفين عني الكثير فعلاً، كأنك أختي.»

ضحكنا بخفوت، أغرب وقت ممكن للضحك، لكن الأيام تثبت أن الآن هو أنسب وقت للضحك والفرح؛ لأن أحداً لا يعلم ما سيأتي به الغد. غادرتنا عائلة العم جواد، ومعهم خرج أبي ليستطلع ما حدث.

جلست مع أمي قليلاً من الوقت، تحدثنا عن أشياء لا أذكرها بالتحديد، أشياء غير محددة، لكنها كانت راضية بمحادثتنا، سألتني عما إذا كنت سأخرج لأرى ما حدث بدوري؛ فأخبرتها أنني لا أخطط لهذا، لقد خرجت بما فيه الكفاية خلال الشهور الماضية، جمعت الكثير من المعلومات وعرفت ما كان علي أن أعرفه وأكثر، سأبقى في المنزل خلال الأيام التالية، سأعوض أبي وأمي عن غيابي، ولو لم تكن لي أهمية ما، سأبقى جالسة في منتصف الصالة هكذا، بلا فعل أي شيء، فقط في موضع يراني فيه والداي أثناء ذهابهما وإيابهما.

ربما لست ماهرة كثيراً في تحقيق انتصارات على نفسي، لكنني حققت هذا على الأقل، لمدة خمسة أيام، بمعجزة ما استطعت منع نفسي من مغادرة البيت، واستطعت كبح فضولي لبعض الوقت. لم أذهب إلى المزرعة، أو البحيرة، أو السوق، أو الساحة، أو منطقة الجبال، أو أي مكان آخر. وحين كنت أشعر

بالمثل، كنت أتسلى بتقليب صفحات التاريخ المنسي، أو فتح صفحة عشوائية من دفثري وكتابة أي شيء يعنّ على بالي داخلها.

كانت تلك الأيام الخمسة حافلة بالأحاديث مع والديّ، كانت أمي تتحدث معي عن كل شيء وأي شيء، تتذكر خالتي ودود، تدعو لها وتبدأ بالحديث عنها، عن طفولتهما المشتركة، عن خلافاتها ولحظات وفاقهما، يخطر لها موقف مضحك فتضحك، ثم ينفطر قلبها للذكرى فتبكي، ثم تضحك لأنها تبكي، وتبكي لأنها تضحك، وكنت أعيش معها كل لحظة بتفاصيلها، وأجاري كل ما تقول وتفعل، كنت سعيدة بكل ثانية تلاقى فيها أعيننا فلمحت في عينيها الذاويتين رضاً وأنساً، وكل ثانية بحثت فيها عيناها عن عينيّ قبل أن تطلق تنهيدة اطمئنان لأنني جوارها، ولأنني أفهمها وأساندها.

أما أبي؛ فقد كانت أحاديثي معه أقل على غير العادة، أمسكت به مراراً يراقبني بتركيز شديد، ثم أفطن بعد برهة إلى أنه شارد في وجهي، عندها أغض الطرف، وأنفهم جيداً سبب شروده. ورغم ذلك عادت حواراتنا المثرية، وعرفت منه أخبار الخارج، لقد كان الانفجار الأخير داخل مزرعة شخص ما، وأحدث حريقاً هائلاً أتى على كل المزروعات، احترقت المزرعة بالكامل، مع السور والمخازن. كان ذلك مخيفاً، لقد بدؤوا استهداف أساس معتقدنا بشكل صريح! سألت أبي في انفعال:

- «وأيّن الحاكم من كل هذا؟»
- «يناقش الأوضاع مع السفير.»
- «و...؟»
- «يناقش الأوضاع مع السفير.»
- «وما الذي توصلأ له؟»

- «يناقش الأوضاع مع السفير.»

ابتسم ابتسامة واسعة صلبة، مفهوم، هذه هي الإجابة الوحيدة التي يمكن الحصول عليها من جهة الحاكم. لو كان هناك حل فهو لن يأتي من هذا الطريق.

زارنا بدر وجوهرة عدة مرات، قضيا وقتاً جيداً مع أبي ومارس ببراعة دور المعلم الذي يؤديه منذ عقود، بطريقة ما كان يجذب الأطفال ويرغمهم على الاستماع إليه، وكأن صوته يتخذ هيئة ملموسة تحول دون غلق الأذان والأعين. احتفت أُمي بهما أيضاً، وأغرقتهما بالكعك والعصائر، وأنا أغرقتهما بالحلوى واللعب. دللناهما باختصار. وقد كانت سعادتنا بهما غامرة، وكنا -في نظرنا- أفضل طفلين في قرية المروج كلها، ربما بالإضافة إلى شهاب.

شهاب أيضاً زارنا، على سبيل التطفل. كان قد رأى عائلة عمي جواد آتية برفقة برميل صغير من العصير، وكان هذا إغراءً يفوق الاحتمال، وصادف وجوده ووجود العائلة وجود الطفلين الأزرقين، تم التعارف سريعاً، ولعل الصغيرين اكتسبا قدرًا أكبر من الارتياح لرؤية زرق يشبهونهما، كما سرهما وجود طفل آخر في الجوار، أما شهاب فقد كان يخلق في أعالي السماء، لقد حصل على صديقين ظريفيين بعد طول انتظار، وهما لا يشبهان أطفال القرية الحمقى والمتعصبين في شيء.

أوه، تذكرت، ساري أتى أيضاً، مرتين فقط، وبالطبع كنت أعتصم بغرفتي حتى يغادر، لم أحاول أن أعرف ما أراد القدوم لأجله، لكن أبي طرق باب غرفتي في المرة الأولى، ثم دخل ليعاتبني بحذر على تجنبني لساري، ويطالبني ضمناً بالاعتذار إليه، ولما رأي متشبثة بموقف، وصامتة وثابتة كالأحجار، توقف عن محاولات إقناعي. وفي الثانية تحدثت أُمي، بعدما كانت تقدم قدماً وتؤخر أخرى.

- «أنتِ لا تتجاهلين ساري عمداً، صح؟»

- «أسفة لتخيب أملك، لكنني أفعل.»

بقيت تحديق في عاجزة عن إيجاد شيء تقوله، كانت منزعة بال تأكيد لتخلي عنه في وقت كهذا، خاصة أنها لا تستطيع فهم ساري أو مواساته أو التعامل معه كما أفعل، باختصار: كان وضعي مع ساري غير قابل للاستبدال. أخبرني بارتباك أنه لم يأت لأجل شيء محدد، كان يأتي ليجالسها هي وأبي لبضع دقائق بصمت مطبق، وحين كانت تقدم له أي نوع من الضيافة، كان يكتفي بهز رأسه رافضاً دون إصدار صوت. كانت محتارة من تصرفه، لكنني -بطبيعة الحال- لم أكن كذلك، لقد أتى ساري لرؤيتي، هذا واضح، كان يحاول معرفة ما إذا كنت أتجنبه عامدة، تأكد مرتين، ثم اختفى حين حقق مراده.

انتهت الأيام الخمسة، ومعها انتهى صبري، كنت أستعد للخروج، لولا قدوم ضيوف غير متوقعين. لا أعني بهم عائلة عمي جواد، لا أدعوهم ضيوفاً. كانت تبر جالسة معي في غرفتي أثناء تجهزي، تخبرني أن الأمور ازدادت سوءاً، لقد وصلت رسائل تهديد بلغة ذوي الأعين الزرقاء، وجدها الناس في مزارعهم، ودكاكينهم، وورشهم، والبعض وجدها في باحات منازلهم. مفادها: (نحن لن نترككم تنعمون بلحظة راحة، سنبقى ندمركم -معشر الصفر- حتى نمحوكم، وكله بما كسبت أيديكم). تزامن ذلك مع اكتشاف كميات مهولة لنبته غريبة الشكل مغروسة وسط المزارع، بالإضافة إلى إيجاد كميات من الكرات الزجاجية، كما بدأ الناس -أخيراً- يفتنون إلى تلك الحشرة الصغيرة الخبيثة، التي تمارس عملها خفية من أسفل التراب، أدركوا وجودها فقط بعد أن أتت على مزارعهم وعاثت فيها فساداً، وحتى إنقاذ ما تبقى لم يعد متاحاً؛ لأنهم لا يعرفون الطريقة وليسوا مستعدين للجوء

لذي العينين الزرقاوين كي يساعدهم.

- «وبعد؟ ما التصرف الذي صدر بناءً على كل هذه الفوضى؟»
- «تقصدين من الحاكم ومجلسه الداخلي؟ لم يحدث الكثير في الواقع، أنور أخبر وادع أن والده متوَعك أكثر من اللازم هذه الأيام؛ لذا حاول استغلال الوضع بإقامة حملات لانتزاع النباتات الغريبة، والبحث عن الكرات الزجاجية، وتصفية المزارع من النباتات المصابة بالمنّ. أراد أن يشرك في حملاته كل من في القرية، لا رجال الحماية وحدهم.»
- «فكرة ممتازة، وهل تم تنفيذها؟»
- «بالطبع ستقولين إنها ممتازة.» قالتها وابتسمت بخبث، لم أفهم قصدها بادئ الأمر، ثم فطنت إليه فقطبت حاجبيّ بضيق مصطنع، ضحكت تبر وتابعت كلامها: «لم يتم تنفيذها، في الحقيقة، الصفراوية لم تحب هذا، قالت إن علينا شحذ قوتنا وتركيزنا للتصدي لمحاربينا، وفي سبيل ذلك فلتذهب المزارع والنباتات إلى حيث أَلقت. بالطبع بدأت الأصوات تختلط وإن كان رصد الرأي العام ليس من اختصاصي مثلك، الخلاصة أن الصفراوية أربكت الناس فعلا، فلا هي قدّمت خططا واضحة لمحاربة الأعداء، ولا هي شجعت الناس على إنقاذ مزارعهم. الشيء الوحيد الذي فعلته أن دعت لاحتفال جديد لدى العربية، وإلى التعايش مع ذوي الأعين الزرقاء ومهادنتهم، ومحاولة الابتعاد عن العنف الأصيل الذي يحيط بنا.»
- «يحيط بنا كماذا؟»
- «كذوي أعين صفراء.»
- «ماذا تريد الصفراوية بالضبط يا تبر؟»

- «لا أظن أن الصفراويين أنفسهم يعرفون بالتحديد.»

- «ماذا نقصد بالصفراوية يا تبر؟»

توقفت عن الكلام وابتسمت في نوع من العجز. كلمة (الصفراوية) أصبحت مطاطية ومبهمة ومعدومة الحدود إلى حد مزعج، كأنها باتت مرادفًا لكلمة (الناس)، الناس يقولون ويفعلون، الناس يريدون ويعتقدون، من هم الناس؟ لماذا يتحدث الجميع عن الناس على أنهم كيان محدد ملموس، ليس على أنهم كلُّهم جزء منه؟ الحال نفسه مع الصفراوية، الصفراوية تقول وتفعل وتقرر وتريد، أستم أنتم الصفراويين؟ أستم مؤسسي هذا المبدأ وواضعي قواعده؟ فما معنى إحالة الرأي والقرار والكلمة الأخيرة على الصفراوية، إلا أنه نوع من التهرب وإلقاء المسؤولية، الصفراوية ستقرر، لكنك صفراوي، لكنني لست الصفراوية! كان من المحتم أن يبلغ الأمر في وهيمته هذا الحد.

- «بعض الصفراويين المتحمسين أطلقوا شعارًا ناريًا: (القرية ثم المزارع). ويرددون بإخلاص: (على جميع الصفراويين أن يتحدوا، بكافة معتقداتهم، ليتخلصوا من بطش ذوي الأعين الزرقاء وأذاهم). وتمادى البعض إلى حد...»

- «ماذا؟ أطربيني!»

- «إلى حد حرق مزرعته أمام الأعين المبهورة؛ ليثبت انتباءه لفكرة الدفاع عن القرية بغض النظر عن المعتقد.»

توقف دماغه عن الفهم لعشر ثوانٍ، وحين عاد لعمله قلت بثبات:

- «يدافع عن القرية من ماذا؟»

- «من هجوم ذوي الأعين الزرقاء.»
- «ذوو الأعين الزرقاء الذين يريدون حرق مزارعنا وتدمير أساس معتقدنا؟ يحرق مزرعته كي يمنعهم من حرق مزرعته؟»
- انفجرت ضاحكة باستمتاع، حقاً، شر البلية ما يضحك، إلى أي مدى من الغباء وصل أولئك الصفراويون؟ قالت تبر:
- «هم لا يعادون مسألة الحرق في حد ذاتها، بل هم يعادون مسألة أن يحرق ذوو الأعين الزرقاء نباتاتهم.»
- «مفهوم تماماً، بدليل أنهم يودّون حارقي المحاصيل من ذوي الأعين الصفراء. المنطق: لا منطق!»
- سمعنا جلبة في الأسفل، طرقات على الباب، ثم أصوات أشخاص كثيرين، نهضت تبر بفضول لتتظر من أعلى الدرج، ثم عادت مهرولة بعينين متسعيتين، كنت على وشك النزول للخروج، لكنها دفعني من كتفي لتلقيني على الفراش، وهي تهمس بتوتر:
- «غيم، إنها السيدة مخمل وليلة، وأنور بالطبع!»
- دار رأسي بذهول، قال إنه عائد بعد العزاء بأيام، برغم ذلك لست مستعدة للمضي قدماً في أمر كهذا. كنت أنتظر أن يفتحنني أبي في الموضوع، وأن تعرف أمي به، وأن... يا إلهي! أنا لست مستعدة!
- «تبر، انزلي واجلسي معهم ريثما أحاول تمالك نفسي!»
- «انسي، لن أنزل إلا معك، أيّا كان عذرک.»
- نظرت لها في ضيق:
- «لا زلتِ تكرهين ليلة؟»

- «لست أكرهها، فقط لست على وفاق معها.»

أكثر علاقة استمرت على حالها منذ الصغر، تبر تنظر لليلة على أنها متعجرفة ومتكبرة، وتفسّر هدوءها وثباتها بأنها تحتقر من حولها وتظاهرها بالأهمية. ليلة أيضاً كانت لا تبتلع تبر بالكامل، تراها مندفعة وهمجية، وتنظر إلى حماسها وتصرفاتها الصاخبة بغير عين الرضا. من العجيب أنني كنت قادرة على تكوين علاقة جيدة مع النقيضين، ربما لأنني أحمل صفات مشتركة مع كل منهما، أو لأنني أحمل شخصية كل منهما بالكامل في داخلي.

- «أمرني الله، دعيني أنزع هذا وأتجهز إذن.»

بعجل نزع ملابس الخروج وارتديت قميصاً زيتيّ اللون أنيقاً، صفت شعري في جدلتين تمتدان من أصول الشعر، أسهل طريقة لتصفيف الشعر، والأكثر أناقة للأبد. ربطت شريطة باللون السكّريّ فوق شعري، ثم نظرت إلى تبر بابتسامة أسأها عن رأيها.

- «ليتني كنت ليلة كي تحتفي بي وتأنقي من أجل رؤيتي هكذا.» ثم ضيّقت عينيها وقالت بخبث: «أم أن هذا ليس من أجل ليلة؟»

- «تبر، كفي عن إزعاجي.»

ضحكت باستمتاع ثم ترافقنا للأسفل على مهل، رحّبت بليلة والسيدة مخمل وحاولت ألا أبدو مرتبكة، لم يُعلن شيء بعد. كانتا قادمتين مع سلال كبيرة مملوءة بالفاكهة، وعلبتين من البن المستورد من قرية الربوة، وعدة أنواع من الحلوى. بحثت بعيني عن شهاب فطنت ليلة إلى ما أبحث عنه.

- «كان متحمساً جداً للقدوم، لكن والدته اكتشفت ذلك بشكل ما ومنعته من الخروج.»

قطبت حاجبيّ في انزعاج، يا لها من أم! استمرّت الأحاديث لوقت طويل، وتم تداول عدة مواضيع لا يربط بينها رابط في الغالب. حتى وصل الحديث إلى أمر حمل ليلة.

- «كان قرارًا حكيمًا منك أن تقيمي لدى أمك في فترة الحمل.»

قالتها أمي؛ فدلكت ليلة بطنها وقالت بابتسامة مبتهجة:

- «في الواقع ليس هذا سبب قدومي الرئيسي، وإلا كنت أتيت من بداية الحمل، تعرفين يا خالة، الشهور الثلاثة الأولى هي الأصعب. لقد أتيت فقط من أجل أخي أنور، أحببت أن أكون معه وقت الخطبة.»

انتصبت الأظهر واتسعت الأعين، وسرت رعدة مشحونة بين الجالسات، وتنوّعت النظرات بين مغلظة كنظرات السيدة مخمل لابنتها التي تسرّعت بالكلام، أو نظرات متوترة مثلي أنا وتبر، أو نظرات متخبطة وحائرة كالتي تبادلتها أمي وخالتي حسناء.

- «خطبة؟ هل قرر أنور أن يتزوج أخيرًا؟»

كانت ليلة قد استوعبت الارتباك الذي أحدثته؛ لذا أصدرت بضع همهمات غير مفهومة قبل أن تهمس لأُمها باضطراب:

- «ألم تخبريهم حقًا؟»

قالت الخالة حسناء بعفوية:

- «من سعيدة الحظ التي استقرّ اختياركم عليها إذن؟»

تلقائيًا اتجهت أنظار تبر إلي، وتلقائيًا وجدت ناظريّ ينجذبان للسقف. فردت السيدة مخمل ظهرها وتنحنحت استعدادًا للكلام الجاد، وكعادتها حين تأخذ الأمور منحنيّ جادًا، أصابها ارتباك مفروط.

- «في الحقيقة يا رؤوم.. نحن.. نتشرف بـ.. أقصد نحن...» عبّت الهواء بفمها في نهم وعادت لتزفره في هيئة عبارة سريعة: «نحب أن نتقدم لطلب يد ابنتكم غيم لابننا أنور.»

عمّ الصمت إثر عبارتها، تسارعت أنفاسي بشكل مرعب وعجزت عيني عن مفارقة السقف، وإن اتسعتا في هلع حين أدركت أنني محط أنظار الجميع. تبادلت أمي وخالتي النظرات المذهولة للمرة الثانية، وسرعان ما نفضت أمي ذهولها وابتسمت باقتضاب.

- «نورتم المنزل.»

- «غيم، يا ابنتي.»

كذا صدر صوت أبي من وراء الباب لينقذي، فررت من وطأة الأنظار المركّزة وأسرعت لأجيبه. أحاط أبي ذراعي بكفه وانتحى بي جانباً وهو يرنو إلي بابتسامة لطيفة.

- «أنتِ تعرفين الأمر، صحيح؟»

- «لقد.. كانت السيدة مخمل تتحدث للتو...»

- «لا، عنيت قبلها.»

- «لم أفهم، ماذا تعني يا أبي؟»

- «اهدئي، لم أنتِ متوترة هكذا؟ لقد سمعت تبر حوارنا، صحيح؟»

زفرت بانفعال، حقاً أنا متوترة لحد غير عادي.

- «هذا صحيح، كيف عرفت؟»

- «عمك جواد هو من عرف، قال إن تبر كانت واقفة عند الباب وقتها،

وإن سمعها أحد من سمع الغزلان!

قهقهنا بمرح، لكنني كنت أخرج انفعالاتي بهذه الضحكات.

- «تأكدت أنك تعرفين حين رأيت شرودك في الأيام الماضية.»

- «شرودي أنا؟ أنت من كان شاردًا يا أبتى!

- «كنت شاردًا في شرودك يا صغيرتي.»

هزمني، لقد قلت إن أبي كان يدقق النظر لوجهي ويشرد، لكنني أغفلت قول أنه كان يدقق النظر لوجهي حين كنت ساهمة!

- «لماذا لم تتحدث إلي عن الموضوع؟ أردت سماع رأيك!»

- «وأنا لم أرد أن أؤثر على قرارك برأيي.»

- «ليس لي رأي إلا من بعدك يا أبي.»

- «يا حبيبة قلبي، أنت صاحبة الشأن، وأنت عاقلة وواعية بما يكفي

لاتخاذ قرارك. ولو كنت مصرّة، أنت تعرفين رأيي في أنور من البداية يا غيم.»

هزرت رأسي بإفراط، أبي لا يتحدث عن أنور إلا بفخر وإجلال كبيرين، كأنه ابنه ونتاج تربيته.

- «إذن، مستعدة للدخول؟»

- «الدخول إلى أين؟!»

ارتفع صوتي بغير قصد وأنا أقولها بارتياح، ابتسم أبي وقال برفق:

- «سيتجه عمك جواد ووادع للشرفة كي يخلو لكما الديوان، بوسعكما

تبادل الحديث ورؤية بعضكما. وسأكون معك.»

- «أبي.. أنا.. أنا...»

- «إن كنتِ رافضة فلا أحد سيجبرك.»

- «ليس هذا.. أنا فقط...»

- «مرتبكة، طبعي.»

وضع يديه على كتفيّ وقرب وجهه من وجهي بابتسامة حنونة.

- «كبرت يا غيم، يصعب علي تحيّل أن طفلي الصغيرة التي كنت أراها تتواثب وتلعب حولي، وتتهجى الكلمات بصعوبة، وتسأل عن كل شيء ببراءة وفضول. يصعب علي تحيّل أنها أصبحت امرأة ناضجة الآن، وأن شاباً وسيماً ونيبلاً جاء ليطلب يدها مني. حسناً، أنا أحب لابتي أن تكون سعيدة دائماً، لكن ابنتي لا تتأل بسهولة، على من يريد أخذها أن يجتاز شروطاً كافية لإثبات أنه يستحق ذلك؛ فهذه ابنة الشيخ مدرار! ستدخلين الآن، وفي حال سارت الأمور على نحو جيد، لن تكون هذه نهاية المطاف، علينا التأكد من أن كل شيء سيكون مهياً لحياة سعيدة.»

ابتسمت باستحياء، كم أحبك يا أبي!

- «هيا يا جميلتي، سأفرغ الديوان وأناديك لتدخلي، اتفقنا؟»

لم ينتظر حتى أهرز رأسي برهبة، سمعت أصوات عمي جواد ووادع وهما يتحدثان في طريقيهما للشرفة، لم أستطع تمييز ما يقولانه إذ كنت منشغلة بمحاولة إيقاف يدي عن الارتجاف، ولسبب ما فكرت في ساري، ألم يكن من المفترض أن يحضر حدثاً كهذا؟

- «رؤوم، العصير.»

أفقت من شرودي على صوت أبي وهو يمد يده لي بلطف، اقتربت منه

فأحاط كتفيّ بذراعه، ظهرت أُمي بسرعة وناولتني صحيفة عليها ثلاثة كؤوس من عصير خالتي حسناء، تناولتها منها وحملتها بصعوبة وأنا أنتظر أن تنزلق من بين يديّ في أي لحظة. أحاطت أُمي وجهي بكفيها وقبلتني وقالت:

- «مررت بهذا، أفهم ارتباكك، لكن ثقي أنه محظوظ لأنه سيراك ويجالسك، ولو لمرة في حياته.»

ابتسمت بامتنان، تركتني أُمي وأومأت مشجعة. فاتجهت مع أبي للديوان. سلّم أبي بصوت عالٍ مع دخولنا، رفع أنور رأسه بسرعة ثم غصّ عينيه تلقائياً، تذكر من هو ولم أتى فعاد يسلّط ناظريه علي على استحياء. لا أعرف كيف لاحظت هذا كله في حين أن عينيّ لم ترتفعا عن الأرض، كنت أراقب موطئ قدميّ بتركيز شديد خشية أن أتعرّ وأسقط الكؤوس، لو حدث هذا فسأكون محرّجة إلى حد الرغبة في دفن نفسي! زاد الخاطر من اضطرابي فلم يعد يفصل بيني وبين فقدان الوعي إلا صورة خيالية رسمتها لنفسي وأنا أسقط أمامه، جعلتني أعدل عن فكرة السقوط مؤقتاً. وضعت الصحيفة على طاولة الضيافة في المنتصف وتراجعت لأجلس جوار أبي، مقابل أنور.

- «كيف حالك؟» قالها بصوت مرتجف؛ فأراحني ارتبাকে بشكل ما، لست الوحيدة المرتبكة هنا.

- «الحمد لله، بخير.» لا أعرف إن كانت إجابتي سُمعت.

عمّ الصمت الثقيل العامر بالضباب، لم أعرف إن كان ينظر جهتي أم لا؛ لأنني كنت منشغلة بمتابعة حركة ساقِي المطردة، صعوداً وهبوطاً. أخيراً قال بتردد:

- «السفير.. ليس سفيراً حقيقياً، هذا ما توصلت إليه.»

بدهشة ارتفعت عيناى لتنظر جهته، ليس فى عينية، فقط آثار دهشتى أن يختار موضوعاً كهذا للبدء.

- «عمّ تتحدث يا أنور؟»

قالها أبى باستنكار مغلف بالمرح، ابتلع أنور ريقه بصوت مسموع وقال بابتسامة مرتجفة:

- «فى الواقع، لم أعرف فيمّ أتكلّم؛ لذا اخترت أقرب موضوع ظننته سهلاً. سيثير اهتمام غيم.»

ابتسمت برغمى وطأطأت بخجل، اختيار موفق. قال أبى ضاحكاً:

- «أشمّ رائحة توافق فى الأجواء.»

ازداد اتساع ابتسامتى، أردت أن أضحك لأفرغ انفعالاتى لكن الضحكة احتبست فى صدرى من فرط التوتر.

- «لكنى لا أزال مصراً على التحدث فى أمور مختلفة، أظن أنه سيكون من الجيد أن تسألاً بعضكم عما تهتمّكم معرفته.»

- «بصراحة يا عمى، ما أعرفه ودفعنى للإقدام على خطوة كهذه يكفينى ويزيد، وما أراه الآن يؤيد موقفى أكثر.»

الجو حار! أشعر أننى سأتبخر! لا أشعر بخدّى من فرط السخونة. ابتسم أبى وربّت على كتفى، وسمعت أنفاس أنور المضطربة من عندي، أضاف أنور بعد لحظات من الاضطراب:

- «لكننى مستعد للإجابة على أى سؤال، ومستعد لتلبية أى طلب قبل الـ.. الزواج أو بعده، وموافق على أى شرط، وجاهز لكل شيء، الزفاف والمنزل والمهر وأى شيء آخر.»

قال أبي بسرعة وثبات كأنه كان ينتظر هذه العبارة:

- «هل يعرف والدك بما أنت مقدم عليه؟»

أغمض عينيه ليتمالك توتره، وقال بتمهل:

- «يعرف.»

- «وهو رافض.»

- «غير صحيح.»

- «إذن هو موافق؟»

- «أيضًا لا، في الواقع هو.. لم يهتم كثيرًا.»

بدأت أفرك يديّ في تحبط، لا أحب مسلك الحديث.

- «هو لا يهتم بهوية الفتاة التي سيتزوجها ابنه، الحاكم المستقبلي؟»

- «ربما.. ربما لا يكون.. أعني، ربما لن يصبح.. حاكمًا.»

بمفاجأة رفعت رأسي، قال أبي بقلق:

- «لم أفهم، لم تقول ذلك يا أنور؟»

هز أنور رأسه بطريقة تنم عن مدى الفوضى في عقله.

- «قصة طويلة، وغير مؤكدة، ليس الموضوع موضع حكايتها، لكنني

رأيت أن من الضروري معرفة ذلك، تحسبًا لأي طارئ، آسف إن كان

كلامي قد خيب آمالكم بشكل ما.»

- «لا يا أنور، إن كان هناك شيء سيحدث بيننا؛ فإنه سيحدث لأنك

أنت، وليس لأي اعتبارات أخرى.»

أوما أنور شاكرًا، وقال بخفوت:

- «ولو لم يحدث.. نصيب؛ فأؤكد أن هذا لن يغيّر من الودّ القديم شيئاً.»

هدأ الجو مجدداً بحمد الله. نظري أبي وقال:

- «هل لديك ما تريد من السؤال عنه يا ابنتي؟»

- «أجل.» وضعت عينيّ في عيني أنور للمرة الأولى، سرت رعدة خفيفة في جسدي ثم اختفى توتري، وبدا أن المثل حدث مع أنور، قلت بوضوح: «لدي سؤال واحد، وإجابته تهمني كثيراً.»

أوما أنور باهتمام، ووضع أبي يده على يدي في دعم.

- «يوم مسار السباحة، يوم أنقذتني من الغرق.» قلتها على سبيل الشكر؛ ففهمها أنور وأوما بمعنى أن هذا لا يستدعي الشكر. «لماذا امتنعت عن إجابة سؤال أبي عن سبب هجوم ذوي الأعين الزرقاء؟»

قال أبي باندعاش:

- «غيم، ما هذا السؤال؟ لم هو تحديداً؟»

- «لا بأس يا عمي، أنا أفهم المغزى من هذا السؤال. ولعله نفس المغزى الذي جعلني أستهلّ حديثي بالكلام عن السفير.»

لا زالت أعيننا متلاقية، ولسبب ما شعرت أننا متفاهمان تماماً، وأن كل ما يدور بذهنه يُسمع صوته في ذهني، والعكس يحدث.

- «غيم وجدت عذراً مقبولاً يفسّر لها جميع تصرّفاي التي حسبتها ناجمة عن أنانية أو سوء تقدير في السابق، إلا هذا التصرف، وإجابتي الآن تمثّل لها شيئاً فارقاً: هل أنا محلّ ثقة أم لا؟»

ابتسمت بارتياح. نحن لسنا متفاهمين، نحن نفكر بعقل واحد!

- «أنا لم أكن على علم بموعد هجومهم، ولو كنت أعرفه ما كنت لأسمح بأن يُقام السباق يومها، ولم أكن لأسمح بتعرّض رفاقي والقرية وتعرّضك أنت للخطر. لقد فوجئت بالهجوم كما فوجئ الجميع، أؤكد ذلك. وسبب تحفّظي على الإجابة يومها كان لأنني كنت أعمل منفردًا، لم أخف شيئًا رسميًا، خفت من إخبار أي أحد بما أعرفه قبل أن أفكر في الأمر على مهل، وأحسب من معي ومن ضدي، سكوتي كان لأنني اكتشفت أن ذوي الأعين الزرقاء الذين هاجمونا، ليسوا ذوي الأعين الزرقاء الذين هادناهم. ولم أعرف كيف أصرّح بذلك.»

صمت قليلًا أفكر في كلامه، معقول، أنور لم يكن تبعا لهتر ومنساقا خلفه بالشكل الذي حسبته، في الحقيقة كان يحاول إنقاذ شيء، تمامًا كما كنت أحاول، ولم يجد من يشاركه ما توصل إليه. ابتسمت بسرور، لقد انتهت حيرتي، الدرب واضح وسالك أمامي، ولا أرى مانعا واحدا، نفسيًا أو ماديًا، يجعلني أتردد في قبول أنور.

- «أحب هذا، هيا يا غيم، ادخلي للنساء، وسأكمل الحديث مع أنور.»
أومأت وخرجت، بشعور غير الذي دخلت به، زایلني كل الارتباك والخوف والدوار، والآن لا أشعر بغير الارتياح والبشر والفرح. قابلتني تبر في منتصف المسافة بين الديوان والمجلس بلهفة.

- «ها؟ كيف سارت الأمور؟»

- «لا أظن أن هناك ما هو أفضل.»

تأملت وجهي في حيرة:

- «لا تبدين سعيدة؟»

- «لا أعرف إن كان من الممكن أن أصرّح بشيء كهذا، لكنني سعيدة إلى حد أعلى من أن يظهر على وجهي، لو حاولت إظهار ما أشعر به على وجهي فإن طرفي فمي سيلتصقان بأذني على أقل تقدير.»

ابتسمت تبر ابتسامة فرح واسعة، ضمتني بحرارة وقالت:

- «لا تصدّقين كم أنا مسرورة لأجلك، كنت واثقة من أن الأمر سيتمّ ما إن سمعت كلام أنور!»

سرنا متشابكتي الأيدي إلى الداخل. ليس بعد الذروة إلا النزول، كانت كمية الانفعالات المهولة التي تعرضت لها خلال الدقائق الفائتة أكثر من أن يستوعبها عقلي، فجأة وجدت طاقتي تنتهي، ووجدتني عاجزة عن متابعة التحدث والابتسام ومجاراة الجميع.

- «غيم، أنت بخير؟»

- «بخير، فقط أنا.. أشعر برغبة في الانفراد بنفسي.»

- «اذهبي إذن، لا بأس.»

بمعجزة انسللت من المجلس وأسرعت للأعلى، كنت ممتنة كثيرًا لتبر لأنها قبلت تغطية مكاني، ورغم عدم انسجامها مع ليلة. أغلقت الباب وألقيت نفسي على الفراش وأنا أفك شريطة شعري، أغمضت عيني بقوة وأخذت أنفاس بعمق لعدة ثوان. بقيت هكذا دون فعل شيء، ثم تمددت على السرير وحاولت إرخاء عضلاتي، كل هذا المجهود جعل أعصابي تتحفّز بقوة غير عادية، وأشعر الآن بألم شديد في كل جسدي إثر استرخائها المفاجئ.

غفوت رغماً عني، لكن هذا لم يزعجني، كنت بحاجة إلى ذلك. لا أعرف

كم مرّ من الوقت قبل أن أستيقظ على صوت الطرقات، بنعاس لم يفارقني نهضت وفتحت الباب؛ لأجد تبر ووادع واقفين خلفه.

- «العروس تركت الضيوف وخلدت للنوم!»

قالتها تبر بمرح وهي تدخل مع أخيها إلى الغرفة، جلست وإياها على الفراش وجلس وادع على المقعد وهو يبتسم بارتباك شديد، كان متوترًا أكثر مني.

- «لقد رحلوا للتو.»

هزرت رأسي بفهم. قال وادع بارتباك:

- «مبارك.. أعني.. أعلم أنها مجرد رؤية مبدئية لكن...»

- «شكرًا يا وادع، أتعلم؟ أردت معرفة رأيك.»

- «رأيي؟»

- «أجل، إنه أعز أصدقائك، لا بد أن لك نظرة ما فيه.»

- «إنه صديقي الوحيد في الواقع.»

- «إذن؟»

- «حسنًا.. أنا.. لم أرد التدخل، لكن ما دمت تسألين، أظن أنني لو وُكِّلت بالبحث عن زوج مناسب لك ما كنت لأختار غيره!»

أربكتني كلمة (زوج)، برغم ذلك أراحني كلامه، هذا تمامًا ما فكرت فيه: إن لم يكن أنور؛ فمن؟ لا أرى شبنًا عاقلين ومؤهلين في القرية بالعدد الكافي، في الحقيقة لم أكن أرى غير ثلاثة، وادع وساري وأنور، الأولان أخوأي، والثالث.. أحمد الله أن علاقة أُمِّي بالسيدة مخمل لم تكن قوية لحد

يجعلها تصرّ على إرضاعه، عندها كنت لأمتنع عن الزواج للأبد، لم أكن لأنزوج من بائد مثلاً. المسألة لا تتعلق بصلاحية أنور بقدر ما تتعلق بعدم وجود منافس، لا أحد يمكن أن يكون مثله، الجميع سيكونون صفراويين أو حمقى أو جبناء، لا خيارات أخرى! على الهامش: قلت (لم أكن أرى) عامدة؛ لأن نظرتي لم تعد كما كانت، تعرفون ما أرى ساري عليه الآن.

جالسني وادع وتبر لبعض الوقت، تبر تشاكسني، ووادع يهنّني على استحياء، يعتبر الموضوع حساساً للغاية، ويشير لتبر -بطريقة يظنها خفية في حين أنها أوضح من شمس الظهيرة- زاجراً كلما لمحت بمكر لتورّد خديّ أو شرودي، لا يريد إحراجي، لطيف للأبد!

رحلت عائلة عمي جواد بعد قليل، نزلت لأرى والديّ؛ فقابلاني بابتسامتين متسعيتين، بالإضافة لدموع متأهة على أهداب أُمي.

- «أهلاً بعرو سنا الحسنة، كيف تشعرين؟»

ابتسمت وشددت على شفّتيّ بخجل دون أن أقول شيئاً، حشرت نفسي بينهما على الأريكة فأحاطاني بذراعيهما في محبة.

- «هم راغبون في تعجيل الخطبة، يريدون إعلانها غداً!»

نظرت لأُمي في دهشة، لم العجلة؟

- «أجل، أنور قال لي الشيء نفسه، وقال: (لقد تعرّضنا لأحزان أكثر من اللازم في الفترة الماضية، ولعلّ التعجيل بالفرح سيكون خياراً مناسباً في هذه الظروف، خاصة أننا لا نعوّل على تحسّن أحوال القرية قريباً، ولا ننتظر شيئاً محدداً نعلّق موعد الزفاف عليه).»

- «وماذا قلت له يا مدرار؟»

- «قلت إنه تحمّس كثيراً، لم تقل غيم كلمتها بعد.»
- اتجهت أنظارهما إليّ بعد عبارته، تشوّشت الرؤية وآلمني فكّاي من التبسم الخجل والمسرور. قالت أُمّي ضاحكة:
- «أظنها قالتها، وإن لم يكن لفظياً.»
- ضحك أبي بصوت عالٍ، وضحكت أُمّي؛ فضحكت.
- «وأنا التي ظننتك ستكونين أصعب مني، ولن تقبلي بالخاطب الأول كمل فعلت أنا! ظننت معاييرك مرتفعة يا غيم!»
- «إنها مرتفعة جداً، صدقيني، وليس ذنبي أن أول خاطب كان يحققها كلها وزيادة، كما هو حال خاطبك الأول يا أمّاه.»
- ازدادت ضحكات أبي مرّحاً، لكن حين كانت تضحك أُمّي؛ فإن الدموع كانت تنفر من عينيها لا إرادياً، أشعر بها متخبطة وعاجزة عن التفريق بين مشاعرها، شعور السرور لأجلي، وشعور أنني على وشك مفارقتها. قال أبي بجدية:
- «لا زال أماننا موضوع المهر والشروط قبل إتمام الخطبة، هل لديك شيء تحرصين عليه وتشترطينه بشكل خاص؟»
- تفكرت قليلاً، ثم قلت بابتسامة:
- «لا أظن، أي شيء أريده فهو في الشخص نفسه، وما دمت قبلت الشخص؛ فإن الأمور المادية لا تهمني، والقول لك يا أبي.»
- هز رأسه وهو يبتسم بارتياح، هو سعيد مرتين، مرة لأنني سعيدة، ومرة لأن أنور بالذات هو خاطبي، وهو من هو في نظر أبي!
- «لكن يا أبتاه، هل لي بطلب؟» نظر إليّ باهتمام وأوماً يحثني؛ فقلت

باستحياء: «لا ضرورة للشروط التعجيزية، لا تضغط عليه، من فضلك.»

ابتسم أبي بلطف، مسح رأسي بيده وأجاب:

- «يا حظ من تحبّه غيم! لا تقلقي يا صغيرتي، أخبرتك أن هدفي الوحيد سعادتك، وكل ما عداه هيّن.»

- «شبع، الحمد لله.»

قلت لها وأنا أنفض بمعدة مقلوبة وأغادر السفرة، أمسكت أمي بيدي وأجلستني فلم أقاوم، تحسست طرف شعري وهي تقول بلين:

- «أتفهم أنك متوترة، لكن حفل الخطبة سيبدأ بعد ساعات معدودة، وعليك أن تكوني بصحة ومزاج جيدين، كلي يا غيم.»

كنت قد لزمت البيت يومين إضافيين، والسبب -هذه المرة- كان أولوية التجهيز للخطبة، اتفقنا على عدم دعوة عدد كبير للحضور، وأحب أبي أن يقام الحفل في مزرعتنا. بقيت أدور حول نفسي طوال اليوم، أصرّ أنور على تصميم ثوب جديد وخياطته بالكامل لدى أفضل خياطة في القرية، بعدما ذهبت برفقة أمي وتبر والسيدة مخمل وليلة -بناءً على طلبه- لاختيار أفضل لون وخامة قماش موجودة بالسوق. تعاونت تبر وليلة في تصفيف شعري صباح اليوم، وكانت لحظات مأساوية، تبر تعاند ليلة لمجرد العناد، وليلة تستفز تبر بطرق ملتوية، انتهتا من مهمتهما قبل أن أجن بشوان. رحلنا لتهيئة لوازم الاحتفال في المزرعة، مع خالتي حسناء والسيدة مخمل، وكذلك ذهب أبي وأنور ووادع والعم جواد لتهيئة مكان الرجال.

بقيت مع أمي في المنزل، أمسك ببطني في إعياء وهي تهدئ من روعي

بابتسامة، لم أهدأ إلا حين ذكرتني أن لا أحد غير مرغوب فيه سيحضر، عائلة العم جواد، عائلة رجل الحماية وطيد، الحداد حصين وزوجته دون ابنتهما (لأنها مشغولة)، ووسم. قررنا الاكتفاء بهؤلاء الأشد قرباً، حتى أن أنور رفض دعوة زوجة أبيه وعائلة أختها. وللزفاف حديث آخر. بصعوبة دسست بضع لقيمات في فمي كي أرضي أمي، ثم ابتلعت عدة كؤوس من الشاي بالحليب.

- «لو أن ودود كانت هنا.. لا بأس، حمداً لله على كل حال.»
- «رحمها الله، لن ننساها من دعواتنا بإذن الله.»
- «لا أقصد إفساد يوم مهم بهذا القدر بالنسبة لك يا غيم، لكن...»
- «أعرف ما ستقولينه، والإجابة: لا. أعتذر.»
- تنهدت في قلة حيلة، أوجع انكسارها قلبي؛ فقلت باستسلام:
- «لا أمانع حضوره، فقط أنا لن أدعوه، بوسعك فعل ذلك لو أردت.»
- «أفضل من لا شيء.»

كانت -ومعها أبي- قد تأقلمت مع فكرة أنني لا أطيق مجرد ذكر اسم ساري، ومع فكرة أنني لن أقول السبب أبداً. المفارقة أنني لم أتأقلم مع ذلك، بين الفينة والأخرة أسائل نفسي: هل فعل ما يستحق كل هذا الجفاء مني؟ فتجيب نفسي بقسوة: بل وأكثر!



من الصعب حكاية ما سارت عليه الأمور أثناء الاحتفال، كان بطني ينبض طوال الوقت، حرفياً، ولسبب ما كنت أنتظر قيام كارثة في أي لحظة، ربما لأنني اعتدت أن الصغراويين والزرق حاضرون دائماً لإفساد أي شيء

يسعدني. تساعد أبي وأنور ووادع في ذبح ثلاثة خراف، وتكفلت أمي وبقية النسوة بطبخها وإعداد الأكلات الجانبية جوارها، من أرز وسلطات وتحلية وغير ذلك، بوسعي أن أقول إن اليوم سار على نحو رائع، والأفضل: لم ينتهِ نهاية مأساوية. لكنني للأسف، كنت أقل المتواجدين راحة، لازمني الدوار والغثيان من فرط التوتر، ولم أتحمل كل تلك الأنظار المسلطة علي، والكمّ الكبير من المجاملات الذي اضطررت للرد عليه، هذا ونحن قد اكتفينا بالعدد الأقل! تأملتني ليلة وقالت بابتسامة رقيقة:

- «أفهم شعورك، مررت به قبل عامين. لم لا تتراحين قليلاً؟»

نظرت لها مستفهمة وأنا أحاول بصعوبة إيصال الهواء لرئتي.

- «ابتعدي عن المكان، لا بأس، لو سألت عنك أحد فسأقول إنك ذهبتِ لفعل شيء ضروري.»

أعجبني اقتراحها، هزئت رأسي شاكرة وفرتُ بأسرع ما يمكني. بانزعاج رفعتُ طرف الثوب الطويل الذي تلوّث بفعل التربة الندية، والتجأتُ -بلهفة- بشجرة الأراك العزيزة. الآن فقط استطعتُ التقاط أنفاسي، بعيداً عن الأصوات المختلطة والازدحام والأنظار.

- «لست الهارب الوحيد إذن.»

أجفلت وأنا أنظر إليه، ثم ابتسمت بهدوء. جلس جوارِي وأسند ظهره للشجرة، قال وهو يتأمل وجهي:

- «لا تبدين بخير، هناك ما يزعجك؟»

- «ما بي هو ما بك، لم أتحمل كوني محط أنظار الجميع ومحور حديثهم.»

هز رأسه بتفهم مبتسماً، بقي ينظر إلي للحظات وعيناه تنضحان بالحب،

ثم تنهد وقال وهو يصرف بصره إلى السماء.

- «كل ثانية تمرّ، تؤكد لي أنني أحسنتُ الاختيار.»

تورّد خدّاي واتسعت ابتسامتي دون أن أستطيع الرد. قال باهتمام:

- «تذكرت، هل عرفتِ مشكلة ساري؟»

- «وما مشكلته؟»

قلتها بفتور غير مقصود، لكنه لم يفت أنور.

- «لم يمرّ عليكِ قبل ذهابه؟»

- «لم أعرف أنه أتى أصلاً.»

- «ألم تدعيه؟»

وجمت، لا زلت أضعف من أن أذمّ ساري أمام أحدهم، لا زال أخي، ولا زال من حقه علي أن أسترأي نقص أراه فيه، ولو لم يراعِ هو أي حق لأي أحد. هز أنور رأسه ببطء كمن أدرك شيئاً.

- «الآن عرفتُ مشكلته.»

نظرت له مهتمة بما سيقول، ابتسم وتابع برفق:

- «وفهمتُ لم كانت عيناه دامتَين طوال الوقت.»

- «ساري؟ لا شيء يمكنه أن يُدمع عيني ساري! عيناه لم تدمعا حتى

يوم وفاة أمه!»

قلتها بطريقة هجومية لم أتعدها، ولم أعرف إن كان سببها غضبي من برود ساري الشديد، أم فزعي من فكرة أن أكون أول ما يتسبب في إدماع عينيه.

- «إذن حدث ما هو أشد وقعاً على قلبه من وفاة أمه.»
- عضضت على شفتي بهلع، لم أرد حدوث هذا، لو كان ساري كما أظن فإنه لا يستحق ربع تعاطفي هذا، ولو لم يكن فإن... هل لدي شك حقاً؟ لو كانت لدي نقطة من الشك ما كنت لأقاطع هذا الشكل!
- «غيم، ربما هذا ليس من شأني، لكن ماذا بينك وبين ساري؟ منذ صرخت في وجهه ذلك اليوم، شعرت أن هناك شيئاً خاطئاً.»
- فتحت فمي محاولة إيجاد شيء يمكنني قوله، لم أجد فأغلقت به بتخبط.
- «لا بأس. ما رأي عمي مدرار بهذا؟»
- «أبي لا يعرف، لا يعرف لم نحت علاقتي بساري هذا المنحى، ولا يعرف ما عليه أن ينصحنني به.»
- وضع يده على كتفي وقال بابتسامة واثقة:
- «أنا موجود، وفي أي وقت. حالما تشعرين برغبة في التحدث، لا تردددي في التوجه إلي، اتفقنا؟»
- «لهذا بالتحديد وافقت، لم أكن لأوافق على الزواج من شخص لا أستطيع التوجه إليه حين تعصف الأفكار بعقلي وتنهكه.»
- بقينا نبادل النظرات بمحبة، شعرت أنني محظوظة جداً ساعتها، ربما كانت القرية تنحدر، وبسرعة كبيرة، وربما كان من الصعب أن أوقف هذا الانحدار، أو حتى أن أنجو بنفسي وبمن أحب، لكنني -على الأقل- سأنحدر وأنا سعيدة!
- «لو كان الأمر بيدي، كنت لأقيم الزفاف في الغدا!»
- «على عكسك، أظن أنه من اللطيف أن ينتظر الزفاف قليلاً.»

ضاقَت عيناه بمرح وهو يتأملني.

- «لديكِ وجهة نظر مقنعة كالعادة، فلتسمعيني.»

- «ربما لا يكون أكثر من سبب نفسيّ، فقط أشعر أن تأجيل الزفاف سيمنح أيامنا القادمة لمسة رقيقة، شيء ننتظره بفارغ الصبر، وفي كل مرة سننظر فيها إلى أحوال القرية فيتعكر مزاجنا؛ سيعود الموعد المرتقب لينقذ خواطرنَا ويصفّيها!»

- «كما تقولين إذن. لكن حين تدق الساعة، سنقيم زفافًا يغذي ألسنة الثرثارين وتقام لأجله المجالس لسنة كاملة.»

لم أرد حدوث هذا، لكن وجهي انقلب، ولاحظ أنور ذلك.

- «هل قلتُ شيئًا.. خاطئًا؟»

- «لا، على الإطلاق. أنا فقط.. بالنسبة للزفاف وكيفيته...»

- «ماذا؟ أي شيء ستريدينه سيكون!»

- «لا تعرف كم يعني لي اجتهدك في إسعادي يا أنور، كل ما هنالك أنني لا أحبّذ أن نقيم زفافًا كبيرًا وصاخبًا، لا أحب رؤية الكثير من الأشخاص وتحمل الهمسات واللمزات، لن أطيق الصفراويين وأشباههم، ولن أستطيع أن أفرح كما يجب في وجود من أعرف أنه يكره لي الفرح. لكن برغم كل هذا، سأنفهم تمامًا أن إقامة زفاف كبير شيء ضروري، وأن ابن الحاكم سيكون مضطرًا لمراعاة بعض الأمور، وأن الأمر قد يتعدى لدعوة ضيوف من القرى الأخرى و...»

- «على رسلك.. على رسلك!»

قالها باندهاش ضاحك وهو يعدّل جلسته ليتخذ وضعًا أكثر راحة، نظر

إلي ورفع أحد حاجبيه وهو يتسم قائلاً بهدوء شديد:

- «لو أن راحتك في أن يتم الزفاف في شرفة منزلكم فإنني موافق، لا أحد له سلطة علي يا غيم، ولا أهتم بإرضاء أحد، ولا أحد يستطيع أن يضغط علي في أي أمر يخصني! عليك أن تعرفي هذا، ما دمت أعرف أنني أسير في طريق صحيح، دون أن أغضب ربي، أو أتعدى على الحقوق، أو أكسر قلب من أحب؛ فإن أي نقد سيوجه إلي سيكون -في نظري- لا شيء. وعليه، حين تقول حبيبتي إن على الزفاف أن يكون مختصراً؛ فإن على الزفاف أن يكون مختصراً، شاء من شاء، وأبى من أبى!»

ابتسمت بامتنان، هو ليس الوحيد الذي أدرك أنه أحسن الاختيار، الحمد لله على جميل نعمه.

- «لنتحدث عن الزفاف عندما يحين وقته. الآن، ما رأيك في أن أحكي لك قصة؟»

- «قصة؟ قصة ماذا؟» قلتها ضاحكة.

- «قصة السفير الذي ليس سفيراً.»

اعتدلت باهتمام جمّ، تلك القصة التي كانت تشغل ذهني خلال اليومين الماضيين، وكنت أتناساها بأكوام من تجهيزات الاحتفال.

- «رويدكما، هل ستكملان القصة من دوني؟»

رفعنا رأسينا ننظر إلى أبي الذي أتى يشاركنا الهروب بمرح، لو انتظرنا ساعة إضافية فإن كل الحاضرين سيتحولون إلى هاربين. تربّع أبي قبالتنا ونظر إلى أنور وهو يقول ضاحكاً:

- «لقد وافقت على الزيجة خصيصاً لسماع هذه القصة!»

ضحكننا بعجل، كنت متلهفة بشدة لمعرفة ما لدى أنور.

- «لا أعرف إن كان الوقت سيتسع لما سأقوله؛ لأنني سأرجع بالحكاية إلى وقت مبكر بعض الشيء، لكنني سأحكي ما يمكنني الآن، ولا زالت الأيام أمامنا، وستكفي لقص كل شيء.» ثم تنهّد بارتياح شديد وهو يقول بابتسامة عريضة: «لا تصدّقان مدى فرحتي بإيجاد شخص آمنه على هذا الكلام، وأستطيع الاعتماد عليه والاستماع إلى مشورته. بصراحة، الأمر من أساسه مريب، منذ بدأت هجمات ذوي الأعين الزرقاء بلا أي مبرر أو سبب واضح، ومنذ لم يهتم أحد بالبحث وراء ذلك، واكتفينا بالدفاع وحماية الحدود وبثّ كلمات الطمأنينة بين أهالي القرية دون بذل ما يحققها.»

يا لسعادي، ها هو شخص يتساءل عن أصل الحكاية، كنت موشكة على اليأس من إيجاد من يسأل سؤال سؤالي نفسه.

- «لقد سعوا إلى الصلح، كثّر الله خيرهم.»

قالها أبي بتهكّم؛ فزّمت أنور شفتيه متأثراً.

- «سأتحدث بحيادية: في البدء هم لم يؤذونا، لقد أتوا إلى أطراف قريتنا، كانوا صاخبين ومجلجلين وهمجيين، ومخيفين وشرسين كثيراً، لكنهم لم يفعلوا شيئاً يمكن الإمساك به وعدّه هجوماً، لم يقتحموا القرية، ولم يحاولوا قتل أحد أو سلب شيء أو إيذاء امرأة أو طفل، الصراخ والصوت العالي ليسا جريمة! الموقف تصعّد بشكل غامض وغير مفهوم بعدها، ويمكنني إيعاز السبب إلى أننا ردّدنا عليهم باعتبارهم مهاجمين، لا باعتبارهم شعباً آخر منزعجاً من شيء ما، ويمكن مفاوضته والتوصل إلى حل معه.»

- «نحن المخطئون إذن؟»

قالها أبي بضيق شديد، فأسرع أنور يلطف العبارة.

- «إطلاقاً! ما أردتُ قوله أن النزاع تم تصعيده بشكل متعمّد، هناك ما أوحى لنا بأنهم أعداء ومهاجمون برغم عدم حدوث ما يدل على ذلك، وأسمح لنفسني بافتراض أن الأمر نفسه مورس عليهم.»
- «أبي، تذكر ما قلته لك قبل مدة ليست بالطويلة، عن ذلك الأمر المتعلق بـ.. السر، الحاكم رشيد، و...»
- لم أرد أن أصرّح بالموضوع، كل شيء مرتبط بكل شيء، وأنا لن أتحدث عن عقلة وسر الخلود حتى أنتهي من حيرتي بشأن ساري. قطّب أبي حاجبيه في عدم فهم، ثم ارتفعاً باستيعاب وهو يقول:
- «أنتم تسيران على الخط نفسه إذن! تعتقدان أن كل ما يحدث مخطط له، وألا شيء كما يبدو عليه.»
- نظر إلي أنور بجانب عينه وابتسم بتواطؤ، لقد سرّه أنني هُمت حول نفس الاستنتاج من قبل.
- «لنعد إلى السفير، ما قصته؟»
- «احم.. غيم، آسف للمقاطعة.»
- التفتنا لشهاب الصغير الواقف قريباً منا في حرج، صحيح أننا لم ندعُ حلية، لكن هذا لا يمس شهاب بأي شكل، جميعنا متفقون على أن علاقة شهاب بأخويه لا تمرّ بحلية أو حتى بالسيدة مخمل.
- «ما بك؟ لم أنت مرتبك هكذا؟»
- «هناك.. ضيفان، يريدان تهنّئك.»
- «أنا عائدة إلى المكان حالاً.»
- «لا، هما ليسا هناك، يريدانك على انفراد، ظروفها خاصة.»

حدّق فيه أنور بريية، ثم انتقلت أنظاره إليّ بتساؤل، لم أستغرق الكثير من التفكير لأفهم، ابتسمت لأنور مطمئنة وقلت:

- «قصة طويلة، ذكرني أن أخبرك بها.»

- «وأنت، أنت لم تدعُ الضيوف كي تهرب منهم، صحيح؟ بوسعك الجلوس مع غيم والشيخ مدرار في أي وقت آخر!»

قالها شهاب باستنكار مشوب بالمكر، قفز أنور من مكانه وقبض على أنفه بين إصبعيه مداعبًا.

- «يا لك من مزعج، كم لسانًا تملك؟ أخبرني!»

- «دعني أَر.. كانوا خمسة ألسنة آخر مرة، أوه، لا، ازدادوا واحدًا، ستة!»

ضحكت بشدة، أحببت مزحته، ابتسم أنور إثر ضحكي ونفش شعر شهاب بيده في مرح، ثم أعلن أنه عائد للجلوس مع الضيوف. قال متظاهرًا بتوجيه الكلام لشهاب قبل أن يبتعد:

- «لو كنت مكاني لفهمت، ولم تكن لتفوّت مجالستها.»

ابتسمت بخجل وغمزني بعينه في مرح ثم ابتعد. كدت أرافق شهاب للترحيب بجوهرة وبدر لولا أن أمسك أبي بكتفي.

- «اذهب يا شهاب وستتبعك.»

أوماً شهاب وركض مبتعدًا، نظرت لأبي بتساؤل فانقلب وجهه فجأة.

- «سأقول عبارة واحدة وأتركك وشأنك، فقط ظننت أن علي قول ذلك، ما تفعلينه مع ساري غير مرض وغير مهذب، الجميع لاحظ سواد وجهه اليوم، والدموع في عينيه، لكن أرغم أن غيري لم يعرف بأنك السبب!»

وجمت وانقلب وجهي -حتمًا- أنا الأخرى، لم يعتد أبي على توبيخي بهذه الكيفية، لكنني كنت متفهمة لموقفه.

- «ما الخلاف العظيم جدًّا الذي حدث بينكما وجعل من التحدث إليه ودعوته لحضور حدث بهذه الأهمية ومجرد التسم في وجهه معضلة؟! أيًّا كان ما فعله ساري فهو لا يستحق هذا!»

زفر بقوة ثم خفض نبرته فمالت إلى اللين أكثر.

- «لا أحب أن أحدثك بهذه الطريقة، خاصة في يوم كهذا، لكن لو رأيت وجهه ستفهمين ما أقول.»

استدار ذاهبًا، حين تلفظت بما عجزت عن إسكات لساني عنه.

- «هو لا يستحق ما أفعله، لو فعلتُ ما يستحقه فعلاً؛ فإنه لن يكون موجودًا لحضور الحفل اليوم، ما أفعله هو أقل القليل؛ لأنه لم يهن علي للآن.»

دار رأس أبي لينظر لي في دهشة، كلام كبير! كاد يقول شيئًا، ثم برقت في عينيه لمعة من خطرت له فكرة أفضل؛ فأومأ برأسه محييًا وابتعد، لم يكن تخمين الفكرة الأفضل مسألة صعبة.

هأنأي الصغيران بحرارة، لكنني كنت حزينة لعجزهما عن الدخول ومشاركتنا الاحتفال، برغم اللهفة المطلّة من أعينهما لفعل ذلك. كانا خائفين من المجازفة، لحد الآن لم يقفا على تخمين واضح لما سيحدث لهما لو عرفت عائلتهما أنها يترددان علينا، نحن تحديداً، رمز (غارسي الفسائل المتعصبين) كما يرونا. حملتهما بما استطاعا حمله من عصائر وحلويات، لكنهما رفضا تناول الطعام، سواءً في مزرعتنا أو في أي مكان آخر، وسرعان ما ودعاني وغادرا.

خفّ الدوار والغثيان والتوتر كثيراً بحمد الله، لكن هذا لم يعن أنني واصلت الاحتفال براحة وهناء تامّين، في الواقع، كان ما سمعته عن ساري يعكّر خاطري، ويشغل بالي، وقررت أن أجزم موضوعه بأسرع وقت، وأن أحسم موقعي، إما معه أو عليه.

(٤)

استيقظت باكراً، قبل والديّ حتى، كانا قد تعبنا في تنظيف المزرعة من آثار احتفال الأمس، صحيح أن عائلة عمي جواد وأنور لم يتركوها لكن الأمر بقي متعباً مع ذلك. وقبل الاستفسار، لقد أصروا - واجتمعوا - على أن أعود للمنزل وأرتاح، في الواقع، لم أكن قد بذلت ما هو أكثر من الجهد النفسي في ذلك اليوم كله.

اتجهت إلى المزرعة فاستعصى علي استيعاب أنها نفسها التي كانت عامرة بالمقاعد والسُفر والصحاف والمأكولات أمس، بدت هادئة ووديعة وناعسة كعادتها، وشعرت أنني أحبها هكذا أكثر. من فوري اتجهت إلى جناح لأطمئن على ساقها، قال عقله إنها ستتحسّن بعد أيام، وها قد مرّ أسبوع، وكل ما قاله لي عقله واختبرته - وهو ليس كثيراً بحال - تبيّنتُ صحته. حتى هذا. محمّمت جناح وضربت الأرض بساقها التي كانت مصابة، تطالب بجولة منعشة عقب أيام من الراحة والخمول، سأخذك يا جميلة، لكن بعد إلقاء التحية على صديق قديم لم أره منذ وقت، أتساءل إن كانت أحواله تغيّرت.

ها أنت ذا، يا للإحباط! أنت كما أنت، لم يتغير شيء! بخيبة أمل أخذت دورتين كاملتين حول الأغاف الثابت على مبدئه، لقد عاهد نفسه على ألا يزهر ما حييت. تنهدت بإحباط واستدرت لأرى... ما هذا؟ أليست هذه النباتات الجديدة التي كانت تستقبل العالم بفأل قبل أيام فقط؟ ماذا دهاها؟

لم أوراقها النامية مصفرة إلى هذا الحد؟ ولم فروعها الحديثة ملتفة حول نفسها بهذه الحيرة؟ لم أكن نسيت الدرس بعد، بهلع انكبت عليها أنزعها، هذا جنوني! ليس من الصعب أن أحنّ الطريقة التي عادت بها الحشرات إلى تربتنا بعدما خضعت لمبيدات عمي جواد، لمحت نبتة صغيرة بطرف عيني، النبتة التي غفلت عنها عينا أبي يوم رجوته أن يقتلع شبيهاها. بثورة ألقيت ما كان في يدي، ركضت بسرعة البرق فمررت من أمام جناح، صهلت تناديني بعنفوان، لكنني غيرت قرار، ستهين للتنزه، لكن فيما بعد، لقاء اليوم لن يحتمل فردًا ثالثًا، وأنا أعتبر جناح فردًا!

لا أحد هنا، والهدوء طاغ، كأنه عالم غير العالم، يذهلني مدى انغزال هذه البقعة عما حولها من القرية، كأن لا شيء يجري عليها، ربما لهذا السبب اختارها ساري لخلوته. تربعت عند البحيرة، أمامها مباشرة، وبأنفاس متقطعة راقبت حركة المياه الرتيبة، فتنّت بها وسحرتني، وجرفتني معها إلى أماكن وأزمنة أخرى. لا أعرف كم مرّ من الوقت قبل أن ينبهني صوت الصهيل المجلجل، بثبات ظاهري ارتفعت يدي لتزيل آثار مرأى المياه على عيني، لشدّ ما تأثرتا وسارعتا لمجاراة البحيرة، إحداهما تباري الأخرى وتقسم ألا تدع لها الصدارة.

- «مبارك»

بصوت مبجوح، لا يحمل أي تعابير. اضطرب جسدي؛ فتداركني:

- «لا تنهضي، ولا تغادري المكان، ولا تلتفتي كي لا تتقيئي، ما دامت رؤية وجهي تثير تقززك إلى هذا الحد.»

اختيار المفردات المعتاد من ساري تقريبًا، لكن ليست النبذة المعتادة،

ليست النبرة الهازئة المتفككة، بل هي نبرة مُرّة حارقة أو محروقة، لها تأثير اللهب على قلبي.

- «لن أزعجك، وسأبتعد بسرعة، لكنني سأسأل السؤال الذي من حقّي أن أسأله، والذي أتيت إلى هنا كي تسمعيه مني. ولا تظني أنني أسأل لأنني أهتم، أنا فقط أسأل حتى أجد شيئاً أقوله لأي عابر أو طفل أو مجنون يراني فيسألني عما حدث، لماذا لم تدعك غيم؟ لماذا أهانتك في الساحة بعدما أنقذتها؟!»

حاكيت الصخرة المنتصبّة في منتصف البحيرة، وتظاهرت بأن تثار الكلمات الموحّجة هذا لا يمكنه جري معه.

- «هل لديك إجابة؟»

- «لا أحد يملك الإجابات أكثر منك.»

قلتها هامسة، أبقى صوتي أن يخرج، لا أعرف إن كان غضباً من ساري أم استحياءً منه. لم يقل شيئاً، لكن صوت أنفاسه الثقيلة ثقب مسامعي، ساري متوتر كما لم يكن من قبل.

- «عليك أن تعرف -قبل كل شيء- أنني حاولت، قدر استطاعتي وأكثر، وإلى الآن لا زلت أحاول، وأقاوم ضميري وما أعتقد أنه صواب، حتى أنني لم أصارح أبي أو أنور بشيء.»

- «لم تصارحيها بماذا؟»

كان عدوانياً جداً، كأنه يقف في حلقي، لا ينتظر أن أنهي عبارتي.

- «بكل ما لاحظته، بكمّ التصرفات والاكتشافات المجنونة التي عرفتها بالصدفة أو غيرها، بحقيقة الشاب الذي كان أعز علي من نفسي، وكان

حاضراً ببالي في كل وقت ومناسبة، وكانت سعادته أولويتي، وحزنه أشد ما يحزنني، وكنت الوحيدة التي تفهمه، أو تظن أنها تفهمه. وكان يكذب علي طوال الوقت، يكذب بلا تحفظ، ولا يهتم حتى بتبرير كذبه، فقط أنا حمقاء، ومكابرة، لم أرد تصديق ذلك من البداية، واستمررت بالطريق حتى وصلت إلى السد، كي لا أكون من أنهى الحكاية، وكي أتأكد أن الخيارات الإضافية لم تعد متاحة.»

- «كلام مرتب، هل تنظمين الشعر؟»

نهضت، الآن عادت غيم الغاضبة، والقوية، والمتحفزة. بسرعة التفت، وغرست عيني في عينيه، وتحدثت إلى انعكاسي فيهما:

- «لم يعد التظاهر بالغباء مما يخدعني يا ساري، وأراهن أنني لو طفت قرية المروج كلها مع جميع القرى الصفراء فلن أجد من يفهم التلميحات أكثر منك!»

- «لكن التلميحات تبقى تلميحات، أريد تصريحاً.»

- «بدأت تصرّح أخيراً، يعجبني هذا. لماذا تهرب المنّ الجذريّ إلى داخل المزارع عبر عرق السوس المرسل مع عقلة؟»

اتسعت عيناه، حدث مفصلي، ساري أبدى تعبيراً بلا تحفظ، لكنني لم أفهم ما كان وراء اتساعهما، غضب أم دهشة أم عدم فهم؟

- «لا أسألك كي تجيب، خذ السؤال الثاني الذي لا أنتظر إجابته: ما مصلحتك من إشعال الحرب بين ذوي الأعين الزرقاء وبيننا؟ ماذا تستفيد من تذكية النزاع حول لون الأعين؟ هل أنت سعيد بما آلت إليه الصفراوية من جنون وتطرّف وفساد؟ هل يريحك ما يحدث لعائلة العم جواد، وما حل بدار المنارة، وما سببه البهاليل وعربتهم من انحراف وبذاءة؟ دعني أجيب: أجل

أنت سعيد، ومرتاح كمن حقق حلم حياته وأدى رسالته في العالم، بدليل أنك لم تحرك ساكناً للدفاع عن العم جواد يوم أتهم بتوزيع النبيذ، وبرغم أنك كنت تملك ما سيجعل براءتهم مؤكدة، أنت لم تتحدث إلا حين كاد الاتهام يطالك يوم المحاكمة. لم تعجبك هذه؟ خذ الثانية: لقد تعمدت ترك وادع يضربك يومها، حتى تظهر بمظهر البريء المسالم، ويدافع عنك أخوك في الصفراوية، أخوك قاسط الذي صدمته قبضتك يوم ضربته في الساحة، كان مبهوتاً وله الحق، نحن كالسمن على العسل؛ فهل تضربني لأجل هذه المتعصبة التافهة؟ ماذا أيضاً؟ سأخبرك، من كان يعرف أن تبر حملت الكرة الزجاجة غيرك؟ أخبرني؟! لقد سرت الأمر للصفراوية، وكنت هادئاً جداً وهم يقبضون على وادع بتلك الطريقة المخزية أمام الجميع، حتى أنك لم تحاول التفوه بكلمة تؤازره يوم المحاكمة، ولم تهنته ببراءته. تريد المزيد؟ أنت من أطلق عليه السهم من ظهره يوم السباحة، وأنت من ربط الحجر بقدمه وتركته يغرق، ولم تراجع نفسك إلا حين بكت تبر.

- «لماذا؟» قالها بصوت حيادي تماماً.

- «لأنك تحبها، ماذا؟ لم تنتظر إلي هكذا؟ لقد طلبت أن أكون صريحة! لقد ذهبت مباشرة -وبحكايتك أنت- لتقفز في الماء وتخرج وادع، لم تفكر مرتين، في حين أن أول اعتقاد منطقي سيظنه أحدهم هو نفس ما ظنه أنور والعم جواد: أن وادع أصيب أثناء المعركة! انتظر، لم أنتهِ بعد. أنت لم تكتف بهذا، بل إنك ذهبت إلى وادع لتهدئ له أن أنور هو من فعل به ذلك، أخذت تدور حول الموضوع وتظاهر بأنك بريء وغير راغب في اتهامه، لكنك حملته بوضوح مسؤولية إصابة وادع، أي أنك خائن ونذل ومتبجح أيضاً. ماذا عن الكرات الزجاجة؟ لو قلت إنك من دسها في كل مكان فلن أكون مبالغاً، لكنني سأكتفي بقول إنك شاركت في صنعها، بل ربما اقترحت

فكرتها بالكامل، دائماً تنسى نبتتك المربية حيث لا يجب أن تنسى، ووجودها داخل ذلك الكتاب لم يكن صدفة كما حاولت إقناع نفسي، ليس مع كميات العنب الهائلة التي تأتي بها من لا أين، والتي جعلت أمك المسكينة تسعد بها ظناً منها أن ابنها تحرّك لفعل شيء مفيد أخيراً، خالتي ودود لم تحزرا! وماذا عن معرفتك بأمر المنّ وتفصيله؟ لماذا اهتممت بالقراءة عن هذا الموضوع دون غيره؟ ولماذا ابتلعت كلامك بسرعة حين كدت تعترف بذلك؟ لقد كنت أنا من راقب لقاءك بعقلة في ذلك اليوم الممطر، أحياناً أمتنى لو لم أكن خرجت من منزلنا يومها، ثم أعود وأخبر نفسي بأن هذا أفضل، لولا هذا كانت ستبقى نظرتي الخاطئة تجاهك قائمة للآن! لقد أمسكت بعقلة نفسه، واعترف ضمناً بأنكما تسرّبان المنّ عبر النباتات، تحركات عقلة مربية، وأنت تستر عليها بحماس غير مفهوم، حتى في يوم وفاة أمك، كنت مهتماً كثيراً بحماية ظهره، وشتت شهاب كي لا يلحق به!»

تنفست بقوة، استنفذ الكلام مجهوداً فظيغاً، واستنفدت محاولتي لتمالك دموعي مجهوداً أكبر. اقتربت منه خطوة وقلت بإرهاق:

- «كان من المفترض أن أعاتبك، أن أقول: لم فعلت بنا هذا يا ساري؟ لم هان عليك أبي وهو يرى نباتاته تموت أمام عينيه؟ لم اضطرته لنزع أكثر ما يحبه بيديه كأنه ينزع روحه ذاتها؟ لكنني تراجع، وأفقت، علام أعاتبك؟ لقد كررت ذلك، لقد كنت مصراً وعنيذاً لحد مرعب، لم تفعلها مرة، ولا مرتين، كلما انتزعتُ نبتة زرعتَ عشرًا! لقد أقسمت أن تفسد مزرعتنا مهما كلفك ذلك، وسعيت لتبرّ بقسمك!»

عاودني الدوار، وشعرت بالغث جِراء هذا، أكره الضعف في غير موضعه. لا، أكره الضعف، ونقطة.

- «أنا ورّطت العم جواد ووادع في اتهامات كبيرة، وأفسدت

مزرعتكم، وصنعت الكرات الزجاجية، وهربت المنّ الجذري، وتأمّرت مع عقلة المجنون، وكدت أقتل وادع، وأشعلت الحرب بيننا وبين ذوي الأعين الزرقاء، وأسست الصفراوية. كلام رائع، هل لي أن أعرف ما قد أريده بفعل هذا كله؟»

لم يكن صوته، شعرت بجفاف فمه وهو يتكلم، وبتحشرج نبرته، لا أعرف معنى ذلك الصوت الغريب الذي تحدث به، علام يدل؟

- «سأخبرك، برغم أن عقلة سبق وأخبرك. كنت لأشك في هذه النقطة لو لم تهددني مرتين، وتحذرنني من مغبة تتبعك ومحاولة التفتيش خلفك. كنت لأقول إن عقلة يستغلّك ويعبث بك، لكنني رجّحت أنك وعقلة نظيران، لا سلطة لأحدكما على الآخر، شريكان في تجارة عظيمة، سلعتها الأهالي الجهلة الذين ستلعبون بهم كأحجار الشطرنج، وأدواتها هتر ومن معه، وصفقاتها الصفراوية والحروب وما يتلوها.»

- «والمكسب؟»

- «سر الخلود.»

قلتها بابتسامة أشبه بتشنج في فكّي، ارتفع حاجباه لجزء من الثانية ثم عادا، وفي لحظة خمد وجهه تمامًا، كأنه ثمرة فاكهة تم غسل الأتربة عنها جيّدًا قبل تناولها. عاد ساري كما كان، بلا أي تعبير على وجهه. لكن هناك ما أخافني، شيء استشعرته، لم أره ولم ألمسه، ساري -بشكل ما- ليس هو. ابتسم ببساطة ومرح كالسابق، قال بهدوء:

- «تحليل مترابط ومنطقي، ربما لم أسمع كل ما قلت لكنه بدا لي بلا ثغرات، وهذا يدعوني للتساؤل: لم أنا هنا حتى الآن؟ لماذا لست في السجن؟ لماذا لا أقف في محاكمة علنية مقيّدًا بالحبال ومتهمًا بالعمالة؟ أخبريني يا غيم.»

- «لأن.. لأنني...» ارتبكت.

- «سأجيب عنك، بما أنك كفيّتي عبء الإجابة طوال الحوار الذي أمسك زمامه طرف واحد: لأنك جبانة يا غيم، أجبني بكثير من أن تهزمي نفسك. أنت تعرفين أن وجودي بين الناس مصيبة، بعد كل ما عرفته ووعيته، ليس علي أن أبقى لأصل إلى بُغيّتي، لكنك لم تجرئي على الإقدام، برغم أن هذا أسهل ما يكون بالنسبة لك، أبوك هو الشيخ مدرار، وخطيبك هو أنور، وكلمة منك لأحدهما ستبيني خلف القضبان. آسف لنفسي، أنا الذي ظننتك شجاعة لا تخافين من شيء، تبين أن حكم نفسك عليك قاسٍ، وأنتك تهابينها أكثر من مشاهدة الأمور وهي تسوء مكتوفة اليدين.»

اقتحم عيني بعينه، الآن لم أعد أرى انعكاسي في بؤبؤيه.

- «غيم، بم كنت أصفك دائماً؟»

- «ب.. الحمقاء!» قلتها بلا وعي تقريباً، كنت أهضم كلامه بصعوبة، وأغالب دوايري ورجفة قلبي.

- «أسحب كلامي، لست حمقاء، أنت عبقرية!»

انتفضت، صرخت بفزع ونبرة باكية:

- «ساري، ما معنى هذا؟! هل كلامي صحيح؟!»

- «وهل تركت مجالاً للنفي أو الإثبات؟ لقد ذكرت كل شيء مع أدلته وبراهينه! لا يسعني إلا الاعتراف بذكائك يا فتاة!»

- «لكن.. وماذا الآن؟»

- «ماذا؟ لا شيء. هل تستطيعين تغيير شيء؟ حُلّي الصفراوية، أو أوقفني الحرب، أو اطردني البهاليل، أو انتزعي النباتات من المزارع، افعلي

ما تستطيعين فعله.»

لا، سأفقد وعيي، ليس علي فعل هذا! تماسكي يا غيم! ركضتُ خطوتين، لكنه أمسك ذراعي بقوة وجذبني؛ فسقطت على الأرض، نظرت إليه بذعر وعجزت عن التنفس، لكنه ابتسم ابتسامته الجانية الساحرة، مشوبة بقسوة مخيفة، تراجع خطوتين وهو يقول:

- «لا ترحلي، سأرحل أنا، لقد كنتِ هنا أولاً، وأنا الدخيل عليك.»

فجأة اختفى من أمامي، وسمعت حوافر الطائر تضرب الأرض، أطرافها فقط، لا يكاد يمس ما هو أكثر من ذلك.

- «غيم، هل أنتِ بخير، غيم! أسمعيني؟ ما بك؟!»

انتفضت ورفعت عينيّ إليه، متى وصل أنور وكيف؟ لا أعرف ماذا حلّ بي منذ سمعت وقع حوافر الطائر تبتعد، فقط أرتجف بلا توقف، وأشعر بفزع يستبدّ بقلبي فيجعلني أتألم، ما هذا الذي جرى؟ أهذا ما كنت خائفة منه منذ قابلت العجوز صباة؟ هذه المواجهة بالضبط؟

- «يا غيم! يا إلهي! ماذا أصابك؟! إنكِ عاجزة عن التنفس!»

لا زالت الأفكار تدور وتلف، كأنها سرب طيور يرسم تشكيلات متقنة في الهواء، ساري، أخّي؟ لماذا، وكيف، ومنذ متى، و... ما هذه المياه؟! شهقت بذعر واستعدت وعيي، نظرت مبهوتة إلى عيني أنور المتسعيتين، كان فزعاً بشكل لا يوصف، بينما يحمل بين يديه غرفة أخرى من مياه البحيرة يكاد يرش وجهي بها.

- «هل تشعرين بتحسّن؟»

هززت رأسي ببطء وتهي، ضمنت ركبتيّ إلى صدري وأحطتها بذراعيّ،

وأخذت أتأمل البحيرة بصمت.

- «هذه ليست مياهًا، هذه دموع، هل تبكين؟!»

هزرت رأسي من جديد، بمعنى لا، بظاهر كفي فركت عيني؛ ففوجئت بأنور يقبض على يدي بحزم بإحدى يديه، ويدير وجهي ليقابل وجهه باليد الأخرى.

- «ماذا حدث؟ قولي! لقد كان ساري هنا، صحيح؟ لقد رأيت الطائر يتعد من الجهة الأخرى. أكان معك؟»

أومأت، فقال بضيق شديد وبغضب مكظوم:

- «ماذا فعل لك؟ أخبريني.»

فتحت فمي لأتكلم، ثم أعدت غلقه، لا أقوى على الكلام.

- «غيم، أنا واثق أن هناك شيئًا غير طبيعي بشأن ساري، أنت لا يمكن أن تفعلي كل هذا كرد فعل على خلاف عادي، وأنا واثق أنك تتخذين ألطف ما يمكنك التحاذه من تدابير، وأنت كنت محقة حين أخبرت والدك أنه يستحق أكثر مما تفعلينه معه. هل لي أن أعرف لم يحدث كل هذا؟!»

كما توقعت، أبي اكتشف أسلوبًا جديدًا ليطمئن علي، توصية أنور، وتكليفه بكل ما يعجز هو عن معرفته أو إقناعي بالبوح به. بتعب وازن عقلي ما إذا كان عليه التحدث. قال أنور بهدوء وهو يتركني ويمسح رأسي برفق:

- «عمي مدرار متضايق للخلاف الذي بينكما، أما أنا؛ فإنني غاضب لأن ساري يؤذيك وأنت لا تخبرين أحدًا!»

- «ي.. يؤذيني؟ لا.. ليس.. ليس بشكل مباشر..»

قلتها بخفوت، قال أنور بابتسامة منزعة:

- «أجل، ولم يهددك مرتين على مسمع من وادع وأخته، صح؟»
- اتسعت عيناى بدهوة، لىس أبى الوحىء الذى ىثق بأنور وىحكى له!
- «وادم لم ىأت لإخبارى، أنا من ذهب لىسأله، لم أكن لأءع الأمر ىمرّ من بىن ىدئى بهءة البساطة، هناك شىء يؤذىك، وهءا ما لا ىجب أن أسمىح باستمراؤه!»
- نظرت له بامتنان، حقاً كنت بحاجة إلى أءء ىتصرف معى بهءا الشكل، خاصة الآن. قال برءاء:
- «والآن، هل ستخبرنى؟ أنا أنفهم.. أءرف أنكما أخوان، وابنا خالة، وأنكما نشأتما معاً وعشتما عمركما كله سوياً، ربما لىس من حقى التءءل، لكن.. منظرک قبل قلىل ىكفى لءعلى أشءعل وأءرق المسؤؤل عن ذلك أياً كانت هوئته! ما الذى فعله لك وجعلك فرعة وخائفة إلى هءا الءء؟ أخبرنى!»
- أءءت نفساً عمیقاً وأخرجته على مهل، قلت هامسة:
- «كف عرفت أننى هنا؟»
- «لم أءءك فى المنزل ولا فى المزرعة.»
- اقءربت من سطح البءىرة بروئة، لم أهتم بمطالعة انعكاسى، بل إننى بعثرت تلك الصورة المطلة على من الجانب الآخر بىءئى، وبنفس الئىءن المراءءفءن رفعت الماء لأغمر به وجهى. بءأت أنءء فوءءت صوءى أخيراً، خافئاً لكنه موجود.
- «أخبرنى یا أنور، حىن أصىب وادم ىوم مسار السباحة، من ناحىة منطقیة بءئة، هل ىمكن اءهام سارى بأنه الفاعل؟»

- بدا كما لو أنه بوغت بالسؤال، فرضية مخيفة بعض الشيء.
- «تحدثين عن المنطق، إذن، أستطيع أن أقول (لا) بضمير مرتاح، الجميع يعرف ذلك، لقد أنقذ ساري سائس الخيول من براثن الأعداء وعاد به وبالسلة، في نفس الوقت الذي أصيب فيه وادع تقريبًا.»
- «الجميع يعرف ذلك، لكن هل رآه أحد؟»
- «سائس الخيول.»
- قالها وهو يهز كتفيه ببساطة؛ فقلت باستسلام:
- «ليكن، من يمكن أن يكون الفاعل؟ أنت كنت قريبًا منه يومها.»
- «لحظة! أنا لست الفاعل، أنا بريء!»
- قالها ضاحكًا فابتسمت على مضض لأجاريه، أنا لا أتهمه، لقد ظهر من الجهة الأخرى لينقذني في نفس الوقت، لكن لا بد أنه يستطيع اقتراح اسم أو اسمين.
- «أتعلمين من سيفيدنا في هذه المسألة؟ الصبي صاحب الألسنة الستة، ما لم يكن قد نبت له المزيد منها.» ثم مال إلي مبتسمًا وقال: «لكن سيكون عليك أن تسأليه بنفسك، لو كان سيصارح أحدًا بشيء كهذا فلن يكون هذا الشخص غيرك!»
- هزرت رأسي وأغمضت عيني بقوة.
- «أنت بخير؟»
- «أجل، عيناى تؤلماننى فقط.»
- «لماذا؟ ألم تنامي بشكل جيد؟»

لم أرد، أقدر اهتمامه، لكنني حقاً متعبة، ومخطمة، وراغبة في الانفراد بنفسي. لعله فهم ذلك؛ إذ احتوى كفي داخل كفه وأطبق عليه برفق، حركته بثت الاطمئنان لقلبي بشكل غريب.

- «لا أريد أن أضغط عليك، خذي راحتك، ومتى كنت جاهزة تكلمي، لكن حتى تلك اللحظة، سأبقى جوارك هنا، ولن أزعزع خطوة واحدة حتى لو طلبت ذلك، إن كنت تريدين الانفراد بنفسك؛ فأنا سأنفرد معك بها، لقد وعدت ألا أتركك تحت أي ظرف!»

- «ستنفرد بنفسي معي؟»

قلتها ضاحكة، وقد طمأنتني كلماته، ابتسم وقال بحماس:

- «ما أنا، وما أنت؟ نحن واحد، لا فارق!»

ابتسمت ابتسامة واسعة، أجل، أظن أن وقت الحكاية قد حان، لكن...

- «أنور، أنا.. لا أملك دليلاً على شيء، لقد اجتهدت في جمع الأحداث وربطها، لكنني لا أملك ما يؤكد أقوالي!»

- «ما هذا الكلام يا غيم؟ ولم تحتاجين إلى دليل فيما تقولينه لي؟ لست قاضياً يقف في قاعة محكمة، أنا أنور، وأنور يصدّق أي شيء لمجرد أن غيم تؤكده!»

يا إلهي! إنه يجبرني على أن أرتاح إجباراً! قلت بتردد:

- «سأخبرك يا أنور، وصدّقني، لم أكن لأستطيع إخبار غيرك، شكراً لأنك معي!»

ابتسم وأوماً بلطف، وفي عينيه اهتمام وتأهب شديدان.

- «لكن قبل هذا، سأرجوك أن تعذني بشيء.»

- «أعدك من قبل أن أعرفه.»
- «فقط.. لا تخبر أحداً، لا أبي ولا غيره، ولا.. تتخذ أي إجراء مع ساري، مهما كان ما سأقوله!»

انقلب وجهه، وتقلصت ابتسامته.

- «كيف؟ سبق وقلت أنك لو فعلت ما يلزم، لم يكن ساري ليبقى معنا حتى هذا اليوم! ما معنى هذا؟ أين كان ليكون؟ هل أفترض، السجن مثلاً؟»
- «أنور، أنا أفهم مقصدك، وأرجوك أن تفهم مقصدي، أيًا كان ما أخبرك به سيبقى مجرد كلام، بلا دليل كما أخبرتك، ولن تستطيع الاعتماد عليه لاتخاذ أي إجراء، أي أن أقصى ما نستطيع فعله مقابل ذلك: أن نكرر يوم وادع من جديد، وأن أراه في نفس الموقف ونفس الوضع، دون أي طائل!»

ابتسم، برغم أن الضيق لم يفارق ملامحه.

- «تشفقين عليه من ذلك الموقف برغم علمك أنه يستحقه! على كل، سبق ووعدت، وإن لم أكن راضيًا.»

آن لي أن أتخفف من حملي، بلا تأخير وجدتني أسكب في أذنيه كل ما أعرفه عن ساري، بأدق أدق التفاصيل، وأنصت هو بتركيز تام دون أن يقاطعني. أخيرًا انتهيت فمسحت وجهي بكفي، شاعرة أن العالم كله ينهار فوق رأسي. استرجاع ما حدث آذاني كثيرًا.

- «هوّني عليك يا غيم، لقد أخبرتني الآن، وأصبح اختيار قرار صحيح مسؤوليتي، يكفيك ما فات.»

- «وما قولك؟»

قلتُها وأنا أفرك عينيَّ محاولةً منعهما من البكاء، وضع يده على كتفي وشرّد ذهنه مفكراً، ثم قال بتمهل:

- «مثلما تبيّنّا معاً حقيقة أن ساري لا يمكن أن يكون المسؤول عن إصابة وادع، ربما نكتشف أشياء أخرى إذا تابعنا التفكير.»

- «تحاول تبرئة ساري، أم أنني أتوهم؟»

أسرع يصحح عبارتي، اكتشفتُ طبعاً جديداً يملكه، لا يجب إشعار أحد أنه يخالف كلامه أو يعترض عليه، ويحاول دائماً تقريب وجهات النظر، وإلغاء أي احتمالية لحدوث خلاف.

- «ليس بالضبط، لكن هدفنا واحد يا غيم، وهو التوصل إلى سبب كل هذه الفوضى، وليس من مصلحتنا السير في طريق قد يتبين خطؤه، ولسنا نملك رفاهية السير في الطرق حتى نهايتها ثم العودة من البداية إن اكتشفنا عدم صلاحيتها، الوقت ليس في صالحنا، وتفنيد الأفكار أولاً بأول هو ما سيكفيّننا ذلك!»

- «معك حق، أسمعك إذن، فنّد وفكّر وأنا معك.»

بدأ أنور التفكير بصوت عالٍ، تناول أولاً أمر سكوت ساري عن الدفاع عن العم جواد ووادع مرتين، أراد تجزئة اتهاماتي والنظر فيها على حدة؛ فأجبرتني طريقة نظره للموضوع على الاعتراف، سكوت ساري مرتين لا يعني أي شيء، وليس دليلاً يدعم اتهاماتي؛ لأن ساري صامت دائماً، غير مبالٍ دائماً، لا جديد في هذه الحالة!

- «لكن تصرفه خاطئ!»

- «غيم، أنتِ أعقل من ذلك، هل نتحدث عن صحة تصرفه، أم

نتحدث عن مدى ارتباطه باتهاماتك له؟»

تنهدت في استسلام، مقنع جدًا للأسف. فلنتناول تدخل قاسط وقت الشجار، ليس بشيء، لكن كلامه يوم ضربه ساري لأجلي شيء!

- «تشرين أنه كان يلّمح لشيء بينه وبين ساري؟»

- «ألم تستشف ذلك من كلامه؟ سأخبرك، يبدو الكلام للوهلة الأولى كما لو أنه احتقار، لكن عبارة (ولأجل من؟) تجعل شكّي مفهوماً، كأنه يتحدث إلى حليفه عن عدوه!»

صمت أنور طويلاً وهو يفكر بعمق، ثم هز رأسه بمعنى أن بوسعنا تجاوز هذه النقطة، ماذا عن كونه الوحيد الذي رأى تبر تأخذ الكرة؟

- «ذكرت أنه.. احم، يعني.. لن يُقدم على إيذاء تبر لأسباب تخصه، وحين تحدثت تلك الفتاة دلّ كلامها عن أن من أوصل لها الكلام ذكر تبر بالتحديد، هل لديك تفسير ما؟»

- «لا أعرف غير أنه كان الوحيد الموجود ساعتها، لا خيارات أخرى برأيي.»

أطال النظر لوجهي مفكراً بغير اقتناع، ثم قال بحذر:

- «هذا ليس دليلاً كافياً، لقد كنتم في سوق يا غيم، ولن تعدمي وجود أحد يراقبك من حيث لا تشعرين!»

- «لن أعارضك، لو وجدت مخرجاً لاتهام فلن تجد للثاني، ولو وجدت للثاني فلن تجد للثالث، أنا معك للنهائية!»

- «أشم رائحة تحدٍ، أحب هذا، النهاية فيصل بيننا إذن!»

أخذ الأمر طابعاً أكثر مرحاً بفضل أنور؛ فأصبحنا متحمسين لمناقشة

المحاور كأننا نحلّ أحجية، هو يبحث عن المخارج، وأنا أسدها عليه! وجود نبتته المريبة داخل الكتاب المحتوي على طريقة صنع الكرات الزجاجية: بُهتَ في البداية لوجود كتاب كهذا داخل دار المنارة دون أن يكون وجوده معلوماً، ثم انصرف للأهم.

- «غيم، أنتِ وتبرِ قرأتما الكتاب، وكان من الممكن أن تتركي فيه جرابكِ الحريري لو لم يكن قد سقط عندي يومها.»

احمرّ وجهي خجلاً؛ فأشحت به بسرعة شاعرة بحرارة تكتنفه، ضحك أنور بشدة وهو يميل رأسه لينظر إلى وجهي.

- «هيا، لا بأس، لن ألومكِ على هذا! الآن أعرف أي فضولية أنتِ، كما أنني أفهم رغبتكِ في إجراء تحريات تُفضي إلى نتائج ربما لم ينتبه لها أحد. لولا عادتكِ هذه ما كنا لنجلس ونناقش أمر ساري الآن!»

- «أنور، عادة ماذا؟ أنا لا اتنصت على الناس من خلف الجدران! لقد حدث هذا عرضاً، سمعتُ اسمي في حوار مقتضاه أنني كدت أعرض لمحاولة قتل عمد! لم يكن الاستماع إليكما خياراً، بل كان ضرورياً لأعرف ما يُدبر لي!»

اتخذت ابتسامته طابعاً حنوناً.

- «كنتُ أمازحك، أعرف أنك لم تتعمدي هذا حتماً، كما لم تتعمدي الاستماع إلى حوار ساري وعقلة إياه، سبحان من يقدر لك الوقوع على محادثات كهذه كل مرة، الآن أدركتُ كم أن الله يهيئ لكل أمر أسبابه، لم يكن استماعكِ بالذات -كشخص واع وسليم النية وصحيح التفكير- لها صدفة.» ابتسمت بخجل؛ فابتسم بلطف وقال: «شيء آخر: لم أكن لأسمح بتركهم يدبرون الخطط لأذيتكِ، لقد وقفتُ في وجه حلية واستطعتُ تهديدها

بشهاب، وهذا جعلها تضغط على أنفة وبالتالي قاسط.»

- «أعرف يا أنور، منذ رأيتك تصرخ وتقول باستنكار: (لماذا أهتم؟!)، وتتفخ أو داجك بغیظ، كان علي أن أفهم لماذا تهتم!»

حان دوره ليبتسم بخجل ويشيح بوجهه، ضحكت سعيدة بالتعادل، فحشني على العودة إلى موضوعنا.

- «كان من الممكن أن أسلم معك بأنه أراد أن يقرأ كغرض بريء ومشروع، وأنه وقع على الكتاب مصادفة كما فعلت تبر، لكن العنب له كلمة أخرى! من أين أتى بالعنب؟ ولم يخفي ذلك؟»

رفع أحد حاجبيه وقال بنصف شرود:

- «ربما كنتم المصدر كنوع من المجاملة، أنت أكثر من يعرف طريقة ساري الشاذة في التعبير عن أفكاره ومشاعره، ربما لم يرد إخبارك بمصدر العنب كي لا يتحوّل الأمر إلى رغبة في دفع ثمنه، أو حتى لا...»

- «أنور، أرجوك، هل تسمع نفسك؟ لا تحاول التبرير لأجل التبرير! كلامك لا يبدو منطقيًا!»

- «كما ترين يا جميلتي، أستسلم، لا أملك تبريرًا حقيقيًا.»

- «اثنان مقابل لا شيء، أنا المتقدمة حتى الآن.»

- «مقابل لا شيء؟ لقد أفنعتك بأمر السباحة، والإبلاغ عن تبر، وسكوته عن الشهادة!»

- «كيف عرف أن وادع غارق في البحيرة، ولم اتجه إليها مباشرة وأخرجه دون أن يفكر مرتين؟»

- «لأنه ذكي جدًا، هذا كل شيء، لا أحد رأى وادع منذ هجم الأعداء،

وحين صرخت تبر في الساحة لم يتطوع أحد بإخبارها أنه رآه، لقد ربط الأحداث بسرعة.»

- «أكره الاعتراف، لكنك منطقي.»

- «إذن؟»

- «لا زلتُ أشعر أنني متقدمة عليك!»

- «هذا ليس عدلاً!»

قالها ضاحكاً باستسلام فضحكت معه، يتنازل لي حتى في المزاح! خطر لي كم أنه جامع لكل ما كنت أحبه فيمن حولي، حكمة أبي الجمّة، وإدراك ساري الفائق، ولطف وادع الشديد، ومرح تبر في أعتى الأوقات، بالإضافة لحمله ما كنت أتمناه وانعدام من حولي، قدرتي على مصارحته بأفكاري دون الخوف من أن يستبد به القلق علي كما هو الحال مع أبي، أو أن يقترح حلولاً مضحكة كوادع، أو يتجاهلني ويستخف بي كساري، أو يندفع بغير تعقل كتبر. هذا غير مميزاته المنفردة، شجاع، ثابت على موقفه...

- «غيم، أين ذهبت؟ كنتُ أسألك عن أمر عرق السوس الحامل للمنّ في جذوره، ما أساس هذا الظن؟»

- «كنتُ أفكر في... انس هذا، سأخبرك.»

شرعتُ أحكي له رؤيتي لساري مراراً قرب مزرعتنا، ثم إيجاد النبتة في داخلها بعدها، وباقي ما تبقى. قال بابتسامة ذات معنى:

- «هل لإصابة جناح علاقة بهذا؟»

- «ماذا؟ أنور! إلى أي حد تعرف أخباري؟ أنا لم أحكِ هذه القصة لمخلوق، حتى أبي!»

ابتسم بمكر واستمتاع، طلبتُ منه بلهفة أن يخبرني بسرّه؛ فضحك وهو يتأمل أطراف أصابعه بتفاخر، وقال:

- «صلاقي معقدة، لقد رآك الصغيران الأزرقان، تذكرين؟ كنت تخفين أمر إصابة جناح، لكنها كانت تعرج بشكل واضح، وأخبرا شهاب بذلك حين جاء للعب معه في مزرعتنا، وشهاب لم يقصّر في إخباري. أوه! صحيح، أخبرا أيضاً أنك كنت آتية من منطقة الجبال، ووادع أخبرني عرضاً ذات يوم، أنك زرت منطقة الجبال برفقة ساري.»

احتبست أنفاسي، هل تحركاتي مرصودة إلى هذا الحد؟

- «وكيف عرف وادع؟»

- «اهدئي، لا تخافي هكذا! لا بأس، أنت لم تفعلي شيئاً خاطئاً.»

- «أجل يا أنور، لكن ما دمت استطعت تتبع تحركاتي وما يجري لي؛ فإن غيرك سيستطيع بلا شك!»

قطب حاجبيه في اهتمام:

- «غيري؟ مثل من؟»

- «لا أعرف، ربما شهوة ومن معها، الجميع يذكر اتهامها لي يوم مسار السباحة، والصفراوية تعاديني أصلاً!»

- «فليحاول أحد اتهامك بشيء أو المساس بك!»

ابتسمت، ليس علي أن أستسلم للقلق بهذا الشكل، الصفراوية تكرهني من البداية، لا جديد، وما سلّمني كل تلك المدة هو نفسه ما سيسلّمني في القادم: لطف الله! ثم إن أنور جواري، وهذا يزيد اطمئناني. عدت أحكي له قصة عقلة وشكوكي عنه، وطال حوارنا وامتد إلى أمر سر الخلود، وزيارة

العجوز صباية.

- «يا إلهي! وصلتِ لأماكن وأزمنة بعيدة كل البعد! وأنا الذي ظننتني بالغت في الجموح حين شككت في اختلاف ذوي الأعين الزرقاء الذين نحاربهم عن الذين نحالفهم!»

- «هل تشعر أنني مبالغ، أو تظن أن ما توصلت إليه لا علاقة له؟»

- «مبالغ؟ كيف؟ كل شيء مترابط ومفهوم، بل أنتِ عبقرية يا غيم، وماهرة في البحث عن إجابات!»

سرت رعدة في جسدي، كلمة (عبقرية) تفزعني بشكل خاص الآن.

- «إذن هذا هو الخيط الذي علينا الإمساك بطرفه، علاقة ساري بعقلة، ومسألة النباتات الغريبة التي يتداولانها.»

- «وملاحظاتي الباقية تخدم هذه القصة!»

- «لو صح ظنك في هذه فبقية ظنونك صحيحة!»

- «وكيف نتأكد؟»

تفكر قليلاً، ثم قال بهدوء:

- «دعي الأمر لي.»

وقبل أن أستفسر وجدته ينهض، ويمد لي يده بابتسامة مريحة كي أنهض معه، قاذني إلى حصانه الرمح، وساعدني على الركوب ثم ركب أمامي، قال مفكراً وهو يحث الحصان على السير:

- «مصدر القلق الحقيقي هو تهديداته الواضحة لك، وإقراره الضمني

بكلامك قبل قليل.»

لم أجد ما أقوله، أنور مصرّ على التحقق من كل شيء بدقة، وهو ما أريده أيضاً، لكن أياً كانت النتيجة، أظن أن علاقتي بساري انتهت.

- «أنور، تذكرت، ما هي ظروف عائلة قاسط؟ لم كان يتهجم على وادع؟ وما الذي راعيته لأجله؟»

- «ألا تعرفين؟ القرية كلها تعرف!»

- «اعتبرني خارج القرية إذن!» قلتها ضاحكة.

- «لن أعتبرك، هذه هي الحقيقة، القرية بمن فيها شيء، وأنت شيء مختلف تماماً!»

يا إلهي! لا يفوت فرصة لإغراقي بالكلام الرقيق!

- «لقد احترق دكانهم بالكامل إثر الانفجار، ومخازنهم الثلاثة المخصصة لتخزين السلاح، تفحّمت بمعنى الكلمة!»

- «م.. ماذا؟ هل تقول إن ذوي الأعين الزرقاء استهدفوهم؟»

- «إطلاقاً، لا أظن أنهم سيغدرون بهم بهذه السرعة، كل ما هنالك أن كرة مشتعلة ما طالت ممتلكاتهم، ووجدت أحضناً رحة تحتويها، متمثلة في براميل النبذ العملاقة المتكدسة، التابعة للبهاليل طبعاً، وإن كان التأكد من ذلك صعباً الآن.»

أعجبني أن حديثه حمل رائحة اتهام واضحة لهتر وعائلته، بينما كنت أغالب الشماتة. قال أنور بلا تعابير:

- «أظنهم سيعتمدون على بيع السلال الآن، لو كانت جودة الأسلحة لديهم عالية كفاية لصمدت في وجه النيران، لكن ماذا أقول؟ لقد غشوا أنفسهم، ألن يغشوا الزبائن؟»

- رباه! كم تعجبني وأنت تقول ما يدور في ذهني!
- «كان قاسط مختفياً لفترة لا بأس بها، هل شعرت بذلك؟»
 - «كان يوصل قافلة أسلحة تابعة لوالده لإحدى قرى المجمع.»
 - قالها بجمود، كأنه يقول ما ليس مقتنعاً به.
 - «هل تجارة هتر واسعة إلى هذا الحد؟»
 - «هذا ما فوجئنا به.»
- مفهوم، هناك شيء مريب يدور حول هذه الرحلة.
- «أتعلمين ماذا؟ طريق السفر أصبح مربعاً، ومنطقة الجبال كذلك، الكثيرون تعرضوا للهجوم فيهما، بل إن هناك من تم اختطافه ولم يعد، ويقال أن ذوي الأعين الزرقاء يقيمون معسكرات في مناطق متفرقة، ويمكن أن يظهروا لأي مسافر في أي لحظة. ما أقوله لك الآن غير قابل للنشر، أنا أخبرك بذلك كي لا ترتادي منطقة الجبال بمفردك مجدداً.»
 - «شكراً لك. ماذا عن السفير؟»
 - «الذي ليس سفيراً؟»
 - «لا زلت مصرّاً إذن، تشعل فضولي ولا ترويه!»
 - «كانت دفعة الحديث بيدك اليوم، لكن قصتي يجب أن تقال أمام عمي مدرار، ألم تري كيف كان متحمساً لها؟»
 - «والقصة الأخرى؟»
 - «أي قصة؟»
 - «المتعلقة بـ.. الحاكم المستقبلي؟» قلتها بحذر، وتغير لون وجهه كما

توقعت، عرفت ذلك برغم أنني أرى ظهره فقط.

- «أخبريني يا غيم، كيف هي علاقتك بالتاريخ؟»
- «صديقان حميمان، أهتم به، ويُهديني أسرارَه.»
- «رائع، إذن سمعتِ بالحاكمين: رشيد وجسّار؟»
- «سمعت بهما؟ لقد عشت معهما أيامًا لا تنسى.»
- ابتسم باستمتاع، أحب تعبيرِي، برغم وجوهه العام.
- «وهل تعرفين صلة القرابة بينهما؟»
- «رشيد كان جد جسّار، هل أنا محقّة؟»
- «محقّة، لكن ما ترتيبه بين أحفاد الحاكم رشيد؟»
- «أسئلة أعمق من معرفتي، هذا محبط في الواقع.»

ضحك، وقال مهوّنًا:

- «ليس شيئًا مؤثرًا في مسار التاريخ، إلا في حالتي. المفترض أن يؤول الحكم تلقائيًا لأكبر أبناء الحاكم، ثم ابنه الأكبر، وهكذا، لكن جسّار كان حفيد الحاكم رشيد الثاني، وسبب توليه للحكم أن أخاه الأكبر -الحاكم الشرعي- لم يصمد في الحكم أكثر من سنة، ثم مات، ولم يكن له أبناء؛ لذا بات فهم تنصيب أخيه الحاكم جسّار للحكم مسألة سهلة، لقد كان استثناء.»
- «معلومات جديدة علي، هل تخبرني بمناسبتها؟»
- «عمي عائد من بلاد ذوي الأعين الحمراء.»

سكت. لم أعرف من قبل أن لأنور أعمامًا. برغم ذلك لم أفهم المشكلة، حتى بعد ربط هذا بالقصة التي قصّها علي. إلا إذا...

- «تمامًا، أنتِ رائعة يا ملاكي. هناك أحاديث تدور، لا تعدو كونها أحاديث، تقول إن عمي (راغب) قرر العودة من المكان الذي يقيم به منذ اشتدّ عوده، عندما عرف بمرض الحاكم جلال، آتٍ ليكون هنا في موعد تنصيب الحاكم الجديد.»

أزعجني هذا، ربما أزعجني أيضًا، وبرغم أنني لا أعرف هوية راغب هذا، إلا أنني لم أستطع تمالك النغزات في قلبي. شخص يظهر من العدم ليطلب حكمًا لا حق له فيه، أيمن أن يكون فيه خير للقرية بأي شكل؟ أيكون أفضل من أنور حتى؟

- «لا تشردي هكذا. لو فكرت جيدًا في الأمر ما كنت لأحكيه لك، كأن همًا إضافيًا ينقصك! أي أحمق أكون!»

- «لا تقل هذا، مشاكلك هي مشاكلي، والهموم حين تُقتسم تهون! أنا من يرجوك ألا تقلق كثيرًا، صاحب الحق لا يخاف!»

ابتسم وهز رأسه مؤننًا. ودون أن نتوقع، دوى صوت الانفجار للمرة الـ... نسيته! التفت أنور بانزعاج إلى جهة الصوت. أغمض عينيه بقوة ثم فتحهما بتنهيده، المسؤولية ثقيلة عليه، نظر إلي بنظرة معتذرة؛ فلم أفكر مرتين قبل أن أقفز عن ظهر الحصان.

- «لا، انتظري، لقد أردتُ أخذكِ في جولة لكن.. والحال هكذا، سأوصلكِ إلى منزلكم.»

- «لا بأس يا أنور، المزرعة قريبة، سأتمشى لها.»

- «كما تريدين، واعدريني.»

- «لا تعتذر، فقط.. هل أراك مساءً؟»

- « لا أظن، آسف، لدى البهاليل احتفال مساء اليوم، ولا أظن أن هناك ما يلغيه. »

نضح الضيق من عينيّ دون أن أقول شيئاً، لا أحب حضور أنور لتلك الاحتفالات، ليس بعد كل ما رأيت!

- « هل أنت مضطر لحضور ذلك... القرف؟ »

- « من قال إنني أحضره يا غيم؟ » قالها بدهشة وهو يتأمل تعابير وجهي المنزعجة. « يستحيل أن أشارك في شيء كهذا! »

- « لكنك.. هناك دائماً! حتى في اليوم الذي تشاجر فيه... »

- « غيم، غيم، سأخبرك بهذا سريعاً قبل أن أذهب، أنا لا يمكن أن أفعل شيئاً مشابهاً، أكون هناك لأنفق بنفسي مع مديرهم، ولكي أسيطر عليهم، لا تنتظرين مني ترك زمام الأمور لهُنَّ، حتى نصحو يوماً على اقتحامهم للمنازل يعزفون ألحانهم ويبارسون رذائلهم فيها! أنا أبذل مجهوداً جنونياً للحد من توسعهم، وأعرف أن هذا غير مجد لإيقاف ذلك، لكنه -على الأقل- يبطئه! ورغم ذلك أنا أغادر المكان ما إن يبدأ الحفل، وأبقى في مكان قريب تحسباً لحدوث أي طارئ. »

- « يا ربي! آسفة حقاً، لم أقصد اتهامك بشيء! »

- « لم تقولي شيئاً أصلاً، وجهك فعل، ولزم التوضيح. أنا لا أريد أن تأخذ أميري فكرة خاطئة عني! »

ابتسمت بامتنان وشيء من الاعتذار، ودعني بلطف وغادر، كيف بوسعه أن يكون لطيفاً ويحرص على استرضائي في وقت كهذا؟!

- «غيم، انتظري من فضلك!»
- توقفت عندما سمعت هذا النداء، كنت على وشك الوصول إلى المزرعة، استدرت إلى مسرّة بتساؤل فقالت بارتباك شديد:
- «هل بوسعي.. التحدث إليك؟»
- «بالتأكيد، ما الأمر؟»
- «حسنًا.. لا أعرف كيف أبدأ، لقد أردت إخبارك بهذا في وقت أبكر لكنك لم تغادري المنزل منذ يوم محاكمة وادع تقريبًا.»
- «تخبريني بماذا؟ ولم لم تخبريني بالأمس؟»
- ما كل هذا العرق؟ الجو ليس حارًا، بل هو أميل للبرودة، ماذا تخفي؟
- «في الواقع.. أنا.. أعني.. لماذا كانت تبر تراقبني بضيق طوال حفلة أمس؟»
- «لم ألحظ ذلك حقًا، على الأرجح غير على أخيها.»
- كنتُ في مزاج لا يسمح لي بتنميق الكلمات.
- «أوه، هي لم تعرف بأمر ال... لحظة، ماذا؟!»
- طالعتني بصدمة فابتسمت ببساطة، تبر دقيقة الملاحظة فعلاً.
- «إذن، ماذا أردت قوله؟»
- «أحم.. فقط، هل تستطيعين توصيل اعتذاري لهما؟»
- «(هما) من؟ وعلام؟»
- «تبر ووادع.. على.. على.. أمر الكرة الزجاجية..»

اتسعت عيناى فى ذهول؁ حدّقت فى وجهها منتظرة تفسيرًا؁ ارتبكت أكثر وازداد العرق المنهمر على جبينها غزارة.

- «ما علاقتك بذلك؟ تكلمي!»

- «غيم؁ أنا.. لم أقصد حدوث كل ذلك؁ صدقيني! ما جرى أننى اشتريت بعض البذور من دكان العم جواد؁ أعني من مخلفاته؁ ثم عدت لأننى.. اكتشفت.. خطأ فى الحساب.»

- «عدت لمجرد أنك أردت العودة؁ كما اشتريت لمجرد أنك أردت الشراء؁ مفهوم؁ ادخلي فى المهم!»

- «حسنًا.» وابتلعت ريقها بتوتر. «رأيتك أنت وتبر تمسكان بتلك الكرة الزجاجية؁ وأفزعني ذلك حقًا؁ لم أعرف ما على فعله؁ ابتعدت بسرعة و.. وقبلتني زنبق؁ سألتني عن سبب شحوبى وخوفى فأخبرتها؁ أقسم أننى فعلت ذلك بحسن نية؁ لقد طلبتُ منها أن تبقى الأمر سرًا حتى...»

- «حتى ماذا؟ قولى! حتى تفضحيننا بنفسك؁ صحيح؟ كأنك لم تدرسى معى منذ أعوام؁ كأننا لم نعرف بعضنا ونذكر ما لدينا من أفكار ومبادئ؁ أهانت كل تلك العشرة عليك حتى تنمى عني لأول حمقاء ترينها لمجرد رؤيتى بوضعية غير مفهومة لك ولجزء من الثانية؟! أين كنت وقتها؟ هل مت؟ ألم يكن بوسعك الانفراد بى وسؤالى.. بدلا.. من.. إفساد كل شيء؁ وزعم أشياء خاطئة؁ وظلم أشخاص.. لا ذنب لهم!»

قلت عباراتى الأخيرة متفرقة؁ كأنه جبل شدّ بقوة فتمزقت عراه عروة تلو الأخرى. من ألوم؟ مسرة أم نفسى؟ علام ألومها؟ على ما فعلته ابتداءً؟ لقد ولدت وسارى معًا! لماذا هان على بهذه البساطة؟!

- «غيم؁ أنا آسفة؁ أرجوك؁ لا تبكي!»

- «أيتها ال...! هل تظنين حقاً أنني أبكي بسببك؟! هل تعنين لي أي شيء أصلاً أيتها الصغراوية؟! لو تعرفين حجم الضرر الذي سببته ما كنت لتقفني أمامي هنا، كنت لتفري بجلدك!»

تراجعت خطوتين بذعر، لم تعتد على هذه النبوة الشرسة مني، ربما كلمتها بفتور أحياناً، أو بضيق، لكن بهذا الشكل!

- «أرجوك، لقد ندمت، أتيت للاعتذار!»

- «اسمعيني، سأطلب منهما مسامحتك. لكن لو رأيتك أمامي في أي مكان مجدداً، ولو بالصدفة، لا تلومي إلا نفسك، واضح؟»

حدقت في وجهي بدهشة كأنها تحاول استشفاف ما إذا كنت جادة.

- «واضح؟!»

قلتها صارخة وبشراصة أكبر؛ فهزت رأسها بإفراط واضطراب وولت ذاهبة. أنور محق، للأمور تفصيلات أخرى.

- «لا، الشيخ يقول، دخول، لا يسمح!»

استغرقت عدة ثوان حتى أنتشل نفسي من بحار الأفكار وألتقط ما يحاول سهل قوله، قلت بنصف شroud:

- «لم أفهم، أبي لا يريد مني الدخول؟»

هز رأسه بارتياح لأنني فهمته.

- «لماذا؟ ألا تعرف؟»

- «الشيخ وواعد، رسالة، على سور!»

جدياً؟ أين حل هذه الشفرات؟ رسالة على السـ...

- «رسالة؟! ماذا كان مكتوباً فيها؟»

- «سهل لا يعرف.»

- «طيب، هل بوسعك إحضار جناح فقط؟»

- «سهل، ممنوع، أيضاً. جناح، غادر.»

- «ماذا؟! أين ذهبت؟»

- «الشيخ، أخذ جناح، وخروف، وحمار، ثم ذهب.»

يا إلهي! ما معنى هذا؟ رسالة على السور، وأبي يغلق المزرعة، وينقل الحيوانات منها؟ ما الذي يجري؟!

تركت سهل وركضت بسرعة، ليتني تركت أنور يوصلني للمنزل. ها أنا ذي، فتحت الباب واستندت إليه وقلبي يخفق في فمي.

- «للمرة الألف، تفرّين فراراً دون تناول لقمة واحدة!»

- «أسفة أُمي، عدت لأفطر معكم.»

قلتها وأنا أنظاها بأن كل شيء بخير، لا يوجد شيء واحد بخير! التفتت إلي تبرز الجالسة مع أمها على الأرائك، وابتسمت باستغراب.

- «تبدين كما لو أنك عائدة من معركة، أريني شعرك!»

لم أستطع منع ابتسامتي المتعبة وأنا أزيح الخمار لأترك العنان لشعري المنفوش، رفعت حاجبيها بانتصار فضحكنا، كانت ضحكاتي أشبه بالأنين، أي ضحك هذا الذي أنكلفه، وبعد كل ما مرّ بي اليوم فقط! وضعت أُمي الطعام وساعدتها تبرز، جلسنا لنأكل، التقطت كأس الشاي بالحليب وأخذت

أرشف منه ببطء وأنا أفكر. ما الذي ينوي أنور فعله للتأكد من مزاعمي؟ بدا كما لو أنه حزم أمره، وكان مقنعاً للغاية وهو يطالبني بترك الأمر له.

- «غيم، دعي الشاي وكلي، لست طفلة!»

- «وا أسفاه عليك يا خالتي، ابتك على وشك الزواج ولا زالت بحاجة إلى متابعتك لأكلها!»

- «كان الله في عونك يا أنور!»

ضحكتنا ومعهما خالتي حسناء، لكنني لم أضحك. أنور، ماذا لو لم يتول الحكم فعلاً؟ ماذا لو استطاع راغب إثبات أحقيته للحكم؟ بالطبع سيعينه هتر وأتباعه ما داموا من نفس طينته، أي شخص سيكون أفضل لهم من أنور الذي يخالف رغباتهم ومطامعهم.

- «غيم! أنت لا تصدّقين!»

- «تبر، اعتبريني غير موجودة، أهذا ممكن؟»

شدهت من أسلوب الجاف والهجوم، لكنني كنت قد عدت للتفكير. لقد أنقذ ساري وادع كرمي لتبر، لكن هذا لا يعني أنه المسؤول عن إغراقه، ساري بارد، لا مبال، غير مكترث، لكنه ليس قاتلاً! ثم إنه -من باب أولى- لا يبالي بالصفراوية وأفكارها؛ فما الذي قد يدفعه لفعل شيء كهذا؟ بالإضافة، وكما قال أنور، ساري أشفق من توجيه ضربة واحدة لو ادع يوم أبرحه الأخير ضرباً، أيجاول قتله؟!

- «غيم! أنا أكلّمك، أين كنت؟ مع أنور؟»

بذهول نظرت لأمي كأنني أراها للمرة الأولى، ببطء هزرت رأسي إيجاباً، ثم نهضت.

- «ماذا؟! ما زلت لم تتناول لي لقمة واحدة!»
- «أسفة جداً، شهيتي مسدودة.»
- فلتها بنبرة رتيبة وسرت نحو الشرفة.
- «إلى أين؟ عمك جواد هناك مع أبيك.»
- «أعرف.»
- طرت طرقتين على الباب؛ فسأل أبي عما هنالك، طلبت منه المجيء
فنهض، ومعه أتى وادع.
- «أهلاً بالعروس، لا تتركن عادتكِ في الخروج مبكراً حتى ... غيم،
هل كنتِ تبكين؟!»
- «أ.. أبكي؟ لا.. لمَ قد أبكي؟»
- فلتها ضاحكة بافتعال ونظرت إلى وادع؛ فأبعد عينيه عن عيني كي لا
يواجهني بحقيقة أنه يرى ما يراه أبي.
- «من فضلك، ما قصة المزرعة؟ والرسالة على السور؟»
- «يا إلهي! هل لا بد من تحذير سهل كي لا يثرثر بكل شيء؟»
- «أبي، هذا شيء لا يجب إخفاؤه عني، أرجوك، هل الرسالة التي
وجدتموها هي ما أظنه حقاً؟»
- استند وادع على الباب ورفع حاجبيه بتوتر، نظر له أبي يعطيه الإذن
بالتحدث؛ فتحدث.
- «كالعادة يا غيم، تعرفين كيف تجدين الإجابات. أجل، لقد كانت من
ذوي الأعين الزرقاء، يهددون بحرق مزرعتكم، ويطالبون بإخلائها وعدم

وجود كائن حي فيها خلال يوم.»

- «م.. ماذا؟ وأنت أخليتها لهم؟ جدًّا؟!»

- «اهدئي يا غيم.» قالها وابتسم ابتسامة حزينة دبّت الرعب في قلبي.
«المزرعة لم تعد ذات نفع الآن، المنّ أتى على كل شيء، فليحرقوها أو لا، لا
فارق!»

- «أبي.. أبي! لحظة، رأسي.. يدور! لقد زرناها بشكل شبه يومي، لم أر
آثار المنّ إلا على عدة نباتات هذا الصباح، وقد أزلتها!»

- «غيم، تمالكي أعصابك، لم ترتجفين هكذا؟! أجل، أنا أيضًا واثق من
أنني لم أر آثار المنّ في أي وقت، لكن.. يبدو أن المزرعة هوجمت اليوم فقط،
بدفعة مكثفة من الحشرات!»

صداع يشق رأسي نصفين، أسندت رأسي الثقيل على كتف أبي، وبقيت
هكذا دون فعل أي شيء، في حين أحاطني بذراعه في إشفاق.

- «وجناح؟ وبقية الحيوانات؟»

- «نقلتهم إلى مزرعة عمك جواد، لا أعرف لكن.. جناح كانت تعرج
قليلاً في مشيتها، ساقها الأمامية اليمنى كانت...»

وصمت، مرّت لحظات جامدة كتفكير، ثم رفعت رأسي ومسحت
وجهي بكفّي، وقلت بهدوء تام كأن شيئاً لم يحدث:

- «أبي، العنب الذي أحضره ساري، أتعرف مصدره؟»

تبادل نظرة مذهولة مع وادع، إنه يشك في أن عقلي بخير.

- «بالطبع أعرف، لقد كنتُ معه أولاً بأول.»

- «ماذا؟ أبي، لم لا أعرف هذه المعلومات مثلكم؟»
- «لأنك لم تسألني، يوم طلبت منك الذهاب مع وادع إلى المزرعة، سألتني إن كان عليك اصطحاب ساري، وقلت لا، لقد كان منشغلاً بمشروعه الجديد، ولم أرد تعطيله.»
- «مشروعه الجديد؟ هل تخبرني الآن أن ساري كان مهتماً بشيء ما، وكان يبذل فيه جهده ووقته؟!»
- «وماله، في الحقيقة، لقد أبهرني ببراعته، قبل أن أتذكر أنه ابن حيّان وأحني رأسي بتسليم، لقد زرع كروم العنب كما لو أنه يزرعها منذ زمن، وقد أتت أكلها بغزارة فوق المتوقع.»
- «لكنه لم يخبرني، ولم يخبر أمه.»
- «أخبر أمه، رحمها الله، لم تعتقدين أنها تغيرت للأفضل في النهايات؟ لقد نفذ ساري رغبتها أخيراً، عاد للزراعة كما كان حيّان يفعل، واختار العنب بالذات ليثبت لها أنه تصالح مع الماضي، ومع ذكرى أبيه. أما سبب عدم إخبارك؛ فقد أراد أن يجعلها مفاجأة، وتوقع أنك ستنتقبن وراءه كعادتك، وستعرفين كل شيء، من الواضح أنه لم يحزر!»
- بأنفاس مبهورة، وعينين جاحظتين، أصدق في أبي وأفهم كلماته، أبي لم يشك في ساري، فقط أراد تركه يعمل بتركيز!
- «وما الذي يفعله بكل ذلك العنب؟»
- «لقد ساعدته، وساعده عمك جواد، لبيع كميات منه للتجار، ولصناع العصير والمربى والزبيب، بوسع عمك وسم تأكيد ذلك، وأبقى على كميات صغيرة جداً ليزرع المزيد.»

أمسكت برأسي، أشعر بأن ألف سقف يتهاوى فوقه.

- «طيب، تلك النبتة، التي يأخذها معه...»

- «يا إلهي! نسيْتُ إخبارك يا غيم، تقصدين النبتة التي وجدناها في مزرعتكم يومها؟ لقد أريْتُها لأبي، وبرغم أنه استغرب وجودها في القرية، إلا أنه أكد أنها نبتة بريئة تمامًا، تسمى عرق السوس، ويعصرها الناس ويشربون عصيرها، طعمه ليس مستساغًا جدًّا، لكن البعض يحبه.»

- «وليس مسكرًا؟»

- «ليس كذلك إطلاقًا، ما بك؟»

- «ماذا عن النباتات التي وجدها الناس في مزارعهم، واكتشفوا أنها تفسد الزروع؟»

- «لا علاقة لها بنبتة ساري! إنها نبتة شيطانية من نوع مختلف، يسمونها النباتات الغازية، تفرز مادة في التربة تتسبب بموت كل النباتات المحيطة بها، ولتعزيز الضرر، وجدت جذورها عامرة بمستعمرات المنّ الجذريّ.»

مع كل إجابة تزداد الغشاوة على عينيّ تشويشًا، وتزداد نظراتها المستغربة استغرابًا.

- «غيم، يا ابتي، ماذا عن أخذ قسط من الراحة؟ لا تبدين بخير!»

أجل، فعلاً، الهروب هو الحل، كل ما يجري كابوس وسأستيقظ منه، فلأنتم حتى يعود أنور بحلّه، أو حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

- «غيم، نمّت كثيرًا، هل أنتِ بخير؟»

قالتها تبر برفق وهي تتحسس جبهتي، فتحت عينيّ ببطء ونظرت لها،
يا لفرحتي، لم عقلي نَشَط هكذا؟ هذا ليس عقل شخص نام ليوم كامل!
بسيطة، عقلي لم ينم على الإطلاق!

- «أنا بخير، لا تخافي.»

قلتها وأنا أعتدل وأجلس في الفراش؛ لتلتقط عيناى وادع الواقف عند
الباب بقلق، لقد سببت الفزع لكل من حولي، ومعى حق.

- «آسفة يا تبر، لم أقصد التحدث إليك بتلك الطريقة.»

- «دعك من هذا السخف، وقولي، ما خطبك؟ هل تشاجرتما؟»

- «نحن؟ من تقصدين؟»

- «أنور يا غيم، هل ضايقتك؟»

قالها وادع بنبرة حادة؛ فأشعرتنى ذلك ببعض اللذة، أنور يتساءل إن كان
سارى أزعجنى، ووادع يتساءل إن كان أنور ضايقتنى، أمر ممتع، ويثبت لى أن
أحدهم لن يترك أحدهم يزعجنى يوماً. هزرت رأسى بثقة سلبيًا، لقد طمأننى
أنور وهدأ من روعى يا جماعة!

- «وادع، لم لا تحب مرافقة أنور؟»

- «من قال ذلك؟ أنا لا أملك صديقًا غيره، لكن لو كنت تعين عدم
ملاحقتى له كسائر أصدقائه؛ فلا أنى أرفض أن أكون تبعًا لأحد يا غيم، لا
أحب أن يعتقد أحد أننى كأى من أصدقاء أنور الذين أصبحوا أصدقاءه
لمجرد أنه ابن الحاكم!»

- «لكن أنور بلا أصدقاء يا أخى، كيف يستحقون لقب أصدقاء وليس
بينهم واحد يستطيع أنور اللجوء إليه وقت حيرته؟ لدرجة أنه يضطر لخطبتي

خصيصًا كي يجد من يشاركه أفكاره!»

- «أنا جواره، فقط هو لا يتفرغ كثيرًا، على كل حال، هو محظوظ بك يا أختاه.»

ابتسمت شاكرة.

- «أين أمي وأبي؟»

- «ذهبوا لزيارة خالتي ودود رحمها الله، وطلبوا منا البقاء معك. أمي وأبي غادرا أيضًا، هل أحضر لك الطعام؟»

هزرت رأسي بامتنان، أنا جائعة حقًا، ولعل هذا السبب في نسبة لا بأس بها من الانزعاج الذي أشعر به.

- «مزرعتنا، أهى بخير؟»

هز وادع رأسه إيجابًا وامتنع وجهه كعادته حين يخفي شيئًا.

- «ما الأمر؟ قل، لا تخف علي.»

- «لا، فقط.. عربة البهاليل، لقد احترقت إثر انفجار، وألغى حفل الليلة!»

عربة البهاليل؟! أي جنون! في الصباح فقط كان أنور يتحدث عن عدم إمكانية إلغاء الاحتفال، حسنًا، حدث ما لم يكن في الحسبان. لكن ما معنى هذا؟ مَنْ مِنْ مصلحته فعل شيء كهذا؟ مسبب الفتنة -سواءً كان ساري وعقلة أو غيرهما- مستفيد من العربة قطعًا، ولن يقدم على حرقها، جدًّا، ما معنى هذا العبث؟

- «هلا توقفت عن التفكير؟ ريثما تأكلين فقط!»

- «سأحاول، لكن قبلها، هناك شخص يوصل لكما اعتذاره الحار، لقد أخطأ في حقكما وهو نادم على ذلك، ويطلب مسامحتكما.»
- تبادلا النظرات بحيرة، ثم أعاداهما إلي.
- «لمَ تتحدثين عنه بشكل مجهول؟ من يكون؟»
- «ليس مهماً، كل ما سأقوله أن أثر ضرره عليكما قد زال، تقريباً، وهو نادم؛ فهل تسامحانه؟»
- هزت تبر كتفيها وأعلنت -بلا مبالاة- أنها تسامحه، وبتردد فعل وادع المثل، يا لحماقة مسرّة، طلبت السماح منهما ونسيتني! تناولت الطعام بشهية لعجبي، وراقبتني تبر في رضا، حين...
- «هل يترك أحد الباب مفتوحاً هكذا؟ ماذا لو دخل لص أو...»
- من أين ظهر هذا الصغير؟ وباستعداده الكامل للتهكم! طالعه وادع بدهشة واستلطاف، وأشاحت له تبر بلا اهتمام:
- «ستجد العصير في المطبخ.»
- «لم آت لشرب العصير، أعني.. لا أمانع بالطبع، لكن ما أتيت لأجله: أنور يريد غيم ووادع حالاً، مع حصانيتها، وسلاح وادع.»
- تبادلت النظرات القلقة مع وادع.
- «لماذا؟ هل حدث شيء؟»
- «لا أعرف، لا أعرف.»
- «وأيّن ينتظرنا؟»
- «عند مزرعتنا، ومعه...»

- «ماذا؟»

- «انسي الأمر، لن أتفوّه بشيء دون إذن، وعدت أنور بذلك.»

مططت شفّتيّ بعدم فهم، في حين بدا على تبر الضيق، سيقتلها الفضول بلا شك. نهضت وارتديت ملاسبي، وخرجنا معًا نحو مزرعتهم، فارقتنا تبر عند بيتهم، وأكملت الطريق مع شهاب ووادع.

- «ما الأمر يا أنور، ماذا حدث؟»

- «هدّئي من روعك، لا عليك، الأمر بسيط.»

بصعوبة ترجلت عن جناح، لم أنا متعبة إلى هذا الحد؟ كان أنور واقفًا بمفرده في المزرعة، إذا ما تجاهلنا حصانه الرمح، والكلاب الثلاثة التي تزوم بلا توقف. بينما أخذ شهاب يمشط المكان بعينه باحثًا عن شيء ما باهتمام.

- «غيم، ما خطبه وجهك؟ ألا زلت منهكة منذ الصباح؟»

- «ماذا حدث في الصباح؟»

قالها وادع بتحفز؛ فنظر له أنور وزم شفّتيه كما لو كان يحاول إيجاد شيء يقوله، أنهيت الموقف بقول إنني بخير، للمرة المليون. فجأة صدر صوت عال، وقع حوافر، نظرنا فلم نرَ إلا ظلاً متهالكاً لشخص يعرج، توقف أمامنا مرتجفًا فجذبته أنور بشدة، في حين ارتاحت عينا شهاب، لقد كان يتسلى بتواجده.

- «لم تأخرت؟ هل أحضرته أم لا؟»

هز عقلة رأسه مرارًا بخوف ورهبة، في حين عاودني الدوار.

- «أنور! وعدتني ألا تخبر أحدا!»
- «هوئي عليك يا غيم، أنا لم أخلف وعدي، هما يعرفان كل شيء تلقائياً، أليس كذلك؟»
- «هما؟!»
- قالها وادع الذي يقلّب أنظاره بيننا بحيرة وفزع، وضعت يدي على جبهتي بألم واستندت إلى جناح، لو بقي شيء لم يفسد فإن أنور سيفسده حالاً، ليتني لم أبح له! وصل ساري، قفز عن حصانه وتمرر أنظاره بيننا، ببرود ظاهري تام، لكن معرفتي به جعلتني أميز الحيرة والترقب الشديدين في نظراته.
- «أهلاً ساري، شكراً لأنك أتيت.»
- «ماذا هناك؟ أخبرني عقلة أنك تريدني لأمر طارئ.»
- ألقي أنور نظرة علي، ثم قال بتمهل:
- «نحن هنا لمناقشة ما كان بينك وبين غيم.»
- «ماذا كان بيننا؟ لا شيء، على الإطلاق.»
- بدا أريحياً وهو يقولها، لكن أذني لا تخطئ، تلك النبوة القاسية والجافية في صوته لا تخفى علي، وهي تفرعني بشدة!
- «آ.. أنور، لقد استجدت بعض الأمور...»
- «في النقطة الأخيرة التي لم نجد حلّها معاً؟»
- «ل.. لا..»
- «في الأمر الآخر الذي حيرني؟»
- «أيضاً لا.»

- «إذن لقاءنا سارٍ كما هو.»

كان عملياً جداً في إدارته للموقف، الشخص الذي يقف جوار القاضي فيصل وقت المحاكمات، لا الشخص الذي كان يغدق علي بحلو الكلام صباح اليوم. وقد عنى بالنقطتين: أمر تحالف ساري وعقلة الغامض، وتهديد ساري لي وإقراره على كلامي.

- «ساري، لقد هددت غيم مرتين، أمام وادع وتبر، صحيح؟»

- «لا.»

قالها بهدوء دون أن ينظر له، نظر أنور إلى وادع سائلاً فابتلع الأخير ريقه بارتباك.

- «لم.. يكن تهديداً بالمعنى المفهوم.. كان...»

- «طلبتُ منها عدم تتبعي أو مراقبتي، وهذا من حقي على ما أظن، صحيح؟»

اختصر ساري المسافة، لو سألتهم عن وضعي طوال هذا الوقت؛ فأنا كنت أظأطئ رأسي وأشعر بالغيثان، وأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني في أي لحظة، ساحك الله يا أنور!

- «انس هذا، لقد أقررت على كلامها صباح اليوم، صحيح؟»

انتقلت أنظار ساري إلي، لكنه لم ينظر إلي، كيف أشرح هذا؟ لقد كان ينظر إلى الفراغ تقريباً، بشكل ما شعرت أنه لا يراني.

- «هل فعلتُ ذلك؟»

- «أنا من يسأل يا ساري، لا غيم!»

- «ليكن، أنا لم أقرّ بشيء.»
- صمت أنور لبضع لحظات، بدا واضحاً أنه لا يريد تصعيد الموقف.
- «ساري، أنا أعرف ما قلته بالحرف.»
- «هذا يقصّر المسافة، وأظنك تعرف الفارق الشاسع بين التهمك والإقرار.»
- هز أنور رأسه ببطء يستسيغ كلامه، في حين نظر إلي وادع بذعر من منظري، آه لو أستطيع البكاء فقط، لم يوافيني البكاء في أي وقت غير الذي أحتاج إليه فيه؟ قرّب أنور عقلة بنوع من العنف ليوقفه بينه وبين ساري، ويقول بثبات ظاهري:
- «من يكون هذا الشخص؟»
- «عقلة المجنون.»
- «إنه.. ليس مجنوناً.»
- كانت تلك مداخلتني المترددة، انتقلت إلي أنظار الجميع بمن فيهم ساري، ابتسم باستخفاف وأسند ذراعه على الطائر.
- «ربما، من يدري؟ لربما كان العاقل الوحيد هنا، أحياناً يكون التعقل في زمن الجنون جنوناً، والجنون في وقته قمة العقل!»
- «ماذا تعنين بأنه ليس مجنوناً يا غيم؟»
- «أنا الآن أضعف من إعادة كلام العجوز صباية كله، لكن مما رأيته أنا، لقد عرف إصابة جناح بنظرة واحدة، وتمكن من معالجتها وأعطاني نصيحة لإراجعتها، كما أرشدني إلى طريق مختصر وآمن يختص به لنفسه بين الجبال.»

كانت عينا وادع تتسعان مع كل حرف يضاف، حتى بدا كما لو أن وجهه سيتحول لعينين عملاقتين بعد دقائق من استمرار الحوار. أفهم لم استدعاه أنور، خاصة مع سلاحه، للدعم الأمني ليس إلا، هو لا يريد رجال الحماية، يريد صديقه. أما شهاب فقد كان ينقل أنظاره بيننا باستمتاع شديد، لم يكن ليتصوّر إمكانية حضور حفلة كهذه.

- «وما شأني أنا بعقلة؟ ما الرابط بيني وبينه؟»

- «لقاؤك السري به أمام مزرعة حيّان المهجورة، والجراب الذي يسرّبه لك، والمن الذي وجدته غيم بين جذور عرق السوس مع عقلة، وإقرار عقلة أنك شريكه في عمله!»

- «مجددًا سنتحدث عن الإقرارات! لماذا أهتم بالتبرير لكم حتى؟»

- «اسمعني جيدًا يا ساري، سأقولها بصراحة، نحن لا نملك أدلة تثبت أي شيء مما نقوله، وإلا ما كنا هنا نتحدث بشكل ودّي، وإن كنت ستبرر شيئًا؛ فإن هذا من أجلنا ليس إلا، ومن أجل غيم التي تكاد تفقد عقلها من شدة القلق!»

نظر إلي بهدوء تام، وقال ببساطة:

- «ولم تعتقد أنني أهتم بذلك؟ ربما كنت تستطيع استعطافي بهذا حتى الأمس فقط، لكن من اليوم وللقادم، لو رأيته تحترق أمام عينيّ فإنني لن أحرك ساكنًا لإنقاذه!»

لم أستطع منع فكّي السفلي من السقوط في ذهول، ساري يتحدث عني بهذا الشكل! قفز وادع من مكانه وصرخ بذعر:

- «ساري! ماذا تقول؟!»

- «هل تلعب دور الوسيط الآن؟ انس هذا، لقد سبقتهَا.»

ضربه أنور في كتفه بطريقة شبه مريحة، وهو يقول:

- «هيا يا ساري، جميعنا ندرك أنك لا تعني ما تقول، لكن اختيارك للمفردات يجب أن يكون أفضل!»

- «هل تظنني مخرفاً؟ لمَ قد أقول كلمة لا أعنيها؟»

أمسكني وادع بقوة أمتني لما شعر أنني قد أفقد وعيي في أي لحظة. ليست المسألة أنني متألّمة لتخلي أحد عني، بل إنني أتهاوى من الداخل؛ لأنني السبب في كل هذا، ساري لم يكن هكذا، ساري كان يعتبرني شخصاً مختلفاً، وكان يعاملني معاملة خاصة، وأنا غيّرتُه! أغمض أنور عينيه بقوة ليتمالك أعصابه، ثم قال برصانة:

- «لا يهم، كل هذا لا يهم، وليس موضوعنا، أخبرتني غيم بكل شيء حكته لها العجوز، وليس فيه -بالنسبة إلي- إلا نقطة واحدة هي ما جعلتني أجمعكم الليلة: صباة وعقلة الخبيث القديم، نشأ معاً ويعرفان بعضهما جيداً، والسبيل لمعرفة صحة افتراضنا من عدمها أن نجعلها يتقابلان!»

- «جدياً؟ أتعرف أين منزلها؟»

- «أعرف، ويؤسفني إخبارك أن هذا ليس اختيارياً يا ساري، صحيح أنني صديقك أنور، لكنني أيضاً الحاكم أنور، ومن واجبي ألا أسمح بوجود ما يريب دون التحقق منه.»

- «أنت لست صديقي، ولم تكن في أي يوم؛ لذا، يا حضرة الحاكم، سأرافقكم، شئت أم أبيت؛ لأنك ووادع تخيفانني بأسلحتكما.»

تنهد أنور بصبر، أشار لنا لنركب خيولنا؛ فقال وادع معترضاً:

- «أنور، لو لم أكن مخطئاً فإن منزلها في منطقة الجبال، هل تظن أن غيم قادرة على ذلك فعلاً؟»

أخذت نفساً عميقاً كي لا أفرغ معدتي، ورفعت رأسي بثبات مصطنع ركيك جداً، في حين اقترب أنور وتأملني مدققاً.

- «غيم، أنتِ قادرة على مرافقتنا؟»

- «أجل يا أنور، لا بأس.»

كنت متألّمة، ومتعبة كثيراً، وغاضبة أكثر، ونادمة بما يفوق الوصف. ربما كانت وسادتي التي ستتشرب دموعي أشدّ ما أتوق إليه، لكنني ارتكبت خطأ، وعليّ تحمّل عواقبه للنهاية. امتطيت جناح بمساعدة وادع الهلع، ليس راضياً عن كل ما يجري، والأسوأ أنه لا يفهم معظّمه. قال أنور لعقلة بعد أن أشار برأسه في صرامة لساري كي يمتطي حصانه بدوره:

- «وأنت أيها المجنون، ستركب معي، هيا.»

- «وأنا سأركب مع غيم، لقد قررت!»

انتقلت الأنظار للسان المتحرك الواقف معنا، اتسعت عينا أنور بدهشة مزوجة بالغضب، وصرخ في وجهه:

- «ماذا تفعل هنا يا ولد؟ لقد أمرتك بمناداة غيم ووادع ثم المغادرة، هل كنت هنا طوال الوقت؟!»

ارتبك شهاب، لكنه تماسك ليروي فضوله الشديد، ورغبته في مرافقتنا بأي ثمن.

- «أرجوك يا أخي، أرجوك، خذني، لن أتفوه بحرف لأحد، حتى أمي!»

- «شهاب، سأقولها مرة واحدة: لو فكرت -مجرد تفكير- في أن تطأ منطقة الجبال بقدميك؛ فثق بأنني سأكسرهما قبل أن تنفذ فكرتك، هل كلامي واضح؟»

نظرت لأنور بعتاب، في حين انحنى شفتا شهاب في محاولة لمغالبة البكاء، هز رأسه مراراً واستدار راکضاً وهو يفرك عينيه بيديه. ودون كلمة أخرى، انطلق موكبنا الميمون.

كانت الرحلة شاقة، خاصة في ظل نفسياتنا المنهكة، لاحظ وادع شرودي الشديد، والدموع العالقة بين أهداي، أسرع بحصانه ليحاذيني، وضع يده على كتفي وهمس برفق:

- «لم يقصد ما قاله، هو فقط منزعج مما يجري.»

- «أنا أكثر شخص يستطيع تمييز ما يقصده ساري وما لا يقصده، صدقني يا وادع.»

تنهد في عجز والتزم الصمت، كان أنور يتأكد من صحة الطريق بين آن وآخر، لكن ساري بقي ساكناً تماماً كأنها أصيب بالخرس؛ فاضطر أنور للاعتماد على وصف عقله الحماسي للطريق. أخيراً وصلنا، لقد نويت مراراً تكرار زيارة هذه المرأة الوحيدة، لكنني حين أسترجع الأيام الماضية، أجدني معذورة تماماً في عدم تنفيذ نيتي.

- «ساري، اترك الباب.»

- «تحت تهديد السلاح؟»

- «ساري، كف عن السخف، تعرف أننا لن نؤذيك.»

ابتسم ببرود وطرق الباب بثناقل، لسبب ما شعرت أنه غير راغب إطلاقاً

في رؤية العجوز. ساعدني أنور على الترحل حتى وصول صوت الخطوات المتمهلة، ودقات العكاز المتأنية على الأرضية الخشبية، صاحت العجوز تسأل من الطارق، ولم تنتظر الإجابة، فتحت الباب فوراً وسبقتها يداها في الخروج، تحسست وجه ساري في حين بدا مسترخياً تماماً، انفرجت أسارير العجوز وهتفت ببشر:

- «ريشة! إنه أنت! أيها الفتى المشاكس، أين كنت؟»
- «إنه أنا يا جدة، ومعى رفقة.»
- «لا بأس، ادخل وأدخلهم، هل أحضرت ما طلبته؟»
- «أنا آسف، لم يسعفني الوقت.»

تابعنا حوارهما بدهشة، في حين كان ساري يهرب من نظراتنا، لقد كان هو طوال الوقت، كان ريشة الذي يقوم على مصالح هذه العجوز المسكينة ويراعيها ويحضر لها ما تطلبه! لحق ساري بالعجوز للدخل، وتبعناهما، جلسنا بتحفظ وتبادلنا النظرات المرتبكة، في حين بقي ساري يهز قدمه في عصبية وبدا موشكاً على فقدان وعيه، لم يرد لسره أن ينكشف، ليس بهذه الطريقة! قال أنور:

- «احم، مرحباً يا جدة، لقد.. أتينا لنستمع إليك، أنت تعرفين عقلة المجنون، صحيح؟»
- «أوه، هل أنت على علاقة بتلك الفتاة المخبولة؟»
- الفتاة المخبولة؟ هل لي أن أفترض من تكون؟
- «هل أتيت لتخبرني أن عقلة لا يزال حياً يا ولد؟»
- «في الحقيقة.. إنه كذلك، وهو جالس معنا الآن.»

أطلقت العجوز ضحكة عالية مستمتعة، وأيدها ساري بابتسامة خفيفة انتزعها انتزاعاً، تبادلنا النظرات الحائرة، في حين وجد عقلة سبباً يجعله يضحك فاتحاً فمه عن آخره.

- «هذا ليس عقلة الحقيقي!»

- «كيف تعرفين؟»

- «لأنني شهدت مصرع عقلة يا بني، هل كنت تظن أن شخصاً يملك هذا التاريخ الحافل، سيموت ببساطة دون أن يشعر به أحد؟»

- «لكنك أخبرتني...»

- «كنت حمقاء لحد لا يمكن وصفه يا فتاة، لم أستطع مقاومة تلك التسلية، لقد اضطررت لإضافة الكثير من البهارات لقصتي ما إن وجدتكِ مستعدة لتصديق أي هراء أقوله!»

اتسعت عيناها في ذهول، هل لعبت بي هذه الجدة؟!

- «بمعنى؟»

- «هل كان ذوو الأعين الزرقاء المتوحشون ليتركوا عقلة بعدما اكتشفوا مكيدته واستغلاله لهم؟»

- «ولم أخبرتني أنه عاد وأصبح مجنوناً؟»

- «لأنك ذكرت عقلة المجنون، لم أكن لأقول لا أعرف!»

يا للاستفزاز! ما خطب هذه العجوز؟ ابتسم ساري بابتسامة لم أفهم مغزاها، التفت لعقلة بحركة عصبية وقال:

- «عقلة، من تكون؟»

- «أ.. أنا؟ أنا غائر، ابن الشيخ سديد.»

- «الشيخ سديد؟!»

قلتها بصدمة، التفت إلي الجميع في حين كان عقلي يدور بسرعة، الشيخ الذي سرق ابنه نعجة من نعاج الحاكم جसार! الشيخ الذي أعدم لذنوب لم يقتطفه! واقتطفه...

- «الشاب كان مجنوناً، أمه كانت تسمى نعجة، ماتت باكراً، وبقي يظن أن أي شيء يدعى (نعجة) هو أمه! أبوه كان يعرف ذلك، وفضل التضحية بنفسه على أن يُخَيَّبَ أمل ابنه، ويأخذ منه النعجة التي يحسبها أمه! ثم عاد الشاب بعد مقتل أبيه، وأسماه الناس عقلة المجنون، تهكماً على عقلة الحقيقي!»
تدلت فكوكني في دهشة، في حين انفجر عقلة يبكي وينادي نعجة، ثم انطلق يضحك، أي جنون!

- «وكيف عرفت؟»

- «سألته. بسيطة، صح؟»

التفت للعجوز المخادعة وقد أكسبني الغيظ من تصرفها طاقة كبيرة، هتفت بغضب:

- «هذا ليس كل شيء، ماذا عن كل المعلومات الأخرى التي تخص عقلة؟ كيف عرفتِها؟ بغض النظر عن خدعتك الس...»

ابتلعت لساني، لم يكن من اللائق إكمال العبارة، ولو كانت تستحقها.

- «ربما لأن عائلتي.. كانت قريبة جداً من مركز الأحداث؟»

- «عائلة البنائين؟»

انفجرت تضحك من جديد، في حين وعيت أنها تسمعني بشكل جيد جداً، الماكرة! سعلت من شدة الضحك، وقالت من بين سعالها:

- «أخبرهم يا ريشة.»

- «في الواقع، هذه ليست العجوز صباية، أقصد.. هذا اسمها الحقيقي، لكن لها اسماً آخر مألوفاً لكم على الأرجح، صدى؟»

تبادلنا النظرات في عدم استيعاب، هتف وادع بحيرة:

- «صدى، الأسطورة؟»

- «هل نعرف صدى غيرها؟ لقد ولدت في خضمّ الحرب، في نهاياتها في الواقع، لكن الأسطورة لم تتابع القصة، لقد وجدها أحدهم، شخص كان يبحث عنها في الواقع، صديق والدها المقرّب، الذي كان يسكن في هذا المنزل، أخذها واحتضنها وربّاهها مع أبنائه، هل أخبركم باسم هذا الرجل؟»

- «الحاكم جसार؟»

قلتها مبهوتة؛ فابتسم ساري بتهكم، وأسند رأسه على الأريكة كأنه أدى رسالته في الحياة.

- «لكن، مهلاً! الحرب وقتها لم تكن.. أعني، ما هذا الجنون؟ ألم تكن الحرب بين غارسي الفسائل الزرق والصفير؟ كيف يتفق حدوثها بين فترة حكم الحاكم رشيد وجसार؟ أم أنك كذبت بشأن انتصار الحاكم رشيد المزعوم؟»

- «تأدي يا بنت! صباية لا تكذب.»

- «وأنا أشهد!»

- «لقد كانت مزحة، يا لشباب هذا العصر، لم نفوسكم ليست بنفس

المرح السابق؟ أيام زمان...»

- «جدتي، من فضلك، لا نريد سماع نديك، لقد اكتفينا، ويكفيك ما أفسدته بمزاحك لحد الآن، إما أن تقولي ما يعدل الموازين أو نرحل!»

لم أرد فقدان هدوئي، لكنها كانت تدفعني لذلك دفعًا، ربّت وادع على كنفني مهدئًا في حين بقي أنور ينقل أنظاره بيننا باحثًا عما يقوله.

- «لقد كان الحاكم رشيد بطلًا، وتغلب على أعدائه الزرق وحمى سر الخلود منهم، وكان انتصاره السبب الأكبر في وقف الحرب ولو استمرت آثارها لسنوات بعد موته، لكنك لم تسألي، كان بطلًا لمن؟ لغارسي الفسائل، أم للصفر فقط؟»

منطقي! الحاكم رشيد ليس بطلًا، الحاكم رشيد مجرد متتهز استطاع كتابة اسمه بدماء غارسي الفسائل التي سألت من فتنتهم بلون العينين، كان ذكيًا وحاذقًا ولماحًا، وخبيثًا كذلك، واختار أن يسخر ذكائه فيما يخدم مصلحته وحده، وأن يجعل من نفسه بطلًا -ولو وهميًا- على أن ينصر الحق مضحيًا بعدم الظهور.

- «أولئك الذين قتلوا والديّ، لم يكونوا من الزرق الذين حكموا غارسي الفسائل، بل كانوا من بقاياهم الذين تفرقوا في مناطق الجبال والوديان وأقاموا معسكراتهم البائسة فيها، ووالداي لم يكونا هارين، كانا مسافرين، فقط!»

- «وهل تعرفين سر الخلود؟ كنهه، أو ما يفعله؟»

- «لا أعرف عنه إلا معلومة واحدة، لقد استعمله الحاكم رشيد؛ ولهذا بقي مذكورًا حتى اليوم.»

صحت بصدمة:

- «مذكورًا؟ ما معنى هذا؟ هل الخلود هنا مجازي أم حقيقي؟ ولم قامت كل هذه الحروب الطاحنة عليه إذن؟»

ابتسمت ابتسامة واسعة باردة ولم تنطق، تختار السكوت في أوقات قاتلة، التفت أنور لساري وقال برفق:

- «بقي شيء، إذا سمحت.»

- «ماذا كنت أفعل مع عقلة يوم رأتنا.»

رأتنا، كأني نكرة، لم يذكر اسمي حتى!

- «عقلة، انهض وأحضر الجراب الذي تحفظه لي.»

نهض عقلة وغادر المنزل، تحفز أنور لمغادرته قليلًا، ثم عاد للاسترخاء بعد لحظة تفكير، عاد عقلة حاملاً جرابه المهترئ الذي رأيته معه يومها، أمره ساري بإلقائه أرضًا؛ فامتل عقلة على الفور، وتناثرت محتويات الجراب على الأرض.

نهض أنور وانحنى يتأمل نباتات عرق السوس المستسلمة، تحسس شيئًا بيده وبدأ على وجهه شيء من القرف.

- «ما هذه الحشرات؟ هذا ليس منّا!»

- «ليس كذلك، إنها حشرة تساعد على تخصيب التربة، كان عقلة

يبتاعها لي من إحدى القرى الزرقاء، من غارسي الفسائل منهم، كنت أعتد عليه في ذلك حتى لا أترك أمني بمفردها طوال هذا الوقت.»

- «ولم أمرته بعدم إخبار أحد؟»

- «ليس على الجميع معرفة أن أرض حيّان الميتة قد عادت إلى الحياة، كان هذا سرّي الخاص الذي أردت إبقائه سرّاً!»

نظر إلي أنور، وعمّ الصمت لبعض الوقت، قال ساري بحرقّة مكبوتة:

- «هل بقيت أي أسئلة؟»

- «لا أعتقد، أنت بريء من كل ظنوننا يا ساري.»

- «ممتاز، ومكافأة لي على إراحتكم لأقصى حد، وعلى تعاواني السلمي معكم..» قالها بتهكم مديراً ناظره بيننا. «أتمنى ألا أرى وجه أحدكم في أي وقت لاحق، لم يعد بيننا ما يشفع.»

كدت أقول شيئاً، لكن قواي خذلتنني، وتفكيري أيضاً، ماذا عساي أقول؟ نهض وادع ونهضت معه، حيّ أنور العجوز وخرج وتبعناه، في حين تأخر ساري بضع ثوان وهو يتحدث للعجوز، كانت تطلب منه شراء شيء ما. لا زالت قصة ريشة تحيّرني، لكن الموضوع ليس موضع ريّ الفضول. امتطينا خيولنا وسرنا عائدين، الظلام دامس وأفكاري كذلك، ساري أيضاً سار معنا، تقدمنا ولم يلق نظرة واحدة علينا. سأل أنور عن الطريق المختصر؛ فأخبره عقله -بانسراح- أنه سيكون عامراً بالأفاعي في هذا الوقت من الشهر، وأنه من الأسلم سلوك الطريق الأطول. بادلني أنور نظرة متشككة، لكنني هززت رأسي سلماً، إنه ابن الشيخ سديد، الذي كان بارزاً في مجالات شتى، من بينها الطب والفلك وسلوك الحيوانات. من المنطقي أن يتشرب خبرة ما، ولو كان مجنوناً. كنت أشعر بالدوار يملكني أكثر فأكثر، وفي لحظة بعينها شعرت أنني سأسقط عن جناح.

- «غيم، هل تركبين معي؟»

قالها وادع بقلق؛ فهززت رأسي وأصررت على المتابعة. انحرفت جناح

قليلاً عن المسار، ولم أكن رائقة لتوجيهها، ستتبعهم على أي حال، لم يصرخ عقلة؟ ماذا يقول؟

- «رمال متحركة! ستغرق!»

انتفضت بفزع، في حين اضطرب أنور ووادع، قفزا عن حصانيهما بذعر وأسرعاً يسحبان لجام جناح ليبعداها، السيئ أنهما أفرعا جناح؛ فانتصبت على قائمتيها الخلفيتين تجلجل بارتياح، كان لطفاً منها أن تمنحني تجربة طيران فريدة كهذه! بصعوبة هدأها وادع وأعادها للطريق، في حين هرع أنور إلي حيث تكومت وهو يسألني بجزع إن كنت بخير. نهضت شاعرة بالألم والحزن، الألم من السقطة، والحزن الفظيع لموقف ساري، لقد رأى الحدث من البداية، رأي أنحرف وأقرب من منطقة الرمال المتحركة، رأي جناح تجفل وترميني من فوقها، رأي كل هذا وبقي صامتاً، لا يحرك ساكناً، كأنه لم ير أي شيء، لم يكن يبالغ إذن!

تابعت الطريق راكبة خلف وادع، وخلفنا سارت جناح التي التوت قدمها مجدداً، أظن الإسعاف البدائي الذي صنعه لها عقلة سابقاً لن يفيد الآن، ستحتاج إلى طبيب على الأرجح. افترقنا في منتصف الطريق، أعاد وادع جناح إلى إسطلب مزرعتهم، ثم رافقني إلى منزلنا. كان الباب مفتوحاً، دلفنا بهدوء وحذر لنصطدم بنظرات أبي الواقف يذرع الصالة جيئةً وذهاباً بتوتر، وأمي الدامعة التي تراقبه في قلة حيلة، التفت لنا أبي بحركة حادة وفي خطوة واحدة كان قد وصل إلينا. خلعت حذائي بطرف قدمي وأنا أقول بخفوت:

- «أنتما مستيقظان حتى الساعة؟ الليل على وشك الانجلاء!»

- «غريب جداً، صح؟ كيف لنا ألا ننعم بالنوم في حين أننا عدنا لنجد

البيت خاليًا من ابتتنا دون أن نملك فكرة عن مكانها!

كان ثائرًا بشكل رهيب، لقد كانا فزعين جدًا.

- «أين كنتِ؟ وأنت، كيف تأخذها وتذهبان هكذا دون علمي؟»

تأمل وجهي الخالي من التعابير ولانت ملامحه وهو يحدق فيه بتركيز. قال بنبرة أهون:

- «وما هذا الجرح على وجهك؟»

تحسست وجهي بنوع من التعجب، كيف لم أشعر بهذا الجرح الذي يقطع جانب وجهي بشكل طولي؟ ما أطوله وأشد ألمه!

- «وادمع، هلا أخبرتهما من فضلك؟»

قلتها بصوت مبسوح وأنا أتجاوز أبي وأنطلق على الدرج.

- «يخبرنا بماذا؟»

قالها أبي معترضًا وهو يراقب صعودي الحثيث، لم ألتفت، تابعت طريقي نحو غرفتي، أغلقت الباب ورائي وألقيت خماري جانبًا، ثم ارتيمت - بشعري المنتفش - على الفراش. كنت أسمع صوت وادمع كههمات بعيدة من هنا، لا بد أنه سيقص كل التفاصيل، التي يعرفها على الأقل. فتحت فمي لأحصل على قدر أكبر من الهواء، أنفَس بشراهة، وأسمع دقات قلبي الصاخبة تتقاذف في أذني، يا للضحيج! كيف أوقف هذا؟ كيف أهرب مني؟ كيف أفلت من ضربات قلبي وطين أذني وتمزق أنفاسي؟! انقلبت على جانبي الأيمن وأغمضت عيني بقوة، من يجب أن ألوم؟ نفسي؟ أنور؟ ساري؟ العجوز؟ عقلة؟ أم ربما الحاكمين الحقيرين رشيد وجسار؟ لم كانا بهذه القذارة صدقًا؟ حسبتها بشريين مشوين بالأخطاء؛ ليتبين أنها خطآن عملاقان في هيئة

أدمية! ماذا عن الحاكم جसार؟ هل عرف خطأه حقاً بعدما أمضى عمره في التجبر على ذوي الأعين الزرقاء؟ لقد كان يستضعفهم لمجرد أنهم زرق، الواقع أن النسبة الأكبر من بينهم كانت من غارسي الفسائل! هل يعد إنشاء دار المنارة توبة وتكفيراً عن خطئه؟ ألهذا أمعن في تقسيم غارسي الفسائل وتمزيق القرية الصفراء؟

تحسست الجرح الطويل، مزق شفتيّ على نحو بشع، لا أرغب في رؤية وجهي في المراة حتى. هل بسبب الجرح؟ منذ متى يهمني مظهري؟ ربما خوفاً الحقيقي من رؤية النظرات التي ستوجهها نفسي إلي؟ كيف سأرى نفسي بعد... بعد أن...

لا أعرف كم غفوت، أيقظتني طرقات رفيقة على الباب، بنظرة مختلصة إلى النافذة أدرك أنني لم أنم طويلاً، الشمس لم تشرق بعد. بصوت واهن سمحت للطارق بالدخول، كان أبي.

- «غيم يا حبيبة قلبي، ما خطبك؟»

لقد عرف كل شيء؛ لذا من حقي أن أقوم بالخطوة التالية: أرتمي على صدره لأبكي بحرقة.

- «غيم التي تجد الإجابات دائماً! غيم الحمقاء التي حددت هدفاً خاطئاً من البداية، ما هي أهمية أسئلتني على أي حال؟ وإلى أي حد تستحق الإجابة؟ أتعرف ما هو أسوأ يا أبي؟ الوهم! لقد قلت إن هدفي هو إيجاد الإجابات، فقط، بترت العبارة ولم أكملها، اكتفيت بأي إجابة أيّاً كان نوعها، عددت الوصول إلى إجابة وهمية مزيفة انتصاراً يرفع قدري أمام نفسي، وطوّعت كل ما حوّل لي دعم إجابتي الأسهل، لقد سرت في طريق خاطئٍ لنهايته فقط كي لا أراجع باكراً، فسرت تصرفاتك وتصرفات خالتي ودود وأنور ووادع

على أنها شك في ساري، فعلت كل شيء متاح لأفنع نفسي بأنني وصلت للإجابة، ولم أهتم بالإكمال، لم أهتم بأن تكون إجابة صائبة!»

مسح على ظهري بلين وقبل رأسي وهو يقول:

- «أراك تقسين على نفسك أكثر من اللازم، الأمور لم تكن بالوضوح الذي تتحدثين عنه، وأنت لم تشكّ في ساري لمجرد سدّ خانة إجابة أمام سؤالها، لقد كان هدفك أنبل!»

- «لكنني لم أسأله، أي حماقة؟! كيف لم يخطر هذا ببالي؟ لم لم أفكر في سؤاله فقط؟ ما مدى صعوبة هذا؟»

- «درس جيد تعلمته، الإجابات أحياناً تكون أقرب من المتوقع، فقط تحتاج إلى أن ينظر المرء حوله، بدلاً من التطلع للبعيد طوال الوقت.»

مسحت دموعي باضطراب وكففت عن البكاء، ظاهرياً، نظرت لأبي وقلت بألم:

- «كان قراراً فظيماً مني أن صارحت أنور بكل شيء، لقد أفسدت الأمور إلا قليلاً، وأكملها أنور!»

- «أنور لا يُلام يا غيم، فكري في الأمر، على مستوى شخصي، كان لا بد أن يفعل ذلك من أجلك، ومن ناحية المسؤولية، إنه الحاكم ولو ترك الأمر يمر مرور الكرام لكان تقاعساً منه!»

- «أعرف يا أبي، وأنا لا ألومه، أنا ألوم نفسي على إخباره!»

- «لمَ تظنين أن هناك أحداً ملائماً بالضرورة؟ حدوث سوء فهم لا يعني أن أحد الأطراف كان مخطئاً، إنه سوء فهم، ببساطة.»

أشحت بناظري عنه وطأطأت، سوء فهم عولج بغباء، لو كنت أكثر

حكمة بقليل! مسح أبي على شعري وجمع خصلة منه وراء أذني، قال برفق:

- «أتعلمين ماذا اشترطت على أنور؟»

نظرت له بتساؤل؛ فقال بابتسامة:

- «أن يعدني بأن يحميكَ ويحافظ عليكِ مهما كلف الثمن، وألا يدّخر أدنى جهد في إسعادكِ وتأمينكِ، وزاد هو بحماس الأمور الأخرى، كالمنزول وال...»

- «أي منزل؟»

- «يا لطيف! يبدو أنني أفسدت مفاجأة ما، انسي هذا!»

قالها بمرح فضحكت برغمي، أنور يشارك أبي في اشتراط ما عليه فعله للزواج مني! عاد أبي يقول بجدية:

- «وما فعله أنور اليوم يؤكد لي أنه غير مستعد للخلف بوعده، الآن أشعر أنك بين يدين أمينتين!»

زحمت شفتيّ بابتسامة مقتضبة، ضميري لا يسمح لي بما هو أكثر.

- «لكنني أفسدت كل شيء يا أبي، كانت عليك رؤية رد فعل ساري حين وقعت عن الفرس، لا رد فعل على الإطلاق!»

- «لا توجد خسارة غير قابلة للتعويض يا غيم.»

رددت بحرارة وصوت بالك:

- «إلا خسارة المرء نفسه! لقد خسرت أخي، لقد ظلمته وشككت فيه وأفسدت سمعته وكسرت قلبه، ألم أخسر نفسي بعد كل هذا؟ أليست خسارة أخي كخسارة نفسي؟ لم أدعه لحفل خطبتي حتى، جعلت عينيه

تدمعان وأهنته أمام الجميع!»

نظر أبي لعينَيَّ وقال بحزم:

- «وبعد؟ ترين أن خسارتك لأخيك توازي خسارتك لنفسك، وتبرئين من كل ما فعلته به بسوء تقديرِك، ثم ماذا؟ كيف ستصلحين ذلك؟ بالبكاء؟»

- «هل أمامي حل ورفضته؟»

- «افعلي ما تجيدين فعله.»

- «ما أجيد فعله؟»

- «اطرحي سؤالاً، واسعي لإجابته!»

أشحت باشمئزاز

- «كرهت الأسئلة والإجابات.»

- «لا معنى للحياة بغيرهما، المهم أن عملي على تجويد أهدافك، وتبحني عن إجابات صائبة، بدلاً من إجابات عائمة.»

- «هل أعتذر له؟ هل سيقبل النظر إلي حتى؟»

- «سيفعل، إنه ساري، وأنت غيم، لا بد أن يفعل!»

تأملته في تحبط، ثم هزرت رأسي بتنهيده مهمومة. تأمل أبي الجرح وقال بتوجع:

- «لا بد أنه يؤلمك كثيراً، تعالي معي لتطمئني أمك، ولتدهن لك مرهماً ما علّه يساعد.»

- «أتصدق أنني لم أشعر به حتى نبهتني أنت!»

- «لأنك كنتِ تحملين آلاماً أشد.»
- «أبي، ماذا حدث لمزرتنا؟»
- «يا حبيبة أبيها، ترفقي بعقلك قليلاً.»
- «سأحاول.»

(٥)

استيقظت على صوت طرقات على الباب، فتحتة لأجد أنور واقفاً وراءه بخرج، ابتسمت بترحاب لكن قليلاً من الدموع كانت لم تزل عالقة في عيني. ابتسم أنور بصعوبة وقال بصوت مبحوح:

- «اسمعي، أنا.. حقاً آسف، لم يكن علي فعل ذلك، لم يكن قراراً حكيماً أن جعلتكما تتواجهان، فقط ظننت...»

- «أنك تساعدني، وهذا ما شعرت به ووصل إلي؛ لذا لا تعتذر، بل إنني يجب أن أشكرك على اهتمامك بي.»

اتخذت ابتسامته طابعاً ممتناً، تحوّل إلى حصانه وأنزل صندوقاً خشبياً، وضعه داخل المنزل فتبينت ما فيه، كان مليئاً بالرطب من مزرعتهم. نظرت للحصان فلمحت صندوقاً مشابهاً عليه.

- «للعلم جواد، لهذا الرجل وعائلته أفضال جمة علينا.»

قالها موضعاً بعد أن تتبع نظراتي. تراجع وكاد ينصرف بعد أن ودعني، كدت أغلق الباب لولا أن أوقفني بارتباك:

- «غيم، انتظري، أرجوك، هل يمكنني طلب شيء منك؟ طلب فقط، ليس على سبيل الإلزام!»

أعدت فتح الباب وأنا أنظر له باهتمام.

- «ما الأمر؟ تستطيع طلب أي شيء يا أنور.»
- «في الواقع.. أنا.. فكرت في.. أعني...»
- حين يبدأ كلامه بـ(في الواقع)، أدرك أن هناك ما يصعب عليه قوله بعدها.
- «قل يا أنور، ما بك؟»
- «حسنًا، في الواقع، أردت أن نَعَجِّلَ بالزفاف، أن نجعله خلال أيام مثلاً، إن وافقت بالطبع؛ لأن.. أعني.. هناك تطورات غير مباشرة فيما يخص عمي وما إلى ذلك، وأريد أن ننفذ بزواجنا قبل أن تسوء الأوضاع أكثر.»
- ابتسمت بتفهم، وقلت:
- «لم كل هذا الارتباك؟ بالطبع أوافق، لكن لا تزال الكلمة لأبي.»
- «لقد حدثته وأخبرني أن الكلمة لك!»
- ضحكنا، ارتاح وجهه، لقد توقع أن أنزعج من رغبته، لكنني لم أشعر بذلك، خاصة أن أسبابه وجيهة ومفهومة، الانتظار أكثر يعني حدوث كوارث أكثر، هذه قاعدتنا الجديدة داخل هذه القرية العليلة. برهان كلامي وصل فوراً على هيئة حريق هائل يلوح في الأفق، ليس بعيداً عنا كثيراً، وكان العديد من الأشخاص يجذّون السير نحوه. أمسك أنور بذراع أحدهم، وسأله عما يجري، أهو انفجار جديد؟
- «كلا، إنه إثبات صفراوية جديد.»
- «إثبات.. ماذا؟ ما معنى هذا؟»
- «الصفراويون يتصلون من أي شيء يفرّقهم غير لون الأعين؛ لذا يبرهن الصفراويون غارسوا الفسائل أن غراسة الفسائل لا تشكل عقبة أمام التجانس والتعايش السلمي والودود بين الصفراويين وبعضهم؛ فيقدمون

على حرق مزارعهم والتخلي عنها فداءً للصفراوية. بيني وبينك، لقد فسدت المزارع أصلاً، تلك الحشرات الضئيلة أهلكتها!»

تركنا الرجل وغادر، ثرثار جداً، لكن مفيد للأمانة.

- «فيمَ تفكرين؟»

- «في كلمة قلتها للمعلمة وقار مع بداية نشأة الصفراوية، أن هذا التحزب السخيف الذي بدا كلعب صبيان في أوله، يكاد يكون عقيدة مستقلة بذاتها. أرى أنني لم أبالغ.»

- «كل كلامك صحيح يا عزيزتي.»

قالها بأريحية وهو يستند على الباب. نظرت له في دهشة، كيف بوسعه أن يكون رائق البال هكذا؟

- «ماذا؟ لقد أحرق مزرعته بيده وباختياره، ما عساي أفعل؟»

- «ألا يؤملك هذا؟»

- «بالطبع يؤمني، لكنني لست محيطاً بكل شيء يا غيم، لي قدراتي ووسعي المحدود، وما خارج نطاقهما أسأل الله ألا أحاسب عنه.»

- «هل فعل الكثيرون مثله؟»

- «حسب كلام مرشدنا المجهول قبل قليل: أجل.»

- «لكن ماذا يقدم الصفراويون الحارقون والجداريون في المقابل لإثبات

ولا نثمهم؟»

- «سأفترض جدلاً: لا شيء.»

- «يا للعبث!»

- «توقفي عن حمل هم كل شيء، لديك عقل واحد، وقلب واحد.»
- تنهدت في استسلام، وضع يده على كتفي وقال مبتسماً:
- «أخبريني يا فتاتي، من تنوين دعوته للزفاف؟»
- «ليس في بالي الكثير من الأشخاص، فكرت في دعوة تلك العجوز ذات الحس الفكاهي، لكنني لست واثقة، ما أنا واثقة منه أنني سأخرج معلمتي رؤية من صومعتها، عليها أن تحضر زفافي ولا عذر يبيح لها التغيب! ربما المعلمتان وقار وأهداب أيضاً لو وجدتهما.»
- «تفكير جيد، و.. ساري؟»
- نظرت له بتوتر، عضضت شفتي وشردت قليلاً وأنا أقول:
- «لا يمكن ألا أدعوه بنفسي، يجب أن أعوضه عما حدث في الخطبة، لكن أيقبل؟»
- «هناك طريقة واحدة لمعرفة الإجابة.»
- أومأت موافقة، سأجرب، لا يوجد خيار ثانٍ.

انصرف أنور بعدما ألقى تحية قصيرة على أبي وأمي، ووعدني بأنه سينتهي أعماله ويعود ليريني مفاجأة رائعة. وبمجرد خروجه فرشت أمني سفرة الفطور، كانت سفرة رائعة، منذ زمن لم نجلس بهذه الحميمية نتحدث ونأكل، تدهشني اللحظات التي ييزغ فيها الأنس من حيث لا نحتسب، كما قال أبي والمعلمة رؤية، لا وجود للظلام المطلق، لا بد من شعلة في موضع ما، ولو واهنة، تهوّن وحشة هذا الظلام وتكسرهما.

- «أنور يتحدث عن تعجيل الزفاف.»

- قالها أبي وهو يتأمل تعابير وجه أمي بترقب.
- «أجل، لقد أخبرني قبل قليل.»
- «أخبرته أنني لا أمانع، لكن الكلمة الأخيرة لك.»
- قلنا العبارة الأخيرة معاً، في صوت واحد، نقلت أمي نظرها بيننا في دهشة ضاحكة؛ فنظر لها أبي وقال بفخر مرح:
- «ابنتي!»
- ضحكت أمي، ثم داعبت خدي وهي تقول مشاكسة:
- «يا لك من فتاة، ألهذا الحد تتعجلين تركنا؟»
- «للامر اعتبارات أخرى يا أماه، ولو كان الخيار لي ما تركتكم للأبد. برغم كل ذلك، سأكون هنا دائماً، كما أنا.»
- «وكانك كنتِ هنا قبل الزواج حتى تكوني هنا بعده!»
- قهقهت في حرج، لا أحب أن يشعر والداي بهذا، لكنني فشلت فشلاً ذريعاً في محاولة تغيير ذلك.
- «أحببت أنكما اتفقتما على أن يكون الزفاف مختصراً، أردت اقتراح ذلك لكنني امتنعت كي لا يزعجكما اقتراحي.»
- اعتدلت وقلت بنبرة قوية:
- «أولاً، أنا لا أقرر شيئاً دون الرجوع إليك يا أبتى، كل ما هنالك أنه كان حديثاً عابراً لا يُبنى عليه شيء. ثانياً، أنت لا تقترح، أنت تقرر، وتأمّر، ونحن نطيع!»
- ابتسم في امتنان شديد، ودمعت عيناه، لقد رقّ قلب أبي كثيراً في الآونة

الأخيرة، وبعيداً عن اللين والرحمة، أصبح.. منكسراً بشكل ما، لا زال في عقلي ألف سؤال عن مزرعتنا، أيعقل أن أمرها انتهى عند هذا الحد؟ لا يمكن لوجود الحيوانات في مزرعة عمي جواد أن يكون غير وضع مؤقت؛ فهل ظني صحيح؟

- «أحب الذهاب إلى منزل جواد، أترافقيني يا رؤوم؟»

أومأت أمي بحماس، انتقلت أنظارهما إلي كأنها يسألانني إن كنت سأرافقهما، أخبرتهما بخطتي في لقاء ساري فتنهما، أنهينا طعامنا ثم بدأ يستعدان للخروج. فجأة اقتحم جسدان صغيران باب المنزل، ألم يغلقه أنور وراءه؟ في ثوان كان يحدق بي زوجان من الأعين، زوج أصفر تحت شعر بني فاحم، وزوج أزرق تحت غرة شقراء لامعة.

- «أظننا تحدثنا مسبقاً حول ترك الباب مفتوحاً؟»

- «لكننا لا نتعلم من أخطائنا أبداً يا شهاب، أترى؟»

لم يبدُ بدر متابعاً لحديثنا بشكل جيد، كان وجهه شاحباً ولا يبدو بخير، نظر إليه شهاب في تعاطف ثم نظرا إلي معاً.

- «ما بكما؟ هل حدث شيء؟ وأين جوهرة؟»

تبادلا النظرات مجدداً، قال بدر بتوتر:

- «أبي.. يضر بها!»

أطل أبي من موضعه أمام المرأة في فزع، وعلى كتفه تتدلى نصف عمامته، وأطلت أمي -مع شهقة- من فوق الدرج.

- «لكن لماذا؟»

- «لقد وجد الحلوى التي أخذتها من عندكم.»

- «وما المشكلة في ذلك؟»
- «ليس على حارقي المحاصيل الجيدين تناول أي شيء مصنوع من النباتات للرفاهية، نحن لا نأكل من النبات إلا ما نحتاج إليه بالضرورة القصوى؛ لأن النباتات وأهلها عدونا الأول!»
- ألقاها بدر بسرعة كأنه يتلو موعظة ما، قطبت حاجبيّ بتوتر، لو كنت أعرف هذه المعلومة كنت لأحرص أكثر.
- «لو رأيت ذلك الفريد السخيف في أي مكان فساأضر به، إنه فريد في حجم وقاحته!»
- «ما دخله يا شهاب؟»
- «هو من فتش غرفتها ووجد علبة الحلوى وأبلغ أبي!»
- صمتُ من جديد، ماذا علي أن أفعل؟ جذب شهاب كمي وقال:
- «هل نخبر أنور؟»
- «بالطبع لا، ماذا عساه يفعل؟ أفضل ما يمكن عمله الآن هو عدم التدخل، أي تصرف سنفعله سيزيد الطين بلة.» قالها أبي بحزم.
- «ماذا؟ هل تريدون تركه يضرب جوهره؟»
- نظرت لبدر في عينيه وقلت برفق ما استطعت:
- «ما الأفضل يا بدر، أن يعاقبها لأنها تناولت من حلوى غارسي الفسائل، أم أن يعرف أنها من غارسي الفسائل؟»
- طأطأ بحزن وقد فهم قصدي، جذبه شهاب وقال بمرح مفتعل:
- «أتعرف يا بدر؟ أنا واثق أنها ستعود أقوى مما كانت، سمعت أنور

يقول إن أي شيء يواجه الإنسان سيمرّ، لكنه سيضاف إلى رصيد خبراته، وسيقوّيه أكثر!»

ابتسمت موافقة، وقلبي يتمزق على الطفلة المسكينة، بلا مقدمات انسحب الصغيران، أرجو ألا يقوموا بعمل أحمق. نظرت لأبي بألم فقال بعد تنهيدة طويلة:

- «أشعر بأنني مطمئن عليها أكثر من الأطفال في الدار، على الأقل هي تعرف ما تريده، وتميز الخطأ من الصواب، ولن يزيدها توحشه إلا ثباتاً بإذن الله.»

هزرت رأسي ببطء، ونهضت لأتجهز للخروج.

- «مرحباً.. ساري...»

قلتها بصوت لا يكاد يسمع، أدركته وهو يكاد يجاوز بوابة مزرعة حيّان المتهالكة-البوابة لا المزرعة- بعد أن بحثت عنه عند البحيرة وفي المنزل. ثبت مكانه ما إن سمع صوتي، ثم أشاح بيده يطردني دون أن يلتفت إلي، وتابع طريقه للداخل، تبعته بحذر وأنا أقول:

- «ساري، أرجوك اسمعني، لقد أتيت لأعتذر، أعرف أن قلبك كبير يا أخي، وأنتك ستسامحني، لم يكن يجدر بي...»

- «مكانك!»

قالها بصرامة وهو ينظر إلى قدمي، نظرت له بعدم فهم؛ فقال:

- «إياك أن تفكري في تجاوز البوابة، لو وطئت قدماك المزرعة فستفقدنيها!»

- باستسلام تراجع، لو كان هذا سيجعله يصغي؛ فلا بأس.
- «كنت أقول إن ما حدث كان سوء فهم كبير، ولم...»
- «ولم تشي بي لأنور صح؟ ولم تجعله يدخل بيننا، ولم تشكي له مني، هل هذا صحيح؟»
- «أجل صحيح، أنا لم أفعل ذلك، ولم أقصد ولم أرد أبداً أن يحدث ما حدث، لقد بالغت في رد فعلي، وبالغت في تفسير تصرفاتك وكلماتك على نحو مجحف، لكنني أعتذر!»
- «هل لي بطلب؟»
- «بالطبع، أي شيء!»
- «اغربي عن وجهي.»
- «ساري...»
- «ساري، ساري، ساري! قلت اذهبي! لا أريدك هنا، ألا تفهمين؟»
- دمعت عيناها، وشعرت أن كرامتي تصرخ في داخلي، دستها بقدمي وتابعت اعتذارها، لقد أخطأت خطأ فادحاً، وعلي أن أتحمل عواقبه.
- «زفاني بعد أيام من الآن، وأنا بحاجة إليك جواري، أرجوك يا أخي.»
- «لا تقولي أخي.»
- «لكنك أخي، من لي غيرك؟»
- «خطيبك وأخوك اللذان أتيا بأسلحتهما ليحمياك مني.»
- «لم يكن الأمر كذلك، من فضلك يا ساري، لا تخذلني، ولا تصعب الأمر علي!»

- «بعد أيام؟ لن أكون في القرية أصلاً.»
- «ماذا؟ أين ستكون؟»
- «سأذهب إلى تلك القرية لأستورد عرق سوس مغطى بالمنّ الجذري.»
- «ساري يكفي، أنت تعذبني!»
- «تستحقين، ولو بقيت هنا لوقت أطول فلا تلومي إلا نفسك، واعتبري هذا تهديداً، وأخبري خطيبك الحاكم بذلك.»
- بقيت أنظر له في قلة حيلة، لا أريد المغادرة، لكن كلامه يؤلمني. تأملني في برود وقال:
- «شيء إضافي؟»
- «لا.. أعني.. أجل.» قلتها ومسحت دموعي بسرعة. «أريد نبتة عرق سوس، يقولون إن لها عصيراً شهياً.»
- «إنه مسكر، والآن انصرفي.»
- يا إلهي! إنه يذكر كل كلمة سيئة قلتها له، حتى تلك الكلمة التي قلتها بغير قصد قبل أكثر من عامين!
- «ساري...»
- «انصرفي..»
- «من فضلك...»
- «الآن..»
- «أخي...»

- «اغربي عن وجهي!»

قالها صارخاً، حرفياً، متى كانت آخر مرة سمعته فيها يصرخ هكذا؟ متى سمعته أصلاً يصرخ هكذا؟ انتهى الأمر، أظنني حاولت، بصدق، والنتيجة تفطر قلبي. بقيت أسير بلا وجهة محددة وأنا أفرك عينيّ محاولة منع نفسي من البكاء، لا شك أن مظهري بدا كالأطفال المتشاجرين في ساحة القرية. سمعت صوت عربة يجرها حصان تسير خلفي، التفتُ بحركة حادة لأرى عائلة من ذوي الأعين الحمراء فيها، أوقفوا عربتهم بمحاذاتي فنظرت لهم بتحفظ.

- «السلام عليكِ يا ابنتي، أخيراً رأينا أحداً يبدو عليه الصلاح في هذه القرية الموبوءة؟»

كان يتحدث بلغتنا، لكن بقي لحن في الكلام يشبث أنه ليس أصفر فعلاً. هزرت رأسي أحنه على المتابعة؛ فقال:

- «لقد أتيت أنا وعائلتي من قرية (...) -نسيت اسم القرية- ونحن نبحت عن قرية تدعى قرية المروج، لست واثقاً، لكن نريد القرية التي توجد بها دار المنارة، نريد لأبنائنا أن يتأسسوا بشكل قويم لا يقدمه مكان مثل هذه الدار.»

- «أهلاً بكم، حارقوا محاصيل، صح؟ أم جداريون؟»

تبادل نظرات مستغربة مع عائلته ثم أعاد النظر إلي.

- «بل غارسوا فسائل والحمد لله، ما هذا السؤال؟»

نظرت لهم في نوع من الصدمة، لم أتوقع هذه المباغته، كيف أخبرهم الآن أن ما أتوا من أجله لم يصمد و ينتظرهم؟ فجأة اشمأزت ملامحه ولامح

عائلته، وقال بلهفة:

- «من فضلكِ أجيبي يا ابنتي، نريد مغادرة هذه القرية بكل ما فيها بأسرع وقت!»

أصخت السمع لأعرف ما أزعجهم إلى هذا الحد، أصبح الصوت مألوفاً، أجل، إنه حفل للبهال... ماذا؟!

- «أسفة يا عم، ما تبحثون عنه ليس هنا، ولا قريباً من هنا حتى.»

ألقيت نظرة خاطفة على أطفاله وسط نظراتهم المذهولة، وأضفت:

- «علم أبنائك في المنزل، أفضل لهم، ولمستقبلهم، ولعقيدتهم.»

- «لكن.. أخبرونا أن...»

- «لا تصدق كل ما يخبرونك به يا عم!»

بقي ينظر إلي لبضع ثوانٍ دون أن يقول شيئاً، ثم بدا أنه فهم فجأة، أخذ نفساً عميقاً وجذب لجام حصانه وهو يقول:

- «أعانكم الله يا ابنتي.»

ثم استدار بعربته دون كلمة أخرى واختفى عن ناظريّ، في حين حثت السير نحو مصدر الصوت، ساحة القرية! أنور محق، لا شيء يوقف حفلاتهم، حتى تدمير عربتهم! رأيت الشاب الذي كان يتبادل المغازلات مع شهوة ليلة السباق، كان يقف على منصة مرتفعة ويده آلة غربية، كان يعزف ويغني ببراءة، ووراء فرقة كاملة تؤازره، وحوله اجتمع شباب القرية فتيات وفتياناً، كانوا يصفقون ويصفرون ويصيحون ويرقصون بمتهى الحماس، بل إن عدداً من الأطفال كان حاضراً، وسمعت بعضهم يتبادلون الهمسات، يقولون إنهم راغبون فعلاً في أن يكونوا محبوبين وبارعين مثل (لاهي) عندما

يكبرون! صوت الشاب عذب جداً، ورخيم، وساحر، لكن الكلمات؟ ما هذا الفحش؟ ما هذه القذارة والبذاءة؟ كيف يتفوه بهذه الكلمات بكل هذه الجرأة في ساحة القرية؟! ربما لا يكون هذا جديراً بالذكر، لكن أصص الزرع المخصصة للسباق كانت مكومة على جانب الطريق في إهمال، ولمحت شروخاً في بعضها. وضعت يديّ على أذنيّ وركضت هاربة بفزع وانقباض، كم أتمنى أن تخسف بهم الأرض، حثالة البشر!

- «غيم، ما بك؟ أأنت بخير؟»

لقد اصطدمت به، في حين كان يترجل عن حصانه، تأملني وقال بانزعاج:

- «هل سأرى هذه الدموع في كل مرة أنظر فيها إلى عينيك؟»

- «خطوك أنك اخترت إنسانة كئيبة!»

قلتها ضاحكة من بين دموعي، لكنه قال بجدية:

- «بل بالعكس، أنا أعرف جيداً أنك متفائلة ومرحة وسعيدة في العادة؛

لهذا يقلقني تكرّر حزنك بهذا الشكل المكثف!»

ثم رفع بصره تجاه الحفلة الماجنة، وقال:

- «هل ضايقتُ أيّ من أولئك السكارى؟»

- «لا، من ضايقتني ليس السكير نفسه.»

قطب حاجبيه في عدم فهم؛ فقلت بابتسامة حزينة:

- «ابن السكير هو من فعل! ساري يا أنور.»

- «هل تحدثت إليه؟ كيف سارت الأمور؟ ماذا حدث؟»

- «لم يحدث الكثير، في الحقيقة، لم يحدث شيء على الإطلاق، من

- الواضح أن الأمور انتهت عند هذا الحد.
- «غير ممكن! هل أخبرته بأن الزفاف بعد أيام؟»
- «أخبرته.»
- «و...؟»
- «قال إنه مسافر قبل الزفاف.»
- «مسافر؟ إلى أين؟»
- «أنور، كلامه كله كان تقريباً، لقد طردني شرّ طردة، وكان مشمئزاً فعلاً من رؤيتي!»
- «غيم، أنا واثق من أنك تحسست أكثر من اللازم، وأمعت في إلقاء اللوم على نفسك، لكن غضب ساري لا يعني أنه لم يسامحك! إنه يتدل فقط يا غيم، ويرى منزلته في قلبك!»
- «لا أعرف حقاً، لكن ما فعله لم يبذل دلاً على الإطلاق!»
- «سيحضر الزفاف، وهذا رهاني.»
- «لن يفعل، لا أحب أن أراهن على شيء بهذا القدر من الألم، لكنه لن يحضر، أنا أعرفه!»
- بقي يتأمل وجهي في حيرة، زم شفتيه وقال بتمهل:
- «سأذهب للاعتذار إليه على أي حال، وسأطلبه بالحضور بدوري، لم أرد مرافقتك كي لا نشعره أننا في صف وهو في صف، أريده أن يشعر أننا جميعاً واحداً!»
- تنهدت ولم أقل شيئاً، مسح رأسي وابتسم قائلاً:

- «ماذا عن المفاجأة؟ هل أنت مستعدة؟»

ابتسمت أجاريه؛ فساعدني على ركوب حصانه وانطلق بي.

- «هيا، هانحن أولاء، افتحي عينيك!»

فتحت عينيّ لأنظر، كما توقعت، المنزل الذي تحدث عنه أبي، وبرغم أنني كنت أعرف بأمره مسبقاً، إلا أن رؤيته بثت في قلبي مشاعر سعادة غير عادية، التفت لأنور بفرحة غامرة وعجزت عن قول أي شيء، ابتسم وهو يمسك بيدي ويجذبني خلفه بجذل طفولي ليريني المنزل بالكامل. كان رجلاً، مكوناً من طابق واحد، وشرفة رائعة مطلة على منطقة عشبية منعشة، أشار إلى غرفة النوم، إلى نافذتها، وقال بحماس:

- «هنا ستضعين أصيص إكليل الجبل خاصتك.»

تخيلته في موضعه الجديد وابتسمت، سيلائم الستائر البيضاء التي... الستائر؟ لقد وصل إلى الستائر!

- «بالطبع، لقد أثثته بالكامل، حرصت على ألا تريه إلا حين يكتمل. أتحرق شوقاً لليوم الذي سنعمره فيه معاً.»

ابتسمت، يا للطفه وشدة اهتمامه، الحمد لله على هذه النعمة. فجأة سمعنا صوت شيء يسقط، التفت بفزع ونظرت إلى أنور، لكنه ابتسم ببساطة.

- «وادمع، لا عليك، اخرج، إنها غيم.»

نظرت بذهول إلى وادمع الذي خرج من إحدى الغرف مبتسماً، آثار النوم تظهر على وجهه، أعرف ذلك من خديه المتوهجين، لكن ليس النوم فقط، لو تركت لاستنتاجاتي العنان لقلت إنه كان يبكي! بذهول نقلت أنظاري بينه

وبين أنور، ما الذي يفعله هنا؟ ولم يبدو هكذا؟

- «لم نرد إخبار أحد بذلك، لكنك ستحفظين السر، صح؟ ولن نخبري عائلة وادع أو أي أحد آخر.»

- «سأحفظه، فقط تكلمي!»

مجددًا تبادلا النظرات، قال أنور أخيرًا:

- «الصفراويون، حسنًا، هم لم يكتفوا بتهديد وادع ونبذه، لقد.. آذوه فعلاً، عدة مرات. أراد أن يرتاح قليلاً قبل أن يعود لعائلته، تفهمين، حتى لا يدركوا ما حدث؛ لذا اقترحت عليه البقاء هنا، وأخبرت عمي جواد أنه يساعديني في بعض الأمور.»

نظرت إلى وادع بجزع، رفع يديه أمام وجهه يهدئني بلطف، في حين تحفزت أسأل وأستفسر عن كل التفاصيل.

- «على رسلك، ما حدث أنهم قد.. استدرجوه بين منطقة الغابة ومنطقة الجبال، أخبروه أنني أريده للضرورة، و...»

- «تابع، أرجوك!»

- «لا، هذا يكفي، لا ضرورة لمعرفة ما حدث، المهم أن أنور ساعديني، للمرة الألف، وأنتي بخير الآن، الحمد لله.»

قالها وادع بجمود، هكذا بدأت الدموع تحتشد في عيني من جديد.

- «يا إلهي! هل ستبكين الآن؟»

- «لن أبكي إذا أخبرتماني!»

تبادلا النظرات المدهوشة ثم انفجرا ضاحكين، وشاركتها برغمي، نفذ

قرار وادع في النهاية ولم أعرف ما حدث، لكن الشيء المؤكد أن من آذى وادع لن يتوقف عنده، وسيتجاوزه إلى عائلة العم جواد كلها، وعائلتنا لو لزم الأمر!

أهلاً وسهلاً بالصوت الذي ألقناه وألفنا! الانفجار! نظرت لأنور بقلق؛ فقال بلا مبالاة:

- «لم يعد هذا مهماً، لقد وصلت رسائل التهديد بالحرق إلى كل مكان في القرية تقريباً، المزارع والدور و.. حتى دار المنارة وصلها تهديد!»

- «ماذا؟ ألا يلزم إخلاؤها يا أنور؟ قد يتأذى أحد!»

- «إخلاؤها ممن يا غيم؟ التهديد وصل للجهة المخصصة لغارسي الفسائل فقط، أي الجهة التي لم يعد أحد مهتماً بزيارتها من الأساس.»

ألقيت بنفسي على الأرائك البنية الناعمة، لويت فمي وقلت بضيق:

- «وما نهاية كل هذا؟ أشعر أننا نتحرك داخل دائرة، بلا بداية أو نهاية، لا توجد نقطة واضحة نقصدها لتتحرر!»

- «لا بد من وجود حل في مكان ما، إجابة كما تسمينها، لكن ليس مع قوم كهؤلاء، مجرد جهلة سطحيين لا يفكرون في أبعد مما تراه أعينهم.»

- «أيعقل أن كل من في القرية هكذا؟ القرية كبيرة، هناك أحد يفكر مثلنا على الأقل، ولو كان فرداً واحداً!»

- «ولو وُجد هذا الفرد، ما الفارق؟»

- «لا أعرف. الأرائك رائعة بالمناسبة.»

شكرني أنور بحبور كأن كل شيء في أفضل حال، ربما كان هذا صحيحاً، بشكل ما علي أن أوقن أن ما نحن فيه هو أفضل حال وأجود ظروف يمكن

لنا أن نعيشها؛ لأن الله لا يقدر لنا إلا الخير، ولو كان ذلك متعباً وشاقاً وصعباً بالنسبة لأنظارنا القاصرة. نهض أنور معلناً اضطرابه للذهاب وتفقد الأضرار، سألني وادع إن كان وجهه يبدو مثيراً للقلق بالنسبة لأسرته؛ فأخبرته أنه شاحب لدرجة كبيرة، هكذا قرر البقاء لوقت إضافي. ربت أنور على كتفه مشجعاً وخرج، خرجت معه بعد أن ودعت وادع، خرجنا من المنزل وامتطينا الرمح.

- «لم أتوقع أن أجد وادع هنا.»
- «لم أكن لأنفرد بك في مكان كهذا، لو لم يكن هنا لم أكن لأحضركِ من الأساس.»

ابتسمت بسرور، أمين أيضاً، هل يملك عيوباً؟

- «المنزل رائع، أشكرك حقاً، بالإضافة إلى موقعه، أحببته!»
- «لقد حرصت على الموقع بشكل خاص، أردته بعيداً عن ضجيج القرية وإزعاج أهلها، ألم تنتهي إلى بعد صوت الانفجار؟»
- أومأت بابتسامة.

- «لاحظ أنك وعدتني بشيء ولم توف به حتى الآن.»
- «ماذا؟ أنا؟»

- «أجل، قصة السفير، أم أنك نسيت؟»
- «يا إلهي! غيم! لا تتحدثي بصوت مرتفع هكذا، لقد خرجنا للعالم، ليس على الكل أن يعرف أن...»
- «أن السفير ليس سفيراً؟»

- نظر إلي بلوم فأخفيت ضحكتي، لسبب ما أحببت استفزازه.
- «سأخبرك، لا بد أن أفعل؛ لأنني بحاجة إلى مشورتك أنت وعمي مدرار، فقط عندما... ماذا يحدث يا شباب؟»
- قالها لمجموعة من الرجال المجتمعين حول دار المنارة، الآن فقط أفطن لتلك الأدخنة المتصاعدة من نوافذها، من نوافذ نصفها تحديداً.
- «انفجرت كرات زجاجية إضافية هنا، بناء الدار المتين ساعد على ثباتها، لكننا قلقون من وقوع ضحايا.»
- خرج رجل يلف خرقة مبللة حول أنفه وفمه من الدار، سأله الباكون عما وجده؛ فقال بارتباك:
- «الطرقات والقاعات خالية لحسن الحظ، لكن...»
- «ماذا؟ قل!»
- «المكتبة النسائية، أظنني رأيت جثة فيها، لقد كان الحريق في داخلها ضارياً، اقتحمناها وأطفأناها بصعوبة، نحتاج الآن إلى امرأة كي نتحقق من هوية صاحبة الجسد.»
- نظر لي أنور باعتباري المرأة الوحيدة في الجوار، قفزت عن الحصان وهرولت للداخل بذهن مبلبل، حتى أنني لم أع صيحات أنور التي تهيب بي أن ألق قمحاً مبللة على وجهي.
- يا رب، ليس ما أظنه! يا رب، ليكن الجسد لأي شخص آخر! بسرعة أعطف إلى داخل المكتبة، أستند إلى الباب وأهث، في حين يلتقط عقلي كل الصور التي أمامي، من رفوف متكسرة ومتساقطة، وكتب محترقة ومفتتة، لكنه استغرق وقتاً طويلاً ليجد الجسد المشوي الممدد في منتصف المكتبة

تمامًا. بساقين رخوتين أقترب منه، لماذا لم تهرب؟ نظرة معتمة إلى الباب جعلتني أدرك السبب، هناك من وضع شيئًا ثقيلًا وراءه، لم تكن لتقوى على فتحه، خاصة مع كل هذا الدخان الذي يخنقها، والنيران التي تحاصرها، وانسجامها مع ما تقرأه إلى حد جعلها -حتمًا- تتأخر في الانتباه لما يجري. جثوت على ركبتيّ جوارها، ألقيت نفسي إلقاءً دون أن أبه بتأوهات ركبتيّ. بأمل دخیل ومفرط وجدت يدي تمتد إلى رسغها، حكمًا، تحسسته بشراهة، ثم عادت لترتخي في حجري حين بدا لها حجم العبثية في فعلها.

إنها هي، ولو لم تبدّ كذلك، هي لم تستحق أن تتشوه بهذا الشكل، لم تستحق أن تفقد ملامحها قبل موتها، كان بالإمكان أن تحظى بوفاة أقلّ عنفًا ووحشية!

- «غيم، ماذا...؟»

قالها أنور وهو يقف عند الباب، اتسعت عيناه مع رؤية الجثة وأشاح بسرعة، ثم صاح يهيب بي أن أنهض. كالمسحورة نهضت وتراجعت دون أن أبعد عينيّ عنها، لم أشعر حتى بكمّ الدخان الذي غزا صدري، سحبنى أنور خلفه وانسقت بلا إرادة مني، خرجنا من المكان فرجبت رثائي بالهواء النقي عبر إطلاق سعالات خارقة. بقي أنور يراقبني ويربت علي بتعاطف وشيء من الفزع، وحين هدأت أنفاسي أخيرًا قال بآلم:

- «كانت غلطتي! أنا مجرد مهمل، كيف قصّرت في مسؤوليتي إلى هذا الحد؟ اعتمدت على فكرة أن الجميع هجروا الدار، واستعصت بها عن التفطيش والتأكد والتحذير!»

- «كيف لم أنتبه؟ ظننت الوقت أبكر من أن يتواجد أحد هناك، كيف نسيتها؟ إنها تبيت في المكتبة! يالي من...!»

- «غيم، ما بك؟ تماسكي!»

نبهتني عبارته المفجوعة إلى حقيقة أنني في طريقي لفقدان الوعي، استندت عليه ونهضت شاعرة بالغثيان، سيلازم منظرها كوابيسي ما حييت. رجوته بلا صوت تقريباً أن يعيدني إلى البيت. أسندت رأسي على كتفه فوق الحصان وبكيت بلوعة.

- «الصفراوية قتلتها، الملاعين قتلوها! لقد أقسموا أن يخرجوها من المكتبة جثة هامدة، وهم لا يوفون إلا بالأقسام الآثمة!»

لم يستغرق الخبر الكثير من الوقت كي يعرفه كل من في القرية، هذه القرية الثرثرة ترحب بأي حدث جديد، بأي حكاية جديدة تحديداً، قرية كل ما فيها خامل ومتعاجز، إلا ألسنة أهلها! لم تكتف ذاكرتي المسكينة بحفظ هياتها في المكتبة فحسب، بل وعلى طاولة الغسل أيضاً، شعرت ألا خيار أمامي، كانت وحيدة، بلا عائلة ولا أقرباء، وأزعم أنني كنت أقرب شخص إليها، في أيامها الأخيرة على الأقل، دخلت تبر معي، لكن المغسلة الأساسية كانت خالتي حسناء، وكنا مساعدتين فقط، ولكم أن تتخيلوا كم كان تغسيل جسد محترق وشبه مفتت صعباً، خاصة حين تحاول تقريب فكرة أن هذه معلمتك التي عاشرتها وتعلمت منها وتركت آثارها في روحك، هي الشيء الملقى على الخشبة بلا حياة الآن! المفاجأة لم تأت بعد، المفاجأة الحقيقية كانت في أعداد المشيعين، ربع العدد الذي شيع خالتي ودود، المفارقة أن المعلمة رؤية درّست لجميع فتيات القرية تقريباً، ولها علاقة بكل امرأة في القرية، ويعرف فضلها البعيد قبل القريب، لكن الصفراوية مقتتها، وحكمت عليها بالنبد حتى بعد موتها!

ألقيت عليها نظرة أخيرة حين انتهينا، المرأة التي لا تنام، ستخلد للنوم أخيراً، وهذه المرة، ستنام أطول مما كان يتوقع أحد.

بعد الدفن، أعطاني أنور قصاصة صغيرة، قال إنهم وجدوها في قبضتها عندما أرادوا حملها، أخذت القصاصة واحتفظت بها دون أن أتفحصها، سيحين وقتها. بعد يوم شاق وطويل لذت بغرقتي، بسكينة أخرجت سبحتها السوداء، أرادت أن تبقي سبحة تتحرك حتى بعد موتها، حسناً، يجب ألا أهمل تحقيق رغبتها. بقيت أستغفر على السبحة، وأذكروها وأدعو لها قبل تحريك كل خرزة. طرق أبي باب الغرفة، فتحه برفق وأطل برأسه.

- «غيم، لديك زوّار».

وقبل أن أستفسر اختفى رأس أبي، من يكون؟ أنور؟ لقد كان معي طوال اليوم، أم ربما.. ساري؟!

- «مرحباً غيم، اشتقت إليك».

يا لاشتيافي لهاتين العينين الزرقاوين المليئتين بالحوية والنباهة، بلهفة ضمنت وجهها بين كفيّ، وبألم تأملت الزخرفة الزرقاء التي تحيط بعينها، وبفكّها. بلطف أبعدت يديّ ورمت نفسها جوارى على الفراش، عزّتني بكياسة ولم تُحَ ابْتسامتها ثانية واحدة.

- «جوهرة، كيف أنت؟ صدّقاً».

- «ما بك يا غيم؟ هل ترينني أعرج أم أتسند على الأثاث؟ أنا بأفضل حال، الحمد لله، فقط ذاك الثرثران يجبان إثارة الفزع. بصعوبة منعت شهاب من ضرب فريد، لو أمسك به فريد سيمزقه! إنه أكبر منه وأقوى بمراحل، كما أن المشكلة لم تصل هذا الحد بعد! فقط شهاب.. متحمس جداً».

بقيت أنظر لوجهها بلا رضا، لكنها قالت بابتسامة رائقة:

- «لم يستطع أبي تغيير شيء، في الواقع، أنا مدينة له بالشكر، لقد ساعدني على تحديد موقفي أكثر.»

طالعتها باستغراب، من طريقة كلامها لا من كلامها نفسه.

- «هو لم يقدم لي إجابة واحدة عن أي سؤال من أسئلتني، لم يجنبي إلا بالغضب والصراخ والعنف، لو كان لديه رد لم يكن ليلجأ للقمع، أنت والعلم مدرار أجبتما كل أسئلتني، كنتما منطقيين، أفنعتاني وجعلتاني أفعل الشيء بإرادتي، رغبة لا خوفًا!»

ابتسمت بإشفاق، لا أعرف إن كان علي أن أسرّ، أم أفخر، أم أحزن لوجودها مع عائلة بهذا السوء.

- «وما الذي تنوين فعله الآن؟»

- «ماذا بوسعك أن يفعل أكثر؟ لا شيء، سأفعل كل ما أوّمن بصحته، ولست مهتمة بردة فعله.»

همة عالية، ثبات مثالي، لكن لا يمنع أنني أكاد أموت قلقًا.

- «دعيك من الشرود يا غيم، أريد بعض الحلوى، أرجوك، لقد صادف فريد كل ما كان لدي، أنا واثقة أنه سيأكلها في مكان مستتر بمفرده، فقط هو متلذذ بمدى الصلاحيات التي يعطيها والداي له، يشعران أنه حارق محاصيل قياسي، وأن علي أنا وبدر أن نقفو أثره.»

بسرعة أخرجت لها علبة كنت أحفظها بين رفوف خزانتي، لسبب ما عادت إلي ذكرى المرة الأولى التي تذوقت فيها هذه الحلوى، والتي كانت السبب في إدماني لها حتى بعد مرور كل هذه السنين. عندما كانت وصفة جديدة جرب وسم إعدادها لأول مرة، وكان الحاكم يحصل عليها بشكل

حصري.

فتحت جوهرة العلبة وأخذت تتناول قطع الحلوى بنهم، كنت أعني ما تفعله، هي لم تكن مقبلة عليها بهذا الشكل من قبل، لكنها الآن تحبها لا لذاتها، بل لأنها تمثل لها المبادئ التي تؤمن بها، وتثبتت في داخلها شعورها بأنها قادرة على مخالفة رغبة والديها.

- «أصحيح أن زفافك سيكون بعد أيام؟ أخبرني شهاب.»

أومأت بابتسامة، يا لثرثرة شهاب، آمل أنه لم يخبر المزيد من الناس.

- «سأحضره، أريد ذلك، أيمكنني؟»

- «لست من يُسأل في هذا، بل أنت، هل بوسعك الحضور؟ أهذا آمن؟»

طرقت بلسانها بمعنى أنها لا تكثرث، لا أحب جموحها الشديد هذا، حتى لو كان تمثيلًا.

- «غيم، أعلمين؟ أنتِ تعنين لي شيئًا كبيرًا جدًا.»

اعتدلت ونظرت إليها في اهتمام؛ فتابعت بنبرة حاملة:

- «أنت الشخص الذي أريد أن أكونه، أنت قدوتي، ومع كل خطوة

أخطوها، أفكر فيما كانت غيم لتفعله لو أنها مكاني، وحين أرجح إجابة ما، أتصرف على أساسها مباشرة.»

- «أنا؟ أنا...» لم أجد ما أقوله، كنت مأخوذة تمامًا.

- «أنتِ تبحثين عن الإجابات، صحيح؟ تسعين لإيجادها بنفسك،

وللتأكد من صحتها، وترفضين ترك أحد يملئها عليك. أنتِ لا تأبهين بكونك تسيرين عكس الجميع، ما دمت مؤمنة بطريقك وبغايته، ولو كنتِ وحدك. كم أتمنى أن أكون مثلك!»

لم يسعفني لساني بالرد؛ فانقضضت عليها أضْمَها إلى حضني، لم تكن تجاملني، كانت تتحدث بجدية تامّة، وبنبرة راجية متأمّلة، لم أتصوّر أن أصبح قدوة لطفلة في يوم ما، ليس بهذا الشكل الصريح، وقدوة لمن؟ لابنة واحدة من أشد العائلات ولأء لحرق المحاصيل!

- «غيم، اتركيني، أنتِ توشكين على خنقي!»

تركتها ضاحكة وعيناها تدمعان، حانت مني نظرة إلى سبحة معلمتي رؤية؛ فانتابني انتعاش مفاجئ، لعل ما سمعته الآن ينصبّ في ميزان حسنتها، لقد كانت عرابتي في هذا المجال، وكانت من أكثر الناس الذين شجعوني على شق طريقي بنفسي، واحترام عقلي ومبادئ.

- «أشكرك على موافقتك على تأجيل الحفل قليلاً، لم يكن تخطي موت المعلمة رؤية سهلاً.»

- «لا، أبداً، تمنيت لو أستطيع تحقيق رغبتك الكاملة في تأجيله إلى أبعد من ذلك.»

بدا شاردًا تمامًا، وكان ذلك مفهوماً، لقد مرّت أيام، ولم يتبقّ على الزفاف أكثر من يومين، كنت شاردة أيضاً، في موضوع مختلف سمعته ولم أستوثق منه. لاحظت تردده في قول شيء ما، هل سيقول ما أنتظر توضيحه يا ترى؟ حفزني استهلاله لحديثه بقول:

- «في الواقع.. لدي أخبار سيئة نوعاً.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله، أفرعتني، قل يا أنور!»

- «لا لا، ليس إلى حد الفرع، فقط.. عمي.. سمع بأمر زواجي بطريقة

ما، ولا مني في رسالة على عدم إخباره، وأعلمني أنه سيصل اليوم أو غداً، وأنه ينوي الحضور.»

بقيت أنظر إليه منتظرة التكملة، لكن بدا أنه لا تكملة هنالك.

- «أين الخبر السيئ؟ لم أنتبه له!»
- «غيم، سوف يأتي مع أسرته، ومع رفقته من ذوي الأعين الحمراء، أعني.. ستحضر نسوة أيضاً.»
- «طيب، من الجيد أنه أخبرك من الآن، حتى نهى أنفسنا ونحسب حسابهم في الوليمة والضيافة وباقي ما تبقى.»
- رفع عينيه إلي في دهشة.

- «أهذا كل شيء؟ ألسنتِ منزعة من حضورهم؟»
- «ولمَ قد أنزعج؟ أنا لا أفهم ما ترمي إليه يا أنور!»
- «ألم تخبريني أنكِ راغبة في حضور المقربين فقط؟»
- «هذا لا يعني أنني أمانع حضور غيرهم، خاصة حين لا يكون بيني وبينهم عداوات سابقة، فيمَ سيؤذيني وجودهم؟»
- ابتسم بارتياح، أحياناً أشعر أنه يعرفني أكثر من نفسي، وفي أحيانٍ آخر، أشعر أنه لا يعرف عني شيئاً على الإطلاق.
- «خفت أن تنزعجي، حمداً لله، لا تعرفين كم حملت همّ زفّ الخبر إليك، لم أتوقع أنكِ ستكوينين متفهمة لهذا الحد.»

- ابتسمت في نوع من الاستغراب ولم أقل شيئاً، من يظنني؟
- «دعك من هذا، ماذا عن ساري؟ كان من المفترض أن يسافر اليوم

بناءً على خطته.»

وضع يده على كتفي وقال بابتسامة واثقة:

- «سيلغي كل ما لديه وسيأتي، أنا أكيد من ذلك.»
- «بصراحة، أنا لا أرى ما يدعوك إلى هذا التأكيد.»
- «غيم، لقد عاد للتحديث إليك، أليس هذا تقدماً مبشراً؟»
- «هل تحدث إلي يا أنور؟ أأنت جاد؟»
- صمت بضيق، الحق معي، هو تحدث، لكن ليس لي تحديداً.
- «على الأقل نظر لك بطريقة عادية.»
- «عادية لغير المدقق، لكن لمن يعرف ساري جيداً، أي لي، إنها أسوأ نظرة ممكنة!»

زم شفتيه ولم يجد ما يقوله، تنهدت.

- «ربما علينا أن نركز على الزفاف كأولوية يا غيم، باعتباره الفرحة الكبرى لكلينا في الفترة القادمة، وبقيّة الأمور، حسناً، لقد تم تأجيلها طويلاً؛ فما الذي يمنع استمرار تأجيلها قليلاً بعد؟»
- «معك حق، الزفاف أولاً، هذا شعار المرحلة.»
- ابتسم بسرور ومسح رأسي بيده. عاد ينظر إلي ويقول:
- «ما رأيك في قصة السفير؟»
- «ظننتك تريد تركيز أفكارنا على الزفاف؟»
- «لا أطالبك بالتفكير، أسألك إن سبق وفكرت.»

- «مراوغ، ليكن، في الحقيقة، أجل، فكرت، ولو كان ما تظنه صحيحًا فإن تأثيره لن يكون هينًا.»
- «أنا لا أظن يا غيم، لقد تأكدت، ولم أخبركِ إلا بثقة تامة، أنا لا أرمي الاستنتاجات جزأً!»
- «أي لا تفعل ما أفعله أنا، أهذا ما أردت قوله؟»
نظر إلي بذهول.
- «هل سأعني ذلك برأيك؟ ما خطبك يا غيم؟!»
- «وهل أنا مخيفة إلى الحد الذي يجعلك تفكر ألف مرة قبل إخباري بأي طارئ أو طلب شيء مني؟!»
- بقيت نظراته المذهولة تظللني، لا يفهم سبب تحوُّلي المفاجئ، نهضت بلا مقدمات، وأخذت أسير بمحاذاة البحيرة.
- «غيم، ما بك؟ بوسعك أن تخبريني.»
- «ما بي؟ سأخبرك، أنا لا أحب الكذب يا أنور، ولا أحب التلميحات التي تمطرني بها منذ تقابلنا، أنا منزعة للغاية!»
- نهض ووقف قبالي دون أن يختفي الدهول من عينيه، لكن خالطته شعرة من الغضب، أو الخيبة.
- «أنا، أكذب عليك يا غيم؟ وأهينك بتلميحاتي؟»
- «كيف تفسر ما فعله والدك في الليلة السابقة؟ لقد تثبت أبي منك من هذا الموضوع تحديدًا ثلاث مرات، وأنت أكّدت أن والدك لا يمانع ولا يرفض!»

- «أنا لا أعرف كيف استطعت سماع حادثة البارحة، لكن من حقي أن أسأل: ما دمت غاضبة إلى هذا الحد؛ فلم قابلتني بشكل طبيعي، وتحدثت إلي وضحكت معي كأن لا شيء هناك؟»

صمت؛ لأنني لا أملك إجابة. إنه محق في هذا وأعترف، ميزاني في هذه الظروف سيئ ومطفف، حين أغضب من شخص عزيز فإنه يشق علي أن ألومه، ويصعب علي التخلص من انزعاجي لما فعله في الحين نفسه، ومع أقل ضغط -كتلميحات أنور السخيفة- أجدي انفجرت وأبدت كل ما كان بداخلي.

- «ها أنت من جديد تلمح، ماذا تعني بـ(استطعت سماع)؟ لم تصرّ علي أنني أمتن التجسس على الآخرين؟»

- «غيم! هل أنت بوعيك؟ كيف فهمت كلامي بهذا الشكل؟!»

لم أنا متحاملة عليه هكذا؟ هل ضغط الزفاف مع ألم موت معلمتي مبرران كافيان؟ لست أعرف، لكن هذا لا يلغي حقيقة كذبه علي. قررت أن أبتعد قليلاً لأهدأ، وبعدها يمكننا حل الخلاف بشكل أكثر صحة، لا أحب فكرة أننا اختلفنا قبل الزفاف بيومين!

- «أبي سيناقشك في هذا..»

- «غيم، لا تذهبي وتتركي، نحن نتحدث هنا!»

لم ألتفت، واصلت سيري خارجة من الغابة؛ فارتفع صوته.

- «لقد سمعتني! ليس من اللطيف أن تتجاهليني هكذا!»

للأسف، محق، هذا ليس لائقاً أبداً، ولا بعذر تهدئة فكري. توقفت واستدرت فاقترب مني بخطوة سريعة، لكنه -للعجب- كان يتسم بلطف.

- « لكل شخص عيوب، صحيح؟ والحقيقة أنني سعيد بظهور هذه العيوب قبل تمام الزواج، وسعيد لأن عيبك بهذه البساطة، وسعيد بعيبك كذات، أستلطفه بصراحة؛ يذكّرني بغيم القديمة التي كانت تصرخ في ساحة القرية بأي كلام يخطر ببالها، دون أن تلقي بالاً لأحد أو لأي اعتبار. »

عتاب، لكنه مغلف بالمدح، ومرصع بالفهم، عقدت ذراعيّ متظاهرة بأن كلامه لا يهمني، لكن لهفتي لبقيته لم تخضع لمحاولات الإخفاء.

- « أنت متسربة جداً، أكثر من الطبيعي إن أردت رأيي، تنساقين وراء افتراضاتك وتخضعين كل ما حولك لدعمها، في حين أنك لو منحتّها قدرًا كافيًا من التأمل؛ لن تبدو بهذا الحجم في عينيك. بهذه الكيفية اتهمت ساري بأمور أكبر بكثير مما تتحملها تصرفاته، ورأيت مجنون القرية على هيئة وحش كاسر وخبيث، ونعتني بالكاذب! »

نكست رأسي بخجل، لا أستطيع إنكار حرف مما ذكره، كان تحليلًا ممتازًا جدًا، والأهم أنه لم يتلفظ بأي كلمة حادة خلاله.

- « برغم هذا أشكر لك قدومك للسؤال والتثبت قبل الحكم، ومن واجبي أن أوضح لك ما وصل إلى سمعك. »

لا تبدو العبارة مزعجة وغارقة في التلميح كما كانت قبل قليل، لقد وصل الخبر إلى سمعي، حقًا، هذا لا يعني أنني تنصت! بالإضافة إلى قراره بجعلي أبدو كما لو كنت أستوثق منه، برغم أنني اتهمته بالكذب مباشرة، وتصرفت على أساس افتراضاتي كالعادة!

- « لقد أجبْتُ بصدق حين سألني الشيخ مدرار عن رأي أبي في هذه الزيجة، كنت متفهمًا تمامًا لسبب إصراره على هذه النقطة، وللسبب نفسه أصررت على أبي مرارًا، حتى سمعتُ منه تصريحًا حرفيًا بأنني حر في

اختياري هذا. المسألة ليست أنني أو الشيخ مدرار نرى أنني عاجز عن اتخاذ قرار مستقل، بل أن نضمن عدم تواجد عثرات قاتلة في الطريق، تجعل لقرار كهذا أضراراً أضعاف فوائده.»

أمسك بيدي بلطف وسار معي عائداً للبحيرة؛ فاستسلمت له.

- «ما حدث هو أن الحرباء المدعوة حلية تدخلت، بإيعاز من آنفة أو بلاه، لربما انزلق لسان شهاب فباح بكل شيء أمامها، إنها أمه في النهاية، الخلاصة أنها استشاطت لفكرة أن زفافنا قريب بهذا القدر، وبقيت تدق على رأس أبي كحزمة من المسامير!»

توقف قليلاً كأنه يزن كلمة ما في عقله، ثم قال بترو:

- «ذلك الخنزير البدين ابن هتر كان في المنزل قبل هذا بساعات، لا يسعني ألا أشك. توقعي بـم أشارت حلية على أبي؟»

هزرت رأسي متسائلة لأن صوتي كان خجلاً من الخروج بعد السخافة التي أطلقها قبل سويحات.

- «بأن أتزوج من.. أنت مستعدة للطامة؟ من شهوة! أنتصوين؟ أنا أتزوج فتاة بهذا الاسم؟ أبوها يكون هتر، وأخوها يكون قاسط، وأمها وخالتها تكونان حلية وآنفة؟! قالت كلاماً كثيراً عن أن مراعاة المستوى مهمة، وأن التفاوت بين الزوجين قد يؤدي إلى مشاكل أكبر، خاصة للحاكم المستقبلي.»

رغبة عارمة في الصراخ استولت علي فجأة، بدا هذا سخيلاً ودخيلاً على الموقف، لكنني لم أستطع تحديد ما شعرت به فعلاً.

- «أظنها كانت محقة، تلك الوسوسة الدنيئة، المستوى مهم، والتفاوت

مشكلة؛ ربما لهذا تحديداً اخترت زوجتي بعناية؟»

ابتسمت بصعوبة، شعر بضيقى فأحب أن يخفف عني.

- «أفترض أن شهاب هو من نقل لك الحدث بينما يرتشف كأساً من عصير أم وادع ويبحث عن قصة يثير بها اهتمامك، حسناً، أنا واثق من أنه لم يكملها لك؛ لأنه خرج باكراً. حين شدّ عليّ أبي في هذا الخصوص، حرصت أولاً على صرف حلية إلى حجرتها كي لا أتقياً خطأ أثناء حديثي؛ هكذا غدت المهمة أسهل، يا أبتى، لقد خطبت غيم، ابنة الشيخ مدرار، الفتاة الواعية العاقلة الرقيقة، أنت تذكرها؟ أجل، صاحبة الشعر المنتفش والنبرة القوية الناعمة في آن. أوجد اختيار أفضل من هذا؟ أستطيع مقارنة شهوة بها حتى؟ أؤكد لك يا غيم، لم أحتج إلى أكثر من دقائق لأعيدته إلى خانة الحياض التي كان فيها، بل مع ميل واضح إلى مباركة قراري، ولتمت حلية وابنة أختها القدرتان بغلها، ولتحيا غيمتي الرقيقة كاسرة أنوف الحاقدين!»

ابتسمت، ابتسامة نادرة، أنور أكبر بكثير من ثقتي ومن آمالي، وأبعد بأميال من أي شك يمكن أن يعتريني نحوه يوماً.

- «لا عليك، لا أريد أن تحملي هم تلك العائلة الشيطانية، أصدقك القول إنني راغب فعلاً في أن يحاولوا فعل شيء جاد، أعني عدا الوسوسة من تحت الطاولة، أنتظر - بفارغ الصبر - اللحظة التي أريهم فيها حجمهم الحقيقي، براغيث لا مصير لها غير السحق!»

- «أشكرك، أنت.. رائع، لا أصدق كيف احتويت غضبي بهذه البساطة، وحوّلت كل اتهاماتي السخيفة عديمة الأساس إلى موضوع هام يقربنا أكثر. أنا...»

- «وأنأ، أكثر بكثير صدقيني.» قالها بابتسامة حنونة. «وليس عليك

الاعتذار، هذا واجبي، وهذا ما علينا أن نلزمه في أيامنا القادمة معًا بإذن الله، وأثق أنك ستفعلين الشيء نفسه معي لو انعكست الأدوار.»

ابتسمت وأومأت، ربما لم يكن اختلافنا قبل الزفاف بهذا السوء. خطر ببالي أنني لم أكن المخطئة الوحيدة في مسألة ساري، جزء مني أيد ذلك، بمعنى، ألم يكن بوسع ساري أن يتصرف كما تصرف أنور ببساطة، وأن يراعي عيبي الذي يعرفه في منذ طفولتنا، وأن يكتفي بعتاب بسيط ويحتوي الموقف؟ أجب جزء آخر بصراحة: لست في موضع يسمح لك بلومه، ما كان عليك أن ترتكبي خطأ كهذا من الأساس، وإن كان أنور أكرمك بتجاوزه فإن رد فعل ساري ليس غلطة يحاسب عليها، بل هو من أبسط حقوقه!

- «على ذكر العيوب، هل وجدت عيبي أم ليس بعد؟»

- «هل تملك واحدًا حقًا؟»

قهقهه بلطف وارتمى على العشب المختلط بالتربة بلا اكتراث.

- «ربما كنت أحتفظ بنفس عيب أنور الصغير أنا أيضًا.»

- «بموضوعية، إذا كان أنور الصغير متعجرفًا، فأنت أبعد ما تكون عن ذلك، أنت التواضع مجسدًا!»

نظر إلي بدهشة، كأن ما أقوله عسير التصديق.

- «أنا متواضع؟ حقًا تظنين ذلك؟ كيف؟»

- «لم تفترض العكس؟ لم أر منك تصرفًا واحدًا مخالفًا لظني!»

مط شفثيه وهز رأسه كأنها يزن كلامي ويستسيغه، هل يرى نفسه متكبرًا حقًا؟ لا أعتقد، ليس حتى الآن.

- «كم صندوقًا من أغراضك بقي؟»

- «لا أعرف بالتحديد، ربما خردوات بسيطة.»
- «يا لسعادتي! خردواتك مع خردواتي في مكان واحد!»
- ضحكت وضحك، ثم تذكرت شيئاً.
- «أوه، أجل، أبي كان يريد نقل شيء إلى منزلنا.»
- نظر إلي باهتمام؛ فقلت بنوع من التخطب.
- «اغتيال المعلمة رؤية هزّه أكثر مما تتصوّر، لقد كانت معادله النسائي لو صح التعبير، وهو يرى أن ما جرى عليها سيجري عليه، وأن الصفراوية يمكن أن... في أي وقت.»
- «على جثتي!»
- «هذا ما قلّته له، لكنه لم يسمعني على ما بدالي، بذهن مببل طالبني أن آخذ صناديق البذور معي عند ذهابي، وأن نحافظ عليها في منزلنا.»
- «لنفعل ذلك إذن.»
- قالها بنصف شroud، حال أبي لا يعجبه أيضاً. قفز من مكانه فجأة، وطالبني مبتسماً بأن أنفض، سنتحدث كثيراً فيما بعد، لكن الآن، لدينا الكثير مما يجب أن نهتم به.



- «بست! يا عروس، هل تفكرين حتى في هذا الوقت!»
- التفت لتبر بابتسامة، الحق أن الزفاف كان مبهجاً فوق ما تخيلت، ولعل كل ما تعرضت له من مواقف مريعة في الآونة الأخيرة جعلت عقلي يرى أي احتمالية للفرحة على أنها أسطورة من أساطير الأقدمين. اقتربت مني تبر

ورفعت صوتها كي يطغى على أصوات الدفوف، وقد بدت سعيدة ومبتهجة بما لا يقاس، وقالت بلهفة:

- «أنا أختك، يجب أن أقدم لك هديتي قبل الجميع!»

نظرت لها مستفهمة؛ فأسرعت بإحضار قماشة مطوية بعناية، وملفوفة بشريط حريري.

- «كنت سأخيط لك جراباً آخر لولا أنك وجدت الأول؛ لذا فكرت في صنع هذه، أرجو أن تحبها.»

- «سأحب أي شيء تعدينه لي يا تبر، يكفي أنه منك.»

ابتسمت بلطف واستدارت لتعطني بأمر ما من أمور الحفل، في حين بقيت أطالع المكان حولي. أقمنا الاحتفال في مزرعة الحاكم هذه المرة، تحديداً في الجزء المملوك للسيدة مخمل، والذي ورثته عن أبيها عم الحاكم، قصة طويلة غير مهمة. فاق الحاضرون العدد الذي توقعته، لكن هذا لم يؤثر على مشاعري بأي شكل، النظر إلى خمسين امرأة مثله مثل النظر لألف، التوتر على أشده في الحاليتين. على ذكر الحضور، لقد بحثت عن معلمتي وقار وأهداب لأدعوها، وكذا المديرية عذبة، لكن المفاجأة كانت أنهم هاجرن مع عوائلهن! تلقين تهديدات متعاقبة من الصفراوية، ولم يخترن المجازفة؛ لذا انسحبنا بهدوء. بانزعاج وحذر عدلت جلبابي، كنت عاجزة عن الجلوس بارتياح منذ لبستته، وبرغم أن قماشه وتفصيله كانا من اختيار أُمِّي وخالتي حسناء والسيدة مخمل وليلة إلا أنهم لم يوفقن إلا في جعله يبدو جميلاً، كمنظر فقط.

- «مبارك يا غيم، سعيدة لأجلك.»

بلا صوت تقريباً، سمعتها بالتشبيه، وغادرت قبل سماع رد، مسرة خائفة من مواجهتي للآن، ولست نادمة على هذا، غيظي جهتها لم يبرد بعد! جاء

شهاب مسرعاً يخبرني أن وادع يريد التحدث إلي. كما حدث في المرة السابقة، ساعدتني ليلة على التسلل والخروج، جدير بالذكر أن آثار الحمل ظهرت عليها أكثر خلال هذه المدة القصيرة.

- «أهلاً أخي، كيف حالك؟»

- «أهلاً يا عروس، أردت إخبارك، لقد أحضرت لك هدية، وضعتها حيث يضع أنور الهدايا.»

هززت رأسي بابتسامة.

- «أردت سؤالك.. هل.. دعوتما ساري؟»

- «ماذا؟ ألم يأت؟»

صمت بنوع من الحرج، ليس راضياً بتغيب ساري.

- «دعوتما إذن. آسف، لا أقصد أن أكون لثيماً، لكن عدم قدومه ليس.. تصرفاً لطيفاً بالضبط، أعني.. أياً كان ما جرى بينكما، لا شيء يبرر له ترك أخته في يوم بهذه الأهمية!»

- «أنت محق، ولا شيء كان يبرر لي تجاهل دعوته في يوم بأهمية يوم الخطبة. نحن متعادلان الآن، فقط أرجو أن يكتفي بهذا.»

- «هذا ليس عدلاً، لو كنت مكانه لم أكن لأتصرف هكذا!»

- «أنا أكيدة من ذلك، لكنك لست ساري، ساري حساس أكثر مما تتصور، وما فعلته معه سيبقى في ذاكرته.. للأبد ربما. توجد احتمالية أن سفره كان مهماً فعلاً، ولم يستطع تأجيله.»

لوى فمه بغير اقتناع ولم يقل شيئاً، بافتعال أعاد الابتسامة إلى شفتيه وغادرني، عدت للخيمة ليستقبلني الصغيران الأزرقان، كانا صاحبين

لأقصى حد، وبقايا العصير تلوّث شفاههما الرقيقة، عبثاً حاولت إقناعهما بالاختفاء عن الأنظار، لكن جوهره لم تكن لتتصت إلي، وبدر يخطو حيث تخطو جوهره. بعد مدّة، دوّى الصوت المفزع من بعيد؛ فارتعد جسدي وصمّت أذناي، وانتقلت بلا حيد إلى المكتبة، أمام الجثة المتفحمة، جثة المرأة التي قلت إن شيئاً لن يعذرهما إن لم تحضر، حسناً، أرى أن عذرهما محكم الآن.

- «غيم، لا تخافي، الصوت بعيد.»

- «ماذا لو تأذى أحداً تبرز؟ هذه الانفجارات تسقط ضحايا بلا انقطاع، لا أحب لأحد أن يلاقي مصيراً كمصير المعلمة رؤية، ولو كان صفراوياً!»

أجبرتني تبر على النهوض لمتنصف الخيمة، بين النسوة الراقصات والشاديات، أخذت تراقصني باستمتاع، وتخلت ليلة عن تعقلها المفرط لتنضم إلينا؛ فأجبرني مظهر بطنها البارز على الضحك. سار اليوم حتى نهايته على نحو جيد، أفضل بكثير من تصوراتي المتشائمة، حتى حانت اللحظة التي سيدخل فيها أنور إلى خيمتنا، استترت النساء وجلست في مكاني المخصص، لقد جلست مع أنور وتحدثت إليه بل وتشاجرت معه بما يكفي لأعتاده، لكن الأمور لا تسير بهذه المنطقية، لسبب ما وجدت حرارة خدي ترتفع إلى درجة مهولة، ووجدت رأسي ينحني في خجل مفرط، وبدأت الأرض تدور من حولي. استغرق أنور عمراً حتى يصل إلي، ليس وحده، بل مع علبة خشبية أنيقة، رفع رأسي بيده في لطف بابتسامة ودودة، وفتح العلبة في يده بتمهل؛ لأرى الحلي المرصعة بالجواهر المصفوفة في داخله. طالعته بذهول، سبق ودفع مهرًا، أتى به قبل أن نتم الخطبة حتى؛ فما الذي تمثله هذه الحلي؟

وسط الأنفاس المبهورة، رفع أنور العقد وانحنى بلباقة ليثبتته على عنقي، وكذا فعل بالسوار والخاتم والقرطين، انتهى فهمس في أذني بكلمات لم أسمعها من شدة الحياء، ضحك لما استوعب حالتي، وربت على كتفي

مشجعاً.

انتهى الحفل، سلمت على أمي وأبي، كانت دموع الأولى تنهمر على خديها أربعاً، لكن كان بوسعي أن أستشعر حجم الفرح الذي تشعر به، بعكس أبي الذي لم تنقص ابتسامته قيد أنملة، إلا أن شعوره -بطريقة ما- وصلني، شعوره بأن قلبه يُعصر. ركبت وأنور في عربة عمي جواد التي تم تزيينها كأفضل ما يكون، وركب وادع في مكان القيادة؛ ليزفنا إلى المنزل الذي سيجمعنا أخيراً.

- «لكن.. لكن...!»

كذا انطلقت صرخات أنور، بلا جملة مفيدة، لم يستطع صياغة واحدة، قفز عن العربة بدون تفكير، وبقفزتين وصل إلى أنقاض البيت. كان صوت الانفجار بعيداً، بعيداً بما يكفي ليكون عند أبعد مكان اختاره أنور للنزول فيه، أراد أن يبعدنا عن قلاقل القرية ومشاكلها، لكن لم تسر الأمور كما خطط لها.

بسرعة نزلت عن العربة محاذرة من التعثر في جلبابي، وبفزع ركض وادع خلفي، جثا أنور على ركبتيه يتأمل ركام المنزل في عدم تصديق، انحنيت جواره وأنا أربت على ظهره؛ فاستطعت رؤية الدموع التي يأبى -بشمم- إطلاق سراحها.

- «أرجوك يا أنور، تماسك، لا بأس، خير، خير.»

رأى أن من واجبه ألا يثير فزعني، بصعوبة مسح عينيه ونظر إلي.

- «سامحيني، لم أرد أن يحدث هذا، لقد خططت لأن يكون يوماً مثالياً لك، لكن.. لكنني فشلت!»

- «أنور، علامَ تلوم نفسك؟ انهض أرجوك، استعذ من الشيطان، واطلب من ربك العوض. صدقني، إنه أفضل يوم في حياتي، بمنزل أو بدونه، يكفيني أنه اليوم الذي جعلنا شخصًا واحدًا!»

ابتسم على مضض، لكن ملامحه كانت تجسد الحزن كما يجب أن يكون، بانزعاج تحركت خطوة لأبعد ذيل الجلباب من أسفل قدمي؛ فحدث ما كان عليه أن يحدث منذ بداية اليوم: زلت قدمي وانكفأت على وجهي، حال أنور بيني وبين الأرض التي كادت تحضنني برحابة على بعد شعرة، وحين فتحت عيني اكتشفت أن ما كان سيحضنني ليس الأرض، بل القطع المتكسرة من أصيص إكليل الجبل الذي كان يزين النافذة. اعتدلت ونفضت الجلباب، وحاولت قدر استطاعتي تمالك ملامح وجهي، ليس على أنور أن يشعر بما يعادل شوكة عملاقة انغrust في صدري، مجرد نبتة، مجرد نبتة يا غيم، بالوسع زراعة غيرها، حتى لو كانت رفيقتك منذ الصغر، لا توجد خسارة غير قابلة للتعويض.

كانت الساعات التالية كابوسًا باغتتنا من حيث لم نحتسب، في كل لحظة كنا نكتشف خسارة جديدة، بدا الأمر كالضرب على الجرح ألف مرة، لقد انتهينا مساء الأمس من نقل آخر متعلقاتنا إلى هنا، كل ما كنا نملكه ضاع، بلا مبالغة، وجدت خرزة، خرزة واحدة من أصل تسع وتسعين واحدة، شكلت سبحة معلمتي، ووجدت قطعة حريرية أصغر من حجم الكف، تحمل تطريزًا فضيًا لاسم غيم، وصفحة واحدة من دفثري الجلدي، الصفحة التي تحمل قصة الجبان والأحمق والجبان الأحمق. تأخر الوقت ونحن في موضعنا، أعطاني أنور جبته لأتدثر بها وطلب مني أن أبقى في العربة، ترك وادع الرجال الصاخبين وجاء ليجلس جوارِي، لم يقل شيئًا، فقط بقي يرتب على كتفي مواسيًا، وكان هذا كافيًا. وصلت السيدة لمحمل، تكاد تسقط من

فرط سرعتها، وبدت على وشك البكاء وهي ترى كومة التراب والفتات التي تحول إليها بيتنا الدافئ الذي لم يتسنَ لنا صنع ذكريات تربطنا به.

- «غيم، ما رأيك بالقدوم إلى منزلي؟ المنزل فارغ، ليلة ستقضي اليومين التاليين مع أبيها ثم تغادر، سيكون المكان كله لكم».

شكرتها ولم أجد شيئاً آخر يصلح لقوله، تركتني واتجهت لأنور، لتكرر كلامها عليه فيما يبدو؛ فظهر أبي من الجهة الأخرى.

- «حبيتي، لا أريد لهذا أن يؤثر عليك، فكري فقط في حجم الكارثة التي حماكها الله منها، أن لم يكن أحدكما متواجداً في المنزل لحظة حصول ما حصل».

هزرت رأسي بوهن؛ فضم أبي رأسي إليه.

- «اسمعيني، سأطلب من أنور القدوم إلى منزلنا، وسنغادره أنا وأمك هذه الليلة على الأقل، سنبيت عند عمك جواد، أو في منزل خالتك ودود، ما رأيك؟»

قبل رأسي حين لم يجد جواباً، قررت ترك الأمر لأنور، لقد نلت ما يكفي من الانفعال لهذا اليوم، وعقلي ليس مهياً للتفكير بالحلول. كاد يستدير ويتركني، لولا أن تذكرت شيئاً فأوقفته بجزع.

- «أبي، ماذا حدث لصناديقك؟»

نظر إلي وابتسم يرفق، ابتسامة مسرورة لو استطعت استخدام كلمة كهذه في هذا الموضع. لقد وجد الرجال ستة منها بين البقايا، وسيجدون السابع على الأرجح، أما عن حالتها؛ فهي بأفضل حال، كأن ما جرى على كل المنزل لم يجر عليها.

- «كيف؟ أهـي صلبة لهذا الحد؟»

- «عمك حصين لا يغش زبائنه يا ابنة مدرار.»

كذا قال صوت الحداد حصين الجمهوري، ابتسم أبي وشكره بحرارة، بدا
مظهرهما الأريحي شاذاً وسط كل ما يحيط بهما.

(٦)

- «يا صباح الخيرات، هل يطلع قمرٌ بالنهار؟»

ابتسمت باستحياء، صعوبة الليلة الفائتة أجبرتني على النوم حتى وقت متأخر من النهار، كان علي أن أقف وقفة صارمة مع نفسي، الآن أصبحت مسؤولة، وأصبحت لدي واجبات علي أن أراعيها، لا يسعني أن أحيي بنفس الفوضى التي اتصفت بها حياتي.

- «هل نمتَ جيداً؟»

أومأت بابتسامة، لم أنم، لقد متُّ تقريباً.

- «هذا الشعر المنتفش، بنفس لطافته من قبل عشرين عاماً!»

تنبيه جديد، بحرج للممت خصلات شعري المتطايرة، لكن أنور أوقفني بابتسامة مندهشة.

- «لقد قلتُ إنه يعجبني، مظهره لطيف، دعيه أرجوك!»

عدلت هيأته بيديّ كيفما اتفق؛ فبقي أنور يتأمله بهيام.

- «سأخرج لأمر طارئ وسريع جداً، لن أتاخر، وأنتِ تناولي إفطارك، لقد أعدته أُمي، وحفظت نصيبك في المطبخ.»

السيدة مخمل، يا للطفها! نزلت واتجهت إلى المطبخ، كانت تعد وجبة

الغداء، أردت مساعدتها لكنها منعتني بحزم، أنت عروس، لن عملي الآن. أذعنت بامتنان، الحق أنها أنقذت نفسها وابنها وأنقذتني. أعددت كأس الشاي بالحليب العتيذ، وجلست أتناول إفطاري في الشرفة بناء على توصية السيدة مخمل، كانت الإطالة لا تفوت، على مزرعتهم مباشرة! عاد أنور بسرعة كما وعد، حين كنت أتبادل الأحاديث مع السيدة مخمل في صالة المنزل.

لقد فضل أنور الانتقال إلى هنا لعدة أسباب، اقتنعت بها -أظنني فعلت؛ لأنني كنت بحاجة إلى النوم فقط- للآتي: أمه وحيدة في المنزل، المنزل أكبر بكثير من منزل أبي، لو انتقلنا إلى منزل أبي فإن ضرورة مغادرة والدي لا بديل عنها، أما هنا فإن الأمر أسهل.

بدا وجه أنور متعكراً وإن حاول إخفاء ذلك بابتسامته الواسعة ومزاحه المستمر، أكثر من الطبيعي، يثبت أنه ليس بخير بصراحة! نهضت لأملأ دورق الماء بعدما نفذ؛ فسمعت همساته مع أمه دون أن ألقى أذني، صدقاً.

- «كيف سارت الأمور؟ لا يمكنك أن تتنازل!»

- «لا أريد أن أفعل يا أمي، لكن الضغط أشد مما تتصورين، تلك العائلة الحقيرة لا تنوي تركنا وشأننا فيما يبدو، لكنني أعددك أن أغير طريقة تعاملهم لو لزم الأمر، وسيأتي اليوم الذي أرى فيه حلية القدرة متدلية من حبل المشنقة، سيأتي قريباً!»

بدت العبارة مفزعة من فمه، شهقة خافتة صدرت من السيدة مخمل أكدت لي أنني لست الوحيدة التي شعرت بذلك.

- «أنور، أنت لم تأخذ بنت الناس لتجبرها على خوض هذه القصص،

أنت تعرف أن هؤلاء القوم ليسوا هيّين!

- «اهدئي يا أمي، أنا لن أسمح بأن يكون لهم حكم على غيم، ثم إن غيم ليست هيّنة أيضًا، وسأبقى أَدعِمها رغمًا عن حلية!»

عم الصمت لبعض الوقت، لسبب ما تباطأت في تعبئة الماء، الحق أن السبب لم يكن رغبتني في سماع المزيد، أنا فضولية لكن ليس لحد التعدي، ربما أردت فقط أن يفرغ أنور كل ما لديه بلا تحفظ.

- «هذه الحلية، أتصدق يا أنور؟ لم أرد أن أناصبها العداء حين طلقني أبوك ليتزوجها، وحتى مع علمي بأنها لا تريد من هذه الزيجة غير استغلاله والاستفادة من مكانته لم أتدخل. قلت لنفسي إن لا شأن لي بها، لها حياتها ولي حياتي، وامتنعت عن التحدث عنها أو حمل أي شيء في صدري عليها. إلى أن...»

- «أذكر يا أماء، إلى أن تمادت إثر سكوتك، واستطاعت الدخول بيننا وبينك، أذكر أن ليلة لم تكن حمقاء كما كنت، ولم تسمح لها باللعب في رأسها، لكنني فعلت.»

- «كنت صغيرًا وغرًا، وكانت مقنعة، هذا كل شيء.»

- «مرحبًا، هل فاتني شيء؟»

قلتها بابتسامة بريئة وأنا أضع الدورق؛ فاستعاد أنور ابتسامته الرقيقة على الفور، وعجزت السيدة مخمل عن ذلك.

- «غيم، أريدك في كلمة على انفراد.»

- «بالطبع يا أنور.»

نهضنا معًا إلى الشرفة، بدا متوترًا إلى حد ما، لا ينقصه إلا قول:

- «في الواقع.. أردت فقط إخبارك أن هذا الوضع مؤقت، أنا أعمل على شراء منزل جديد، وسأحاول ألا يستغرق هذا وقتًا، لقد وعدت عمي مدرار أن أمنحك منزلًا خاصًا، وسأفعل.»

- «أبي لم يشترط ذلك، صح؟»

- «كلا، لكن.. ما الفارق؟ كل ما أردت سؤالك عنه: هل من المريح لك أن نبقى هنا حتى تلك اللحظة؟ بلا حرج!»

- «هذا ما أردت قوله، نحن بخير هنا، والسيدة مخمل ليس عليها البقاء وحدها، بالإضافة إلى أننا الراحون بالبقاء معها وتناول طعامها، نحن لا نريد أن نجازف بتناول طعام من إعدادي، صح؟ ربما عليك توفير سعر المنزل يا عزيزي.»

للمرة المليون يطالعي في صدمة.

- «لا أحب هذه النظرة، ما المفاجئ؟»

- «أنني في كل مرة أضع فيها حدًا متوقعًا لمدى تفهمك ولطفك وسعة عقلك؛ أجدك تتجاوزينه في المحادثة التالية!»

ابتسمت بخجل، لقد حوّل ما يزعجني إلى مدح مبطن أثق في أنني سأسعد في كل مرة يكرره فيها.

بعد مضي بعض الوقت، صعدت إلى غرفتنا، كنت راغبة في تدوين شيء ملح، جلست إلى المقعد ونظرت إلى النافذة فلم أجد أصيص إكليل الجبل، بحثت في الدرج فلم أجد دفترتي. بانزعاج نهضت، إنها المرة الألف التي أبحث فيها عن أغراضي الهالكة. أردت كتابة تفاصيل قصة السفير الذي ليس سفيرًا؛ كي أفكر فيها بتركيز أكبر.

منذ اللحظة التي أعلن فيها مرض الحاكم جلال، وأيلولة الحكم إلى أنور، عرف الأخير أن النوم سيجافيه من الآن وصاعداً، وأنه حُمل مسؤولية أكبر من أن يتعامل معها بإهمال. الحق أنه أراد التخلص من هذا العبء، وتمنى لو يستطيع، لكن ما منعه عبارة واحدة، قالها له الشيخ الذي يثق في نصائحه وآرائه إلى أبعد حد.

- «إنها أمانة، والقادرون على حفظها ليسوا كثراً؛ لذا، كان من لطف الله أن تُساق إلى أحدهم؛ فليس بملكك أن تتنازل عنها الآن. تتنازل عنها لمن؟ ولأي غاية؟ إن لم تحملها فمن سيفعل؟ وهل تأمن عليها من الضياع بعدك؟»

هكذا أُجبر أنور -ضمنياً- على الاضطلاع بمسؤوليته على الوجه الأكمل، تحت شعار: (إن لم أفعلها فلن يفعلها أحد). بالتبعية، اضطر أنور للتعامل مع قصة السفير وهدنته المشؤومة، كان يتمنى أن يلعن صبحاً ومساءً من أوقعه في هذه الدوامة، لولا أنه كان والده.

بدأ الشك والريبة ينخران نفس أنور تجاه السفير، كانت أسبابه واهية، أكثرها حدس بحت. لم لا يتحدث السفير عن قريته بالقدر الكافي؟ لم لا يجيب أسئلة القوم المبهورين عما في قريته من معالم وتضاريس وعادات وطباع؟ سئل مرة عن اسم القرية، سئل عن ذلك بعد انعقاد الهدنة بمدة غير قصيرة، مما يدل على مدى نباهة المحيطين بأنور، وربما أنور نفسه، لقد كانوا يعرفونهم بـ(ذوو الأعين الزرقاء) عموماً، ولم يتنبهوا للسؤال عن اسم القرية تحديداً إلا متأخراً.

مربط الفرس كان: لم يتلجلج أي سفير عند سؤاله من أي قرية أتى، وأي

قرية يمثل؟ ما معنى أن يستغرق عدة دقائق ليستذكر الاسم وينطقه بارتباك، مع مراعاة حقيقة أنه شخص منطلق اللسان قوي الحجة، أي أن هذا الارتباك لن يأتي لأسباب ضعيفة؟ لم يعرف أنور لمن يتوجه بشكوكه، كان الشيخ مدرار خياره الأول، لولا انبثاق الأزمة الجديدة المدعوة بالصفراوية، وكان عليه أن يتعامل معها بحذر شديد، لا يمكنه ترك الحبل على الغارب -كما يقولون- لها، وليس بوسعه الاصطدام مع عبيدها المتعصبين. الخلاصة أنه تولى الحكم تحت أسوأ ظروف ممكنة.

تأكدت شكوكه مع الهجمات التي شنها الأعداء يوم مسار السباحة، لم يصارح أبي بظنونه حتى تصبح حقائق لها ما يثبتها، لم يرد أن يزيدنا مشكلات فوق مشكلاتنا الأساسية.

في يوم استغل انشغال هتر وشياطينه باستقطاب عربية البهاليل إلى القرية، وامتنطى حصانه ليقطع المسافات -كفارس يستحق اسمه- في هدأة الليل، إلى أين العزم؟ إلى طريق السفر! أخبر أمه أنه ذاهب لزيارة ليلة، وسار على نفس الطريق، لكنه انحرف عند منتصفه ناحية اليمين، ناحية قرية (شُوكة) التي ذكر السفير اسمها بعد كثير تردد، بعد لأي استطاع الوصول إليها، تلتئم وترك حصانه عند أطرافها، وبحذر دخل وهو يسائل نفسه إن كان الجزء الوحيد الظاهر من جسده -عيناه- سيجذب إليه المتاعب. أول شخص التقاه كان راعي أبقار مسنًا، بعينين زرقاوين كالمتوقع، وهو ما أثار دهشة أنور كانبطاع أول؛ فالتعارف عليه عندنا، أن ذوي الأعين الزرقاء لا يعمّرون طويلاً؛ والسبب الواضح لذلك أن طبيعة أكلهم وحياتهم غير متوازنة؛ إذ كيف يمكن لمن يقلص استفادته من النبات إلى الحد الأدنى أن يعيش عيشة سوية؟ كيف يستمر بلا غذاء متوازن ولا علاج ولا أخشاب ولا هواء كافٍ؟ ربما كان الأمر ليصبح منطقيًا لو أن المسن الذي لاقاه أنور كان من

كبار شيوخهم؛ لأنهم معروفون بكونهم يأمرّون أتباعهم بما يخالف الواقع والمصلحة، لكنهم لا يلتزمون بأوامرهم أنفسهم؛ لعلمهم بمدى خطئها. المسألة مسألة استغفال بحث، وقومهم يتبعونهم كالخراف المضللة.

- «أهلاً، أصفر؟»

دهش أنور لوجود من يتحدث لغتنا هناك، ليس أي أحد، بل راع مسن لا يبدو عليه أثر العلم أو الثقافة. لم يبقها أنور في نفسه.

- «أنت تتحدث لغتنا؟»

- «أكيد، الكثير هنا يعرف؛ لأن منهاج الغارسين مكتوب بها، وأهم علوم المعتقد، لا بد أن نتعلمها يا أصفر!»

ازدادت دهشة أنور، أهم غارسوا فسائل حقاً؟ هذا يفسر الأمر! جاس بأنظاره في القرية والتقط انطباعاً مبدئياً، لا تبدو قرية في حالة حرب.

- «هل تبحث عن شيء؟ تحتاج إلى مساعدة؟»

- «أشكرك، أردت السؤال عن.. الزعيم، أو الحاكم هنا، الذي أرسل السفير (أفالك) إلى قرية المروج؟»

اتسعت عينا الأزرق وبدت عليه مخايل العدوانية.

- «قرية المروج؟ القتلة؟ أنت منهم؟»

- «قد.. قتلة؟ نحن القتلة؟!»

- «قريتنا لم ترسل أي سفير إليكم أيها الكذاب، قريتنا لا تضع يدها في يد الظلمة الذين لا يراعون حرمة ولا يخافون الله! اخرج من قريتنا، اخرج قبل ألا تستطيع!»

في دقائق كان أنور ممتطياً حصانه البرق، جائعاً وخائفاً في آن، ومتعباً وحائراً أكثر. لماذا نعتة الأزرق بذلك؟ متى ظلم أهل قرية المروج أي قوم، فضلاً عن ظلم الزرق شديدي البأس!

استمر أنور في السير والظلام يزداد حُلْكة، وقدّر أنه قد يسقط في منتصف الطريق إن أصرَّ على استكمال السير بطاقته هذه، حاول تخمين المسافة التي تفصله عن قرية الربوة، بعد اكتشافه لحقيقة أنه سار في اتجاه خاطئ جعله يدور في دائرة كاملة حول طريق السفر الأساسي. هبط الفرج على هيئة وميض في الأفق، نيران، هناك قرية قريبة، لقد تعلم من خطئه، لن يذكر اسم قرية المروج، ولو كان محظوظاً فإن الظلام سيتكفل بإخفاء لون عينيه، خاصة في هذه المنطقة المدهمة. تأكد من إخفاء نقوده بين طيّات ثيابه، ولم يترك خارجها إلا مبلغاً زهيداً قدر ما يكفيه للبيات وتناول الطعام. لكنه لم يحزر، لقد خرج من قريته باحثاً عن إجابة، والإجابات تقدّر من يسعى نحوها، وتأبى أن تتركه يعود خالي الوفاض.

نزل على القوم، ومن اللحظة الأولى لم يشعر بالراحة، كان معظمهم من الزرق، مع أقلّيات من عدة ألوان أخرى. بثبات أخبرهم أنور بحاجته إلى الراحة والطعام له ولحصانه، وعلى عكس ما حدث في قرية شوكة، تعب أنور كثيراً حتى يجد من يفهم لغته، أخيراً قادوه إلى ما يشبه النزل، فراش حقير، وطعام بلا مذاق، لكنه يفي بالغرض. استلقى أنور وكان في قمة تعبته، إلا أن حركة خافتة أيقظته، ليس أن نومه خفيف في العادة، لكن الجزء الواعي في داخله تفتن لتلك الحركة المريبة المتسللة. بحذر فتح عينيه ودقق النظر إلى مصدر الصوت دون أن يتحرك، ولم يخب إحساسه، إنهم أهل هذه القرية اللعينة، يفتشون أمتعته .. ويفكون الحبل الذي يربط حصانه. عند هذه النقطة قفز أنور وقد أكسبه الانفعال والغضب طاقة أسطورية، كانوا

أربعة رجال، لكنه كان قبيلة في نفسه، أدبهم بمنتهى اللباقة، وامتنى حصانه وابتعد، وتحامل على نفسه حتى وصل إلى منزل أخته ليلة.

في الصباح أخبره قصي -زوج أخته- أن تلك القرية تدعى (غلول)، وأنه ليس أول من يروي عنهم هذه القصص، في الحقيقة، لقد كان أوفر حظاً من كثير من الأشخاص الذين خسروا كل شيء تقريباً، ولم ينجوا إلا بحيواتهم.

- «أنور، هل حدث كل ما ذكرته بالتفصيل، أم أنك تحاول إبهارنا وحسب؟»

- «آه منك يا غيم، أين الثقة في زوجك العزيز؟ أتستبعدين هذه البطولة مني؟»

- «حسناً، لا، لا أظن البطولة تأتي إلا من أمثالك.»

شكرني بامتنان وخجل؛ فضحكت بمكر، لم يتوقع انقلابي المفاجئ للمجاملة.

- «ماذا عن موضوع المعسكرات المقامة في منطقة الجبال؟ ما الذي دعاك لاعتقاد وجود شيء كهذا؟»

- «للأمانة، أنا لم أر هذا الشيء ولم أستوثق منه، كل ما هنالك أنني سمعته من عدة جهات، وآثرت أخذه على محمل الجد.»

- «بالعودة إلى أصل الحكاية، أنت لم تخبرنا بأمر السفير الذي ليس سفيراً!»

- «لقد أخبرنا يا غيم، ألم تعي ذلك؟ السفير قال إنه آتٍ من قرية شوكة، والحقيقة أن أهالي شوكة لا يطيقون المروج ولا ذكراها، بينما تقع قرية أخرى في منتصف الطريق بيننا وبينهم، وجدير بالذكر أن أهلها حارقوا محاصيل،

لا غارسوا فسائل كما هو حال أهل شوكة.»

أوماً أنور مؤمناً على كلام أبي، هزرت كنتفي بلا اقتناع، هناك حلقة مفقودة، لكن هذا لا يعني أن بقية السلسلة غير صحيحة بالضرورة.

مرّت الأيام التالية بسلاسة ووداعة كبيرين، على الأقل بالنسبة لي، كان أنور يمنحني النقود بإسراف غير معقول، ويطالبني بأن أشتري بديلاً لكل شيء فقدته مع المنزل، وعلى رأس ذلك دفترتي الجلدي، ونبته إكليل الجبل. كدت أسأله عن مصدر الأموال ثم عدلت بسرعة، هذا مفهوم تماماً؛ فعدا أنه ابن الحاكم، أنور يشارك أمه في تجارة تؤتي أكلها بشكل ممتاز، عن طريق بيع الرطب الذي تزرعه السيدة مخمل في جهتها من المزرعة، عمالها يزرعون، وأنور يتكفل ببيعه وتوزيعه وعقد الصفقات، ويقسمان الأرباح.

زرت تبر ووادع في منزلها كثيراً، وتجدر بي الإشارة إلى ملحوظة صغيرة هنا، الصفراويون تركوا هذه العائلة وشأنها، إلى حد ما، ولم يضطر وادع للجوء إلى أنور ليستتر عن أنظار عائلته -ريشما يتحسن إثر أذية الصفراويين الدائمة له- منذ مدة طويلة. كان العم جواد قد عاد لبيع البذور والأعشاب، لكن على نطاق أضيق، عبر دكان متناهي الصغر سيّده بمساعدة وادع جوار منزلهم. زرت أبي وأمي مراراً بالطبع، وكانا في حال جيدة، سعيدين لأجلي، وسعيدين في حياتهما بشكل عام، اجتمع عدد من الرجال في القرية واتفقوا على إرسال أطفالهم ليتلمذوا على يد أبي؛ فتحول ديوان منزلنا إلى قاعة تدريس، ودرّ هذا عليه مكسباً مادياً لا بأس به، ورفع معنوياته إلى أبعد حد، بغض النظر عن حقيقة أن كثيراً من طلابه الصغار كانوا يفرّون من الدروس، ويسارعون لحضور حفلات البهاليل. استعادت أمي رونقها وحيويتها وإقبالها على الحياة، وإن لم تفوّت زيارة قبر أختها يومياً لو استطاعت.

بالنسبة لساري.. جديًا، لم أعرف الكثير عنه، تجاهلت صرخات كرامتي مرارًا وحاولت التطفل عليه في المنزل أو المزرعة، لكنني لم أجده، مرة واحدة فقط صادفته أمام منزل عمي جواد، كان يوصل صندوق عنب عملاقًا إليهم، وكان العم جواد يلح عليه في أخذ مقابله، وبدا أن ساري يرفض بصرامة، تصرف عجيب منه بصراحة، ليس رفض النقود، بل مبدأ الإهداء نفسه. حاولت إلقاء التحية عليه فرد:

- «أوه، أهلاً غيم.»

كان تقدمًا رائعًا، لولا أنه قالها بعدما وصل إلى الشارع المجاور حرفيًا، ولم أحتك به بعدها. الصغيران الأزرقان أيضًا اختفيا عن ناظري لفترة، لكن أبي أخبرني أنهما يحضران دروسه بانتظام نسبي، وأن جوهره تزداد ثقة ورغبة في التحدي كل يوم. احتك شهاب بفريد مرارًا، لم يكن يوضح له سبب كرهه الشديد، ولم يخبره أنه يحاول الثأر لجوهره منه، لكنني علمت أنه كان يزعجه بحماس منقطع النظير، وقد وجد هدفًا جيدًا لمقابله بعد أن كف عن إيذاء أطفال القرية الصفراويين.

كانت أيامًا خفيفة، لو لم يكن أنور هو مصدر قلقي الوحيد خلالها، كان شهاب يأتي لاستدعائه عدة مرات في اليوم الواحد، باسم أبيه أو عمه، وكان أنور يغادر بوجه مقلوب ويعود بلا وجه تقريبًا، دائمًا شارد ومخني الظهر كأنه جبالًا ثقلاً تستقر على كتفيه، حاولت التحدث إليه والتخفيف عنه، لكنه رفض بلطف إشراكي فيما يؤذيه، ظننت في البدء أنها مسألة رغبة عمه في انتزاع الحكم، لكنني كنت أتذكر حديثه الهامس مع أمه فتختلط الأمور علي.

توجهت للسوق مرة مع تبر، أخيرًا تركتني السيدة مخمل أفعل شيئًا لمساعدتها، أكثر شيء تدربت على فعله في منزلنا، إحضار الطلبات.

- «تبر، هل غبت عن السوق كل هذه المدة؟ لم هو مزدحم هكذا؟»

ابتسمت بتهكم.

- «أريد حقاً تجربة الزواج، إلى هذا الحد يجعل المرء مشغولاً وذاهاً عما حوله؟»

تورّد خدّاي في خجل فضحكت بانتصار، ثم مالت ملامحها للطف أكثر من السخرية وهي تجيب سؤالي.

- «لقد تلفت الكثير من المزارع في الآونة الأخيرة يا غيم، إما بالحرق أو بالمنّ أو بالإهمال، والنتيجة كانت كما ترين، قلة المحاصيل وضعف جودتها، بالإضافة إلى ارتفاع سعرها الجنوبي، وارتفاع سعر البهائم تبعاً.»

كان هذا جنونياً حقاً، وفكرت في أنه قد لا يشكل مشكلة كبيرة لأشخاص في مستوانا المالي، يستطيعون شراء السلع مهما ارتفع ثمنها، لكن الفقراء؟ كيف سيتعايشون مع هذا الوضع؟

- «لا تشفقي على أحد كثيراً، لقد كانوا أكثر من دعم الصفراوية وشفق لها، وأحبوا تقليد الزرق وإرضاءهم، وهم أول من جنى الثمار المرة من شجرتهم الخبيثة.»

لم يسعني إلا أن أشفق عليهم برغم هذا، جهلة نعم، مستفزون حقاً، سبب تراجعنا بالتأكد، لكنهم لا يستحقون الجوع قطعاً!

استيقظت فجأة في منتصف الليل، إثر شعوري باهتزاز خفيف يأتي من الجهة الأخرى من الفراش، جهة أنور. اعتدلت بسرعة وفزع.

- «أنور، هل أنت بخير؟»

- «هل أزعجتك؟ أنا آسف، واصلي نومك ولا تخافي.»
- لا أخاف؟! نبرة صوته أكثر ما أزعجني! بتخبط نهضت أتخسس طريقي وأتعرث في الأغطية والفُرُش وقطع الأثاث حتى وصلت للمصباح وأوقدته، عدت للنظر إلى وجه أنور، كما توقعت!
- «أنور، أنت.. تبكي؟! ما بك؟ أرجوك أخبرني!»
- «غيم، أنا بخير، حقًا، فقط عودي للنـ...»
- «لا لن أفعل، ولو انقلبت الأدوار لم تكن لتتركني أبكي وتواصل نومك، تكلم يا أنور، مشكلتك هي مشكلتي أيا كانت.»
- بدا شاعرًا بالخرج لأنني رأيته يبكي، لكنني لم أره ضعيفًا أو جبانًا أو أي شيء مشابه، بل على العكس، لقد أفرغتني فكرة أن يبكي أنور، بكل ثباته وقوته وصلابته.
- «غيم، أنا.. أنا حقًا لا أعرف ماذا أقول، أشعر أنني مجرد طفل أناني، لا يفكر إلا بالحصول على قطعة الحلوى التي يجبها، بغض النظر عن الظروف المحيطة به! أنا لا أستطيع الاعتذار حتى، لا أملك مبررًا يشفع لي إقحامك في كل هذا!»
- «على رسلك، ما هذا الكلام؟ .. فيم أقحمتني؟»
- نظر حوله بنوع من الضياع، صببت له كأسًا من الماء وأخذت أربت على ذراعه بتضامن إلى أن استجمع أفكاره.
- «لا بد أنك لاحظت استدعائي المبالغ فيه لمنزل أبي، حسنًا، لقد تدخلت حلية الحقيرة مجددًا، بل وأيد موقفها عمي راغب، وأنا الآن في أسوأ وضع ممكن، بين نارين حرفيًا.»

- «ما الذي يريدانه منك يا أنور؟ أخبرني.»
- «يريدان.. بعد أن احترق منزلنا، وانتقلنا إلى هنا، جنّ جنونهما، لم يكن هذا ما خططا له، بطريقة ما أقنعا أبي بأن وجودنا هنا غير مناسب، وأن الأفضل انتقلنا للسكنى في دار الحاكم!»
- «ما خططا له؟ هل تفترض أن...؟»
- «هل ترين خيارات أخرى؟ الصفراوية هددت المعلمة رؤية بالقتل، ثم قتلت عن طريق الكرات الزجاجية التي يستعملها الزرق، الأمر نفسه حدث لمنزلنا، هل تكره الصفراوية أحدًا بقدرك يا غيم؟ وأنا التالي على قائمتهم بلا شك! ما معنى أن يتضرر أعداء الصفراوية بسلاح الزرق في رأيك؟»
- «سؤال جيد، حسنًا، أكمل.»
- «لقد رفضت طبعًا، ومن وقتها وأنا أتعرض لضغط جنوني، وفي كل مرة أكاد أحكم فيها كلمتي، أجد أن الطاولة تنقلب علي، بحجة أن تواجدي في دار الحاكم مهم على مدار اليوم، وأن تواجد زوجتي في بيت بعيد سيشتتني عن مهمامي.»
- بقيت صامتة، الحلقة المفقودة من جديد، ما مصلحتهم من بقائنا في دار الحاكم؟ نظر إلي أنور وقال بآلم:
- «لم يكن علي أن أجلبك للعيش وسط مجتمع بهذه الدناءة، ما عذري؟ أنني أحببتك؟ ألم يجدر بي أن أبعدك عن الأذى في هذه الحالة؟»
- حاولت أن أحيط كتفيه بذراعي كما يفعل هو وأبي معي، بدا شكلي مضحكًا بلا ريب وأنا متعلقة بكتفيه الضخمين، لكنني شعرت -لعجبي- أن

هذا قد هدأه قليلاً.

- «أنور يا أنور، فكر في الأمر، هذا المجتمع ليس مقتصرًا على المحيطين بالحاكم، القرية كلها تقريبًا أصبحت مكونة من هذه النوعيات. وكما تقول، إن لم يكن أنت من يأخذني؛ فمن؟ بائد؟ قاسط؟ أتوجد نوعيات غيرها في قرينتنا؟»

ابتسم، ضمنيًا، سرّه أنني لم أشعره بالذنب أكثر.

- «وأمر دار الحاكم، حسنًا، لترح رأسك؛ فلننفذ إذن.»

قفز جالسًا، حرفيًا، نظر إلي ولم يتمالك نبرة صوته وهو يصرخ:

- «هل جنت؟ ما هذا الذي تقولينه؟ هل تعرفين معنى العيش في دار أبي؟ الدار التي تعج بالزوّار طوال اليوم، وجلهم -إن لم يكن جميعهم- من كبار القرية الخسيسين الشبيهين بهتر، بالإضافة إلى تواجد عمي شبه الدائم، والمصيبة الكبرى، حلية! هل ستعيشين مع حلية في بيت واحد؟ في بيتها؟ هل تعين ما تقولينه؟ أنا عشت معها، إنها حيّة آدميّة، أتعرفين ماذا فعلت؟ أسمعت عن الحريق الذي أشعلته في علاقتي أنا وليفة بأمي؟»

عرفت بأمر الحريق الذي حاولت إشعاله في علاقة شهاب بأخويه، لكن هذه القصة، حسنًا، لا أنكر أن فضولي انجذب جهتها منذ سمعته يتهاشم مع السيدة مخمل بشأنها.

- «أترين ذلك النخل في مزرعتنا؟ في جهة أمي بالتحديد؟ لا أحد يزرع الرطب في القرية عداها، أتعلمين لم؟»

هززت رأسي سلبيًا؛ فابتسم برغمه.

- «لقد كانت هديتك، أذكركين؟ أنت أهديت أبي بذور الرطب، لكنه

كان.. متضايقاً منك لأبعد حد، ألقاها لي وأخبرني أن بوسعي أخذها، ولم أكن أكثر تقبلاً لها ولك منه.» قالها وضحك بحرج. «ألقيتها بغضب، ووجدتها ليلة في اليوم التالي، سألتنا إن كان بوسعها أخذها وأخذت الإذن منا، ثم انطلقت إلى أمي ترجوها أن تساعدنا في زراعتها.»

ابتسمت بشيء من الدهشة، لم أتوقع أن يكون الموضوع مرتبطاً بي.

- «كانت زراعتها صعبة، لم تعرف أمي كيف تفعلها بمفردها، ولم ترد إحباط ليلة؛ لذلك استعانت بخبراء من قرى أخرى، من بينهم العم جواد، وعرفت طريقة زراعتها، وتذوقت ثمارها، وأرسلت لتستورد المزيد من البذور من مواطنها الأصلية، وتوسعت في زراعتها حتى امتلكت المزرعة التي تريدها.»

صفرت في ذهول، تلك البذرة التي ألقيتها في وجه الحاكم إلقاء مع تمنياتي الحارة بأن تنحسر في حلقه فتخفه، من كان يتصور أن تتسبب في عمار مزرعة كاملة بنخيلها وثمارها الطيبة؟!

- «فيما بعد، وما إن أدركت حلية مدى الثروة التي يمكن أن تحصلها أمي بزراعة الرطب، شعرت أن عليها سرقة شيء آخر منها، بعد سرقة زوجها، وبعد تشويه سمعتها وجعلها أضحوكة لنساء السوق الثرائيات، رأت أن من واجبها سرقة ولديها أيضاً، وسرقة ثروتها ونجاحها بالتبعية. اجتمعت بي وبليلة، وكإبليس شخصياً بدأت توسوس لنا، وتخبّرنا أن على هذا النخل أن يكون لنا نحن، لقد أعطاني أبي البذور، وليلة هي من طالبت بزراعته؛ فلم يعود ريعه إلى أمي وحدها؟»

لويت فمي بضيق، ومن باب التفاعل صحت:

- «لكنها اشترت البذور بنقودها، ما أخذته أنت وليلة لم يكن أكثر من

بضع حبات، لقد وضعتها بنفسى، وشعرت أنها كانت كثيرة أيضاً!»
ضحك أنور باستمتاع، المفارقة أنه كان يضحك دون أن تكف يده عن الارتجاف بغضب.

- «الحق أن كلامها لعب في رأسي، وبرغم أن ليلة كانت أحق بذلك مني؛ إذ كانت من أعلنت رغبتي في أخذه وحصلت على الإذن مني ومن أبي، وكنت أنا من رماء، إلا أنها لم تعر حلية سمعها، واعتزلت دار أبي لأيام كي لا تريها وجهها. أما أنا فقد ذهبت إلى أمي، و.. سببت الكثير من الضجة، كان ذلك محرّجاً بصراحة، خاصة مع ردة فعلها الحليمة!»
- «ماذا فعلت؟»

- «أخبرتني أنني محق، وأنها قد نوت مسبقاً تخصيص حصتين لي ولليلة؛ لتكون بمثابة تأمين للمستقبل. في تلك اللحظة بدأت أراجع، وأستمع إلى تحذيرات ليلة ونصائحها المتعقّلة، أي نخل هذا الذي يستحق أن أفسد علاقتي بأمي لأجله؟ فليحترق النخيل كله، ولتتحرق حلية الشيطانة معه! عدت واعتذرت، ورفضت أخذ شيء مما خصصته لي، وكذا فعلت ليلة. لكن أمي عادت قبل سنوات للحديث عن الموضوع، وأخبرتني أن هذا ما سيسعدنا، وبناء على ذلك، كما ترين، حصلت على نصيب من مسؤولية النخل، ومن ربحه، وحصلت ليلة على بعض الأموال، قررت أن تستثمرها بشكل ما في قرية الربوة.»

قصة رائعة، لثانية نسيت ما كنا نتحدث عنه.

- «ما أردت قوله، أنني أدرك تماماً معنى بقائك مع حلية في نفس المنزل، معناه أن تبقي تحت ناظريها طوال الوقت، أن تدبر لك الشراك والمكائد وتحيل حياتك إلى جحيم، هذه اللعينة تستطيع جعلك تكرهين نفسك بكلمة

واحدة، تعقلي يا غيم، وابحثي عن أي حل آخر!

عادت ثورته غير الطبيعية في لحظة؛ فاتضح لي كم أن الأمر يضغط على أعصابه؛ لذا حاولت أن أبدو هادئة قدر الإمكان.

- «هل تظنني لا أعرف كل هذا يا أنور؟ فكر في الأمر، لم طالبت بي إن لم يكن لإفساد حياتي؟ لكن في المقابل، ستمنع هذه المشكلة الكبيرة -بصراحة- مشاكل أكبر، وأيًا كان ما تخطط له حلية ومن معها؛ فإن الذي حماني من شرهم وأنا في منزلي، سيحميني من شرهم وأنا بينهم. ثم، ما البديل؟ ستمنع عن تنفيذ أمر أبيك اليوم، وغداً، وبعده، إلى متى؟ هو لن يتوقف، وسيلاحقك بحجج وأسباب أقوى، وسيساعده الخناسون على حصرك في خيارات لن تستطيع النجاة منها.»

- «كل هذا لا يرر التضحية بك، لقد أردت أن أجعل حياتك سعيدة، أولاً وعدتك بمنزل مستقل وأخلفت، والآن ارتحت في منزل أُمِّي، وأزعم أنها -على الأقل- لن تسعى لإفساد عالمك، لن أسمح بعيشك في مكان آخر، حسناً؟»

- «أنور، لننتحدث بصراحة، إن كان هدف حلية من إحضاري إليها مفهوماً؛ فما عساه يكون هدف عمك؟»

نظر إلي بحيرة وشيء من الفزع؛ فقلت بمرارة:

- «بالضبط، إنهم ينظرون إلي كرهينة الآن، نقطة ضعفك، سيقونني بينهم حتى تطيع أوامرهم راغماً، ببساطة أشد، إنهم خائفون منك ومن أفكارك المخالفة لمصالحهم. في الآن نفسه، هم لا يريدون لي أن أبقى حرة كما كنت، حريتي ستعيق مخططاتهم، هم لا يحبون نبشي وراء قراراتهم وأفكارهم وغاياتهم الدنيئة، واحتجازي -الضمني- بينهم سيجعلهم يرتاحون من شري

بشكل سلمى!»

- «هل تطمئنيني الآن؟ هذا يجعل من ذهابك إلى هناك أبعد إليهم من لمس نجوم السماء!»

- «أظنه الخيار الأهون، لا تنظر إلي هكذا، حلية أرادت قتلي من قبل، ولم يتأذ أحد منها ومن عائلتها مثلما فعلت؛ فلا تظن أنني مرحة فعلاً بفكرة الذهاب. كما أنك تعرف كم أحب التقصي والبحث والعمل بحرية، لكن المسألة أنهم يريدون لي ذراعنا، ويشعرون أن سيطرهم علينا ستم بهذه الطريقة؛ لنفعل ما يريدون إذن، ونر إن كان الحبث كافياً للسيطرة.»

- «أنت تتعاملين مع الأمر كأنه لعبة، أو كأنها قصة تقرأينها من كتاب، غيم، أفيقي بالله عليك!»

صمت قليلاً، وبتمهل قلت الشيء الذي كتمته من البداية:

- «هناك طريقة واحدة، لتحرر نفسك وتحررني من شرهم.»

اتسعت عيناه بلهفة؛ فقلت بعد لحظة تفكير:

- «أن تسرع بإيجاد حل، أن تؤدي واجبك كحاكم سيُسال أمام الله عن طريقة سير الأمور في قريته، أن تتصرف يا أنور، وتفعل ما يجب عليك أن تفعله!»

- «أنا أحاول، هل تظنين أنني غافل عنه؟ لكنني لست ساحراً يا غيم، أنت ترين ما نحن فيه، أنا أريد إيجاد حل، قد أجده وقد لا أفعل، إنها مجرد مقامرة! وحتى لو ضمنت إيجاداه، أنا لن أسمح بجعلك الثمن!»

- «يا للروعة! زوجي سيسطر اسمه بين جنات التاريخ، وسيصبح بطلاً يتناقل الناس سيرته للأبد، مثل الحاكمين رشيد وجسار، لكن بالشرف

لا الغش! بقي فقط أن يعرف ما سيفعله!»

- «غيم، لوهلة شعرت أنك لم تستيقظي من النوم، هل حقًا لا تبالين بالأمر لهذه الدرجة؟»

- «ما دمت تسأل عن الحقيقة؛ فنعم، أظن أنك تعطي الأمر أكبر من حجمه، اعذري يا أنور، لكن على المشاكل الأصغر أن تتنحي لتدع المجال للمشاكل الأهم.»

كنت كاذبة، وأعرف أنني كاذبة، فزعي من فكرة الذهاب إلى هناك يفوق الوصف، وفكرة وجودي تحت سيطرة حلية وفي منزلها أسوأ بالنسبة لي من الموت. لكنني وضعت اعتبارًا آخر، أنور يكاد يجن، هو خائف علي أكثر من نفسي، وحين يراني غير مبالية إلى الحد الذي أظهره؛ سيهدئ من روعه قليلًا، ويضطر للتماسك، ثم للعمل على إخراجنا من هذه الأزمة.

- «ماذا؟! البقاء في منزل حلية؟ ألم تجدا فكرة أفضل؟ لكن لم؟ منزلنا مفتوح يا غيم، ومنزل مخمل، ومنزل ودود!»

- «أمي، نحن لم نختر ذلك قطعًا.»

لم ينطق أبي بحرف، كان الضيق يغلف وجهه كما لم أره من قبل، جلس عائدًا ذراعيه على صدره وساكنًا بطريقة محطمة للأعصاب.

- «لكنني سأكون بخير، أعدكم.»

- «لم تظنين أن هذا الخيار سيكون بيدك؟»

قالها أبي وهو يتأمل البساط، توقعت أن يشجعني ويعطيني دفعات أمل المعتاد، خاصة وهو يتفهم المشكلة بلا ريب.

- «لقد جنيت عليك يا غيم، ساحيني يا ابتي.»

بفزع صرخت:

- «أرجوك يا أبي، أرجوك ألا تقول ذلك، أبي، صدقني، الوضع سار على الجميع، القرية كلها أصبحت شبيهة بالغابة، وما فعلته أنك ساعدتني على العيش في هذه الغابة برفقة شخص شهم ومسؤول بدلاً من أي شخص آخر!»

- «سعيدة مع أنور؟»

- «كثيراً، الحمد لله، إنه مثلما تأملت وأكثر!»

هز رأسه بمعنى أن هذا هو المهم، أعرف أن ضيقه لم يكن من أنور نفسه، لا داعي لتكرار كم يقدر أبي أنور.

- «أبتي، لم أنت...؟ أعني، أنت بخير؟»

أوماً مجدداً بمعنى نعم، لكن نظرة جانبية من عيني أمي أكدت لي أنه ليس كذلك إطلاقاً، أخفيان شيئاً عني؟

- «جوهرة وبدر، يظنان أن خبر حضورهما لدروسي وزفافك قد وصل إلى أخيهما بشكل ما.»

يا إلهي! ليس هذا! كدت أفتح فمي وأجيب، لولا أصوات الجلبة العاتية التي صدرت من وراء باب المنزل، تلتها طرقات همجية تكاد تقتلع الباب من محله، مع نداءات بصوت رعدي تطالب (الأصفر) بالفتح. أمرنا أبي بالصعود للأعلى، ابتعدت أمي فوراً وتباطأت قليلاً، بتمهل فتح أبي الباب لتدخل الزوبعة منه، طار أبي عدة خطوات للوراء؛ فتسمّرت مكاني بفزع، وتشبثت عيناى بالباب في انتظار تفسير ما، فجأة ألقى بدر وجوهرة على

الأرض إلقاءً، وتبعهما جسد كجسد الثور، طولاً وعرضاً، وشخصية كشخصيته، همجية وجنوناً، ومن وراء الثور، دخل ذلك الصبي الناحل ذو العينين الخبيثتين.

- «من حسن حظي أن ابني فريد كان متيقظاً لكم أيها الخبثاء، واستطاع مراقبة ذلك الصبي اللعين ابن الحاكم، ورآه مع جوهرة وبدر، أتعشون بعقلي ولدي؟ تجعلونها يحضران زفافاً فيه طقوسكم الفظيعة؟ أتعلمونها العنف والفساد؟ أنت تفسد عقل أبنائي أيها الأصفر؟ كيف تجرؤ؟ هل تتعدى على حارق محاصيل أيها الغارس اللعين؟ هل تظنني سأسكت عن هذا؟»

- «أنت، الزم حدودك، وتحدث إلى أبي جيداً!»

لم أستطع منع هذه الجملة من الخروج، وبأقوى نبرة ممكنة، فطنت إلى وضعي حين انتقلت أنظاره إلي؛ فسحبت مفرش الأريكة لأستر به وجهي كيفما اتفق.

- «أنت غيم القذرة إذن؟ أنت من أعطاهما الحلوى، ودعاهما للزفاف، ألسنت من تهجم علينا أول قدومنا لهذه القرية الحقيبة؟!»

- «أنا لم أتهجم على أحد، من تظنني؟ حارق محاصيل أخرج؟»

تحرك الصبي بسرعة وقوة أكبر مما توحى بهما بنيتة الضئيلة، لم يكن عمره يجاوز الثالثة أو الرابعة عشرة بحال، لكن أؤكد أنه كان قوياً كرجل بالغ، انقضّ علي ولكنني في كتفي بكل قوته، اختلّ توازي حين طارت كتلة الشعر البنية للداخل، كانت قامة شهاب نصف قامة الولد، لكنه كان ثائراً جداً، انقضّ بدوره على الصبي وأخذ يتعارك معه بضراوة.

- «أيها الوقح، لا أحد يتعدى على غيم في وجودي!»

انقلبت صالة المنزل إلى ساحة حرب، وانفجر الصغيران الأزرقان في البكاء، لم يبدوا بخير على الإطلاق، هجم الأب على أبي وجذبه من تلايبه؛ فوجدتني عاجزة عن الوقوف أكثر. بلا تردد أخرجت هدية وادع التي منحنيها يوم الزفاف، والتي حرصت على ارتدائها في كل مرة أخرج فيها من المنزل مع ظروف القرية هذه. استللت الخنجر القصير -الذي دقته يدا الحداد حصين القويتين- من غمده على خاصرتي، وفي غفلة من الجميع، كان نصل الخنجر يتوجه إلى رقبة الصبي البارک فوق شهاب.

توقف الولد فوراً واتسعت عيناه بذعر، وتجمد والده في مكانه.

- «ابتعد عن أبي، هيا! وأنت، اترك شهاب!»

تبادلا النظرات، لم يكونا على استعداد للإذعان، لكن هبط الفرج على هيئة.. أنور يدلّف من الباب بتمهل مستغرباً من بقائه مفتوحاً على مصراعيه هكذا. طالع أنور الوضع حوله بذهول أولاً، ثم انقلبت ملامح وجهه بطريقة مرعبة، في حين ارتجفت يدي الممسكة بالخنجر، وعادتني الرغبة السخيفة في الانهيار والبكاء حالاً.

- «شهاب، استدع رجال الحماية، هيا.»

نهض شهاب بسرعة ممسكاً بعينه ودموعه معاً، أوقفه أنور ثانية ليلقي نظرة على عينه، ثم جعله يتابع طريقه. كان الأزرق يعرف هوية أنور، وما إن توجهت أنظار الأخير إليه بشراسة حتى أفلت ملابس أبي، بثورة اقترّب منه أنور.

- «هل تعرف من يكون هذا الرجل؟ أنت لست كفؤاً لتحمل نتيجة هجومك الأرعن، أنت لست كفؤاً لتحمل ما سأفعله بك! تقتحم المنزل وفيه نساء، وتمارس هذه الهمجية هنا؟ أين تظن نفسك؟»

كان الرجل يتقلب بين خيارين، أن يتلع كلمات أنور بصبر كي لا يتورط في مشكلة أكبر، أو أن يستمر في همجيته للنهية. لم ينتظر أنور إجابته، وانتقلت أنظاره إلى الصبي.

- «تمد يدك على امرأة؟ وداخل منزلها؟ وهذه المرأة - لسوء حظك - تكون زوجتي؟! ليس هذا فقط، بل وتضرب أخي، هل ستتحمل عاقبة ذلك أيها الولد؟!»

ارتجف الولد ونظر إلى الخنجر في يدي، لقد خفضته، لم تعد لإشهاره أهمية، أمسك أنور بملابس الرجل من عند كتفه، وباحتقار شديد جذبه ليوقفه عند الباب، وانصاع الرجل له في غيظ مكبوت.

- «أمامي، هيا إلى دار القضاء، خذوه.»

كانت هذه لرجال الحماية الذين وصلوا أخيراً، أحاطوا به ودفعوه للسير معهم فأطاعهم راغماً، أشار أنور للفتى ليلحق بأبيه فامتل. توقف الرجل فجأة واستدار، قال بحدة:

- «لن أترك ولديّ هنا، أريدهما معي!»

نظر أنور للصغيرين فأخذا يعويان بفزع، لا يريدان، أمسك شهاب بكم أنور ورجاه باكيًا ألا يتركهما له، نظر إلي أنور فبادلته نظرة متوسلة، قال بصرامة:

- «أنه مشكلتك عند القاضي أولاً، ثم سنرَ موضوعهما.»

- «أنت لن تمنعني من ولديّ، هذا ليس من حقك!»

- «قلت اذهب، ثم سنرى!»

دفعه رجال الحماية وابتعدوا به؛ فسقط الخنجر من يدي. أبي أيضًا ارتمى

على الأريكة بألم فظيع وهو يمسك بقلبه، أطلت أمي برأسها من الأعلى في دعر، ووجدتني أركض لأتفقد أبي بلوعة.

- «أبي، ما بك؟ أخبرني، هل أصابك مكروه؟»

أغمض عيني ولم يجيني؛ فتبادلت نظرة فزعة مع أنور، هبطت أمي عن الدرج بسرعة وأحضرت ماءً، لكنه مخلوط بشيء ما.

- «خذ العلاج يا مدرار، ستتحسن.»

- «عد.. علاج؟! أبي يتناول علاجًا؟ لم؟!»

بضعف رشف أبي من الماء، وريت على كتفي يطمئنني، أنهى تجرع الشراب فاعتدل بسرعة ونهض متحاملاً على نفسه.

- «إلى أين يا عمي؟»

- «إلى دار القضاء، أأست مطالبًا بالحضور؟!»

برفق أجلسه أنور، وقال بحزم:

- «لا أحد يطالبك بشيء، سأتولى الأمر، خذ قسطاً من الراحة فقط.»

ثم ألقى نظرة جانبية على الطفلين.

- «لم يكن من الصحيح أن تعطي دروساً لصبيين أزرقين من حارقي

المحاصيل، أعني...»

- «أنور!»

- «لا يا غيم، أنا لا أقصد هذا، ما قصدته أن الجميع متربص بالشيخ

مدرار في هذه الآونة، وأنهم لن يكذبوا خبراً ليسئوا إليه ويضايقوه.»

- «أرجوك يا أنور، هذا ليس وقته.»

- «هل ستعيدوننا لأبي؟»

قالتها جوهرة بحذر وفزع شديدين، قال شهاب بسرعة:

- «أرجوكم ساعدوهما، سيقتلهما لو عادا إليه!»

- «لا تخافا، أنور سيتصرف.»

نظر إلى أنور مبهوراً، لقد ورّطته، تعمدت هذا، أعرف أنه سيجد حلاً من تحت الأرض ما دامت آمالي معلقة عليه.

- «سأرى ما يمكنني فعله.»

- «آآ.. هل أستطيع قول شيء؟ لقد أتيت في الأساس لـ...»

ارتبك شهاب فجأة؛ فأمره أنور بالتحدث.

- «أرسلني عمي راغب، يقول إن غيم تأخرت في القدوم.»

اتسعت عينا أنور بغضب، أمسكت بكتفه أهدئه وأخبره أنه لا بأس، نظرت لوالديّ؛ فأسرع أبي يأمرني بالانصراف، قبل أن تتطور المشكلة. كالذهابة إلى المشنقة، ودعت والديّ وخرجت من المنزل، في حين اتجه أنور لدار القضاء، بعد أن قال للصغيرين شيئاً ما، مررت على وادع وطلبت منه إحضار العربة لنقل أمتعتي القليلة، وفي الطريق حكيت له كل شيء.

- «مرحباً حببتي، لقد عدت.»

قالها أنور متظاهراً بالابتهاج؛ فابتسمت له متظاهرة بالمرح، وتابعت إخراج المنديل الحريري الصغير الذي أهدتنيه تبر يوم الزفاف -والذي طرّزت على طرفيه اسمي واسم أنور محاطين بالزهور- وفرشه بعناية على

المنضدة الصغيرة جوار الفراش، ثم أخرجت السبحة ووضعتها فوقه، السبحة البيضاء التي اشتريتها وفككت خرزاتها وأعدت نظمها، لكن بعد وضع الخرزة السوداء القديمة ضمنها، وامتدت يدي لتخرج الدفتر الجلدي الجديد، الذي ضمّنته الصفحة الناجية من الدفتر الأول. تأمل أنور الغرفة وقال:

- «لقد أفرغت كل شيء! كنت أنوي مساعدتك.»
- «لم أجد شيئاً أفضل أخرج فيه هم.. أعني، أنشغل به؛ لذا فضّلت أن أرفع الصناديق إلى هنا وأفرغها.»
- «أنت.. فعلت ماذا؟ أحقاً حملتِ الصناديق بنفسك؟»
- «ومن سيفعل ذلك برأيك؟» قلتها بابتسامة فاترة.
- «ألم يكن وادع معك؟»
- «رفضوا إدخاله إلى هنا، قالوا إن الحاكم بحاجة إلى الراحة.»
- أغمض عيني به غضب، وقفت أشعل الشمعة التي انطفأت داخل المصباح؛ فتنحنح أنور وبدأ كلامه.
- «غيم، أريدك أن تعرفي أنني حاولت، واستخدمت صلاحياتي حتى النهاية، لكنني فوجئت بعزل القاضي فيصل، نفذ بجلده. واضطربنا للمثول أمام قاض عيّنته الصفراوية؛ لذا...»
- «أرجوك يا أنور، بلا مقدمات، ماذا حدث؟»
- «حسناً، في الواقع.. لقد.. حكموا على الشيخ مدرار بالإقامة الجبرية داخل منزله.»

استدرت إليه بفزع، لم أتوقع خبراً كهذا، لقد كان الأزرق هو المعتدي!

- «لكن لم؟ بأي تهمة؟»
- «تغيير المعتقدات. لا أعرف متى ظهرت هذه التهمة، لكنها كانت مدونة في لائحة القوانين.»
- ارتيمت على الفراش في صدمة.
- «هل تقول إن أبي.. الشيخ مدرار.. سيُسجن داخل المنزل؟ بلا تدريس، ولا عمل، ولا حركة؟ إنهم يقتلونه!»
- دمعت عينا أنور واحتشدت الكلمات في حلقه، يريد أن يعتذر، لكنني سمعت ما يكفي من صيغ الاعتذار حتى الآن.
- «لا أريدك أن تقلقي، سيكون لديه ما يحتاج إليه من مال أو...»
- «أبي لا يريد مالاً يا أنور، أبي يملك ما يكفيهِ ويزيد، ولو لم يكن عنده غير نصف قطعة فضية فإنها ستكفيه وتزيد. أبي لا يريد إلا أن يكون حراً، وأن يمارس ما يمليه عليه ضميره بلا قيود!»
- «أنا.. أعرف.. لكن...»
- لا يملك ما يقوله، ولا ما يفعله، أعرف ذلك. لكن مجرد التفكير في حال أبي الآن يطير عقلي، لقد كان قلبه متعباً؛ فماذا سيحل به الآن؟
- «غيم، عندما دخلت، بدالي أنك.. كنت تبكين؟»
- «كنت متضايقه فقط، لكن ليس حد البكاء.»
- «ومن الذي ضايقت؟ لا تقولي إن المضايقات بدأت من الآن!»
- «ما بك يا أنور؟ هل نحن متفاجئان من هذا؟»
- أصرّ أن أخبره؛ فتجاهلته تماماً، كيد نساء، ليس مما يستحق القصص.

- «حسنًا، بالنسبة للصغيرين الأزرقين...»
- نظرت إليه بترقب متوقعة الأسوأ، لقد انتهيا عند هذا الحد، سيعزلهما والدهما، سيعذبها ويعنفهما ويفعل أي شيء ليجعلهما يعودان لمعتقده.
- «لقد هربا من والدهما.»
- «م... ماذا تقول؟ كيف؟ وإلى أين ذهبا؟»
- «كنت أتحدث إليه عند منزله، على فكرة، لقد أوقعت عليه عقوبة أيضًا، غرامة بمقدار.. بضع قطع فضية تقريبًا. كنت ألعبه في الواقع، وأخبره أن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، في حين كان الصغيران يقفان في قبضة أخيهما النذل المبتسم بانتصار. دوى صوت انفجار جديد ففرع الصبي؛ ليفلت الولدان من قبضته، ركضا بكل قوتها وانتفض أبوهما يعدو وراءهما، لكن للأسف، وُجدت قدمي في طريقه عن طريق الصدفة، سقط على الأرض وغاب الولدان في الأفق، ساعدته لعلمك، جعلت رجال الحماية يبحثون عنهما، لكن لم يجدوا لهما أي أثر.»
- خبر سعيد مخيف، قلت لأنور بارتباك:
- «أين يمكن أن يكونا؟ ماذا لو أصابها مكروه؟»
- «سيكونان في أمان، بوسعي فعل شيء مفيد بعد كل شيء.»
- قالها وابتسم ابتسامة متشنجة، كان علي أن أفهم، خبر شبه جيد. سألتها إن كان سيبقى مستيقظًا فأجاب بلا، بدون كلمة إضافية أطفأت الشمعة التي أشعلتها للتو، وخلدت للنوم، أو للتظاهر به.

كنت أبكي بين ذراعي وادع، بصعوبة استطعت الإفلات من حلية

ومغادرة المنزل، لم تكن تشبه السيدة مخمل في شيء، ولم أتوقع منها أن تكون كذلك على أي حال، لكنها كانت حقيرة إلى درجة لا تصدق، كانت تستمتع برمي الكلمات اللاذعة في كل لحظة تراني فيها، تسخر مني وتنتقصني في كل تصرف، بصعوبة كنت أتلافى الرد، لا أريد تصعيد المواقف، لكنها كانت تثير جنوني بلا مبالغة. الأسوأ أنها كانت تهددني، لم يريدوا تتبع تحركاتي فقط، بل أرادوا منعي من التحرك بالكلية، عن طريق لي ذراعي بأنور! كانت تكرر بمناسبة وبلا مناسبة أن الضغط سيزيد على أنور لو لم أستمع إليها، أي ضغط؟ كيف ستزيده؟ لا أحب أن أعرف.

بشكل ما أصبح وادع وجهتي الأولى للشكوى والبكاء والبوح، لم أختبر شخصيته المواسية كثيرًا من قبل، لكنه فاجأني أنه كان رائدًا في هذا الميدان، حتى سكوته كان يحمل تعاطفًا ومشاركة كفيلين بتحسين المزاج في التو.

- «أنا لم أصدق الخبر حين سمعته، الشيخ مدرار، يخضع للإقامة الجبرية؟ ألهذا الحد لا يراعون قامته أو هيئته؟ لقد كان قدوتنا في الصغر، والكل يراه مثال القوة والعلم؛ فما الذي حدث للناس الآن؟ لماذا يهان الشيخ مدرار، وينصرف الناس لتبجيل ذلك اللاهي عازف البهاليل ورفاقه، ويتطلع الصغار ليصبحوا مثله ويحاولون تقليده ويرددون كلماته وتصرفاته المماجنة؟»

- «كانت القرية تسير في هذا الطريق من البداية، لم يفاجئني ذلك، لكنه ألمني، برغم كل تأهبي له.»

مسح دموعي بيديه، لم يكن بارعًا في صياغة الكلمات، لكنني لم أكن محتاجة إلى من يطرني بالكلمات المرتبة من الأساس.

- «ما أردت قوله.. بعد إذنك يا أخي، أنا.. أنا تحت الإقامة الجبرية

بشكل ما أيضاً، وأخاف أن يحتاج والدائي إلى...

- «بدون أن تطلبي، لن ينقصهما شيء بإذن الله، لا تنسي أنهما أبواي أيضاً. أعانك الله على ما أنت فيه.»

ابتسمت تقريباً، وشكرته. فجأة توقف حصان جوارنا، لم أرفع رأسي لأرى راكبه، كنت أعرفه. قفز ساري ونظر إلينا بلا أي تعابير.

- «ماذا يا وادع؟ هل تريد شيئاً مني؟»

أخذ وادع يشير جهتي، يريد أن ينبه ساري إلى وضعي الذي يراه جيداً، ويتجاهله عن عمد.

- «ماذا؟ أوه، أهلاً غيم.»

قالها بكل برود الدنيا ثم عاد يتوجه بحديثه إلى وادع:

- «لم تخبرني لم استدعيتني.»

- «وادع، لقد طلبت رؤيتك وحدك، هل سألتني قبل أن تتصرف من تلقاء نفسك وتجعلني فرجة لأي أحد؟»

- «غيم، أنت طلبت لقاء أخيك؛ لذا...»

- «أجل، أخي، انتهى الأمر هنا.»

- «إذن لا سبب لتواجدي هنا؟»

قالها بعملية واستدار عائداً لحصانه؛ فجئ جنوبي.

- «أنا لا أشحذ الشفقة يا وادع، أتفهم؟ أنا لا أتوسل لأحد كي يكون جوازي حين أكون بحاجة إلى سند، غيم مستغنية عن أي نذل، وقادرة على تحمل أي شيء، عدا إرافة كرامتها! أتعرف ماذا؟ لا شيء يبرر لأحد إهانتني

بهذا الشكل، ولو أخطأت مرة؛ فإن غيري أخطأ ألف مرة، مع فارق أنني أسرفت في الاعتذار فقبولت بالإهانة، في حين أنني كنت أسامح بلا اعتذار حتى!

لم يسمع نصف ما قلته؛ لأنه كان قد امتطى حصانه وانطلق كأنني لا أتحذ أصلاً. بقيت ألث بانفعال متمالكة دمعاتي، ربت وادع علي بحزن وشيء من الشعور بالذنب.

- «آسف، لم أتخيل أن يتصرف هكذا.»

- «لا عليك، أنا أيضاً تمنيت أن يكون معي في هذا الوقت.»

بحث عن شيء يقوله، ولم يجد غير:

- «والداي وتبر يرسلون سلامهم لك.»

- «اشتقت إليهم فوق ما تتصور، سأحاول زيارتهم في أقرب فرصة، إذا جاءت.»

هز رأسه بتفهم، لا أحب أن يسيطر أحد علي، والداي لم يفعلوا ذلك، لكنني تحت التهديد حرفياً، ولا يجدر بي التأخر أكثر.

- «غيم، أتعرفين ما الذي تيقنت منه؟ أن الصفراوية ليست صفراوية، أعني.. هم لا يهتمون لأصفر أو غير ذلك، إنهم يهتمون بمن يوافق هواهم فقط، أصفر أو أزرق أو قرمزي، انظري إليهم، هل احترموا لون عينيك أنت وعائلتك؟ أو المعلمة رؤية، أو رجل الحماية وطيد؟ لقد احترموا والد الصغيرين الأزرق أكثر من ذلك بكثير!»

لم يستطع صياغة فكرته على النحو الأمثل، لكنني فهمت مراده.

- «على فكرة، هل عادوا المضايقتك؟»

- «ليس بعد أن امتنع وادع عن كونه وادعاً.»
- بدهشة وشيء من الاستبشار سألته:
- «ماذا فعلت بالضبط؟»
- «لم أفعل الكثير، لم أسمح لهم بالتعدي علي فقط. أمسكت بقاسط في جهة بعيدة، وعلمته كيف يتقاتل الرجال، بلا ألأعيب، وبلا خبث، وبلا تقييد، وبلا أعداد كبيرة مقابل واحد. كنت على وشك أن أحطم يده، لكنني عدلت عن ذلك، حتى يتذكرني في كل مرة يستعملها فيها.»
- برغمي ابتسمت، انتصار يستحق الفرح. استأذنت منه وأخبرته أن علي العودة فوراً، وطلبت منه ألا يدعو ساري مجدداً دون إذن.
- «يؤسفني ما وصلت إليه علاقتهما، أعني.. مرة تأمنيه على نفسك إلى حد الذهاب معه إلى منطقة الجبال، ومرة نحضر أنا وأنور بأسلحتنا لتأكد من أنه لن يؤذيك!»
- «بغض النظر عن كل ما تقوله، شكراً لذكرك أمراً غاية في الأهمية: كيف عرفت بأمر ذهابنا إلى الجبال؟»
- «لست من عرف، بل تبر، كانت في السوق، وسمعت امرأة ثرثارة تقف عند دكان بُسُط، كانت تقول إنكِ سألتها عن مكان عيش العجوز صباية، وإن ساري تبعكِ.»
- تلك المرأة في السوق! وأنا التي أعطيت الأمر أكبر من حجمه، وخفت من فكرة أن أحدهم يراقبني! الحمد لله.

(٧)

سارت الأيام التالية على النحو الذي تصوره: الجحيم مجسداً، حلية كانت تزداد حقارة في كل يوم، وكانت تمنع شهاب من التحدث إلي، وتتعمد إهانتي أمامه. الأسوأ يحدث حين تأتي أختها وابنتها لزيارتها، في هذه اللحظة لا أتمنى إلا كرة زجاجية تنفجر في المكان. وكان برّ الأمان بالنسبة لي، ذلك الجناح الصغير المخصص لي ولأنور، غرفة بحمامها، كنت أعتصم فيها وأمتنع عن الخروج إلا للضرورة القصوى، حين تحدث حلية معمة لأنني لم أشارك في الطبخ أو التنظيف، برغم وجود ثلاث خادmates لا يتوقفن عن العمل.

لم أكن لأزيد هماً على همومه، يكفيه ما يلاقيه من محاولات منع البهاليل من جوب المنازل وإغراء الأطفال باحتفالاتهم، وحال السوق المتدهورة ونقص الموارد والأغذية، والحرائق التي تتزايد يومياً من المتخيلين عن هوياتهم، والتي تطال - غالباً - أهدافاً أكثر مما أراد أصحابها، والانفجارات!

- «غيم، لم لا تغادرين المنزل؟ لم لا تزورين والديك وعائلة العم جواد؟»

- «أنا.. أزورهم..»

- «كلا، أنت لا تفعلين، أنا عائد من عند عمي مدرار للتو!»

ابتلعت ريقى ولم أقل شيئاً، قال أنور برفق:

- «أهناك ما علي معرفته؟ لا يجدر بك إخفاء شيء عني، لاحظني أننا

وحيدان في هذا المجتمع القذر.»

ابتسمت ابتسامة سقيمة ونفيت وجود شيء، لست واثقة من مدى قدرة حلية على تنفيذ تهديدها. قال بابتسامة مصطنعة:

- «أهو سجن فوق السجن؟ لا أعرف لم تفعلين ذلك، على الأقل، لم لا تغادرين الغرفة؟ اخرجي أرجوك، وإذا حاول أحدهم توجيه ربع كلمة لك فضعي إصبعك في عينه! اجلسي في المجلس والشرفة وكل مكان!»

- «أنا بخير هنا، ثم.. لا يكون المكان خاليًا دائمًا.»

- «هذه الجهة مخصصة لأهل المنزل، لا ضيوف يدخلونها.»

- «أعرف، عנית.. عمك، أحيانًا..»

نظر إلي بعدم تصديق، تحول إلى غضب وهو يكرر بتمهل:

- «عمي، يدخل إلى أين؟ ما الذي يريد به بالدخول؟»

هززت كتفي شاعرة أنني سببت مشكلة، صمت أنور وشرد ذهنه وتمعر وجهه. ثم انتهى الحوار هنا، واستمر الحال على ما هو عليه لفترة إضافية، إلى أن أتى اليوم الذي لم يكن بوسعي أن أسكت بعده:

كنت في المطبخ، أجفف الأواني توطئة لرصّها في الرفوف، كان هذا حين سمعت صوت خطوات قريبًا، ثم نحنحة رجل، راغب. كدت أنبهه إلى وجودي، لولا أن أوقفه غيري.

- «راغب، ماذا تفعل هنا؟ تلك اللعينة قد تكون في أي مكان، أخبرتك أن تحذر منها ريثما أنتهي من تدابير بشأنا!»

- «لا أهتم يا حلية، لقد نفذ صبري، إلى متى سنبقى في هذا الانتظار المميت؟ يجب أن نفعل ما يسرع الأمور.»

- «وماذا تقترح؟ هل نقتله مثلاً؟»
- «ولم لا؟ إنه في الرمق الأخير بكل الأحوال، هو لم يفتح عينيه منذ أسبوع تقريباً، والحكم فعلاً بيد ابنه المتعجرف.»
- «وافترض أننا.. قتلناه كما تقول، هذا سيجعل أنور الحاكم اسماً وفعلاً!»
- «ليس إن تخلصنا من كليهما، الحاكم، والوريث.»
- كتمت شهقاتي بيدي، ودارت الدنيا من حولي، أنا بحاجة إلى الصراخ، لكنني محاصرة في هذا المكان!
- «وبعدھا؟ هل ستزوجني كما وعدت؟» قالتها بدلال مقزز.
- «بلا شك يا غاليتي، الحقيقة أن جلال عرف كيف يختار، لكنه لم يستحقك بكل تأكيد.»
- اللعنة، قذارتهما تعدت الحدود، أنا أشعر بأنني.. سأستفرغ!
- سقط القدح المعدني من يدي فأصدر جلبة عالية، اعتدت حدوث هذا، تعالى صوتاهما الفزعان يتساءلان عمن هنالك، أطلت حلية برأسها فتراجعت بذعر لأختبئ خلف الخزنة، كادت تدخل لولا...
- «أمي، أنا جائع، أريد أن أكل.»
- قالها شهاب وهو يخرج من الغرفة المجاورة للمطبخ، أسرعت حلية ل تمنعه من الخروج ريثما يبتعد عشيقها الوضيع، كان علي أن أغامر، لا أعرف هل الطريق خالٍ أم لا، لكنني ركضت كالسهم نحو الأعلى.

- «غيم، ألم تنامي بعد؟»

قالها أنور حين لاحظ اضطراب أنفاسي وكثرة حركتي على غير العادة، حاولت إقناعه بأنني بخير، لكنني كنت واعية بضرورة أن يعرف ما سمعته، هذه ليست إهانة شخصية أملك قرار التغاضي عنها.

- «أنور، هل لو أخبرتك بشيء، ستصدقني؟»

استوى جالسًا بسرعة، ونظر إلي بقلق.

- «بالطبع، تعرفين أن كلامك لا يقبل الشك عندي.»

- «حسنًا، سأخبرك...»

بصوت مرتجف نقلت له ما يخص تدابير حلية المزعومة بشأنني، ومؤامرة قتل الحاكم، وقتله، وبقيت أوازن أهمية نقل باقي الحديث. قفز أنور عن الفراش وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ويفرك يديه في شروء.

- «أنتِ واثقة من سماعكٍ لذلك، بالحرف، صح؟»

- «أجل، وقبل أن تسأل، لقد كنت محاصرة في المطبخ، ولم أملك ألا أسمعها أصلاً، بالإضافة إلى أنني لا أملك دليلاً.»

نظر إلي بدهشة وشيء من الاستنكار.

- «لا زلتِ تعتقدين أنني أراكِ بهذه الكيفية؟ تعقلي!»

غطيت وجهي بكفّي في تخطيط واستمر أنور بالسير في الغرفة كالنحلة العاملة، نظر إلي وقال:

- «أهناك المزيد؟»

حسنت أمري، يجب أن يعرف. فتحت فمي لأنكلم، لكن صوتاً أعلى

غطى على صوتي، صوت صراخ ملتاع من الطابق السفلي. تبادلنا الأنظار الفزعة مع أنور، قفز إلى ملابسه ليرتديها فوق ملابس النوم كيفما اتفق، وطلب مني البقاء مكاني. فتح الباب ثم التفت إلي:

- «إن كانوا يريدون الحكم؛ فليأخذوه، طواعية دون الحاجة إلى التدبير والقتل.»

- «أنور، هل أنت جا...»

صفق الباب وخرج. ألقيت بنفسي إلى الوراء؛ فاصطدم رأسي بعارضة السرير، لم أهتم بالتأوه حتى، وبشكل ما، رحت في النوم.

زارنا العم جواد ووادع في المنزل ما إن حل الصباح، أدخلهما أنور رغماً عن أنوف الجميع، لم يضمن كلام الحكيم الذي فحص والده، والذي قال إن قلبه توقف عن النبض لعدة دقائق ليلاً لمجرد أنه مريض، أنور أراد التأكد من أن هذا لم يحدث لسبب آخر.

فحصه العم جواد تحت الأنظار الحارقة، واستغل وادع وجوده ليجلس معي في الأعلى، برغم اعتراض حلية على فكرة دخول رجل إلى الجزء الداخلي من المنزل، عديمة الشرف! أخيراً أعلن العم جواد أن كلام الحكيم صحيح، جمع أغراضه وسار مع أنور تجاه الباب، فقط ليميل على أذنه ويهمس بشيء ما في خطورة.

ألتقط نفساً عميقاً، وأبتسم للحياة، لم أقدر الشمس والهواء العليل والحرية كما أفعل الآن، بألم راقب أنور ابتسامتي التي تشق وجهي، كنت كأعمى يرى النور للمرة الأولى. أسعد ما جرى أنني فارقت المنزل أثناء وجود شهوة وأمها فيه. كان أنور قد استدعى ساري ووادع إلى منزل والدته،

رغبته في تغيير شيء تجعله بحاجة إلى رفقة يأمنها، خاصة بعد قراره بالتخلي عن الحكم.

- «هذه مسؤوليتك يا أنور، لا تستطيع...»

- «بل أستطيع يا غيم، أستطيع تركها لهم، تعرفين لماذا؟ لأنها لم تعد ذات نفع، إنهم ينفذون ما يريدونه على أي حال، وأنا أستتر لفعل ما أراه صحيحًا على أي حال، لو كانت هناك طريقة لإصلاح الأوضاع؛ فإنها لن تكون عن طريق الحكم!»

هذا ما قاله لي وسد بعده باب النقاش في هذه المسألة، سيعطيهم الحكم، فقط في الوقت المناسب.

خرجت بدورق عصير وعدد من الكؤوس، صببت لكل واحد منهم وأعطيته كأسه، إلا ساري، وضعت الكأس أمامه وتراجعت؛ فنظر إلي بابتسامة باردة وقال:

- «أوه، أهلاً غيم.»

ألا يستطيع ابتكار عبارة أخرى؟! أخذ أنور يتحدث مع ساري ووادع عن معصرة حيان القديمة، وعدة أمور أخرى لم أشغل ذهني بها؛ لأنني نلت ما يكفيني من الخطط حقًا. وأثناء حديثهم الشيق الذي لم أسمع به بسبب صوت أفكار العال، اقتحم شيء طائر الغرفة، دخل من النافذة فوق رأسي مباشرة، واستقر على الجدار المقابل لها. تبادلنا الأنظار في ذهول، ونهض أنور ليقرب ببطء من السهم الذي يثبت ورقة ملفوفة إلى الجدار. هذا السهم، أليس سهم التدريب الذي أهديته لشهاب؟ انتزعه أنور وخلص الورقة وفضّها، وقرأ ما فيها بصوت أخذ يتعالى تدريجيًا.

- «عمي هتر وعمي راغب ومعهما قاسط وبائد والكثير من رجال

الحماية في طريقهم إليكم من أجل غيم، لقد وجدوا سوار أمني الذهبي المفقود بين أغراضها!»

اتسعت عيناى بفزع، هذه اللعبة إذن؟ ليتني لم أخرج! ألقى أنور الورقة جانباً وركض ينظر من النافذة، إنهم قريبون فعلاً، ليس بما يكفي لرؤيتهم بوضوح، لكنهم بدوا كالظلال من هنا. بنظرة تلقائية للورقة أدرك عقلي شيئين: شهاب كان يهرب من دروس الكتابة بلا شك، برغم ذلك، تدهشني المسافة التي رمى منها السهم بهذه الدقة!

نفض أنور رأسه واستعاد تماسكه بسرعة، اتخذ هيئة ونبرة إعطاء الأوامر، نظر لساري وقال بحزم:

- «ساري، خذ غيم واخرجاً من الباب الخلفي، أخفها عند الإسطبل أو في أي مكان تجده مناسباً، وابقَ معها.»

أوماً ساري في جدية لدهشتي، نقل أنور نظره لوداع وقال:

- «وأنت يا وادع، قف على الطريق لمنزل الشيخ مدرار، لا أريد أن يصله الخبر، أو أن يضايقوه.»

هز وادع رأسه مراراً وتحرك من فوره خارجاً، أفسح أنور لساري الطريق فتحرك، دفعني أنور لأذهب وراءه.

- «أنور، انتظر، صدقني أنا لم...»

- «كفاك جنوناً، لا أريد سماع كلمة واحدة! وهل سأشك في ذلك حتى؟ لقد لمتني على إهدائك المجوهرات يوم الزفاف، أتسرقين من غيرك؟ هذا ليس منطقياً حتى.»

- «وماذا ستفعل؟»

- «المهم ألا يجدوك في المنزل، وإلى أن يبحثوا عنك، سأكون قد تصرف، فقط اذهبي، هيا.»

بإذعان غادرت مع ساري من الباب الخلفي، مشينا بسرعة أقرب إلى الهرولة وسط المزرعة، كان ساري يسير دون أن يلتفت إلي حتى، وكنت مجبرة على اتباعه. فجأة توقف ساري، بدا كمن راودته فكرة أفضل، انحرف بلا كلمة وعاد أدراجه نحو النخلة التي ربط حصانه الطائر إليها.

- «لماذا الحصان؟ المسافة قصيرة.»

- «للوصول أسرع.»

باقتضاب شديد. ثم ساعدني على الركوب خلفه وانطلق، وصلنا آخر المزرعة في ثوانٍ، لكنه لم يتوقف، بل تجاوزها.

- «ساري، إلى أين؟»

- «يوجد مكان أفضل.»

لزمت الصمت وتركته يتصرف، لكن كان لزاماً علي أن أتحدث حين زادت المسافة أكثر من المعتاد.

- «لم لا تخبرني إلى أين نذهب؟»

- «اهدئي يا صغيرة، ما بك؟»

يا صغيرة؟ أحقاً قالها؟ هل كان من الضروري أن يشرف على هروبي من رجال الحماية كي يستعيد روحه القديمة؟

- «نحن في الطريق إلى منزل العجوز صباية، صح؟»

- «نبيهة، حماك الله من كل مكروه!»

إنه هو! ساري أخي! بنفس سخريته وبروده، بروده المحب لا المقبض، وجدت الفرصة مناسبة للتحدث؛ فتنحنت.

- «بخصوص ما حدث بيننا مؤخرًا، ألا ترى أننا بالغنا قليلًا؟ وأن ما بيننا أكبر من خلاف هذه...»

توقفت حين فطنت إلى أنه لم يكن يسمعي أصلاً، تلفتُ حولي فاسترجع عقلي بعض الصور والكلمات: (الأيمن يقود إلى طريق السفر/ أما الأيسر فإنه يقودنا إلى قلب منطقة الجبال/ إنها تعيش على أول المسار الأيسر، انظري.)، إن كان منزل العجوز صباية على أول المسار الأيسر؛ فلمَ سلكننا الأيمن وتعمقنا فيه؟ كان يدقق فيما حوله كمن يستوثق من شيء ما. فجأة أطلق صفيراً مدوياً، ترجل عن الحصان برشاقة وقبض على ذراعي ليحبطني بنوع من العنف. أوقفني جواره ولم يفلت ذراعي، في حين كنت أنظر بفزع للظلال التي انبثقت من بين الأشجار والأحجار فجأة، وبدأت تجد السير نحونا. تراجعت لأحتمي بساري، لكنه جذبني بعنف أكبر ليوقفني جواره.

- «ساري، إلى أين أحضرني؟ فيم تفكر؟»

أسكتني بوشوشة جافة من فمه، ولم ينظر إلي مرة واحدة. اقترب الرجال أكثر من اللازم، رجال ملثمون بأسلحتهم وأزيائهم السوداء، والأهم، بأعينهم الزرقاء. استل أحدهم سيفه ورفع ليحاذي رقبتني؛ فارتجفت ونظرت إلى ساري بذعر. مرر ساري يديه بسرعة على جسدي، وبمهارة حرر الحزام الجلدي عن خصرتي، خنجر وادع وغمدته، لم أجرؤ على الحركة، ولم يستوعب عقلي حقيقة ما يجري، ألقي أحدهم لساري بحبل قصير في حين اقتربت عربة مغطاة تجرها الأحصنة، بقوة جذب ساري معصمي وأخذ يقيدهما بالحبل، هنا فقدت عقلي.

- «ساري، أيها المجنون، ماذا تفعل؟ أنا أختك! ماذا تفعل بي؟ ساري أنت تؤلمني، توقف!»

لم يجب بأي كلمة، انتهى من تقييدي فدفعتني ببساطة نحو الرجل المسك بالسيف، وتحت تهديد السيف، اقتادني الرجل راغمة إلى العربة، صعدت وجلست، ولم أتوقف عن الصراخ، حتى وأنا أرى ساري يلتقط صرّة مليئة من أحد الرجال، ويثبتها في سرج حصانه ويقفز عليه ليذهب.

- «هل ستركني بين هؤلاء الرجال حقًا؟! ساري عد إلى هنا، كفأك حماقة، أخي، ساري!»

كأنني أنادي بلا صوت، أو أنادي على أصم، لم يلتفت إلي حتى، ولم يتوقف عن السير، حتى فقدت الأمل.

- «يا لك من...!»

قلتها بحرقة؛ فتوقف لعجبي، أدار وجهه ربع ربع استدارة، حتى أنني لم أرّ خده، ثم اعتدل وتابع السير، ضرب مؤخرة الطائر، وطار.

تحركت العربة، وتوقفت عن المقاومة، أعاد الرجل سيفه إلى غمده، وجلس على حافة المقعد الذي أجلس عليه. سقط الخبار عن وجهي وانحسر قليلًا عن شعري، حاولت فعل شيء لكن بلا فائدة، شعر الرجل بما يجري؛ فقال بلهجة متكسرة وهو يستدير ليعطيني ظهره ويدليّ قدميه خارج العربة:

- «خذي راحتك.»

يا لشهامتك! حاضر، سأخذ راحتي وأنا أتمزق من البرد والخوف، وأكاد لا أشعر بيديّ من شدة الألم.

سارت العربة لوقت أطول مما توقعت، إلى حد أن آخر خيوط الشمس

انطفأ، وخيم الظلام بشكل كامل، كأن رعباً واحداً لا يكفيني. نسيت كل شيء عن حلية وأنور والصفراوية وقريتنا، لم أعرف إن كنت سأعود لأتعامل مع هذه الأمور حتى. لم أسأل نفسي ماذا سيقول ساري لأنور، ولا ما سيظنه والداي حين أختفي فجأة. ومع هدير الأفكار، واهتزاز العربة، غفوت رغباً عني.

- «استيقظي.»

نفس الصوت ذو اللهجة الكسيحة، نهضت دفعة واحدة واسترجع عقلي كل ما جرى فاستعدت مشاعر الفزع من جديد. كانت العربة متوقفة، وخارجها صخب عال كأننا في وسط قرية. قفز الرجل عن العربة وأشار لي برأسه كي أنزل، ببطء وتعب امتثلت، استدار الرجل ليقف خلف ظهري، سمعت صوت سيفه يخرج من محله فأغمضت عينيّ وشدت عضلات جسدي بقوة، هوى السيف ليمزق الحبال التي تربط معصميّ؛ فدوى الألم وأخذ ينبض فيهما معربداً.

أخذت أدلك يديّ وأنا على حافة البكاء، في حين نادى الرجل بلغة غريبة، كان هناك بعض الصبية الذين ينظرون إلينا من بعيد بفضول، وابتعدوا ما إن نظر إليهم الرجل، ثم ظهرت امرأتان وهرولتا مسرعتين نحونا، كانتا توجهان حديثهما إلي، لكنني لم أفهم حرفاً، أخيراً اقتربت إحدهما مني مادة يدها فأجفلت، لكنها كانت تعدل من وضع خماري وملابسي. الآن فقط أُنبه إلى أنها ترتديان مثلنا، مثل غارسي الفسائل. اقتادتاني إلى ما يشبه الكوخ الخشبي، بالغ الصغر، مجرد غرفة وحمام، لكنه كان دافئاً جداً، وكان هذا كافياً. دخلت وأغلق الباب ورائي، ارتمت على الحشية الملقاة على الأرض، كان المكان مرتباً ونظيفاً، حتى الحشية كانت مريحة، أسندت ظهري للجدار أتأمل المكان وأتأمل في حالي. فتح الباب مجدداً ودخلت المرأتان مع كثير من

الأغراض، صحفة طعام، دورق ماء، ملابس نظيفة، وأغطية. وضعتها وأطلقنا سؤالاً ترجمه عقلي بـ(تريدين شيئاً إضافياً)؟ هكذا هزرت رأسي سلباً؛ فابتسمتا وانصرفتا.

بعد دقائق من عدم فعل شيء، حركت يدي ببطء لألتقط الملابس، منحني تغيير ملابسني انتعاشاً محبباً، لم أشعر بشهية للأكل؛ فاكثفت بشرب كأس من الماء، ثم حللت الأغطية والتحفت بها ونمت، نمت نوماً عميقاً جداً، نمت كأنني صخرة، أو كأنني ضمير صفراوي.

استيقظت على طرقات كيّسة على الباب؛ ففطنت إلى أشعة الشمس التي تتسلل من بين عروق الخشب، لقد جاء اليوم التالي، وأنور لم ينقذني بعد! سأفاهم معه هذا الشأن، إذا رأيته مجدداً.

- «الفائد يريذك.»

- «أنا آتية.»

قلتها بخفوت ونهضت لأعدل خماري بهيئة مناسبة، لم يبقَ من وجهي ظاهر إلا عيناوي. فتحت الباب فوجدت حارسي الشخصي مع واحد آخر، سارا جواروي دون أن يتعبا نفسيهما بإخراج السيوفين، لم يطل السير حتى وصلنا إلى كوخ شبيه بالذي كنت فيه، وإن كان أكثر اتساعاً، مما أعطاني انطباعاً أن المكان أقرب للمخيم منه للقرية.

طرق الحارس الباب وفتحه وأشار لي بالدخول، انصعت بتوجس، وفي الداخل رأيت ما يربو عن العشرة رجال، يملؤون الأرائك التي تدور حول الجدران الأربعة. تقدمت خطوتين وتبيست قدماي بخوف، لم أكن محط أنظار الكثير من الناس هكذا إلا في المحاكمات أو حفل الزفاف، وفي كلتا الحالتين كان جواروي من يدعمني ويهدي من روعي.

- «أسفون على إحضارك بتلك الطريقة، نأمل أنك لم تنزعجي.»
- قالها الرجل الجالس خلف طاولة عملاقة في صدر المجلس بنبرة واثقة وودودة، وبنطق فصيح، نظرت إليه فوجدته يتسم برفق، ومنحني الشيب الذي يغزو فوديه شعورًا بالهيبة والاطمئنان في آن.
- «اجلسي من فضلك، ماذا تشربين؟ شاي، قهوة، عصير؟»
- جلست حيث أشار، على مقعد خشبي ضخم، في منتصف القاعة بالضبط، تحت جميع الأنظار. أجبت سؤاله بلا تفكير:
- «شاي بالحليب، إذا أمكن.»
- اتسعت ابتسامته وشابها قليل من الضحك.
- «أحضروا لها شايًا بالحليب إذن.»
- كان صوته قويًا، مشعرًا بأنه اعتاد على إلقاء الأوامر طوال حياته، إلا أن نبرة أبوية كانت ترن فيه فتهدئني.
- «هل تريدن شيئًا آخر قبل أن نبدأ؟»
- «أنا لا أريد شيئًا، أريد العودة إلى البيت.»
- قلتها بتردد، أي بيت الذي أريد العودة إليه؟
- «لا تخافي يا ابنتي، سنعيدك، وبسرعة أيضًا. هلا أخبرتنا باسمك؟»
- «اسمي غيم، غيم بنت مدرار.»
- ضاقت عيناه في اهتمام، وتبادل نظرة مع رجل جالس بجواره مبهور طوال الوقت.
- «يا للمصادفة، الشيخ الذي يدرس الأطفال؟»

- «أ.. أجل.. إنه أبي.»

لا أعرف إن كان هذا شيئاً جيداً أم سيئاً بالنسبة له.

- «لقد درّس ابن أخي رحمه الله، شقيق (جلف) هذا! لقد كان من أسسه وفتح ذهنه!»

قالها مشيراً إلى شاب يجلس خلفه في سخط، وجدها الشاب فرصة مناسبة لإبداء اعتراضه.

- «(نأمل أنك لم تنزعجي، وماذا تشرين، واجلسي، وأبوك درّس ابن أخي)، أين نحن؟ هذا تحقيق صارم، وليس جلسة تعارف، على هذه الفتاة أن تنهض، وأن تكشف وجهها لنراها، وأن تجيب الأسئلة بلا جدال!»

نجح هذا الشاب بخطرسته في إعادة المشاعر التي أبعدها عمه بلطفه، أخذت أفرك يديّ بتوتر وأهز قدمي، لسبب ما تذكرت اليوم الذي رأيته فيه أنور في الديوان أول مرة، شتان بين السبيين اللذين أوقعاني في هذه الحالة. نظر له عمه بحزم، وبطريقة فجّة تجاهل كلامه.

- «حسنًا يا ابنتي، لا أريد أن تفزعني أبداً، وثقي أن أحداً لن يؤذيك، أردت سؤالك، أصحيح أنك زوجة ابن الحاكم؟»
أومأت؛ فاحتد الشاب مجدداً.

- «أجيبني بنعم أو لا، هذه الإيلاء لا تكفي!»

- «(جلف)، لو لم تتوقف عن إخافة ضيفتنا فسأطردك.»

- «هذه ليست ضيفة، إنها أسيرة، هناك فاروق يا عمي!»

- «لا تقل عمي، ولا زلت عند تحذيري!»

- ابتلع ذلك الجلف لسانه، وبقي يسلط أنظاره الحارقة علي.
- «أخبريني يا غيم، ما الذي يريده قومك منا بالضبط؟»
- ارتبكت، من أنتم حتى يريد قومي شيئاً منكم؟
- «معذرة، أين أنا؟ أعني.. أهذه قرية شوكة؟»
- ابتسم بود، كل ابتساماته مريحة.
- «لا، هذه ليست قرية شوكة، لكنها قريبة منها، على نفس الطريق. لماذا سألت عن قرية شوكة بالتحديد؟»
- «لأنني اكتشفت أن الصفراويين شوّهوا سمعتهم بغير حق مؤخراً.»
- «الصفراويون؟ أنت لست منهم إذن؟»
- «أنا صفراء، لست صفراوية، أرجو أن الاختلاف واضح.»
- اكتسبت ابتسامته طابعاً مُعجباً، ومن جديد تبادل النظرات مع جاره وهو يهز رأسه باستحسان.
- «جميل، لم يكره الصفراويون قرية شوكة؟»
- «لأن السفير خدع الجميع، وأخبرهم أن قرية شوكة هي من تهاجم قريتنا وتؤذيها، وهم يصدقونه.»
- «أي سفير؟»
- «اسمه أفاك، ولا أحد يعرف عنه ما هو أكثر.»
- «ومن الذي يهاجم قريتك ما لم يكونوا أهالي شوكة؟»
- «لست أعرف، لست واثقة من أنهم من بدأ الهجوم حتى. كل ما

أعرفه أن أعينهم زرقاء.»

بدا راضياً بتجاوبي، في حين دهشت منه، من أين أتيت بهذه الطلاقة والصلابة، ولم أصبحت صريحة هكذا؟ كله بسبب معاملته لي.

- «ماذا تعنين بأنهم ليسوا من بدأ الهجوم؟»

- «أعني أن.. أهالي شوكة يقولون إننا سفاحون وقتلة، وحضرتك سألتني عن السبب الذي يجعل قريتنا تفعل ما تفعله، برغم أن قريتنا لا تفعل أي شيء، وأنها غارقة في مشاكل داخلية تغنيها عن إيذاء أي أحد، هناك شيء خطأ.»

- «ولم ترسلوا سفيراً إلى أي قرية ليقم هدنة لإيقاف الهجمات؟»

صمتٌ للحظات أستوعب أن هذا السؤال صدر منه لا مني.

- «أي هجمات؟»

- «أتعرفون؟ لو نهضت الآن وصفعتها فستعرف كيف تحجب.»

قالها وهو ينهض وينظر إلي بتصميم، فتراجعت في مقعدي بفزع، نظر القائد إلى رجلين من رجال الحماية وأشار بعينه نحو ابن أخيه بفتور، بدا لي أنه لا يواجه رعونته للمرة الأولى. أخرجه الرجال وسط صرخاته الغاضبة، وعاد القائد ينظر إلي كأن شيئاً لم يكن.

- «هجمات شتّها ذوو الأعين الصفراء ضد عدة قرى من قرى الزرق،

بلا سبب وبلا مطالب واضحة، ثم أرسلوا سفيراً يدعى...» توقف قليلاً يتذكر الاسم. «قاسط، أو شيء كهذا.»

اتسعت عيناى بصدمة واعتدلت في مكاني. لهذا كان يختفي من القرية لفترات طويلة، لم يكتفِ بالفتنة التي يسببها في قريتنا؛ فجذ السير ليسبب فتنة

جديدة في مكان آخر! صدق إحساسي بأنهم جزء من منظومة وخطة أكبر.

- «أفترض أن الاسم مألوف لك».

- «أجل هو كذلك، أكثر من اللازم، إنه ابن أكبر رأس فتنة في قريننا، لكن صدقني من فضلك، لم يرسله أحد، ولا يمثل أحداً، ثم إن قريننا لم تسع لمهاجمة أي أحد، ربما لا يفترض بي قول هذا، لكن جيش قريننا أضعف من ذلك بكثير!»

هز رأسه ببطء يستسيغ كلامي. قال بتمهل:

- «المثل حدث معكم إذن، هجمات من الزرق، ثم سفير لم يرسله أحد، هذا يجعلني أحتار، أليدك تفسير؟»

- «بشكل شخصي، أم مؤكداً؟»

ابتسم، قال برفق:

- «بل بشكل شخصي».

- «أرى أن الاستهداف على غارسي الفسائل عموماً، لا على لون معين، ولا أستغرب لو أن نفس الشيء حدث مع الحمر أو البرتقاليين أو أي قوم آخرين. إنهم يجعلون بعضنا يضرب بعضاً، يبيدوننا دون أن يجرؤوا ساكناً».

- «من الذين تشيرين إليهم بـ(هم)؟»

- «لا أعرف، ناس من غير غارسي الفسائل».

ابتسم بإعجاب، وقال للرجل جواره:

- «لقد وقعنا على كنز، بدأت أفكر في التراجع عن إعادتها. لقد أردنا أحداً من بيت الحاكم لنجبره على إخبارنا بما يعرف، لا ليكون حليفنا ويوحد

مشاكلنا!»

ابتسمت وطأطأت بخجل، وسمعت همسات الحضور الذين نسيت وجودهم من حولي، بدت لغتهم سريعة جداً على أذنيّ وعجزت عن تخمين ما يقولونه. وصل الشاي بالحليب ووضع على طاولة صغيرة أمامي، ووزعت المشاريب المختلفة على الحاضرين، ارتشفت منه بلهفة، هذا ما يحتاج عقلي إليه بالتحديد.

- «إذن يا غيم، المسألة عقدية بحثة، وستحل باتحاد أصحاب المعتقد لا المتشابهين في لون العينين.»

- «هذا ما بح صوتي وأنا أكرره.»

قلتها شبه هامسة، لم يسمعها حسن الحظ.

- «نريد التواصل مع غارسي الفسائل إذن، كيف نصل إلى قومك؟»

- «قومي؟ غارسوا فسائل؟ كان ذلك قديماً! لم تعد غراسة الفسائل هي معتقد الجمهور.»

تبادل الحاضرون النظرات والمهمهات المصدومة.

- «ماذا تعنين؟ قرية المروج هي معقل غارسي الفسائل الأول!»

- «كانت يا حضرة القائد، قبل أن تظهر الصفراوية وتدمرها وتنسفها نسفاً، الآن أصبح أي معاد للصفراوية وآرائها مغضوباً عليه، بهذه الطريقة قتلوا معلمتي، وحرقوا المزارع وتركوها للمنّ يفسدها، وأحرقوا الجزء الخاص بغارسي الفسائل من دار المنارة، ووضعوا الشيخ مدرار تحت الإقامة الجبرية، وهدموا منزلنا في يوم زفافنا، قبل أن نسكنه!»

ارتفعت أصوات الحضور، أحدثت كلماتي ذهولاً وصدمة، لم يتوقعوا أن

الأمور أصبحت بهذا السوء.

- «هدموا منزل الحاكم المستقبلي؟»

- «لن يكون أنور -ابن الحاكم- حاكماً، سيتنازل عن الحكم لعمه حتى تتركه الصفراوية وأحبابه بخير.»

- «هذا.. مخيف.»

لا ينقصني إلا الدخول في نوبة من البكاء، أتخيل هذا القائد المهيب ينهض بارتباك ويصب لي الماء ويرجوني أن أهدأ. ابتسمت للخاطر وتماكت أعصابي.

- «لكن لا زال في القرية غارسوا فسائل حقيقيون، مثلك يا ابنتي، صحيح؟»

- «صحيح، لكن ماذا أفعل وحدي؟»

- «هذا ما يقوله ألف واحد لنفسه.»

عبارة تستحق التأمل. التزمت الصمت، أخرج الرجل شيئاً صغيراً لأمعاً، تعرفته على الفور، كرة زجاجية.

- «هل تعرفين هذه يا غيم؟»

- «أجل، إنها هي.. هي التي أفسد بها الزرق قرينتنا!»

- «الزرق؟ قلت إن الصفراوية فعلت؟»

- «أعدهما واحداً، ما داموا من غير غارسي فسائل.»

- «لكن الزرق لم يفعلوا شيئاً كهذا، نحن الزرق، وقرية شوكة، نحن لم نفعل ذلك!»

- «ماذا عن قرية وخنة؟ أو غلول؟»

بتعجب ابتسم.

- «وخنة؟ من قال إن قرية وخنة موجودة أصلاً؟ لقد محاها الحاكم الأصفر رشيد، بأن سلط على أهلها حكماً من حارقي المحاصيل، برغم أن معظمهم كانوا غارسي فسائل؛ لأنه وجدهم أشد جشعاً وأكثر امتثالاً؛ هكذا نهب خيراتها وأشعل الحروب بين أهلها فاندثرت بحلول عهد الحاكم جسار!»

إنه يعرف التاريخ جيداً، أحب هؤلاء القوم، ألا يسعني البقاء هنا حقاً؟
- «أما عن قرية غلول؛ فإن أهلها قدرون وبلا ذمة ولا كلمة، لكنهم -في النهاية- مجرد قطاع طرق ولصوص، لا يرقون ليصبحوا جيشاً منظماً يغير على القرى، ولا يملكون الشجاعة اللازمة لفعل شيء مشابه!»

- «لكن هناك الكثير من حارقي المحاصيل الزرق في قريتنا!»

- «والصفر والحمز والبرتقالين، صح؟ إنهم تابعون لقرية شوكة كما هو حالهم في قرية المروج أو الربوة، لكنهم مجرد أقلية، ليسوا شعباً مستقلاً يملك جيشاً يهاجم به!»

أصابني الحيرة، كلامه منطقي، لكن ما التفسير؟

- «أنا لا أعرف، لكنني رأيتهم بنفسي مراراً، لقد كادوا يقتلون رجلاً أمامي عند البحيرة!»

- «عند البحيرة.. على حد علمي أن البحيرة قريبة من حدود القرية.

صحيح؟»

- «أجل.»

- «نفس ما حدث لنا، لم يتجاوزوا حدود القرية، ثم اختفوا فجأة كما أتوا فجأة. أرى تفسيرك أقرب شيء يصف الموقف؛ فلا هؤلاء كانوا زرقاً ممن نعرفهم، ولا هؤلاء كانوا صفراً حقاً، إنهم أتباعهم، يتلونون وينشرون الخوف، بنفس الأدوات والأسلحة، وتصدقهم نفس العقول المريضة من كل جهة؛ لئنسب الدمار التالي إليهم، في حين أن مندسين بنفس ألوان الأعين يعملون لصالح أولئك الخبثاء خلسة، ويعملون على تدمير القرية داخلياً، عالين أن أصابع اللوم ستوجه إلى المهاجمين ذوي الأعين المغيرة، والقرى التي أتى منها السفراء المزيفون!»

أو مأت؛ فابتسم بلطف واتخذ صوته نبرة ختامية.

- «هل تنتظرين من أحد أن يبحث عنك؟»

برغم استغرابي من السؤال أجبته.

- «أجل، زوجي أنور، وأخي وادع.»

- «وهل معك شيء يعرفون وجودك في مكان ما منه؟»

سؤال أغرب من سابقه، باضطراب فتشت جيوبي، وأخرجت.. منديل تبر المطرز، أذكر أنني حملته معي حين اكتشفت أن حلية كانت تمسح به الأوساخ كي تستفزي. تناوله أحد الرجال مني، ولم أحاول السؤال عن الغاية.

- «من كان الشاب الذي أحضر لك؟»

- «ساري، ابن خالتي، وأخي من الرضاعة.»

انخفاض وخفوت واضحان في نبرة الصوت، ألم مفضوح جداً.

- «أهو صفراوي أو ما شابه؟ لقد كان جشعاً بشكل لا يُصدق، وقبل

أن يبيعك ما إن عرضنا عليه مقابلاً جيداً.»

- «هو لم يفعلها لأجل المقابل، بل لمجرد بيعي، ولو كان المقابل أقل فإنه كان ليرحب به أكثر.»

قلتها بألم أشد، برغم كل ما حدث بيني وبين ساري، لا زلت عاجزة عن تصديق أنه غدر بي بهذا الشكل، ولو تبين أنهم قوم لطفاء.

- «بأي حال، لا زلنا راغبين في اعتبار أنور الحاكم الفعلي، وفي التعاون معه لإيقاف هذا الجنون؛ فهل تظنينه يقبل؟»

- «بلا شك، إنه مستعد لفعل أي شيء.»

- «جيد، شديد، احمل الصندوق إياه إلى غرفتها.» قالها لحارسي الشخصي. «اسمعي يا غيم، ذلك الصندوق يحتوي هدية صغيرة، عربون تعاون بيننا، احرصي على أخذه معك حين يأتون لاستعدادتك، أخبري زوجك أنه هدية من القائد (راسخ).»

- «يأتون لاستعدادتي؟ متى؟»

- «ما إن يصل مندليك إليهم.»

قالها بابتسامة لطيفة، ثم أشار بيده معلناً انتهاء الجلسة. شكرته بلهفة ونهضت، لم يصل عقلي -أثناء محاولة تخيل ما سيحل بي- إلى التفكير في وضع كهذا، وأشخاص كهؤلاء، وعودة سريعة كأنها رحلة استرخاء من حلية ومعمعتها، وجعلتني أفكر على نطاق أوسع، وأستبشر بوجود من يشبهنا ويفكر مثلنا، وبأعداد كبيرة.

صحبني الحارس شديد إلى غرفتي من جديد، أمرني بترك حذائي عند الباب، وكان السبب مفهوماً لي، أن يراه أنور حين يأتي باحثاً عني. بقيت في

الغرفة حتى غربت الشمس، أعدت ارتداء ملابسي بعد أن وجدتها نظيفة في الغرفة، وتناولت غذائي بنهم وشهية، وشربت عدة كؤوس من الشاي والقهوة والعصير. حدثني نفسي بفتح الصندوق ورؤية ما فيه، لكنني فضلت تمالك فضولي تجاه الصناديق المغلقة. طرق الباب ليلاً، فنهضت بحماس وعدلت خماري، وقبل أن أطلب الطارق بالدخول دخل، لم يكن أنور، ولا حارسي إياه!

- «أنا أهان بسببك أمام الرجال أيتها الصفراء؟»

تراجعت بفرح وأنا أتأمل السيف الذي يلوح به وهو يقترب، ماذا علي أن أفعل؟ أول ما خطر ببالي أن أصرخ بصوت عال طالبة النجدة، سمعت أصوات خطوات راكضة خارجاً، لقد أبعدوا الحراسة من باب التسهيل على أنور حين يأتي، ولم يحزر الحارس أن مهمته لا تنتهي عند منعي من الخروج، بل أيضاً عليه حمايتي من الدخلاء!

انحنيت في اللحظة الأخيرة قبل أن يغرس جلف السيف في رقبتني، تكوّرت على نفسي في الزاوية ولم أستطع الهرب أكثر، أغمضت عيني حين رأيته يرفع سيفه عاليًا ليهوي به علي، لكنني حين فتحتها رأيته يصارع بهيجان ليتخلص من الكلب الرمادي الجاثم فوقه، تدخل حارسي الهمام ليوقف جلف لكن أنور الواقف عند الباب لكمه وأطاره بعيداً للأسف، سحب الرمادي جلف وسط تحبّطه ومحاولاته للإفلات، وقربه لأحد سحبه من الخارج بعنف. وما إن ابتعد عن الباب حتى قفز أنور ناحيتي بفرح، دون كلمة سحبنني من يدي وركض بي، ساعدني على ارتداء حذائي على عجل وهو يتلفت حوله كالمجنون، أردت تهدئته لكنه كان في حالة لا تسمح له بسماع شيء. وقبل أن نتابع الركض لمحت سيفاً يهوي طولياً باتجاه عنق جلف.

- «لا، توقف أرجوك!»

لم أكن لأرد معروفهم بقتل ابنهم! حتى لو كان (زرقاويًا) قذرًا. سقط السيف من يد حامله مباشرة، ليس امتثالاً لرجائي، بل فزعاً من سماع صوتي. نهض ساري عن جلف في حين فقد الأخير وعيه، وبسرعة ركض خلفي أنا وأنور. كدنا نبتعد عن القرية لولا أن توقفت فجأة.

- «غيم، ما بك؟ ألا تقوين على الركض؟»

- «لا، تذكرت شيئاً هاماً، في الغرفة صندوق، أريده.»

نظر إلي أنور بنوع من الدهول، وضع يده على جيبيني يتحسسها فأبعدت يده ضاحكة لأزيد عجبه.

- «اهداً، أنا واعية لما أقوله، ولا أحد سيوقفك، ثق بي.»

ظهر وادع من مكان ما، كان سيفه نظيفاً لحسن الحظ، ومعه الكلبان الآخران، دفعني أنور تجاه وادع وقال بصبر نافذ:

- «أبعدها من هنا، فلنر قصة الصندوق تلك.»

وقبل أن يستفسر وادع عاد أنور أدراجه راكضاً، وتابعنا الركض في الاتجاه المعاكس، وسرعان ما كان أنور خلفنا، مع الصندوق. وصلنا إلى المكان الذي أخفوا فيه خيولهم، سقطت على الأرض ألث، أفلت أنور الصندوق وجثا على ركبتيه جوارِي.

- «غيم، انظري إلي، أنتِ بخير؟ هل أصابكِ مكروه؟ ماذا فعلوا بك؟

قولي!»

استغرقت بعض الوقت لالتقاط أنفاسي، ثم قلت ببساطة:

- «أنا بخير، لم أصب بخدش واحد.»

- «سأعيدك ثم أعود، سأحرق هذه القرية بمن فيها.»
- «هلاً هذأت؟ إنهم ليسوا أعداء، أرجوك أن تتمالك أعصابك!»
- مجدداً ينظر إلي بذهول، ثم يتلفت حوله.
- «ما الأمر؟ هل هددوك؟ أخبريني، ماذا حدث؟»
- «سأخبرك، صدقني، لكن أولاً، اطمئن، أنا لم أتأذ، ولم يريدوا أذيتي بأي حال.»
- «لهذا كان ذلك المعتوه يوجه سيفه نحوك؟»
- «لقد قتلته، معتوه، إنه معادل الصغراوي هنا، لكنه شاذ عنهم.»
- تأمل وجهي لثوان؛ ففطن إلى لون شفتيّ المزرّق، نهض ونزع عباءته، ثم لقّني بها، واستدار يعدّل ركاب حصانه.
- «لن تخدعني بهذا.» نظر إلي مستغرباً. «تتركني يوماً كاملاً؟ يوماً كاملاً يا أنور؟!»

ابتسم ابتسامة غير مكتملة، لا يزال قلقاً على حالتي العقلية.

- «سأخبرني يا جميلتي، أقسم أنني لم أضيّع دقيقة من هذا اليوم، ولم أذق لحظة نوم، لكنني كنت أهتم بالأمرين معاً، أمر استعادتك وأمر تبرئتك.»
- تبرئتي؟ يا إلهي! هل علي أن أعود لهذه المشاكل حقاً؟ ربت على خدي برفق فابتسمت بعدوبة، أردت أن أبرهن له بكل وسيلة على أنني بخير، وأن ما فعله جلف لا يمثل قومه. باغتني وادع بضم رأسي إليه وتقبيله، نظر إلي بعينين مغرورتين بالدموع وابتسم، وأخذت الكلاب تهز ذيولها في نوع من الاحتفاء، لكن أنور منعها من الاقتراب مني. اتجهت أنظاري لا إرادياً إلى ساري، كان قد امتطى حصانه، ووقف معطياً إيانا ظهره، لكن يده كانت

ترتجف، لم أر ساري يرتجف من قبل! تذكرت شيئاً فهتفت بفزع:

- «أنور، والداي؟»

- «لم يعرفا شيئاً، اطمئني.»

قالها وهو يساعدني على الركوب، وانطلقنا في رحلة العودة.

- «كيف عرفتم مكاني؟ أهو المنديل؟»

نظر إلي بحيرة، وكرر خلفي:

- «المنديل؟ أي منديل؟ ساري هو من أخبرنا بمكانك.»

- «و.. وكيف عرفه؟»

- «أخبرنا أنه فكر في إخفائك عند العجوز صباية، لكن عدداً من المثلّمين

الزرق هاجموكم، ضربوه وأفقدوه وعيه واختطفوك، سرنا مع الطريق حتى

اقتربنا من تلك القرية، واستطاعت الكلاب التعرف على رائحتك، وسمعنا

صراخك!»

نظرت إلى ساري وأنا أستمع إلى أنور؛ فوجدت رأسه يبتكس مع كل

حرف أكثر، لسبب ما، لم أرد تصحيح القصة.

- «ما قصة المنديل تلك؟»

- «لا تشغل بالك.»

(٨)

استيقظت فلم أجد أنور في الغرفة، جلست لأرى صحنوناً معبأة بصنوف من أطعمة الإفطار على المنضدة، وكأساً زجاجية مملوءة بالشاي بالحليب، مغطاة وموضوعة داخل إناء مليء بالماء الساخن لحفظ حرارته. غسلت وجهي وجلست لألتهم الطعام، لو كانت أُمي هنا كانت لتنظر إلي في رضا وتومئ برأسها مبتسمة، آه كم أشتاق إليها! أنهيت جمع الصحنون الفارغة ولم أجد شجاعة كافية للخروج وأخذها للمطبخ، آخر ذكرى لي في المطبخ كانت فطيرة. أخرجت دفترتي الجلدي، والريشة والمحبرة، أخذت أنقل الريشة بين أصابعي في شرود وأنا أتذكر كيفية دخولنا للمنزل ليلاً، لقد بدا أنور مخيفاً وهو يخبرني ألا أخاف، وأن (من كان ابن أمه وأبيه فليعترض طريقك)، صعدنا معاً إلى غرفتنا، ولعجبي، لم أقابل مخلوقاً حياً في طريقي، وبدأ المنزل هادئاً أكثر من المعتاد.

تنبّهت من شرودي على صوت فتح الباب، جلست متحفزة للقادم، ثم استرخيت حين طالعني بابتسامته، ألقى نظرة راضية على الأواني الفارغة وتقدم ليجلس على حافة الفراش.

- «ماذا تكتنين؟ أحداث مغامرتك؟»

- «لم أكن أخطط لكتابة شيء محدد في الواقع.»

وضعت الدفتر جانباً وفوقه وضعت الريشة واعتدلت.

- «أخبرني، أين كنت؟ لقد قلت إنك لم تنم طوال المدة التي قضيتها بعيداً، لم تهلك نفسك هكذا يا أنور؟»

- «أخبريني أنتِ، كيف كان علي أن أنام؟ عقلي لم يرحمني لحظة واحدة يا غيم، وأخذ يسرد علي ألف احتمال واحتمال لما حدث لك هناك، كنت على شفا الجنون؛ ففضلت الانشغال بشيء ما.»

بامتنان وضعت يدي على يده، كم كان قلقاً علي!

- «فكرت في أنك لم تحظي بحياة مريحة منذ تزوجنا، كل يوم يمر كان يحمل لك الأسوأ، أتعرفين ما الذي كان يزيد الطين بلة؟ سكوتك يا غيم، لقد وعدتني أن تخبريني بأي شيء يحدث معك، وأخلفت، وأنا الذي اطمأنت وظننتك تدبرين أموركِ جيداً!»

- «أنور، كل ما ذكرته غير صحيح، والأيام التي قضيناها في منزل السيدة مخمل كانت الأفضل. ثم.. ما قصدك بسكوتي؟»

نظر في عيني وقال بثبات:

- «كنت مندهشاً لترككِ لوالديكِ في وقت كهذا، والأدهى أنهما كانا يسألانني عنكِ كلما زرتُهما، لا يسألان عن سبب اختفائك، بل يسألان فقط عن حالكِ، كأنكِ لا تقيمين في نفس القرية! ألمي أن الجميع كان يعرف، إلا أنا!»

لم أستطع منع رأسي من الانحناء في أسف.

- «كيف تفعل بكِ حلية كل هذا وتحفينه عني؟ ما معنى أن تهددكِ بي فتدعين لها؟ أهذه غيم التي أعرفها؟ كيف سمحت لها بحرمانكِ من كل ما تحبين؟ أين كنت وقتها؟»

- «أنور.. أنا فقط.. رأيت أنك تملك ما يكفي من ال...»
- «من ماذا؟ فليذهب كل شيء إلى حيث ألفت! المهم أنت، أنت مسؤوليتي، وليس العكس!»
- بقيت صامتة؛ فوضع يده على كتفي وقال بنبرة ألين:
- «بكل الأحوال، هذا لم يعد ساريًا الآن، لم يعد بوسعها توجيه ربع كلمة إليك، بخير أو بشر، وانتهى زمن سيطرتها أو سيطرة غيرها عليك يا غيم، ربما عليك أن تتقي بي ولو قليلًا؟»
- هزرت رأسي على سبيل الوعد، وقلت بحذر:
- «لكن كيف عرفت كل هذا؟»
- «لن تخزري.» قالها بابتسامة متكلفة. «سبق وعلمت شهاب ضرورة أن يشهد بما يعرفه، خاصة لو تعلق على سكوته ضرر لأحد، ووعى شهاب الدرس جيدًا، ولم يكن يخاف على أحد الضرر أكثر من غيم؛ لذا أثر أن يقول الحقيقة، ولو كانت ضد أمه.»
- ابتسمت برغمي، لم أعرف أن شهاب شهد على كل ما كانت تفعله حلية، يؤسفني أن يوضع في هذا الاختبار الصعب، لكن يسرني أنه أحسن الاختيار.
- «لم يخبرني بهذا فقط، بل أخبرني أيضًا أن شهوة كانت في غرفتك قبل دقائق من ادعاء حلية فقدان ذهبها. وحين حققت في الأمر جيدًا، اكتشفت أن شهوة كانت تتأمل السوار في إعجاب، وأنها سعدت إلى غرفتك لتأخذ فكرة عن أاثائها وهي تمسك به، ثم سقط منها خطأ بين أغراضك.»
- قطبت حاجبي في حيرة، كلامه بدا مختلطًا. ابتسم بمكر.
- «هذا ما قالته حلية لتهدئ هتر وراغب الغاضبين من اختفائك،

ولتتقي مغبة تحريك المياه الراكدة، ومحاولة العبث مع زوجتي، بعد عبارة ودودة وقصيرة وجهتها لها على انفراد.»

لم أقنعت نفسي بأن أنور عاجز؟ لم رضىتُ على نفسي كل ذلك الأذى في حين أنه كان قادرًا على إنهائه بمجرد معرفته؟!

- «اشرح لي بالتفصيل، كيف سيطرت عليها؟»

- «لم أفعل الكثير، قلدتها فقط، أخذت جولة في غرفتها أثناء غيابها، ولم يطل بي الوقت قبل أن أجد ما أتيت للبحث عنه.»

نفض وسار بتمهل نحو الطاولة، فتح الدرج وأخرج لفافة قماشية، ألقاها إلي وطالبني بفتحها، فتحتها لأجد قدحًا معدنيًا بداخلها. رفعت ناظرًا لأنور بتساؤل؛ فقال بابتسامة مريرة:

- «لقد تعب العم جواد حتى توصل لسبب مرض أبي، بعدما توقف قلبه لبضع دقائق يومها، اضطر لحسر ملابسه عن صدره؛ فوجد تلك البقع المتصلبة الصغيرة تنتشر على جلده. هكذا رجح أخيرًا الإجابة التي لم يشأ التصريح بها من البداية، مم ترين هذا القدح مصنوعًا؟»

- «لا أعرف، من النحاس مثلًا، أو الحديد المطلي؟»

- «يشبه الأقداح العادية تمامًا، صحيح؟ لكنه ليس كذلك! إنه مصنوع من معدن يتوافر بكثرة في بلاد ذوي الأعين الزرقاء، يسمونه (الزرنخ)، يختلط سمه بالشراب الموضوع فيه، وحلية كانت تحرص على أن يشرب الحاكم من هذا القدح منذ ما يزيد عن الستين؛ لأنه كان هدية منها له، وتحب أن تراه يستعمل هديتها.»

فغرت فمي في ذهول، خطتها لم تكن قريبة الأجل، لقد خططت لذلك

منذ أعوام. الخبيثة! لقد تظاهرت بالبراءة أمام راغب، و...

- «لقد بحثت عنه كالمجنونة، استدعت الخادמות ووبختهن، قلبت المنزل، الخطر من كل جهة، لست الوحيد الذي سيكون له تصرف معها لو وقع في يدي، بل راغب أيضاً، بعد أن تلاعبت به وتظاهرت بالبراءة أمامه، هو لن يغفر لها لعبها بذيلها من وراء ظهره. لكنها توقفت عن البحث حين قابلتها في الأروقة، وقلت لها بابتسامة عذبة: (إنه معي يا أم شهاب، سيكون من الأفضل أن نصف ببعض اللطف في القادم؛ كي لا نضطر لاتخاذ قرارات مؤسفة. الابتعاد سيكون حلاً ممتازاً).»

ابتسمت، لكنني لم أكن مرتاحة فعلاً، القصة لم تنتهِ عند هذا الحد.

- «أول ما يجب فعله، إخفاء هذا القدرح في مكان لا يصل إليه جني!»

أومأت بخفوت وناولته له، وضعه في جيبه وجلس.

- «ما معنى: (الابتعاد سيكون حلاً ممتازاً)؟»

- «إنه المعنى الذي فكرت فيه يا غيم، ثم خفت من البوح به، ستغادرين هذا السجن أخيراً، لن تضطري للبقاء في هذا المنزل دقيقة إضافية. لو كنت أعرف أن المسألة يمكن أن تنتهي بهذه البساطة، ما كنت لأعرضك لكل هذا من الأساس!»

بعدم تصديق قفزت من مكاني وأنا أصرخ بفرح وعانقته، نظر إلي في ذهول، ثم في إشفاق.

- «يا إلهي! كم كان هذا المكان يؤذيك!»

- «لكنني بخير الآن.»

- «منذ عدت من تلك القرية وأنا ألحظ تحسناً ملحوظاً في معنوياتك،

هل أنا محق؟»

ابتسمت وأومأت بقوة.

- «هل كانوا دمثين معك إلى هذا الحد؟»
- «عاملوني بأفضل مما عاملني به قومي!»
- «هذا لا يمنع أنهم لا زالوا مختطفين مجرمين!»
- «لكنهم قريباً سيصبحون ظهرنا وسندنا.»

اتسعت عيناه وتأملني في دهشة، وبحذر سأل إن كنت أنوي التحدث عما رأيته. حلت عقدة لساني أخيراً؛ فحكيت كل شيء للحظة التي وصل فيها، لكن ليس من البداية، بل منذ توقفت رواية ساري.

- «هذا.. لا يصدق! رأيته؟ أخبرتك أنك محقة في كل شيء تقولينه وتفعلينه، أنت رائعة في إيجاد الإجابات يا غيم!»
- «أنا لم أجدها لو كنت لاحظت، هي وجدتني!»
- «لأن الإجابات تقدّر من يسعى خلفها، وتأبى أن تتركه يعود خالي الوفاض.»

ابتسمت، واتسعت ابتسامتي حين رأيت ابتسامة شاردة ارتسمت على وجهه، مختلفة عن كل ما سبق، أفهم تماماً ما يمر به من مشاعر.

- «إذن هذا الصندوق.. كان لي؟»
- «أجل، أين هو بالمناسبة؟»

قلتها وأنا أجيل عيني في الغرفة، فأمسك بذقني ليحوّل وجهي إليه.

- «لست أحمق يا فتاتي، لقد خبأته جيداً، حرصك عليه وسط تلك

الفوضى جعلني أتخبط في حيرتي، وأشعري أن في داخله شيئاً مهماً لا آمن عليه هنا. سنفتحه معاً.»

أو مات بحماس. عندما اختفت ابتسامته فجأة ليقلقني.

- «غيم.. في تلك الليلة، حين صرخت الخادمة وركضت لأطمئن على أبي، كان هناك شيء إضافي أردت قوله بخصوص.. حلية وراغب.»

عضضت على شفتي في هم، هل أنا مضطرة لقول هذا؟

- «لست مضطرة لقول هذا.» قالها وهو يشيح بوجهه كأنها قرأت أفكاره. «لقد فهمته، كنت أفكر فيك بالأمس، وأسترجع -بيؤس- آخر محادثة جمعتنا؛ فسأقتني أفكاره إلى التركيز على الاسمين المذكورين، (حلية، وراغب)؛ ما الذي يجمع بينهما من الأساس؟ ولم تطأ قدما راغب الجهة الداخلية؟»

طأطأت بأسف، لم أرد أن يشعر أنور بهذا السوء.

- «تعبت.. تعبت وأنا أخبر أبي أنها لا تحبه، ولا تحمل له ولاء ولا وفاء، وأنها أسوأ اختياراته، وأسوأ أم ممكنة لابنه، كان يظنني أقول ذلك رغبة في أن يعيد أمني، لم يعرف أنني أقوله خوفاً عليه!» اعتدل ورسم ابتسامة مفتعلة ليشعري أنه بخير، وتابع بسخرية: «أعلمين ماذا؟ الحمقاء لم تحزرو، هي تحب اللعب بذيلها، وراغب لا يرى إلا كرسي الحكم، تأمرا على قتل أبي، ثم قتلي، وصدقت أن هذا كاف ليرضى عنها ويتزوجها بعد أن يصبح الحاكم، ويعيشان في أمان وسلام للأبد. لكن هل فكر راغب بنفس الكيفية؟ من قال إن قتلي وقتل أبي سيجعل الحكم يؤول إليه تلقائياً؟ ها؟»

حاولت فهم ما يرمي إليه، وحين سمع شهقتي الفزعة ابتسم ببساطة.

- «أحسن يا جميلتي، دائماً تفهمين الفكرة دون كثير تفكير، لا يزال ابن

الحاكم الأصغر حيًا، ولن يستقيم لراغب حكم ولا سيطرة إلا بالتخلص منه، من ابن حلية!»

- «كأنها حرب بين ثعبانين، ظاهرهما النعومة، والسم مدقع في جسدیهما!»

- «وستأذى كل منهما بسم الآخر، ومن يوقعه حظه العاثر بينهما، لا يحتاج إذن- إلا إلى الابتعاد عن طريقهما، ومراقبتهما في شتاة.»

- «ما الذي تنوي فعله؟»

- «الرحيل أولاً، ثم إبعاد أبي عن هنا، سأعتني به بنفسي.» صمت لثوان مفكراً، ثم قال: «وإبعاد شهاب أيضاً، ولو من وراء حلية، ربما أرسله لليلة كي يبقى معها ريثما أسلم الحكم شفويًا لراغب، وتندبر أمورنا مع حلفائك.»
قالها ضاحكًا؛ فقلت بمكر:

- «عند ليلة؟ مع جوهرة وبدر؟»

- «ذكية، لكنك لم تصيبي الهدف هذه المرة. لم يكن من الوارد أن أتحمل مسؤولية سفرهما عبر ذلك الطريق الخطر، ولم أكن واثقًا من المصائب التي تعاني منها قرية الربوة مثلنا ولا ريب، كما أن ليلة الحامل لن تقوى على رعاية طفلين غريبين.»

- «أين هما إذن؟»

- «في مكان آمن.»

قالها باقتضاب وغمز بعينه مبتسمًا، ثم نهض ومد يده لي.

- «هيا الآن، ستنهضين، وتخرجين، وتزورين أحبابك، وتفعلين كل ما كنتِ تفعلينه قبل أن أسجنك يوم الزفاف! لو أردتِ المبيت عند أهلك، أو

عند تبر؛ فلا تترددي، ولو أردتِ العودة فعودي إلى منزل أمي، سأكون قد انتهيت من نقل أمتعتنا.»

- «أنور، توقف عن الحديث عن زواجنا بهذا الشكل، السجن ليس مرتبطاً به، بل بوجود هؤلاء الأنجاس في العالم! صدقني، حديثك هذا يزعجني كثيراً.»

ابتسم في نوع من الاعتذار، ثم قال مستدركاً.

- «صحيح، ما رأيك في زيارة لساري أيضاً؟» ارتعدت، لكنه لم يكن ينظر نحوي لحسن الحظ. «تعمدت جعله يصحبك، توقعت أن موقفاً كهذا سيقربكما أكثر، وأظنني نجحت.»

- «أكثر مما تتصور.»

قلتها بلهجة جعلته يطالعني في ارتباك.

طرقت الباب وأخذت أهتز مكاني بحماس منتظرة الجواب، تراجع بضع خطوات وأخذت أتأمل المنزل الذي أحببت زيارته منذ طفولتي، لم أتخيل يوماً أنني سأشتاق إليه بهذا القدر!

- «هذا ما كنت أقوله، غيم لا تستحق ذلك، غيم طموحة وجامحة، لا يمكن أن ينتهي بها الأمر تحت رحمة حلية، ممنوعة من الخروج ومن زيارة حتى أهلها!»

كذا سمعت صوت تبر المحتد من الداخل، لم ينسوني أيضاً، ولم ينشغلوا بحياتهم عني، تساءلت تبر عمن وراء الباب؛ فأخبرتها بابتسامة تكاد تقسم وجهي إلى نصفين. بسرعة البرق فتح الباب، وطالعتني تبر بعينيها الزرقاوين

المفتوحتين عن آخرهما.

- «يا إلهي! لم أتوقع!»

قالتها صارخة ثم قفزت فوق حربيًا، لم أستطع منع دمعة من الانحدار وأنا أقبض بذراعي على جسد تبر كأني أخشى أن تختفي من أمامي، يا لشوقي لك يا أختي الحبيبة!

- «كنا نتحدث عنك للتو، أين اختفيت؟ كيف حالك؟»

- «سمعتك، أنا بخير، بأفضل حال حقًا، اليوم تحديدًا.»

ابتسمت بفرح غامر، ثم قالت بنوع من الإحباط:

- «أردت دعوتك للجلوس معي لكن...»

- «لا بأس، سأعود لاحقًا، عندما يتسنى لك...»

- «يتسنى لي ماذا؟ وهل توجد حواجز بيننا؟ قصدتك أنت، هل تستطيعين الجلوس معي لبعض الوقت؟»

ارتفع حاجبائي بفهم، ثم ابتسمت بسعادة، أزحتها عن طريقي ودخلت تحت ناظرها المذهولين.

- «أستطيع الجلوس معك للأبد لو أردت.»

- «العصير والكعك وأي شيء لديك في المطبخ يا أمي، غيم هنا!»

- «غيم هنا؟!»

قالها وادع بذهول وهو يطل من غرفته؛ فابتسمت ولوحت له.

- «كيف أصبحت؟ رباه! تبدين بخير فعلاً. منذ رأيت تلك النظرة في

عيني أنور وهو يقول إنه سيتصرف، حسنًا، لم أتوقع أن ينفذ بهذه السرعة!»

جلست مع تبر في غرفتها لساعات، أخذنا نتحدث عن ألف موضوع، كأننا أمي وخالتاي حسناء وودود فيما مضى، لم أتخيل يوماً أن تتراكم تفاصيل الأحداث علينا بعد أن كنا نعيش كل شيء معاً!

- «سعيدة لأن أنور كان كفؤاً حقاً ولم يقبل بإيذائك.»

- «أرجو أنك غيرت رأيك في حياتي الجديدة.»

ابتسمت بشيء من الحرج؛ فتابعته بهدوء:

- «لم يبدأ هذا مع زواجي لو كنت تذكرين.»

- «بصدق، لقد كرهت الزواج بغض النظر عن أي شيء، ومع هوية الخاطب الذي جاء لأبي كرهته أكثر.»

هبت جالسة وأنا أنظر إليها بذهول، لهذا الحد انقطعت عن أخبارها؟

- «أنتِ خطبتِ؟ من هو؟ قولي!»

راودني خاطر فأفزعني، ماذا لو كان من ببالي؟ كيف سأتعامل؟

- «لم يتم الأمر يا حمقاء، ليس في غيابك على أي حال! لقد طرده أبي ووداع دون أن يفكر مرتين.»

- «طرده، يا إلهي! من هذا المنبوذ؟»

- «خمني، يبدأ اسمه بحرق القاف.»

- «لا أعرف شاباً يبدأ بـ... قاف؟ من؟ قاسط؟»

فلتها باستهزاء؛ فانسعت ابتسامة تبر بمعنى: (لقد وصلت).

- «ماذا؟ أنتِ تمازحينني، صحيح؟»

- «أسألي وادع إن لم تصدقيني، لقد أتى قاسط لخطبتي!»
- «هذا.. غير منطقي حتى! هل تعرفين من يكون قاسط؟ هل تعرفين ما فعله ويفعله؟ بغض النظر عن كونه صفراوياً!»
- «لا يهمني أن أعرف، جدياً.»
- «لكن ما الذي دفعه لفعله كهذه؟ الصفراوي الصميم يتقدم لخطبة فتاة زرقاء؟»

انفجرت تبر ضاحكة، الآن ستقول إنها مزحة، صحيح؟

- «لقد انزعجت من الأمر أكثر مني يا غيم! أصبحت أؤمن أن كل شيء قابل للتغيير، إلا إفراطك في التفكير!»

ابتسمت أجارياً، ستكون في ورطة إن كانت تظن أن الأمر يمكن أن يمر مرور الكرام، لعلها تتجاهله فقط.

- «على فكرة، هل تعرفين سبب اسميهما الغريبين؟ هو وأخته.»
- «سمعت من أبي مرة، من الطريف أن ذكر هذه العائلة يستلزم ذكر الجهل والحقارة في نفس العبارة، حين وُلد قاسط، أرادت أمه أن تختار اسماً شاذاً يميّزه، كانت مولعة بالخروج عن المألوف.»
- «هذا يفسر ذوقها في الملابس وطريقتها في الكلام.» قاطعتني تبر باستمتاع.

- «المهم أن زوجها المحب سعى لتحقيق رغبتها، ذهب لشيخ من شيوخ الدار، وانتقى له الشيخ اسماً يدل على الصلاح، اختار اسم (مقسط)، لكن الدهون لم تكن تغطي كرش هتر فقط، بل عقله أيضاً، لقد نسي الاسم ما إن وصل إلى منزله؛ فكرر على مسمع زوجته الحروف التي يتذكرها بترتيبه

- الخاص، ونال الاسم إعجاب زوجته، ولا عجب.»
- «بالطبع، ولكل من اسمه نصيب، لم يكن ليفرق الهتر بين القاسط والمقسط، ولم يكن للقاسط أن يدعى مقسطاً! وشهوة؟»
- «إثارة جدل، أحبوا تطبيع الكلمة على السنة الجميع، وها هو مناهم قد تحقق.»
- مطت شفتيها باشمئزاز، جاء وادع واستند على الباب عاقداً ذراعيه بفرح، لا يريد قول شيء على الأرجح، فقط هو مسرور.
- «ألن تخبريني بشيء؟ أي تفاصيل؟»
- «أظن أن أنور سيخبرك على أي حال، دعني الآن في الثرثرة الفارغة، هذا أكثر ما حُرمت منه مؤخرًا!»
- ابتسم في استسلام، لكن صوتاً إضافياً تدخل.
- «تحمينات غيم كلها صحيحة، أنور يريدك حالاً يا وادع، عند مزرعة حيّان المهجورة.»
- كيف يدخل هذا الصغير المنازل فجأة؟ أوماً وادع ولم يضيع وقتاً للتنفيذ، في حين سرت رجفة في جسدي إثر ذكر مزرعة حيّان. لم هناك بالتحديد؟ للابتعاد عن المتطفلين على الأرجح. وقف شهاب ينظر إلى تبر نظرة ذات مغزى، يريد شيئاً منها، صدقوا أو لا، لقد أوحشني هذا الصغير فعلاً، برغم أنني كنت أراه يومياً.
- «ماذا؟ دورق من العصير كالعادة؟»
- «من فضلك.»
- قالها ضامماً كفيه في رجاء مفتعل، ضحكت تبر ونهضت، لكنها توقفت

فجأة وهي تركّز أنظارها على شهاب باستغراب، مدت يدها بسرعة وسحبت شيئاً من جيبه، منديلي الذي طرّزته!

- «شهاب، هل تسللت إلى غرفة غيم أم ماذا؟»

- «لا، هذه لم تكن في غرفتي من الأساس!»

قلتها بصرامة وأنا أثقب شهاب بنظراتي، لو لم يخب ظني فإن عيني الصغير متورمتان، من البكاء على ما يبدو.

- «غيم.. أنا.. أنا... تبر، هل أنفرد بغيم؟ لو سمحت.»

- «غيم لم تأتِ إلى هنا لتنفرد بك يا مزعج، بل بي، إنها معك في منزل واحد على كل حال!»

قالتها بانزعاج وهي تلقي المنديل تجاهي وتتجه للخارج؛ فقلت:

- «صديقي، لم يكن حالنا كما تظنينه في ذلك المنزل الواحد، كما أن هذا لن يعود صحيحاً منذ الآن.»

نظرت إليّ بدهشة وطالبتني بعدم حرق الأحداث، سنصل إلى هذه النقطة. خرجت فارتمى شهاب في حضني وانفجر يعوي كما لم أره من قبل، أخذت أربت عليه وأهدئه في ذهول.

- «شهاب، حبيبي، اهدأ، ماذا حدث؟»

- «أنا آسف، ساحيني، أنا نذل، وخسيس، أنا شخص لا يعتمد عليه،

مجرد جبان لن يصبح قوياً أبداً، ولن يكون صبيّاً من صبيان رجال الحماية حتى!»

- «لم تقول عن نفسك هذا؟ هذا غير صحيح!»

توقف عن البكاء بصعوبة وأخذ يرتجف وهو يقول بلوعة:

- «لقد رأيت كل شيء، رأيت ساري وهو يأخذك إلى ذلك المكان، لقد تبعتكما، صحبت عقلة ليرشدني؛ لأنني أحببت دخول منطقة الجبال، وإثبات أنني رجل مثل أنور، رأيتَه وهو يقيّدك ويسلمك للرجال، ورأيتك وأنت تبكين وتنادين عليه بلا جدوى. لكنني جئت عن الدفاع عنك، أو عن إخبار أنور بما رأيت، خفت أن يؤذيني ساري أو يأخذني إلى حيث أخذك!»

اتسعت عيناها في ذهول، أيعقل أنه كان موجوداً؟ ما التفسير البديل لمعرفته بكل التفاصيل إذن؟

- «هذا لا يعني أنك جبان يا شهاب، هوّن عليك، الجميع يخاف من فعل أشياء ما أحياناً، أنا مثلاً، خفتُ من إخبار أنور بما تفعله.. حلية معي..»

تعمدت قول حلية؛ لأشعره -عبثاً- أنني لا أعني أمه. «في الآن نفسه، لقد كنت شجاعاً بما يكفي لتفعل ما جئت أنا عن فعله.»

هدأ كثيراً، توقف عن الارتجاف نسبياً، وقال بخوف:

- «لكن لم فعل ساري ذلك؟ أنت لا تستحقين الأذى!»

- «لكل شخص أسبابه يا شهاب.»

فلتها بخفوت وألم، ثم قلت بابتسامة متكلفة:

- «لكن هذا سيبقى سرّاً الصغير، اتفقنا؟»

- «لكن لماذا؟ أنور سيعاقبه، وسيأخذك حقلك.»

- «في ذهني اعتبارات أخرى، و.. هذه رغبتني.»

- «كما تريدن، لكن بالنسبة لي، لن أسامحه أبداً!»

ابتسمت باستلطاف، هذا الصغير يلوم نفسه بهذه الحرارة، ألم يشعر ساري بوخزة ضمير مشابهة حين كنت أصرخ كي يعود إلي؟
- «لم تخبرني، كيف وصل المنديل إليك؟»

امتقع وجهه مجددًا، جلس على الفراش وخفض صوته وقال:

- «كانت أُمي مع خالتي في المزرعة، وكنت ألعب مع الكلاب قريبًا منهما، ابتعد الرمادي خارج حدود المزرعة ثم سمعته ينبج بحرارة، توجهت نحوه لأعرف سبب نباحه، وحين اقتربت منه توتر جمره وثلج أيضًا، كان هناك أحد يتحرك قريبًا وببطء، كأنه يريد منا أن نلحق به، حاولت الكلاب مطاردته لكنني منعتها، وعاد الرمادي بمنديلك في حين اختفى المتسلل، تعرفته فورًا وأصابني الذعر، أتت أُمي إثر النباح العالي وسألني عما حدث، وأؤكد لك أنني بذلت مجهودًا جنونيًا لإخفاء المنديل عنها، وتلفيق قصة من خيالي، خفت أن ترسل رجال الحماية وراءك عن طريق تتبع من رمى المنديل. بصعوبة هربت من المزرعة واتجهت إلى منزل خالتي مخمل، وأدركت أنور قبل أن يغادر، كنت قد شُبعَت أنوف الكلاب برائحة منديلك جيدًا، خاصة الرمادي، وطلبت من أنور أخذهم معه.»

ابتسمت بلطف، فردت ذراعيّ وضممته.

- «أنت بطلي! لا تصدق كم يعني لي كلامك وتصرفاتك، لقد أنقذتني ثلاث مرات خلال أيام! أنت رجل يا شهاب، رجل قوي وشهم، لا تدع شيئًا يقنعك بأنك عكس ذلك.»

ابتسم شاكرًا بفرحة غامرة وهز رأسه، لكن بقي في ابتسامته انكسار غريب.

- «غيم، سرعة، وقبل أن تعود تبر: كيف يتصرف المرء إذا عرف أن أمه

شخص سيء.»

ابتلعت ريقى ولم أعرف ماذا علي أن أقول بالتحديد.

- «لماذا.. لماذا تظن ذلك؟»

- «ليس فقط لما فعلته معك، ولا تعاونها الشرير مع شهوة وقاسط، لكن أيضًا..» تنهد بهمّ كأنه شخص بالغ. «لقد سمعتها ورأيتهما مرارًا، مع عمي راغب، أنت سمعت ذلك أيضًا، صح؟ حين كنت في المطبخ، لقد ناديت أمي وقتها كي لا تكشفك.»

اتسعت عيناى بدھشة، لقد أنقذنى عامدًا إذن!

- «في الحقيقة.. أخبرت أصدقائي بما رأيته وسمعتها؛ فأخبروني.. أن أمي.. شخص في غاية السوء، بهذه الكيفية.»

أصدقاؤه؟ ألدیه أصدقاء؟ بغض النظر عن ذلك، بقي فمي مفتوحًا لبضع ثوانٍ دون أن يفتح الله عليه بكلمة. لا أستطيع قول إن ما حدث لا يعني بالضرورة كون أمه شخصًا سيئًا، لا يمكنني إفساد ميزانه لكي لا أجرح مشاعره. هي تجربة قاسية بلا شك، لكنه شديد بما يكفي لتحملها وتجاوزها.

- «هذا يكفي، لقد انفردتما ببعضكما أكثر من اللازم!»

- «أظن ذلك أيضًا.» قالها شهاب بابتسامة واسعة كأن شيئًا لم يحدث، وهو يتناول منها ورق العصير. «سأذهب الآن، تأخرت على جوهرة وبد...»

قطع كلامه من المنتصف وغطى فمه بيده في فزع، حدّقنا فيه بذهول؛ فقال متوسلاً:

- «لو عرف أنور أنني تحدثت عن ذلك فسيقطع لساني، أرجوكم، أرجوكم، اكتموا هذا!»

- «لا بأس في أن يقطع لسانك، سيبقى لك خمسة على أي حال.»
قالت تير ضاحكة؛ فقال شهاب بجدية:

- «بل سيبقى ستة؛ لقد نبت لي لسان جديد قبل أيام!»

انفجرنا ضاحكين، لَوَّحَ شهاب بيده مودعاً وهو يبتعد بالدورق، التفت إلي بابتسامة وقال قبل أن يذهب:

- «غيم، شكراً على إجابتك، حتى لو لم تنطق بها.»
قالت تير بتردد بعدما رحل شهاب:

- «على فكرة، لا بد أن كرهك للزرق تضاعف أمس، صح؟»

تورّد خدائي بحرج، لقد جرحت مشاعرها منذ ذلك اليوم، وتظاهرت بأن كل شيء على ما يرام، لمجرد أنها تظاهرت بذلك.

- «كلا يا تير، لقد أخطأت من البداية حين استعملت المصطلح الذي نشره الصفراويون، ذوو الأعين الزرقاء ليسوا نوعاً واحداً، وليسوا على عقيدة واحدة، وليست لهم تصرفات موحدة، تماماً مثل الصفر. وبغض النظر عن أي شيء، يكفي أني أعز صديقاتي زرقاء، ولأجلها أحب الزرق كلهم!»

ابتسمت بامتنان؛ فتابعت:

- «الزرق لم يكونوا السبب من البداية، بل المعادون لغارسي الفسائل، استرجعي معي يوم الانفجار الأول، أذكركن المثلث الذي خرج من الدكان وأفزعنا؟ هل دققت في لون عينيه؟»

- «لم يكن عقلي معي، هل كان عقلك رائقًا لتحليل الصورة؟»
لا تعرف أن عقلي يختار هذه الأوقات تحديدًا ليعمل.
- «لقد كانت عيناه صفراوين يا تبر، لكن الانطباع الذي لازم عقولنا بأن الزرق هم سبب الدمار أعمانا عن رؤية ذلك!»

كانت أول عبارة قلتها حين فتحت أُمي الباب هي:

- «لم أعد مضطرة للعيش مع حلية!»

استغرقت أُمي بضع ثوانٍ لاستيعاب رؤيتي ثم كلماتي، ثم للصرخ في فرح، ثم للانقضاض علي وإغراقي بدموعها. دخلت مسرعة لأرى أبي والقلق ينهش قلبي، حسناً، لم يكن بحالة ممتازة، لكنه كان أفضل من توقعاتي بكثير بحمد الله. فجأة أنزلت أُمي مائدة لا يرى آخرها، لا أعرف كيف استعدت بكل هذا مسبقاً، وبلا تردد جلست وأكلت، وأكلا، أكلنا جميعاً بشكل جيد، لم يبعد أبي عينيه عني للحظة واحدة، أعدت أُمي الشاي، والشاي بالحليب خصباً لي. قال أبي بلا مقدمات، وبنبهة جعلت قلبي يتمزق:

- «غيم، ألا يمكنك.. لليلة واحدة أن...»

- «بل يمكنني، ولهذا أتيت.»

دمعت عيناه، لا، بل بكى، وحن دوري لأضم رأسه إلى صدري وأهدئ من روعه، بقيت وراءه حتى ابتسم أخيراً وتفاعل معي، ومن باب تذكيره بنشاطنا القديم المحبب، أخذت أسرد له ما توصلنا إليه، وما ينوي أنور فعله، متلافية ذكر قصة اختطافي.

صوت انفجار قاطعنا، لكننا لم نلتفت له حتى، كان يومًا استثنائيًا لجميعنا، وبدا مثل مكافأة مستحقة بعد دهر من العذاب. بعد بعض الوقت، طرق الباب، نهض أبي ليفتح، لكنني أوقفته وذهبت أنا.

- «أهلاً أنور، هل حدث شيء؟»

أطل أنور برأسه ليستوثق من أن والدَيَّ بعيدان، ثم قال بحذر:

- «مزرعتكم، أنا.. آسف، أرجوك، لا تخزني.»

هوى قلبي، كان ذلك متوقعًا، من قال إننا عندما ننفذ شروطهم ونخلي المزرعة؛ فإن هذا سيجعلهم -بالضرورة- يلتزمون؟ لكن كما سبق وقلت، توقع السوء لا يكفي لتخفيف آثاره وقت وقوعه.

- «أبي، أنور يريد أن يربني شيئًا، لدقائق فقط وسأعود، أيمكنني؟»

نظر إلي بنوع من الحيرة، كأنه يقول: (لم تسأليني؟)، لكنني كررت:

- «هل أستطيع الذهاب يا أبتى؟»

- «بالطبع تستطيعين يا حبيبة أبيها.»

أوقف أنور الرمح عند بوابة المزرعة، حيث كان يتعد آخر الرجال الذين ساعدوا في إطفاء الحريق. أول شيء أدركته أن المزرعة لم تعد لها بوابة، وأنها ليست مزرعة. الشيء الثاني كان كوخ سهل الصغير، كان شبه متفحم، والباب مفتوح عن آخره، نظرت لأنور في فزع؛ فأخبرني برفق أنهم حملوه لدار الطب.

ركضت إلى الداخل، أول مكان أردت التوجه إليه كان مكاننا المفضل، أنا وأبي، عند شجرة الأراك العملاقة، التي لم تعد شجرة، ولا عملاقة، مجرد تكوين متفحم ليس له كنه، تباطأت خطواتي حتى توقفت تمامًا وبقيت

أتأملها بلا أي تعابير. وضع أنور يده على كتفي متعاطفاً؛ فقلت بصوت مبحوح:

- «أنور، هل أستطيع البقاء وحدي؟ إذا سمحت.»

- «هل ستكونين بخير؟»

- «أنا بخير أصلاً، أريد فقط.. توديع المزرعة، على انفراد.»

بتردد تراجع أنور وتركني وحيدة، تقدمت حتى جلست في الموضع المعتاد، تربعت وضممت ركبتيّ إلى صدري، متى كانت آخر مرة نظرت فيها من هنا؟ لم تعد السماء رائقة تجبر الذهن على أن يصفو، ولم تعد طرقات القرية مما يغري بالمتابعة، دخان بالأعلى، ومقابر بالأسفل. لم أكن واثقة تماماً من أن بوسعي الاستناد إلى بقايا الشجرة كما كنت أفعل مع الشجرة، لكن جزءاً ضئيلاً جداً بداخلها بقي صلباً، كالذي بقي بداخلي، وتحمل استنادي إليه برحابة.

لم أفق من شرودي إلا على شيء يسقط على حجري من الأعلى، نظرت إليه بطرف عيني، خنجر وادع بحزامه. عدت أتأمل طرقات القرية، رمية أخرى، صرّة مليئة بشيء ما. لم أتحرّك، شيء ثالث يُلقى، لكن جواري بدلاً من داخل حجري. لم أحتج إلى النظر لساري هذه المرة. عم الصمت لوقت طويل، لم أنظر تجاهه، برغم ذلك لاحظت ارتجافه الفطيع، يرتجف كأن صاعقة من السماء أصابته، يرتجف إلى حد أنني أسمع صوت اصطكاك أسنانه، مع أن أشعة الشمس تؤدي عملها بما لا يترك لحالته تفسيراً!

- «لماذا لم تخبريهم؟»

قالها هامساً، لم أرد، عم الصمت مجدداً قبل أن يقول:

- «هناك الكثير من الأشياء بوسعها حجب العقل، وليس الشراب أسوأها، الغضب مثلاً، إنه مريع! أنا.. لم أغفر لك شكك بي قط، كنت أراك كل عالمي، كنت أظنك حقاً تفهميني أكثر من نفسي، كنت واثقاً دائماً من أن غيم هي داعمي الأول، وأنها الشخص الوحيد الذي لن يعطيني ظهره مهما حدث. لذا.. لم أتحمل، جن جنوني حين عرفت أنك تفكرين في بتلك الطريقة، ومنذ ذلك الوقت المبكر! ثم لم أغفر لك إخبار أنور، ووضعني في خانة المتهم أمامه وأمام وادع. لقد أحبتك، بصدق، وأحبتهم أيضاً، وادع وأنور والعم جواد وت... ولم أتحمل ما فعلتموه بي. حين انتهى كل هذا، شعرت أن شيئاً في داخلي تغير، بشكل ما لم أعد أتذكر غيم، الغضب محاً كل شيء جميل جمع بيننا، قلت إن هذا ما تستحقينه؛ لأنك نسيت كل شيء جميل بدورك، وبدأت باتهامي والشك بي. لم أرد النقود، ولم أرد أي مصلحة، أردت فقط إخبارك إلى أي حد أستطيع التخلي عنك، اختفت الألوان من عيني، كل ما أردته أن أمعن في إيذائك، أن أذيقك مرارة ما ذقته حين تخلّيت عني ولم تكوني الشخص الذي ظننته.»

سكت لثوان، لم يكن كلامه أكثر ما هز قلبي، بل نبرته، نبرته الحارة المرتعشة، نبرته المليئة بالانفعال والأسى، ثم فعل آخر شيء توقعته، وضع كفيه على وجهه وانفجر في البكاء، كأنه طفل صغير، يبكي بلا توقف، بكاء مريئاً يمزق نياط القلب. بتردد مددت يدي، كدت أضعها على ظهره، كان الموقف مهولاً بالنسبة لي، ساري يبكي!

- «ظننتني سابقى هكذا للأبد، بحقدي الشنيع عليك، وبرغبتني المتعطشة لإيذائك، إدمان لم يستبد حتى بشاربي الخمر. لكنك وقفت في وجه هذه المخططات، وجعلتني أشعر بأنني تلقيت صفعاً معتبرة على وجهي حين قلت تلك العبارة.»

- «أي عبارة؟»

قلتها بلا صوت، فابتسم ابتسامة مقهورة.

- «(يا لك من...)، صدقي أو لا، لقد كانت أكثر عبارة احتجت إلى سماعها لأستفيق، تلك العبارة التي لم تتوقفي عن توجيهها إلي منذ كنا صغاراً، أتعلمين يا غيم؟ دائماً كنت أراك ظريفة، ولطيفة أكثر من المعقول، وكنت أستلطفك أكثر عندما.. تكونين غاضبة! لا أعرف كيف لم تعي ذلك طوال هذه السنين، لكنني كنت أتعمد استفزازك حتى أراك تفقدين أعصابك، كان هذا محبباً فعلاً بالنسبة لي، ربما بدا ذلك مختلاً، لكن ما الفارق؟ كل انفعالاتي وأفكاري وتصرفاتي مختلة، موازيني كلها كذلك! ما أردت قوله.. أنني لم أستطع التنفس منذ رحلت العربية، لم أستوعب ما فعلته بيدي قبل لحظات، لم أتحيل أنني تطرفت إلى حد إلحاق الأذى بك، وإلى حد سماعك تستغيثين بي؛ فأعطيك ظهري وأتجاهلك! لم أستطع مواصلة السير، طرقت باب العجوز، وفقدت وعيي، قضيت ساعات حتى استفتقت، وحين امتطيت حصاني وعدت إلى أنور ووادع اللذين يكادان يفقدان عقليهما، لم يسمح مظهري بأن يفكرا في قصتي المختلقة مرتين، و.. أنت تعرفين الباقي.»

لم أستطع التفكير في كلام مناسب أقوله؛ لذا تكلمت بدون تفكير.

- «سؤال واحد كان سيحدث الفارق، وكان سيمنع شراً كثيراً من الحدوث. أتعرف؟ في يوم من الأيام قلت إنني أتحمل أي شيء، أي شيء، إلا أن أعيش ليوم أخذل فيه من أحب.»

- «لا، لم أنته بعد، ولم أقل كل ما قلته لتوجيه اللوم إليك. لقد كان الطريق إلى تلك القرية طويلاً وقائماً بما فيه الكفاية لأسترجع كل شيء، وتحت السماء الحالكة، سطع فجأة نور مبهم المصدر، وقع على كل تصرفاتي فأوضح لي كل

ما لم يكن واضحًا. من قال إن غيم قد خذلتك؟ من قال إنها تخلت عنك؟ فلم إذن صمتت كل تلك المدة ولم توقعك في مشاكل؟ لم تجاهلت نداءات ضميرها فقط كي لا تراك في وضع مهين؟ لم لمحت لك مرة ومرتين وألفاً؟ ولم كانت تظهر في كل مرة بابتسامتها الرقيقة وتضحك وتحدث إليك برغم ألمها ومخاوفها؟ حتى عندما قررت اتخاذ خطوة، هي لم تؤذك، ولم تحاول تصعيد الموقف، لقد اكتفت بإخبار أخيك وصديقك! لماذا كانت كل تلك المواقف الراقية منك تتخذ هيئة خذلان في رأسي؟ والأسوأ: أنني -برغم كل الفرص التي منحتني إياها- لم أحاول مساعدتك ولو قليلاً، كنت أخس أخ ممكن، أراك قلقاً من عرق السوس الذي أحمله؛ فأتسلى بإفزعك أكثر، أتلقى سؤالاً مذعوراً منك عما كنت أفعله؛ فأجيبك بإجابة غامضة لأن مظهركِ وأنت خائفة بدا لي مضحكاً! أي جنون! لقد ارتكبت كل الأخطاء وحدي، وانتقمت منك على الأخطاء التي فعلتها! أتعلمين لم حدث كل هذا يا غيم؟»

انتقلت عدوى الارتجاف إلي، هزرت رأسي بحيرة؛ فقال:

- «لكي أعذر حيّان، ولأفهم أن خطأ واحداً لا يجعل المرء سيئاً للأبد، ولا يجعله مستحقاً للعن والكره مدى الحياة. لقد أخطأت، خطأ أفضع من الذي ارتكبه حيّان، لقد اكتفى بإيذاء نفسه، بينما أذيت أنا.. حبس قلمي!»

انفجر باكياً، وانفجرت معه، لم يكن على كل هذا أن يحدث، من الملام في هذا؟ ربما لا أحد، كما قال أبي؟ بلا تردد ضممتني إلي؛ فغاص وجهه في حضني كطفل تاه عن أمه، لم يكن يبكي لأجل ما حدث الآن، بل كان يبكي كل ما حدث له منذ طفولته!

- «سامحيني يا أختي، لو لم تسامحيني فإن حياتي كلها لن تصبح ذات معنى. أي حياة؟ أنت كل حياتي! كل عمل جيد فعلته كان لإبهارك، كنت أشارك في السباق لأجلك، كنت أتابعك في كل خطوة، وأفزع لكل شوك

تحترق جلدك الرقيق، كنت أعرف أنك جامحة ومجنونة، وكنت أحب هذا، وأخافه؛ لذا أقسمت ألا أتركك تتأذين أبداً، وفي كل مرة كنت متأهباً بسهامي وكل ما في داخلي من شراسة، ومستعداً لتمزيق ما يوشك على إيدائك بأسناني، ربما لو كنت منصفاً، لكان علي تمزيق نفسي!

- «ساري...» لم أقوَ على قول شيء آخر.

- «أنا أهتم يا غيم، بكل شيء، يستحيل أن يوجد من يبالي أكثر مني! لربما عرفت هذا، وعرفه عمي مدرار وأمي، لكن ما لم يعرفه أحد، مدى تطرفي لو أد هذا الاهتمام المفرط، بشكل ما وجدت أفكارني تحاصرني، وتمنعني من الحياة، وبدلاً من إشغال نفسي بتنظيمها وتفنيدها واختيار ما يهم منها، كنت كسولاً بما يكفي لألقي كل شيء وراء ظهري. حين رأيت العم جواد يُتهم بتوزيع النيذ، كان علي أن أنطق بما حدث، وأوضح أن هتر هو صاحب الخدعة، لكن الصوت المستهتر في داخلي أخبرني أن هذا عديم الجدوى، بعد دقائق سيصبح هذا ماضياً، لا شيء يدعو للتحرك! الشيء نفسه راودني وأنا أراهم يقتحمون منزل العم جواد، لقد كنت أتخذ السياسة نفسها في كل أموري، حتى ما يخصني أنا، إلا فيما يخصك! حين اعترفت أمام المحكمة، لم يكن لتبرئة نفسي، ولا خوفاً من أن يطالني الاتهام، بل لأنك تدخلت في القصة، وخفت أن أرى نظرة اتهام في عينيك، أو أن أخيب أملك. ظننت أن تبريري يومها سيكون كافياً لطمأنتك، لم أعرف أن هذا الشك الذي تحمليته تجاهي كان غيضاً من فيض! لم أرد ضربات وادع لأنني لم أقوَ على ضربه، حتى لو اتهمني بلا دليل وأذاني، ويوم أنقذته من الغرق، أنت محقة، فعلت ذلك لأجلها. أنا، لا أصدق أنني كنت بهذا التخاذل، تصرفاتي كانت السبب في كل ما حدث، ثم تجرأت على إلقاء اللوم عليك!»

- «أنت لست سيئاً كما تظن، بل أسوأ ما فيك أنك رأيت نفسك بهذا

السوء، وسمحت لها أن تتعامل على أساسه، أنت لم تشعر أنك تستحق الأفضل، لم تبذل جهدك لتفوز في سباق أو تستثمر في تجارة، لقد أقنعت نفسك أنك لا تصلح؛ فأصبحت كذلك!

رفع رأسه ونظر في عيني، بخفوت قال:

- «هل يوجد أمل في أن.. تعود لي لتقبلي فقط؟ لن أسرف في التمني، لن أقول إنني أريد لعلاقتنا القديمة أن تعود...»

- «لكنها ستعود، لو وافقت، ولو شعرت أنك تستحق هذا العفو مني، كما شعرت قبلك أنني أستحق عفوكم على سوء ظني، لقد سامحتك يا ساري منذ اللحظة التي رأيتك فيها تكاد تحترق حنجرة جلف بسيفك، لم أحتج إلى أكثر من معرفة أنك من دلهم على مكاني، عني لي ذلك الكثير.»

- «لم تتغيري، دائماً تسامحينني قبل اعتذارتي، لو قلت إنك تشبهين أُمِّي فلن أبالغ.»

قالها بابتسامة جذلة كابتسامات الأطفال، لسبب ما شعرت بالسرور لأنه عرى ضعفه أمامي بهذا الشكل، كان بحاجة إلى هذا، منذ سنوات طوال، كان هذا أكبر مخاوفه، صنمه الأعظم الذي سيتسبب انهياره في انهيار كل الأصنام الأصغر تبعاً: أن يعترف بأنه يهتم! ناولته صرته بابتسامة؛ فدفعها برجاء إلي.

- «أرجوك، لا أستطيع أخذ نقود اكتسبتها بخيانتك!»

- «إنها لك يا ساري، وأنا سامحتك.»

- «قلبي يؤلمني، آسف لكسر خاطرك يوم زفافك، ظننت أنني أرد لك ما فعلته بي يوم خطبتك، لم أنتبه لفارق أنك كنت تملكين سبباً، ولم أكن أملك

واحدًا.»

- «أنت.. لم تسافر إلى أي مكان، صح؟»
- «لم أفعل، بقيت على فراش ودود طوال اليوم، أثقلب فيه كمن ينام على سرير من الأشواك، وتراودني الكوابيس والهلوس. هل تستطيعين.. اعتبار هذه النقود.. هدية الزفاف؟»
- «لا.» قلتها بحزم وأنا ألقى النقود جانبًا. «لن أقبل بغير حزمة من عرق السوس، مع دورق من عصيره.»
- ابتسم ساري، أصبحت انفعالاته حقيقية أخيرًا.
- «لن تحببه، صديقي، برغم ذلك عيوني لك، وسيكون لديك ما طلبت، كم أختًا لدي؟»
- ضممني وقبل رأسي، كان حنونًا جدًّا، عرفت أنه يحمل كل هذه الرقة في داخله، لكنني لم أتوقع أن يظهرها بهذه الصراحة يومًا.
- «ما رأيك ب.. نزهة ثنائية؟»
- «حقًا؟!» قلتها بدهشة، متى كانت آخر مرة سمعت فيها هذا العرض؟ «متى، وأين؟»
- «ما رأيك بالليلة؟ إن كنت متفرغة.»
- «بصراحة.. لقد وعدت والدي أن أقضي الليلة معها.»
- «لا بأس، غدًا صباحًا؟»
- «اتفقنا، لكن إلى أين؟»
- «دعيتها مفاجأة.» قالها وغمز بعينه في مرح، ثم اختفت ابتسامته وقال

بخفوت: «إن كنتِ لا تزالين تأمنين على نفسكِ معي.»

- «انتهى العتاب عند هذا الحد، حسنًا؟» قلتها وأنا أضرب كتفه بدلال.
«هل ستأخذني إلى حفل البهاليل أم ماذا؟»

ضحك باستمتاع، ثم نهض وساعدني.

- «هل نتمشى؟»

أومأت ونهضت معه، قال وهو يسير:

- «لم أكن أحضرها، صدقيني، فقط أردت أن أبهركِ بشيء ما حتى لو كان سلبياً بالنسبة لكِ. شعرتُ أنه من الممتع أن تنظري إلي كشخص لا يهمه شيء.»

انفجرت ضاحكة وشاركني، جدياً، كيف كنت أفسر تصرفاته بهذا السوء؟ شعرت أن أوان أسئلتني قد أزف.

- «على سبيل الاستفسار لا اللوم، كيف خططتم بهذه الدقة؟ أعني.. كيف كانوا ينتظرونني يوم مشكلة حلية بالتحديد؟»

- «لم يسر الأمر هكذا، لقد طالبوني بجلب شخص من بيت الحاكم منذ أيام، ولم يحددوا موعداً، وهم يقيمون معسكراتهم عند تلك النقاط بشكل دائم، و.. وأحببت استغلال فرصة وجودك.»

- «من أين تعرفهم أصلاً؟ لم طلبوا منك تحديداً؟»

نظر إلي ملياً وقال:

- «لا أعرف إن كان هذا من حسن حظك أو سوءه، لكنها كانت صدفة بحتة، كنت ذاهباً إلى منزل العجوز صباية، وقابلوني في الطريق وعرضوا علي المقابل، وتم الاتفاق بسرعة.»

تذكرت كلام القائد راسخ عن الشاب الجشع الذي وافق ما إن عرضوا عليه المقابل. ابتسمت موشكة على طرح السؤال التالي، لكنه بادر:

- «ريشة هو حفيدها اليتيم الذي تربي على يديها، آخر من تبقى من أسرته بعد رحيل ابنها إلى غير رجعة، كان يعيش معها ويتكفل بأمورها، لكنه.. قتل، أثناء غارة من غارات الزرق، كلفني رجل الحماية وطيد بالبحث عن أهله وإخبارهم بما حدث له، وحين توصلت للعجوز أخيراً، وعرفت حالها وما خسرت به بخسارة حفيدها، قررت أن أحل محله، وقررت أن تناديني باسمه، لكنها واعية تماماً إلى حقيقة أنني لست هو.»

هزرت رأسي بفهم، ساري لم يكن عديم المبالاة تماماً، لقد بادر لفعل شيء ما. توقف ساري فجأة وأشار إلى شيء بدهشة:

- «غيم، يا إلهي! هل ما أراه حقيقي؟»

نظرت إلى حيث أشار لأجد.. رباه! ركضت بأقصى سرعتي وخلفني ساري، جثوث على ركبتي وغرزت وجهي في النبتة، لا أصدق! الأغاف الذي أزرعه منذ أعوام، الذي اخترت له موضعاً بعيداً عن جميع الزروع، وتعاهدته بالرعاية وبقيت أراقبه بتلهف منتظرة زهرة، لا، بل برعماً صغيراً: لقد أزهز أخيراً، زهرة واحدة يتيمة، لكنها زهرة!

- «في هذا الوقت بالتحديد؟ نجت مرتين، من الحريق والمن! يا للرمزية! لا وجود للظلام الخالص، لا بد من شمعة -ولو واهنة- مستترة في مكان ما، تعمل على تبديده!»

- «يا للمبالغة، تحبين تحميل كل موقف فوق ما يطيقه!»

قالها بسماجة فنظرت إليه بحب، تدريجياً سيعود لطبيعته التي ألفتها، وسيتوقف عن التكلف لإرضائي.

- «هيه، ساري، ما هذا؟»

قلتها باستغراب وأنا أنزع نبتة صغيرة ملتصقة به، رفعتها بدهشة أمام عيني ساري غير المصدقين، عرق سوس!

- «أتصدقين أنني نسيت ذلك؟ لقد وضعتها منذ... لا أعرف منذ متى، فقط كنت أرى لهفتك لرؤية زهرة تخرج من نبتك السمجة هذه؛ فقررت فعل ما يحفز نموها.»

نظرت له بلا فهم، ما علاقة هذا بعرق السوس؟

- «هيا يا غيم، أنت أذكى من هذا، عرق السوس محفز ممتاز لنمو النباتات، ومساعد على استصلاح التربة وتهيتها.»

- «لهذا كنت تحصل عليه بكميات كبيرة؟! لاستصلاح أرض حيّان؟!»

- «وأرضكم، خاصة بعد هجمات المنّ المتعاقبة. وتلك الحشرات التي رأيتها في جذورها، كانت يرقات الذباب المفترس، ألدّ أعداء المنّ، وأفضل مخلوق يمكنه إبادةها.»

الآن اتضح الصورة، الجزء المنتزع من أرضنا، والذي صلحت تربته بأسرع من المتوقع. ضحكة عقلية وموافقته حين ذكرت المنّ، كانت تعني أنه سعيد بالقضاء على المنّ، لا بإحضاره! ثم السبب الذي جعل المنّ يفترس كل شيء بين عشية وضحاها، حماقتي! بقيت أنتزع عرق السوس بما يحمله من يرقات في منهم، وحين كان ساري يترك المزيد منها، كنت أفسر هذا على أنه تبجح وعناد!

- «لا فائدة من استرجاع الماضي يا غيم، لن يتغير شيء.»

قالها بابتسامة لطيفة وهو ينهض وينفض ملابسه. أعطاني إزهار هذه

النبته انتعاشاً مهولاً، زاده ساري بقوله:

- «هل أبهجك أكثر؟ الحريق لم يكن بهذا السوء، حسناً، في بعض طرق الزراعة، يلجأ الناس لحرق الأراضي حتى يسهّلوا إعادة تأهيلها بدلاً من معالجتها ببطء، أي أن النار طهّرت أرضكم وسلّمتها لكم على طبق من ذهب!»

ابتسمت بسرور، حين قال ساري بلطف:

- «لن أدع أسئلة تحيرك أكثر، بالنسبة لإصابة وادع يوم السباحة؛ فإنني أقسم أنني بريء من ذلك تماماً، على الأقل أنا لا أملك مصلحة في فعلة كهذه، وحين غصت لأحضره من تحت المياه، فعلت ذلك لأنني رأيت ما كان يحمله شهاب بيديه ويتسلل به، واستطعت ربط الأمور بعضها ببعض. اختيار العنب للزراعة كان لاعتبارات نفسية بحتة، أردت أن أؤكد لأمي -ولنفسى قبلها- أن أثر حيّان ليس سيئاً بالكامل، وأن ما استعمله هو لملاقة حثفه، يمكنني استعماله لبناء حياتي. قراءتي للكتاب في الدار كانت مصادفة، أنا.. قرأت كل الكتب في المكتبة تقريباً، من أين تحسبيني جئت بكل خبرتي في الزراعة وغيرها؟ وفيّ كنت أفضي أيامي ما لم أكن متواجداً في البيت ولا في أي مكان آخر؟ لم أعسكر أمام البحيرة بالتأكيد، ولو أحببت زيارتها! كلام قاسط كان عبثاً، لقد أزعجني الصفراويون برغبتهم في أن أنضم إليهم، وكنت -لأتخلص منهم- ألتزم الصمت ولا أعطيهم أي تفاعل، لسبب ما فسروا صمتي على أنه موافقة، وأخذوا يتصرفون بسخافتهم المعهودة في السباقات، ويوم ضربني وادع، ويوم ضربت قاسط لأجلك، هذا كل شيء، أقسم!»

ابتسمت بنوع من الحرج، ليس عليه تبرير كل ذلك، كان بوسعه تلخيص ما قاله بأنه (سوء فهم)، وكفى. كاد يكمل تبريراته، بشأن الكرة المكسورة

التي حملها بدافع الفضول ليحللها ويقارنها بما قرأه، وأنه لم يكن المسؤول عن الإبلاغ عن الكرة التي أخذتها تبر، لكنني أوقفته ببساطة، ورجوته أن يعود لبروده وصمته السابقين.

- «مللت حديثي؟ لقد تحملت ثرثرتك طوال ما يزيد عن عشرين عاماً أيتها الجاحدة!»

- «وأنا تحملت برودك وسكوتك المفرطين، نحن متعادلان.»

ضحكنا من جديد، ودعته وكدت أفارقه عند مدخل المزرعة، لكنه أوقفني بحزم.

- «أنت لا تنوين السير إلى منزلكم؟»

- «في الواقع، أنوي ذلك، ما الغريب؟»

- «أتفهم أنك انقطعت عن أخبار القرية لفترة لا بأس بها يا غيم؛ لذا دعيني أخبرك: القرية أصبحت أخطر مما تتصورين، ولا أعتقد أن بوسعك السير فيها باطمئنان كما كنت في السابق، لقد تبين أن المعسكرين على طريق السفر أشد لطفاً من الوحوش التي ظهرت مؤخراً بيننا، لقد أصبحوا يختطفون الفتيات والأطفال ليطلبوا الفدية، الفقر دفعهم إلى التوحش، وأنت لا تحبين تكرار تجربة الاختطاف، صح؟»

- «ساري، أنت تقول ذلك لتخيفني، اعترف!»

- «لن أقول شيئاً، بوسعك السير والاكتشاف بنفسك، لكن عندما يتم اختطافك وتعذيبك، أو عندما يقتلك أحدهم ثم يمزق معصمك بالسوار الذهبي المحيط به؛ فلا تعود لي للبكاء والندم!»

لن أعود بعد حدوث شيء كهذا، منطقياً. هزرت كنتي وقلت ببساطة:

- «طيب، فهمت.»
- واستدرت لأسير، ركض بالطائر وقطع طريقي ضاحكاً.
- «أيتها المخبولة، هيا اصعدي.»
- ركبت وراءه، ثم قلت باهتمام:
- «لقد ذكرت المعسكرين على طريق السفر، أعنيت...؟»
- «أجل، أنت لم تذهبي إلى قرية بالمعنى المفهوم، إنهم بقايا القرى لو صح التعبير، أشخاص مثلنا، نجوا من ظروف أصابت قراهم، مشابهة لما يحدث معنا، وبدلاً من البقاء مشردين، أحبوا تأسيس قرى مصغرة في أماكن مقفرة.»
- «وهم لا يختطفون الناس ولا يقطعون الطرق.»
- «لا أظنهم يفعلون، لكن ربما يفعل قومنا لو وصل حالهم إلى ما وصل إليه حال هؤلاء الناس، المبادئ تختلف.»



استلقيت على فراشي القديم في غرفتي، شعرت به يعانقني في شوق، مرت أيام كالدهور منذ آخر مرة نمت عليه فيها. كان اليوم سعيداً بما يمنعي من التوقف عن الابتسام حتى وأنا راقدة على الفراش، ورغم أن أحداثه لم تكن لطيفة إلى هذا الحد، لكن رؤية تبر ووالدي وتصالحي مع ساري يكفيان. لقد كان أبوي سعيدين ومندeshين كثيراً لرؤيتي مع ساري، بل وعلى طبيعتنا، نضحك وتشاكس مثلما كنا، الحق أنني وساري كنا في حالة دهشة من ذلك بدورنا. وبلا اتفاق مسبق، قررت وساري إخفاء أمر إصابة سهل عن أبي، ليس من الحكمة أن نشره بالأسى أكثر لعدم قدرته على مغادرة البيت.

اقترحت أُمي على ساري البيات معنا، وبرغم أنه بدا ميّالاً للموافقة إلا أنني شعرت به يفكر في أمر آخر، باضطراب قال إنه لا يجب ترك المزرعة وحدها وغادر، ولم نوقفه.

برغم المدة الطويلة التي قضيناها في الحديث وتبادل الأخبار والقصص طوال اليوم، لم تكن ملامح أبي مريحة جدًّا لي، وكان الانقباض في قلبي يزداد حدة كل ثانية، وحين كنت أنظر لأُمي طالبة نظرة تشعرني أن الأمور ليست بالسوء الذي أظنه، كنت أجد نظرة تخبرني أنني لم أرَ شيئاً بعد. وفي وقت مبكر من الليل، نهض أبي فجأة وأعلن أنه محتاج إلى النوم، اقترب مني مترنحًا وقبّل رأسي، ضمّه لبضع ثوانٍ شعرت معها أنه لا يرغب في انتهائها، ثم نفش شعري بيده واتجه لغرفته. أخبرتني أُمي أن هذه عادته الجديدة التي اكتسبها منذ فرض عليه هذا السجن.

- «لعله اقتنع أخيرًا أن النوم مرادف للراحة؟»

- «أو ربما هو لا يجد خيارًا آخر؟»

قلتها بابتسامة حذرة، فقرصت خدي وقالت بغضب مفتعل:

- «لا تريدان الاعتراف بأن أملكِ حكمة يا بنت؟»

- «وهل يغيّر اعترافي الحقيقة؟ أنتِ حكيمة شئتُ أم أبيت.»

ضحكت بمرح، كنت أشعر بسعادتها البالغة لوجودي معها؛ لأنني كنت أشعر بالشيء نفسه. لم يطل جلوسها هي الأخرى، وسرعان ما نهضت لتلحق بأبي، واتجهت لغرفتي.

انقلبت على جنبي الأيمن، ونظرت للنافذة؛ فقط لأفتقد أصيص إكليل الجبل وأتندد بحزن، لا بأس، قابل للتعويض. وثبت من مكاني فجأة، على

ذكر الخسائر، لقد نقلت كل ممتلكاتي تقريباً إلى المنزل المدمر، أقول (تقريباً) لأنني تركت شيئاً صغيراً جداً هنا، بالأحرى نسيته! انقلبت عن فراشي ورفعت الحشية بحذر كأنني أخشى أن يكون قد اختفى لسبب ما، الحمد لله، إنها هنا، القصاصة محترقة الأطراف التي أرادت المعلمة رؤية أن تكون آخر رسائلها قبل رحيلها.

أخرجتها بأنفاس محتبسة، وبحركة مفاجئة كأنني ألاعب نفسي قلبتها، وجرت عيناى على السطور بنهم.

(الدم ليس استثناءً، الدم شيء ككل شيء، وحين تدور الدائرة، وينسى الناس من هم ولم هم؛ فإن دماءهم لن تكون أعلى عندهم من كرامتهم التي أريقَت لأتفه سبب، والدماء التي بُذلت في سبيل الكرامة أو الحق، لن تتذكرها العقول المهانة المطأطئة للباطل، ولن تجد الأرض غضاضة في امتصاصها، كما ابتلعت قبلها أجساداً بما حوته).

آخر شيء توصلت إليه، كان نفيّاً لأكثر شيء آمنت به، إلى هذا الحد تتقلب الحياة، وتبقى تتلاعب بآرائنا وتلقيها جهة اليسار واليمين؟ حتى اللحظة الأخيرة، وقبل توقف النبض مباشرة؟!

نهضت باكراً، غير راغبة في تفويت لحظة أقضيها مع والديّ، آخر أيام قضيتها هنا، لم أكن أرى في المنزل غير بابه، وكانت غايتي الكبرى كل صباح أن أستطيع التسلل دون أن تشعر أُمي بي. الآن أنا أرجو الوقت أن يتباطأ قليلاً فقط، ويتركني أحيى لحظات هائلة في هذا المكان الذي لن أجد مثله للأبد.

سمعت جلبة غريبة من ناحية الشرفة؛ فأخبرتني أُمي بتفكه وهي تعدّ

العجة وتغلي الحليب من أجل الشاي أن:

- «زوجك هذا، ألا يكف عن القلق أبداً؟»
- «أنور؟» قلتها بابتسامة وأنا أسرق إصبعاً من البطاطس المقلية، هوايتي المحببة. «لقد كنت متخوفة من الطريقة التي سيستطيع التعايش بها مع تفكيري المفرط، فقط لأكتشف أنه مفرط في التفكير إلى حد لا يلاحظ معه فرط تفكيري!»

- «يكفي يكفي! مجنونان واجتمعا. دعي البطاطس يا غيم!»
- ضحكت باستمتاع، ذهبت لأقلب الحليب على النار وتساءلت:
- «لكن من في الشرفة؟ ماذا أراد أنور؟»
- «إنهم (رجال)، هذا ما قالوه، يريدون نقل صناديق والدك.»
- «ماذا؟ لكن إلى أين؟ أمي، أنتِ واثقة بأنهم تابعون لأنور؟»
- «على رسلك، لقد أتى فارسك الهمام قبل قليل وألقى نظرة راضية عليهم، سأل عنك وأخبرته أنك نائمة.»
- ألا ينام أنور أبداً؟ سؤال يستحق التفكير.
- «ألم يقل ساري إنه سيصحبك صباحاً؟»
- «قال، لكنه تجاهلني فيما يبدو.»

جلسنا لنفطر، من دون أبي، أخبرتني أمي أنه يتأخر في الاستيقاظ، وأن موعد علاجه وشيك على أي حال؛ لذا لا داعي لإزعاجه. طُرق الباب وأنا أرتشف الشاي بالحليب، نهضت وفتحته بحماس وأنا أهيمى محاضرة عن التأخر في المواعيد.

- «آآ.. السلام عليكم، أليس هذا ما تقولونه؟»

هذا الصوت الأجش المبحوح، مألوف لدرجة مريعة، لكن الاختلاف في هذا الأدب الجَمّ الذي يكلله.

- «ماذا تريد بعد؟ ألا يكفيك ما أبي فيه بسببك؟»

قلتها بحدة وأنا أحجب وجهي بعمامة أبي التي يعلقها جوار الباب. طأطأ رأسه بانكسار لعجبي، وقال برجاء:

- «أنا آسف، أنا.. أنا لم أعد راضياً بما جرى لكم، صدقيني، حين أعدت التفكير فيما قالته جوهرة، وحكاه لي بدر، أعني.. ربما كنت متعسفاً قليلاً، أو كثيراً.. لكن لا أظن حقدكم علي يصل إلى مرحلة منعي من رؤية ولديّ، أرجوكم، أريد رؤيتهما فقط، اشتقت إليهما، البيت من دونهما كالقبر، أمهما لزمت الفراش منذ رحيلهما، نحن لن نفعل لهما شيئاً، لن نجبرهما على شيء، فقط نريد رؤيتهما!»

نظرت للرجل في حيرة وشيء من الشفقة، قلت بنبرة أقل حدة:

- «ولماذا تفترض أننا نعرف مكانهما؟ آخر ما عرفته عنهما أنهما هربا؛ لأنهما لم يجدا إجابات لدى والدهما، لم يجدا إلا الخوف والعنف والإجبار؛ فاختارا العقل والمبدأ.»

سبحان من يُخرج الماء من قلب الأحجار الصماء، هذا الجبل ييكي؟

- «حسنًا.. أعني.. لو عرفت شيئاً عنهما، أو.. حدث ورأيتهما، أو صلي لهما اعتذارنا، واشتياقنا الشديد لهما.»

ودون كلمة أخرى، استدار وانصرف. تبعته بنظراتي في شروء.

- «ما الذي كان يفعله هذا هنا؟»

قالها ساري بانفعال وهو يقفز عن الطائر، كاد يلحق به لكنني منعتة.

- «لم يفعل شيئاً، ربما الأولى أن نلتفت لمن يخلف بوعوده؟»

لم يبتسم ولم يعتذر، ابتلع ريقه وقال بارتباك:

- «اسمعيني، سهل.. لقد...» تنهد بتعب. «سأخبر عمي مدرار، لكن

كوني معي وسانديني.»

أومأت وأنا أقاوم رجفة جسدي، اتجهت معه للدخل، لقد استيقظ أبي للتو، راقبناه وهو يرشف العلاج المذاب في الماء، ثم يتقلص وجهه باشمئزاز من مذاقه. وضعت أمني صحون الإفطار أمامه، ووجهها يتقلص معه كأن المرارة تنزل في جوفها هي، شتان بينها وبين حلية التي تسمم زوجها من حيث يحسب الآخرون أنها تعالجه! رفع أبي رأسه ونظر إلينا بابتسامة خفيفة.

- «وجهكما.. لا بأس، إنه سهل، أليس كذلك؟»

تبادلنا النظرات في دهشة، كيف عرف؟

- «لقد حلمت به، رأيته يركض بسرعة نحو هوة سحيقة، حاولت

تنبيهه أو اللحاق به، لكنه كان أسرع مني، أمسكت بيده في اللحظة الأخيرة قبل سقوطه، حاولت رفعه وحاول مساعدتي في رفعه، لكن يده ارتخت فجأة، وفارقت يدي، وسقط.»

قالها بعينين دامعتين، دون أن تحتفي بابتسامته. بدا وجهه قائماً كما لم يكن من قبل، وشعرت بقلبي يهوي بين قدمي، بلا مبرر واضح.

- «لقد رفض مغادرة المزرعة، لم يرد تضييع أمانته، حتى بعد رسالة

التهديد، وبرغم رؤيته للمتسللين يشعلون الحريق.»

عمّ الصمت بعد قول ساري، لم يجد أحد ما يقوله، انسحبنا بهدوء من

الغرفة، وتابع أبي تناول إفطاره في سكينه خيفة.

- «لقد ألغيت النزهة، ساحميني، أردت أخذك لمزرعة حيّان كي تري هياتها الجديدة، لكن أنت ترين الأوضاع، ثم.. هذا الأنور، في كل لحظة ووضع يريدني، ولا يقول شيئاً مفيداً!»

أومأت بتفهم، كاد يخرج لكنني أوقفته.

- «لا أريد الخروج بمفردي بعد ما قلته، هل تصحبني معك على الأقل؟ أريد رؤية القرية فقط. ثم إنني اتفقت مع أنور على أن نفتح الصندوق معاً.»

- «لا أعرف إن كان هذا سيعجب أنور.»

قالها بفهم ملوي؛ فقلت باستغراب:

- «ماذا تقصد؟ ما الذي لن يعجبه؟»

- «أتعلمين؟ لا يهم، تعالي، المهم ما تريدينه أنت.»

استأذنت والديّ وخرجت. بدت القرية فارغة أكثر من اللازم هذه المرة، كأنها قرية أشباح، حتى السوق بدا مهجوراً، أخبرني ساري أن نقص البضاعة هو السبب، الأمر لم يعد يتعلق بارتفاع الأسعار وحده الآن. سمعنا صوت زغاريد في البعيد؛ فأخبرني ساري أنه حفل خطبة شهوة، ومن؟ ليس المغني الأزرق بالتأكيد، وبائد!

أنزلني عند مدخل المزرعة وأخبرني أنه ذاهب للقيام بمهمة ما، سرت بتمهل بين النخل، هذه المزرعة أيضاً تستحق الشوق، والسيدة مخمل التي عاملتني تماماً مثل أمي.

- «من هناك؟ أوه، غيم.» قالها أنور وهو يثب في وجهي بتهجم ثم يهدأ، ولمحت في يده عدة أوراق غامضة.

- «بسم الله، ما خطبك؟ من عساه يكون؟»
- قلتها ضاحكة فابتسم باقتضاب.
- «آسف، لم أتوقع أن تأتي.»
- «سبق وقلت إن علي العودة إلى هنا في حال...»
- «أعرف، لكن ظننتك ستأخرين أكثر.»
- بدا مريبًا للغاية أثناء حديثه، يخفي شيئًا بالتأكيد.
- «جديًا لا أفهم ما بك، لكن أذكر أننا أردنا فتح الصندوق معًا.»
- «لقد فتحته.»
- «... ماذا؟ لكن.. وحدك؟ لماذا؟»
- تنهد، وضع يده على كتفي وقال بجدية:
- «آسف يا غيم، لكنني.. أرى اللعبة تأخذ منحني خطرًا، ولا أستطيع تركك تتمادين أكثر، ربما عليك البقاء في منزل الشيخ مدرار ريشا أندبر بضعة أمور، ثم...»
- «لحظة، هل ما أسمعه صحيح؟ أحقًا تحاول إبعادي عن الصورة يا أنور؟ أنت تعرف كم يهمني أن أخوض ذلك معكم!»
- ظهر وادع فجأة من وراء أنور، ووضع رأسه على كتف أنور متابعًا الحديث باهتمام.
- «لقد فعلت، من قال إنك لم تخوضيه؟ على مدى عامين فائتين لم يفعل أحد أي شيء غيرك، أي شيء سنفعله الآن لن يكون إلا امتدادًا لأفكارك وتصرفاتك واستنتاجاتك، أي أنك صاحبة المجد الأصلية، ونحن نطلب

منك إفساح مكان صغير لنا جوارك، هذا عادل، صحيح؟»

أوماً وادع بحرارة؛ فنظرت له بعينين ناريتين.

- «علامَ تومئ؟ ما الكلام المقنع جداً الذي قاله؟»

تراجع مصعوقاً، وقال بارتباك:

- «تركين كلام أنور كله وتتشبثن بإيهااتي؟»

من قال إنني سأترك كلام أنور؟

- «أنور، الأمور كانت خطيرة من البداية، وكما قلت، كنت أخوضها

وحدي؛ فأين الصعوبة في أن أستمع معكم؟ لا يمكنك منعي من ذلك، ليس

بعد أن بلغنا هذا الحد!»

- «بل يمكنني». قالها بصرامة. «ولا جدال في هذا، ستعودين الآن

إلى منزل عمي مدرار، حتى أطمئن عليك وأستطيع فعل ما علي فعله دون

الانشغال بشيء جانبي.»

- «أنا شيء جانبي؟!»

عض شفته بنوع من الضيق، لا يريد مشكلة فرعية. تجاهلني وربّت على

كتف وادع الواقف جواره بتوتر.

- «أسف على الإزعاج، هلاً أعدتها وأتيت؟»

- «قلت: لن أذهب.»

- «ستذهبين!»

قالها صارخاً، أول مرة يصرخ فيها في وجهي. طالعتة بذهول فأشاح

عني، اقترب وادع مني وقال برفق:

- « غيم، إنه يفعل ذلك لمصلحتك. »

نظرت له دون أن أراه، ونظرت لأنور، ثم استدرت وسرت مع وادع. لأسباب لا تخفى على أحد، قرر عقلي تحليل صورة جانبية بشكل مفاجئ، الأوراق مع أنور، كان فيها ما يشبه القوائم، ولمحت من بين الأسماء المكتوبة فيها اسم.. مسرة؟

بغضب لزمت غرفتي، أطلقت أمني عدة تعليقات ضاحكة من قبيل: (هل اختلفت مع قلبك؟)، لكنني كنت مصرّة على العبوس؛ فضحكت واتجهت للمطبخ، بعد أن رجّنتي بحرارة ألا أفكر في مساعدتها كي لا يفسد الطعام، حتى أنت يا أمني!

سمعت صوت أحد دخل المنزل، ثم تبادل الكلام والضحك مع أمني، رجوت أن يكون ساري، لكنه لم يكن للأسف، كيف يتواجد في كل مكان في نفس الوقت؟ بعد قليل طرق الباب وفتح، وأطل رأسه يتسم ابتسامة واسعة جدًا.

- « أنا هنا، ألم تسمعي صوتي؟ »

أشحت بوجهي للجهة الأخرى، يظن أنني سأركض لأعاقه ما إن يتسم في وجهي، لم يحزر! أطلق شهقة مفتعلة وهروا بسرعة ليجلس على طرف الفراش، أمسك برأسي وأداره إليه.

- « لا تقوليها، أنت غاضبة مني؟ حقًا؟ ترفقي بي، أنا لست كفؤًا لتحمل نتيجة ذلك! »

- « هل تهزأ بي؟ هذا ما ينقص! »

لانت ابتسامته، وضع يده على يدي وقال برفق:

- «لا، ولا أجرؤ على فعل ذلك. أنا أعتذر، لم أقصد رفع صوتي عليك، خاصة أمام وادع، فقط.. ما توصلنا إليه بدا مخيفاً حقاً، فكري فيما تمثليته لي يا غيم، ليس أنا فقط، بل وساري ووادع، وكل من يعرفك، لو أصابك مكروه -لا سمح الله- فلا أحد سيستطيع مسامحة نفسه!»

- «فتخرجني من المعادلة؟ بهذه البساطة؟»

- «صدقيني، أنا لا أستطيع الاستغناء عنك ولو أردت، أتذكرين أول ما قلته لك حين تمت خطبتنا؟ أخبرتك أنني بحاجة إلى عقلٍ ثانٍ يفكر معي، وكان هذا العقل عقلك!»

- «ثم أنعم الله عليك بعقلين وثلاثة وعشرة؛ فتجاهلتي!»

- «لكن أحداً منهم ليس غيم، ولا يستطيع أحدهم فهمي كما تفعلين، ولا التوصل إلى ما أفكر فيه من نظرة واحدة، أنت لا تعوّضين يا غيم، صدقيني.»

عبست أكثر، هذا ليس كافياً.

- «أنا لم أطردك من القصة، فقط أردت أن تكتفي بدور لا يعرضك للخطر، لكن استشارتك وأفكارك ستبقى مرجعي الأول.»

لم أقل شيئاً، لكنه كان مصراً على إعادة الأمور لنصابها.

- «لقد أتيت لسؤالك، لم أجد شخصاً أفضل استشيرته.» نظرت له بترقب، دون أن أسمح لأنفعالاتي بالظهور. «لو كانت الخطوة الصحيحة ستكلفنا خسائر قد تصل إلى.. اندلاع حرب، ربما، هل نقدم عليها أم نؤثر السلم؟»

- «كل خسارة قابلة للتعويض، إلا خسارة المرء نفسه.»
- فلتها بجمود؛ فتنهد بشيء من الخيبة، تمدد على الفراش عرضيًا وقال بترأخ:
- «إذن، لا تؤيدون الحرب، ولو كانت السبيل للتحرير.»
- «هل قلت ذلك؟ لا أعرف ماذا تعني كلمة (نفس) بالنسبة إليك، لكنني لم أعنِ بها (حياة) على كل حال.»
- استقام جالسًا وسأل باهتمام عما أعنيه.
- «من سيفقد حياته فداءً لعقيدته ومبدئه وكرامته فإنه اشترى نفسه بلا فصال. أنور، الحرب لم تتوقف، منذ سنتين وحتى اليوم، الفارق أنها أصبحت بشروطهم، وأنهم توغلوا بخبث كالسم في الشرايين، أثناء تلك الهدنة التي ليست هدنة.»
- «مع السفير الذي ليس سفيرًا.»
- قالها بابتسامة، مسح رأسي وقال بلطف:
- «أحب نظرتك للأُمور، أنت محقة، هذه الخطوة بمثابة المحاولة الأخيرة للنجاة، ولو لم نخطئها؛ فإن هذا تسليم ضمنني منا.»
- أومأت بانزعاج لم يزل، نهض بحماس مبالغ فيه وأعلن رغبته في إلقاء التحية على أبي. نزل على الدرج فلم أجد ضرورة للاعتصام في الغرفة، نزلت لأسمعه يثرثر مع أمي، شعر بي فرفع صوته.
- «أيرضيك هذا يا خالتي؟ إنها لا تنظر إلي حتى!»
- «لا، لا يرضيني يا أنور، سأكلمها في هذا.»

- «أمي، ألن تسمعي من الطرفين أولاً؟»
- فلتها بغضب مفتعل في حين كان أنور يحرك حاجبيه في حركة استفزازية، كانت أمي تجارينا بلا اهتمام وهي تغرف الطعام لأبي.
- «ليس عليك إغضابه يا غيم، لا بد أنه حريص عليك.»
- «أمّ من منّا أنت؟»
- «ما دامت السيدة مخمل تعاملِك كابنتها؛ فإن أنور كابني أيضاً، ولا أحب أن تزعجه زوجته.»
- قالتها وحملت الطعام لتدخل عند أبي، تبعتها بعيني في دهشة وشيء من الضيق، انفجر أنور ضاحكاً ثم قال برفق:
- «أتعرفين ماذا كانت تقول لي قبل نزولك؟»
- «لا أريد أن أعرف، شكراً، يا حبيب حماتك.»
- انفجر ضاحكاً من جديد، وضع يده على كتفي وقال:
- «لقد قالت: (أنا أكرم من يكرم ابنتي، ولو أحبّت غيم ضفدعاً فإنني سأحبه لأجل خاطرها)، هل أنا ضفدع يا غيم؟»
- الآن ضحكت بقوة، لم أتمالك نفسي، خاصة مع تعابير وجهه المضحكة، ابتسم أنور في رضا حين خرجت أمي وأخبرته أن أبي بانتظاره، كدت أتبعه لولا أن أغلق باب الغرفة في وجهي، نظرت لأمي في دهشة فقالت بحذر وهي تتجه للمطبخ:
- «لا يريدان لأحد أن يسمع.»
- هذا يكفي! ما الذي يجري فجأة؟ بعصبية ركضت وأنا أثقب الأرض

بخطواتي، استوقفتني أُمِّي تخبرني أن الغداء جهز؛ فأخبرتها أنني لست جائعة، لمحت أنور يطل برأسه من داخل الغرفة حين سمع صوتي العالي، تابعت طريقي إلى الغرفة وأغلقت الباب بكل قوتي، لم يطل الوقت قبل أن أسمع صوت باب المنزل يغلق.

- «غيم، ما ذنبي أنا؟ لا تؤاخذيني بغضبكِ من زوجكِ أو أبكِ، هل ستركينني أتناول الطعام بمفردي؟»

نهضت من تحت الغطاء ومسحت وجهي، إنها محقة، ما ذنبي؟

- «هيا يا غيم، أنا لن أتوسل إليك! أتعلمين؟ لقد أعددتُ محشوّ الكوسا الذي تحبينه.»

- «أُمِّي، أنتِ تخلطين، تبر هي من تحبه.»

هزت رأسها سلباً بثقة وابتسمت.

- «تبر، حين كانت طفلة، كانت ترفض مجرد وضع الكوسا على لسانها، لم تفعل إلا حين أخبرتها أمها أن غيم تحب الكوسا، عندها تذوقتها، وأحببتها!»

قصة مشوّقة، يا لفرحتي! وبيا لحجم الأثر الذي أتركه ورائي، غداً عندما أموت، سيقولون: رحمها الله، علمت تبر تناول الكوسا!

رافقت أُمِّي بكل الأحوال، كان أبي -إمعاناً في إخافتي- قد عاد للنوم، بعد شرب كأس من الينسون بالعسل. أخذت أفكر وأنا أكل بيّوس: ما الذي يزعجني لهذا الحد؟ هل يريدون إخراحي؟ فلا أخرج إذن، أليس هذا ما أردته أيضاً؟ أن يتحمل أحد شيئاً من المسؤولية، بدلاً من أن أشعر بأنني ولية أمر القرية كلها؟ وأن أنعم ببضعة أيام مع والدي لا أضطر خلالها لاستكمال

التحرّيات، لمجرد أن غيري لن يفعل؟ أنا راضية بهذا الاتفاق، لكن يبدو أن الغد لم يرضَ!

- «غيم، أرجوكِ استيقظي، هيا يا بنت، أدركيني!»

هزنتي أُمي بحرارة وهي تنادي بفزع، قفزت من مكاني غير شاعرة بقلبي، نظرت لها بعينين لم تستيقظا بعد؛ فصرخت:

- «أبوكِ يا غيم، أيقظته لتناول العلاج، لكنه.. لكنه لا يستيقظ!»

لم أشعر بنفسي إلا وأنا في غرفة أبي، أتأمل فمه المفتوح الذي يدل على جوعه للهواء، وأتحسس نبضه الخافت، وبرودة جسده المخيفة، أخذت أدور حول نفسي، ما عساي أفعل؟ ساري والباقون أجمعوا على أن مغادرة المنزل وحيدة ليست من الحكمة في شيء، وأيد قولهم منظر القرية الذي رأيته بالأمس، لكن ما البديل؟ إن كان الخروج خيفاً فإن البقاء العاجز مرعب! أين هم عندما يحتاج المرء إليهم؟

بلا كثير تفكير صعدت إلى غرفتي، وارتديت ملابس الخروج.

- «فيمَ تفكرين؟ إلى أين؟»

- «إلى دار الطب، إلى عمي جواد، أي مكان!»

ركضاً خرجت من المنزل، ولم يسمح لي فزعي بالانتباه لمدى الوحشة التي تنضح بها طرقات القرية، ولا بالتلوث الذي يعبق به الهواء فيجعل من التنفس بطولة، لقد تحولت قريتنا إلى قمامة في فترة قياسية. لم يقابلني أحد يصلح طوال الطريق، وحين بقيت عدة أقدام على دار الطب -التي قصدها لأنها أقرب من منزل عمي جواد- أحسست حركة في الجوار، في الطريق

المفضي إلى الغابة، لم أكن لأكثر، لو لم يثقب صوت شهوة المفزز أذني بنبرة عالية أكثر من المعقول، كانت تقول:

- «أفهمتي يا لاهي؟ كل هذا نحن نفعله شكلياً، أنا لا أهتم ببائد ولا يهتم بي، لكن لتسير الخطة كما أرادوا لها، بالإضافة، قاسط سيستدير ويعود للفتاة الزرقاء اللعينة، وسيعرف كيف يحصل عليها بعدما يتخلص من أخيها الأخرق.»

- «اسمعيني يا شهوة، لا يهمني كل هذا الذي تريدون فعله، أنا رجل جوال وأحوال قريتك لم تعد تناسبني، إلى متى تطالبيني بالانتظار؟ إلى أن تنتهوا من قتل الحاكم والشيخ المريض ثم تعودين إلي بعد فسخ خطبتك؟ انظري إلى ما جرى لي بسببك، لقد أحرقوا العربية كلها، ولو علم بقية البهاليل بأنني السبب فيقتلونني! لم قد أحمل ذلك؟ لأنك تريدين معاندة الكبار والاستمرار في علاقة معي بدلاً من بائد؟»

- «لقد أمسك قاسط بالولد الأزرق فعلاً، وخالتي على وشك الانتهاء، و...»

- «انسيني! حسناً؟ الوداع.»

وصل إلى النقطة التي كنت أقف فيها كالمسحورة، نظر إلي بلا اهتمام ثم غادر بعد أن ألقى وجهه للجهة الأخرى في حركة ناعمة للغاية، أما أنا؛ فلم أشعر بقدمي إلا وهما تحيدان عن مقصدهما، وتتجهان بعزم إلى السافلة الواقفة بين الأشجار، ولا بيدي إلا وهي تتحسس الحزام على خاصرقي بلهفة، وتستلّ الخنجر المثبت هناك. تراجعت شهوة برعب ما إن رأنتي، استدارت وركضت تجاه البحيرة، ولم أكن مستعدة لتركها تفلت، ليس هذه المرة، لقد تجاهلت ألف مرة، وكان خطئي ألم أنحرها من المرة الأولى.

توقفت عند حافة البحيرة واستدارت إلي، أخذ الهواء يكافح طبقات الدهن ليصل إلى رئتيها اللزجتين، بينما تطالعني بنظرة لا أفهمها، ولا أراها من الأساس. صرخت بجنون:

- «ماذا فعلتم لأبي؟ تكلمي أيتها ال...! ألم يكفكم ما فعلتموه به من قبل؟ ماذا فعلتم بوادع؟ ماذا تريدون منه ومن تبر؟ ماذا تريدون منا جميعاً؟ لم لا تتركونا وشأننا أيها الخنازير؟! أقسم أنني سأنهي هذا والآن، وعندما أشق بطنك المتنفخ بخنجري هذا؛ فإن كل حجر وشجر في القرية سيشكرني على ذلك!»

ابتسمت، أقبح ابتسامة رأيتها في حياتي.

- «من دون قسم، لا تقسمي على شيء لن تستطيعي تنفيذه.»

- «ستعلمين أنني أستطيع، لكن لسانك لن يبقى هناك ليعترف!»

كدت أقفز، لولا كل تلك السيوف التي أحاطت برقبتي، بذهول نظرت حولي، ثم أفقت مرة واحدة وأدركت من أنا وماذا أفعل. لماذا وضعت نفسي في هذا الموضع؟ هل تتحمل حالة أبي التسكع يميناً ويساراً؟ كان ساري محقاً، كان السماح للغضب بتملكي خطأ قاتلاً!

- «ألقي السلاح، هيا.»

قالها صوت أعرفه حق المعرفة، وأكرهه أكثر من الموت. بائد الحقيير، أكان هنا؟ أكان يستمع إلى محادثة شهوة والمغني حقاً؟

ألقي السلاح؟ حاضر، بكل قوّي ألقيت السلاح تجاه شهوة، توقعت أن هذا لن يفعل شيئاً على الأرجح، لكن لم أحزر! فزعت شهوة وترنحت مبتعدة عن مرمى الخنجر، فقط لتزل قدمها وتنقلب في البحيرة مثل برميل

قدارة. أخذت تتخبط وتتغرغر وتخرج أصواتاً مقرزة من أنفها وفمها، لكن أحداً من المحيطين بي لم ينظر جهتها. نظر بائد في عيني وقال بابتسامة وقحة:

- «صيد ثمين، شكراً أيتها القدرة.»

لشهوة التي لا زالت تضرب الماء في إصرار غريب، لم تحرص على الحياة؟ جذب أحد الواقفين خلفي ذراعي بقوة جعلت الهواء يخرج من فمي، وبإحكام ربط معصمي، هل قلت إن ساري قيّدي بقوة؟ حسناً، كنت أتدلل. أخرج واحد آخر قماشة قدرة وسط محاولاتي البائسة للإفلات، لفها حول فمي بإحكام، ثم جذبوني بعنف إلى عربة خشبية، ألقوا فوقي حشية ما فأخفوني بها، وانطلقت العربة.



أنزلوني عند مكان يشبه الدكان، كان من الجنون أن أحداً لم يشهد على ما يحدث، لهذا الحد هجر الناس السوق؟ لهذا الحد شحّت الموارد؟ قادني بائد بعنف إلى غرفة داخلية مظلمة، أول ما لمحته فيها وأثار جنوني كان.. أخي وادع! غارقاً في الدماء من رأسه إلى أخمص قدميه، الحقيرة لم تكذب، وادع بحوزتهم فعلاً! فتح وادع عينيه ببطء ثم استوى جالساً بجزع، حاول تحرير يديه من القيود وأخذ يهمهم من خلف الكمامة، أجلسني بائد جوار الجدار وثبنتني إلى حديدة بارزة منه، ثم جلس أمام وادع وقال بابتسامة وقحة:

- «أحضرنا لك مؤنساً، ومنشّطاً للذاكرة، وإن كنت قوياً بما يكفي لتحمل كل ما فات؛ فإن أختك الرقيقة لن تكون كذلك.»

اشتعلت النيران في عيني وادع الزرقاوين، بدا مستعداً لتمزيق بائد بأسنانه، نهض بائد في هدوء وتراجع خطوتين، ابتسم وأشار بيده إلى رأسه في إشارة ذات مغزى.

- «لا تكن أحمق، سأتركك تفكر ساعة، وسأعود.»

خرج بائد وأغلق الباب ليغمّ الظلام، الظلام الخالص الذي لا يكسر حدته شيء. انحنى رأسي وأخذت أبكي بقهر، ليس وقته، ليس وأبي في هذه الحالة! همهمات من الجهة الأخرى أخبرتني أنه يبكي أيضاً، ولا أستبعد أنه يلعنني لخروجي من المنزل الآن. مرّت الساعة بسرعة مرعبة، لم أعرف ذلك إلا بصوت الباب يفتح، ثم دلف بائد بتمهل وبابتسامة مريعة جديدة بالكوابيس.

- «فكرت؟ أفترض أنك اتخذت قراراً حكيماً، ها؟»

جثا على ركبة واحدة أمامي، أمسك ذقني بين أصابعه فارتعد جسدي.

- «أم سيكون لنا كلام مع هذه القطّة؟»

اهتاج وادع وأخذ يتلوى بجنون، تركني بائد وأنا أرتجف، واقترب من وادع ليزيح الكمامة عن فمه بإصبعين.

- «أقسم أنك لن تغفل بفعلتك، سيعرف أنور بما فعلت، سيعرف أنك لمست زوجته، وسيمزقك!»

- «سأكرر السؤال مرة أخيرة، بعدها سيكون على صغيرتك أن تأتي معي إلى غرفة ثانية: أين خبأتم صناديق البذور؟»

آخر شيء توقعته، بنزع نظرت في عيني وادع وهزرت رأسي بحرارة ناهية، نظر إلي وادع ودمعت عيناه. التفت بائد ببطء ورأى ما أفعله، ترك وادع واقترب مني بهدوء وسط صرخات وادع الثائرة، قال ببرود:

- «آها، أنتِ لستِ رهينة مهذبة إذن.»

وقبل أن أستوعب شيئاً، وجدت صاعقة على هيئة صفعة تنزل على

وجهي، أظلمت عيني اليسرى وصفرت أذني، حتى أنني لم أسمع صراخ وادع. ثم جلس أمامي وأنا لا أراه، وأمسك وجهي بعناد ليغيظ وادع، قال بابتسامة صفراء:

- «لقد أعطيتك مهلة، أنت رفض...»

اختمت جملة بصرخة، صرخة لم أسمع مثلها في حياتي، صرخة شخص تقطع يده، ليس مجازاً! نظرت بصدمة إلى اليد الواقعة على الأرض، يد منفصلة! الدماء تغطيها، وتنتشر في كل مكان.

- «لا أحد يلمس ابنتنا ويضربها ثم ينجو بفعلته، قطعت يدك النجسة كي لا أقطع رقبتك وأمنحك موتاً مريحاً لا تستحقه!»

رفعت عينيّ المطفأتين لأنظر إليه، شعرت أنني أهلوس، القائد راسخ؟ كيف وصل إلى هنا؟ أسرع رجاله يحرونني ويحرون وادع، نهضت بترنح مستندة إلى الجدار، في حين طار وادع يضممني ويتحسس وجهي في لهفة، يترك جروحه التي تغطي جسده ويطمئن علي من صفة تلقيتها. فجأة وجدتني أنثني على نفسي، وأفرغ كل ما في جوفي على الأرض، كل هذه الدماء تجعلني موشكة على لفظ معدتي ذاتها. صرخ القائد راسخ يطالب رجاله بإحضار الماء، تحققت تخيلاتي الساخرة، لكنه لم يبدُ مضحكا. برفق أجلسني وادع وأخذ يغسل وجهي، وحين استعدت أنفاسي، رفع عينين زائغتين إلى القائد ورجاله الشاهرين سيوفهم، في حين كانت حركة بائد قد سكنت تماماً، والدماء تتدفق من معصمه المقطوع بلا انقطاع.

- «من أنتم؟ وزرق أيضاً؟ ما هذا اليوم؟»

- «إنه القائد راسخ يا وادع.»

قلتها بخفوت، ابتسم القائد بإشفاق ومد يده لوادع، لكن وادع لم

يمسكها، بدلاً من ذلك أحاطني بذراعيه وساعدني على النهوض، كان يترنح، لكنه رفض تركي.

- «كيف عرفتكم؟»

بلطف امتدت يد القائد حاملة خنجري، ومنديلي الذي يجب السقوط في كل مكان، لحسن حظي. ركبنا عربة أعرفها جيداً، وأحبها بعد كل شيء، ثم انطلقت بنا العربة دون أن نسأل عن الوجهة، رميت ظهري على مسند المقاعد، وحين رأيت وادع يترنح بألم، أمسكت رأسه وأسندته على فخذي، وأخذت أعبث بأصابعي في خصل شعره الذهبية المعجونة بالدماء والعرق.

- «شعرك طال كثيراً، متى قصصته آخر مرة؟»

نظر إلي بطرف عينه بابتسامة قلقة، مصدومة كما يجب أن أكون. بعد وقت لا أعرف مدته توقفت العربة، وأزاح أحد الرجال ستائرنا ليخبرنا برفق أننا وصلنا. سمعت أصواتاً مألوفة خارج العربة، جعلتني أثب منها ما إن فارق رأس وادع حجري، كان القائد يتحدث إلى أنور وساري، يحكي لهما ما حدث على الأرجح، وما إن ترجلت حتى استقبلني ساري بصرخة مدعورة، والعروق تنفر من رقبتة.

- «لماذا خرجت؟ لم العناد؟ هل أنت سعيدة بما حدث الآن؟ لقد كدنا نجناً! لم فعلت بنا ذلك؟»

- «ساري، لا، إنه أبي...»

قلتها باكية والرؤية تتشوش في عيني، قفز أنور يسندني وهو ينظر إلي بفزع.

- «ما به الشيخ مدرار؟»

- «طيب.. أرجوكم.. إنه لا يستيقظ!»

(٩)

استيقظت على أصوات مَيَّزتها أخيراً برغم أنها كانت حولي منذ وقت،
أول ما سمعته كان صوت ساري يقول:

- «وجدوها على سطح البحيرة، جثة هامدة..»

فتحت عينيّ بصعوبة، كان ساري يجلس جوارى على الفراش ويمسّد
شعري بأصابع يده اليسرى، في حين يتحدث إلى وادع المغطى بالضمادات
على فراش في الجهة الأخرى من الغرفة، انحنى وادع ونظر جهتي مدققاً، ثم
قال بابتسامة لطيفة:

- «صباح الخير، هل تشعرين بتحسّن؟»

نظر ساري ناحيتي بسرعة، انحنى يحضر شيئاً من أسفل الفراش وهو
يقول مازحاً:

- «يبدو أن صغيرتنا أدمنت الاختطاف.»

عاد بقماشة مبللة ملفوفة حول شيء، تبيّنت الشيء حين مسح به الجهة
اليسرى من وجهي، ثلج، أبعدت يده بألم فربّت علي برفق.

- «فقط كي لا يتورم، تحمليني قليلاً.»

- «أبي؟ ماذا حدث؟»

تبادلا النظرات، ابتسم ساري بافتعال وقال:

- «سيكون بخير، أنور يتصرف، أو لعله تصرف.»

بحث عيناى عن أنور، غير موجود. عدت بناظرى المستفهمين إلى ساري؛ فتنهد وقال بهدوء:

- «منعوا الحكماء من التوجه إليه، وحاصروا منزل العم جواد، راغب لم يعد يطبق الانتظار، الحكم مقابل العلاج، هذا ما قاله. أنور لم يفكر مرتين، لقد جمع الناس في ساحة القرية، وألقى العبارات التي أَلَفها راغب: (سوف أتنازل بالحكم لعمي، بعد تبين فشلي الذريع في قيادة أمور القرية). انتهى الأمر بتهليل الحمقى؛ فأعلن راغب على الفور وبمتهى الخسة، أن من يمسك بأحد الأسماء في القائمة المعروفة بالمعادة للصفراوية، والمتعاونة مع المعسكرين؛ فإن له جائزة ضخمة. خمني أول اسم على القائمة؟»

احتجت إلى مجهود خرافي لاستيعاب الكم الهائل من الأحداث التي ذكرها، وقبل أن أقرر أي سؤال علي أن أسأل أولاً، قال وادع بابتسامة سعيدة:

- «لقد كان اسمك الأول، عدوة الصفراوية اللدود، ومصدر رعبهم الأكبر منذ نشأتهم.»

لم أفهم سبب سعادته العارمة، صحيح أن معادة هؤلاء القوم مكسب، لكن ليس إلى حد الفرح بكوني المطلوبة الأولى لهم! أبعدت يد ساري بانزعاج فأبعد القماشة عن وجهي.

- «ما الذي تريد قوله؟ أبي محاصر في المنزل دون أن يستطيع أحد الوصول إليه؟»

- «أنور ليس أحق يا صغيرة، لقد أخرج والديك من المنزل قبل تسليم الحكم لراغب، وخرج معهما بمجرد ابتعاده عن الساحة، وأخذ معه شهاب.»
- «إلى أين؟ قرية الربوة؟»

تبادل نظرة ضاحكة مع وادع، ثم قال برفق:

- «بالطبع لا، قرية الربوة على نفس الطريق، وإن كانت أهون حالاً من قريتنا، وولاؤها للصفراوية بلا منازع. سيأخذهما إلى قرية شوكة، الناس هناك متلهفون لاستقبالهما، ولنيل شرف معالجة الشيخ الجليل الذي يكتنون له كل الاحترام.»

هززت رأسي بشيء من الرضا، حاولت الجلوس فساعدني ساري، قلت محاولة منع دموعي من الانهيار:

- «رحلا.. دون أن يودعاني؟»
- «لنأمل أن يعودا بسرعة إذن. لا تكوني طفلة يا غيم!»
- «طفلة؟ هل علي أن أكون طفلة كي أريد والدي؟ أنا أريدهما الآن أكثر من أي وقت مضى.»
- «وأنا أيضاً.» قالها بابتسامة حزينة. «لكن ذنب من كبر أنه كبر، ولم يعد هذا الكلام يناسبنا.»

فركت عينيّ بحزن؛ فانطلق لسان من البرق في جانب رأسي.

- «غيم، ستصبحين بخير، تماسكي. أتعلمين؟ لقد وجدوه غارقاً في دمائه، بينما عروقه جافة تماماً، لقد ظل ينزف حتى فقد آخر قطرة، ميتة شنيعة يستحقها!!»

- «ومن التي.. ماتت غرقاً؟»

- سألت وأنا أعرف الإجابة، قال وادع بتردد:
- «تلك الفتاة الحقيمة، أخت قاسط..»
- خبجل من ذكر الاسم، أخذت نفساً عميقاً وقلت مرتجفة:
- «تعنيان أنني.. قتلت إنساناً؟!»
- نظرا إلي بدهشة؛ فانطلقت أحكي لهما ما حدث، وحين انتهيت وأنا على مشارف البكاء، فاجأتني ابتسامتهما الواسعتان.
- «هذه هي البطولة كما يجب أن تكون! الآن تنهّد الكون!»
- «م... ماذا؟ هل أنت سعيد لأنني قاتلة؟»
- «أنت، قاتلة؟ بالطبع لا، أولاً لم تكن غلطتك أنها جشعة لا تمتنع يدها عن الامتداد على حقوق الغير بنهم، هذا انعكس -بلا أسف- على قدرتها على التوازن، صحيح؟ ثانياً، لقد كانت قاتلة، بمعنى الكلمة، معلمتك رؤية، والحاكم، وكل من قتلوا بفعل الحرب والكرات الزجاجية، ألم يكن ذنبهم في رقبتها؟ لو أنها عاشت إلى اللحظة لرأيتهما تشمشم بأنفها كالكلاب باحثة عنك وراغبة في قتلك، أي أنك لم تفعلي أكثر من الاقتصاص منها. ثالثاً، أنت لم تقتلي إنساناً، قتلت بقرة!»
- الآن هدأت قليلاً، قلت بفضول:
- «من أيضاً ذكر في القائمة؟»
- «جميعنا، أنا، ووادع، وتبر، وأنور، ووسم، والحداد حصين، وصانع الزجاج صافي، وعدد كبير من المسجلين لدى أنور.»
- «المسجلين لدى أنور؟»

نظر وادع إلى ساري كأنه يطالبه بالسكوت، وحين رفع رأسه واصطدمت عيناه بنظراتي الحارقة عض شفته بخوف.

- «فعلاً لم يتغير شيء، حريص على أوامر أنور كما كنت صغيراً.»

فهقه ساري باستمتاع، تربع على الفراش وقال بعناد:

- «عن نفسي، أنور لم يطالبني بإخفاء شيء، لقد عمل أنور طوال الفترة الماضية على جمع أسماء المناهضين للصفاوية، وجمع عدداً لا بأس به، ربما لم نكن لتخيل وجودهم، خاصة بهذه الكثافة، ووصلت القائمة إلى المعسكرين، و.. يمكنك قول إننا عملنا على تأسيس جيش، لغارسي الفسائل، بلا اعتبارات أخرى.»

اتسعت عيناى فى بهجة، الآن أستطيع أن أرتاح.

- «ماذا عن عمى جواد وخالتي حسناء؟»

- «سيرحان من القرية، قسراً.»

قالها وادع بجمود.

- «لكن.. من دونكم؟»

- «نحن حريصان على سلامتها، رجال الحماية منتشرون على حدود القرية، يفتشون الداخل والخارج، لن يجدوا صعوبة فى الإمساك بنا لو رافقناهم.»

تنهدت بألم، هذا كابوس يتحقق. قلت بخفوت:

- «والحاكم؟»

- «رفض راغب إخراجه من الدار، حتى بعد استلام الحكم؛ لذا أقدم

مجهولون زرق على اختطافه، وأخفوه في الطابق السفلي.»

ابتسمت ابتسامة باهتة.

- «نحن بلا آباء إذن.»

- «ربما حان الوقت لكي نكبر، وندرك أن القرية مسؤوليتنا الآن؟»

أومأت بخفوت، ثم انسللت ببطء تحت الغطاء، قلت بعينين ثقيلتين:

- «نحن في منزل خالتي؟»

- «أهذا سؤال؟ هل نسيت الغرفة التي كنت تبيتين فيها كل زيارة؟ أم

أن محاولتك الحثيثة للهرب من هذا البيت أنستك تفاصيل المكان؟»

كان يقولها مازحًا، لكنه يعرف أن كلامه حقيقي، لم أستطع يومًا تحمل

الجرعة الزائدة من الكآبة التي تنضح بها جدران المنزل.

- «هل تظنون أنه مكان مناسب للاختباء؟»

- «مؤقتًا، ريثما يجهز المكان الرئيسي.»

- «لا تقل، في المعسكرات؟»

- «وكيف سنغادر القرية يا فطينة؟»

- «كما غادرتها العربة التي تحمل أبوي؟»

- «كان هذا قبل فرض الحصار.»

قلبت شفتي بلا اهتمام وأغمضت عيني، ربّت ساري على جبهتي وسألني

إن كنت أريد أن يسدل الستائر، لا أعرف إن كنت أجبته أم لا، لكنني شعرت

بالغرفة تظلم، ثم به يقبل رأسي ويقول بحب:

- « لا تخافي، لن نتركك، ولن ندع مكروهاً يمسك. »

مجدداً، الصوت، يخترق أحلامي التي اختلقت مؤخراً، كان نومي حفرة دامسة بلا قاع، بلا أحلام ولا أفكار، لكن ما إن بدأ وعيي يعود، حتى هاجمتني هذه الأصوات كأنها كانت تتربص بي من البدء. أحفظ أصوات انفجار الكرات عن ظهر قلب، وأستطيع استحضاره في ذهني في أي لحظة، لكن الأصوات الحالية أشد ضراوة، ربما التشبيه الأمثل أنها أصوات انفجار كرات عملاقة!

كانت الكرات تنفجر -في حلمي- أمامي في درب طويل لا آخر له، وكلما انحرفت وسلكت طريقاً آخر، سقطت كرة أخرى من العدم لتسده في وجهي. من ورائي ظهر بائد بيده المقطوعة، وتكررت في ذهني عبارته الباردة: (أم سيكون لنا كلام مع هذه القطة؟)، أركض بخوف، تنفجر كرة أخرى، أستدير فتظهر لي شهوة، بابتسامتها الأخيرة المفزعة، من جهة ثالثة يظهر قاسط، على هيأته يوم أراد القفز على وادع، ثم تظهر حلية، يوم قالت لأنور: (دعها تغرق أو تذهب إلى حيث ألفت)، لكنها كانت تقولها لراغب، وهو يردد بعصبية: (ليس إن تخلصنا من كليهما، الحاكم والوريث).

وجه أبي الشاحب مفتوح الفاه، رجفة ساري يوم جلس جوارى في المزرعة، شعر وادع المعجون بالدماء والعرق، عين جوهرة المزرقة المتفتحة، وجه تبر المليء بالخدوش بفعل أظافر زنبق، جسد معلّمتي رؤية المحترق، آلاف الصور تتوالى على ذهني فلا تدع لي مجالاً لأتفلس، والكرات الزجاجية تواصل انهارها المجنون. أخيراً تقترب الشمس، أكثر من اللازم، يحرقني لهبها ويؤذيني، أصرخ فيها: لم يازميلة المهنة؟ لكن حين تقترب، أكتشف أنها لم تكن الشمس، بل كانت كتلة نارية عملاقة، اسمها الصفراوية.

- «ساري، وادع؟»

فلتها بلا صوت تقريباً وأنا أجيل ناظري في الغرفة، ليسا هنا، نهضت بإرهاق، بحثت عن دورق ماء فلم أجده، أي عناية هذه؟ ببطء سرت، ترنحت أولاً، ثم اعتادت قدماي الأمر، فتحت الباب بحذر ونظرت، لا أحد في الجوار، الليل حل والدهاليز مظلمة، سرت بتمهل على الدرج الذي أحفظ درجاته درجة درجة، أسمع صوت سعال يصدر من غرفة قريبة، بتردد أقترّب، جوار الباب مرآة، لا أعرف إن كنت أحلم أم لا، أنظر إلى صورتني في المرآة: الندبة الطويلة على جانب وجهي الأيمن، لم تختف بعد، والصفعة على الجانب الأيسر، وشعري المنتفش يكلل ذلك كله. فوجئت بصورتني في المرآة بتبسم، لم أكن أكثر شبهاً بغيمة الصغيرة في يوم أكثر من هذا. صوت السعال من جديد، بحدة أكبر، فتحت الباب ونظرت، إنه هو.

ذهبت للمطبخ بسرعة وعبأت دورقاً بالمياه، رشفت من فم الدورق بلهفة كأنني لم أشرب منذ أعوام، ثم عبأته مجدداً وأحضرت كأساً زجاجية. عدت أدراجي نحو غرفة الحاكم.

- «تفضل، سيساعدك.»

بصعوبة فتح عينيه، نظر إلي وقطب حاجبيه محاولاً التعرف إلي.

- «أنا غيم يا عمي، زوجة أنور.»

- «ابنة مدرار؟» أومأت بخفوت. «كان علي أن أعرف هذا الشعر المنتفش، ألسنت الفتاة التي قالت رأيها بي أمام القرية كلها ودون أن تحسب حساباً لأحد؟»

توهّج خدّاي في حرج، هل على هذه المعلومة أن تكون أول ما يتذكره عني؟ ابتسم ومد يده يلتقط الكأس الزجاجية مني.

- «أخيراً سأشرب شيئاً وأنا مطمئن؟»
- «كنت تعرف؟» بصدمة سألته.
- «لا أعرف، أظنني عرفت متأخراً جداً، حين لم يصبح بالإمكان فعل شيء.»

فتحت فمي ثم أغلقته، فات أوان اللوم.

- «ربما كان علي السير وراءك من البدء يا صغيرة، ربما لم يكن علي إحاطة نفسي بأشخاص يجبرونني كم أنني رائع، وكم أن قراراتي حكيمة، وتصرفاتي فذة. ربما كان علي أن أتخلى عن شيء من راحتي لأعطي اهتماماً أكبر، حين جاء والدك يجبرني بأمر المن، وحين رفض شروط السفير، كيف أطعت هتر؟ لماذا قربته مني أصلاً؟ لقد اعترف أنه رآك يوم تبعته المن، كان متناقضاً وكان كذبه مفضوحاً، ودائماً كانت خططه واهية، لكنني فضلت ألا أرى، وأن أخدع.. برضاي!»

وضعت يدي على ذراعه، قلت بخفوت:

- «أسفة لكل ما جرى، كان الأمر يستلزم قراراً شجاعاً واحداً، بعده تنهار العقبات تباعاً. الاستهانة واستصغار الخطأ هما أكبر خطأ، لقد فكرت في الحاكمين رشيد وجسار، وتمثلتهما أمامك بجشعهما واستعدادهما لفعل أي شيء في مصلحتهما، ثم نظرت لخطئك، بضعة قرارات لا تقدم ولا تؤخر، وبالمقارنة، صغرت أخطاؤك في عينك، لم تدرك أن الخطأ لا يحسب بالحجم، وإنما بالتوقيت، وبالشخص، وبكونه خطأ! لكن.. لا سبيل للأسف على ما فات. اعذرنني على تحاملي الشديد عليك، الآن أدرك أنك لم تكن السبب الأكبر لسوء أحوال القرية، الجميع كان كذلك.»

تنهد بحرارة، سألني عن أنور فأخبرته أنني لا أعرف، هكذا أعاد إلي

الكأس بعد أن شرب نصف ما فيها، وعاد للنوم دون كلمة أخرى. أغلقت الباب، وتراجعت أنظر للبيت في الظلام، كأنه ليس مقبضاً بما يكفي أصلاً! سمعت صوتاً قريباً فاتجهت نحوه بفضول.

- «أنا هنا.»

كذا انطلق صوت تبر، لا بد أنها طريقته لتنبيه ساري أو أنور حين يقتربان، بلا تفكير دفعت الباب وانقضضت عليها، ولم تستغرق وقتاً حتى تعي ما يجري، وتندس في حضني بدورها.

- «أين كنت؟ خفت عليك كثيراً! أنتِ ووادع معاً، هذا...»

لم تكمل، أخذت تقبل خديّ بحرارة وهي تبكي، المسكينة، لا بد أنها كانت فرعة للغاية. افترقنا وبقينا ننظر إلى بعضنا، انفجرت ضاحكة بانفعال جمّ، ثم قبضت على يدي بقوة وأجلستني على الفراش.

- «إذن، كيف تشعرين في الأعلى؟»

- «في الـ.. أعلى؟»

- «على رأس القائمة!»

عدنا للضحك، الآن أفهم وادع، يبدو الأمر مضحكاً حقاً، لقد كنا في القائمة منذ زمن بعيد على أي حال. أخذتنا الأحاديث فلم نشعر بالمكان والظروف المحيطين بنا.

مع ظهور أول خيوط الشمس، قطع أحاديثنا صوت مرعب، أجفلنا ونهضنا، بلا شعور وجدتني أتمسّس خصري باحثة عن الخنجر، ثم أتذكر -في ضيق- أنني لا أعرف مكانه حتى. تسرع تبر إلى المصباح لتطفئه، ونستقر في الظلام خلف الباب، الاقتحام لم يكن طبعياً، هناك من ركل الباب بكل

قوته ودخل، هل سنسقط بهذه السرعة حقاً؟ تمر اللحظات ثقيلة، ونود لو نستطيع كتم أنفاسنا، بدت أصواتها فاضحة بالنسبة لنا. فجأة تبادلنا النظرات، ومع الضوء الذي غمر المكان استطعنا تمييز الصراخ المجنون، عويل، وانتحاب، وضربات قوية لشيء لا أعرف كنهه، الأدهى من كل هذا أن الصوت كان يصدر من شهاب!

- «ألم يغادر مع أنور؟ ما الذي يجري؟»

قلتها تبر هامسة بفزع، هزرت رأسي بعدم فهم ووجدتني أقاوم رغبتني الجاحمة في الخروج لتهدئته، ما الأمر يا ترى؟

- «شهاب، يكفي، أرجوك اهدأ، ستتحدث!»

الإشارة التي انتظرتها للبروغ من مكاني خلف الباب، أسرع إلى أنور لأفاجأ بشعره المشعث وعينييه الحمراروين، كأنه لم ينم منذ وُلد، عند ركبتيه بالضبط يقف شهاب، يدور حول نفسه كحصان رأى أفعى، يتقافز ويسقط وينهض، يضرب بكفيه الصغيرين ساقَي أنور وبطنه، كل هذا دون أن يكف عن الصراخ لحظة واحدة.

- «ماذا يجري؟ ما به؟»

قلتها بفزع؛ فأغمض أنور عينييه ببؤس.

- «حلية، لقد.. رأى راغب أن دورها انتهى.»

فغرت فمي في صدمة، شهوة وبائد وحلية في يوم واحد؟ ضمّ أنور الصغير غير أبه بضرباته المكلومة، قبل رأسه وقال بعينين دامعتين:

- «لم أرد له رؤية شيء كهذا، لو كنت أعرف أنهم.. أنهم سيفعلون ذلك في ساحة القرية ما كنت...»

ثم انخفض إلى مستواه وكبّل حركته بذراعيه وضّمّه إليه، سكن شهاب للحظات بقيت عيناه فيها متسعيتين عن آخرهما، وبقي يلهث كأنه ركض عبر طريق السفر كله. فجأة انتزع نفسه من أحضان أنور بعنف، وركض بسرعة الضوء نحو الأعلى، ثم أغلق باب واحدة من الغرف بكل قوته. نهض أنور ومسح دموعه، نظر إلي وقال برفق:

- «كيف أصبحت؟»

- «ماذا حدث؟ أنت مدين لي بقافلة من التفاسير!»

ابتسم بلا روح وأحاطني بذراعه.

- «لقد وصل عمي مدرار وخالتي رؤوم إلى بر الأمان. العم جواد وزوجته أيضاً بخير، قال الرجال إنهم كانوا على مشارف القرية قبل الفجر بقليل.»

- «إلى أي قرية ذهب العم جواد؟»

- «قريته الأم، لم يعد غرس الفسائل جريمة، ليس بعد أن ارتفعت أعداد الغارسين إلى ما يقارب النصف!»

- «لماذا عدت بشهاب؟ ظننتك ستتركه عند ليلة. وكيف ولجت إلى القرية؟ ألا يقف رجال الحماية على الحدود؟»

- «قرية الربوة تخوض منحني خطيراً في تاريخها، أفترض لها عدة أيام، من باب المجاملة، وسيكون حالها كحالنا وأسوأ، لقد اغتيل الحاكم صارم، ورغم أنه كان مسالماً ولم يقيم بأي خطوة صارمة معهم، وأخذ قصي ليلة وهرب بدوره. وبالنسبة لرجال الحماية.. منذ متى وهم يؤدون دورهم بأمانة يا فتاتي؟ كان شاب متحمس حريص على المكافأة يقف منتبهاً بعيني صقر،

لكن للأسف، لم يعيش لعمر الكهولة.

- «هل.. قتلتموه؟ ماذا يحدث؟ هل جنّ الجميع؟»

ثبت عينيه في عينيّ بصرامة.

- «أنت بالذات لا تقبلين بأنصاف الحلول. رجال الحماية الآن، أتعرفين لمن أصبح ولاؤهم؟ لا تقولي للصفراوية؛ لأنك أول من أخبرنا أن الصفراوية مجرد غطاء لمصيبة أكبر، الآن ظهروا على حقيقتهم، إنهم مجرد عملاء وأيادٍ ملوثة تتلقى أوامرها ممن يريد تدمير غارسي الفسائل، ومن يعمل معهم يعمل بإرادته، طمعاً في رضاهم ورغبة في ما يعدونهم به من عطايا، نحن لم نقتل الجهلة والأبرياء يا غيم، نحن قتلنا من جنى عليهم! وإن كان الجهلة هم السبب الرئيسي؛ فإنه لا يمكن محاسبة الأعمى على كونه أعمى!»

صمت باقتناع، ثم قررت الاستمرار بالأسئلة.

- «صناديق أبي، ماذا حل بها؟»

- «خرجت من القرية بعد أن عبأناها بكل ما طالته أيدينا من بذور، سيتولى فريق تقسيمها على الفرق ومن ثمّ زراعتها، لو حدث لنا شيء، أو اندثرت قرية المروج عن بكرة أبيها؛ فإننا سنضمن أن تبقى هذه النباتات آمنة في مكان ما.»

- «لماذا قد تندثر قرية المروج؟»

- «ألم تقولي إننا ننحدر؟ حسناً، لم يبقَ على القاع إلا القليل، ما يكفينا لنوجع الصفراويين فقط، ونعلمهم خطأهم، ثم نهوي معاً، أو ربما ننجو، أو حتى ينجون.»

- «لن ينجوا، إما أن نهلك جميعاً، أو يهلكوا وحدهم.»

- هز رأسه مؤمناً ومسح وجهه بيديه في إجهاد.
- «اخلد للراحة، أرجوك.»
- «سنرتاح يا غيم، بعد التخلص من الصفراويين، أو عندما يحين وقت راحتنا، باختصار: ليس الآن.»
- «ما الذي حدث لحلية في الساحة؟»
- «ماذا تظنين؟ أعدمت بالطبع، شنفًا، بتهمة تسميم الحاكم، والتآمر مع الزرق لاختطافه، والدليل: قدح الزرنبخ. أحياناً أشعر بأنني أتفوه بالنبوءات دون أن أدري، أولاً فصل الشيخ مدرار من الدار، والآن هذا!»
- «لكن كيف توصلوا إلى القدح؟»
- «زوجك الأحمق لا يعتمد عليه، هذا كل شيء. لقد خرجت متحمساً للتعاون مع القائد راسخ ولم أشعر حين سقط القدح من جيبِي، أمام غرفة راغب بالضبط!»
- كان عصبياً جداً، إلى حد أن التحدث إليه استأهل مجهوداً عنيفاً، وجعلني ألهث بتعب.
- «ماذا عن صندوق القائد راسخ، ماذا كان فيه؟»
- نظر إلي بضيق ولم يتكلم.
- «ستخبرني، لقد حاولت إبعادي عن المشكلة ولم أبتعد، تبين أن هذا ليس بيدي ولا بيدك، الشر لا يكفيه أن تنزاح عن طريقه، الشر سيطرق عليك باب بيتك، أو سيهدم سقفه فوقك!»
- «كانت فيه خريطة لقرى غارسي الفسائل، الحقيقيين، وقائمة بأعداد واستعدادات الجند الزرق المستعدين للتعاون معنا، بالإضافة إلى...» صمت

قليلاً وهو يهوي على أريكة متهالكة في الصالة؛ فتعقب برائحة الخمر. «الطريقة للوصول إلى سر الخلود.»

قطبت حاجبي في عدم فهم أولاً، ثم ارتفعا بمفردهما حين وعيت الكلمة.

- «أنور، هل تعني.. سر الخلود حقاً؟ الخاص بالحاكم رشيد؟»

- «هو بعينه يا جميلتي، مع فارق أن الحاكم رشيد كان يملك جيوشاً جرّارة يستخرها لحمايته، وكان خبيثاً ودنيئاً بما يكفي للوصول إليه.»

- «لا أعرف لم على سر الخلود أن يكون محمياً، لكن...»

- «لا تعرفين ماذا؟ أتريدين أن تبقى طريقة الوصول إلى سر الخلود متاحة للقاصي والداني؟ أي نوع من أنواع الأسرار هذا؟ أتصورين حجم الكارثة حين يخلد بائد أو راغب أو هتر؟»

قالها صارخاً بغضب، ثم تمالك أعصابه بسرعة.

- «آسف، أنا فقط، هذا أكبر مني، أنا لست كفؤاً...»

- «هلاً توقفت الآن واستمعت إلي؟»

حان دوري لأتحدث بصرامة، رفع عيني زائغتين إلي؛ فقلت:

- «أولاً، من الجنون أن تحكم على نفسك وأنت نعسان وجائع. تبر ستعد الطعام الآن، وسنأكل ثم نرتاح، ثم نتحدث!»

اتسعت عيناه في ذهول، لم يتوقع أن أقول هذا.

- «إن كنت تظن أنك بطل لمجرد أنك تبقى مستيقظاً أطول من الجميع، وتهمل صحتك؛ فأنت واهم. أنت -بهذا الشكل- مجرد شخص لا يعرف أولويته، كمن يقتحم معركة دون استئلال سيفه!»

- ابتلع ريقه ونظر إلي بتوجس، يشك في عقلي، اعتدت هذه النظرة.
- «ثانيًا، سر الخلود ليس لعبة، وليس مشروبًا ولا مسحوقًا، ولا خاتمًا سحريًا، باختصار، هو ليس شيئًا ماديًا، وليس شيئًا متاحًا للجميع، ولو وُضعت طريقة الوصول إليه في منتصف ساحة القرية فإن القليل فقط من يستطيع فعلها؛ هل أنا مخطئة؟»
 - «لا، لكن.. كيف عرفت؟»
 - «أنور، هلاً أطلعتني على هذه الطريقة؟»
 - «الأمر خطير يا غيم، لا أريد إقحامك في...» قالها بلهجة باكية تقريبًا.
 - «أنور!»
- مقاومته أوهن مما تصوّرت بكثير.
- «ليس هنا، لقد خبأته، سوف أريك...»
 - «ليس الآن، تحدث إلى شهاب، ثم استحم وكل ونم، بعدها، كل شيء تحت السيطرة!»
 - «ماذا أقول له؟»
 - «كيف لي أن أعرف؟»
- تنهد في همّ ورقي درجتين في الدرج، ثم استدار لي، يبدو كما لو كبر أضعاف عمره بظهره المنحني وخطواته المهتزة.
- «كيف حال الجميع؟»
 - «الحاكم بخير.. أعني، تحدثت إليه قليلًا، كان يس...»
 - «تحدثت إلى أبي؟ هل استيقظ؟!»

أو مأت، توقعت من استرساله في الحديث أنه مستيقظ منذ وقت.

- «يا لك من بركة! سأسمع التفاصيل لاحقاً، ماذا أيضاً؟»

- «لا شيء، تبر بخير، لا أعرف أين ساري ووادع.»

- «أنا أعرف، لا بأس، ماذا عن جوهرة وبدر؟»

اتسعت عيناى بدهشة، فهم من نظرتى أننى لم ألتق بهما؛ فابتسم بتعب وأشار إلى الجهة الخلفية، قسم الضيوف المهمل منذ وفاة حيّان، حتى نحن لم ندخله، لقد نسي أصلاً.

واصل أنور صعوده فى حين عدت لتبر لأهدئها وأخبرها أن الطريق للمطبخ خال، كانت تجد نفسها فى المطبخ، وكنا بحاجة إليها بصدق. فارقتها واتجهت إلى حيث أشار أنور بلهفة، سمعت أصواتاً خافتة تصدر من إحدى الغرف؛ فأدرت المقبض بهدوء شديد ودخلت.

أجفل الصغيران عند دخولى، ثم اتسعت أعينهما الجميلة فى عدم تصديق، وسرعان ما وجدتهما يستقرّان فى حضنى.

- «أخيراً لى العم أنور طلبنا؟ هل أنا أحلم؟»

كتمت ضحكة إثر سماعى لكلمة (العم أنور)، هل كبرنا إلى هذا الحد؟

- «أوحشتمانى يا صغيرى، كنت خائفة كثيراً عليكم.»

- «هل أزعجكم أبى مجدداً؟ العم أنور يكتفى بإخبارنا أن كل شيء

بخير، وأننا سنخرج قريباً، وأنك ستزورينا قريباً.»

ابتسمت برفق، لم أرد تخيب أملهما بقول إن أنور لم يحدثنى عنها بنصف كلمة منذ هربا، لكننى أتفهم أسبابه، لو بدأت بارتداد المنزل بشكل مفاجئ فإن أسئلة ستطرح؛ لذا كان من الأصلح الاكتفاء بشخص واحد يتسلل

لرؤيتهما بين فترة وأخرى، غير إقامة ساري شبه الدائمة معها. أما عن شهاب؛ فبوسعي افتراض أنه كان يزورها دون علم أحد، ولا حتى أنور.

- «منذ متى وأنتما هنا؟ من البداية؟»

أومأت جوهرة بابتسامة؛ فشعرت ببعض العجب، إذن قبل ساري التعاون مع أنور منذ ذلك الوقت، حقه كان تجاهي بشكل خاص!

- «لماذا كان شهاب يصرخ منذ قليل؟ وما هذه الجروح على وجهك؟ ولماذا اجتمع الجميع هنا فجأة؟»

- «على رسلكم، لا يوجد الكثير مما عليكم معرفته، العالم ينهار، هذا كل شيء.»

- «غيم، أسرع، هيا، إنهم قادمون!»

نهضت بفزع وتلفت حولي، الشمس على وشك الغروب، متى نمت وكيف؟ منذ اللحظة التي رأيت فيها وجه أبي الشاحب وفمه المفتوح، ولا شيء يسير بشكل منطقي أو مترابط. نظرت لأنور بذهول.

- «من القادم؟ ماذا يجري؟ إلى أين أذهب؟»

- «ارتدي ملابس الخروج، سنبتعد من هنا، الصفراويون سيفتّشون المنزل، أبلغنا الرجال بذلك قبل قليل.»

بصعوبة استوعبت كلامه، نهضت لأبحث عن ملابسي في حين رحل أنور ليخرج والده، ثم ركضت أتعثر على الدرج، بعد أن درت في الغرفة دورتين باحثة عن أغراضي، فقط لأتذكر أنني لا أملك أغراضاً. وصلت للأسفل، الجميع يقف في توتر وارتباك، جرت تبر نحوي تسألني عما هنالك؛ فلم

أجد جواباً. اقترب وادع وساري على حصانيهما، ومعهما حصانان إضافيان وعربة، خرج شهاب والصغيران الأزرقان، تشبث الأخيران بملابسي في فزع، في حين بدا شهاب تائهاً تماماً، بكتفين متهدلين وعينين مظلمتين. ركض وادع للدخل وعاون أنور في حمل الحاكم، وحفزنا ساري على الركوب بسرعة، ووسط كل هذا الذعر، وجدتنني أنفصل لأركض بفرحة وأعانق جناح، حانت مني نظرة إلى ساقها فعاجلني ساري بقوله:

- «عادت مثل ما كانت.»

ابتسمت له شاكرة، ثم جذبت شهاب بإلحاح.

- «ستركب معي، اتفقنا؟»

أوماً ربع إيماءة، بالكاد شعرت أنه يومئ. صعدت وحمله ساري ليجلس أمامي، ركبت تبر خلف وادع على حصانه، وثبت أنور العربة التي تحمل الحاكم وجوهرة وبدر على الرمح، انطلقنا مسرعين في الظلام، تقدمنا ساري بمسافة وكان يستدير من وقت لآخر ليتبادل إشارة يدوية مع أنور، كأنه يتحقق من خلو الطريق.

اقترب مني أنور وقال بصوت خافت:

- «أنت واثقة من أنك تحدثِ إليه؟»

ألقيت نظرة على الحاكم الملقى في العربة، بالكاد يتنفس، أظنني لست واثقة من شيء. أخيراً دلفنا عبر بوابة متهدمة، بدت خيفة ومقبضة إلى أقصى حد، لكنها ليست مجهولة، قلت بحيرة مفتعلة:

- «أهذه مزرعة حيّان؟»

أوماً أنور بصمت؛ فقلت بحذر:

- «أخشى دخولها، ستقطع قدمي لو خطوت خطوة واحدة.»

نظروا إلي في شيء من الحيرة، ولم يعر أحد كلامي اهتماماً، عدا ساري.

- «فليقطع لسان من يقول شيئاً كهذا، أنتِ مرحّب بكِ في أي مكان،
ويا لحظ المكان الذي تطوّه قدما غيم.»

ابتسمت برفق، وابتسم ساري باعتذار، وصلنا إلى آخر المزرعة، المخزنان العملاقان اللذان سمعت عنهما الكثير، ولم أرهما قبل الآن. ترجلنا، وتقدمنا ساري إلى الداخل، كان المكان مهياً بشكل جيد، وبرغم برودته الشديدة، لم أشعر أنني داخل مخزن، الحق أنه كان مفروشاً ومضاءً كمنزل حقيقي، قادنا ساري في جولة سريعة يعرّفنا على المكان، الصغير في الواقع، المخزن الأول سنقيم فيه أنا وأنور والحاكم وشهاب، والثاني لوداع وتبر والصغيرين، وساري سيتدبر أمره، هذا ما قاله. ألقى أنور نظرة شاملة على المكان وقال بابتسامة ساخرة:

- «يا لفرحتك يا شيخ مدرار، ها أنا ذا أوفي بوعدتي، وأمنح ابتتك منزلاً مستقلاً تعيش فيه كالمملكة.»

نظرت له بلوم ولم أجبه، أسرع لتهيئة فراش الحاكم، ليس فراشاً بالضبط، حشية متواضعة، لكنها مرتبة، وضع أنور ووداع الحاكم في مكانه، ولنشعر أنفسنا بشيء من الخصوصية، كان ساري قد صنع ما يشبه الباب الصغير من جريد النخل، يُغلق على الجهة الخاصة بالحاكم فتمنحه غرفة ضمنية. المكان ليس سيئاً بالمجمل. جلس شهاب متكوماً على الحشية الصغيرة الخاصة به، وجلست على حشيتي المشتركة مع أنور، وجواري جلس. عاد وادع مسرعاً بعد مدة من السكون الذي يصم الآذان، وبيده قارورة زجاجية.

- «هل وصلت أخبار جديدة؟»

أوماً وادع وهو يقترب من الجدار، ببساطة هشم القارورة وترك الزجاج يتساقط على الأرض، فقط أزاحه بقدمه بتلقائية وهو يفض الورقة الصغيرة التي كانت بداخلها ويقرأ ما فيها.

- «في منطقة الجبال، عند التقاطع مع طريق السفر، استطاعت مجموعة من رجال الحماية الصفراوية العثور على كمية البذور المخبأة هناك، دارت معركة حامية واستطاع رجالنا الإفلات ببعضها، مع خسارة الكثير من البذور والرجال.»

اتسعت عيناى بارتياح ونظرت لأنور، لم يُبدِ أي تفاعل، هز رأسه بشيء من الشرود وقال بعملية:

- «وساري، هل أنهى عمله؟ لقد تأخر كثيراً.»

- «العطل ليس بسيطاً، وساري وحده.»

قفز أنور من مكانه بنفاد صبر.

- «ولم عليه أن يكون وحده؟ فلننه هذا الليلة.»

- «هل أستطيع المساعدة؟»

نظر إلي بضيق وخرج دون أن يجيب، نظر إلي وادع كأنه يعتذر.

- «مسؤولياته تفوق تخيلك، الأمر صعب عليه.»

- «كل ما أطلبه أن يشركني في هذا، الحمل يخف حين يتشارك حمله

اثنان، لم لا يمنحني فرصة؟»

- «خائف عليك، صدقيني.»

نظرت له بغيظ فتراجع باضطراب، تستفزني هذه العبارة، مم يخاف علي؟
مما أواجهه منذ عامين؟ وبأي طريقة يحميني؟ أي عبث!

- «انتظر، لا تخرج. ماذا أراد منك بائد؟»

اتسعت عيناه بارتباك، سيكذب.

- «لقد.. لقد سمعت، صناديق البذور.»

- «التي سبق وخرجت من القرية؟ هناك تفصيل لا أعرفه، ويجعله
متحمسًا لتعذيبك بهذه الوحشية!»

- «تعرفين أنه يكرهني من البداية، ولم يغفر أبدًا المظهر الذي بدا عليه
يوم المحاكمة بسببي.»

- «هوّن عليك، لقد أخبرني أنور بما حدث للبذور، ربما تستطيع التوقف
عن اللف والدوران الآن.»

أغمض عينيه في انزعاج، ثم فتحهما وقال بشيء من الغضب:

- «لم تظنين أنني أنتظر ما يقوله ويفعله أنور حتى أقرر على أساسه؟ إن
كنت سأخفي عنك شيئًا فلا أنني -أنا وادع- أخشى عليك من عاقبة معرفته،
وليس لأنني أخاف من أنور!»

- «آسفة، لم أقصد مضايقتك.»

قلتها بخفوت، وتراجعت دون كلمة إضافية لأجلس في مكاني.

- «حسنًا، أنا.. لم أقصد أن تعتذري.. ليكن، اسمعي، لم يكذب أنور حين
قال إننا نسير على خطاك واستنتاجاتك، ذلك الأكبر من الصفراوية، الذي
يكره غارسي الفسائل حد الموت، إنه يدرك جيدًا أهمية النباتات، ويعرف أنه
لا يستطيع الاستغناء عنها؛ لذا يريد سلبنا إياها، بدون أن يتخلص منها؛

ولهذا كان بائد يستجوبني، كانوا يحاولون القبض عليها قبل أن نهرّبها.»

- «عرفت ذلك، لكن من هذا الأحد بالتحديد؟»

- «ليس أحدًا، إنهم آحاد، تحالف من حارقي المحاصيل والجدارين، بكل ألوان الأعين، بل إن من بينهم حارقي محاصيل صفر كانوا يعيشون بيننا، لقد بذلوا مجهودًا جبارًا لتهيئة كل ذلك، ولتجنيد الأقدار من كل مكان. بائد لم يكن صفراويًا لعينًا عاديًا، وكذلك قاسط، وشه.. وأخته التي نفقت، وزنق، لكنهم صعدوا على أكتاف الصفراويين المتعصبين الحمقى، من أمثال أديم، أليس هذا اسمها؟»

قطبت حاجبي، أديم؟ متى كانت آخر مرة سمعت فيها اسمها؟

- «لقد قتلوها؛ لأنها كانت معلمة لغارسي الفسائل.»

- «لكنها لم تكن تعلم شيئًا من الأساس!»

- «كانت سعيدة بمكانها وبالقيمة التي اكتسبتها، لم تدرك أنها مجرد كبش فداء، استعملتها الرؤوس الأكبر لتعطيل المكان وإيقاف فائدته ريثما يتخلصون من الدار، وغارسي الفسائل كلهم. لقد قتلوا نداء، والمدير الجديد للقسم الرجالي، قتلوا جميع معلمي الدار من غارسي الفسائل، حتى الجهلة منهم!»

- «ماذا تريد قوله؟»

- «ما أقوله ليس استنتاجاتي الخاصة، أنا لست محللاً بارعًا مثل غيم، ما أقوله هو الحقائق التي توصلنا إليها. قريبًا -وأعني هذا الساعات القادمة ربما- ستصبح مجرد محاولة الزراعة جريمة، وسيكون أي غارس فسائل مطلوبًا مثلنا تمامًا، ولو لم يكن مقصده إلا توفير الطعام، بلا معتقد ولا انتماء!»

- «ألم يكن هذا ساريًا من البداية؟»

- «بصيغة رسمية هذه المرة.»

صمت، سألني بلطف إن كنت أريد شيئًا قبل أن يذهب، سألته إلى أين سيذهب فابتسم وخرج، يا للسخافة!

- «شهاب، تعال يا صغيري.»

بلا أي تعابير نهض وجلس جوارِي، كأنه مسحور، أحطته بذراعي وقبلت رأسه.

- «يمكنك أن تتحدث إلي، قل أي شيء تريده، وسأسمعك.»

رمش بعينه سريعًا، يحاول ألا يبكي.

- «لم لا؟ ابك، أنت بحاجة إلى ذلك. البكاء ليس ضعفًا يا شهاب، ولن تكون قويًا حين تحتفظ بالهم والدموع معًا!»

كأنني قلت كلمة السر، زرع وجهه في حضني وانفجر يبكي بحرقة وبصوت مرتفع، بقيت أمسح شعره وأربت على ظهره دون أن أقاطعه، من في مثل ظروفه يستحق أسابيع ليحزن على مهل، وأهلاً يلتفون حوله ويواسونه ويتحملون نوبات غضبه وصراخه وألمه، يستحق أن يعزف عن الأكل فيجد من يرجوه أن يفتح فمه ليأكل لقمة، هو لا يستحق أن يكون حزنه هامشيًا بهذا الشكل، ولا أن يُعدم حتى موضعًا خاصًا يستطيع أن يبكي فيه كما يطيب له، لكن لمن أتوجه باعتراضي هذا؟ أخيرًا انتهى البكاء الخام، وتحدث شهاب بآلم:

- «لست حزينًا لأنها.. لأنها ماتت، أعني.. كان هذا سيحدث على أي حال، بالطبع كانت ستموت وجميعنا أيضًا، صحيح؟ قال أنور إن هذه ليست

النهاية، وإنها مرحلة سنمر بها جميعاً.»

ما أبدعك يا أنور! كان علي أن أعرف أن هذا ما ستقوله له بمجرد النظر إلى منظر عينيك الدمويتين صباحاً!

- «لكنني حزين لأنها.. ماتت وهي سيئة، ولأنني لم أستطع أن أنصحها بالتوقف عن أفعالها الشريرة، أنا.. أحبها.. لم أرد لها أن تكون هكذا!»

فتحت فمي، ولما لم أجد شيئاً أقوله أغلقته. مسح شهاب دموعه وابتسم بصعوبة، قال بعدوبة مفاجئة:

- «لكن بوسعي أن أدعو لها، صح؟ سادعو أن يغفر الله لها، على الأقل.. سيزول عنها شيء من الذنب، ربما.. سيتبقى فقط ما يتعلق بالناس. غيم، هل تسامحينها.. لأجلي؟»

مدهش أنه يتفهم مسألة حقوق العباد، كان ينظر إلي بعينين راجيتين مكملتين بالدموع، نظراته حجبت عقلي، ودفعني لأن أقول بلا تفكير:

- «فيما يتعلق بي، حسناً، لأجلك، أنا أسامحها.»

شهق بفرح وقفز فوق ي عانقني وهو يصرخ، فيما كان صدى كلماتي يتردد في عقلي، هل قلت للتو إنني أسامح حلية؟ نظرة إلى فرحته الطاغية جعلتني أقرر أن التنازل عن شيء من حظ نفسي لأجله ليس فكرة سيئة.

- «أنت الأفضل يا غيم، عرفت أنك لن تخيبي أملي، أقسم أنك أكثر شخص أحبه في العالم!»

ابتسمت بحب، خفض صوته فجأة وقال:

- «وأحب أبي أيضاً، هل هو.. سيموت؟»

- «ماذا قال لك أنور؟»

أصعب ما يمكن تلقينه لطفل بهذا العمر، لكن ما عساي أفعل؟ خاصة ألا أقرب من أن نستيقظ غداً أو بعد غد لنجد قلب الحاكم قد توقف، وللاأبد هذه المرة.

- «ماذا عنك؟»

- «ماذا عني؟»

- «هل ستبقين معي؟ لوقت أطول على الأقل؟»

احتضنت وجهه بكفي، لا شيء مؤكد، لكنني سأعد بما أستطيعه.

- «أستطيع أن أحاول، وأستطيع أن أعدك ألا أتخلي عنك ما دام ذلك بيدي. سنبقى معاً بإذن الله، وستكبر أمام عيني، وتزداد قوة وحكمة وشجاعة، وتشارك في السباق الكبير وتهزم الجميع، حتى تصبح قائداً لرجال الحماية!» بَمَ اصطدمت؟ بالواقع. استدركت: «في وقت يكون فيه رجال الحماية، رجال حماية حقاً.»

- «تبر، تبر، تبر، نريد عصيراً.»

كررها شهاب وجوهرة وبدر بسماجة وضحكوا، كانوا يتسلون بإزعاج تبر أثناء طهوها الطعام المتواضع على فرن بدائي صنعه ساري ووادع جوار المخزن.

- «يا صغار، لم لا تذهبون للعب في المزرعة؟»

- «قال العم وادع إن هذا خطر.»

- «وقال ساري: لا يوجد من يجرو على الاقتراب من مزرعة حيّان،

وكلام ساري مقدّم عندي في هذا الصدد.»

- «يقول العم وادع إن العم ساري متهور.»
- «وأنا أقول إنه لن يخاطر بنا على كل حال!»
- انتهت حاجة جوهرة إلى الجدال، هكذا تشابكت أيدي الصغار وانطلقوا بابتسامات جذلى إلى الخارج، أحببت أن شهاب استطاع تجاوز الأمر، أو التظاهر بذلك. مع خروجهم تنهدت تبر بحزن.
- «أتمنى لو أستطيع إعداد العصير لهم، يحزنني أنهم عاجزون عن طلبه بجدية، لا أحب أن يحاطوا بظروف كهذه!»
- وضعت يدي على كتفها مهوَّنة، وقلت بابتسامة:
- «كل هذا سيمرّ بإذن الله، وسيجعلهم أقوى، لا تحزني عليهم، فقط لنحاول أن نسعدهم بقدر استطاعتنا، ربما يكفي أن تعدي لنا جميعاً الطعام بيديك المبدعتين؟ أم إصرارك على حياكة ما يكفيننا من الملابس بعد أن انتقلنا إلى هنا بما علينا فقط؟»
- ابتسمت برغمها، حقاً كان وجود تبر معنا مهماً، حين أفكر في الأمر، لو كان عليهم الاضطرار إلى تناول طعامي كانوا ليفضّلوا تسليم أنفسهم للأعداء بلا جدال. قالت تبر بمرح مصطنع:
- «لكن خالتي رؤوم ليست هنا، وأنا لست بارعة مثلها في إجبارك على الأكل، بالإضافة إلى أن الشاي شبه معدوم الآن؛ لذا، أعتقد أن هذه الأزمة ستأتي على نصف جسدك على الأقل!»
- ضحكت باستمتاع، فجأة شردت تبر، وبدت مترددة في قول شيء ما، أخيراً نظرت إلي، كانت في عينيها نظرة غريبة لم أفهمها، وقالت ببطء:
- «غيم، بما أن القرية على الحافة، وربما العالم كله...»

- صمتت مع نظرة متورطة، كأنها تجد صعوبة في صياغة الكلمات.
- «سأبدأ من جهة أخرى، تذكرين أنكِ مدينة بخدمة لي، صح؟»
- ابتسمت بدهشة، أحقًا لا زالت تذكر ذلك اليوم؟
- «أذكر، هل قررت أخيرًا ما تريدينه؟» قلتها ضاحكة.
- «أجل قررت، أريد أن.. أن أعرف موقعي.. أعني.. في هذا الوقت، فقط كي لا أفرط في التفكير، ربما عليكِ أن تساعدني في التخفف من هذا العبء؟»
- «أي عبء؟ تكلمي يا تبر، ما القصة؟»
- أخذت نفسًا عميقًا، زادت من سرعة حركة يدها الدائرية وهي تقلب الحساء، وقالت كمن يوشك على فقدان الوعي:
- «ساري.. هل لديه استعداد لخطوة ما؟ أم علي فقط تجاهل الأمر؟ أرجوكِ أن تتأكدي، بأي طريقة تحبين!»
- اتسعت عيناها في ذهول، لم أتوقع طلبًا كهذا. هززت رأسي ببطء وعقلي يعمل بسرعة، ونهضت بعد أن وعدتها بأن أنهي لها حيرتها.
- ***
- «أوه، أهلاً غيم». قالها وهو يدور حول الآلة بانهاك، ثم اتسعت عيناه في ارتياح واستدرك: «أعني.. كيف حالك؟»
- ابتسمت باستمتاع، هذه الكلمة لا تفزعني وحدي. جلست على برميل مقلوب هنالك، ليس وحده، المعصرة كلها مقلوبة.
- «أتعلم ماذا تعلمت بعد الاختطاف الأخير يا ساري؟»

- نظر إلي مترقبًا وهو يركز على أسنانه بآلم.
- «أنك أحنّ علي من أي أحد، حتى في أسوأ حالاتك!»
- ارتفع حاجباه بعدم فهم؛ فرفعت معصمَي المشوّهين أريهما له. أفلت بسرعة قطعة حديدية كانت في يده وركض جهتي، انحنى يتفحص يديّ في جرع ثم نظر إلي بعينين جاحظتين.
- «غيم، من فعل هذا؟ من الذي قيدك؟»
- ارتبكت، لم أتوقع أن يأخذ الأمر بشكل شخصي.
- «لا أعرف، كان خلفي.»
- «لا بد أنك رأيته، أو سمعت صوته، هل ستعرفينه لو رأيته في مكان ما؟ إنه يستحق أن تقطع يده، تمامًا مثل بائد!»
- سحبت يديّ ووضعت يمانهما على يده وأنا أبتسم.
- «انس الأمر يا ساري، كلهم سيلاقون المصير نفسه، من قيّدني ومن لم يفعل.»
- «لكن هذا الشخص تحديدًا، حسابه علي أنا!»
- دخل وادع فجأة، كان يقرأ شيئًا ما، رسالة جديدة على الأرجح، رفع رأسه لينظر إلينا بشرود، ويحييني بهزة من رأسه.
- «ما طلبته في الطريق، قيس ورجاله قادمون به.»
- أومأ ساري برضا وتركني متنهدًا ليعاود إمساك القطعة الحديدية التي يستعملها كمطرقة فيما يبدو. سألت بفضول:
- «ما الذي طلبته يا ساري؟»

- «قشور بيض، الكمية التي يقدرّون عليها.»

رفعت أحد حاجبيّ في حيرة، ما هذا الطلب الغريب؟ لحسن الحظ، ساري ليس وادع، إنه يخبرني بكل شيء الآن.

- «هدفنا الأقرب يا غيم أن نعيد زراعة أكبر كمّ نستطيعه من النباتات؛ المسؤولون عن رصد شؤون القرية يؤكدون أن مزرعة واحدة لم تعد حيّة، اللهم إلا مزرعتنا هذه، القرية تحتضر باختصار، بلا غذاء، بلا هواء، بلا علاج، بلا موارد، بلا أي شيء. لو رأيت شخصاً على وشك الموت جوعاً يا غيم، وتعرفين أنه يعتمد تجويع نفسه؛ فماذا ستفعلين؟»

- «سأطعمه، ولو بالإجبار.»

- «تماماً، نحن نحبي القرية، بالإجبار. لا تنظري إلي هكذا، لم أنس، قشور البيض سماد ممتاز، والأهم أنها لا تثير الشكوك، لو تم الإمساك بشخص يجمعها فلن ينال أكثر من السخرية، الجزء الأفضل أنها مورد حيواني لا نباتي. سأحاول خلطها بعرق السوس المجفف، وسأعمل على صنع ما يشبه السماد المرتجل ليساعد على تنمية النباتات بسرعة قصوى.»

هززت رأسي بفهم، ساري مكسب لأي فئة يعمل معها.

- «وكيف ستزرعون وسط هذه المعمعة؟ لقد قال وادع إنهم أمسكوا بمجموعة زارعة على حدود القرية، بل خارجها! هل يتركونكم في الداخل؟»
وضع خشبة رفيعة في فمه ليستعمل كلتي يديه في تعديل شيء ما، وقال من بين أسنانه:

- «سيتركوننا، إذا ما أحسنّا تشيتهم، وربما على غارسي الفسائل أن يصبحوا غارسي فسائل فعلاً، ويعيدوا أجداد الغارسين الأوائل، ويقلدوهم

في طريقة غرسهم السريعة للفسائل فيما مضى. ليس عملي على أي حال، لكن سأفترض أن أنور والقائد راسخ يعرفان ما يفعلانه.»

هززت رأسي من جديد، الآن فقط ألح وادع المستند إلى الجدار في امتعاض واضح، لا يجب إقحامني في كل هذا، أثق أن نيتي لطيفة، ووديعة مثله، برغم ذلك لا أستطيع منع ضيقي منه.

- «هل تتحدث عن قيس الذي أعرفه؟ ابن المرأة الصفراوية؟»

- «لم تعد، لقد كانت من أوائل الفارين مع حدوث المعمة، لم يعد أحد صفراوياً بالمعنى القديم، الآن إما هو مع الأعداء، أو معنا، أو مشيت في المنتصف. وبالنسبة لقيس، أجل هو، الطويل الجعد، خاطب تبر.»

انزلت الحديدية من يد ساري لتسقط على قدمه، واتسعت عيناى بدهشة، خاطبها؟!

- «أعني.. كان خاطبها، أنا رفضته في الواقع.»

- «لم تخبرني بهذا، فقط سمعت بأمر قاسط.»

قلتها وأنا أنفذ حيلة علمنيها فضولي المزمّن، أن أنظر عبر محيط رؤيتي الدائري، برغم تركيزي على وادع ظاهرياً. لم يجب ظني، ارتجفت يد ساري وضرب الهواء بدلاً من الحجر.

- «رفضته أيضاً.» قالها وادع ضاحكاً. «ليست المسألة أنني صعب الإرضاء في العادة، لكن تبر تفهمت مقصدي، قيس كان زميلي في الدار، لقد احتككت به كثيراً، هو ليس صفراوياً كما ترين، لكن حين كان يحدث بيني وبينه أقل سوء فهم، كانت كلمة (أيها المسخ الأزرق) هي أول ما ينطلق به لسانه، لم أرفضه من أجل الكلمة، لكن لأنني لا أحب لأختي أن تعيش

مع شخص كهذا، ينتقص منها ويشعرها بأنه تفضل عليها لقبوها برغم لون عينيها، تبر أغلى عندي بكثير من ذلك.»

ابتسمت، كم نحن محظوظتان لأن وادع هو أخونا.

- «بكل الأحوال، أنور منزعج لتأخر ك في إصلاح المعصرة، يقول بغضب: هل علي الاهتمام بكل شيء بنفسي؟» قالها وادع بسخرية مقلداً صوت أنور فضحكنا، كان ساري منبطحاً أسفل المقبض الخارج عرضياً من الآلة، يتفحص شيئاً ما.

- «فلياتٍ ويصلحها إذن، أم أنه ماهر في الصراخ فقط؟»

هز وادع كتفيه ورحل معلناً أن عليه الاهتمام بأمر الفرقة التي يقودها رجل الحماية وطيد، إن لم يخني السمع.

- «غيم، هلاً ناولتني ذلك الحجر؟ أم ستصرفين كزوجك وتراقبينني وتنقدينني من بعيد؟»

- «ربما عليك أنت أن تخرج لأنظر في عينيك!»

رفع رأسه ينظر إلي بحيرة وترقب، ابتسمت بمكر وأشرت له بطرف إصبعي ليقرب، نهض ونفض يديه ووقف أمامي.

- «لماذا انزلت الحديد من بين يديك؟»

- «لماذا تشرق الشمس من المشرق؟ ربما لأن اسمه (مشرق)، ما هذه الأسئلة الغريبة يا غيم؟!»

قالها متظاهراً بعدم الاهتمام وهو يعود ليلتقط الحجر، لم أكن لأتركه، سرت وراءه كالقطط الجائعة.

- «ربما سُمي المشرق مشرقاً لأن الشمس تشرق منه، لو كانت الشمس

- تشرق من الجهة الأخرى لتبدلت الأسماء.»
- «هل انتهى مخزونك من الأحاديث والأسئلة؟»
- «لم تحزر، أسئلتني لا حد لها. ما رأيك بتبر يا ساري؟»
- وقعت الضربة على إصبعه هذه المرة، نفخ يده بألم وأخذ يمص إصبعه؛ فضحكت برغمي. نظر إلي بغیظ:
- «غيم، لم لا تبحثن عن شيء مفيد تفعلينه؟ على أي أساس يمكنني إعطاء رأي فيها أصلاً؟»
- «ليس عموماً، عنيت.. كزوجة؟»
- احتبست أنفاسه وأخذ ينظر إلي مشدوهاً.
- «يا مجنونة، عم تتحدثين؟»
- «ما بك؟ لم أقل شيئاً مخلاً! لم لا؟ كلاهما يستحق الأفضل، وكلاهما الأفضل! ثم إن.. مشاعرهما.. أنت تفهمني.»
- «لا، لا أفهمك، ولو كنت أفهمك - وهذا مستحيل - فإنني لا أملك فرصة، لقد رفض قيس، القوي الشجاع القادر على قيادة فرقة بمفرده، والذي كان يتحصل على مركز في السباق الكبير في كل سنة شارك فيها! هل سيقبلني أنا؟»
- «هل تتحدث عن وادع الآن؟ بالطبع سيفعل! نحن لسنا بصدد اختبار للقوة أو المهارة، وبغض النظر عن كونك كنت تفشل بإرادتك - وكلنا يعلم ذلك - لقد سمعت سبب رفضه له!»
- «غيم يا غيم، اتركني وشأني، لن تنفعيني عندما يأتي أنور غاضباً ليملاً الدنيا صراخاً!»

- «ليس قبل أن تجبني بصراحة، ألا تنوي المحاولة على الأقل؟ ألا يستحق الأمر في نظرك؟»

- «لا أحب خوض معارك خاسرة، البقاء على الضفة أأمن من الفشل في السباحة، لو لم تسر الأمور على ما يرام...»

- «ف... ماذا؟ لا شيء سيحدث، ثم إنها ستسير بشكل جيد، أنا واثقة! حاول فقط، من أجلي!»

نظر إلي بانزعاج وطالبي -برود مصطنع- أن أنتحي قليلاً، ثم أخذ يدفع مقبض المعصرة بقوة محاولاً تحريكه، بدا ثقيلاً جداً عليه، حتى أن عروق رقبته برزت وهو يحاول، كان يختبر سلسلة سير المعصرة، ويبدو أنه أصلحها أخيراً. رغبة في فعل شيء ذي أهمية، شممت عن ساعدي وارتيمت على المقبض جواره أساعده، عبثاً عملياً، لكن فكرياً، تذكرت خيطاً ذهبياً، لم لا؟ لو رأيت تبر أن استعماله مفيد فإنه سيفيد مع ساري، أثق أنها متناسبة كقفل ومفتاحه.

- «ساري، أنت مدين لي بخدمة، أتذكر؟» نظر إلي باستنكار؛ فقلت بحماس: «يوم رفعت صندوق العنب! أم أنك لا تنوي الوفاء بوعدك؟»

- «لا تصعبيها علي يا غيم.» قالها في إحباط وهو يرفع صندوق عنب ويسكب محتواه داخل المعصرة.

- «لن أطلب الكثير، فقط محاولة جادة واحدة، وسأتركك وشأنك بعدها، أقسم!»

نظر إلي باستسلام، وأوماً موافقاً. صرخت وعانقته بسرور فابتسم بهم، وفي محاولة لإنعاش الجو عدت بسؤال جديد:

- «لم تحرصون على إصلاح المعصرة؟»
- «لنعصر العنب. بسيطة، صح؟»
- «كل هذه البراميل الفارغة، ألم تكن مليئة بنبيد حيّان؟ هل تخلصت منها؟»
- «بالطبع لم أفعل، إنه نبيد فاخر بعد كل شيء.»
- قالها بابتسامة مأكرة، لم أرتب فيه هذه المرة، لا بد أنه يعني شيئاً مختلفاً. أخيراً نظر إلي وقال:
- «ربما كانت الكرات الزجاجية اختراعاً مؤذياً، لكن لكل شيء جانبه الجيد، تستطيعين قول إننا وجدنا هذا الجانب.»
- «كرات زجاجية؟! على من ستلقونها؟ هل ستحرقون القرية لتعيدوا زراعتها؟ ما علاقة النبيد؟»
- قهقهه في استمتاع وهو يزيّت مقبض المعصرة، ثم أعلن -بفخر- أنه انتهى من إصلاحها أخيراً.



أخذت جولة مبهورة في مزرعة حيّان، الأسوار العالية التي حرص على بنائها لا تدل بحال على وجود هذه اللجنة داخلها، وبالتفكير في أن ساري قد خضّر كل هذه المساحة بنفسه، ودون أن يشعر به أحد، أرى أنه كان بطلاً بامتياز. كنت أدعو بالمغفرة لحيّان في كل خطوة أخطوها، هل كان يتصوّر أن هذا السور الذي بناه اعتباطاً، قد يحمي ابنه وإخوته في المستقبل، لا، بل يكون المركز الأساسي لاجتماع بقايا غارسي الفسائل في.. في العالم كله ربما، إذا ما استثنينا قرية شوكة والمسكرين من هذا، والغارسين المتناثرين هنا وهناك؟

بإعجاب تأملت قناة الريّ، هذا الجدول الرفيع العذب، الذي استطاع ساري إخفاء مساره ببراعة من البحيرة، عن طريق تغطيته بجسر مصغر من فروع الأشجار اليابسة وأوراقها وطبقة من التراب. لقد كان مصدر الحياة بالنسبة لنا، كأن ينابيع الأرض كلها جفت عداه، منه نشرب ونغتسل ونسقي الزرع، وعبره يتم إرسال الرسائل والأخبار المهمة داخل قوارير معتمدة صنعها صافي خصبًا.

بشكل غامض تعود إلى ذكريات قديمة، أنفض الغبار عنها وأتأملها، أراني طفلة في السابعة تسير ممسكة بيد أبيها، تتأمل طرقات القرية وترسم خريطة في ذهنها لكل مكان أحبته فيها، ثم أذكر الطفلة وهي تتساءل عن السبب، لماذا أحب قريتنا؟ يدهشني أنني توصلت إلى السبب في ذلك الوقت المبكر، والآن وفرت مجهودي، وانحصر الانتفاء لدي في مخزنين باردين، وقائمة لا أعرف كل أسمائها، وعربة مغطاة يقودها مشردون زرق، ومزرعة ذات أسوار شاهقة.

عدت لمنزلنا/ مخزننا، وقررت انتظار عودة أنور من حيث هو، فقط لأسمع السعال المنهك من جديد. نهضت ببطء واقتربت من (غرفة) الحاكم، عيناه مفتوحتان، كأنه مستيقظ من الأزل.

- «غيم؟»

قالها وهو يضيّق عينيه ليراني بشكل أفضل، هزرت رأسي وافترضت أن شعري المنتفش سيشكل إجابة بمفرده. جلست إليه وأنا أشحذ تركيزي ووعيي كله، أنا أراه بوضوح هذه المرة، لا جدال في ذلك. وضع يده على رجلي في مودة، وقال:

- «أين أنور يا ابنتي؟»

- «لا أعرف يا عماه، لكنه ليس هنا».
- لذا استمرّ بالحياة، ومت عندما يعود كعادتك. أكملت في سرّي.
- «هل توصلتم إلى سر الخلود يا غيم؟»
- اتسعت عيناى بدهشة، هل لديه معلومات عنه؟
- «ليس بعد، لكن أنور وجد الطريقة».
- «وما هي الطريقة؟»
- هززت رأسي بإحباط، لست أدري، إنه لا يهتم بإخباري.
- «الطريقة لا تكفي، وهل كل من ملك الطريقة يملك تنفيذها؟ التنفيذ عسير يا غيم، يتطلب قلباً جسوراً، وحكمة نافذة، ونية صالحة، والأهم، ألا يكون وراء الرغبة في الوصول إليه رغبة دنيوية أخرى».
- قطبت حاجبيّ بتخبط، كل ما سبق مفهوم تقريباً، لكن...؟
- «كذب من أخبرك أن جسّار، استطاع تملك سر الخلود أو استعماله، كل ما وصل إليه كان الطريقة، ومن وصل إلى الطريقة وحاول السير عليها ضمن خلوداً جزئياً مزيّفاً. أما من كان بمواصفاته؛ فإنه لا يستطيع ملء يديه من سر الخلود ولو كانت جيوش الأرض تحت إمرته. وهذا ما وعاه في آخر أيامه؛ فتدارك تأخره ببناء دار المنارة، وأوقفها للعلم كي تشفع له ما ارتكبه في سبيل السر المهلك».
- «كيف.. نحصل عليه إذن يا عمي؟»
- «لم تريدين الحصول عليه يا غيم؟ لم تريدين الخلود؟»
- بهتُ، من قال إنني أريد الخلود؟ ولم على هذا أن يهمني؟ ما الذي أحرص

عليه في هذا العالم ويجعلني أتشبث به إلى الأبد؟ كان يراقب انفعالاتي ويهز رأسه راضياً، نفضت رأسي، كلا، أنا لم أبحث عن سر الخلود، ولا أريده، أنا أريد منع النزاع القائم حوله، ومنع غير الجديرين بالسيطرة عليه!

- «غيم، ماذا تفعلين هنا؟»

قالها وادع بعدم اكتراث وهو يبحث عن شيء ما، نظرت للحاكم في ذهول فوجدته.. مستلقياً، مغمض العينين، بالكاد يتنفس، كان علي أن أعرف!

- «لا شيء، عمّ تبحث؟»

- «أنور قال إنه أخفى صرة من العملات الذهبية هنا، يريد لها للضرورة، سيشترى عدداً من البهائم من تجار حمر.»

- «وهل يخبرني أنور بشيء؟ لست أعرف. ثم لماذا تشترون بهائم؟ أليست بهائمنا موجودة في مزرعتكم؟»

- «مزرعتنا؟»

قالها ضاحكاً، كان ساري يتحدث حرفياً بخصوص هلاك كل مزارع القرية، جناح سليمة على الأقل. وجد وادع ما يبحث عنه، أخذه وانصرف، وعدت أنظر للحاكم الجالس كما كان قبل دخول وادع.

- «ألن تشرح لي؟ ما الذي يجري؟ هل جنتُ أخيراً؟»

- «سلامتك من الجنون يا ابتني، ربما فقط.. اعتدت أن تلمحي ما لا يلمحه غيرك، ولعل هذه كانت مكافأتك، أن تدركي سماع ما يهمل سماعه مني، قبل أن...»

وضعت يدي على يده أمنعه من الإكمال، طلب -بابتسامة- كأساً من الماء فجلبته له. جرع نصفه ثم استلقى، وعاد للنوم بسكينة.

(١٠)

تأوّهات خافتة نددت من أنور وهو يستلقي جواري بهدوء محاذراً من إيقاظي، لا أصدق أنني وشهاب خلدنا للنوم في هذا الوقت المتأخر ولم يعد أنور إلا الآن! التفتُ إليه وسألته بصوت خفيض عما أخره؛ فطلب مني برفق ألا أشغل بالي.

- «هل سيأتي رجل الحماية وطيد إلى هنا؟»

- «لا أعرف كيف عرفت، لكن هذا ليس غريباً على شخص احترف إيجاد الإجابات، حسناً، أجل.»

- «هل تظنها فكرة حكيمة؟ قصدي.. هل من المطمئن أن نستقر جميعنا في مخبأ واحد؟ ماذا لو كشفنا؟ هل ينتهي كل شيء؟»

- «غيم، هلاً كففت عن التنظير؟ أتظنين أنني قضيت اليوم كله خارجاً أخطط وأعمل وأتعب لتخبريني ببساطة بأن ما أفعله بلا جدوى؟ وكأنني لم أفكر في كل خطوة ألف مرة أولاً! لم لا تهتمين بشؤونك وحسب؟»

تدلى فكي في دهشة، متى نظرت عليه؟ ومتى أشعرته بأن مجهوده بلا فائدة؟ لماذا يتحدث إلي بهذا الأسلوب؟ حانت مني نظرة إلى شهاب فطنت خلالها إلى حركته الخفيفة، وسمعت أنفاسه غير المنتظمة، لم ينم بعد، لقد سمع هذا. بفعل الصدمة لم أحر جواباً، انقلبت إلى الجانب الآخر وأعطيته

ظهري، سحبت الملاءة الخفيفة وغطيت بها جسدي؛ فأدت المتوقع منها: لا شيء. تكوّمت على نفسي وأخذت أرتجف بردًا وغضبًا. حتى رحت في النوم.

- «غيم، هل تشعرين بالبرد؟»

سمعت هذه العبارة منه بعد وقت، لم أجب، شعرت به ينهض، بنصف عين رأيته يغطي شهاب بردائه، ثم أحضر جَبَّتَه وغطاني بها، لم يتحرك مني إصبع، واصلت نومي حتى الصباح.

حدثت الكثير من الأمور في اليوم التالي، لقد كانت صناديق البذور الخاصة بأبي بمثابة كنز لغارسي الفسائل في هذه الآونة، خاصة مع صمودها المستحيل في وجه الحوادث وتغيّرات المناخ والأمطار وكل المشاكل الأخرى. تم توزيعها بحرص على العديد من الفرق، بطريقة محددة تمنع المخاطرة بفقد نوع كامل أو عدد معين، الحق أن القائد راسخ كان قائدًا بمعنى الكلمة، وراسخًا بلا جدال. أنور أيضًا كان رائعًا، أكره الاعتراف، ليس وأنا غاضبة منه بهذا القدر، لكن تخطيطه وتفكيره فاجاني بالفعل.

ما أردت قوله أن فرقة يقودها رجل الحماية وطيد كان عليها أن تصل صباح اليوم، بعد أن يتموا غراسه الفسائل المقطعة من النباتات الخارجة من بذور أبي، بهذه السرعة؟ أجل، وكله بفضل الله ثم بتركية ساري التي استطاع خلطها لتنمّي النباتات بسرعة قياسية، ربما لم تكن كافية لإبقاء النبات قويًا ونضراً لفترة طبيعية، لكنه كان ينيّيه بما يكفي لاقطاع فسائل منها تُغرس بسهولة في كل مكان. وبقليل من تركيبة قشور البيض التي أعدها ساري، مع فسيلة عرق سوس بيرقات الذباب المفترس تغرس جوار كل نبتة، تكون زيادة نبتة جديدة في عالمنا حقيقة تدعو للاستبشار. حرص وطيد على النفاذ بفرقته عبر الطريق المختصر الذي ابتكره عقله خلال منطقة الجبال، بعد أن ارتاب في وجود من يتبعهم، لم يبقَ معه من عائلته غير ابنته

مسرة، الباقون هربوا ناحية قرى الزرق، وخاف أن يخاطر بتجاوز الحدود مع ابنته المطلوبة. الحامي وطيد ليس هاوياً، وحين يرتاب في وجود ملاحقة فإن شكه يكون في محله، بلا كثير تفاصيل، ببسالة انفصل الرجل عن فرقته، ركض بسرعة مهولة ليتبعه الصفراويون الحمقى، وفي اللحظة التي استطاع فيها رجاله الهرب، استطاع الصفراويون الإحاطة به، لكنهم كانوا محيطين به فوق ما ظنوه أرضاً؛ ففوجئوا بأنها منطقة رمال متحركة! لقد كان ذكياً بما يكفي ليقودهم نحو الغرق، ولو كان عليه أن يغرق معهم!

- «ابنته ستأتي إلى هنا، يجب أن نحافظ عليها بأنفسنا، ويوجد عدد من الرجال خططنا ليقيموا معنا أيضاً؛ لذلك سنعيد تنظيم الأمور، مخزن للرجال، ومخزن للنساء، جيد؟»

قالها أنور يسألني، لكنني تظاهرت بأنني مشغولة بتنظيف الزجاج المكسور، أو بأنني أعتقد أنه يسأل ساري ووداع الجالسين معنا، أو بأنني صماء وكفى. ضايقني أنه لم يشعر بغضبي منه، أو أنه تجاهله. دوى صوت مرعب من الخارج، يشبه صوت انفجار الكرات الزجاجية لكن بدويّ أعلى، تبادل أنور نظرة مع وادع فنهض الأخير، لاكتشاف ما حدث ربما، شرد أنور لبضع دقائق ثم خرج بدوره.

- «ساري، متى ستحدث إلى وادع؟»

- «جدياً، ألا ترين الوضع؟»

- «هل هو جديد، أم سيتهي قريباً؟ هذا واقعنا يا ساري، وليس من المنطقي أن تؤجل أي مشروع لأجله!»

أغمض عينيه بضيق ثم فتحهما بتوسل.

- «غيم، أنا أرجو أن تعفيني من ذلك، أنا لست كفواً لذلك، لست

رجلاً بما يكفي لأتحمل مسؤولية زوجة، ولست...»

- «لست مهتماً برؤية الجانب الأفضل من نفسك، لم تفكر في مخاوفك وعيوبك فقط؟ لم لا تتذكر اليوم الذي طيرت فيه قاسط بقبضة واحدة لأجلي؟ أو عندما ظهرت من العدم لتتقذني من الغوص في الرمال المتحركة؟ أو وصولك في وقت قياسي يوم هاجمني الكلب في المسار الأول؟ أو بطولتك في إنقاذ سائس الخيول الذي كاد يهلك على أيدي الأعداء؟ أو شهامتك في كفالة العجوز وتدبر أمورها؟ أو مهارتك في تحويل هذه الأرض الخراب إلى جنة؟ لقد كنت أول شخص يستطيع الزراعة بمفرده منذ كنا صغارا! أنت رائع، فقط أعط نفسك فرصة!»

- «ماذا عن المهر، والمنزل، و...»

- «منزل ودود وحيّان موجود وجاهز، والمهر بحوزتك، أتذكر؟»

- «أخبرتكَ أنني لن أستعمل هذه النقود!»

- «لا تفعل، لا تستطيع أن تفعل، إنها ملكي الآن، لقد أعطيتها، وأنا راغبة في دفع المهر عنك!»

عاد وادع وأنور قبل أن يجد ساري جواباً، كانا مبتسمين هذه المرة.

- «رُدّ كيدهم في نحرهم، هاجم بعضهم بعضاً عن طريق الخطأ، ربما لن تسعفهم ألوان الأعين في تمييز أعدائهم الآن.»

- «بصراحة، أنا لم أكن سعيداً كالآن منذ زمن.»

لكزت ساري بكوعي، وهمست من بين أسناني:

- «انظر، إنها سعيدان، هذه فرصتك، قل!»

- «يقول ماذا؟» قالها أنور والابتسامة لا تزال على شفثيه. «لم وجهك

- حمّر هكذا؟ بمّ ستخبرنا؟ هل تريد الزواج أم ماذا؟»
- رفع ساري رأسه بذهول، نظر إلي فأومأت مشجعة.
- «حسنًا، بصراحة.. أنا.. أجل، أريد الزواج!»
- تلاشت الابتسامات وتبادل أنور ووداع النظرات المدهوشة.
- «هل أنت جاد؟ في هذا الوقت؟»
- «أين المشكلة؟ أتذكر ما قلته حين تقدمت لخطبتي؟ (لقد تعرّضنا لأحزان أكثر من اللازم في الفترة الماضية، ولعلّ التعجيل بالفرح سيكون خيارًا مناسبًا في هذه الظروف، خاصة أننا لا نعول على تحسّن أحوال القرية قريبًا، ولا ننتظر شيئًا محددًا نعلّق موعد الزفاف عليه). الحال نفسه هنا.»
- لم أكن راغبة في التحدث إليه، لكنني وعدت ساري أن أسانده.
- «أظنك محقة. هل فكرت بهوية العروس؟»
- «فكرت، لكن.. لست واثقًا من أن يوافقوا...»
- «لم لن يوافقوا؟ أين سيجدون رجلًا أفضل يأمنون على ابنتهم معه؟ البيت الذي ستدخله محظوظ يا ساري!»
- كانت هذه من وادع، جعلت الابتسامة ترفرف على وجهي، وتعلقت الكلمات في فم ساري، أخيرًا قال بتلعثم:
- «إذن، أنور، أنت أخي الأكبر، هل تكون معي؟»
- ابتسم أنور وأومأ بشيء من الحيرة، من عساه سيخطب في هذه الظروف؟ هل يفكر في واحدة من الفتيات على القائمة؟
- «وادع، هل يمكن.. أعني، أريد أن أتقدم.. لطلب يد تبر.»

حان دور وادع ليتصنّم بذهول، وفغر أنور فاه في دهشة. ربتُ على كف ساري لأوقفه عن الاهتزاز، في حين اتخذ وجه وادع هيئة جدية.

- «أنا لست المسؤول عن تقرير شيء كهذا يا ساري.»

- «من المسؤول إذن؟ أبواها ليسا هنا، ولا ندري متى يكونان، نحن معزولون عن العالم الآن يا وادع، والعالم كله مختزل فينا، وأختك في ضمايتك إلى أجل غير مسمى.»

قالها أنور شاعرًا بأهمية القيام بدوره كأخ أكبر، سكت وادع لبرهة قبل أن يقول بتمهل:

- «سأرى، أحتاج إلى بعض الوقت أولاً.»

ثم نهض بدون كلمة أخرى وخرج، ألقى أنور نظرة متعاطفة على ساري الذي كان يعرض شفته في إحراج، ثم نظر إلي؛ فأشحت بعيني في ضيق، وتابعت التريت على كف ساري.

- «فلتقطع ذراعي إذا سرت وراء نصائحك مجددًا!»

- «لم هذه المبالغة؟ لم يحدث شيء يجعلك تنزعج هكذا!»

- «لم يحدث شيء؟ حقًا؟» قالها بانزعاج وهو ينزل برميلاً مليئاً بعصير العنب ويلتفت إلي. «لقد أخرجت وادع وأخرجت نفسي، لم يكن على موقف كهذا الحدوث! لم أضطره لقول إنه لا يأمنني على أخته؟ ألم تكن نستطيع تلافي هذا؟!»

- «آه منك يا ساري، أنا لا أرى الأمر بهذه الكيفية، لقد حاولت، وهذا يكفي.»

وشوش بفمه غير راغب في سماع المزيد، زممت شفطي بحسرة، لم أتوقع أن يتصرف وادع بهذا الجمود، خاصة بعد عباراته المشجعة في البداية. وقف ساري في ركن وأعاد تعديل القماشة التي يلف بها يده، كان يغلف راحتي يديه ليسهل على نفسه عملية تحريك المعصرة، حمل علبة ما واقترّب مني، جثا على ركبته أمامي وسحب يديّ، أدخل يده في العلبة ليخرجها غارقة بمرهم ما، برفق ذلك معصميّ، ثم أحضر قماشتين من القطن، ولفّها حول معصميّ.

- «سيُشعركِ بتحسّن.» قالها وقبّل يديّ، ثم نهض. «لطالما كانت غيم عالمي كله، لا شيء يدفعني للحرص على تغيير ذلك.»

ابتسمت، هو أيضاً يعني لي الكثير، لم أرد أن يُكسر قلبه هكذا.

- «ما قدّر لي سأخذه، دون زيادة ولا نقصان، صحيح؟»

أومأت برفق؛ فاتجه ناحية البراميل. دلف أحدهم من الباب فجأة، وادع، بهدوء أغلق الباب واستند عليه، قال ساري بارتباك:

- «لم أعبئ إلا برميلاً واحداً من العصير، أخبر أنور أنني أبذل قصارى جهدي، لكن الآلة عvisية التحريك على شخص واحد.»

- «لم آتٍ للتحدث عن عصير العنب.»

قالها بنبرة رتيبة وهو يقترب، بدا مختلفاً عن وادع الذي نعرفه.

- «فكرت في الأمر، وسألتها.» ساري الآن يرتجف كصوص مبلل. «أنت تعرف ماذا تعني تبر لي، أنا مستعد للتضحية بحياتي كي لا يصيبها خدش واحد، قبلت الاتهام بالعمالة والتعرض لحكم بالإعدام أمام القرية كلها، فقط كي أحميها وأحمي غيم، ولو كنت قتلت يوماً كنت سأموت

راضياً. من ناحية موضوعية، أنت شخص ممتاز، حنون، مسؤول، قوي، ذكي، لديك كل المقومات التي تجعلها آمنة معك، لكن...»

- «وادمع، لا داعي للإكمال، أفهمك، من حقك أن تخاف على أختك.»

قالها ساري بسرعة، لا يريد سماع كلمة: لا. أكمل وادمع كأنه لم يسمعه:

- «لكنني سأطرح سؤالاً واحداً عليك، وبعدها أعطيك جوابي...»

بخفة تراجعت، ربما ليس علي أن أكون هنا. تشبث زوج من الأيدي بي، يد مستغيثة تريد مني البقاء، ويد تخبرني ألا مانع من وجودي؛ هكذا عدت باستمتاع أقف كالبراميل جوارى وأستمع.

- «بعد علمك بموقع تبر في قلبي، وما أنا مستعد لفعله من أجلها، هل تستطيع أن تؤكد لي أنها ستكون بنفس المنزلة عندك؟»

بلهفة انتفض ساري، هز رأسه وقال بتعجل:

- «أجل.. لا، بل أكثر، والله على ما أقول شهيد!»

لانت ملامح وادمع، عادت إلى وداعتها السابقة، مديده بابتسامة يصفح يد ساري المرتجفة، وأنظار الأخير تتوجه إلي بذهول.

- «غيم، هل تحيدين إطلاق الزغاريد؟»

- «لطيفة فكرة حدوث زفاف في هذه الظروف، صح؟»

لم أجب، تشاغلتن بتنظيف المخزن، الذي لا يجوي أثاثاً أصلاً، رفع رأسه عن ورقة كان يخط عليها شيئاً ما، وقال بحيرة استشعرت فيها -لسبب ما- شيئاً من اللهفة:

- «أنت تتجاهلينني عامدة؟ شككت من الصباح ثم استبعدت هذا الاحتمال، أعني.. لمَ قد تفعلين ذلك؟»

رفعت رأسي بدوري وحدثت فيه بعدم تصديق.

- «ماذا لو نادينا شهاب من الخارج ليخبرك؟»

- «أنت غاضبة من أجل.. ما قلته ليلًا؟ لكنني لم أقل شيئًا!»

المشكلة أنه كان يتحدث ببراءة شديدة، هو فعلاً لا يرى خطباً فيما قاله، بدأت أشك في نفسي!

- «هذا طبيعي إذن؟ طبيعي أنك تغضب لأقل محاولة مني لإبداء رأيي؟ وتتهمني أنني أحبطك وأقلل من مجهودك؟ وتجاهلني وتأبى أن تشركني في حرف مما يحدث، وما يجري علي أيضاً شئنا أم أبينا؟ هذا طبيعي تماماً، أنت محق!»

انقلب وجهه، زفر بضيق شديد وقال:

- «غيم، بالله عليك، أترين الوقت مناسباً لهذا الدلال؟ هل ستنصبين لي محاكمة على كل حرف أقوله لا يوافق هواك؟ آخر شيء توقعته أن تتصرفي بهذا الشكل حين أكون تحت ضغط، انتظرت أن تساندني وتريجيني، لا أن تشكلي عبثاً إضافياً!»

ارتفع حاجبائي وتهلل كتفائي، ولزمت الصمت، ماذا أقول؟ لقد انقلبت الطاولة علي! أصبحت أنا من تتدل في وقت غير مناسب ولا تراعي الظروف والضغوطات! عضضت على شفتي كاتمة انفعالاتي، وقلبت وجهي متظاهرة بأنني عائدة إلى تنظيف اللا شيء، لن أصنع مشكلة، اهدئي يا غيم، لقد امتص أنور غضبك من قبل زواجكما حتى. تنهد أنور بحرارة

وعاد لورقته، بدا المخزن ضيقاً بشكل لا يطاق، أظنني سأخرج لأجلس مع تبر ريشما تصل مسرة وينقسم المخزان، هذا سيجعلني أفارق أنور لنهداً قليلاً. أحبط مخططاتي دخول ساري ووادع، مبتسمين وكأنهما كانا يخوضان حواراً جميلاً، جلسا وثرثرا مع أنور، وأصدر أنور الكثير من الأوامر وسأل عن الكثير من الأمور، وفضلت أن أجلس جوار الحاكم ريشما أستطيع إعادة وجهي إلى استرخائه السابق، لا أريد أن يسألاني عن سبب وجومي. جاء بدر راکضاً وأخبر وادع بوصول رسالة، خرج وادع ليتحقق من الأمر، في حين قال أنور رافعاً صوته ليجذب انتباهي:

- «إنها الفرقة التي كانت تتبادل البذور في قرية شوكة على الأرجح، لا بد أنهم يحملون أخباراً عن الشيخ مدرار.»

نجح، خرجت من مكمني مخفية لهفتي، جلست جوار ساري واضطرت للتبسم؛ فبادلني برغم شعوره أن شيئاً ما على غير ما يرام، وابتسم أنور بانتصار، جلس بدر معنا، عبث في جيوبه وأخرج شيئاً بلهفة.

- «غيم، انظري إلى هذا، لقد ساعدنا العم ساري في زراعة أول نبتة، وحصدنا حزمة من النعناع!»

فهقه ساري إثر كلمته، دمث جداً هذا البدر. فيما كنت أفكر: نعناع؟ يا لسرعة الأيام! خرج بدر راکضاً، ودخل وادع في نفس اللحظة، بوجه يحمل كارثة.

- «ما الأمر؟ ألم تصل الفرقة؟ هل أمسكوا بهم؟»

- «بل.. وصلت، وأدخلت المؤونة والنباتات المنتظرين. الفرقة التي كان يقودها الحامي وطيد وصلت لبرّ الأمان أيضاً، لكنهم أثروا الاختباء في مكمن ما ريشما يحل الظلام.»

- «إذن؟»

قالها أنور بتوجس من ملامح وجهه.

- «الشيخ مدرار.» تحفّزنا للإنصات. «حسنًا، تقول الرسالة إنهم.. فحصوله، ولم يجدوا صعوبة في إدراك أن سماً قد دُسَّ له مع العلاج، هذا لا يبدو مفاجئاً بالنظر إلى حقيقة أن العلاج كان يصله بصفة دورية من دار الطب.» رنا أنور إلي بنظرة خاطفة، واعتصر ساري يدي بقوة. «لقد.. حاولوا علاجه، لكن.. ربما كان يحتاج إلى عناية في وقت أبكر.. لم يستطيعوا.. أعني.. هو قد...»

تعاقبت ألوان الطيف على وجهه، نكس رأسه حتى كاد يلامس صدره، ولم يجد ضرورة للبحث عن كلمة تتم عبارته. هبَّ ساري واقفاً وصدره يعلو ويهبط بعنف، وابتلع أنور ريقه بصوت عالٍ، واتجهت أنظار الجميع إلي. بادلتهم النظر بدوري، في حيرة شديدة، لم ينظّروا إلي هكذا؟ ما الذي يفترض بكلام وادع الممزق أن يعنيه؟ لسبب ما قرر عقلي أن يلعب معي لعبة سمجة، ويتوقف عن استيعاب أي مما يقال، وبدا له الكلام وردود الأفعال أحجية مبهمة لا يقوى على حلها، قلبي أيضاً فعل الشيء نفسه، لم يصدق أن وجه أبي الشاحب كان آخر منظر سينطبع داخله. من الغريب أن فكي استوعب الأمر قبل عقلي وقلبي، أخذ يرتجف بجنون حتى ألمني، ثم انتقلت العدوى إلى بقية جسدي، وأخيراً.. وصلت المعلومة إلى عقلي.

- «لا بأس.» قلتها همساً. «لطالما كان يدعو ألا يجرمه الله مني، وألا يريه في مكروهاً أبداً، في هذه الظروف، كان من الممكن أن يأتيه خبر مشابه عني في أي لحظة، لم.. لم أرد له مواجهة شيء كهذا، سأواجهه عنه، لقد ذهب أولاً، هذا أفضل له، وما هو أفضل له، فهو أفضل لي.»

أغمضت عينيَّ بقوة ونفضت رأسي، فقط لتزداد دموعي غزارة.

- «أمي؟ أهـي بمفردها في موقف كهذا؟»

- «أمي معها هناك.» قالها أنور بخفوت. «وليلة.»

- «والداي متجهان إلى قرية شوكة، لقد كانت أول من احتوى أمي حين كانت غريبة، لا أحد ستركها الآن.»

هزرت رأسي في رضا. طأطأت لأمنعهم من رؤية دموعي.

- «لن ينفس شعري بيده مجددًا إذن؟ ولن يقول: (يا حبيبة أبيها)؟ هل انتهى كل شيء؟ لكنه حاول.. لم يكن عليه أن يموت غريبًا ومطاردًا ومسمومًا، هو لم يتمن هذا لأحد، لماذا لم يعد إليه ما فعله؟ على الأقل.. كان بوسعه أن.. يموت في فراشه، بابتسامة مرتاحة، وكان بوسعي أن أقبل رأسه وعينه، وأضمه لآخر مرة.» بطرف كمّي مسحت الدموع، بلا جدوى. «لم أرفع سقف أمنيّاتي، كل ما انتظرته عبارة واحدة، بعد انتهاء هذا كله، عبارة واحدة لا يستطيع غيره قولها لي، خاصة.. مع ذلك الحزن، حين يضم رأسي إلى صدره برفق ويقول: (الأيام الماضية كانت ثقيلة جدًا عليك يا ابنتي). كيف بوسع هذه الأيام أن تهون الآن، بدون أن تعقبها هذه العبارة؟»

نفضت رأسي ورفعته بابتسامة مهتزة، لمن أبتسم ولم؟ ما التالي؟ هل يوجد شيء لاحق، بعد أن مات أبي؟!

- «غيم، تعالى.»

قالها ساري بخفوت وهو يجثو على ركبتيه أمامي، ويحني رأسي رغماً عني ليستند إلى كتفه، لم تفعل بي هذا يا أخي؟ لم تدفعني لبكاءٍ لن ينتهي للأبد، ولسفك دموع لو جفت عيون الأرض فلن تجف؟!

الأيام التالية لم تمرّ، ما حدث أنني لم أستطع إيقافها من القდوم، إلا في داخل عقلي، لم أعرف كيف سارت، ولا ما حدث فيها، كل ما أذكره منها لمحات خاطفة، الجميع يضمّني ويكي معي أو يتباكى لأجلي، الجميع يرجوني أن أهدأ وأتوقف عن فعل هذا بنفسي، ما هو (هذا) الذي أفعله بنفسي؟ وهل سيجدي أي شيء أفعله لجعلي قادرة على نصب كتفيّ من جديد بعدما تهدّلا في تلك اللحظة، وللأبد؟ الجميع يقسم لي أنه جوارى، وأنه لن يتركني، وأنه في ظهري مثلما كان أبي، عبثاً يحاولون إشعاري بأن غيم التالية ستكون بنفس قوة غيم السابقة! الجميع عدها، أنور، عزّاني، ولم يصف كلمة زائدة، بقي مشغلاً عني طوال الوقت، وحين يعود ليلاً، لم يكن يهتم بالتحدث إلي ولو أدركني قبل أن أنام، وفي المرات القليلة التي تحدثنا فيها، كان أسلوبه أبعد أسلوب توقعت صدوره منه، ولأتفه أسباب ممكنة. حاولت بصدق أن أراعي ضغوطاته، لكن هذا بدا جنونياً، ليس مع ظروفى أنا! والأدهى أنني لم أكن أقوى -ذهنياً ولا نفسياً- على مشاجرته، أو حتى إشعاره بمدى صدمتي ودناءة تصرفاته.

أذكر أن شهاب اقترب مني مرة، أحاط رأسي بذراعيه الصغيرين، وأسند رأسه على رأسي بحنان، وأخذ يردد مراراً: (لا بأس)، ويمسح بأصابعه القصيرة مياهًا مجهولة المصدر عن خدي، ويخبرني أن الأمر يكون مؤلماً في البدء، ثم سأعتاد ذلك. أعتاد ماذا؟ الحاكم أيضاً استيقظ مرة إضافية، في غياب الشهود، وحين أخبرته -بقلبٍ خاوٍ- بما جرى، لم يقل إلا:

- «لا يمكن لرجل كهذا أن يموت.»

وصلت مسرّة في تلك الليلة، لكن وادع -مشكوراً- رفض أن يخرجني من المخزن، لم يرد إقلاقي بتغييرات إضافية؛ لذا انتقل لبيت مع ساري في

حجرة المعصرة، في الأيام التي يكون فيها في المزرعة، وحلّت مسرة محلّه في مخزن تبر. بقي الحال على هذا الخواء حتى أصرّ ساري يومًا على أن يجذبني وراءه للمعصرة، وأخذ يثرثر ويطالبني بأن أساعده وأناوله بعض الأدوات، فك القماش عن معصميّ وأعاد دهان المرهم، بقي ورائي حتى تفاعلت معه وبدأت أعود للعالم تدريجيًا.

- «لم يكن ليسعد بحالتك هذه، غيم التي عرفها الشيخ مدرار وافتخر بها ودعمها كانت قوية، وعليك أن تبقي كما كنت يا غيم، غيم الحقيقية التي لا تنكسر ولا تنحني!»

هززت رأسي ببطء، بلا معنى على الإطلاق. أمسك ساري بما يشبه صفحة عميقة، كان يستعملها لحمل العنب، وغرف من برميل بعض السائل، ثم قدّمه لي مع ابتسامة ودودة، وحين رأى نظراتي المتسائلة أخبرني أنه عصير فقط، لم يحتمر بعد.

- «إنه.. مليء بالسكر، لماذا؟»

- «أخيرًا ألقيت تعليقًا حول شيء ما! إنها المرة الثالثة التي تذوقينه فيها! السكر مساعد رائع على الاحتراق يا ملاكي.»

المرة الثالثة؟ أنا لا أذكر أنني رأيت ساري قبل أيام حتى. ناولته الصفحة الفارغة شاكرة، سألت بخفوت:

- «كيف حالك مع تبر؟»

هز رأسه بمعنى أن كل شيء جيد، سألت مجددًا:

- «لماذا لم تتمازجاكما حتى الآن؟»

نظر إلي بنوع من الاستنكار:

- «جدياً؟ هل تحسبن أن الشيخ مدرار كان أباكٍ وحدك؟ أنا.. أنا لم أعرف أباً غيره! كوني منطقية يا غيم!»

- «لكن هذا لا يمنع.» فجأة امتلأ صدري وصوتي بالثقة. «نحن في النهاية، جميعاً، لا أظن أننا بعيدون عن اللحاق بأبي إلى هذا الحد.» ارتجفت شفتاي؛ فزمتهما بحزم. «ولو سأراكما لساعة واحدة أخرى؛ فإنني سأحب أن تكونا سعيدين خلاهما.»

- «أنتِ ترين أن الزواج سيكون سعادة كبيرة لنا إذن؟»

قالها بابتسامة وهو يعيد غلق البرميل.

- «عساكما تكونان أوفر حظاً مني.»

التفت ساري بحدة.

- «ما به حظك في هذا الصدد؟»

- «لا شيء... على الإطلاق.»

كاد يمعن في الاستفسار، لكنني عدت للشroud، ودمعت عيناى من جديد، في كل التفاتة ولحظة، أتمثل أبي، يدثرني بعباءته وأنا أرتجف من البلب، يركض نحوي ويقبل يدي بعد أن أفقت من إغماءة دامت ليوم كامل، يخبرني أنني نعمة، يخبرني أن ابنته لا تهون ما دام على قيد الحياة، لكنه لم يعد.. وهنت!

- «قال: ليس ما دمت حياً، ولا حتى بعد موتى.»

صحح ساري كأنه يسمع معى أفكارى.

- «غيم، جناح لم تتحرك منذ جئنا إلى هنا، لم لا تأخذين جولة على

ظهرها، المزرعة كبيرة، وسيساعدك ذلك.»

- «كيف يمكن لك أن تكون مطمئنًا هكذا؟ ألا تخشى من إمكانية أن يشعر الصفراويون بنا، بصراخنا وحديثنا، بالتجارب التي تنفذها على الكرات الزجاجية التي يصنعها صافي وتعبئها، بلعب الأطفال؟»

- «ليس بعد أن توقف الصفراويون عن مطاردتنا، لقد أصبحوا الطريدة الآن يا غيم، ما بك؟»

- «هل يفترض بي أن أكون على علم بما تقوله؟»

- «ألم يخبرك أنور؟ قال إنه سيفعل.»

اسودّ وجهي بلا شك، عرفت ذلك من نظرات ساري.

- «وادمع! ها أنت ذا يا رجل، لم لا تصحب غيم في جولة؟ ستكون في مأمن معك، والطرق أصبحت خالية.»

بازرعاج قال وادمع وهو يجلس جوارى ويمسح رأسي:

- «هلاً توقفت عن كونك مستهتراً للحظة؟ الطرق أصبحت خالية لأن من كانوا يسرون فيها قتلوا!»

نقلت أنظاري بينهما في فرع، قال ساري بضيق واضح:

- «أستغرب أن أنور لم يخبرك، ليكن، الأحد الذي تحدثت عنه طويلاً، ذلك الذي يحرك الجميع من بعيد، ويزين للصفراوية طريقها ويقودها لإفساد القرية، لقد اكتفى من الصفراوية أخيراً، ورأى أن دورها انتهى معه. القرية محاصرة، لكن ليس برجال الحماية، أعني ليس فقط، حلف مهول مكون من الجداريين وحارقي المحاصيل يفعل، بالإضافة إلى مرتزقة غلول الذين وجدت همجيتهم الفطرية أحضاناً رحبة داخل قرية المروج. إنهم يقتلون أي شخص يزرع ولو للأكل، ويستولون على كل شيء يعجبهم، بل ويقتلون

لمجرد القتل، ويختطفون النساء والأطفال أمام ذويهم ويؤذونهم دون أن يملك إيقافهم أحد! الناس في الشوارع يموتون بكل الطرق، بالجوع، بالبرد، بالمرض، بالاختناق، الدمار يطول كل شيء، ويطول الصفراوين قبل غيرهم!

- «هل يحدث المثل مع الزرق؟»

- «لحسن تدبيرهم ونظرتهم، لا، لقد أوقفوا ذلك التيار قبل أن ينشأ، لم تجد (الزرقاوية) تربة خصبة تنميها فماتت، وسلم أهل العين الزرقاء من هذا الشر المحيق.»

- «لماذا تريد مني الخروج إذن؟ لأختنق؟»

- «ربما لتعرفي قيمة الهواء في الداخل؟»

قالها ضاحكاً؛ فابتسمت برغمي.

- «أجل! هذه هي! كم اشتقت لهذه الابتسامة!»

وسحب أنفي بين إصبعيه كما كان يفعل، أنا أيضاً اشتقت إليها، لقد تيسر وجهي من قلة التيسم.

- «غيم تطالب بتعجيل الزواج.»

نظر إلي وادع في استغراب.

- «متى مثلاً؟ بعد أسبوع؟»

- «بعد يوم، يومين، متى كنتم جاهزين.»

تبادل النظرات مع ساري، فهز ساري كتفيه بمعنى أنه لا يمانع. فجأة اقتحم الصغار المكان، كانوا يصرخون ويبيكون ويرتجفون، تشبثوا بملابس

وإدع - أول من قابلهم - وأخذوا يشيرون للخارج في ارتياح، تبادل وادع مع ساري نظرة متوجسة ثم توجه للخارج مع سيفه، في حين أغلق ساري باب المعصرة وبقي وراءها بسيفه هو الآخر.

ضمت الصغار الفزعين والتزمنا الصمت، بعد قليل طرق الباب، وعلا صوت وادع يطالبنا بأن نفتح. بحذر فتح ساري؛ ليقول وادع بشيء من الحيرة:

- «إنه.. إنه والد الصغيرين، لكن وجهه.. مختلف لو صح التعبير، هو لا يريد إيذاءنا حسب ما يقول، فقط يريد.. تعزية غيم، وإخبار ولديه أنهما كانا محقين.»

تبادلنا الأنظار، أين أنور؟ لا أحد يعرف. نهضت ووضعت الخمار، لو كان علي أن أعود للواقع فإن هذه مهمة مناسبة، برفقة ساري ووادع والصغار سرت، وصلت إلى المجلس الخارجي الذي أقامه حيّان في المزرعة قبل أعوام طوال، وأعاد ساري تهيتته قريبًا.

- «أنا.. أنا آسف لما حدث حقًا، الشعور بالذنب يمزقني، لقد كنت السبب في حبسه في المنزل، والسبب في مرضه.»

- «ليس عليك قول ذلك، إنه.. وقته.»

نظر الصغيران بارتياح إليه، ثم بتساؤل إلي، ومع وجود ساري ووادع كنت مطمئنة وأنا أهز رأسي مشجعة. ببطء اقترب الصغيران منه؛ ففرد ذراعيه وضمهما إليه بلهفة غير معقولة، أخذ يقبل رأسيهما وخدودهما وكل ما يصل إليه منهما، وبحرقة صاح:

- «سأحامي، تحدثتما معي بالمنطق، وكان يعوزني؛ فلم أجد سلاحًا غير العنف! وعندما رحلتما، وبدأت أدرك أي خطأ ارتكبت؛ سارعت بالبحث

والتدقيق؛ ليكون المنطق مقابل المنطق في المرة المقبلة، وما حدث خالف توقعاتي، نحن لم نكن نملك معتقداً، نحن كنا نعبث! أي جنون! الخاصة فقط وكبار الحارقين كانوا قادرين على إعداد وصفة المزاج الفائقة، مم؟ من النباتات! الآن أعني ذلك، الخطأ لم يكن من النباتات، الخطأ كان منا، من كيفية زراعتنا وانتقائنا لما نزرع ونستعمل، حين اختفى الغارسون كما تمنيت، لم يصبح العالم أجهل، في الحقيقة، لم يعد هناك أي عالم!»

- «إذن، أنت.. هل...؟»

قالتها جوهرة بعينين متسعيتين؛ فمسح شعرها وقال بابتسامة:

- «أجل يا حبيبة قلبي، أنا غارس فسائل الآن، وأملك كذلك.»

انخفض رأسي بلا قصد، ووجدتني أعطي عيني بكفي، يا حبيبة قلبي! رحمك الله يا أبي! ربّت ساري على خدي، ورفع رأسي برفق وهو يتسم مهوّنًا. سأل بدر بتردد:

- «وفريد؟»

- «فريد، الذي ربيته على أفكار التالفة، وكنت مبتهجا كونه أصبح نسخة مني، لقد... تمادى، إلى حد أنه.. قتل أصفر رآه لمجرد أنه كان يغرس فسيلة، و.. تجمع الناس عليه و...»

عزينا به فزع، كان سمجا وثقيل دم، لكنه كان طفلا. هز الأب رأسه في تسليم، نظر إلي وابتسم بصعوبة قائلاً:

- «كل ما نحن فيه بفضل الله ثم بفضلك يا غيم، أنت لم تقطعي طريقنا، ولم تكوني هجومية معنا، التعصب هو ما جعلنا نرى ذلك، أنت بطلة بصراحة، وغارسة فسائل تستحق اسمها، ليست لك أي غاية أو رغبة إلا

أن يرضى الله عنك!

بلا غاية أو رغبة، أين سمعت هذا الشرط من قبل؟

- «أنا مستعد وراغب في مساعدتكم، كيف يمكنني؟»

- «ربما حين يعود أنور، يعرف كيف يدرجك في الخطة، لاحظ أنك عنصر قوة؛ لأن أحداً لا يشك بك.»

لا أحد يعرف أين ذهب، الجميع يفترض، وهذا يثير جنوني، حسناً، لقد أفقت من أجليك يا أنور! بقيت أدور في المخزن كالمجاذيب، لقد تأخر الوقت كثيراً! عاد شهاب من الخارج منهكاً، لقد قضى وقتاً طويلاً في اللعب، ولم يدخر جهداً حين عرف أن والد جوهره وبدر يخطط لأخذهما إلى البيت. ابتسم بصفاء حين رأيته، وعانقني ثم اتجه لحشيته بلا كلمة. لتزجية الوقت سألت:

- «شهاب، تذكر حين رفض الأطفال اللعب معك بعد أن تحدث قاسط عنك بالسوء أمامهم؟»

التفت إلي وهو يضرب وسادته ليسويها، بدا أنه يسترجع هذه الأحداث من غياهب ذاكرته، برغم أنها لم تكن من زمن بعيد.

- «ما الذي أراده منك وقتها ورفضت فعله؟»

- «لم يكن هو فقط، كانت خالتي وأمي معه.» قالها بحزن. «أرادوا أن يورطوك في.. في قتل وادع.»

خيّل إلي أنني سمعت بشكل خاطئ، لكنه وضح:

- «عندما فشلت في إيذاء وادع عند البحيرة، استغل بائد هجوم الزرق

وأصابه هو، ساعده أنه كان ضمن رجال الحماية، وحين اعترضت على الهدنة وعلى القرارات الجديدة، أرادوا التخلص منك ومن وادع معاً، بأن يؤذوا وادع ويقودوك إلى مكان الحادثة لتبدي كما لو أنك الفاعلة، ويشتبوا قولهم بأنك عنصرية تكرهين الزرق. لكنني رفضت أن أورطك في شيء كهذا، وأخبرتهم أنك لطيفة لا تستحقين ذلك!

ابتسمت بامتنان. بشكل ما شعرت أن ساري أصبح سندي الأكبر الآن، وأعاد عقلي -تلقائياً- سرد التهم التي رميته بها؛ فأخذت أسخر من نفسي ومن حماقتي، وأردت معرفة إجابة آخر سؤال من شهاب، إمعاناً في السخرية مني. استلقى شهاب وأغمض عينيه؛ فخففت الأضواء لأجله، ولأجل التوفير أيضاً، المؤونة لم تعد في متناول اليد كالسابق. استلقيت على الفراش وعزمت أن أبقى مستيقظة حتى عودة حضرته. جذبت الملاءة الرقيقة أنقي بها البرد؛ فشعرت بشيء عند قدمي، اعتدلت وأمسكته، ورقة أنور، بحسن نية اقتربت من المصباح لأرى ما فيها، كنت أتساءل إن كان علي التخلص منها لو لم تعد مفيدة. لدهشتي وجدت المكتوب فيها غريباً لحد ما، كانت عدة أسماء مكتوبة طويلاً، اسمي على رأسها، ثم شهاب، ثم الحاكم، وتطول القائمة وتحمل الكثير من الأسماء، وجوار بعض الأسماء وجدت علامات صغيرة بأعداد متفاوتة، كان أكثرها أمام اسمي، والكثير بين شهاب وساري، قلبت الورقة في حيرة، ما الذي يعنيه ذلك... لحظة! ما هذا المكتوب على الظهر؟ (الخطوة الثانية في الطريقة، جاري التخلص). التـ... التخلص؟! من ماذا؟ أو... ممن؟!

- «غيم، ماذا تحسبن نفسك فاعلة؟»

قالها بغضب، لم أنتبه لثقل لسانه، لكنني كنت قد اعتدت أسلوبه الحاد مؤخراً؛ لذا قلت بتساؤل:

- «وجدت هذه هنا، ماذا عليها أن تعني؟»
- «وما شأنك أنت؟ لم تقحمين أنفك في كل شيء؟!»
- قالها وانتزع الورقة من بين يدي بعنف، نحن نتطور.
- «أنور، هلاً هذأت من نبرتك قليلاً؟ شهاب هنا، والحاكم نائم، ما دمت لا تريد احترامي أو تقديري!!»
- «وهل تركت مجالاً للاحترام؟!» تصاعد مطرد في نبرة الصوت.
- «هذا ما بقي! تفتشين ورائي؟» قطبت حاجبي باستنكار، هل يمزح؟ «لماذا؟ لأنني كنت متساهلاً من البداية معك؟ أم لأنني أحق لا يحسن الاختيار؟ أنت تجعليني نادماً فعلاً، نادماً على الزواج منك من الأساس، وعلى كل لحظة كنت سعيداً فيها لذلك، لا تنظري إلي هكذا! أنا لست مجنوناً، أنت كذلك! لقد تحملتك كثيراً، لكنك لا تطاقين! منذ اللحظة التي تجسست فيها على حوارني مع حلية كان علي أن أفهم أنك لا تصلحين! بل وبقيت مفتوناً بك حتى بعد أن أهتني أمام رجالي، أي مغفل كنت؟ لماذا علي أن أتحمل كل هذا؟ أخبريني!»
- ابتلعت ريقني وأزحت الملاءة ببطء ونهضت، كان علي أن آخذ وقتي في التأكد من أنني أسمع هذا حقاً، وأنها ليست هلاوس سببها عقلي ليريني الحال الذي سأتردى إليه بعد وفاة أبي.
- «لا أجد شيئاً أجيبك به، أنا لن أحاول إذلالك بما فعلته من أخطاء، على افتراض أن ما ذكرتها كانت أخطاء. لن أبدأ بالمقارنة الآن، لن أخبرك ما الذي تكسبه من (تحملي)، ولن أعدد ما أتحمله منك بدوري؛ لذا، ربما علي أن أتجاوز انكسار قلبي، وخيبة أمني، وأنظر نظرة علوية كما علمني أبي، وأسأل بحياد: هل تحاول الوصول إلى سر الخلود يا أنور؟»

فركت عينيّ بقوة وأنا أنتظر الإجابة، لن أبكي، ليس الآن.

- «أنت لا تطاقين، فعلاً.»

- «اكتفيت من هذا! دعك مني ومن مساوئي، أنا أستحق كل هذا لأنني تحملت أذاك بلا مبرر، لكنني -بعكسك- لن أندم، لقد أحببتك فعلاً وآمنت بأنك شخص يستحق التضحية، وقد كنت كذلك حين ضحيت بما ضحيت به لأجلك. أجب سؤالي يا أنور، ليس على أنني زوجتك غيم، بل بشكل عام وحسب!»

- «هل ترفعين صوتك علي؟ هل تظنين أنني مهان لهذا الحد؟»

- «ألا تسمع نفسك؟ أنا لم أرفع صوتي حتى! الصدى نفسه يجيبك، ويخبرك صوت من المرتفع!»

- «هذا يكفي!»

قالها بثورة من بين أسنانه، واقترب مني بتصميم، نظرة إلى عينيه المتوهجتين جعلتني أترجع بذعر، لم يبدو هكذا؟ ما الذي فعله بنفسه؟ والأهم، ماذا سيفعل لي؟! اصطدام بالجدار أوقف تراجعني، بقيت أراقب تقدمه في دعر مكبوت، في حين رفع شهاب رأسه عن وسادته وأخذ يراقب ما يجري بفرع.

- «أنور، عزيزي، أفق، أنت لست واعياً، صحيح؟»

لا يجيب، إنه ليس أنور، ليس أنور الذي أعرفه! قبض على ملابسي ودفعني في الجدار، كانت قبضته قوية بلا جدال، ربما كان علي أن أفخر لأن زوجي بهذه القوة، لكن ليس في هذا الموضع.

- «أنت تعرفين شيئاً عن سر الخلود، صح؟ أخبريني به!»

- «أنا لا أعرف أي شيء، الطريقة معك، ليست معي!»

- «لا تكذبي!»

قالها مع دفعة أخرى للجدار، أغمضت عينيّ بألم وبحث عما سيسعفني قوله.

- «أنور، ركز معي أرجوك، هناك شيء يحجب عقلك، ولا أعرف ما هو، لكن عليك أن تتحرر منه؛ لكي لا تؤذيني، أنا غيم، حبيبتك، لا، بل أنا أنت، أتذكر؟»

رفع يده بطيش وكاد ينزلها على وجهي، لولا صرخة ملتاعة أصدرها شهاب الباكي. توقفت يد أنور في منتصف المسافة، وتراخت يده القابضة على ملابسي، عدلت ملابسي وحاولت البقاء واقفة وأنا أرتجف، أمسك أنور برأسه في شيء من الألم، نظر إلي نظرة مختلطة، توعده مع اعتذار. نهض شهاب حاملاً حشيتيه، ظناً منه أننا نريد الانفراد بنفسينا، تركنا وهو يبكي ويفرك عينيه، وانتقل للنوم في مخزن تبر ومسرّة. لم يجر، لقد وضعت خماري، وخرجت من المخزن أيضاً، على أنور أن يفكر منفرداً.

- «غيم، أهذه أنت؟ تعالي يا صغيرة.»

قالها ساري بترحيب وهو يراني أدخل عليه المعصرة، لم يكن قد نام بعد لحسن حظي، بصمت دخلت وجلست على برميلى المقلوب المعتاد، أشعل ساري مصباحاً واقترب مني، فقط لينقلب وجهه بفزع.

- «غيم، ما بك؟ ماذا حدث؟»

- «أنا.. فقط.. أريد قضاء الليلة هنا، أيمكنني؟»

اتسعت عيناه بشراسة، تأملني ملياً وقال بنبرة جامدة:

- «هل تشاجرت مع أنور؟»

أومأت بضعف وطأطأت، وضع يده على كتفي وقال بغضب:

- «هل الصوت الذي سمعته.. كان صوته؟ هل كان يصرخ عليك هكذا؟ وأنا الذي ظننتهم أعداء قريبين من السور! ماذا حدث؟ أخبريني، هل جنّ أم ماذا؟!»

لم يحبه صوتي، دموعي فعلت، وكعاداته، وضع يده على رأسي ولم يبعدها، ثم مسح دموعي بيده الأخرى.

- «عليك أن تعرفي شيئاً، وعليه هو أيضاً أن يعرفه، موت الشيخ مدرار لا ينقص من التقدير الذي يجب أن تُعامل به ذرة، وإن كان والدك قد مات، فإن أخاك لم يفعل! غيم، لن أكرر سؤالك، هل تخبريني بما حدث، أم أنهض وأستدعي وادع من عند البوابة لنعرف منه بأسلوبنا؟!»

إنه محق، لو لم يكن معي أبي، فإن إخوتي هنا، وقد تجاوزت الكثير من أفعال أنور، ربما لن أقدر عليه وحدي. لم أفكر مرتين قبل أن أحكي كل حرف، منذ اللحظة التي تغيّر فيها، ليس منذ وفاة أبي كما خنّ ساري، بل منذ خرجت من منزل حلية آخر مرة.

كاد ساري ينهض لـ (يتفاهم معه) كما قال، لكنني تشبّثت بكمّه في رجاء، أنور ليس واعياً، يجب أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار، غداً يفيق، ونستطيع التحدث إليه بالعقل، العنف لن يحل المشكلة. وافق على مضض، ورجاني أن أستعمل حشيتي للنوم، بعد أن أكّد لي أن النوم سيفارق جفنيه هذه الليلة، وربما لن يعود ما لم يعد لي اعتباري. لإرضائه تمددت، دثرتي بجبّته الثقيلة، فقط لأفطن إلى حقيقة أن المعصرة أشدّ دفئاً من المخزن، خاصة بعد عجزنا عن استخدام النيران للتدفئة من الخارج كما كنا نفعل، لم تعد الأشجار كثيرة

بما يكفي. أنور ليس سيئاً، أعرف أنه هو، كما أحببته وتمنيته، أعرف أنه الشخص الذي حماني من حلية، وأنقذني ثلاث مرات، وبكى ليلاً حين شعر أنني سأتعرض للأذى بسببه، أما ذلك الشخص قبل قليل؛ فإنه... ماذا كنت أقول؟ لقد نمت!

استيقظت على شعاع موجه من أشعة الشمس، أخلي له السبيل ليداعب وجهي ما إن فتح وادع الباب، كان ساري واقفاً عند البراميل، يعيد ترتيبها فيما يبدو، ألقى وادع نظرة علي فوجد عيني مفتوحتين، قال ببطء وبنبرة غريبة:

- «ما قاله شهاب صحيح إذن.»

اتسعت عيناى بارتياح، هذا اللسان الآدمي، هل سيفضحني؟!

- «لا تخافي، لم يخبر أحداً غيري.» قالها وهو يجلس جوارى. «قال: هذه أختك، عليك أن تحميها.» صمت بضيق. «أحقاً.. أحقاً قام أنور بـ.. بضربك؟»

التفت ساري بسرعة وعينه تطلقان شرراً.

- «لا، كاد يفعل.. لكن لا، صدقاً، لم يضربني.»

- «دفعك في الجدار، صح؟»

أومأت؛ فأحاطني وادع بذراعه وضمني إليه، أنهى ساري ما كان يفعله ونفض يديه، وأعلن أنه ذاهب ليأخذ صحن الإفطار من عند تبر. فتح الباب ليجد شخصاً واقفاً وراءه، رافعاً يده بارتباك كأنه كان ينوي الطرق، تراجع أنور خطوة من أثر المفاجأة، ثم تنحنح واعتدل، وقف ساري أمامه

بطريقة عدوانية، لكنه -أنور- كان لَبِنًا كثيرًا، أخفض رأسه ومرّ من جوار ساري ليقترّب مني. انحنى علي وأنا أشيح ببصري عنه، ضمّ وجهي بكفيه وقبّل رأسي بتمهل، ثم توجه إلى وادع، قبل رأسه أيضًا، وفعل المثل مع ساري. ثم عاد إلي وجثا على ركبتيه أمامي، ببطء أخرج الورقة من جيبه، وألقاها أرضًا.

- «هذه الأسماء.. للأشخاص الأهم بالنسبة لي، أكثر من أحب، وكل علامة أمام اسم، تمثّل المرات التي عاملت فيها هذا الشخص بطريقة سيئة، أو ساهمت في توسيع الفجوة بيني وبينه.» نقل نظره بيني وبين ساري وتابع: «غيم كانت أكثر شخص أحبّه؛ لذا كان لزامًا علي أن أضاعف جهودي لمضايقتها، لا أصدّق حقًا أنك تحملت كل ذلك مني، في كل لحظة كنت أنتظر أن تغادريني إلى غير رجعة، لكنك -لدهشتي- كنت تتحملين! وأنت يا ساري، لم تكن عصبيتني عليك ولوميّ لك في كل دقيقة حرصًا مني على الإنجاز، لقد كنت تنجز.. أكثر من أي أحد آخر، لكنني -وبلا تزويق- كنت أحاول أن أخسرّك! ولم تترك لي فرصة بدورك. ثم.. استجدّ شيء...»

قالها وأخرج بتخبط قارورة بحجم الإصبع، ألقاها جوار الورقة.

- «هذا السائل الشنيع، قالت الطريقة إنه سيساعد على.. على تسهيل الأمر علي، لن يسمح لضميري بالوقوف في وجهي، ولن يترك حبي يمنيني من إيذائك، لم أشرب الكثير، مجرد رشفة صغيرة، لكنها كانت.. جنونية!»

التقط وادع القارورة وقلّبها بين يديه متمعنًا.

- «وصفة المزاج الفائقة، أليس كذلك؟»

أوماً أنور برأس متتكس. قال ساري بجفاف:

- «ولماذا تسعى لخسارة من تحب؟»

- «سر الخلود، ليس سرًا، بل لعنة!» قالها وألقى رأسه بين يديه وأخذ يبكي بحرقة. «أقعت نفسي أنني أبعدت غيم عن الأمر من البداية كي لا تتعرض للخطر، لكن الحقيقة أنني لم أرد أن يشاركني أحد هذا السر! كنت أعرف أن الطريقة للوصول إليه لم تكن لتعجبها، كانت ستلقي الكثير من الملاحظات عن أهمية تدميرها، وأنا.. وأنا كنت راغبًا في السعي خلفها، لم أرد ذلك حقًا، شعرت أنني.. مجبر عليه!» تبادلنا النظرات في شيء من الإشفاق. «(التخلص) لا يعني.. لا يعني القتل أو ما شابه، فقط، أن أتخلص منكم بشكل شخصي، ألا تبقوا في حياتي، ألا يبقى شخص يمكن لحبه أن يكون نقطة ضعف لي، لو كان علي الآن أن أختار بين سلامة غيم وكنوز العالم كلها فإن اختياري ليس صعب التخمين، وهذا ما يجب على الساعي خلف سر الخلود ألا يكونه! كان علي بذل كل شيء لأكون.. لأكون وحيدًا.. سر الخلود كان يستنزفني أنا، ويؤذيني أنا، ويستهدفني أنا، ليس أي أحد آخر!»

- «لهذا الحد لا تستطيع فعل شيء بدوني؟ ظننت أن براعتي تكمن في إيجاد الإجابات فقط، لكنني اكتشفت الآن أن طرح الأسئلة مهارة تتطلب التدريب أيضًا!»

رفع رأسه إلي بحيرة، عيناه لا تزالان محمّرتين، والدموع تكللها.

- «لو أنك تركتني أ تدخل من البداية؛ كنت لأسأل سؤالين بديهيين، يدهشني أنهما لم يخطرا ببالك: كيف وصلت هذه الطريقة إلى القائد راسخ، ولماذا أعطاها لك؟»

اتسعت عيناه بارتياح، وتبادل ساري ووداع النظرات.

- «ما الذي تريدني قوله؟ أن القائد راسخ...؟»

- «لا أريد قول شيء، لقد كنت أطرح أسئلة، لم أجد إجاباتها بعد.»

هز رأسه بإفراط، ثم وضع يده على كتفي وقال بتلعثم:

- «شيء آخر، لم أقصد إشعارك أن.. أعني.. ما حدث لم يكن.. ليس بسبب ما حدث للشيخ مدرار، أنا.. باختصار، أنا خسيس، لكن بشكل فردي، ليس للظروف علاقة بهذا، لم أقصد استغلال حزنك، ولا استضعافك. كان زوجك حقيراً بما يكفي لتركك وقت حزنك، ولينخلف الوعد الذي قطعه لأبيك بأن تكوني معي كما كنتِ معه، لكن ليس إلى حد تمرير السكين على الجرح.»

تعمد أم لا، كان هذا الإحساس الذي وصلني، وبصعوبة تمالكته دموعي، وتمالكته رغبتني في الصراخ في وجهه، على الأقل.

- «أعرف أن ما فعلته ليس بسيطاً، لكنني مستعد لفعل أي شيء سيرضيكي، وسيرضيكما.» لساري ووادع. «ولتجديد هذا الوعد، والحفاظ عليه هذه المرة!»

أغمض ساري عينيه بانزعاج شديد، وأطرق وادع بضيق.

- «كيف حصلت على هذه؟» قالها وادع بنبرة متشككة وهو يشير إلى القارورة الصغيرة.

- «لم أكن أعبت بالأمس، حين تغيبت طويلاً، لقد خرجت مع عدد من الرجال.. لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بحثنا عن الناجين من هجمات الأعداء، ووجدنا الكثير من الصغار بلا أهالي، والكثير من الأشخاص على شفا الموت جوعاً، أو يتخبطون في دمائهم بفعل طعنة كيدية ليس لها سبب إلا الشعور بالقوة. أنا -كما سبق وأخبرتكم- لا أستطيع أبداً الاستغناء عن مشورتكم، والرأي الذي أبديته قبل أيام و.. وبختك لأجله، كان ممتازاً كالعادة، وبعده فكرت في تشكيل مخابئ أخرى، وتوزيع الرجال والناجين في مكانين متفرقة

من القرية، ولهذا ألغى قدوم الفرق والأعداد الأخرى؛ لنضمن بقاء من يستطيع غرس الفسائل إذا لم.. لم نستطع نحن. وجدت هذه القارورة في منزل واحد من معلمي حارقي المحاصيل، تعرفون أنهم يتمتعون بحظ أوفر من ناحية المؤونة والأمان، لكنهم لم يستطيعوا احتمال قلة الهواء بفعل نقص الزروع؛ فهجروا القرية.»

قبل أن نقول شيئاً، وقبل أن أؤكد -للمرة الثانية- أنني أعرف مدى عجزه عن فعل شيء حقيقي من غيري، قال بحماس:

- «وجدت لك شيئاً أيضاً، أتعلمين؟ أنا واثق من أنك سترضين عني ما إن تري ما أحضرته!»

هَبَّ واقفاً وركض للخارج، وفي اللحظة التي غاب فيها عن أنظارنا وجدت ساري يهبط أمام وجهي بانفعال:

- «غيم، اسمعيني، إذا لم ترغبي في العودة معه فأخبريني، أشيري لي فقط، سأرفع عنك الحرج وأخبره أنني أنا من يمانع.»

نظرت لوداع فوجدته يشدّ على كتفي ويومئ مطمئناً، ثم نظرت لنفسي، مدثرة بجبة ساري، ومتمنقة بخنجر وادع، جزى الله أمني عني كل خير، أن كانت صاحبة فكرة منحي أخوين بهذا النبل.

عاد أنور بسرعة، حاملاً صندوقاً خشبياً كبيراً، وابتسامة طفولية واسعة. وضع الصندوق أمامي وطالبني -بجدل- أن أفتحه. فعلت بتردد؛ فوجدت بداخله الآتي: صندوق المجوهرات الذي أهدانيه أنور يوم الزفاف، السبحة البيضاء التي تتوسط حبّاتها خرزة معلّمتي رؤية السوداء، دفترتي الجلدي البديل مع الريشة والمحبرة، أصيص إكليل الجبل الجديد، عدة علب من حلوى الفواكه والسكر التي أحبتها، والمتوفرة بكثرة في قبو منزل الحاكم.

نظرت لأنور بلا تعابير، ثم مددت يدي بهدوء لأحلّ خنجر وادع عن خصري، وأخرج منديل تبر المطرّز من جيبي، مددت يدي تحت حشية ساري باحثة عن شيء أعرف أنني سأجده، أخرجتها بنبتة عرق سوس صغيرة شبه ذابلة، ووضعت كل ذلك في الصندوق، وتأملته من جديد. الآن ابتسمت، بارتياح، أو بآلم، هذا ليس صندوق أغراضي، هذا صندوق حياتي! كل ذكرياتي هنا، وهذا ما خرجت به من الدنيا! نظرت لأنور المتلهف، وهزّزت رأسي باقتضاب؛ فقال بخجل:

- «هل.. هل تسامحيني؟»

ألقيت نظرات خاطفة على ساري ووادع، من غير اللاتق أن أتصرف بمفردي بعد أن أقحمتها في الأمر، لكن ساري هز كتفه ليعطيني حرية التصرف، وأوماً وادع بها شعرت أنه تحفيز على مسامحته.

- «بلا شك. الجميع يخطئ، وقليل من يعترف ويعتذر.»

أطلق صرخة فرح وقفز يعانق رأسي، كم بدا طفلاً في تلك اللحظة! وكم شعرت أنني عاجزة عن تذكر شيء سيئ له! نهض أنور وانقضّ على كتفي ساري.

- «هيا يا عريس، الأيام تتناقص، ولا يجدر بك التأخر أكثر!»

ثم استدار لوادع وقال بابتسامة واسعة:

- «ليكن العرس الليلة، ومن الآن، أنتم أولويّتي، مادمنّا راحلين في كل الأحوال؛ فإن علينا أن نفعل ونحن مبتسمون!»

برغمهما ابتسم ساري ووادع، وانطلقا يتبادلان -مع أنور- الأحاديث والمخططات للزفاف المرتجل الذي سيقام الليلة، فيما كنت أتأمل عبارة أنور،

وحالنا، إلى هذا الحد ضمناً رحيلنا العاجل، وأصبحت أقصى طموحاتنا أن نفعل ما يجعلنا نرحل ونحن راضون؟

- «هل تزال إحدى العلامات بعد أن اعتذرت إلي؟»

قلتُها متعمدة استفزازه وأنا أراه يوليني ظهره ويمسك الورقة إياها، فجأة وجدت قصاصات صغيرة تتساقط على الأرض، نفض أنور يديه بعدها والتفت إلي مبتسماً.

- «بل أتخلص من ورقة التخلص، إن كنت سأخسر كم فمن سأكسب؟ خسارتكم تعني خسارة نفسي! وأنتِ تعرفين، كل خسارة قابلة للتعويض...»
- «إلا خسارة المرء نفسه.»

أكملتها بابتسامة، ثم جذبت الملاءة؛ فانتفض أنور كمن تذكر شيئاً، ركض لصندوق في الركن وفتحته، ثم عاد حاملاً غطاءً ثقيلاً من الصوف، وضعه علي وهو يقول بفرح:

- «وجدته لك، أنتِ لم تنعمي بنوم مريح منذ أتينا إلى هنا، دائماً أطرافكِ باردة ومرتجة!»

ابتسمت شاكرة، كنت أحاول الحفاظ على ملاحي متّزنة، لكنني -من الداخل- كنت على وشك الطيران فرحاً، لم أتخيل يوماً أن أرى الغطاء الثقيل أشبه بالكنز كما أراه الآن.

- «غيم، هل أنتِ بخير؟ أعني حقاً؟»

- «ما الذي يمنع؟»

- «بل ما الذي يجعلك كذلك؟»

قالها بسخط وهو يلقي نفسه جوارى على الحشية.

- «أي نوع من الرجال أكون؟ هل يفترض بك أن تشعرى بالامتنان لأنني أحضرت لك غطاءً يقيك البرد؟! أهذا ما وعدت به قبل أن أتزوجك؟ ما الذي فعلته لك من وقتها؟ أحضرتُ لك مجوهرات لم ترتديها إلا مرة واحدة لأنك لم تحظي بيوم هنيء بعدها؟ ثم ماذا؟ أقابل صبرك بالإساءة، أسيء إليك فتسكتين، أسيء إليك فتتجاهلين، أسيء إليك فتلتفتين للأهم! لو كنت رددت علي وقتها، لو عددت لي أخطائي ومساوئي، لو أخبرتني بعيبك كما أخبرتك بعيبك قبل أن نتزوج حتى، ربما كان كرهى لنفسي لينقص قليلاً. الأسوأ أنني عاجز عن ردِّ هذا اللطف لك، لا أستطيع فعل ما يجعلنا متساويين، لا أضمن لك الأمان ولا الغذاء ولا أي حق طبيعي! لو عُرف مخبأنا اليوم أو غداً فإن أقصى ما أستطيع فعله لك أن أراقبك -بلوعة- وهم يقتلونك، على أحسن تقدير!»

وضعت يدي على ظهره وابتسمت برفق.

- «أنت تُكثر من لوم نفسك، ولهذا أنا لا ألومك، أنت لست زوجاً سيئاً، أعرف أنك لا تدّخر جهداً، وأنك تبذل ما تستطيع وزيادة، وهذا يكفيني! ثم.. أنت لم تقل شيئاً غير الحقيقة، وبعد التفكير فيما ذكرته، أراك كنت محقاً في الكثير من الأمور...»

- «لا.» قاطعني بصرامة. «إياك أن تظني أن ما قلته كان مقصوداً، أنا لا أراك هكذا، وأنت لست هكذا! ما حدث أنني كنت أحاول مضايقتك، وجعلتني تلك الوصفة أختار بعناية أدق الكلمات التي ستوجعك وتزعجك. لكنني أقسم لك، ما قلته غير صحيح، ولا أفكر فيه ولا أعنيه!»

أومأت برضا، من الجيد أن أطمئن لهذا الجانب.

- «اسمع يا أنور، نحن هنا، في هذا المكان ووسط هذه الظروف؛ لأننا رفضنا التعاون مع الباطل أو السكوت عن الحق، وما دمنا اخترنا سلوك هذا الطريق، وما دام قد أوصلنا إلى هنا؛ فإننا في أفضل مكان وظروف ممكنين! الله معنا يا أنور، الله يرى ويسمع ويعلم ما حملته نوايانا، ويعلم أن مقصدنا وغايتنا الأكبر كانت إرضاءه؛ لذا هو لن يضيّعنا، وكما هدانا إلى الحق، وكما ألهمنا الصواب في كل ما فعلناه حتى اللحظة؛ سيحفظنا ويحمينا ويرشدنا. وأيًا كانت النهاية التي سندركها؛ فإننا قد حققنا المراد، وفعلنا ما علينا فعله، ولا ننتظر من غير الله أجرًا ولا نصرًا.»

ابتسم أخيرًا، هز رأسه مرارًا بتأثر وأحاطني بذراعه وقبّل رأسي. ارتمينا على الفراش معًا؛ فعلت أصوات طقطقة الفقرات المتألّمة، وجدنا الأمر مضحكًا لسبب ما، وانفجرنا في الضحك.

- «إذن، أنتِ لستِ غاضبة مني؟»

- «ولا مثقال ذرّة.»

- «كنت على وشك.. إخبارك، لو نجونا -وما ذلك على الله بعزیز- فإنني سأعوّضك عن كل هذا، وسأجعلك تنسين كل لحظة مؤلّمة عشتها تحت وطأة هذه الظروف. ولو.. ولو حدث شيء لي، ونجوتِ أنتِ؛ فإنني أرجوك أن تسامحيني، أُمي تحفظ نصيبي من أرباح الرطب و...»

- «توقف، من فضلك، كف عن الكلام غير المفيد! قلبي مستبشر، ويظن أن نهايتنا لن تكون بالشكل الذي تفترضه يا متشائم! لن أقتل أمام ناظريك، ولن أعيش على إرثك الذي حفظته لي! سنعيش يا أنور، وسنحتفل بانتهاء كل هذا، وستبادل التهاني والمباركات، وسنردد جميعًا: (لولا ستر الله لم ننج من كل هذا!)، ثم سنعيد إعمار القرية، سنزرعها، وسنفتتح دار المنارة،

وسيتعلم فيها الكبار قبل الصغار، وسنموت مبتسمين، على أسرّتنا وفي منازلنا، وحوّلنا أبناءنا وأبنائهم وأحفادهم! وبعد أن نموت، وحين يجيء وقت الحساب، سيكون لدينا خيط نتشبث به، ونزعم أننا فعلنا ما يرححنا عن النار، ويقينا العذاب، وليتقبل الله منا!

انفجر ضاحكاً مجدداً، ظننته سيخبرني أنني أبالغ في التفاؤل، لكنه قال بسرور عارم:

- «أنت لا تفترضين شيئاً بلا أساس، الحقيقة أن توقعك هذا يجعلني أستبشر!»

- «ربما حان الوقت إذن لتخبرني.. لماذا أردت سر الخلود؟»

تقلصت الابتسامة عن شفّتيه كما توقعت، قال بخفوت:

- «لم أرده، ليس من البداية، ما حدث أنني.. خدعت نفسي، قلت إنني سأسعى خلفه لأبعده عن أيديهم، ثم تطوّر الأمر حين فكرت فيه، قلت لنفسي: ربما سيكون من الجميل أن.. أعيش طويلاً؛ لأحمي الناس من تكرار هذه الظروف! ثم.. تحوّل الأمر إلى هوس، وأنا بعد في الخطوة الثانية!»

- «ماذا كانت الخطوة الأولى؟»

- «القيام بشيء يخالف المعتقد، ونفذته حين شربت الوصفة.»

- «لكنك شربت الوصفة بالأمس فقط، صحيح؟»

- «لا يراعى الترتيب.»

قالها بابتسامة كأنه يحدثني عن قواعد لعبة.

- «أنا لا أخفي عنك الطريقة، أنا فقط، حفظتها في مكان بعيد، عندما أخرج في المرة القادمة سأحضرها لك.»

- «لا أريد رؤيتها، أنا أعرف ما فيها.»
بدهشة قال:
- «لم أكن مخطئاً إذن، أنتِ تعرفين شيئاً عن الطريقة، ما هو؟ وكيف عرفتِه؟»
- ابتسمت بنوع من الغموض، وأجبت:
- «ليس من الصعب على غيم أن تجد الإجابات، ومن باب نسبة الفضل لأهله، لقد أهداني والدك تلميحاً ذهبياً!»
- «أ.. أبي؟ وماذا كان؟ وماذا عرفتِ؟»
لم يرد الوقوف كثيراً عند حديثي عن أبيه، وتجاوزته بدوري.
- «ستعرفه عندما تجيب السؤالين اللذين طرحتهما بخصوص القائد راسخ.»
- «وكيف أجيبهما؟»
- «ربما.. عليك أن تسأله وحسب؟»
حدّق فيّ باستغراب، لا بد أنني بدوت مجنونة تماماً في تلك اللحظة، خاصة بشعري المنتفش السارح على الوسادة.
- «أسأله شخصياً؟ أقولها في وجهه بصراحة؟»
اتسعت ابتسامتي الغامضة وأومأت مؤكدة.
- «ألا ترى أن المشاكل كانت لتختصر كثيراً لو أننا سألنا قبل أن نقفز إلى الاستنتاجات؟»
- «وما الذي تتوقعين أن يجيبني به؟ غيم.. بالله عليك، لا يمكن أنكِ

وجدت الإجابة بهذه البساطة، ألا تظنين أن مصارحته قد تفتح علينا باباً يمكن أن يُسد بالحيلة والمكر؟ أخبريني فيم تفكرين على الأقل كي أسأله وأنا مرتاح!»

- «يا عزيزي أنور، هل سبق وخيّت ظنونك؟ أتمنى أن تثق بي، ولو لمرة في حياتك!»

الحق أنني خيّت ظنونه يوم اهتمت ساري، لكنه - في هذا الوقت الذي يحاول فيه استرضائي - لن يذكر ذلك.

- «وسؤالك عن توقعي لإجابته، والتحدي الذي اشتمته من كلامك بأنني لا أستطيع إيجاد الإجابات بهذه السهولة؛ فإنني أذكر حبك للتحدي، وأتحداك بدوري.»

وبمرح أخرجت دفترتي من أسفل الوسادة وجلست، خططت فيه بضعة سطور أمام ناظريه الحائرين، ثم انتزعت الورقة من الدفتر وطويتها، ومددت يدي بها له.

- «هذا توقعي لإجابته، لكنك لن تفتحه الآن، بل عندما تعود من مقابلته، احفظه في أي مكان يعجبك، وسنفتحه معاً.»

بابتسامة متحمسة التقط الورقة، دسها تحت وسادته وهو يخبرني أنه يتحرق شوقاً للقاء القائد راسخ والسماح منه.

- «ربما سأشترط مكافأة إذا تبين أنني محقة، وستعطيني إياها!»

- «أعطيك عيني يا حبيبة قلبي.»

محاولة جيدة يا أنور، لكنها غير كافية. حين قلت له إن أبي ترك فراغاً في قلبي، يشبه دوره في الحياة، بحجمه تماماً، لا يسدّه غيره ولا يخلفه فيه أحد،

وعندي -أنور- أن يبقى هذا الفراغ في منطقة عجزه فقط، داخل قلبي، وأنه لن يتعدى -ولو على جثته- لأشعر به في حياتي كلها.

- «فيمَ كان تهامسكما قبل.. قبل رحيله؟»

- «كنت أسأله عن سر الصناديق، كان من المدهش أنها صمدت في وجه حريق منزلنا وانفجاره، والبذور في الداخل لم تتلف على اختلاف أنواعها وحاجاتها. خالتي رؤوم أغلقت الباب ظناً منها أنها رغبة الشيخ مدرار، لكنه لم يعرف أنني أغلقت الباب في وجهك.» قالها بحرج.

- «وهل أخبرك؟» كأنني لم أسمع العبارة الأخيرة.

- «لقد صممها بنفسه، المعدن الخارجي ليس حديداً، بل فولاذ! والبطانة الخشبية بالداخل، كانت من نوع نادر من النباتات، يسمونها (نبته البعث)، تقوم فروعها بالحفاظ على البذور وتحميها من الفساد.»

لا عجب أنها كلفته الكثير إذن، رحمك الله يا أبتى. بالتدريج وجدنا طاقتنا للحديث تنتهي، والوقت يهرب منا، وموعد التجهيز للزفاف يقترب؛ لذا سارعنا بالخلود للنوم، وقبل أن أنام تذكرت أن أقول:

- «لا أحاول إزعاجك لكن، سعيدة لأنك حصلت على المزيد من

الجند.»

نظر إلي بعينين نصف مغلقتين، وباستنكار شديد.

- «آمل أنك لا تعين الأشخاص الذين آويناهم؟ أنتِ أعقل من ظن كهذا يا غيم! فيمَ سيفيدني من ظل صامتاً لآخر لحظة، ولم يتحرك إلا حين عُصَّ رغيه، أو لعله لم يتحرك حتى؟! من يسعى وراء الرغيف، ولا يصدّع رأسه بمبدأ أو غاية بعيدة؛ فإنني قد أشفق عليه، أو أساعده، أو أوعيه،

لكنني لا أعتد عليه! ربما نظرنا في أمر البعض ممن بدوا صادقين في رغبتهم بالمساعدة، ومن غير ورايهم فينا، لكنهم قلة. والآن، بعد أن سمعت الإجابة التي سألتني لأجل سماعها أيتها الماكرة، اخلدي للنوم، أحلاماً سعيدة.»

- «غيم، تعالي بسرعة! ماذا تفعلين هناك؟ تلفلين شعرها حول نفسه؟ لن تنجحي، شعرها ناعم ومنساب، لا يقبل اللف ولا الدوران!»
- «لسبب ما أشعر أنك تسبّني، لكنني عاجزة عن إمساك السبّة بالتحديد!»

أخذ يضحك، بمرح ظاهرياً، وبتوتر شديد كما استشففت من اهتزاز جسده المفرط. كنت قد قضيت الساعة السابقة كلها في محاولات لتطويع شعر تبر لأي تسريحة تناسب الزفاف، وأبى إلا أن يبقى منسباً، وحتى بعد أن تركت مسرّة ما تفعله وأنت لمساعدتي، بقيت غير راضية تماماً عن النتيجة، أين أمي وخالتي حسناء حين يحتاج المرء إليهما؟ بالنسبة لوضعي مع مسرة، أو وضع مسرة معنا بما أنها هي القادمة؛ فإنها أنت واجمة ومكلومة ومصدومة كما يجب أن تكون فتاة فقدت والدها، ولعله قتل أمام عينيها، وإن رفضت الاعتراف بتفاصيل ذلك اليوم. المهم أنني كنت أفهمهما بالكامل، لقد تلقيت الخبر نفسه في اليوم نفسه؛ لذا حرصت -ما إن أفقت من سكرة حزني- على أن أساندها وأشعرها بأننا معها، إلى أن ينتهي كل هذا على خير، وتجتمع بأمها وإخوتها من جديد. كانت مسرّة لطيفة ودمثة كعاداتها، وحتى تبر لم تستطع مقاومة سحرها برغم مشكلتها الشخصية معها، الأهم أنها كانت متعصبة كثيراً للمعسكرين -كما أصبح اسمنا بالتبعية-، وأصبحت متحمسة لمساعدتهم بكل ما تستطيع، متحمسة لحد لم أرها عليه حين كانت صفراوية. بصراحة، لا يسعني الإنكار، مسرة لم تكن مثلهم من البداية، وإن كانت قبلت

لنفسها الاندراج تحت مساهم لضعف شخصيتها أو لأي أسباب أخرى؛ فإن هذا لا يعني أنها تشبههم بأي شكل، الحق أنني بالغت كثيراً في نبذها، وأسأت إليها أكثر من اللازم، وقد عزمت على الاعتذار إليها في أقرب جلسة صفاء. قبل العودة إلى الزفاف وتفصيله، أخبرتني مسرة أن أريج قتلت، رأت الحادث بعينيها، رأت الصفراويين يقنعونها بالخروج لسرقة بعض الطعام من الأعداء، استغلوا حماسها للصفراوية، واختاروا التضحية بها، ابنة الحداد عديمة القيمة! حسناً، لقد علقوها على شجرة، وقطعوا أطرافها ببطة، ثم تسلبوا بها قليلاً قبل أن يقتلوها. وراقبت مسرة ذلك كله من مخبأها مع الفرقة. على ذكر الحمقاء المتعصبة، لقد كانت المسؤولة عن دس المنّ يوم السباق الأول، وأول من غرس النبتة الغازية المشؤومة في أراضي قريتنا، أخبرني شهاب أن الكثير من الفتيات كنّ يشجعن ذويهنّ عند الغابة، لكنه لم يحزر أن أريج تحديداً لا تملك إخوة ذكوراً، وأن هدفها كان مختلفاً.

- «خذي هذا، لا تعتقدي أنني نسيت هدية زفافك!»

تناولت منه دورقاً زجاجياً مملوءاً أسود في حيرة، ثم ارتفع حاجبائي في استيعاب مفاجئ.

- «عصير عرق سوس؟»

- «أجل، أعدته بنفسي، وأحببت أن تذوقيه قبل الجميع، لكن...»

وأعاد أخذ الدورق مني.

- «لا أظنك بحاجة إلى هذا كله، أنت فقط بحاجة إلى تذوقه.»

بحيرة أحضرت كأساً وعباته بالعصير، لكن ساري أوقفني وسحب مني الكأس، وأفرج ما فيه داخل الدورق لتتصاعد على سطحه فقاعات عجيبة الشكل، وترك لي ما يكفي لرشفة في القاع.

- «هيا، أريد رأيك.»

قالها بابتسامة غريبة كأنه يخفي شيئاً، بتوجس وضعت الكأس على شفتيّ ورشفت ما فيه، فقط لأفלתه وأسعل بانزعاج، التقط ساري الكأس قبل أن يسقط، وداهمته نوبة ضحك وهو يتأملني أحك لساني بأصابعي لأزيل طعمه.

- «يا إلهي! كيف تشربه؟ إنه...»

- «أخبرتكَ! أتعلمين؟ خذي، اجعلي تبر تشرب!»

قالها بحماس مفرط وهو يصب المزيد، أعانك الله على هذا المخبول يا أختي الحبيبة! بدافع من الصوت الشرير في داخلي أخذت الكأس، ودخلت على تبر به، وطلبت منها تذوقه. وضعته على ثغرها وجرعته مرة واحدة، كانت مطمئنة كثيرة لأنني أخبرتها أنه من ساري، وحين كانت ترسم على وجهي ابتسامة مشابهة لابتسامة ساري، خيبت ردة فعلها آمالي. لقد أنهت تجرّعه دون أن تظهر على وجهها إلا تقطعية لا تكاد ترى في البدء، ثم لعقت شفتيها بتلذذ حين أنهته، وأعادت الكأس إلي.

- «اشكركه، إنه.. منعش جداً!»

هل يمكن أن يصل التوافق إلى هذا الحد المرعب؟!

- «لا أحب الحرب، عصير الخالة حسناء كان لذيذاً للغاية، أما هذا الشيء الذي يعده ساري...»

ثم مط شفتيه باشمئزاز، ضحكنا أنا وأنور، وضحك شهاب، كان قد عاد بحشيته إلى المخزن، لكن التجديد أنني من سيرحل؛ لأن الفترة القادمة

ستكون عامرة بالترتيبات، وسيكون على أنور أن يقابل القادة في كل وقت من أوقات اليوم. لكن أنور لم يكن مستعداً للتنازل عن التحدي، خاصة بعد أن عاد من لقائه مع القائد راسخ بابتسامة مندهشة كمن لا يصدق كيف جرت الأمور. بثقة أخرجت الورقة من تحت وسادته حيث وضعها وناولتها له، وحين فتحها بحماس ليقرأ ما فيها، وحين فغر فمه بذهول وأخذ ينقل ناظره بيني وبينها غير مصدق؛ أن لي أن أطلق ضحكة انتصار، وأن أعلن فوزي بضمير مرتاح.

- «لا يعقل، اعترفي، لقد اتفقتما على هذا حين كنت عندهم!»

- «لقد أخبرتك بكل ما حدث حين كنت عندهم، لا تحاول!»

أعاد قراءة السطور بصوت عالٍ كأنه يستوعب:

- «سيخبرك أن الطريقة ليست طريقة أصلاً، وأنه ارتجلها من عقله، وأعطاك إياها رغبة منه -فقط- في عودتك لسؤاله، وليطمئن إلى صدق هدفي، سيقول إنك تأخرت في القدوم إليه لكنه مسرور لأنك عدت في نهاية المطاف.»

رفع رأسه عن الورقة وفرك جبينه مع ضحكة مدهوشة.

- «كيف عرفت أن هذا ما سيحدث؟ وبالحرف!»

- «هل أكمل لكما الحوار الذي دار بينكما؟ يا أنور العزيز! توقف عن الاستهانة بي، لقد فكرت، فقط، هذا كل ما فعلته لأعرف. المنطقي أن هذه ليست الطريقة التي سار عليها الحاكم جسّار للوصول إلى سر الخلود، وليست الطريقة التي اكتشفها جدّه من قبله، وليست الطريقة التي حاول الحاكم جلال تطبيقها، الحقيقة أن كل واحدة منهن كانت مختلفة عن الأخرى كلياً! أنعرف لم؟ هيا، وقتك لتفكر!»

- «لأن.. سأخن، وسأقمص روح غيم! لأن الطريق إلى الوهم، هو طريق وهمي بدوره، ولأن سر الخلود بلا وجود، وعلى من يسعى وراء شيء لا وجود له، أن يسير في طريق لا وجود له!»

- «من الواضح أنني مؤثرة فعلاً. بناءً على ذلك، الحاكم رشيد لم يكتشف شيئاً، لكنه تظاهر بأنه فعل، ضمن لنفسه سطوراً باقية في كتب التاريخ وأذهان المتأخرين، ظن أنه خلد بهذا الشكل، لكنه رحل، قبل أن يدرك أنه لا فائدة لخلود الاسم في عالم زائل! ورحل من قاتلوه لانتزاع السر، وبقيت الأسطورة حية، وبقي المخدوعون يلاحقونها بلا جدوى. لكن سر الخلود بسيط، ومعروف، والوصول إليه لا يتطلب إلا قلباً جسوراً، وحكمة نافذة، ونيةً صالحة، والأهم: ألا يخالط الرغبة في الخلود الأبدي، في الجنة، بإذن الله وبتوقيقه ورحمته، أي رغبة دنيوية أخرى!»

ابتسم أنور، نهض وسار عدة خطوات بشروء، ثم قال:

- «لقد فعل القائد راسخ ذلك ليختبرني، أراد أن يرى إن كنت سألاحق سر الخلود كما فعل آبائي، أم أنني حقاً شخص مختلف.»

- «وأظنك لم تدع له مجالاً ليندم!»

- «كله بفضل الله ثم بفضلك يا غيم!»

ابتسمت بمعنى: (ألم تنس شيئاً؟)؛ فقال بمرح:

- «بالطبع، هيا، قولي، أيّا كان ما ستطلبينه فهو مجاب!»

- «لن أطلب الكثير، ربما، أن تُشركني فيما تفعله فقط، وأن.. تستمع إلى الخطة المتواضعة التي فكرت فيها؟»

اقترب مني وربت على خدي برفق.

- «لم تكوني بحاجة إلى تحدٍ وشرط لطلب ذلك! لم تكوني بحاجة إلى طلب ذلك من الأساس! ما أنا بدون غيم؟ سبق وقلت لك إنني سأنفرد معك بنفسك، لأننا واحد؛ فلم يختلف الأمر بالنسبة لي؟ قولي يا ملاكي، فيم تفكرين؟»

- «لماذا تهيئون تلك الكميات من الكرات الزجاجية؟»

- «لنكون مسلحين، تحسباً للحظة تصبح فيها القرية كلها تحت سيطرة الأعداء، كما هو الحال الآن.»

- «وماذا يريد الأعداء بالضبط؟ أنت تعرف، صح؟»

- «إبادة غارسي الفسائل من جهة؛ لأن ما يدعو إليه معتقدتهم يخالف مصالحهم. ولكن لأنهم يعرفون أن هذا يعني إبادتهم بالتبعية؛ فإنهم يريدون ما يضمن فصل مصيرهم عن مصيرنا. كمعلومة لم يطلبها أحد: الناس يعتقدون أننا السبب، وأننا من بدأنا الاحتكاك بالصفراوية وبالزرق وبالخارقين فحدث ما حدث.»

- «جدياً، معلومة متوقعة، ولا أحد يهتم بما يظنه هؤلاء، لو كنا نعمل لأجلهم فإن جحودهم سيحرقنا ويؤلمنا، بل ويجعلنا نموت كمدًا بعد أن سخطوا علينا، لكننا نفعل ما نفعله لوجه الله؛ لذا فليكرهونا، أو يحبونا، لا فارق.»

هز أنور رأسه، وبقي يتأملني منتظراً ما سأقوله.

- «قلت: إبادتنا من جهة، ماذا عن الجهة الأخرى؟ أن يضمّنوا مصائرهم. هل يوجد ضمان أفضل من سر الخلود؟»

- «فيم تفكرين بالضبط؟»

- «في إعطائهم سر الخلود، ما داموا يريدونه بهذا القدر!»
فلتها بابتسامة واسعة، وشرعت أشرح لأنور خطتي.

- «أهلاً بمخططتنا العبقريّة.»

رحب بي وادع بابتسامة واسعة وهو يتكى على مقعد قرب البوابة، اعتبرت الجذوع الملوية قرب البوابة مقاعد إضافية وجلست. كانت ليلة الأمس طويلة، لكنها كانت سعيدة، احتفال غاية في الصغر، ثلاث نساء، وثلاثة رجال، وطفل. بالإضافة لعدد ضئيل من الرجال الذين تصادف وجودهم وقت الاحتفال، لا يعرفون ساري ولا تبر، لكنهم فرحوا لهما واحتفلوا بهما كما كانوا ليحتفلوا بإخوانهم. خمنت أن وادع لم ينم منذ الأمس، ربما لفكرة أن أخته تزوجت، وأنها افتقرت عنه بشكل ما، أو ربما خوفاً من هجوم مفاجئ يحل ما إن يغفل عن مراقبة البوابة، أو ربما هناك سبب لا أعرفه.

- «فيم تفكر؟ ما كل هذا الشرود؟»

- «أفكر في حالكنّ، أشعر أن ما يحدث لكنّ صعب، لا أعرف كيف تختملن ذلك لكن قلبي يتمزق.»

- «لم تتحدثون جميعكم بنفس النبرة؟ ولماذا تشفقون علينا ولا تشفقون على أنفسكم؟ نحن نقاسي البرد والخوف، وبعض المهام اليومية العادية، وأنتم تواجهون ذلك كله بالإضافة إلى حمايتنا ومهامكم الخارجية الخطرة ومخططاتكم الصعبة. نحن في مركب واحد، وأنتم تتعبون أكثر، علام تلومون أنفسكم؟»

- «فكري في تبر مثلاً، زفافها كان بالأمس، هل تشعرين أنها تزوجت

حقاً؟ ستجدين ساري الآن يكّد في المعصرة، وستجدينها محاطة بالخيوط والإبر تحاول حياكة ثياب تكفيننا. فكري في نفسك، لن أعدّد لك ما تعرفينه جيداً! فكري في ابنة الحامي وطيد، بلا عائلة ولا سند، لو خافت أو جاعت أو شعرت بالبرد، لمن يفترض بها أن تشتكي؟»

- «نحن جميعاً بخير، على الأقل في أفضل حال ممكن.»

- «كنت أتساءل.. مجرد تساؤل يعني...»

الآن سيجيب سؤالي عن سبب شروده بصدق!

- «فتاة كهذه، مسرّة، بلا أب ولا عائلة، كيف يمكن لأي خاطب أن.. يتقدم لخطبتها؟»

- «لا عليك يا وادع، ربما.. تطلب يدها من القائد راسخ باعتباره الكبير هنا؟»

- «أط.. أطلب يدها؟ لا.. أنا لا أفكر في...»

وضعت يدي على كتفه وابتسمت بحنان.

- «آه منك يا وادع، أنا غيم، بئر أسرارك! تعرف أن بوسعك إخباري بما تفكر فيه دون قلق!»

- «صحيح، ليكن.. أنا حقاً راغب في ذلك، في التقدم إليها، لكن أنظنينها توافق؟ هل تسألينها من أجلي؟»

- «بدون سؤال، أعرف إجابتها مسبقاً، ومنذ زمن، وتبر تعرف، ولعلك أيضاً تعرف!»

ارتفع حاجباه بحيرة، لم يعرف! إذن رؤيتي فيه في محلها، هو لا يرفع عينيه إلى أي فتاة، ولعله -أيام كانت تتردد على دكان أبيه بإفراط- كان يبيعها السلع

دون أن يعرف أنها نفس الفتاة كل مرة!

- «اسمع يا أخي، سأقول لك مثلما قلت لساري: لو بقيت لنا ساعة واحدة؛ فإنني أحب أن أراكم سعداء خلالها. ستطرح الأمر على أنور، وسنعرف ما عليك فعله لخطبتها، وستخطبها!»

احمرّت وجنتاه وأوماً بخجل.

- «لكن في الزفاف، لا تسقونا من شراب ساري المقزز، أفضل الموت عطشاً!»

التفتنا بدهشة لشهاب الذي ظهر من العدم فجأة، فقهقه باستمتاع وهو يرانا نتبادل الأنظار، هل عليه أن يعرف الأسرار قبل الجميع؟

- «لا تقلقا، سرّكما في بئر. على العموم، أنور يريدك يا وادع، وأنتِ يا غيم، بوسعك القدوم، لا أحد في المخزن.»

- «لا أظن أن وادع يجب قدومي في موضع التخطيط.»

- «عمّ تتحدثين؟ أنت لست غاضبة مني، صحيح؟ تعرفين أنني كنت حريصاً عليك لا غير، لو حدث لك مكروه فإنني...»

- «لن يحدث لي مكروه بإذن الله، وسأبقى على قلبك حتى آخر يوم في حياتك!»

- «فيه، ليس عليه.»

قالها ومسح رأسي بابتسامة لطيفة، ثم ترافقنا نحو المخزن.

- «المنطق يقول إن على مسرّة الذهاب، خاصة أن المهمة ليست خطيرة بشكل خاص، لكنني أخشى تحمل مسؤولية كهذه.»

قالها أنور بحيرة، لقد أرسلت الفرقة التي أحضرت مسرة رسالة إلى أنور، لقد أخفى الحامي وطيد صندوقاً صغيراً يحوي بقايا البذور، ما يميّز هذه البذور أن أكثرها لأنواع سريعة الخروج، ووفرة الفائدة، أي أنها ستكون مؤونة مهمة لنا. مسرة تعرف المخبأ، أخبرها والدها، وبقية رجال الفرقة خارج القرية، وعودتهم ليست هيّنة.

- «ماذا لو وصفت لنا الموقع وذهبت أنا لاستخراجه؟»

- «لو كان بوسعها أن تصفه؛ فإنني أظنه الخيار الأفضل، هل تسألينها يا غيم؟»

نهضت متجهة للمخزن الثاني، لوهلة كدت أسأله بخصوص وادع، ثم تذكرت ما أتيت لأجله فعدّلت مساري. لدهشتي اشتعلت حماسة مسرة فجأة، وأخذت ترجوني أن أقنعهم بذهابها شخصياً.

- «لقد نصرت الصفراوية يا غيم، لا تعرفين كم يثقل هذا ضميري! أشعر أنني كنت مشاركة في مقتل المعلمة رؤية، وأديم وأريج، بل وفصل أبي من الحماية ثم قتله، وفي دمار منزلكم، وفي حبس عمي مدرار، لقد تلوثت يداي بكل تلك الدماء والذنوب، وأنا راغبة في فعل أي شيء يكفر عني!»

- «لا أرى ضرورة لهذا، أنت لم توافقهم من البداية، وأقصى ما فعلته أن سكّت عن مخططهم للإيقاع بعمي جواد، وأنتك حكيت لزنبق عن أمر رؤيتنا بالكرة الزجاجية، وفعلت ذلك بغير قصد. بكل الأحوال، الجميع يخطئ، وليس عليك تعريض نفسك للخطر لتثبتي توبتك!»

- «غيم، أرجوك، لا شيء سيريجني غير هذا، وكما قال زوجك، المهمة ليست بتلك الخطورة، الموضوع بعيد ولن يحمّنه الأعداء، ولا بد أن رجالنا لديهم ترتيبات وطرق لتأمين طريقنا!»

تنهدت، وعلى مضض أجبت:

- «سأعرض الأمر على أنور ووادع، وسأرى.»

عدت لأنقل إجابتهما، لكن وادع أوقفني عند الباب، لقد استدعى أنور الرجال ليعطيهم التعليمات لهذه المهمة.

- «لماذا؟ ما الذي تريده بالقدوم؟!»

قالها وادع بانزعاج شديد؛ فهزرت كتفيّ بمعنى أنني خارج الموضوع. خرج الرجال من عند أنور، وتبادلوا بضع كلمات -من بعيد- مع وادع، باعتباره قائدهم في المهمة القادمة. دخلنا على أنور وهو يخطّ شيئاً على ورقة، وأخبرناه بما جرى؛ فمط شفتيه بلا مبالاة، كأنه يقول: (لتذهب ما دامت تريد). رفع الورقة إلى وادع الحائر من ردة فعله، وقال بابتسامة مطمئنة:

- «هذان خطأ سير الفرقتين، فرقة القائد وادع، وفرقة القائد شواظ من المعسكرين، أخبرني الرجال -المبعوثون من عند القائد راسخ- أنهم هبّوا كميناً لجند العدو، سيسربون إليهم معلومات مزيفة عن وجود أعداد من المعسكرين داخل مبنى محدد، وسيجتذبون قوّاتهم إلى هناك، الأعداء جبناء بما يكفي ليركزوا تفكيرهم وتركيزهم على هذه المعلومات، وسيكون الطريق خالياً لكم، ريثما يحاصروهم رجالنا هناك ويرسلونهم بالجملة إلى جهنم.»

كان مسروراً جداً وهو يتحدث، لكنني لم أشعر بالراحة.

- «أنت واثق؟ أعني.. أليس من الغريب أن يرتب القائد راسخ كل هذه المخططات دون أن يشركك فيها؟»

- «لقد أشركني، فقط لم يستطع الرجال إيصال الأمر لي إلا الآن. لاحظي أن فرقة وادع كلها ستسير على تخطيطي يا غيم.»

- «لا زلت غير مرتاحة، هناك شيء ما خطأ.»
 - لم يُبدِ وادع ميله لرأي بعينه، لكن أنور لم يبدِ راضيًا عن عدم رضاي.
 - «غيم، ما بك؟ هل تشكّين في القائد راسخ؟»
 - «إطلاقًا، لكن.. لا أعرف حقًا.»
 - «مجرد شعور؟ أم أن هناك ملاحظات حقيقية؟»
 - «أظنه.. مجرد شعور.»
- ابتسم برفق وأخبرني أن كل شيء سيكون بخير، ناقش مع وادع فكرة غرس بضع فسائل وبذور في تلك المنطقة، قرب البحيرة، منطقة الغابة التي أسميناها بذلك تجاوزًا، الآن لم يعد بوسعنا حتى التجاوز بشأنها! المهم أن التربة خصبة في تلك الجهة، وقد تم تطهيرها بالنيران عدة مرات من قبل، والوقت سيكون سانحًا مع انشغال جنود العدو. أما عن مسرة وصندوقها؛ فسيكون من الأفضل أن تقترب من المخبأ راجلة، وتترك حصانها على بعد مسافة كي لا تجذب انتباه حرس محتملين، وسيكون على وادع ورجاله العمل قريبًا منها، وحماية ظهرها. أنها حوارهما وتم الاتفاق على بدء المسيرة ما إن يهبط الليل، نهضت لأعلم مسرّة، لكن أنور أوقفني وهو يقول بابتسامة مرحة:
- «لم لا تأخذ غيم معك يا وادع؟»
 - «أنا؟ إلى أين أذهب؟ ماذا أفعل معهم؟»
- رفع حاجبيه في دهشة ضاحكة.
- «أنت لم تخرجي منذ.. لا أذكر منذ متى! اخرجي يا فتاة، وازرعي معهم نبتة أو اثنتين، ستستمتعين.»

- نظرت لوداع فوجدته يلوي فمه بضيق، لو ذهبت فسأذهب برغمه.
- «لا داعي يا أنور، وادع سيتحمل مسؤولية حماية مسرّة، وليس عليّ تحميله عبئاً إضافياً، أنا بخير هنا.»
- «هل غيم عبء يا وادع؟ ها؟»
- كان مرّحاً كثيراً، شعرت ببعض الراحة لأنه يرى المهمة بسيطة لهذا الحد، لا بدّ أنه أدري، لقد خاض الكثير من المهمات من قبل.
- «لا أعرف حقّاً يا أنور، لا أحبّد الفكرة أبداً.»
- «يا رجل! أنت تبالغ في الخوف، خذ اختك أيضاً، فلتكن هذه فسحة لهم، لقد اختنقنا في المزرعة والمخازن!»
- «الحقيقة أنهما ستختنقان لو خرجتا من المزرعة! بالإضافة، لن نعدم هجوماً من أي ناحية يجعل كل ترتيباتنا تذهب هباءً، ووقتها لن أكون سعيداً لو حدث...»
- «لا تبالغ، ستأخذهما، وستعود بهما، وسأخرج لساني وأنا أخبرك أنني كنت محقّاً كالعادة.»
- زفر بضيق وأوماً، لا يريد إطالة الجدل، برغم ذلك هو غير مرتاح، بالنسبة لي، كنت متحمسة كثيراً في الحقيقة، خاصة أن أنور لن يخاطر بنا ما لم يكن واثقاً من أننا سنكون في أمان. ركضت للمخزن لأخبر مسرّة وتبر بقرار أنور؛ فكان قرار تبر هو:
- «اذهبوا إذن، سيبقى ساري، صح؟»
- «هل الزواج يجعل المرء ذاهلاً عما حوله إلى هذا الحد؟»
- ابتسمت بخجل ودفعني بمشاكسة؛ فضحكت أنا ومسرّة. في المساء

تجهّزنا، بفرح استثنائي، مشطت سعف جناح وزيّنته بالزهور، رأي ساري فأخذ يسخر مني ويخبرني أنني لم أتصرف هكذا حتى في الأعياد، وحين رأي أربط خنجر وادع على خصري طالبني -بمرح- ألا أعود إلا وقد استعملته؛ فوعدته، أقسم أننا كنا نمزح! سار وادع بنا عبر الطريق الأطول؛ لأنه لم يُرد أن نرى المشاهد (الوحشية) في ساحة القرية وما حولها، شعرت بالرجال يسبوننا في سرّهم، لكنني كنت سعيدة برغمهم، نستحق تضحية كهذه. كان الطريق طويلاً، لكنني لم أشعر بالتعب، كنت طفلة تطالع كل شيء بفضول ونهم، كأنني لم أرقية من قبل. لم أكن واثقة تماماً من أن مسرة تعرف الموضع بدقة، لكنها كانت بارعة في التظاهر بذلك على كلٍ. استطعت الاقتراب من وادع بحصاني.

- «أسفة لأنني أتيت برغمك.»

- «غير صحيح، أنا سعيد لأنك معي، ولأنك سعيدة. أنا فقط.. لعلكم محقون برغم كل شيء، أنا أبالغ قليلاً، أو كثيراً، ساري وأنور حريصان عليك بنفس القدر، ولا يفعلان ما أفعله.»

- «لكل طريقته يا وادع، وتأكد من أننا لا ننزعج منك، نحن نحب مرافقتك فقط يا أخي.»

ابتسم بامتنان، لم أقلها مجاملة، أنا أثق أنني آمنة مع وادع أكثر من أي أحد في العالم. كان أكثر راحة بعد قرار تبر بالبقاء في المزرعة، على الأقل سيحامي اثنتين بدلاً من ثلاث.

- «أتعلمين؟ سعيد لأن تبر تزوجت، وأنت أيضاً، الآن أضمن أن هناك من سيحميكما ويعتني بكما إن.. حدث لي شيء، على الأقل سأرحل وأنا مطمئن عليكما.»

قطبت حاجبيّ بقلق، لا أحب إكثاره من هذا الكلام. من باب تلطيف الأجواء، وإشغاله بشيء محرج، سألت:

- «لم تخبرني، كيف حصل عليك بائد؟»

توهّج خداه كما توقعت، قال بخفوت:

- «لم أحب أن تريني بتلك الحالة، لكنك الشاهد الوحيد على كل حالات ضعفي منذ زمن. لم يحتاجوا إلى الكثير من التحايل، أخبرني بائد أن قاسط.. يضايق تبر، لو فكرت لدقيقة كنت لأدرك أنه من المستحيل أن ينقل بائد خبراً مشابهاً لي عن صديقه قاسط! لكن تعرّض قاسط وحومه المستمر حول تبر مؤخراً جعلني مستعدّاً لتصديق أي شيء.»

- «هذا يجزّ سؤالاً آخر، ماذا يريد قاسط من تبر؟»

نظر إليّ وابتسم، قال وخداه يحمّران خجلاً:

- «تبر محققة بشأنك، أنت ماهرة في استنتاج الخوافي، لكن ليس الواضح! لمَ تظنين أنه تغاضى عن إهانتها له أمام الجميع يوم السباحة؟ ليس لأنه أصفر نبيل كما يزعم بالطبع! الحقيقة أنه أحبها، وبرغم أنه كان رمز الصفراويين، إلا أنه كان أقلهم مبالاة بالصفراوية، ربما لكونه جزءاً من المنظومة الكبرى التي لا تأبه بلون الأعين. ولعل هذا هو السبب في احتراق دكانهم ومخازنهم.»

- «أنه أراد الزواج من تبر؟»

أغمض عينيّه كأن الكلمة آذته.

- «بل لأنه تراخى في الزواج منها. هذا ما أجمع عليه أنور وأبي وعمي مدرار، لقد ظنوا أن حصول قاسط على تبر سيجعلنا في جيوبهم، خاصة مع اضطهاد أهل القرية لنا. ولهذا جن جنون قاسط واتهمني بأنني السبب في

تدمير ممتلكاتهم، حسناً، لقد كنت السبب، حين وقفت في وجهه ورفضت جعله يقترب من تبر أو يعرض على أبي الأمر حتى!

- «هل تقول إنه حاول قبل زواجي؟ منذ ذلك الوقت؟»

رفع حاجبيه بمعنى نعم، ثم ابتسم لي بمعنى: (انسي الأمر). توقف حصان مسرة، وأخذت تتلفت حولها بنوع من الشك، ناولني وادع الخريطة المرتجلة التي رسمها أنور؛ فأعطيتها لها، أو مأت بفهم -للعجب- وأشارت إلى منطقة قريبة، أوقف وادع الرجال، وأنزلوا صناديق الفسائل، والقليل من البذور التي سنغرسها في هذه الجهة. وفي حين كنت أستوعب -بذهول- أن هذا القفر هو ما ألت إليه الغابة، ترجلت مسرة عن حصانها؛ فأمر وادع رجلين بتتبعها والتأكد من سلامتها، ابتعدت عنا مسرة، في حين أسرع وادع بإيقاف الرجال قبل أن يفتحوا الصناديق، فتح هو صندوقاً، وأخرج منه فسيلة، وناداني لأقترب منه. اقتربت بسرعة فناولني نبتة عرق سوس صغيرة، وقال بابتسامة واسعة:

- «لا أحد سيغرس بذرة هنا قبلك، هيا يا جميلة!»

شعرت بالدوار مع كل ذلك الكمّ من النظرات الموجهة إلي، التقطت منه النبتة وجثوث على ركبتني، حيث أنا، وأخذت أحفر التربة ببطء، جثا وادع بدوره ليساعدني في الحفر، قال بلطف:

- «اشتقت للزراعة؟»

- «أكثر مما تتصوّر. آخر شيء توقعته أن نصل إلى هنا بهذه السهولة، وأن أستطيع الزراعة دون أن يعترض طريقنا...»

صرخة قصيرة بترت كلامي، هبّ وادع راكضاً إلى مصدر صرخة مسرة، ركضت وراءه بين الرجال الشاهرين سيوفهم، وقبل أن أجد ذراع

وإدع يعترض طريقي بقوة، استطعت رؤية جسد مسرّة الراقد على الأرض، وسط بركة من الدماء، والسهمين المنغرزين في قلبها وساقها، ركز عقلي على شيء واحد: هوية الرامي! الزرق لا يبرعون في الرماية، هم أمهر الناس في استخدام السيوف، لكن الصفر أمهر في الرماية، القاتل أصفر، صفراوي لو جاز لي التوقع. دفعني وإدع بفزع جهة مجموعة من رجاله، وصرخ بقوة:

- «أعيدوا غيم سالمة، اعتنوا بها!»

لم أستطع أن أعترض، لم أستطع مقاومة الرجال وهم يسحبونني بصرامة، لم يكن أحدهم مستعداً للمهاودي، ولم تفلح صرخاتي المتوسلة في جعل وإدع يلتفت، لقد أخرجت مسرّة الصندوق، وقد كان مليئاً بالبذور، ووإدع مستعد لبذل حياته ثمناً لهذه البذور، وليس مستعداً للتنازل عنها بأي ثمن، ولا عن جثة مسرّة، إن كانت قد ماتت. ركبت جناح المذعورة مثلي، كانت تركض في اتجاه، وقلبي وعينا وصرخاتي عالقان في الاتجاه المعاكس، توقفت فجأة فسقطت عنها، بلا استيعاب نظرت إلى ما أوقفها؛ لأجدنا محاصرين، الرجال يشكّلون حلقة حولي، والأعداء يشكّلون حلقة حولهم، على رأسهم قاسط، ميّزت وجوده ما إن اصطدمت عيناه بعينيّ، بغل صرخ يأمر رجاله بتمزيق رجالنا دون رحمة، وتركبي له! هو لم ينسَ قتلي لأخته بعد، لكنه لم يحزر، سألحقه بها، بخنجر وإدع، وسأفي بوعدي لساري! دارت معركة طاحنة، كان مخبئي فيها ما بين حوافر جناح، كنت أعرف أنها ستحميني، وستحرص على عدم إصابتي تحت رقصاتها الفزعة المجنونة. أغلقت أذنيّ بيديّ وأخذت أصرخ بأعلى صوتي، لكن أحداً لم يسمعي، ولم أسمع نفسي، وجدت فرجة تشكّلت أمامي فجأة، ليس في طريق العودة، بل في الطريق الآخر، حيث ذهب أخي، بلا تردد ركضت عبره، فقط لأصطدم بعيني قاسط الحاقدتين من جديد، بعيداً هذه المرة، يشدّ سهماً داخل قوسه، لا يوجهه تجاهي،

بل تجاه قلبي، تجاه وادع في الجهة الأخرى، كان أخي ينزف، يولينا ظهره ويحفر بهمة في الأرض، وبكل حرارة يللمم البذور المتناثرة، ويلقي بها في الحفرة، بكل قوتي ركضت، وبكل ذعري من رؤية أخي يُمس بسوء انتزعت خنجري، سأقتل قاسط، سأصل إليه وأطعنه، المسافة بيني وبينه أقرب من المسافة بين يده والسهم، شيء ما جرحني، سهم طائر، لا أعرف من أين، ولا أين أصابني، لكنني رأيته يمزق ملابسي دون أن أشعر به، لم أتوقف، لقد وصلت، عيناى على السهم، ترجوه، تتوسل إليه، لا تتطلق! كن أرحم بي من حاملك! لقد وصلت! رفعت خنجري بكل قوتي، لكن ثانية كانت فارقة، استدار وادع ليصرخ فيّ، أراد مني أن أبتعد، أفلتت الأصابع الدموية السهم، واستدار الوجه القبيح ينظر إلي بابتسامة شماتة لم تكتمل، أوقفها خنجري الذي انغرس حتى مقبضه في عنقه، لم أره وهو يسقط، ولم يع عقلي كنه ذلك الصوت الشنيع الذي أصدرته حنجرتة، نفس الصوت الذي أطلقه الكلب المسعور يوم قتله أنور. ركضت خلف السهم، يداى تسبقاني، أرجوك انتظر، لا يمكنك، لقد انغرز في صدره، وألقاه أرضاً بمتتهى العنف. قفزت على أخي، أهزه، أربت على وجهه، أرجوه، أصرخ في أذنه، لا يمكنك تركي يا وادع، لا شيء فيه يتحرك، آخر ما فعله كان أن حرك يده، وسوى بصعوبة موضع التربة فوق البذور، امتدت يدي نحو السهم، هل لو انتزعته، سيعود كل شيء كما كان؟ بيد مرتجفة هزته، ثم تركته، خفت أن أخرجه فيخرج معه قلب وادع، لم أرد رؤية قلبه الرقيق الطيب وهو ينبض لآخر مرة، أخذت أبكي، أرجوك يا وادع، فقط انظري، لا تثبت عينيك في الفراغ هكذا، كلمني، أخبرني بسر جديد، أظهر ضعفك أمامي، أو احتو ضعفي كما فعلت دائماً، خيط من الدموع انساب من عينيّ وسقط على قلبه، ليوصل رحلته على هيئة خيط من الدماء، أم لعل بكيت دماً منذ البدء؟ رأيت الخيط ينساب بنعومة، كأنه جدول الماء الجاري في أرض حيّان، كانت الأرض تمتص دماءه،

وكان مصرًا على مرافقة البذور التي زرعها حتى النهاية. حركت يديّ أمام عينيه الزرقاوين، هل تراني؟ لقد كانت عيناك جميلتين يا أخي، كانتا! سمعت أصوات سنابك خيول، وأصوات التحام تعلو من جديد، لكنني لم أكن هنا، دفنت رأسي في كتف أخي الذي أسندني دائمًا، الذي كنت أحتمي به، وأشكو إليه، ويضممني إليه بحنان، سحبت يده، امسح على رأسي يا وادع، مرة أخيرة فقط، لا تتركني دون وادع!

- «لا تتحركي، أنتِ مصابة.»

ميّزت صوت تبر المتحشرج؛ ففتحت عينيّ دفعة واحدة. كانت منحنية على كتفي تتفقدّه بيد مهزوزة.

- «أين وادع؟ هل أدركوه؟ لقد كان أمامي، فقط كان علي انتزاع السهم، هل فعلوا؟ هل انتزعوه دون أن يخرجوا قلب...»

توقفت فجأة كما بدأت فجأة، دارت عيناى لتنظرا إلى تبر، ارتجفت شفتاها، ثم قفزت إلى الوراء بعنف، وغطت وجهها بكفيها.

- «لم يدركوه، لقد انتهى، أخي لم يعد، نصفى مات! دفنوه ليلاً وبالسر، كأنهم يدفنون كلبًا أجرب، لقد مات يا غيم!»

أفاق عقلي فجأة، واستوعب كل تلك الصور المتوالية، لقد مات وادع! مات بين يديّ، كانت بيني وبين إيقاف السهم ثانية، لكن أخي قتل، سبقتني ثانية، وانتزعت روحي مني، أمام عينيّ! نهضت غير آبهة بصرخات كتفي الحارقة، أحطت تبر بذراعيّ، وأخذت أبكي معها، عقلي يسترجع كل مرة رأيته فيها، يسترجع بكائي بين ذراعيه يوم أذنتي حلية، يذكر هيأته مقيدًا بالحبال يوم المحاكمة، يذكر اليوم الذي رافقني فيه لاستخراج البذور من

النباتات، يذكر اليوم الذي كاد يفقد فيه عقله حين رأى بائد يقترب مني، يذكره صباح الأمس، وهو يخبرني أنني في قلبه! لم أحزر.. لم أتوقع إلى أي حد كنت مصيبة حين أخبرته أنني سأبقى على قلبه، وحتى آخر يوم في حياته. تدور الصور وتدور، وثبت صورة السهم المغروز في صدره، وجبني عن انتزاعه، وتحيل لقلبه الرقيق المتوقف عن الخفقان!

دخل علينا ساري، كانت عيناه دامعتين، وأنفه أحمر، أحاطنا بذراعيه وضمنا إليه، بكينا على صدره طويلاً، وحين فارقنا، كانت تبر قد نامت، أو فقدت الوعي. أراحها ساري على الحشية وغطاها، خرجنا معاً، كنت أرتجف، وأوبخ نفسي، لم تأخرت؟ كانت ثانية!

- «بطلة، أخذت ثأره قبل أن يصل السهم إليه!»

- «وفيم أفادني ذلك؟ هل أعاد إلي أخي؟ لقد فقدته، للأبد!»

لم أستطع منع دموعي من الانهيار، كأن بحار العالم كلها تحتبئ خلف عيني، منذ الليل أبكي، منذ اللحظة التي سلمني فيها لرجاله وفارقني، لماذا يا وادع؟ لطالما حرصت على مشاعري، لطالما انتقيت كلامك وتصرفاتك كي لا تؤذيني، ولو بقيت أحاول للأبد؛ فإنني لن أتذكر لك موقفاً سيئاً؛ فلم؟ لم جعلت آخر مواقفك معي بهذا الألم؟ لم أصررت على جعل السهم ينغرز في قلبي إلى الأبد؟

بصعوبة هدأني ساري، سقاني غرفة أخرى من عصير العنب، وحين وجدني على وشك البدء من جديد، أسرع يشغلني بالكلام:

- «كان كميناً، لو استمعنا لكلامك... قدر الله وما شاء فعل! المعلومات

لم تأت من القائد راسخ، بل من ابن أخيه الزرقاوي اللعين، لقد تأمر مع العدو، ودبر لنا هذا الشرك، وأرسل الرجال ليخبرونا بما أخبرونا به ظناً

منهم أنها أوامر القائد راسخ! لقد اكتشف الأمر بسرعة، وتم إعدام الخائن، لكن.. لكن المساعدة لم تصل بالسرعة نفسها، جن جنون أنور ما إن علم الخبر، أسرع بحصانه دون انتظار القوّات، كان عليه أن يقاتل بمفرده لوقت لا بأس به قبل وصول الآخرين.»

- «هل تمهد لخبر آخر أم أنني أتوهم؟ أين أنور؟ هل أصابه مكروه؟»

- «اهدئي، هو من عاد بك، إنه بخير، لكن معه رجالاً في مخزنه.»

أسندت رأسي إلى الجدار بألم، واتجهت أنظاري صوب البوابة، مكانه الدائم وقت تواجده، كان يرفض تركها بلا حراسة لحظة واحدة!

- «مسرة؟»

- «لم.. يدركوها.. آسف..»

لم أعتذر إليها، كنت أنتظر لحظة صفاء! وجدت وقتاً للزفاف والاحتفال واللعب، لكن لم أجد وقتاً للاعتذار!

- «غيم، مم أصبت؟»

هززت كتفي بعدم معرفة، فقط ليمزق كتفي الأيمن من الألم، أزحت ملابسي ونظرت إلى القماشة التي تلف كتفي تحتها.

- «جرح سطحي بحمد الله، طار عقلي شعاعاً حين وضعك أنور عندي

وس... ورأيت الدماء تغطيكَ، استغرقت الكثير من الوقت والفرع قبل أن أعرف أن جرحك ليس مصدرها.»

أومأت، هناك شيء حول أنور، لكنني لا أقوى على السؤال.

- «نامي، أنت بحاجة إلى الراحة.»

- «هل تظنني أستطيع؟ مشهد السهم المنغرز في قلبه لن يفارقني ما حييت، لقد قتل أمام عيني يا ساري.»

- «هذا يكفي، أرجوك توقفي، قلبي يتمزق! هل أحزن على وادع أم على حالكما؟ سنلحق به، عاجلاً أو آجلاً! المهم أنه مات بطلاً، وهو يدافع عن معتقده ومبادئه، لا تحزني عليه يا غيم، بل افرحي لأجله!»

نبرته تتأرجح بين الانهيار والثبات، ألقيت نفسي على كتفه فوضع يده على رأسي برفق، قلبت بصوت مختنق:

- «ساري، أنا أرجوك، أرجوك يا أخي...»

- «لا تكلمي، أنا هنا، جوارك، لن أترك أبداً، أعدك.»

بدأت نوبة بكاء جديدة، لم تنته إلا بغياي عن الوعي.



لماذا لا يقابلني أنور؟ سؤال يثير جنوني، هو يرفض دخولي عليه بشتي الطرق، ودائماً يمنعني ساري من تجاوز الباب، ويزعم أن هناك رجالاً بالداخل، لا أحد بالداخل، ووجه ساري يكذب بوضوح؛ فما الذي يخفيانه؟ ولو كان هناك رجال بالداخل، لم لا يخرج أنور إلي؟ لم لا يطمئن علي ويعزّيني ويطمئني عليه؟ هناك شيء خطأ!

كنت أتردد على جناح، وأعتني بجرحها في رقبتها، سطحي مثل جرحي، لكن روعها لم يهدأ منذ ذلك اليوم. تبر أيضاً لم تهدأ، كنت أستيقظ كل ليلة على صوت بكائها، وحين أنهض لأهدئها، ينتهي بي المطاف أراقب دموعها الميته على شفا عينيها النائمتين، وأبكي بحرقة، كل مرة كأول مرة. شهاب بكى كثيراً، كان يحب وادع بشكل خاص، همس لي عدة مرات بأنه متألم لأن

الفرصة لم تسنح له ولمسرة بالزواج كما رغباً، لكنني أخبرته أن ما حدث لهما أسعد بكثير، لقد ماتا في سبيل معتقد اتفقا على اعتناقه، على اختلاف لوني أعينهما، وقتلا في ميدان واحد مدافعين عن مبدأ واحد، ربما لم يجمعهما حفل زفاف، لكن جمعهما ما هو أوثق وأعمق، وعزائي أنهما الآن معوضان في الجنة، سعيدان وهانئان، نحن من تأذى لاهما. سألت ساري عن مخططي، هل تأجل؟ هل ألغي؟ لماذا لا أرى استعداداته؟ وكان يجبرني -بغموض- أن الاستعدادات جارية على قدم وساق. دخلت عليه مرة بشكل مفاجئ أثناء عمله في المعصرة، رأيته يستند إلى الآلة بإنهاك ويهتز، اقتربت منه بفزع، لأجد قطرات محروقة تهطل من عينيه، وتسقط على الآلة.

- «ساري، هوّن عليك، تطالبنا بأن نهدأ، وأنت لا تهدأ!»

مسح دموعه بسرعة ما إن أحس بلمسة يدي على كتفه، واعتدل بابتسامة أجاد رسمها، حتى أنني شككت فيما رأيته قبل ثوانٍ.

- «أنا.. فقط.. يعز علي فقدانه، أشعر أن خسائرنّا كانت كثيرة جداً، في سبيل ماذا؟ ما الذي بقي ولم نخسره؟»

- «أنفسنا، لم نخسر أنفسنا يا ساري، وكل خسارة -فيما عدا ذلك- قابلة للتعويض. ثم إننا كنا نستطيع الانسياق مع التيار من البداية، لكن الله وفقنا لاختيار هذا الطريق، ها أنت ترى، الجميع يتعرض للقتل والموت بأبشع الطرق، لكن ليس الجميع يقتل لأجل مبدأ، وليس الجميع يضحي بنفسه، وليس الجميع يموت بشرف، وليس الجميع يشري نفسه بغية رضا الله!»

أوماً بابتسامة خافتة، سألني عن جرحي فالتبس الأمر علي في بادئ الأمر، ثم أخبرته أنني أصبحت أفضل، جسدياً.

- «ليس هذا ما أتيت لقلوه.»

التفت إلي بتساؤل؛ فتنحنحت وقلت:

- «لقد.. خلا المخزن الآن، لم يبق فيه غيري أنا وتبر، وشهاب بعد أن طرده أنور كي لا يبوح بما في الداخل.»

هرب بعينه من مواجهتي. تابعت بعد تنهيدة طويلة:

- «فكرت في أن نتبادل الأماكن، سأنتقل للنوم هنا، وتشارك المخزن مع تبر، ما رأيك؟»

- «لا.. لا أعرف، لا أريد تركك تنامين بمفردك.»

- «لن أكون بمفردتي، سأخذ شهاب معي.»

أطرق قليلاً، ثم وافق، وتم التبادل في نفس الليلة، قضيت الليل كله أتكلم إلى شهاب، شعرت بأنس حقيقي وأنا أتسامر معه، أخبرني عن المرة الوحيدة التي وافق وادع فيها على اصطحابه خارج مزرعة حيّان، لقد زار مخبأً من تلك التي أخفوا فيها الناجين، وقابل أطفالاً من الذين كانوا يرفضون اللعب معه في السابق.

- «أتعرفين ماذا؟ لقد أسموني البطل! والتفّوا حولي جميعاً يعتذرون إلي ويرغبون في مصافحتي!»

- «لأنك بطل يا شهاب، احمد الله على نعمته!»

- «الحمد لله، ثم شكراً لك. أتخيل ما كان ليحدث لو أنك تركتني ولم تتحدثني إلي يومها، أعني.. هل كنت سأصبح صفراوياً؟»

- «لا يهم، المهم ما أنت عليه الآن، والماضي، مجرد ماضي!»

- «ماذا عن جوهرة وبدر؟ هل سيبقيان محتبئين في منزل والدهما؟ لقد أخبر أنور أنه يخشى إعلان عودتهما حتى لا يتعرّضا للاستجواب، لكن هذا

مؤذ كثيرًا لها!»

- «لا تقلق عليها يا شهاب، إنها قويان، مثلك تمامًا، وغارسا فسائل حقيقيان، وسيتحملان أي شيء من أجل معتقدهما، صح؟»

أومأ بحماس. وحين طالت الليلة بنا، وبدأت جفوننا تثقل، وقبل أن ننام بثوان، اكتشف شهاب أنه لم يحضر غطاءه من المخزن. نهض ليحضره، لكنه تأخر كثيرًا، وبدأت أقلق عليه، المزرعة آمنة، لكن من يعرف؟ نهضت بحذر وخرجت من المعصرة؛ فسمعت أصواتًا تصدر من المخزن الأول، الخاص بأنور.

- «أيها المزعج، سبق وأخبرتكَ، لا تأتِ إلى هنا.»

- «لا توبخه يا أنور، إنه يريد الاطمئنان عليك، كن عطوفًا على أخيك ولو قليلًا.»

- «ساري، أرجوك، إنه ثرثار! سيخبر غيم بكل شيء!»

- «يخبرني بماذا؟»

شهق أنور بفزع وهو يراني عند الباب، وركض شهاب نحوي يفرك عينيه بحزن، وطأطأ ساري بارتباك، في حين كنت أتأمل ما أراه وأستوعبه على مهل، أنور ممدد على الحشية، نصفه العلوي عار ومحاط بالضهادات المدممة، تركزت عيناى على يده اليسرى، إصبعيه الأخيرين بالتحديد، وسألت نفسي بحيرة: أهما هناك؟ عادت عيناى لتتأمل وجه أنور المرهق، لم أره شاحبًا هكذا من قبل. وجواره ساري، يحمل علبة ما.

- «إلى متى كنت تنوي إخفاء هذا عني؟»

- «غيم.. حمدًا لله على سلامتك.. اهدئي أرجو...»

- «حمداً لله على سلامتي؟ هل وصلتُ للتو؟ أم أنك وصلت للتو؟!»
عض أنور شفته وازداد الإرهاق تمكناً من ملاحه، قال ساري بحذر:
- «على رسلك يا غيم، الأمر ليس كما تظنين.»
- «ما الأمر إذن؟ ليست المرة الأولى التي يتخلى فيها عني وقت حزني، لهذا الحد هو عاجز عن تحملي؟ هل من الصعب أن يترك لي كتفه أبكي عليه؟ أي زوج اخترت؟»
- «غيم! هلاً دقتِ النظر إليه مرة أخرى؟!»
- قالها ساري في نفاذ صبر؛ فتراخت مقاومتي، لم أكن غاضبة على أنور، كنت فزعة، وقلبي يكاد يغادر قفصه من قوة الخفقان. انهرت على ركبتَي جواره، ومررت كفي على ضهاداته في جزع، بفرع أبعدتها حين وصلت إلى صدره، كان شيء دبق وحي يتحرك عليه، نظرت لساري بفرع وتقزز؛ فوضّح بصوت مبحوح:
- «يسمونها (الدودة الحكيمة)، تشق الجلد وتمتص القيح والصدید من الجروح.»
- لم يقوَ صوتي على الخروج وأنا أضع يدي على خده وأسأله:
- «ماذا حدث؟ لا تقل إنك جرحت، أنا لست غبية.»
- «لقد جرحت، وطار إصبعان من أصابعي، لم أكن أستعملهما بكل الأحوال.»
- فهقه بلا روح وجاراه ساري، لكن لم يكن هذا ما سألت عنه.
- «هذا الشحوب، أعرفه جيداً، لقد رأيته على.. على وجه أبي آخر مرة، أنور، هذه ليست مجرد طعنة!»

مجددًا طأطأ ساري، وغزت الدموع عينيه، انفعالات ساري بلغت حدًا قياسيًا في هذه الأزمة.

- «سأخبرها يا أنور، اعذري، من حقها أن تعرف.»

ربت أنور على يدي بكفه مبتورة الإصبعين، ثم أبعداها بسرعة ظانًا أنني خفت منهما؛ فعدت أمسكها، قبلتها وتأملتها في ألم.

- «سهم مسموم.»

أفلت يده بلوعة، وأخذت أهدق في وجهه بلا تصديق.

- «أنت لن تفعلها، صحيح؟ ليس الآن! لقد فقدت أبي وأخي، أنور أرجوك! ستكون بخير، عدني، هيا!»

- «غيم.. أنا.. وعدتك الكثير من الوعود التي لم أستطع الوفاء بها، لن أضيف واحدًا آخر، ساعيني.»

لا أعرف ماذا كان ساري يقول بعدها، ولا ما حاول أنور تهدتي به، أذكر -فقط- أنني بكيت حتى ألمني رأسي، ومرّ وقت لا بأس بطوله وهما يحاولان تهدتي.

- «أيتها الحمقاء، لماذا تسمعين فقط ما يوافق هواك؟ لقد قلت إنه أصيب بسهم مسموم، لكنني قلت إنني عرفت ذلك من اللحظة الأولى، وأنني أعالجه منه، أرايت لم منعناك من رؤيته؟ لقد كان وجهه شبيهًا بالجنة عندما عاد بك، تحسن الآن!»

أسلوب ساري القديم، الشيء الوحيد الذي أجبرني على الاستماع، بقلة حيلة أو مات، أمسك أنور يدي بضعف وقبلها، وابتسم، أسوأ ابتسامة رأيته منه، لا تبتسم، تعاف فقط!

- «أريد أن أبقى هنا، أرجوك، لن أتمكن من النوم بعيداً، سأظل أفكر في كل لحظة عما يحدث لك!»

- «الحب، وما أدراك ما الحب!»

قالها ساري ضاحكاً فضحك أنور بتعب.

- «هل وجدت عيبي؟ أم ليس بعد؟»

لم أكن لأقول نعم، لم أكن لأصارحه بأن عيبه هو نفس عيب أنور الصغير، أنور الصغير لم يكن مغروراً، ولا ظالماً، ولا عصبياً، أنور الصغير كان فقط- قليل الثقة بنفسه، في البدء ظننت أن أنور يحاول توفيق آرائنا من باب سد الخلاف، لكنني اكتشفت أنه يفعل ذلك لأنه غير واثق برأيه بما فيه الكفاية، أنور كان بحاجة إلى التعزيز فقط، لكنني لم أفهم باكراً.

- «هل تملك واحداً حقاً؟»

ابتسم بامتنان، وأغمض عيني في إرهاق، نهض ساري ووضع يده على رأسي في طريقه، تركها خلفه كالعادة، ولم ينزعها إلا حين ابتعد عني. عاد بحشيتي وأغراضي، وحشية شهاب، هناك حسنة واحدة، لقد عرفت ما كان يخفيه أنور عني.

- «غيم، هل أنت هنا؟»

قالها الصوت العجوز المتعب، الحاكم ليس مسناً إلى هذا الحد، لكن المرض والتعب أكسبا صوته أوعاماً إضافية. كان أنور في الخارج، لأول مرة منذ أيام، أصرّ ساري على إخراجه ليتمشى ويستنشق بعض الهواء. الحق أن ساري كان بطل هذه الأزمة بلا منازع.

- «أنا هنا يا عماه، أمرك؟»

ربما كان علي أن أقول: لم تكن لتنادي لو لم تكن واثقاً من كوني هنا، ومن كوني بمفردى.

- «تذكرين حلوى الفواكه والسكر، هل تستطيعين الحصول على شيء منها؟»

بابتسامة أوامت، وكدت أنصرف لأخرج علبتي من الصندوق، لكنه أوقفني بإضافته:

- «لقد كنت من جعلك تذوقينها للمرة الأولى، صحيح؟»

إيماءة مبتسمة أخرى، مع إبحار سريع في الذكريات.

- «أحب أن تجعليني أذوقها إذن، ولآخر مرة!»

طارت الابتسامة، سألته بارتباك عما إذا كان بخير، لكنه كان ينظر إلي بابتسامته الثابتة المخيفة، ولا يرمش بعينه حتى. هرعت أحضر له علبة الحلوى، أخرجت قطعة، وبهد مرتجلة دسستها في فمه. على مهل أخذ يمضغها، وكنت أراقبه بفزع، ابتلعها وطلب كأس ماء، شربه كله هذه المرة، اعتصر كفي بيده الناحلة وقال:

- «الآن، إلى الخلود، بلا أسرار ولا محاولات، الكل آيل إليه، والسعيد من يجعله خلوداً سعيداً! هل تدعين لي بذلك؟»

- «أسعدك الله في الدارين يا عمي، وأسكنك جنات الخلد.»

أغمض عينيه برضا، ولم يفتحهما. أردت تحسس نبضه، لكن يدي المهترئة لم تساعدني، نهضت بتخبط ووقفت عند الباب، رأي ساري وأنور قتلون وجهاهما، وسرعان ما تأكدا من توقف نبضه.

- «ماذا سيحدث لها عندما يحين الوقت؟»
- «هل نملك من أمرنا شيئاً حتى نملك من أمرها شيئاً؟ استودعيها الله الذي لا تضيع ودائعها.»

أومأت مؤيدة، وأعدت جناح إلى الإسطلب المصغر الموجود هناك، لم يكن حيّان مهووساً بالخيل، لكنه لم يلغها من حساباته بشكل كامل. سرنا إلى المعصرة، هناك كانت تبر بانتظارنا، ابتسمت بارتباك حين رأتنا، قبل ساري رأسها وجلسنا بوداعة.

- «غداً إذن؟»

أوماً ساري، وعم الصمت من جديد. أقبل الصغير من الخارج، دار حول البراميل يكشفها ويفقدها واحداً تلو الآخر، والضيق يتزايد على وجهه مع كل برميل يفقده.

- «لقد استعملناه كله يا شهاب، هل تريد بعض عرق السوس؟»

- «سبق وأخبرتكَ، أفضل الموت عطشاً!»

ضحكنا، أكثر مما يقتضيه الموقف بصراحة، واستطعت تمييز انقلاب وجه ساري أثناء ضحكه، لقد أقلت لسانه مرة، وأخبرني أنه يشعر بالذنب لمزحته يوم قتل وادع، من وقتها وهو يحاذر من ألفاظه عند المزاح، ولا بد أن كلمة شهاب بدت قاسية بالنسبة إليه.

- «أنا أمازحك فقط، تركت لك القليل في ذلك البرميل.»

ركض شهاب بفرح وانقلب حتى خصره داخل البرميل يحاول غرف ما بقي فيه، ضحك ساري ونهض ليفرغه له، فيما تبادلنا النظرات الباسمة أنا

وتبر.

- « غيم، هل سبق وأخبرتكَ كم أحبك؟ »
- « لا أعرف، لكن لم أشعر بحاجة إلى سماع ذلك منك. »
- « يا لأجواء الفتيات هذه! »

قالها ساري فضحك شهاب وخرج العصير من أنفه، وضحكت تبر لأن نكات ساري تروق لها. كانت أجواء غريبة، لم تكن سعيدين بقدر ما كنا مستسلمين، ماذا لو عرفت -يقينًا- أن العالم سينتهي في الغد؟ خذ بعين الاعتبار أنك لا تملك شيئاً لتغيير ذلك! حسناً، ربما لن يكون القادم بهذه القسوة، لكنه سيكون مفرعاً بلا ريب، والظن الأكبر أنه سيكون نهاية العالم، بالنسبة لنا على الأقل! كانت فكري تتمثل في إنهاء الصراع باكراً، أيًا كانت النتيجة؛ فإن على الأمر أن يحسم، إما أن نهلك جميعاً، أو يهلكوا هم، لا توجد خيارات أخرى. بعد أن وردني نبأ مقتل العجوز صباة في منزلها النائي، وقبل أن تعطى فرصة حتى لمد كفيها المجعدين والتساؤل عما إذا كان الطارق ريشة، ظننت أنهم كانوا يفعلون ذلك من باب العبث، بعد أن شعروا بأنهم أبادوا الأحياء داخل القرية، انتقلوا لإبادتهم خارجها! لكن أنور صحح معلوماتي، ونبهني إلى نقطة مهمة: لقد تربّت العجوز على يدي الحاكم جَسَّار، وحين انقسمت القرية الصفراء، وانتهى الحال بابنه الأكبر حاكماً لقرية المروج وحدها، اضطر لبناء منزل في منتصفها، منزل الحاكم الحالي، وبقيت صباة في منزل أبيها البديل. للاختصار: الأعداء لم يقتحموا منزل العجوز عديمة الضرر صباة، بل اقتحموا منزل الحاكم جَسَّار القديم، ولم يتركوا فيه حجراً فوق أخيه، عمّ يفتشون؟ عما سنعطيههم إياه!

أخرج الأب الأزرق ولديه جوهرة وبدر، تعرّضا للاستجواب كما توقع،

ورأيا أيامًا سوداء من الضغط والمطالبة بتكرار قصتها على عدد من الكبار والقادة، قصتها المختلقة طبعًا، والتي ألفتها بنفسها. كانت مقامرة أن نعتمد على صمود طفلين، لكننا كنا يائسين على أي حال، ولم يكن جوهرة وبدر كأبي طفلين! لقد أدّيا المطلوب وزيادة، وأحب الحمقى قصة الأطفال التي ألفتها، وahan دور رجال أنور والقائد راسخ ليزيعوا الخبر في صفوف العدو بطرق مختلفة، حفيد الحاكم رشيد حي، يملك طريقة الوصول إلى سر الخلود، ويوشك على امتلاكه! الآن حان وقت الكرات الزجاجية، سنمحو القرية، ولا مجازات هنا، على هذه القرية أن تكوى، أن تتطهر بالنيران؛ لأن القاع -أحيانًا- هو الموضع الأفضل للبدء من جديد، خاصة عندما يكون الأساس مزعزعًا. والهدم مفيد، مثله مثل البناء تمامًا.

سنحرص على جمع جنود العدو، بكبارهم على نحو أخص، لكننا سننتظر -بصبر- أن يتأكدوا من الخبر، ولن نقدم على أي خطوة حتى ينالوا ما يحتاجون إليه من ضمانات للتأكد من أنه ليس كمينًا، القادة الحاذقون الذين استطاعوا ضرب أفراد أمة بعضهم ببعض، لن يكون من السهل خداعهم. لكن الثغرة كانت: أنهم تسلقوا على نزاعاتنا ليصعدوا، ولو اختفى السلم الذي ارتقوا عليه؛ فإن سقوطهم ودق أعناقهم لن يكون إلا مسألة وقت. ها نحن أولاء، غداً يذهب أنور لاستخراج سر الخلود من قبو منزل جده الحاكم جَسَّار القديم، ريثما يتحقق جنود العدو من المخابئ التي تحمي المعسكرين، مزرعة حيّان على رأسها. لكن ما لن يجرّوه، أن كل تلك الأماكن مفضخة، وبالسلّاح الذي ظنّاهم ابتدعوه، وتبيّن أنهم سرّقه! وأن مبتدعه غارس فسائل، من ذوي الأعين البرتقالية. الكرات الزجاجية ممتازة، صغيرة، سهلة التسلسل، كبيرة الضرر، ولو أضيف خيط طويل ينقل الشعلة إلى جميع الكرات في وقت واحد، ولو كان عدد الكرات كبيرًا إلى الحد الذي يتطلبه الأمر؛ فإننا -بكثير من الجهد- سنستطيع حرق القرية عن بكرة أبيها! أين سنكون؟

هذا ما سألني أنور عنه، وأجبتة بهزة من كتفي. ربما كنت لأجدف وأقول: (فلنحترق معهم)، لكنني لا أملك الحكم على الصغار والضعفاء بملاقة مصير كهذا، نحن لم ننقذهم من بطش الأعداء لنلقي بهم في اللهب! هنا حان دور ساري ليضرب صدره، ويقول بثقة: (اتركوا هذا الأمر لي). وتركناه له، ولأن لم أعرف ما فعله بالتحديد، لكنه واثق جدًا منه.

- «أقترح ألا نتعجل بإخبار غيم، هذا ليس شيئًا يحسن الاستعجال بنشره، علينا التثبت أولاً.»

- «لا أوافقك، عليها أن تعرف، خاصة أن الوقت ينفد!»

- «ماذا جرى؟ ماذا أيضًا؟ هل بقي شيء لأفقد؟ أبي وأخي وصديقتي، هل ستخبرني بما عرفت أنك ستقوله؟ أنت لم تفلح في معالجة أنور، صحيح يا ساري؟ أم أنها أمني؟ هل أصابها مكروه؟ إذا كان الأمر كذلك فاصمتا، ودعاني أموت دون أن أعرف خبرًا كهذا!»

- «من فضلك اهدئي. أتعلمين؟ ربما يجدر بك أن تعرفي فعلًا، أخبرها يا ساري.»

بطء استند ساري إلى الجدار، ودس يديه في جيبه.

- «إنه الشيخ مدرار...»

شهقت بفرع، ثم تذكرت أنه قد مات بالفعل! نظر إلي ساري وابتسم ابتسامة جانبية، قال برفق:

- «يقال -وهذا يعني أن الكلام ليس مؤكدًا-: أن عقلة المجنون قد اعترض طريق الفرقة وأخذ يهذي بكلام كثير، وأنه كان عند الرجل الذي

كتب الرسالة إياها وقت كتابتها، وأن الرجل لم يعرف للوهلة الأولى عن جنونه، وظن أن خبر وفاة الشيخ مدرار الذي نقله له كان خبراً حقيقياً، لم يتوخّ الدقة في النقل للأسف، ولم يتوقع وجود شخص يتسلى بإخبار الناس أن أحبابهم ماتوا، لمجرد أنه لم يتجاوز فقد نعمة!

- «ساري.. لا أريد الاستتاج، لو خاب أمني فسوف...»

- «أنت ملكة إيجاد الإجابات يا غيم، أجل، ما تظننه هو ما أردت قوله، هناك أنباء جديدة عن إفاقة الشيخ مدرار!»

نقلت نظري بينهما في ذهول، أخاف تصديق الخبر ثم مقاساة أوجاع نفيه من جديد. لكنني لم أجدي، وحين بحثت عني وجدتني أتعلق برقة ساري، وأشكره بحرارة والدموع تنساب من عيني، ثم فارقتة وانحنيت على أنور في رقدته وقبلت رأسه، مسح أنور دموعي بابتسامة حانية وهو يقول:

- «جمعكم الله على خير يا حبيبي.»

- «أتعلمان ماذا؟ لو كان هذا الخبر صحيحاً - وقلبي يقول إنه كذلك - فإننا سننجو، سننجو صدقاني! دعوة أبي مجابة، أنا واثقة! هو لن يسمع خبراً سيئاً عني، صدقاني!»

تبادلا الابتسامات وهما يراقبانني، لا شك أنني بدوت كالمخبولة، لكنني كنت سعيدة بخبالي هذا، خاصة قبل سويغات من الموعد إياه. وقفت أمام ساري وبرجاء أومأت له؛ فتنحنح والتفت لأنور.

- «أنور، أنا وغيم نستاؤذك، قبل الاحتفال، هل نستطيع القيام بزيارة سريعة إلى مزرعة الشيخ مدرار؟»

نقل نظره بيننا بشيء من القلق، لكنه ابتسم وهو يقول:

- «إنها زوجتي، ستحافظ عليها؟»

- «إنها أختي، لا بد من أن أفعل!»

ابتسم أنور باستسلام وأشار لنا بيده، نظر إلي ساري وقال بابتسامة:

- «مستعدة لنزهة ثنائية؟»

أومأت بحماس وخرجنا مسرعين، كدت أتجه نحو الإسطبل لأخرج جناح، لكن ساري منعني، أحاطني بذراعه وسرنا معًا نحو المزرعة، كانت الطرقات خالية مما أثبت لي مدى فعالية الخطة، إنهم يستعدون للإمساك بأنور، تمنيت أن أرى وجوههم ساعة يستوعبون مدى غبائهم! كانت رائحة القرية سيئة، وجوّها خانقًا، ولم أستطع التعرف في طرقاتها على القرية التي أحببت، ومن آن لآخر، كنت أركز بصري إلى اللا مكان، وأقع نفسي أنني لم أر أشلاء بشرية ملقاة على الأرض. دخلنا المزرعة الميتة، واتجهنا -دون اتفاق مسبق- إلى شجرة الأراك، موضعها السابق، جلسنا متجاورين، وأسندت رأسي إلى كتف ساري.

- «ربما لو أنصفتني كنا لتتجه إلى البحيرة؟»

- «سبق واتفقنا، البحيرة بعد الحرب!»

قهقهه بهدوء ولم يقل شيئًا، رفع رأسه للأعلى ثم عاد به إلي، قال وهو يشير للسما في حماس كالأطفال:

- «انظري إلى الغيم يا غيم، لعلها ستمطر؟»

- «ليس الآن يا ساري، بعد الحرب، لا ماء قبل الحريق!»

مجددًا ضحك، بقيت أتأمل الصورة المقسومة إياها في شروء، أستعرض المرات التي رأيت فيها هذه اللوحة، وأفكر في أحوالها، لم تكن بشعة من قبل

كما هي الآن.

- «يبدو الغيم رقيقاً ولطيفاً.»

- «لكنه كثيف وقوي، ويضمّر في داخله الرعود والأمطار والعواصف!»

أوماً موافقاً؛ فحان دوري لأقول:

- «في كل مرة أجلس فيها هنا، أستشعر كم أنني ضئيلة جدّاً، كل هذا

العالم وما فيه، مقابلي أنا؟ ما فرصتي في الفوز؟ ما فرصتي في إحداث شيء؟

ما فرصة النملة في تغيير حال مزرعة!»

أخذ يتأملني ويتأمل القرية بطريقة مفتعلة، ثم قال:

- «أراك مساوية لها، ولعلك أكبر، غيم ليست شخصاً، غيم فكرة،

وإجابات أسئلة، ومبادئ لا تتجزأ، وقوة لا تلين. انظري يسارك، سترين

نبتتك البش... الجميلة، لقد نجت مرتين، كنت محقة، إنها رمزية مهمة، ولعل

كل هذه الأشواك قريتنا، وأنت الزهرة الوحيدة التي نبتت برغمها.»

- «غير صحيح، الأشواك هي العالم، والزهرة هم غارسوا الفسائل.»

ابتسم، وابتسمت، ران علينا الصمت، تحت السماء الغائمة، وأمام القرية

الميتة، ووسط المزرعة المدمّرة.

- «لا بد من أنهم يغادرون المزرعة الآن.»

- «ألم يجدر بك أن تكون معهم في وقت كهذا؟»

- «مفروض، لكنني وعدتك، وأنا حريص على الوفاء بوعدتي، لا أريد

أن أكون مثل أنور.»

اختفت الابتسامة عن ثغري.

- «على ذكر أنور، أهو حقاً...؟»
- «يتحسن، بلا جدال، وحالته لم تعد سيئة، يمكنني أن أزعم أن آثار السم قد زالت أو كادت. يستحيل أن أكذب عليك يا غيم، منذ ذلك اليوم، عاهدتُ نفسي ألا أكذب عليك تحت أي ظرف.»
- «أجل، صحيح؛ لهذا كنت تخبرني أن هناك رجالاً في المخزن!»
- «كنت أحرص -قبل قول ذلك- على التأكد من وجود إصبعي على الأقل داخل المخزن، تعلمين، بعض الشيء كله.»
- «أيها الماكر!»

نهضت وتركته يضحك، مشيت بضع خطوات شاردة؛ ليوقظني صوت مرعب من خلفي، استدردت بفزع لأجد ساري يقفز علي، حرفياً، سقطت أرضاً لكن هذا لم يوقفه، جذب يدي بقوة وأخذ يركض بسرعة جنونية، وفي خضم هذا الجنون استطعت استيعاب عدة أشياء، لقد عرفوا أننا هنا، وهناك ما يقارب الخمسة رجال يركضون وراءنا، حدث ما كان ينقصنا، تعثر ساري فتعثرت وراءه، وسقطنا على الأرض. نهض ساري بسرعة ووقف أمامي ليحميني، استل سيفه ريثما كنت أنهض على مهل، صرخ أحد الرجال الصفر بكلمات عدوانية، لم أركز فيما قاله، بل في صوته.

- «ساري، إنه هو.» نظر إلي بزاوية عينه مستفهماً. «هو الذي قيّدني يومها، عرفت صوته.»

- «هل خنجر وادع معك؟»

- «معى، لكن.. لم؟»

- «ستقطعين معصميه، بنفسك، مفهوم؟»

لم يمهلني لأبتلع أمره وأجادله، انقضّ على المهاجمين وأسقط أولهم بضربة سديدة لصدره، وأخذ يصدّ ضربات الأربعة الآخرين بمهارة، لكن عينيه كانتا مثبتتين على الشخص الذي أشرت إليه. بطريقة ما انتقل النزاع إلى موضع بعيد وبقي واحد معي، يحاول الإمساك بي وأنا أهرب منه، لا أعرف كيف نجوت من عدة ضربات قاضية وجهه لي، بل لم أصب بخدش واحد، بشكل ما نجوت من كل ضرباته، واستطعت اللحاق بساري في الجهة الأخرى، كان... رباه! كان غريمه يجلس فوقه، الجروح تثخن كليهما، وكان يعتصر رقبة أخي بيده في غل مستحيل، ولم أكن لأسمح بتكرار المشهد نفسه أمامي مرتين، لقد سبقني سهم قاسط، لكن يدي هذا الصفراوي لن تفعل. وجه ساري أصبح أزرق، ويحاول جاهداً تحرير رقبتة أو التقاط نفس، سيفه ملقى على مسافة منه، ويده عاجزة عن الوصول إليه. كانت يدي تهتز، لكن عقلي كان ثابتاً ومحدداً، لا أعرف كي ضلل ساري الباقي، لكن علي التصرف بسرعة قبل وصولهم، وقبل ألا أقدر على اتخاذ تصرف. لم أعرف من أين أتيت بهذه السرعة والقوة والغضب وأنا أهبط على يديه من السماء، وفي غضون ثوانٍ أستوعب صرخاته وانتفاضة ساري وهو يبعد اليدين الدمويتين عنه، شهق بكل قوته وكاد ينهض استعداداً لمعاودة الهرب، لكن الألوان قد فات، لم تكن صرخات الصفراوي ممزق اليدين لتفلت من آذان زملائه، بسرعة وجدنا ثلاثة على رأسينا، شاهرين سيوفهم، وأنا وساري جالسان وسطهم، خنجري بعيد، وسيف ساري بعيد. تشبثت بملابس ساري في فزع، لا يزال وجهه مزرقاً، لكن عينيه الناعستين مثبتتان على شيء محدد.

- «عمل رائع يا رفاق، أهنتكم على النيل من رجل وحيد وفتاة، لكنكم ستكونون لطفاء بما يكفي لتحقيقوا لنا رغبة أخيرة قبل أن تقتلونا، أليس كذلك؟»

لم أعرف فيم يفكر، لكنني انتعشت فجأة، ساري يملك خطة حتمًا.

- «أبعد قدمك قليلًا أيها الأنف البشري، أترى هذه النبتة هناك؟ إنها شيء عزيز على قلبي وقلب أختي، سيكون من النبيل أن تسمعوا لنا بتناول القليل من ثمارها قبل أن نقتل. أعني.. لا بد أنكم تفهمون، إنها تنعش العقل وتدخلنا في حالة من النشوة، حتى نموت دون ألم.»

أي نبتة تلك؟ أنا لا أميز نوعها حتى، أظنها الحشيشة التي ظهرت في مزرعتنا قبل سنوات طوال، ومنعني أبي من انتزاعها يومًا. انحنى أحدهم إليها وانتزعها، دقق إليها النظر ثم نظر لساري:

- «تسبب انتشاء، وتنعش العقل؟»

أوماً ساري بحماس، نظر الرجل لساري بسخرية ثم قسّم أجزاء النبتة، ألقى لكل واحد من رفاقه جزءًا، فوجئت بيد ساري تقبض على يدي فجأة، وأوماً برأسه بمعنى: (استعدي). راقبهم بتحفز وهم يمضغون النبتة بحذر، التفت أحدهم لساري وقال مؤكدًا:

- «انتعاش العقل، ها؟»

- «ستجد نفسك في عالم آخر، حريقًا.»

بمجرد ابتلاعهم لها، وجدت ساري يجذبني بكل قوته وينهض، اصطدم بأحد الرجال فألقاه جانبًا، ووجدنا فرجة تسمح لنا بالمرور.

- «ساري، ما الذي فعلته؟ أنا لا أفهم شيئًا!»

- «كانت محاولة عبثية، ونجحت. كل ما هنالك أنهم لن يستطيعوا ملاحقتنا، ليس بعد تناول واحدة من أشد الأعشاب سميّة، ومن أسرعها مفعولًا!»

- «هذه النبتة؟ لقد كانت في مزرعتنا منذ زمن!»

- «عجيب أنك لا تعرفين كنهها، الشيخ مدرار كان يعرف، لكنه منعني من انتزاعها، قال إن لكل شيء أهميته ووقته!»

كان محققاً، كالعادة. التفت التفاتة خاطفة لألمحهم يتلوون على الأرض في ألم، ورفيقهم مقطوع المعصمين ينزف جوارهم. بقينا نركض لمسافة طويلة بلا توقف، لم يكن ساري خائفاً منهم، بل من الانفجارات التي بدأت بالفعل، بعد أن أشعل رجال القائد راسخ فتيل الكرات الزجاجية في عدة أماكن، ركضت حتى لم أعد أشعر بقدمي، استطعت -أثناء ركضي- رؤية شعر مجعد، يغلف رأساً له عينان زرقاوان جامدتان، لا أظن مغني البهاليل هذا قادراً على تكرار كلماته الفاحشة بعد أن مزقت حنجرتة بهذه الوحشية. رأيت الكثير من الجثث، وفهمت السبب الذي جعل وادع يفضل السير في الطريق الطويل عوضاً عن تركنا نرى هذا، أطفال ممزقون وأحشاء متدلّية وجثث معلقة على بقايا أشجار محترقة، جثة واحدة لفتت نظري، جثة شخص لم يتكلم من قبل، لكن صمته الآن مختلف، أمسك ساري برأسي وحولته لأنظر أمامي.

- «لقد اختفى لفترة، كان علينا أن نعرف، لا بد أنه مات دفاعاً عن نباتاته. سنأسف على الحلوى والمربى لاحقاً.»

لم أعد متأكدة من أن قلبي استطاع مجازاة كل هذا المجهود، توقفت أخيراً لأتأكد، حين وصلنا للجهة الأخرى من القرية، لا أصدق أنني ركضت كل هذه المسافة، حتى حطام عربة البهاليل.

- «أنقذت حياتي، أحسنت يا صغيرة.»

بصعوبة تحدثت من بين لهائي:

- «لقد.. فقدت.. خنجر وادع! أريده!»

- «على رسلك، أنا لست أنور، ولن ألقى بنفسي في الخطر لإعادته، ليس لأنك لا تستحقين تضحية كهذه، بل لأن الخنجر لا يستحق! هل تتذكرين وادع بخنجر يا غيم؟ بم ستذكريني إذن؟ بنبتة عرق سوس؟ اكبري قليلاً!»

دمعت عيناى، لكن الوقت لم يكن مناسباً لذرف الدموع، خاصة بعد ملاحظتنا لحركة خاطفة حولنا، إنهم قرييون، بل هم.. هنا! نظر إلي ساري بطريقة أفهمها جيداً، ثم نظر إلى ما بين قدميه، الآن فقط فطنت إلى الباب الأرضي الصغير، لقد كانت هذه لعبة ساري إذن، مخابئ تحت الأرض! بدا الباب مصمّماً تماماً، بلا مقبض ولا بروز للفتح، لكن ساري انحنى إلى أحد المسامير الضخمة التي تثبتته وأخذ يلفه بحماس، حتى بدا لي أن الباب تراخى قليلاً.

- «ساري، سيجدون المخبأ، إنهم قرييون كفاية.»

- «ليس إن تولى أحد تشتيتهم.»

نظرت إليه بفزع، في حين قبض على ذراعي بصرامة وجذب الباب.

- «ساري، لا، أنت لن تفعل ذلك، لقد وعدتـ...»

ألقاني قبل أن أكمل عبارتي، ثم أظلم المكان مع إغلاقه للباب، قفزت على الباب أحاول دفعه بكل قوتي، حين شعرت بمن يجذبني من الخلف.

- «إنه يفتح من الخارج فقط يا غيم.»

قالها أنور بصوت قاتم، لقد فعلها ساري، ضحى بنفسه لأجلنا! من فوقى سمعت صوت سنابك خيول، لا فرصة أمامه! ألقيت نفسي على كتف أنور، لم أبك، فقط شعرت بالخواء، كان وعده بالبقاء معي للنهاية يمنحني

أملاً غير محدود، أتراها النهاية فعلاً؟ أتراه لم يخلف وعده؟ خاصة مع حرصه على عدم إلزام نفسه بوعده لن يوفي به؟

كان المخبأ مختصراً للغاية، مكان أشبه بالبحر أو النفق، ليس له مداخل أخرى فيما يبدو، وسقفه واطىء إلى حد يمنع شخصاً في طول أنور من الوقوف براحة، وضيئاً إلى حد يسمح بجلوس أنور والرجال الثلاثة -الذين لمحتهم لتوي- متجاورين، مع احتمالية أن يفرد اثنان منهم أقدامهما فقط. أشار أنور برأسه إلى جزء منعطف من النفق، أشبه بجدار مرتجل، وراءه وجدت تبر وشهاب جالسين؛ فجلست معهما، سألتني تبر -ببؤس- عن ساري فلم أجبها، ضمنت ركبتي إلى صدري وأحطتها بذراعي وأسندت ذفتي عليهما، تشبث شهاب بذراعي، كان خائفاً من الأصوات التي يسمعها في الأعلى إلى حد يمنعه حتى من البكاء، التصقت بي تبر من الجانب الآخر، أسندت رأسها على كتفي، وظللنا على حالنا حتى اعتادت مسامعنا الأصوات المروعة، لقد كانت القرية تنتفض بلا مبالغة، كأنها تمحى وتبنى من جديد، أو لعلها تمحى وحسب. ربما كنت حمقاء، وربما كان كل ما خططت له بلا فائدة، وربما نخرج من هذا المخبأ -إن خرجنا- ليستقبلنا عدد من حارقي المحاصيل السكارى، كأن شيئاً لم يحدث. وجدت رأس تبر ينزلق عن كتفي، لقد نامت، يدا شهاب المتشبثان بي تراختا أيضاً، ودُفن وجهه في حضني.

قضينا وقتاً طويلاً على تلك الوضعية، تيبست قدمي لكنني لم أشأ التحرك كي لا أفلق نوم تبر القلق، أفاق شهاب مرة، أخبرني خلالها أنه سيسامح ساري. ثم أفاق ثلاث مرات أخرى، مرة ليخبرني أنه خائف، والأخرى ليخبرني أنه عطشان، والثالثة ليخبرني أنه يريد رؤية نور الشمس من جديد. وكانت إجابتي واحدة في كل مرة: (اصبر يا شهاب، وسندرك هذا كله).

سحبني أفكارى بعيداً؛ فالهتني عن الأصوات التي توقع القلوب، وعن

توقفها بعد مدة تقارب الدهر، مرّت حياتي كلها أمام عينيّ، بتفاصيلها، بأفراحها وأحزائها، بما أفخر به وما أخجل منه، بما قدّمته وبما قدّم لي، بمن أحببته وبمن كرهته، ووجدتني أسأل نفسي بعد كل هذا: أتراها كانت حياة تستحق؟ هل لو لم نخرج من هنا، أو خرجنا ثم اكتشفنا -بمرارة- أننا فشلنا، هل سأكون مستعدة حقاً للموت عندها؟ هل أستطيع أن أثق بأنني بذلت كل ما بوسعي، وأنني لم أتخاذل ولو لمرة، ولم أتأخر عن بذل ما لديّ مهما كان قليلاً؟

قبل أن أجاب قاطعني شعاع ضئيل يشق طريقه على استحياء، فتح شهاب عينيّه مباشرة، لقد تحققت إحدى أمنيّاته الثلاث، في حين بقيت أترقب ما وراء هذا النور وما وراء الجلبة المفاجئة المصاحبة له. لقد مرّت ليلة كاملة، ولم أشعر بذلك حتى، كان العالم أخرس كوسم صانع المربى، ومبتسماً أيضاً كما كان.

- «غيم، يمكنكم الخروج الآن.»

قالها أنور بصوت مبحوح لكن مبتهج. انتبهت تبر على صوته، بلا حماس غادرنا المخبأ، صعدنا السلم ووقفنا في الخارج، في القر... عذراً، لم تعد قرية، مجرد خرابة لا أثر للحياة فيها، الأدخنة تتصاعد من أنحائها كما لو أنها ورشة حدادة منتجة، لكن الغيم لم يعد هناك، لم يعد يرى بفعل الأمطار التي هطلت لنداري كل ما تركته الأيام الفائتة من آثار، وتلاحق بضع شعل صغيرة أفلتت -بحشع- لتبحث عن فريسة جديدة دون أن يشبعها كل ما كان في القرية والتهمة. إدراك مفاجئ اعتراني؛ فنظرت حولي بتشكك.

- «من فتح الباب؟»

- «أ.. أنا.»

بتردد قالها أحد الرجال الذين رافقوا أنور في المخبأ، حانت مني نظرة إلى باب المخبأ فلمحت القطعة الحديدية البارزة من الداخل، والتي أدت عمل المزلاج، ونكر ساري مقبضها في هيئة مسمار ببراعة. نظرت لأنور في عدم تصديق؛ فحنى رأسه.

- «لم أكن قادرًا على إيقافك، ولم أكن لأطلب من الرجال منعك من الخروج، ولا لأتركك تلقين بنفسك في الهلاك!»

لم أعلّق، تركت المطري غرقني ويخفي دموعي، خرجت تبر ورائي، لم تكف طاقتها إلا لجعلها تتجاوز فتحة الباب لتترك مجالاً للصغير، وتهاوت جواره بلا روح، لا تملك ما أو من تطمئن على سلامته، عانق شهاب أخاه من باب الاطمئنان إلى أن كل شيء انتهى؛ فانحنى أنور ورفع فوق كتفيه برغم ألمه البادي على وجهه، رفع شهاب رأسه وفتح فمه عن آخره يستقبل قطرات المطر بلهفة. أقبل القائد راسخ، بساق اليمنى فقط، مستندًا على الحارس الهمام شديد، وجواره يسير مساعده المبتسم دائماً، المنبهر للأبد، نظر إلي القائد وابتسم ابتسامة أبوية ودودة واسعة. ثم نظر إلي أنور وقال بابتسامة رقيقة:

- «عاد الرجال المستطلعون للتو، لقد.. لقد نجحنا يا غيم! لقد انتهوا جميعهم، والمخلفات الباقية منهم هربوا كالجرذان دون أن ينظروا وراءهم ومعهم أنفة القدرة، رؤوس الشر كلها سقطت، هتر وراغب وأفأك، والرؤوس الأعلى من حارقي المحاصيل والجداريين الذين لم نعرف أسماءهم حتى! لقد فتشتم النيران، وجاء المطر ليحمل رفاتهم الخبيث ويذهب به، انتهى الكابوس!»

لم أستطع التبسم أولاً، ثم أجبرت نفسي عليه، لقد انتصر المبدأ، وحمينا معتقدنا، وفعلنا ما ظنناه صحيحًا، وما أملنا أنه سيرضي الله عنا، رغبة في تحقيق شرعه أولاً، ثم حماية لعباده من شر محيق كان ليذهب بكل فسيلة خير.

وما بذلناه في سبيل ذلك رخيص، وما فقدناه أثناء مشوارنا يهون، وليتقبل الله منا.

- «حضرة الحاكم أنور، لقد وصلت الأعداد، لقد قتلوا أهل مخبأ كامل أثناء نزوحهم للملاجئ الأرضية، وقتل عدد من الرجال في طريقهم لتفجير الكرات أو لاستطلاع المباني، لكن المحصلة ممتازة، المخابئ الأرضية منعت سقوط أي ضحية من جهتنا، وحمى الضعفاء والأطفال وحتى الجنود والأسرى، باختصار، عدد خسائرننا لا يقارن بخسائرههم، لقد خسروا أنفسهم حرفياً!»

بابتسامة جانبية نظر إلي أنور، لقد خسروا أنفسهم منذ وقت طويل أيها الجندي الباسل!

- «هم لم يعودوا أسرى بعد الآن، لقد أصبحوا سجناء، أولئك المتعاونون مع حارقي المحاصيل والجداريين ضد غارسي الفسائل، سيفصل القاضي فيصل في أمرهم ما إن يصل، وستتم محاكمتهم علنياً أمام الجميع! زنبق معهم، صحيح؟» أوماً الرجال مؤكداً؛ فقال أنور وعيناه تتأرجحان بغضب: «والمعلم حارق المحاصيل الذي تعدى على الشيخ مدرار في الدار؟» ارتبك الجندي قليلاً قبل أن يقول:

- «لقد.. قتل، أثناء اشتباك بين رجالنا ورجال العدو.»

ابتسم أنور في رضا، لم يكن ليحكم عليه بالإعدام، لكنه استحق ذلك. نظر إلي أنور ورأى حيرتي فقال كأنه يقرأ أفكارى:

- «هل أجد قائمة بأسماء القتلى؟ قتلانا أقصد.»

أوماً الرجل بشيء من التيه، لكنه أراد أن يبدو واثقاً.

- «لم يتم حصرهم بعد، لكن لدي علماً ببعض الأسماء، مارج، راسي، همام، نسر، قيس...»
- «ساري؟»

قلتها بلهفة باكية؛ فنظر له أنور متسائلاً، وقبل أن يجيب الجندي الحائر سمعت صوتاً، بعيداً لكنه حبيب، هذا الصهيل لا يمكن أن يكون إلا لفرس واحدة، وهذا الرد لن يصدر إلا عن حصان طائر! بلا وعي ركضت تجاه الصوت، لقد سألت ساري عما سيحل بها وقت التدمير، لكنني لم أحصل على إجابة صريحة منه. كانت رائحة المطر منعشة، ومُبكية، حتى أن رغبة طفولية في التمرغ في الطين راودتني أثناء ركضي، وأثناء تطاير القطرات المشاكسة من حولي، لاحت جناح، بغررتها البيضاء، بساقها المعالجة، بأذنيها المنتصبين بانتباه. تعلقت برقبته وضممتها بشوق، لقد نجت! رفيقة الصغر نجت! لمحت الطائر يقترب مني كأنه يطلب نصيبه من العناق، وكلاب شهاب الثلاثة تتفافز حول قدمي، دون أن تخيفني هذه المرة.

- «جميل أن يمتلك المرء حصاناً طائراً يسعفه في الأزمات.»

قالها صوت هادئ من خلفي، فارقت جناح والتفتُ -وقلبي يرقص- لأتحقق مما سمعت، كان صوت الحوافر عائداً للطائر إذن! كان ساري يخرج من شق في الأرض، لا يكاد يرى أو يثير الانتباه، لكن ساري اختاره بعناية لإخفاء الحيوانات، كانوا حريصين على الحفاظ على بعض الحيوانات لتعزيز سرعة نهاء القرية بعد أن يحدث ما حدث، دجاج وأغنام وأبقار وخيول وكلاب وحير، كل أنواع الحيوانات المطلوبة لحياة سليمة. ركضت تجاه ساري وهو ينفذ ملابسه بلا مبالاة.

- «لكن كانت فكرة سيئة الاختباء مع الحيوانات في مكان طيني أثناء

هطول المطر! سيتعين على تبر تنظيف ملابسها الآن.»

بجنون اندفعت إلى حضنه، ظننت الأمر انتهى عند هذا الحد، ظننتني فقدت أخوي! وضع يده على رأسي بحنان دون أن يقول شيئاً، وحين فارقتة أخيراً انحنى على وجهي يتفقدته بابتسامة:

- «أهذه دموع أم قطرات ماء؟» ابتسمت. «لقد وعدتك يا صغيرة، أنا لست أنور حتى أعد وأخلف!»

- «ما به أنور يا ابن السكير؟»

قالها أنور فجأة والتحم بساري في عناق أخوي حار، لقد كان خائفاً عليه مثلما كنت. لقد أنقذ ابن السكير القرية وأهلها ومعتقده، وباستخدام ما استخدمه أبوه ليسكر من قبل!

- «انظري إلى الغيم يا غيم.»

- «لقد أفرغ ما بداخله من أمطار وخيرات أخيراً!»

أكمل كل منهما عبارة الآخر، ووجدتني أبكي، من الفرح هذه المرة، بصعوبة وجدت صوتي، قلت وأنا أشير إلى ما ورائي:

- «تبر، إنها عند مدخل المخبأ.»

أوماً ساري بحماس وسار خطوتين، توقف فجأة واستدار إلي، عبث في جيبه ثم أخرج شيئاً وناولته لي. نظرت إليه في ذهول، ثم نظرت إلى ساري.

- «أنور ليس أفضل مني، هيا، خذيه.»

التقطت خنجر وادع وقلبته بين يديّ باشتياق، كان قد تضرر كثيراً من أقدام الجنود الهمجيين، لكنه بدا تحفة فنية في نظري. رأيت ساري وتبر يتعانقان بحرارة، وحين اقتربت منهما على مهل، قفزت تبر علي تعانقني.

- «لقد نجونا، نجونا أيتها الصفراء الشاحبة!»
- «وأنقذنا القرية كلها أيتها المسخ الأزرق!»

اللحظة الأفضل حانت بعد أيام، بعد وصول القوافل من جميع القرى، كالأطفال وقفت على حدود القرية، ورفضت مغادرة موقعي حتى تصل القافلة التي أنتظر، جوارى وقف أنور مبتسماً، يضمّني بذراعه الأيمن، ويحاول إخفاء يده اليسرى بين طيّات ملابسه. نظرت لوجهه في حب، لقد تحسن، بل حيي بعد الموت! دخل إلى الملجأ شخصاً وخرج منه شخصاً آخر! من قال إن السرور ليس أفضل الأدوية؟

لم يعد أهل قريتنا المغادرين فقط، بل حضرت قوافل لا يُرى لها آخر، وبقي طريق السفر مشغولاً إلى مد البصر منذ أذيع الخبر، غارسوا الفسائل يقبلون من كل الأراضي، وبكل ألوان الأعين، الكل راغب في المساعدة في إعادة إحياء القرية، الجميع محمّل بما يستطيعه من بذور وفسائل وأسمدة ومعدات وعمال وجند وجهد وحب، الجميع يريد أن يضع يده في يد إخوته، والجميع يحب أن يعود غارسوا الفسائل جسداً واحداً، لم يعد أحد ينظر إلى عيني أحد، والسؤال الأول عند تعارف اثنين كان: لأي معتقد تنتمي؟

مع قافلة حمراء لمحت عائلة مألوفة، كانوا على حالهم منذ رأيتهم يومها، كأنهم استداروا وعادوا دون توقف، يسرني أنهم وصلوا أخيراً إلى وجهتهم.

تعلت الأصوات تعلن وصول قافلة قرية شوكة، بأنفاس محتبسة وقفت على أطراف أصابعي، أنظر بلهفة إلى أول عربية واصله، وفي حين كان قلبي يستوعب ببطء ما تراه عيناى، ويخشى -حتى بعد هذا الوقت- خيبة أمل جديدة، كان أنور قد سارع بإسناد أحدهم، والإمساك بيده في رفق حتى

ينزل بقدمه اليسرى من العرية، ثم تنزل قاعدة عكاز خشبية متينة، ثم القدم الأخرى، وحين استوى واقفاً بمساعدة أنور، اهتز توازنه من جديد، حين قفز عليه جسدي المرتجف يضمه بعدم تصديق، ويتشبث فيه بحرارة خشية أن يفقده من جديد، كل هذا وعقلي لا زال يستوعب ما يحدث له!

بعطف ضمّ أبي رأسي إلى صدره، ونفش شعري بيده حتى من تحت الوشاح، ثم قبل رأسي بتمهل، استغرق وقتاً طويلاً جداً وهو يفعل ذلك، لكنني لم أكن مستعدة للابتعاد، بقي رأسي مدفوناً في صدره لوقت مديد، بطول الشهور التي انهارت فيها القرية، وبعدد الأهوال التي رأيتها خلالها، وبحجم القبضة التي اعتصرت قلبي حين ظننتني لن أراه من جديد.

- «آه يا حبيبة أبيها، لا بد أن الأيام الماضية كانت ثقيلة جداً عليك».

انفجرت في البكاء، أخيراً أصبح بوسعي فعل ذلك، أخيراً استطعت التخلي عن تماسكي، وتأكدت من حصولي على وقت كافٍ وأمان مناسب يسمحان لي بأن أبكي من كل ما واجهته، بقي يمسح رأسي ويضمّني ويربّت علي بلا انقطاع، وحين فارقت حضنه أخيراً - رغبة في معانقة أمي لا اكتفاء من حضنه - تأملت ابتسامته الحبيبة، ونظرته الفخور، آه يا أبي، هل بوسع إنسان أن يحیی لأسابيع دون هواء ولا ضياء ولا قلب؟ لقد فعلتها يا أبي، أجبرني فراقك!

- «لقد عرفت أنك ستخرجين سالمة، أخبرتك يا مدرار، قلبي لا يكذب، غيم لا تجد الإجابات فقط، غيم تجد الطرق الآمنة كل مرة، وتعرف كيف تنجو من أعتى الكوارث!»

- «غيم محفوفة بستر الله يا أماء، وبدعواتك الصادقة!»

قلتها وقفزت لأعطيها نصيبها من العناق، وأسد ظمئي إلى الحنان، قال

أبي ضاحكاً:

- « ما دمت واثقة إلى هذا الحد يا رؤوم، لم استيقظت باكية في كل ليلة إذن؟ أملك لم تنم ليلة كاملة منذ فارقناك يا غيم! لقد اقتنعت أخيراً أن النوم ليس الحل لكل المشكلات! »

مسحت دموعي وابتسمت بصعوبة، أمسكت أمني بوجهي بين كفيها، وقلبته يمناً ويسرة في غير رضا.

- « لم أتناول طعامي بشكل جيد منذ وقت طويل يا أمني، برغم أن تبر لم تقصر، لكنني لم أجد من يلاحقني ويمنعني من الخروج قبل تناوله، ولم أستطع الحصول على كأس من الشاي بالحليب كالذي تعدينه! »

قبلت خدي مجدداً، نظرت إلى عائلة عمي جواد؛ فوجدتهم بين فرح وحزن، العم جواد مسرور بساري بما لا يقاس، إنه نسخته الشابة، يشاركه حب الأعشاب والبذور والعلم باستعمالاتها، مزارع ماهر بلا منازع، رجل قوي وحكيم وشجاع، وزوج حنون ومحب، ومثقف وقارئ فوق هذا. سمعت العم جواد يردد مراراً برغم دموعه:

- « الحمد لله، لقد أبدلني الله ابناً بابني، وكل خسارة قابلة للتعويض. »

- « إلا خسارة المرء نفسه. »

قالها أبي بابتسامة واسعة، أضاف وهو يشد على كتفي بحب:

- « هل صدقيني الآن يا غيم؟ لا يوجد ظلام تام، ولو ظننا ذلك، لا بد من وجود شمعة واهنة مشتعلة في زاوية ما، وهذه الشمعة تكفي لإشعال ما يضيء العالم كله. » وضع يده على خدي بحنان. « وقد كنتم أنتم هذه الشمعة المناضلة يا حبيبة قلبي! »

سمعت صوتًا عاليًا مألوفًا، التفتنا إليه جميعًا بابتسامة مدهوشة، كان الشيخ عامر قد غادر عربته القادمة من قرية شوكة للتو، وبحماس تنحنح وأعلن للجموع أن:

- «الفائز في السباق الكبير لهذا العام هو: (ساري بن حيّان)!»

تبادل الجميع النظرات المتفاجئة، وضحك ساري بعدم فهم.

- «كان أول الواصلين في المسار الأول، وعاد بالعود الأطول في المسار الثاني، ومنذ اللحظة التي افتتحنا فيها المسار الثالث، وحتى اليوم، لا أحد زرع وساهم في زراعة نباتات أكثر مما فعل ساري، وفي وقت قياسي!»

ربت أنور على كتف ساري بفرح، كانت فكرة رائعة من الشيخ عامر أن يعود بهذا الحضور الملفت، قال ساري مجازيًا:

- «لا زال هناك مسار، الرماية؟»

- «في الواقع، فاز به أنور، يوم أصاب الكلب وأنقذ ابنة الشيخ مدرار، وبهذا تكون الحائز على أكبر قدر من النقاط!»

كان الجو مساعدًا على انتقال عدوى الفرح بسرعة خيالية، الجميع أخذ يصفق ويصرخ ويهنيئ ساري، حتى الغرباء الذين لا يعرفون شيئًا عن السباق الكبير ربما. أوقفهم ساري قائلاً باعتراض:

- «لحظة، هناك من كان أجدر مني بالمركز الأول، وقد كان بطلاً في كل مسار بامتياز! لكنه لم يحظَ بفرصة عادلة، ولم يحصل على القدر الكافي من الدعم، ربما تأخر الوقت، لكن الأوان لم يفت بعد، (وادمع بن جواد) هو صاحب المركز الأول!»

النهاية

كانت لقرية المروج صورة ثابتة في ذهن كل من رآها، صورة نقلوها إلى غيرهم فكانت سبباً لجعلهم يتوقون إلى رؤيتها بدورهم، تمثل كل تلك السهول الخضراء، والمساحات المعشوشبة الممتدة، وضوء الشمس الذي يمتد على مختلف أنواع الزروع فيسقط في الصدر ليشرحه قبل أن يسقط على الزرع ليغذيه.

بمجرد خروج الأطفال من دروسهم في دار المنارة، كانوا يتجهون -بلا حيد- إلى منزل الشيخ مدرار، كانوا يجلسون أمام شرفة منزله في شغف، وأعينهم تترقب -باختلاف ألوانها- حديثه المثري والمسلّي، الأحمر جوار الأزرق جوار الأصفر جوار البرتقالي، تنتوع ألوان الأعين وتجمعها الرغبة نفسها، والبريق نفسه، وعدد لا نهائي من الأسئلة التي تنتظر الإجابات، والسؤال نفسه الذي يهّبون بحماسة ليسألوا به الشيخ مدرار كل مرة:

- «يا شيخ مدرار، أحقّ كان غارسوا الفسائل أبطالاً أقوياء لا يشق لهم غبار؟»

فيبتسم الشيخ ويحيب بصبر بنفس الإجابة كل مرة:

- «كانوا ولا يزالون، وهذا مما لا شك فيه يا أبنائي.»

جوار شجرة الأراك الكبيرة، وفوق التلة المرتفعة في مزرعة الشيخ مدرار، عند المقاعد الخشبية الأنيقة، وجوار الأراجيح المخصصة للأطفال، ركض وادع ومسرّة وودود الصغار، تشاركت مسرّة وودود حمل سلة تفاح كبيرة، وحمل وادع صندوقاً خشبياً مغلقاً.

- «إلى أين يا صغار، وما كل هذه العجالة؟»
- «لقد أحضرنا التفاح من شجرة خالي وادع في الغابة، سنعطيكها للجدة حسناء حتى تحضر لنا عصيرها اللذيذ، وسندعو لخالي بعد أن نشربه كما أخبرتنا يا عمتي!»
- ابتسمت غيم وهي تقرر صدد ودود في محبة، ثم التفتت إلى ابنها وادع ورفعت حاجبيها متسائلة عما يحمله.
- «لقد قابلت عقلة المجنون في ساحة القرية، كلامه لم يكن مفهوماً تماماً، لكنه أخبرني أن.. أن جدي مخمل مات! فزعت كثيراً وركضت لأراها، لكنها كانت بخير، لقد جنى لها العمال الرطب للتو، وقد أصرت على أن تحملي هذا الصندوق.»
- «ماذا قلنا يا وادع؟ نحن لا ندع كلمة تعبت بنا، ونميز -من البداية- من يستحق أن نعيه سمعنا، صحيح؟»
- أوماً وادع مبتسماً، في حين خرجت الجدة رؤوم من منزل أنور وغيم الذي قررا تشييده وسط المزرعة، وفوق التلة المرتفعة بالضبط. تخبرهم أن محشوا الكوسا قد جهز، وأن الوليمة جاهزة للأكل.
- كانها كلمة السر، أقبل ساري وتبر من بعيد، كان ساري واقفاً في دكان العم جواد الثاني، بعد أن دجا تجارتها وخصصا دكاناً لبيع البذور، وآخر لبيع العنب ومنتجاته. أما تبر؛ فقد افتتحت دكاناً للتطريز، وكانت تشرف على عمل الفتيات فيه، وتطرز بنفسها طلبات الأثيرين لديها، وفي أوقات فراغها، كانت تزور دار المنارة، مكتبتها تحديداً، ترتب الكتب وتصنفها وتضمنها الفهرس المعلق على المدخل؛ لتسهل على الباحثين عن المعلومات مهمتهم.

انتهى أنور من مجالسة الحكّام المجتمعين في ديوانه، ستبت ليلة وابنتها غيم وزوجها قصي في منزلهم لأيام، كان قصي سعيداً بإجازته القصيرة من أعباء الحكم ومسؤولياته، صحيح أنه أصبح الآن مجرد تابع يسيطر على قرية الربوة تحت حكم حاكم مملكة غارسي الفسائل (أنور بن جلال)، لكن مسؤوليته لا تزال شاقة، خاصة مع حرصه الدائم على عدم تتبع سياسة والده في تجاهل الشر، وتفضيل الراحة الحالية المؤقتة على المصلحة الدائمة المستمرة.

خرج أنور من مجلسه والنف ليجالس زوجته غيم في الشرفة، كانت منهمكة في كتابة شيء داخل دفترها الجلدي، وأمامها كأس الشاي بالحليب. جلس جوارها وتأوه بصوت عالٍ، قالت بابتسامة رقيقة دون أن ترفع عينيهما عما تكتبه:

- «سلامتك، أنت تتعب كثيراً.»

- «بصدق يا غيم، وبعد كل هذه الأعوام، أنا لا زلت عاجزاً عن الاقتناع بنفسني في هذا الموقع، إنها مسؤولية أكبر من أن يتحملها شخص مثلي، فقط لو أن الشيخ مدرار وافق على...»

- «توقف يا أنور، هذا ليس مكان أبي، لكل ثغره الذي يجب أن يلزمه، وهذا ثغرك، إن لم تتول هذه المسؤوليات بنفسك فلن تتركها؟ أبي معلم، وموضعه في إدارة الدار يجعله غارقاً في النعيم، ألم ترَ ما يفعله به تحلق الصغار حوله؟»

- «أنت محقة، لعلي فقط... كثير التفكير...»

- «أو الدلال، سيّان.»

ابتسم باعتراف، إنه مصرّ على جذب انتباهها ولو بالشكوى.

- «على فكرة، كان قرار صناديق الصدقة الذي ناقشته مع الحكام رائعا، برغم أنني لا أظن أن هناك فقراء بالعدد الكافي!»
رفع أنور حاجبيه في دهشة؛ فابتسمت غيم.

- «أنا وأنت، لا يبدو أن أحدا سيتغير، رغبتك الدائمة في الحصول على تعزيز مني، وحظي الذي يحاصرني دائما في موضع أستمع فيه للمحادثات!»
ضحك أنور، في حين كانت غيم تدون شيئا على الصفحة اليسرى، رفع أنور جانب الكتاب الأيمن واختلس نظرة إلى أول صفحة.

- «ألن تنتهي من هذا الكتاب قريبا؟ بدأت أشعر بالغيرة!»

- «أنور، لا تكن طفلا، ثم إنني على وشك الانتهاء...»

قطعت جملتها دون شعور وهي تضيف كلمة ما، نظر إليها أنور وقال ضاحكا:

- «أترين ما أعنيه؟ أنت لا تسمعينني حتى! سارحة دائما في ملكوت آخر. الحق أنني متشوق لقراءة السطور التي وضعت فيها شغفك وانهاكك بهذا العمق!»

- «أجل، معك حق.»

- «يا إلهي! ولم تضحكي على النكتة؟»

رفعت غيم عينين مذهولتين إليه.

- «هل ألقيت نكتة حقاً؟»

- «لا لم أفعل، عنيت أنك لم تضحكي على النكتة التي لم ألقها بعد!»

قهقهت غيم وهي تهز رأسها بمعنى: (يا لك من مزعج!)، تفعل ذلك

بنصف ذهن، لا بد أن نصف ذهنها الآخر مشغول بتعبير أفضل راودها وتخطط لتعديله في إحدى الفقرات، أو يذكرها بتفاصيل خططت لكتابتها ثم نسيت إدراجها ما إن سحبها سحر الأسطر. كانت تضيف الرتوش الأخيرة على كتابها الجلدي الأثيق، والذي حرصت على أن تضمّنه كل ما مرّت به في رحلتها لتوحيد غارسي الفسائل، وركّزت على توصيف أبطال حقيقيين في داخله، لا كأمثال الحاكمين رشيد وجسّار، كتبت عن وادع، صاحب العينين الزرقاوين الذي ضحى لأجل الفسائل حتى آخر قطرة من دمائه، وعن مسرّة، التي لم تترك خطأها يرسم حياتها بريشته، وفضلت تعديله ولو على حساب حياتها، وعن المعلمة رؤية، المرأة التي لا تنام، والتي ظلت تغدق النصائح على كل محتاج، وبقيت خزانة من إحدى خرزات إحدى سبحاتها تتحرك بعد موتها، كل ليلة! وعن رجل الحماية وطيد، وعن وسم صانع المربى، وعن جوهرة وبدر وأبيهما، وعن أنور وشهاب وساري وتبر، وعن الشيخ مدرار والتاجر جواد والقاضي فيصل، وعن القائد راسخ ورجله شديد. ودوّنت كل التفاصيل عن الطرق التي اتّبعها الصغراويون ومن فوقهم لتفريق غارسي الفسائل، وعن المدخل الذي استطاعوا إفساد القلوب من خلاله. وعلى غلاف الكتاب، وبخط كبير ومرتب، كتبت اسمه: (التاريخ المذكور). وقرأ أنور المقدمة التي كتبتها في أولى صفحاته:

(فاتتني قراءة آخر فصلين من كتاب التاريخ المنسي، ولم أستطع الوفاء بوعدتي للمعلمة رؤية بإعادته للمكتبة، لم تحزر إحدانا أن المكتبة لن تبقى بالانتظار! لكنني عشتها، عرفت ما كان وراء سر الخلود، وفهمت ما كان عليه العالم قبل القرية الصغراء، وكله لأن التاريخ -دائماً- يعيد نفسه.

قد ينسى الناس، وقد يجحدون، وقد يتجاهلون، وقد يجهلون. قد تقبل الأرض امتصاص دماء الأوفياء والأبرياء، وقد ترضى إخفاءه ضمن طيّاتها،

جوار جثث الفرسان والأبطال. لكن من يعمل لكسب الناس والمصلحة يخسر نفسه، ومن يخسر نفسه يخسر كل شيء. ومن يعمل لرضا ربه، ولنصرة مبدئه ومعتقده، يكسب نفسه؛ فيكسب بذلك كل شيء، ولو خسر الناس والروح وضحي في سبيل ذلك بما يضحي به. التاريخ مشكاة، ولو لم يقرأه غير واحد، والأيام دَوَل، والدوائر تدور، الناس هم الناس، والأحداث هي الأحداث، لكن تذكر التاريخ يقي المتأخرين الوقوع في أخطاء المتقدمين، ويختصر أزمته من التجريب والمحاولات والسقوط والنهوض؛ لذا وجد التاريخ، ليذكر لا لينسى، وليستفاد منه لا ليتم تجاهله، واللييب من يعي ذلك، ويحسن استغلال أيام عمره القليلة، ولعل هذا الكتاب كان طريقتي في الاستغلال، وإني لأرجو أن يتقبله الله مني).

قبل أنور رأسها، وقال بابتسامة مداعبة:

- «تحدثين كأنك شخص مختلف عن الذي غير وجه الأرض.»

- «أنا لم أفعل يا أنور، نحن فعلنا، وبفضل الله وحده!»

ابتسما لبعضهما بود، حين أقبل فارس نبيل يمتطي حصاناً، ويدلف من مدخل المزرعة أمامهما؛ فتلاحقه كلابه الشرسة بترحاب. سترت غيم وجهها وهو يقترب منهما، وسأله أنور باهتمام:

- «إذن يا شهاب، ماذا فعلت؟»

- «في الحقيقة لم أفعل...» قالها بتعابير محبطة، ثم تهللت أساريه فجأة وهو يكمل: «إلا في أن أصبح مساعد القائد راسخ الأول، وقائد رجال الحماية في المهمات الميدانية!»

ابتسمت غيم بفخر وفرح وهنأته، ونهض أنور ليضم أخاه بسرور عارم، أفلت شهاب من حضن أخيه وهو يقول بلهفة:

- «إذن، هل يمكنني الآن؟»

التفت أنور إلى غيم بابتسامة؛ فأومأت بخفة، تهلل شهاب وقفز كما كان يفعل صغيراً.

- «ستخطبها لي؟ حقاً سنذهب لخطبة جوهرة غداً؟»

- «لن تكون مضطراً لانتظار الغد، أظن القرية كلها سمعتك من الآن، تماسك قليلاً!»

ضحك شهاب بانفعال وخجل، ثم دخل مسرعاً إلى المنزل ليشرّب شيئاً من العصير. اقتربت مسرة الصغيرة، وشيء من التردد يبدو عليها، أشارت لها غيم بالاقتراب وحفزتها على التحدث.

- «خالي ساري يا أمي، لقد أعطاني نبتة عرق سوس لأزرعها، لكن كان على جذورها.. حشرات مخيفة! أخبرنا جدي مدرار أن علينا أن نعرف أعداءنا حتى نستطيع مواجهتهم، وأنا قلقة من أن تكون تلك الحشرات منّا جذرياً!»

- «وأيّن هو خالك يا مسرة؟»

- «سيغادر الآن هو وخالتي تبر، لماذا؟»

- «لأنه من كان عليه تلقي سؤالك، أحياناً تكون الإجابة أقرب إليك مما تظنين يا صغيرتي، لكن الشيطان يحب التفريق بين الأحباب، وعدم ترك مساحة لسوء الظن هو السلاح الذي سنحاربه به!»

أومأت مسرة بفهم وركضت مغادرة، ابتسم أنور قائلاً:

- «إنها محظوظة لأنها ابنة غيم.»

- «ولأنها ابنة أنور.»

- «أتعلمين؟ يحق لها ولوداع أن يفتخرا بصراحة، خاصة وهما يملكان مهرين صغيرين سيكران ليصبحا حصانيهما!»

ضحكا معاً، وجلسا متجاورين من جديد، أسندت غيم رأسها على كتف أنور، وبقيتا يتأملان اللوحة المقسومة، السماء الصافية المرصعة بالسحب، وشعاع الشمس يخترق تلك الطبقات ليضيء الطرق والأفئدة، مع منظر القرية بالأسفل، والمارة يسرون جيئة وذهاباً في أمان، وفي قلب كل منهم هدف أساسي تدور حوله كل أعماله وتصرفاته، ومبدأ أساسي لا يجبره على الحيد عنه شيء. أيّاً كان طول مدة الحرب ستبقى مدة إزالة أثارها أطول، هذا حق، لكنها -برغم ذلك- أجهل، وألطف، وأرحب. انتظار الوصول إلى الهاوية لا يشبه ترقب بلوغ القمة في شيء، والمنحدر -ولو كان لا يبذل جهداً- لا يقارن بالمتسلق، ولو كان الأخير يبذل في تسلقه ما يبذله! البناء متعب، بلا شك، لكنه لذيق، وحبیب، ومرغوب، وعامر بالتوقعات والآمال. ليس أن الشر سيفنى بفناء رؤوسه المؤقتين؛ فكما أن الشموع لا تنتهي من العالم، وأن شمعة ستبقى في ركن ما تشتعل بوهن، وتضيء شموعاً آخر حتى يهيمن الضياء. أيضاً سيبقى نافخ شموع مختبئ في مكان ما، يسعى جاهداً لإطفاء كل شمعة تشتعل، حتى يتمكن الظلام الذي يعمل لصالحه يوماً.

وكما أن بقاء العالم مقترن ببقاء غارسي الفسائل، وأن غارسي الفسائل باقون ما بقي العالم؛ فإن الشر يخضع لنفس المعادلة، وستبقى النفس الأمانة بالسوء تأمر بالسوء ما بقي على الأرض بشر، وستبقى الشياطين من الإنس والجن يوسوسون لأوليائهم في كل آن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لكن هذا لا يلغي حقيقة أن العالم سيستريح من رؤوس الفساد والشر، وأن تفكيك رؤساء الشر ومحركيه سيحدث تأثيراً قياسيًّا على العالم أجمع. ولو بقيت من الحَبْث حثالة مختفية في جحر ما؛ فإن الأساس السليم الذي يُبنى

سيجعلهم مجرد استثناء، بقعة داكنة من الظلام لن تجهد الشموع في تبديدها، وتجمعًا تافهًا للأوساخ لن يصمد أمام زخه من رذاذ المطر.

هو صراع كصراع الليل والنهار، وبرغم أن الغلبة سجلال بينهما، إلا أن هذا يجعل العمل في النهار بجد أكبر لزامًا على من يسعى لئلا يهزمه الليل.

- «بعد أن يكتمل البناء، كيف ستبدو القرية يا ترى؟»

- «عندما يأتي الغد؛ سنرى!»

- «ستبدو غاية في الروعة إذن. لم نرَ من الغد إلا كل جميل، ولم تزد أقدار

الله أيامنا إلا جمالًا، وقلوبنا إلا ثباتًا وحياة وهناء.»

(البداية)

تمت بحمد الله.

فاطمة نصار.

بدأت: ٢٠٢٣/٩/٩م

انتهت: ٢٠٢٤/٢/٤م

